المجموعة غير الكاملة لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج



الأعمال غير الكاملة

لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج

الطبعة الأولى
٢٠٠٥

تصميم الغلاف: مصطفى جحا

هاتف ٤٨٢٥٨٧ ٠٠٩٦١٣
تلفاكس ٢٧٦١٩٥ ٠٠٩٦١١
Email: Dar-kanadil@hotmail.com

الأعمال غير الكاملة
لقصص وروايات

غالب حمزة أبو الفرج

المجلّد الثالث

قناديل
للتأليف والترجمة والنشر

لا شمس فوق المدينة

(روايــة)

ط ١ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

الفصل الأول

وتعود الأيام إلى سابق عهدها. . لا جديد يمكن أن تضيفه إلى الأسرار التي عاشت أكثر من عشرين عاماً تناقشها في هدوء بينها وبين نفسها في لحظات الصمت الفريدة هناك على مقربة من نافذة غرفتها الصغيرة المطلة من العمارة الثالثة من مجموعة لابرتير في مدينة نيس حيث كانت تقضي أيام حياتها في هدوء.

كان كل شيء يبدو أمام عينيها واضحاً كل الوضوح، فهي امرأة عاشت سنوات حياتها الأولى في كفاح مرير مع الفقر في دكان أبيها الصغيرة هناك في مدينة كان تلتقط عيناها صور الناس الذين يسهرون في الشارع بعد أن فقدوا القدرة على السهر في أي مكان من مرابع المدينة الصغيرة الساهرة طوال الليل.

الفقر والأمل. . شيئان خالجا نفسها وهي تمضي في رحلة العمر الصغيرة فقد كانت تعرف أنها من نوع يغاير الكثيرات فبمقدار ما وهبها الله من الجمال وهبها أيضاً قدرة كبيرة على الاحتمال.

في الغرفة الصغيرة التي عاشت فيها مع أمها وأبيها في إحدى حواري نيس وأزقتها الضيقة رأت عيناها النور، التقت مع الأمل في بداية طريقها في هذه الحياة ثم فقدت هذا الأمل دفعة واحدة بعد أن فقدت ابن الجيران الذي عرفته. . أبوها لم يعد قادراً على حمل بطيختين في يد واحدة. .

كان يبحث هو الآخر عن الحب، إذا ما وجده مع أمها نسي أمره فجأة لأن أمها تركته وعادت إلى أهلها ولقد منعه كبرياؤه من أن يجري خلفها فهو رغم حالة الفقر التي يعيشها صاحب كبرياء وأنفة. .

أما هي فقد استمرأت حياتها بين نضوب العاطفة وجنوح الخيال أشبه بأنثى لم تفقد كل شيء وإن كانت تبحث عن شيء ما ساور خيالها يوماً ثم ضاع حتى إذا ما هدأت نفسها تركتها تمضي نحو غايتها أيضاً في هدوء وبلا ضجة.. فكثيراً ما يفقد الإنسان شيئاً ما لكن لا يفقد القدرة أبداً على محاولة العثور عليه أو الوصول إليه، وهي من هذا النوع فأمها من الألزاس الألمانية عاشت طوال حياتها في زيورخ والتقت بأبيها في نيس، أعجبها شكله ووجهه وطوله وعينيه، عينيه اللتين أورثها إياهما لتكون في مواجهة الناس بشعرها الأسود الغزير وأنفها الدقيق وعينيها الجميلتين وابتسامتها الجميلة دائماً.

لم تكن تدري أنها ستفقد أمها وهكذا سريعاً فلقد فرت الأم بعد ولادتها بسنوات عشر.. ذهبت عائدة إلى بيت أسرتها بعد أن تركتها في عهدة أبيها، واستمرت أيامها تجري في هدوء ورتابة، تأخذ منها بقدر وكأنها على موعد مع أشياء جديدة مضيئة لا يمكن أن تخطر على بالها لأنها أكبر بكثير من كل أمانيها وأحلامها..

وتسلل إلى أذنيها صوت أبيها يحادثها ويقول لها:

ـ أعتقد أنني لن أستطيع أن أمضي في أداء رسالتي نحوك فأنا وأنت لم نخلق لأن نصل إلى أهدافنا هكذا دفعة واحدة، ولذلك تجدينني في حيرة كيف أقول لك ما اعتزمت أن أقوله.

نظرت سارة إلى أبيها نظرة حانية وكانت تعرف مقدار حنوه هو أيضاً عليها وقالت:

ـ قل يا أبي.. لا بأس من أن تقول ما تريد..

وأجابها أبوها:

ـ ستتوقفين عن التعلم، فأنت في سن تؤهلك لأن تعتمدي على نفسك وتعملي وهذا يكفي...

لم تسأله عن السبب وإنما هزت رأسها تؤمن على كلامه وتوافقه في أن تعمل معه في دكانه.

وفي اليوم التالي تبعته وهو يسير إلى الحافلة ليصل إلى دكانه مخترقاً مدينة

نيس الجميلة ومتجهاً في طريق كان حتى إذا ما وصلا إليها في الساعة الثامنة صباحاً نظرت إلى المكان نظرة سريعة ثم قالت تحدث نفسها: لا بأس ربما أجد ضالتي في هذه المدينة ما دمت قد فقدتها هناك...

قال لها أبوها يومها:

ـ أعرف بماذا تفكرين.

وضحكت هي في شيء من الهدوء وقالت:

ـ ربما.

قال بلا انفعال:

ـ أعرف أنك تحبينه لكنه لا يستحق هذا الحب...

ألقت سارة بنظرها إلى الأرض وقالت:

ـ لا بأس.

فتابع حديثه قائلاً:

ـ وأعرف أنك لم تفقدي الأمل في أن تجدي غيره.

ثم أنهى الحديث بإشارة من يده وانخرطا بعدها يمارسان العمل في هدوء ورتابة.. صورة لا تزال مرتسمة في أعماق أعماقها تريد أن تنطلق لكنها تحس بطرف خيوطها تكبلها لتمضي في تأملاتها صامتة تنظر إلى الأفق البعيد في هدوء ودعة وسكون..

ترى من أين تبدأ؟

منذ يوم مولدها، ربما كان يوم مولدها شيئاً لا يهم، وربما لأن تفاصيل مولدها أصغر من أن تأخذ ولو سطوراً قليلة من هذا الذي تحاول أن تخطه على الورق في هدأة هذا الليل وسكونه، وربما لأن حياة الناس الذين كانوا يعيشون من حولها يجعلها تبحث في تلافيف عقلها عن ذكريات صغيرة تضيفها إلى ذكرياتها وربما.. لكن الشيء الذي تعرفه جيداً هو هذا الخيال الجامح الذي ملأ جوانحها وعقلها وجعلها تبحث بين وجوه من تقابلهم على الشاطىء الصغير وفي الطريق بل وفي كل مكان عن صورة إنسان حلمت بأن تراه دون أن تراه. وربما لأنها لا تعرف حقائق الحياة التي تعيشها وتعرف من خلالها بأنها

جديرة بأن لا تنسى. وتلاحقت صور حياتها كشريط سينمائي يمر أمام ناظريها.

أمها التي تركت الغنى متمثلاً بأسرتها والتحقت بالفقر متمثلاً بأبيها. وأبوها الذي لا يملك من حطام هذه الدنيا سوى وجهه الوسيم وعينيه الآسرتين وجسمه الرياضي وابن الجيران، وريتا صديقة المدرسة وكارمن التي كانت على طرف نقيض مع ريتا، والجيران، وأفواج السياح تهل من مختلف أنحاء العالم وحياة الناس في البناية القديمة في الشارع الذي أصبح معلماً من معالم حياتها لطول ما التحقت به ففي نيس الحالمة يستوي الفقر والغنى.

الناس كلهم يحبون الحياة ويرضون التعايش معها على علاتها، كل واحد منهم يمضي لغايته، وهي الأخرى ألم تمضِ إلى غايتها في هدوء؟

الأحزان تطفو في الليل كما تطفو في النهار وتحتل أجزاء كثيرة من صدور الناس.. فالعالم على سعته يضيق دائماً بمن يحلم وأبوها من هذا النوع الحالم ويقول أبوها:

ـ تزوجنا عن حب حتى إذا جئت أنت افتقدنا الحب لفترة حاولت أمك فيها أن تهرب من حاضرها لتعاود حياتها من جديد. لكن وجودك كان عاملاً قوياً في أن تظل بجانبي حتى كبرت.

عيناها تلتصقان بوجه أبيها، ووجهها يتلون بألوان شتى والعرق يتصبب من جسدها وهي تتابع بأذنيها الحديث الذي طالما أرادت أن يقوله لها أبوها حتى إذا ما قال كل شيء تمنت أن لا تسمع شيئاً من هذا الذي يقول، فهي تعرف أمها وتعرف أكثر كم ضحت هذه المسكينة.. لقد تركت بيتها وأهلها وأخذت تجري وراء هذا الذي أصبح زوجها لتعيش على هامش الحياة راضية.

وهي تعرف أيضاً أن أمها عاشقة، عاشقة حتى عظمها لهذا الرجل الذي لم يستطع في يوم من الأيام أن يصنع شيئاً لأسرته سوى هذا الذي تعود عليه.

تقول أمها:

ـ غادرت زيورخ بعد تفكير طويل لم أكن أعلم أنني سأجد ما وجدت في نيس.

كان شعلة من النشاط عرفته في إحدى كفيتيريات مدينة زيورخ الهادئة،

شاب يحمل في قلبه أشياء كثيرة ولكنها افتقدت أيضاً أشياء كثيرة بعد اقترانها به..

وتقول أمها:

ـ لقد ضاعت قدماي في طريق الزواج فلم ألمح أية بادرة أستطيع بها أن أصنع شيئاً مع هذا الرجل..

كان مجرد رجل يحمل بصمات فقير، حاولت أن أصنع منه ما يجعلني أسعد بوجودي على مقربة منه، لكني لم أصل إلى شيء، ترى هل كنت مخطئة عندما أحببته؟

أمها كاترين تعرف كيف تخفي أحزانها في غلالة رقيقة من الشحوب رأتها على وجهها أكثر من مرة. وكاترين هذه سيدة أنيقة لم يفقدها الفقر هذه الأناقة حفرت بأظافرها في جدران الحياة لتصنع سعادتها مع رجلها بلا جدوى وهي تقول:

ـ نزوات الحب تقنع الإنسان بأشياء يظل يفتقدها إذا لم يجدها.

كانت تمضي الساعات وهي تصنع شيئاً في بيتها يمكن أن يضيف إلى عائد زوجها من دكانه ما يجعله قادراً على إدخال البهجة في نفسها ونفس طفلتها الصغيرة آنذاك والتي هي أنا.. ولكم دهشت وهي تستمع إلى صوت أمها يحادث أباها في صراحة.

ـ أعرف أني قد كذبت على نفسي يوم تعارفنا لكنها كذبة سوف أظل أذكرها طوال حياتي لأنني بنيت عليها مستقبلي ويوم عرفت أنني لا أستطيع الاستمرار في حياة الفقر كان زمن سعادتي معك قد انتهى.

وتمضي في تذكر أحداث الماضي بشيء من الحرية، هي التي استطاعت أن تنال حريتها بعضاً من الزمن حتى إذا ما استجمعت شتات فكرها أخذت صور أمها الواحدة تلو الأخرى تبدو وتظهر.

كم هي جميلة ورائعة هذه الأم التي استطاعت أن تصنع لطفولتها جسوراً كبيرة من الروعة لم تكن لتمشي فيها.

وكم هي أنانية عندما تجد نفسها في ضيق أو فاقة على حد تعبير أبيها. أما

سارة فتعتقد أن هذه الأم الشابة التي تركت بيت أبيها وعزها وانطلقت تحاول أن تبني بيتها الصغير في إدراك لمعاني العيش الذي أرادت لم تستطع أن تواصل الطريق حتى النهاية وهي ترتاح لهذا التفسير لأنها لا تريد أن تقسو على أمها.

وكانت تشعر بالحب الذي يربط بين أمها وجدتها التي شاءت أن تنأى بنفسها عن فتاتها بعد أن تركت بيتها جرياً وراء رجل. وهي لا تريد أن تقول كيف كانت جدتها تصف أباها لا لأنها عاجزة عن أن تقول ما سمعت وإنما لأنها تربأ بنفسها أن تلصق ما ألصقته جدتها به، هذا الذي تحبه لأنه أبوها، ولقد قالت لها أمها يوماً:

- لا تظني من كل ما أحدثك به عن أبيك وفقره وعدم قدرته على تأمين العيش الذي تعودت عليه أنني أريدك أن تضعي جداراً بينك وبينه فهو أبوك يا فتاتي، لكن حقائق الأمور يجب أن تقال بشيء من الصراحة والحقيقة المجردة.

ترى أويمكن أن تنسى كل هذا الذي عرفت أم ستظل تختزن كل هذا الذي قيل حتى إذا ما جاء اليوم الذي يصبح بإمكانها أن تضع النقاط على الحروف قالت كل شيء.

وهي اليوم شبه مقتنعة بأنها أعطت أمها ما أرادت ومنحت أباها ما أراد هو الآخر. وإن كانت لا تزال تحس بكثير من الألم فرغم كل محاولاتها في التماس العذر لأمها إلا أنها لم تستطع إلا أن تعترف بأن صورة أمها قد اهتزت عندما مضت عنها عائدة إلى الأسرة والبيت الذي رحلت إليه مخلفة وراءها وإلى الأبد زوجها وابنتها.

ويوم قيل لها بأن أمها ارتبطت برجل آخر لم تستطع أن تمنع دموعها من أن تنهمر لكن حزنها كان أكبر عندما تسلمت أول رسالة من أمها تقول فيها - ويا هول ما تقول فيها - إنها تريد من ابنتها أن تترك أباها لوحده وتتبعها إلى هناك حيث تعيش في زيورخ.

الفصل الثاني

الشقة الصغيرة خالية من كل الابتسامات. كل شيء فيها يوحي بالوحشة حتى أبوها الذي كان يتلقاها عندما يعود إلى البيت بالبسمة والكلمة الطيبة أصبح يخشى أن يتحدث معها بل وأصبح يتحاشى الكلام معها بحرية.

وهي تحس بآلام هذا الرجل الذي منحه الله كل شيء: الجمال، والصحة، والقوة والهدوء (وضنك العيش) ومع هذا ظل يواصل رحلة الحياة وكأن شيئاً لم يكن.

نيس في الشتاء أشبه بقرية صغيرة مهجورة يعرف البعض البعض الآخر. وهي تذكر كيف كان أبوها يأخذها لتمضي أيام الآحاد على مقربة من الشاطىء ترقب المعوقين وهم يجرون في صناديقهم التي ركبت على عجل.

لم تكن تدري عن السبب الذي جعل أبوها يحس بكثير من الراحة عندما يقضي بعض الوقت مع هؤلاء حتى إذا ما كبرت عرفت الحقيقة وشعرت وكأنه يحاول أن يرضي نفسه فهو أسعد حالاً بالكمال الجسماني الذي رزقه الله.

ولقد تفتحت عيناها على رؤية السيدة مارجريت تجرها أختها التي تكبرها بعشرين عاماً وقد غطت وجهها أنواع كثيرة من المساحيق.

كانت تستغرب أن تستعمل مارجريت كل هذا القدر من مساحيق التجميل فهي امرأة مقعدة لا حظ لها في الحياة لكنها وبعد أن استمعت لحديثها شعرت بأن الإنسان هو الإنسان والمرأة هي المرأة

ومهما كانت حالته يحلم ويعشق ويحب ويأمل أيضاً . .

ولقد قالت لها مارجريت:

ـ أود أن أهمس في أذنيك بشيء أحاول أن أنساه بلا جدوى يا سارة، لكن أود أن تصدقيني القول بأن تنسي كل هذا الذي سوف تسمعينه مني إذا وجدت نفسك غير قادرة على فعل شيء ما .

نظرت سارة إلى مارجريت المرأة المقعدة في استغراب وهي تفكر فيما عساه يكون هذا الشيء الذي اختارتها هي لتفضي به إليها ثم قالت:

ـ أعدك .

ومضت مارجريت صاحبة المقعد المتحرك تتحدث في صراحة أحست بعدها سارة بدوار يغلف رأسها الصغير ولم تعد تقوى على أن تقول شيئاً .

لقد جاء صوت مارجريت قوياً في أذنيها يقول:

ـ أتدرين؟ إنني رغبت في أن أقترن بأبيك وأورثك كل ثروتي .

إنني كما تعرفين أملك الكثير، ثلاث عمارات في كان وبيت في نيس ومصنع في مدينة نابولي الإيطالية ولكن أباك رفض فهل ترينه على حق؟

لم تقل سارة شيئاً وإنما حاولت أن ترتب حديث المرأة كله في ذهنها حتى إذا ما تأكدت من أنها كانت تعرف أباها وتعشقه منذ أن كانا طفلين لم تمانع بأن تعيد فتح الموضوع معه وتناقشه فيه وقالت:

ـ لا عليك ربما كان لأبي رأي في رفضه هذا . .

قاطعتها مارجريت لتقول:

ـ ألأني مقعدة؟ ولكن أولم يكن هو السبب؟

وأضافت المرأة إلى معلومات سارة عن أبيها معلومة جديدة.

فهذه المرأة التي قادت سيارتها بتهور بعد أن عاد أبو سارة إلى نيس مع أمها، وبعد أن عرفت عن اقترانه بها تعرضت لحادث سيارة كان السبب في هذا الذي أصابها .

لقد تدهورت سيارتها على مقربة من مدينة مونت كارلو وهي في طريقها

لزيارة صديقة لها تفضي إليها بحزنها وتعاستها وخيبة أملها في رجل أحبته من كل قلبها والتقطتها سيارة رجل حاول إنقاذها وهي بين الحياة والموت فحملها إلى أقرب مستشفى حتى إذا ما أمضت هناك عدة شهور خرجت منها على مقعد.

إذن فلأبيها دخل في عاهة هذه المسكينة.. هكذا وجدت سارة تحدث نفسها وهي مطرقة ببصرها إلى الأرض. وبعد برهة رفعت رأسها ونظرت مرة ثانية إلى مارجريت بوجه تمتلأ معالمه بالتعاطف مع هذه السيدة التي وبعد كل ما حدث لها لا تزال تحب أباها وتتأمل أن تتزوجه وقالت:

ـ لا عليك ربما استطعت أن أقنعه لا حباً في توريثك إياي مالك وإنما..

وصمتت ولم تكمل حديثها واحترمت مارجريت هي الأخرى صمتها وشدت على يدها دون أن تتكلم وإن كانت سارة ليست بحاجة إلى كلامها فقد كانت بالفعل قد فهمت الكثير..

في البيت تحدثت إلى أبيها حديثاً طويلاً عن مارجريت ورغبتها لكنها لم تستطع أن تتعرف على رأي هذا الصامت الذي بدا في ظل ضوء الغرفة أشبه بتمثال لا ينطق حتى إذا ما ملت صمته تطلعت إلى وجهه بِوَله واستسلام ثم خرجت من الغرفة لا تلوي على شيء.

الفصل الثالث

أشياء كثيرة يبحث عنها الإنسان أحياناً فلا يجدها وفجأة يجد كل شيء أمامه دونما تعب.

ربما لأن الحياة دأبت على أن تعطي بعض الناس في وقت الشدة وتمنع عن بعضهم أيضاً في وقت الشدة.

وهي تذكر حديثها مع مارجريت، تلك المرأة التي وسطتها في خطبة أبيها فلم توفق ولقد تلقت مارجريت كل كلامها عن محاولتها تلك في هدوء وأصبحت من بعدها تبتعد عن كل الأماكن التي كانت تحبها وترتادها . .

آلم ذلك سارة فسعت بقدميها إلى كل مكان تذهب إليه هذه المسكينة ووطدت صداقتها معها بعد أن طلبت منها أن لا يفسد صداقتهما رفض أبيها تنفيذ فكرة زواجه منها . .

مارجريت هذه هي التي منحتها جزءاً كبيراً من ثروتها قبل أن تموت لم تكن سارة تدري بأن المسكينة قد كتبت وصيتها قبل أن تحادثها بأمر زواجها من أبيها إلا بعد وفاتها.

عرفت سارة كل شيء من المحامي وترحمت عليها في سكون ثم أخذت من بعد ذلك طريقها في الحياة بأسلوب مغاير لما كانت عليه، أما أبوها فقد رفض أن يستفيد من أي قرش تركته مارجريت لها وكأنه قد حرم على نفسه نقودها تماماً كما حرم على نفسه الاقتران بها.

ولقد فكرت طويلاً في أن تسافر ويوم وصلت إلى زيورخ كان يوماً مشهوداً فلقد كان أول أيامها خارج نيس وكان ومونت كارلو . .

أمها في مواجهتها تربت على ظهرها وشعرها في هدوء بعد أن أودعت وجهها قبلة حانية.

سألت بعد ترحيب حار:

ـ ولماذا لم يأت معك؟

ـ لا يريد.

أجابت سارة باقتضاب ونظرت إلى وجه أمها الذي أحست به يتلون. هذه الأم لا تزال تحمل في قلبها الكثير من الحب لأبيها.

في الطريق إلى بيت الأسرة كانت أمها تتحدث إلى سائق سيارة الأجرة في هدوء حتى إذا ما ترجلت من السيارة قالت لها:

ـ سنراك الليلة فنحن نحتفل بمقدم سارة.

التفتت سارة إلى أمها متسائلة:

ـ من هي هذه المرأة؟

ـ أختي.

أجابت أم سارة بشيء من الهدوء والرزانة:

ـ ولكنها لم تسألك عني!

قالت سارة معقبة على جواب أمها:

ـ هي تعرف أنك قادمة.

أجابت الأم باقتضاب..

تابعت سارة كلامها قائلة بدهشة:

ـ كما أنها لم ترحب بي.

ـ لا عليك هي هكذا دائماً لا تحب الثرثرة.

ـ وهل حديثها معي هو شيء من الثرثرة؟

تساءلت سارة وهي تشعر بدهشة بالغة..

ـ لا.

قالت أمها ثم تابعت حديثها وهي تشيح بنظرها بعيداً عن ابنتها.

ـ ولكن هناك موضوع آخر سأحدثك عنه في حينه.

صمتت سارة على مضض وتابعت سيرها مع والدتها داخل بناية يبدو عليها شيء من الفخامة حتى إذا ما وصلت إلى الشقة التي تسكن فيها أمها التقت برجل طاعن في السن استقبلها بشيء من الترحاب وعرفت أنه جدها والد أمها التي أحبت.

أمها كانت تبدو سعيدة إلا أن شيئاً ما في أعماق أعماق أمها أخافها ففضلت الصمت ولكن موقف خالتها منها شغلها وجعلها تتساءل بينها وبين نفسها حتى إذا ما ازدادت رغبة في معرفة السبب أو ما يجلي الأمر ويوضحه سألت فجأة أمها التي قالت:

ـ لا عليك. لقد كنا مختلفتين منذ أن كنا صغيرتين حتى إذا ما كبرنا أصبح اختلافنا أكبر.. أوتصدقين بأنها هي الأخرى كانت تريده!.

ـ تريد من يا أمي؟ سألت سارة.

ـ أبوك.

أجابت الأم باقتضاب.

قالت سارة بدهشة:

ـ أتعنين أن خالتي كانت ترغب في أن تتزوجه؟

ـ نعم لكنه فضل أن يقترن بي بدلاً منها رغم أنها هي التي عرفته قبلي.

قالت الأم ذلك بصوت هامس وكأنها لا ترغب في أن تستعيد أحداثاً معينة من ماضي حياتها تسبب لها الكثير من الحزن والألم.

وتتواثب الذكريات في مخيلة سارة وتطل صور حياتها من بين عينيها الصورة تلو الصورة تستعرضها بهدوء كأنها تتعجل الوصول إلى محطة معينة في حياتها.. تقول سارة:

ـ في الليل أمضيت بعض الوقت أفكر في كل هذا الذي قالته أمي.. أفكر بخالتي التي تعمل كسائقة سيارة أجرة بالنهار ومغنية في ملهى بالليل رغم أن أبيها يملك الكثير.

عمل خالتي أعطاني دفعة لأن أفكر بأنني أنا الأخرى يجب علي أن أحاول

البحث عن عمل رغم أني بعد أن ورثت من مارجريت ما ورثت أصبحت في غير حاجة إلى العمل.

عرضت الأمر على أمي فقالت:

ـ أفضل أولاً أن تحاولي استدراك ما فاتك من العلم بل هذه هي الطريقة المثلى التي تستطيعين بها أن تصلي إلى العمل الذي يناسبك...

الأيام التي أمضيتها في زيورخ منحتني إحساساً قوياً بالحرية والقدرة على التفكير لكن أهم ما كان يجول في رأسي في تلك الفترة هو أنني لم أنسَ خلال إقامتي القصيرة هناك أبي الذي يعيش في نيس فقد كان لأبي بصمات واضحة على نفوس كل أولئك الذين عرفوه يوم جاء إلى هذه المدينة..

وفي اليوم الذي قررت فيه العودة إلى مدينة نيس قدمت لي خالتي زجاجة عطر أنيقة تقبلتها منها شاكرة لكن خالتي ضحكت وهي تقول:

ـ احفظيها فهي أجل هدية تلقيتها من إنسان أحببته ولا أزال أحبه.

نظرت إلى وجهها وقلت:

ـ أتعنين أبي؟.

قالت:

ـ نعم.

ثم واصلت حديثها ضاحكة:

ـ لكن أمك خطفته مني ولم تعرف كيف تحافظ عليه.

صمتت بعض الشيء وفكرت في كل هذا الذي تقوله الخالة وأحسست بأن أبي كان ولا يزال إنساناً مهماً ليس بالنسبة لي فحسب وإنما بالنسبة لأمي وخالتي ومارجريت ومن يدري؟ فقد يكون هناك بقية، ولعل هذه البقية تأتي فأعرفها فيما بعد..

الفصل الرابع

وتدور الأيام. أبي الذي أعرفه لم يعد راغباً في العمل في دكانه الصغير ومع هذا يرفض أن يستجيب لي بأن يركن إلى الهدوء. لقد منحتني الحياة أشياء جميلة كثيرة كان هو السبب فيها ومع هذا يرفض مساعدتي التي كنت أمدها إليه بدافع من حبي الشديد له.

أما أنا فقد أصبحت أكثر جمالاً وفهماً وإدراكاً لمعاني الحياة من حولي، منحتني المادة كثيراً من الظلال أفيء إليها عند الحاجة واستفدت كثيراً من وقتي فدرست أكثر من لغة وسافرت إلى أكثر من مدينة وقرية.

وازداد شعوري بأنني في أمس الحاجة إلى إنسان يقدر مواهبي التي نضجت بعد أن أصبح الرسم هوايتي المفضلة.

أقمت أول معرض من معارضي في فندق الميريديان في نيس. كان معرضاً دفعت فيه بكل لوحاتي الخمسين والتي رسمتها في أوقات فراغي ولقد هالني الإقبال على المعرض وشراء معظم لوحاته لدرجة أذهلتني وجعلتني أكاد أطير من الفرح رغم أنني في غير حاجة إلى النقود.

أبي كان يتابع نشاطي دون تدخل، وفي يوم من الأيام فاجأني بقوله إنه ينوي النزوح إلى سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة الأمريكية والبقاء هناك مع أخيه الذي يكبره والذي اختار أن ينزح إلى تلك البلاد منذ أن كنت طفلة صغيرة.

نظرت إلى وجه أبي وقلت:

ـ وتتركني وحيدة؟

قال وظلال من البسمة تطوف بوجهه:

ـ لا بل سأكون أقرب إليك مما تظنين ومع هذا تعالي نتجاذب أطراف الحديث قليلاً.

لقد شببت عن الطوق وأصبحت أنثى عاقلة ناضجة تملك من أدوات الحياة ما يجعلها تعايش الحياة كأفضل ما تريد، بالإضافة إلى أنك رسامة ماهرة وتملكين من المال ما يمكن أن يسعدك.

حاولت كثيراً أن أثنيه عن رغبته فلم أستطع اخترت أن أتحدث إليه عن كل ما يمكن أن يبقيه هنا إلى جانبي.. حدثته، عن خالتي وما إن ذكرت له ذلك حتى رأيته ينظر إلي نظرة جانبية شعرت من خلالها وكأنه يؤنبني كطفلة صغيرة.

ولم تمض سوى أسابيع حتى تركني أبي بمفردي أعايش الحياة بأسلوبي الجديد.

لم تحيرني الحرية التي منحني إياها أبي بسفره ولم تغير من أسلوب حياتي شيئاً، لقد مضيت أعيش على وتيرتي السابقة بين بيتي الجديد ومرسمي. نسيت أن أقول إنه أصبح لي مرسم يزوره الكثيرون والكثيرات.

وفي معرض رسومي الذي أقمته في فندق الكونتننتال في مدينة كان قابلت فريداً هذا الذي أصبح زوجي وأصبحت أحمل اسمه.

في وجهه خشونة الصحراء وجمالها وفي عينيه نسمات الصيف الدافئة وفي حديثه لكنة أمريكية مميزة.

يتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة ويهتم بأناقته لدرجة شدتني إليه فأنا كما تعرفون فرنسية أعرف معنى أن يكون الرجل أنيقاً.

مر فريد بعينيه على بعض الصور واختار ركناً كان فيه صورة لطفلة صغيرة تطعم مجموعة من الحمام أعجب بها واشتراها ودفع فيها الكثير لكني رأيت أن أجامله فأعدت إليه نقوده وقلت:

ـ اعتبرها هدية مني إليك.

قال:

ـ ولكنك لا تعرفينني.

قلت:

ـ ربما يكون ما قلته صحيحاً وربما لا.

قال:

ـ كيف؟

قلت:

ـ يكفيني أنك قادم من الصحراء..

سأل بدهشة.

ـ وكيف عرفت؟

أجبت بهدوء:

ـ ملامح وجهك، أسلوب حديثك، رجولتك، كل شيء فيك يوحي بأنك قادم من الصحراء...

ضحك من كل قلبه وقال:

ـ إذن أنت عالمة في الأجناس يا سيدتي الصغيرة.

قلت:

ـ لا لكننا نحن الذين نعشق الرسم نعرف من خلال ما نرسم حقائق الأمور التي قد يجهلها الآخرون...

ـ وفيلسوفة أيضاً؟

قال فريد وابتسامة كبيرة تزين معالم وجهه.

قلت له وكأني أحدث نفسي:

ـ أتمنى أن أكون كذلك فأنا يا سيدي امرأة فاتها قطار العلم.

ـ ولكنك تملكين نفساً صافية ووجهاً جميلاً ونظرة صائبة ودقيقة.

قالها بصوت يوحي بالصدق وبأنه يعني كل كلمة يقولها..

ومضيت أتحدث إلى فريد وكأنني أعرفه منذ طفولتي وعدت إلى ذاكرتي أفتش فيها عن صورة لهذا القادم من الصحراء فلم أجد.. ومع هذا رحبت وهو يدعوني إلى العشاء في مطعم قريب من فندق الكونتيننتال وأجبت طلبه على

الفور ومضى بعد أن أحسست بوجيف في قلبي وشعرت بأنني قد أصبحت معلقة بأهداب هذه الرجولة الناضجة التي أفتقدها في الكثيرين من أبناء جلدتي. . .

اتفقنا على موعد اللقاء بالطبع وذهبت بعد أن هيأت نفسي على (صنجة عشرة) كما أصبح يصفني فريد فيما بعد وكلما رآني بكامل أناقتي فهذه الكلمة كما تعرفون لا وجود لها في قاموس اللغة الفرنسية. .

وهناك على مقربة من فندق الكونتيننتال وعلى الرصيف حيث انتشرت طاولات المطعم الذي اتفقنا على اللقاء فيه وجدته في انتظاري. كان جالساً عند إحدى تلك الطاولات ينظر إلى المارة بإمعان حتى إذا ما رآني انتفض واقفاً واقترب مني يشد على يدي ويهمس في أذني باسماً:

ـ لقد شممت عطرك قبل أن أراك.

ضحكت وسألته مستأنسة:

ـ أكل رجال الصحراء مثلك يجيدون الغزل؟.

قال ضاحكاً:

ـ ولكنني أعني ما أقول فأنا إنسان لا أجيد الغزل عركت الحياة طفولتي وشبابي حتى أصبحت على ما أنا عليه.

وأمضيت عشاء رائعاً مع فريد أكملناه بسهرة في مونت كارلو التي بدت في عيني أجمل مما أعرفها. . عدت بعد ذلك إلى بيتي في نيس وبعد أن ودعته على أمل اللقاء مرة ثانية. . وتلاقينا ولا أدري ماذا أقول؟

لقد اكتشفت أنني عاشقة لهذا الرجل وأحسست بأنه يميل إلي أشعرته باحترامي لنفسي وأفهمته بأنني لست امرأة سهلة الصيد وعند نهاية هذا اللقاء كنا قد اتفقنا على لقاء آخر وهكذا كان.

وفي هذا اللقاء الثالث شعرت بأن فريداً قد أصبح يميل إلي أكثر وأكثر. لم أحاول أن أسأله عن حياته بل تركت الأمر له يفضي بما يريد أن يفضي إلي به.

وعرفت أن فريداً مثلي عاش طفولته في هدوء لم يولد وفي فمه ملعقة من

الذهب وإنما انتزع حقه في هذه الحياة انتزاعاً.

ربما تكون الصدفة قد لعبت الدور الأول في حياته لكنه كان الدور الأول والأخير، فلقد استطاع أن يتصرف بعد ذلك كرجل، يمضي في طريقه لا يلوي على شيء ويكوّن ثروته التي لا أريد أن أتحدث عنها هكذا لسبب أو دونما سبب ولكن يكفي أن أقول إنه كان قادراً على اقتناص الحياة وتطويعها لتصبح طريقه فيها سالكة ومفيدة..

الفصل الخامس

الناس في الصحراء نسيج يختلف عن نسيج كثير من سكان نيس وباريس وكان وأوروبا مجتمعة. لهم من التقاليد أشياء جميلة جديرة بأن يتأملها المرء ويتمعن فيها، فالرجل مثلاً ينظر إلى المرأة وكأنه فارس يود أن يقدم لفتاته كل ما تريد..

تعددت اللقاءات بيني وبين فريد وعرفت بأنه بدأ حياته موظفاً لعبت الظروف دورها في منحه اللبنات الأولى التي استطاع بعدها أن يشيد صرح حياته المادي.

كنت أضحك من كل قلبي وهو يحدثني كيف تسلم أول شيك في حياته بمبلغ يوازي مليون فرنك فرنسي ودون أن يؤدّي عملاً ما.

ستظنون أنني مجنونة لأقول مثل هذا الكلام ولكنها الحقيقة فالطفرة التي شهدتها بلاده المملكة العربية السعودية جعلت بإمكان الكثيرين أن يصلوا إلى ما يريدون.

قال لي فريد وهو يضحك:

ـ لو لم أقف بسيارتي قليلاً في الصحراء المترامية وأمضي في البحث عن مكان أقضي فيه حاجتي لبقيت موظفاً صغير الشأن وربما إلى يومنا هذا.

لقد شاءت الظروف أن يواجهني في موقفي ذاك من البعيد ثلاثة رجال حاولت أن أبتعد عن طريقهم لكنهم كانوا يرفضون ذلك مني ويصرون على متابعتي واللحاق بي حتى إذا ما أصبحوا أمامي سألني أحدهم:

ـ لعلك جئت لشراء هذه الأرض؟

وفهمت سريعاً ما يعنيه الرجل فقلت بثبات:

ـ نعم.

فقد كنت واثقاً من أن شيئاً ما سأخرج به من هذا الحديث.

قال الرجل:

ـ شيك بربع مليون ريال وتبعد عن الطريق.

قلت:

ـ آسف.

رفع الرجل الرقم حتى وصل إلى نصف مليون ريال فقبلت وركبت سيارتي في أثرهم حتى إذا ما وصلنا إلى مكتبهم تسلمت الشيك ومضيت إلى بيتي وأنا غير مصدق، فأكثر من مليون فرنك فرنسي في جيبي.

طار النوم من عيني وأمضيت الليل ساهراً أنظر إلى الشيك مرة وإلى ساعتي مرة أخرى حتى إذا ما جاء موعد بدء العمل في البنك أخذت سيارتي ومضيت إلى البنك لأصرف الشيك الذي في جيبي. أوقفت سيارتي في شارع قريب ومضيت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى فلربما اكتشف الرجال اللعبة وأبلغوا البنك بإيقاف صرف الشيك.

مددت يدي للصراف وظللت أنتظر إلى أن تسلمت المبلغ وأصبح في حوزتي فأخذت بعدها طريقي إلى مكتب الموظف المسؤول وبدأت في فتح حساب لي أنا الذي لم تعرف قدماه إلى تلك اللحظة طريق البنوك.

وبدأت أعمل برأس المال هذا أشتري وأبيع الأراضي والعقارات وأنا في موقع عملي الوظيفي ثم تركته لأتوسع في أعمالي وأبدأ معها حياتي الجديدة لتبلغ ثروتي بعد عمل وكفاح ملايين الريالات.

قلت:

ـ ولكن الملايين التي تملكها لا تهمني.

قال:

ـ أعرف ذلك بل وأحسه.

واتفقنا يومها على الزواج.

وفي باريس العاصمة تم زواجي من فريد عبد الصمد، زوجي القادم من الصحراء. أمضيت بعد ذلك برفقته أسبوع عسل لا يمكن أن أنساه ثم عدت لأسكن في الشقة التي يمتلكها زوجي، تلك الشقة التي اكتشفت أنه كتبها فيما بعد باسمي.. رفضت عندما اكتشفت ذلك فقد كنت أملك ما يكفيني وزيادة إلا أن فريداً أصر ولم يتراجع عما فعله.

ثم سافر فريد إلى بلاده وغاب فيها أكثر من شهور ثلاثة كنت أسمع خلالها يومياً صوته يأتيني عبر الهاتف حتى إذا ما عاد إلي وجد أكثر من صورة تمثله في أكثر من مكان في الشقة فلقد اخترت لهذه الصور مكانها في عشنا الهادىء الصغير.

أتصدقون بأنني لم أسأل فريداً عما إذا كان قد تزوج امرأة قبلي.

لا أدري ما السبب بل لقد فكرت كثيراً في أن أسأله لكني كنت أتردد في كل مرة وأتراجع حتى أهملت ذلك وأسقطته من حسابي ومضيت أعيش مع فريد حياة جميلة فهو يمضي بضعة أيام معي في نيس أو في لندن أو جنيف ويمضي أكثر أيامه في مدينة جدة التي تمتد بجانب البحر.. يشرف على أعماله.

واكتفيت أنا في غيابه بأن أظل دائماً في مرسمي أواصل رسم ما يعن على بالي من موضوعات حتى تجمعت لدي لوحات كثيرة سألته بعدها عما إذا كان يوافق على أن أقوم بعرض لوحاتي فلم يمانع ولكنه قال ضاحكاً:

ـ آمل أن لا تهدي إحدى لوحاتك إلى أحد كما فعلت معي..

نظرت إليه بشيء من الخوف وقلت بعصبية:

ـ وتقولها؟

قال:

ـ لا عليك أردت أن أمازحك قليلاً فدعي عنك هذا الخوف فأنت موضع ثقتي وحبي.

وأقمت المعرض وكان فريد بجانبي هذه المرة ولأول مرة استطعت أن

أقدم في معرضي صوراً لأماكن لم أرها على الطبيعة كنت أرى كل شيء بعين هذا القادم من الصحراء.

لقد شاركني فريد في رسم بعض هذه اللوحات عن طريق ما كان يقوله لي عن أرضه وبلاده. إنه يحب أرضه وبلاده بشكل كبير جعلني أزداد ثقة به وبمبادئه واطمئناناً على نفسي ومستقبلي معه. إن الذين يحبون أوطانهم يستحقون فعلاً هذه الحياة، يستحقونها عن جدارة لأنهم أوفياء والوفاء صفة تلتصق بالقادرين فقط.

الفصل السادس

في بروكسل العاصمة البلجيكية أمضيت وفريد بعضاً من الوقت شعرت خلاله بأنني قد أصبحت امرأة جديدة ولقد كانت أطول مدة أمضيناها سوياً.

هو في أداء عمله واتصالاته بالشركات التي تساهم معه في أعمال المقاولات التي ينفذها في بلاده وأنا في انتظاره بالفندق. كنت أعزف عن الخروج بمفردي في تلك المدينة لا لسبب وإنما لمجرد شعوري بأن فريداً معي يملأ حياتي ويغدق على روحي ونفسي مزيداً من الاطمئنان..

لا أدري ماذا أصابني. أصبحت امرأة تحلم دائماً بأن تتكىء على كتف رجلها، تضع بين يديه جميع أمورها مكتفية بأن تنظر إلى قسمات وجهه وتستمع إلى تدفق الكلمات وهي تخرج من بين شفتيه.

باختصار شديد أصبحت امرأة أخرى غير تلك التي عرفت. بدأت أهتم كثيراً بانتقاء الألوان التي يحبها فريد في ملابسي بل وأتطلع إلى الأشياء ذاتها التي يريدها زوجي. حتى كرة القدم هذه الرياضة التي لم أكن أحبها أو أهتم بها قبل معرفتي بفريد أصبحت أراها بصورة جديدة لكثرة ما يتحدث عنها فريد وأصبح من لزوميات حياتنا أن نبقى بضعة ساعات أمام جهاز التلفزيون نتطلع إلى مباراة دولية تبث من هنا أو هناك.

ولكم كنت سعيدة وأنا أحضر بشخصي مباراة بين فريقي بوقيلوني الإيطالي وليفربول الإنجليزي على ملعب هليسيل، هذا الملعب الذي اكتظ عن آخره بالمئات من عشاق الكرة الإيطاليين

والإنجليز والفرنسيين والبلجيكيين وغيرهم، ولقد أحسست يومها بأنني سعيدة لسعادة فريد الذي أخرجني من الفندق قبل موعد المباراة بمدة طويلة لنحتل أماكننا في استاد الملعب إلا أنه لم يمضِ زمن قصير على بدء المباراة حتى أخذ الهرج والمرج يبدأ وحصل ما حصل في هذا الملعب والذي تناقلته يومها وسائل الإعلام في كل البلاد. اندفع الحاضرون كل يحاول النجاة بنفسه، أما أنا فقد أحسست بيد وهي تمسك بكتفي في قوة شعرت بعدها أنني في حماية رجل.

لا أدري كيف خرجنا من الملعب ولكن كل الذي أدريه هو أنني ورغم كل هذا الذي تعرضت له أحسست بأنني سعيدة وسعيدة جداً.

نظرت إلى وجه فريد بوله وقلت له:

ـ لولاك لما نجوت وخرجت سالمة من الملعب.

وبابتسامة صغيرة قال:

ـ ولولاي أيضاً لم تكوني لتذهبي إلى الملعب.

كان يحاول أن يقلل من قيمة ما فعله مع زوجته التي هي أنا وأن يعتبره أمراً عادياً يفعله كل زوج مع زوجته فلم أطل الحديث حول هذا الموضوع على الرغم من أنني كنت أراه من زاوية أنه يدلل على مقدار حبه لي وخوفه علي وتضحيته من أجلي. ومضينا بعد ذلك نتحدث عن أشياء أخرى منها ما يتعلق ببلاده.

ولقد عرفت الكثير من عادات أهله وتقاليدهم وشعرت بأنني أتوق إلى زيارة هذه الأرض لأرى كل هذه الحقائق التي تجمعت في ذاكرتي عن الأرض والناس والحياة والمجتمع هناك.

كان فريد يكره أن يشرب المشروبات الروحية فكرهت أنا جميع أنواعها وكان لا يطيق أن يرى لحم الخنزير على مائدته في البيت أو في المطاعم التي نجوبها فحرمت على نفسي أكله وبدأت شيئاً فشيئاً أتلمس ما يحب ويكره لأبتعد عما يكره وأتقرب إلى ما يحب.

وفي يوم من أيام إقامتنا في بروكسيل قلت له:

ـ أريدك أن تتعرف إلى أمي فما رأيك؟

أمي التي تعرفون ففريد يعرف كل شيء عن أبي وأمي وحتى خالتي مارجريت.

وفي اليوم التالي جاء فريد وهو يقول:

ـ لقد حجزت لي ولك مقعدين في الطائرة التي تغادر غداً إلى زيورخ.

لم أستطع أن أجيبه سوى بدمعة فرح تدحرجت من عيني وسالت على خدي. كنت أظن أنه سوف ينسى هذه الرغبة التي لم أحاول أن ألح في طلبها.

وحجزنا غرفتنا في فندق الهلتون القريب من المطار وتحدثت مع أمي على الهاتف لأجد صوتها مملوءاً بالحب والحنان.

قالت لي إنها مشوقة لرؤيتي ورؤية زوجي فريد، وفي اليوم التالي غادرنا بروكسيل إلى زيورخ. أمضيت ساعات الطيران وأنا صامتة بينما كانت يدي تداعب يد فريد في حنان وحب حتى إذا ما وصلنا إلى الفندق سألني:

ـ بماذا كنت تفكرين؟

ـ لا شيء.

قلتها وأنا غير صادقة فقد كنت أفكر بأمي وخالتي وعاداتنا نحن الأوروبيين وتقاليدنا وعادات أهله وأسرته وتقاليدهم وكنت أخرج في كل مرة من المقارنة وأنا خائفة، خائفة من أن أفقد فريداً هذا الذي أحببت.

وفي الصباح وفي بلد أمي سألت فريداً بلهفة:

ـ أتحبني؟

نظر إلى وجهي وأمسك بيدي وقال وهو يبتسم:

ـ وهل لديك شك في ذلك؟

أخذتنا سيارة أجرة إلى شارع بيها نهوف حيث يقع مسكن أمي في طريق جانبي وكانت المناظر وإن بدأت مألوفة إليَّ إلا أنني كنت أراها أزهى وأجمل ربما لأني أراها في هذه المرة برفقة ذلك الإنسان الذي أضاء حياتي كلها وأحالها نوراً وأنساً وبهجة، ووصلنا إلى شقة أمي ودققت جرس الباب فانفتح ليطالعني وجه أمي، اندفعت أقبلها في وله لبضع ثوانٍ ثم قدمت فريداً إليها

ودخلنا جميعاً إلى الصالون.

أخذت أمي تتحدث معي طويلاً حتى إذا ما صمتت قال لي فريد:

ـ إنها تشبهك تماماً.

سمعت أمي الكلمة فابتسمت وقالت مداعبة:

ـ ولكن قل لي من فينا الأجمل؟ حتماً سارة أليس كذلك؟

وأجاب فريد على الفور:

ـ بل أنت يا سيدتي لأنك أهديتني أجمل زهرة فواحة.

أعجبت أمي بإجابته وقالت:

ـ أراكم أنتم السعوديون أقدر منا على الإطراء يا سيدي.

رد فريد في هدوء:

ـ لا يا سيدتي فنحن من أرض تنطق بما تحس وتتحدث بما تؤمن وتتكلم بما تشعر.

وأحسست من تلك اللحظة أن أمي قد أخذت تميل كل الميل إلى زوجي فريد فشعرت بالسعادة.

وأمضينا يوماً طويلاً مع أمي تناولنا خلاله طعام الغذاء في أحد المطاعم الكبيرة في زيورخ ثم اتبعناه بجلسة شاي في فندقنا حتى إذا جاء الليل سهرنا في الملهى التي تغني فيه خالتي، ولقد خرجت بعد تلك السهرة بانطباع هو بأن فريداً لم يكن مقتنعاً بأن تكون خالتي مغنية.

لم أناقشه في الأمر فهو يظن بأن لديها من المال ما يكفيها شر أن تغني للناس.

وأخذت أفكر في نظرات خالتي الغريبة لزوجي لكنني لم أصل إلى شيء من تفكيري هذا فسألت فريداً عله يعرف فقال وهو يبتسم:

ـ ربما كان هناك أكثر من سبب فهي كما تعرفين كانت تأمل أن تكوني أنت ابنتها من أبيك وأنا أكون أنا زوج ابنتها فالمرأة يا زوجتي العزيزة قد تنسى أي شيء ولا تنسى مطلقاً الرجل الذي اختطفته أخرى من يديها حتى وإن كانت هذه الأخرى هي أختها التي تعيش معها تحت سقف واحد.

الفصل السابع

كل شيء يسير في حياتي وفق ما أصبو وأرغب. إلا أن شعوري بالفراغ يزداد كلما غاب فريد عن بيتنا. لم أظن بأنني سأصل إلى هذا الحد من الشعور تجاه هذا الإنسان الذي أحببته لدرجة جعلتني أميل إلى التقاط الكلمات العربية التي كتبها لي لأحفظها بشكل سريع.

يقولون إن المرأة أقدر على الانضواء تحت كنف من تحب ولهذا لم يكن غريباً أن أبدأ رحلتي مع الفهم والإدراك لأحوال الناس في الصحراء. حتى مكتبتي الصغيرة أصبحت تنوء بالعديد من الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن الجزيرة العربية، تاريخها، ظروفها، وضعها الاقتصادي والاجتماعي حتى الأغاني التي تركها فريد في عشنا أخذت أسمعها وأردد كلماتها على قدر ما أستطيع ولقد كانت بعض صديقاتي يضحكن في أكمامهن عندما أحاول وأنا معهن الاستماع إلى أغاني المطربين والمطربات السعوديات بدلاً من شارل أزنافور وماثيو وبيان.

حديث فريد هو الآخر كان واضحاً ورائعاً وكذلك فقد كان رائعاً وصبوراً وهو يستمع إليَّ أحدثه عن نفسي وعن حياتي وهو لكثرة ما استمع لأحاديثي أصبح يعرف كل صغيرة وكبيرة في حياتي وإن لم أستطع أن أعرف أنا كل دقائق حياته فأنا لم أسأله شيئاً بل كنت أترك له الحرية في أن يتحدث إليَّ بما يريد وهو بطبعه قليل الحديث عن نفسه.

قال لي فريد أثناء إحدى أحاديثه التلفونية:

ـ هيئي نفسك فنحن سوف نسافر إلى سان فرانسيسكو ثم نعرج

بعد ذلك على لوس أنجلوس فلقد عزمت على شراء بيت لأخي الذي يدرس هناك.

لم يتوقف حديثه وإنما تابع كلامه بكلمات جاءت أشبه بموسيقى ناعمة دغدغت حواسي كلها، قال:

ـ وهي فرصة تستطيعين من خلالها أن تري والدك في سان فرانسيسكو.

كنت قد نسيت أبي طوال هذه المدة. ربما لأنني التقيت بفريد واطمأنت نفسي إليه.. بل وأحببته وشعرت بأن العالم كله ملك لي بوجوده معي وربما لأنني عرفت مؤخراً بأن أبي قد تزوج ولم أسأل بالطبع ممن تزوج لأن هذا الزواج لم يكن يعنيني بقليل أو كثير.

اتصلت بأبي بعد ذلك مباشرة وأعلمته بأنني وفريد في طريقنا إليه وأحسست برعشة لذيذة تخالط صوته وأنا أعرف هذه الرعشة التي كنت أحسها في نبرات صوته عندما يكون سعيداً منذ أن كنت طفلة صغيرة.

وأمضيت أيامي في ترتيب ما يمكن أن نحمله أنا وفريد في رحلتنا هذه حتى إذا ما جاء فريد بعد بضعة أيام استقبلته في المطار في سيارة صغيرة بي. أم. دبليو كنت قد اشتريتها من مالي. عندما خرجنا إلى الطريق أسلمته مفتاح السيارة الذي اخترت له سلسلة ذهبية تحمل صورتنا معاً.

نظر فريد إلى السيارة وقال:

ـ شكراً وإن كنت أرى نفسي مقصراً في حقك فأنا الرجل وكانت هذه السيارة يجب أن تكون هديتي أنا إليك.

هززت رأسي وأنا أداعب يده وقلت:

ـ لا بأس. ليس هناك ما يمنع أن تقدم الزوجة لزوجها هدية ثم أنسيت بأنك قد أغرقتني بالعديد من المجوهرات التي أخاف أن أستعملها فأنت تعرف عيون اللصوص التي تحيط بالإنسان هنا في أوروبا.

نظر إلي شاكراً ومقتنعاً بكلماتي ثم تصنع الجد فجأة وهتف:

ـ لقد أضعت علي مفاجأتي..

سألت بلهفة:

ـ كنت؟

قال:

ـ سأقول لك ذلك في عشنا.

وأخذ طريقه إلى مقود السيارة وتهادت بنا السيارة في طريقنا إلى البيت حتى إذا ما وصلنا ووضعت المفتاح في باب الشقة أفتحه قفز فريد إلى الداخل بخفة وأمسك بحقيبة يده وأدار أرقامها يفتحها ثم يخرج علبة مجوهرات ليسلمني الهدية التي يحملها إلي، ولقد كانت الهدية خاتماً من الماس كبيراً وغالياً لكنني في تلك اللحظة أحسست بأنه عندي أغلى شيء في الوجود.

ثم فتح علبة أخرى وقال:

ـ هذه نسخة عادية (تقليد) من الخاتم رأيت أن أحضرها معي لأنني أعرف أنك لا تحبين الظهور في الأماكن العامة بمجوهراتك إما خوفاً من اللصوص أو خوفاً من أن يضيع بريقها أمام عيون الآخرين ونظراتهم.

قبلت وجهه وخده وعينيه وشكرته من أعماقي ورجوته أن يكف عن الشراء فقد أصبح عندي ما يجعلني في غنى عن مزيد من الشراء.

ضحك وقال:

ـ لا بأس خبئيها لوقت الحاجة.

علقت على كلامه قائلة:

ـ لا يمكن أن أحتاج وأنا معك.

وأمضينا أياماً ثلاثة من أجمل أيام حياتي ثم سافرنا إلى باريس على متن طائرة من طائرات الخطوط السعودية فقد كان فريد يصر على ركوب هذه الطائرات في تنقلاته كلما وجد إلى ذلك سبيلاً..

سألته يوماً عن السبب فقال لي:

ـ لأن على ظهرها كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وفي الحقيقة لم أكن بحاجة لأن أسأل فقد كنت أعرف أن قلبه عامر

بالإيمان وبحب وطنه وبكل ما يمت إلى ذلك بصلة . .

ومن باريس طرنا إلى سان فرانسيسكو ووصلنا إليها مع أضواء الخيوط الأولى من الفجر التي أخذت تتسلل إلى وجهي عبر نافذة الطائرة.

وفي فندق حياة ريجنسي القابع في أمبار كاديرو سنتر تحدثت إلى أبي وقلت له بأنني وفريد قد وصلنا إلى سان فرانسيسكو واتفقنا على اللقاء وكانت مفاجأة، فقد جاء أبي ومعه فتاة في مثل عمري سمراء شعرها طويل وترتدي بنطالاً من الجينز. ظننت في بادىء الأمر أنها إحدى بنات عمي الذي سبق أبي بالهجرة إلى هذه الديار حتى قال لي أبي أخيراً وفي صوته الهادىء:

ـ إنها مكسيكية المولد أمريكية الجنسية.

ـ إذن هي ليست ابنة عمي.

قلت له حائرة . .

ضحك أبي وقالها دفعة واحدة:

ـ ريتا زوجتي.

نظرت إلى وجه أبي ووجهها مستغربة وكأني لم أستوعب حقيقة ما قاله أبي ولكنها كانت تبدو لي سعيدة. ومضت تتحدث إلي في لكنتها الأمريكية قائلة ببساطة شديدة:

ـ لقد اخترته أنا ولم يخترني هو.

نقلت عينيّ بينها وبين أبي فرأيت قسمات وجهه التي تعلوها بعض التجاعيد مشرقة تؤكد كل كلمة تقولها الفتاة، والتفت أبي إلي وقال:

ـ ابنتي مهرة رائعة.

وأجابه فريد فوراً:

ـ وأنت حصان أصيل فالحصان الأصيل هو الذي ينجب مهرة رائعة كفتاتي هذه.

ضحكنا جميعاً للمجاملة ثم بدأت أنا وأبي حديثاً جانبياً طويلاً لم يحاول فريد أن يقطعه بأية كلمة بل ظل يسمع ويسمع إلى أن مللت أنا الكلام ورجوته أن يقول شيئاً . .

ضحك فريد وقال:

ـ الكلام من حق الفارسة. . .

وأشار بيده إلى زوجة أبي التي بدأت هي الأخرى تتحدث حديثاً طويلاً عن أبي كله حب وإعجاب وكأن أبي لا يزال في عمرنا وليس رجلاً تجاوز الخمسين من عمره.

الفصل الثامن

في الأسبوع الذي قضيته في سان فرانسيسكو اكتشفت ولأول مرة أنني بالإضافة إلى حبي لفريد فأنا أغار عليه كثيراً وكثيراً جداً.

لم أكن أظن أن الغيرة يمكن أن تدخل إلى قلبي حتى وجدته يتحدث إلى زوجة أبي حديثاً طويلاً تابعته بنظري وقلبي وسمعي، لم أجد في الحديث ما يشين أو يثير الغيرة ومع هذا شعرت بشيء من الغيرة لم أشعر بها وهو يتحدث إلى أية أنثى..

ربما لأنني بدأت أخاف أن أفقده من شدة حبي له أو ربما لأن هذه الفتاة بجمالها الغامض وعينيها السوداوتين الناعستين وشعرها المتهدل الطويل استطاعت أن تغري أبي على الاقتران بها.

صدقوني لا أدري ما هو السبب لكني أقول الحق هناك أشياء كثيرة تشعر بها المرأة فجأة بسبب وبلا سبب.. واحتفظت بغيرتي في قلبي وأخذت أسأل أبي أسئلة كثيرة عن الفتاة وتصوراتها وأهدافها وأحلامها لدرجة ضاق معها أبي بجديتي فنادى زوجي وهو يضحك وقال له:

- تعال يا فريد لقد أصبحت ابنتي مفتشة سرية فهي تريد أن تعرف عن حياتي كل شيء هكذا فجأة.

أجاب فريد متسائلاً:

- وهل هناك ما يخيفك ويجعلك لا تصارحها بكل شيء؟.

عاود أبي الكلام مرة ثانية وهو يقول:

- ولكنها زوجتك أنت..

أجاب فريد:

ـ وابنتك أنت والابنة تحب أن تعرف عن أبيها ما فاتها معرفته.

ضحك أبي وقال:

ـ حياتي كلها كتاب مفتوح قرأته ابنتي سارة أكثر من مرة.

وتدخلت أنا في الكلام قائلة:

ـ لكن الفصل الأخير يغريني ويحثني على أن أقرأه مرة ومرات...

ضحكنا جميعاً لكن ضحكتي توقفت فقد أحسست بأن زوجة أبي تواصل الحديث مع فريد.

أصغيت السمع فعرفت أنها ترجوه أن يمكنها وأبي من زيارة بلده وتدخلت في الحديث وقلت متصنعة الهدوء:

ـ ولكن أبي لم يطلب ذلك.

ردت علي ريتا زوجة أبي بعنجهية:

ـ سليه فلربما قال لك بأن ما يناسبني يناسبه.

وسألت أبي على الفور عما إذا كان صحيحاً يرغب في زيارة بلاد فريد فقال:

ـ لو كنت يا ابنتي هناك لجاز لي أن أطلب منك هذا الطلب لكنك تعيشين في نيس ونيس أقرب لي من السعودية.

نظرت إلي زوجة أبي نظرة قاسية شعرت بعدها بخطئي وحاولت أن أصلح الأمر فقلت لأبي ولها هذه المرة:

ـ عندما أكون هناك في السعودية سوف أدعوكما لزيارتها.

وانتهى اللقاء ومضيت مع فريد وأبي وزوجته إلى المطار كي نذهب إلى لوس أنجلوس لنقضي فيها بضعة أيام مع شقيق زوجي يشتري خلالها البيت الذي ينوي شراؤه له ومن ثم نعود إلى نيس.

وفي مطار لوس أنجلوس التقيت سعيداً الأخ الأصغر لفريد. كان صورة مصغرة من زوجي.

تعانق الإخوان وحملتنا سيارة سعيد إلى فندق حياة ريجنسي حتى إذا ما وصلنا إلى الفندق سألت زوجي بعفوية:

ـ أأنت شريك في هذه الفنادق؟

ضحك فريد وقال:

ـ لا ولكني أميل إلى هذا النوع من الفنادق إضافة إلى أنهم يعاملونني على أساس أنني زبون قديم ودائم لديهم.

أمضينا أياماً رائعة مع سعيد الذي أخذ على عاتقه الحضور يومياً إلى الفندق والبقاء برفقتنا طول النهار، وبدأت أحس بأنني قادرة على انتزاع الإعجاب من عينيه ولكن الشيء الذي لفت نظري هو أن سعيداً كان يعاملني باحترام وباحترام كبير.

أنهى زوجي الصفقة وتسلم سعيد الفيلا أو البيت الذي اشتراه زوجي والذي كان يطل على شارعين أحدهما شارع رئيسي هو شارع وود ستوك والآخر فرعي هادىء.

وانتزعني زوجي من أحلامي وأنا أرى الأثاث الأنيق الذي تم اختياره لفرش الفيلا وقال وهو ينظر إلى وجهي باسماً:

ـ لا بد أن نمضي بضعة أيام في هذه الفيلا بعد أن يحضر سعيد الخادم والطباخ.

لم أحاول أن أعقب على كلام زوجي وإنما مضيت أستعد للسهرة التي لا أستطيع أن أصفها سوى بأنها كانت أكثر من رائعة.

وبعد عدة أيام عدنا بالطائرة إلى لندن لنمضي فيها بضعة أيام كان فيها زوجي مشغول طوال الوقت في اجتماعات وندوات تتعلق ببعض أعماله في جدة بينما كنت أنا أجوب المتاحف ومعالم لندن الأخرى في سيارة رولز رويس زرقاء جميلة.

تعشينا مرة في مطعم إيراني صغير في الكوينزواي وذقت أنواع جديدة من المأكولات الشرقية التي لم أذقها من قبل إذ إن شارع الكوينزواي كان مليئاً بالمطاعم التي تقدم المأكولات العربية التي يحبها زوجي، ولقد نزلنا في فندق

ماي فير الشهير إلا أنه بعد أن أراني زوجي الشقة التي يملكها في لندن طلبت أن ننتقل إليها خصوصاً وأنها كانت قريبة من الفندق الذي يعقد فيه زوجي اجتماعاته وفي موقع متميز يطل على حديقة الهايد بارك وبالفعل فلقد كنت أرى من نافذة غرفة النوم فيها مناظر جميلة أنيقة صممت أن تكون بعضها موضوعات للوحات أرسمها بمجرد عودتي إلى نيس.

وفي إحدى ليالينا في لندن سهرنا في ملهى شرقي وكانت مفاجأة لي أن أرى ألواناً من الفنون تشتمل على غناء ورقص واستعراضات شرقية لم أكن أعرفها من قبل.

قال لي فريد بأنه يغشى مثل هذه الأماكن لأول مرة فهو غير حريص على رؤية ما تقدمه بالمرة ولولا أنه أراد مفاجأتي بها لأرى شيئاً جديداً لم أره من قبل لما فعل.. فشكرته كثيراً لأنه أتاح لي معرفة المزيد عن الشرق الذي بدأت أحبه من كل قلبي.

ترى هل أستطيع أن أرى الحياة في بلاد فريد على الطبيعة؟ ذاك حلم يداعب خيالي ولكني لم أفصح عنه لأنني كنت أريد أن تأتي الدعوة من قبل زوجي الذي أحبه وليس بناءً على طلب مني.

الفصل التاسع

صدقوني لم أحس بوطأة المرض في حياتي كما أحسست بها يوم ارتفعت درجة حرارتي وزادت دقات قلبي في ذلك اليوم القائظ أيام أغسطس.

نيس تكاد تمتلىء عن آخرها بالوافدين العرب وغير العرب فالفنادق (كومبليه) كاملة العدد كما يقولون، ونيس في هذا الشهر تكاد أيضاً تفرغ من أهلها فهو شهر الإجازة بالنسبة لنا نحن الفرنسيين وفي الحقيقة لم أظن أني سأمرض ولكن هذا ما حدث.

أوقفت سيارتي على مقربة من الخط الدائري للكورنيش وأخذت أتريض على مقربة من هذه الأعداد الهائلة من الناس، توقفت قليلاً عند المكان الذي كانت تختاره صاحبة الفضل علي، صديقة والدي مارجريت التي ماتت، المرأة المقعدة التي منحتني جل ثروتها وأخذت أتخيل كل ظروف حياتي منذ يوم مولدي حتى هرب أمي وسفر أبي ثم زواجي.

حاولت من خلال كل تلك الصور أن أبعد عن ذاكرتي صورة فريد وأنا في موقفي هذا حتى لا يزيد شعوري بافتقاده وحاجتي إليه ولكني لم أستطع ففريد بوجهه الضاحك المنتشي وقامته المديدة وجمال رجولته الصحراوي كان يبدو وكأنه واقف أمامي أكاد أراه بكل الوجوه التي تسير من حولي.

هذا الرجل الذي استطاع أن يدق باب قلبي بعنف وقوة، أنا المرأة الفرنسية الجميلة التي تستطيع بإشارة صغيرة من يدها أن تجعل الكثيرين يتهافتون على قلبها.

أحسست بعد عودتي إلى البيت بلهيب حارق يكبل جسدي من رأسي حتى أخمص قدمي وشعرت بأنني ضائعة لا أعرف ماذا أفعل أو كيف أتصرف. تناولت بعض الأدوية وشربت كوباً من الشاي الساخن وحاولت أن أنام.

لأول مرة أحسست بالخوف، الخوف من المجهول.

تجربة مثيرة أمضيت طوال الليل، وأنا أعيشها فأحلامي كانت خليطاً تتبعثر وروده ورياحينه هنا وهناك، شيء واحد كان يهدىء من خاطري وروعي قليلاً هو أنه وفي غمرة المرض الذي أحس يطل فريد بصورته الحلوة في أشكال كثيرة ومتعددة وأوضاع تعيدني إلى الأوقات الحلوة السعيدة التي عشتها معه، رحت أتذكر همساته وكلامه المضمخ بعبير الحب علها تبعث في نفسي قوة أتحمل بها وطأة هذا المرض الذي أشعر به ولكن دون جدوى.

فكرت أن أدعو الطبيب ليعودني فلم أستطع حاولت أن أتصل بفريد فلم أستطع أيضاً فلأول مرة أكتشف بأن رقم التلفون الذي أعطاني إياه فريد لأتصل به إذا ما لزم الأمر هو رقم تلفون مكتبه وليس بيته.

لم أرَ في الماضي شيئاً في هذا الأمر لأنني أنا شخصياً لم أتعود أن أتصل به تلفونياً في مدينة جدة إلا في القليل النادر أما الليلة فشعوري بأنني خائفة وحيدة وضعيفة بسبب المرض جعل الهواجس تتملكني وتأخذ مني كل مأخذ.

في الصباح اتصلت به. لم أقل سوى بضعة كلمات سمعته في نهايتها يقول بأنه في الطريق إلي.

بعد برهة من الزمن اتصل بي أحد الأطباء من أصدقائه وأخبرني بأن فريداً اتصل به من جدة وطلب منه أن يعودني في داري وقد فعل.

وجاء كشف الطبيب يعلن بأنني مريضة بالأنفلونزا الشديدة ولا شيء غيرها استغربت أن يكون هذا مرضي وخصوصاً أننا في فصل الصيف ولكن هذا هو بالضبط ما أخبرني به الطبيب.

اتصلت مرة ثانية بمكتب فريد حتى يطمئن ويعرف أن الأمر بسيط ولا يدعو للقلق فقيل لي إنه غادر المكتب متوجهاً إلى المطار أحسست بالسعادة فقد استنتجت أنه في طريقه إلى نيس.. إلي وشعرت بالكثير من الراحة.

ففارسي لا يمكن أن يترجل بل سيظل دائماً يرعى مهرته الأصيلة كما كان يقول لي.

ويطل وجه فريد جميلاً بهياً كالصباح لم أشعر بمفتاحه وهو يدور في قفل باب الشقة فلقد كنت في شغل شاغل بالتفكير فيه وفي إحساسه الرقيق حتى إذا ما واجهني بقامته المشدودة ووجهه الرائع قلت:

ـ أنت؟

قال تسبقه ابتسامته:

ـ نعم.

وألقى بحقيبته الجلدية على المقعد المجاور وأمسك بيدي وقال:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء مجرد زكام.

أجبته بهدوء محاولة أن أجعل أمر مرضي يبدو بسيطاً للغاية. وضع يده على جبيني وقال:

ـ ولكن حرارتك مرتفعة هلا رآك الطبيب؟

ومع هزة من رأسي أجبته قائلة:

ـ نعم ولكن لم يمنحني الدواء الذي تستطيع أن تمنحني أنت إياه.

أحسست به يبتسم من كل قلبه ووجهه وتعابيره وبشكل يشعرني بالحب الكبير الذي يكنه لي فاستطردت قائلة:

ـ ولكني لم أكن أرغب في أن أزعجك فها أنت قد تركت عملك الذي هو في حاجة إليك..

قاطعني وهو ينظر إلي ملياً ويقول:

ـ ليذهب كل شيء وتبقين أنت بخير، معي وإلى جانب إلى آخر العمر.

شعرت بأن علي أن أشكره فلم تسعفني الكلمات ولم أجد من طريقة لذلك سوى أن أضغط على يده ضغطة رقيقة أودعها إحساساتي كلها نحوه ثم عاودت كلامي قائلة:

ـ لا بد وأنني سأكون على ما يرام بعد فترة وجيزة.

قال:

ـ نعم سوف تكونين كذلك ولكن دعيني أتحدث مرة أخرى إلى الطبيب.

لم يترك لي الفرصة لأن أقول شيئاً وإنما مضى يدير قرص التلفون لينخرط في حديث طويل مع الطبيب شعرت من خلاله أن فارسي ليس مجرد فارس وإنما هو أيضاً طبيب إلى حد ما يعرف الكثير من المرض والأمراض.

وانتهت المكاملة لأحاول بعدها أن أتحرك لأغادرة سريري ولكن فريد رفض وقلت له:

ـ هل درست الطب؟

قال:

ـ لا وإنما هي معلومات عامة عرفتها عن طريق القراءة والاطلاع وعلى العموم لقد طمأنني نقاشي مع الطبيب فإن الأمر بالفعل مجرد عارض سوف يزول في القريب العاجل.

وانخرطنا في حديث طويل نسيت معه أن أسأله عن رقم تلفون بيته في جدة، ذلك الرقم الذي كنت بالأمس ليلاً في أمس الحاجة إليه.

ولم تمض بضع ساعات حتى بدأ النشاط يدب في عروقي وشعرت أن من واجبي أن أهيىء لفريد طعاماً ولنفسي أيضاً خصوصاً وأنني لم أتناول أي طعام منذ الأمس عندما بدأت أشعر ببوادر تلك الأنفلونزا ولكنه رفض ثم عاد وتراجع أمام إصراري، وتغدينا سوياً غداءً خفيفاً شعرت بعده بالنعاس يداعب جفنيّ فمضيت إلى غرفتي لأستريح وأنام وأحلم حلماً طويلاً ولذيذاً لا أزال أذكر تفاصيله حتى اليوم.

وصحوت لأجد فريداً يجلس على المقعد بجواري، ونظرت إلى وجهه وضحكت من كل قلبي وقلت له:

ـ لقد زال المرض عني ولم يعد هناك ما يمنع من أن نسهر معاً ولكن هنا في عشنا.

أومأ فريد برأسه موافقاً وقضينا سهرة هادئة استمعنا فيها إلى شيء من

الموسيقى وتخلل ذلك أحاديث صغيرة كانت تشدني إليه.

وبدأت أفكر بيني وبين نفسي في هدوء.. ترى لو كان زوجي فرنسياً هل يترك عمله الذي يفصله عني آلاف الأميال ليهرول سريعاً ويجلس إلى جانبي؟

وجاء الجواب على لساني دفعة واحدة ودون ترد:

- لا لا يمكن أن يفعل...

لم أنتبه أنني كنت أقولها بصوت مرتفع نسبياً إلا عندما سألني فريد:

- ماذا تقولين يا عزيزتي؟

وغمغمت في صوت خافت:

- لا شيء.. لا شيء كنت أفكر.

- بماذا كنت تفكرين؟

قال فريد متسائلاً.

- أفكر في هذا المرض الذي فاجأني والذي بدأت أحبه هو الآخر.

أجبته وأنا أبتسم..

- وهل يعقل أن يحب إنسان المرض؟ سألني فريد باستغراب.

وضحكت وأشرت إلى نفسي وقلت:

- أنا أمامك مثال حي.

عرف فريد ما أعنيه فضحك وقال:

- لا تقولي شيئاً كهذا. عندما تحتاجينني فما عليك إلا أن تطلبيني بالتلفون لأكون معك في أقرب فرصة ممكنة.

وصمت فصمت أنا أيضاً ولم أحاول أن أقول له إنني في حاجة إلى رقم تلفون بيته فقد أبت كبريائي أن أطلب منه مثل هذا الطلب وانتظرت أن يقول هو شيئاً عن هذا الموضوع ولكن آن له أن يعرف الحكاية.

ترى هل هناك من سبب حال بين فريد وبين أن يعطيني رقم تلفون البيت؟ لا أدري ولكن ربما كشفت الأيام القادمة عن السبب فأنا إنسانة قليلة الكلام يهمها أن تعيش حياتها في هدوء مع وليفها الذي تحب.

الفصل العاشر

لم أكن أحلم أن يدعوني فريد لزيارة مدينة جدة، هذه المدينة الحالمة التي تصحو على أنغام الموج الهادىء وهو يعزف ألحانه الشجية على طول الكورنيش الكبير.

كنت أظن أنه سيمضي وقت كبير قبل أن أتمكن من زيارة المملكة العربية السعودية التي أحببتها من أحاديث زوجي وعرفت عنها الكثير الكثير.

أدق تفاصيل حياة هذه الأرض أصبحت ملكاً لي أنا المرأة الأوروبية التي لم تزرها بعد.

كنت متأكدة أن زوجي كان صادقاً في كل كلمة قالها لي عن بلده وهو يعزف ألحانه عن مدنه وقراه في مثالية جعلتني أدرك لماذا استطاعت هذه الجزيرة أن تتطور وتتقدم على هذا الشكل المذهل الذي بات حديث العالم كله.

كان فريد يقول لي:

ـ المدن يا عزيزتي كالنساء فيهن الرشيقة والجذابة والجميلة والقبيحة أيضاً.

وكان يقول أيضاً:

ـ بعض المدن تفصل أزياءها عند بيير كاردان وكريستيان ديور وروزي روز ولافام وأمثالها وترتديها في رشاقة..

والبعض الآخر رغم أنها تمتلك القدرة على شراء الأزياء من كل بيوت الأزياء الكبيرة والشهيرة لكنها، وأعني الأزياء، تصبح أشبه

بخيمة واسعة على عود قصب نخيل. . .

وكان يقول ويقول وأنا أستمع إلى كلماته التي تجمعت كلها في ذاكرتي ونحن نطير من نيس إلى جدة بعد شفائي من الأنفلونزا بمدة وجيزة. . ولقد جاء الأمر مفاجأة لي تماماً فلم أكن أعتقد أن حلمي بزيارة جدة مدينة زوجي سيتحقق بمثل هذه السرعة وفي الحقيقة لم أكن أظن أنني سأرى مدينة بهذا الجمال من الجو كما رأيت جدة. .

الثريات الكهربائية التي انتشرت بطول المدينة وعرضها أشبه بالنجوم المتلألئة يراها المرء من البعيد لوحة رائعة لفنان عرف كيف يخط بريشته في أناقة على الأرض التي يحيط بها البحر من بعض جوانبها وكأنه يحرس هذه العروس الرائعة المتألقة. .

كنت أنظر من خلال نافذة الطائرة إلى هذا الجمال الأخاذ وأفكر بكلام فريد عن المدن وأزيائها وفساتينها ولقد شعرت أن جدة أشبه بامرأة تلبس أجمل فساتينها المرصعة باللؤلؤ والمرجان لتحضر حفلة عرس.

صحيح أن المدن تستمد أناقتها من قدرة أبنائها وأهلها على العطاء.

وهبطت الطائرة في المطار الأنيق الذي غص بالمغادرين والقادمين لنأخذ طريقنا إلى الخارج بعد انتهاء الإجراءات المتعلقة بجوازات سفرنا وحقائبنا والتي تمت في أسرع ما يمكن بفضل همة ونشاط العاملين هناك.

سيارة سبور إيطالية يقودها شاب لم يتعد عمره الثامنة عشر كانت في انتظارنا، قدم لي فريد شقيقه الأصغر وهو يبتسم فمددت يدي لأضعها في يد الشاب الذي أخذ يرحب بمقدمي بلغة فرنسية سليمة.

سألته أين تعلم اللغة الفرنسية فضحك وقال:

ـ تعلمتها في جدة هي والإيطالية إلى جانب اللغة الإنجليزية التي أدرس بها في كلية الهندسة. . .

في الطريق إلى بيتنا في جدة كنت أواصل مع غسان الحديث الذي امتد وتشعب بشكل عفوي ليشمل موضوعات عديدة متنوعة. وفي الواقع لقد شعرت بالخجل وهو يتحدث عن مفكري فرنسا وأدبائها وعن أحدث الإصدارات

العالمية الأدبية والعلمية والاختراعات التي استجدت على خريطة العالم وتضامن الدول من خلال الأمم المتحدة من أجل انتشار الأمن والسلام والرخاء في أنحاء هذه المعمورة.

بهرتني ثقافته العامة وسعة اطلاعه وفصاحة وطلاقة لسانه نموذجاً صادقاً عن شباب ورجال بلده..

وآمنت أن هؤلاء السعوديين يعرفون طريقهم جيداً في هذه الحياة بل ويتبؤون هذه المكانة الرفيعة بين شعوب الأرض وأممها عن استحقاق وجدارة..

وصلنا إلى منطقة الحمراء، وكنت خلال الطريق أقرأ بين الفينة والفينة من لافتات الشوارع الأنيقة أسمائها..

لم يكن البيت فيلا صغيرة كما كنت أتوقع وإنما كان أقرب إلى القصر منه إلى الفيلا. ترجلت من السيارة ودلفت إلى الداخل لأجد نفسي في مكان لم أكن أتصور أن أجد نفسي فيه..

ماتيلدا مديرة البيت امرأة يونانية استقبلتني بترحاب بالغ وأخذت مني ما كنت أحمله ثم مضت لتريني غرفتي لأرتاح فيها قليلاً. ذهبت معها وتركت فريد ينهمك في حديث طويل مع أخيه غسان قبل أن تخرج ماتيلدا من الغرفة قالت:

ـ عندما ترتاحين سوف أطوف بك في أرجاء المنزل لتشاهدي باقي الغرف والصالونات وملحقاتها أما الآن فهل لي أن أسألك إذا كنت تريدين أي خدمة؟

شكرتها بلطف ثم جلست في هدوء على أحد الكراسي الموجودة في الغرفة أفكر كثيراً ولأول مرة أفكر بشكل يغاير تفكيري السابق. لقد أحسست أن فريداً هذا رجل من طراز فريد استطاع أن يؤكد وجوده في الحياة من خلال صدفة ولكن لم يسترح لهذه الصدفة وإنما اتخذها بداية لصنع كل شيء دخل في حياته فيما بعد، ترى كم من الأشخاص يضيعون صدفة أو فرصة في حياتهم تكون هي الأولى والأخيرة فلا تقوم لها قائمة بعدما يغفلون عن استغلالها؟

أما فريد فقد مضى بعدها يصنع كل شيء يعيش فيه اليوم بإمعان وهدوء وتفكير وعمل دائب. ترى هل أقول إن إعجابي بفريد يتزايد يوماً بعد يوم بل

لعلي لا أذيع سراً إذا قلت إنني كنت أعتقد في كل مرة أنني في قمة إعجابي بفريد ثم أفاجأ بما يجعل هذه القمة تكبر وتزيد وتعلو أكثر وأكثر.

أمضيت بعض الوقت في غرفتي حتى إذا أذنت للطارق الذي دق على باب غرفتي بالدخول وجدت فريد ينتصب بقامته المديدة ووجهه المشرق داخل الغرفة فلم أتمالك نفسي بل مضيت إليه أشد على يديه وأنظر إلى وجهه بوله وحب لا أول له ولا آخر..

قال:

ـ سنقوم غداً بعد الغداء بجولة في المدينة.

وأعطاني شيئاً أسود كان يحمله في يده.

قلت:

ـ ما هذا؟

قال:

ـ عباءة وغطاء للرأس.

نظرت مرة ثانية إلى عينيه وقلت:

ـ أتعني أنه من الضرورة أن ألبس هذا الشيء؟

قال في شيء من الحزم:

ـ نعم.

ثم مضى يذكرني بعادات وتقاليد بلاده التي كان يحدثني عنها ونحن في نيس والتي لم أنسها بالطبع.

انفرجت أساريري وهو يحاول أن يفهمني أن علي أيضاً أن أحترم تلك العادات والتقاليد. وقمت لتوي أجرب طريقة لبس العباءة والطرحة حتى أجدتها بمساعدته ثم انطلقنا إلى غرفة الطعام نتناول عشاء خفيفاً.

وفي اليوم التالي أمضيت نهاراً رائعاً أحسست فيه بأني أمارس حياتي بأسلوب جديد مغاير لما كنت أفعل في نيس وباريس ولندن. التقيت بالأسوار العالية التي كانت تحيط بالقصر فرأيت أنها تدفع أعين الفضوليين بشيء من

الحب عن هذا المكان الذي قصد به أن يكون عشاً هادئاً يعيش فيه الإنسان بسلام. وبالفعل ففي مثل هذه الفيلا الرائعة يحس الإنسان بأنه يعيش في مكان خاص به لا حق لأي من المتطفلين التسلل إليه وهذا يكفي.

تسللت إلى أعماق أعماقي بعد أن ارتديت العباءة أفكار جديدة. لقد كنت أظن أنني لن أجيد لبس العباءة أو استعمالها لكن هذه الأفكار وغيرها تلاشت وذهبت إلى غير رجعة عندما طالعني وجه فريد وهو يقول باسماً:

ـ أصبحت امرأة عربية يا سيدتي العزيزة.

وانحنى بعض الشيء كفارس من فرسان العصور الوسطى.. أحسست بالراحة والسرور يملآن قلبي وانطلقنا نجوب المدينة نشاهد أسرارها وأسوارها وحدائقها والكورنيش والمتحف وكل شيء فيها.

وتضاءل في نظري كورنيش كان ونيس وميامي الأمريكية أمام هذا الكم الكبير من الجمال الذي التقيته على الشاطىء.

نظرت بعيني المجردة إلى كل هذه المجسمات التي كنت تنتشر بطول الكورنيش وعرضه والتي تمثل قيماً جمالية بديعة فرأيتها مغايرة لكل ما كنت أراه في أي مدينة أخرى ولعمري إنه لحق لأبناء الجزيرة العربية أن يسعدوا بما حققوا من إنجازات وحضارة تنبع في أصلها من شعورهم وإحساسهم الوافي ببلادهم وأرضهم ومدنهم الجميلة الرائعة.

الفصل الحادي عشر

دقائق الأمور تبدو في كثير من الأحيان وكأنها شيء لم يخطر على البال لا لأننا لم نفكر فيها وإنما لأننا فعلاً نحاول في أعماق أعماقنا أن ننساها أو نتناساها لكنها تظل تطل بين الحين والحين تعلن عن وجودها بقوة..

كل شيء يثير في نفسي التساؤل فالأيام القليلة التي أمضيتها في جدة جعلتني أفتقد أشياء صغيرة ولكن لأجد في مقابلها أشياء كبيرة.

في مقدمة ما افتقدت كان حريتي في الخروج والدخول والتسكع هنا وهناك بين واجهات المحلات المختلفة والمشي على قدمي وإن كان بعض النساء في جدة كما لاحظت يفعلن هذا.. ربما لأنني غريبة أولاً ولكوني زوجة لرجل يملك الكثير.

في مطالعاتي للصحف التي تصدر باللغة الإنجليزية افتقدت أخبار العنف والاغتصاب والجريمة التي تمتلىء بها صحف الخارج وإن كان هناك شيئاً قليلاً من هذا القبيل يبدو على السطح إلا أنه على ما يظهر فإن يد العدالة في المملكة قادرة على اقتناصها والإمساك بها هذه واحدة أما الثانية فهو هذا الاحترام المتبادل الذي لمسته بين المرأة والرجل وبالرغم مما وصل إليه كلاهما من الثقافة والعلم. احترام ينبع من أصالة في المنبت وعراقة في العادات والتقاليد.

نجلاء أو الدكتورة نجلاء كما ينادونها ـ وإن كانت هي نفسها لا تحب أن يناديها الأهل والأقارب باسمها مقروناً بهذا اللقب ـ هي شقيقة ثالثة لزوجي تصغره بسنوات متزوجة من طبيب في مثل سنها. نجلاء أو الدكتورة نجلاء فتاة في عمر الزهور جميلة كزنبقة، بريئة

كالأطفال، في عينيها الضياء والرواء والنقاء وفي شعرها يستقر الليل وفي مفرقها سناء الفجر. أحببتها ساعة أن رأيتها وكأننا أصدقاء نعرف بعضها البعض منذ نعومة أظفارنا. وفوق هذا كله كان في حديثها شذى وفي لكنتها الإنجليزية التي كنت أستمع إليها بكافة حواسي أجراس تتناغم كهارموني أو موسيقى لقصيدة شعر كتبها عاشق.

قبلتني في ود وقالت:

ـ كنا ننتظر هذا اليوم لنراك.

تساءلت في براءة:

ـ وهل حدثك فريد عني؟

أجابت نجلاء:

ـ رغم أن شقيقي فريد قليل الكلام كثير الحركة لكنه عندما يتحدث عنك يصبح كثير الكلام كثير الحركة.

ونقلت عيني بينها وبين فريد فرأيتهما ينظر كل واحد منهما إلى الآخر بود فقلت:

ـ ولكنه لم يخبرني شيئاً عنك أو عن شقيقك غسان.

ردت نجلاء في صوت واضح:

ـ ربما أرادها أن تكون مفاجأة لك.

قلت:

ـ حسناً فعل وإلا لكنت جئتكما لوحدي ودون أية دعوة.

ورددت نجلاء بصوت عذب:

ـ وهل تدعى صاحبة البيت إلى بيتها؟

وانخرطنا في حديث طويل، حديث أنثى لأنثى مثلها، وبدت نجلاء قريبة إلى قلبي بهدوئها وثقافتها الواسعة وإطلالتها الجميلة وقلت على أثر ذلك لزوجي فريد:

ـ النساء في بلادك أجمل وأبهى مما كنت أظن فلماذا تزوجتني؟

وأجاب فريد:

ـ قد يكون ما تقولين صحيحاً ولكن لا تنسي بأن جمالك وخلقك هو أيضاً من طراز فريد.

وصمت فاحترمت صمته حتى إذا ما ترك الغرفة عاودت حديثي مع نجلاء سألتها:

ـ لماذا لم تزورينا في نيس؟

قالت وبهدوء:

ـ إنني طبيبة حديثة التخرج وحديثة الزواج أيضاً وقد تكون ظروف الدراسة والعمل والزواج هي التي حالت بيني وبين أن أفعل ولكني حتماً سوف أحضر يوماً ما إلى نيس ولكن من يدري؟ ربما يكون ذلك بعد شهر أو بعد سنة أو....

ولم أستمع إلى بقية حديثها فقد سرحت أفكر وأحدث نفسي قائلة:

ـ ترى أويمكن أن أتخيل هذه المرأة على ماهي عليه لو لم أرها بنفسي وأستمع إليها وأتعرف إلى دقائق حياتها؟

لقد صنع العلم في الجزيرة العربية كما أرى جسوراً من الأمل بين الماضي والحاضر واستطاع الجيل الجديد أن يصنع حياته بأسلوب معاصر يرتكز أول ما يرتكز على تقاليد وقيم وتراث أجداده وبلاده، وفي نظري أن أوروبا قد فقدت مقومات الحياة في المجتمع وأصبح الإنسان فيها عبداً للآلة التي حرمته الكثير الكثير ثم جاءت المادة لتضيف إلى ما زرعته الآلة في صلب هذا المجتمع من تفتيت لتغرقه في سيول من الهم الحارق الذي أودت بجمال الحياة وروعتها.

ولقد قضت عناصر الشر التي انتشت من وراء إغراق المجتمع في ضروب الرذيلة مما جعلها قادرة على تحريك الأسرة وتفتيت عناصرها لتصبح كماً مهملاً لا طائل ولا فائدة ترجى منه.

وانتقلت عقد الحياة تغزو قلب المجتمع بكراهية وكأنها تنتقم لأشياء وهمية تسيطر عليها من الداخل والخارج وأصبح الإنسان أسير ظروفه لا ظل ولا رواء في حياته إلا بقدر وحتى هذا القدر القليل لم يعد شيئاً ذا أهمية لأنه أصبح

يتوارى خلف كل تلك المخاوف التي انتابت الإنسان بعد كل تلك الحروب الدامية.

أما هنا في هذه الجزيرة فتظل الأصالة تعبق بريحها الطيب تمنح سماء الصحراء رائحة الفل والياسمين والنرجس.

يقولون إن الحياة ليست وحدها قادرة على إصلاح الحال إذا لم تكن هناك دوافع تأخذ بيدها وتمنح المجتمع إرهاصاته الجميلة.

ذلك شيء فقدناه وافتقدناه في أوروبا منذ عهد بعيد حتى جئت إلى هنا لأجد كل شيء يسير في اتجاه واحد شعاره الأخلاق، العلم، الثقافة، التطور والعمل من أجل البناء، حتى المرأة التي كانوا يقولون عنها ما يقولون وجدتها في قمة سعادتها تبني مع رجلها ظروف حياة آمنة هانئة في إيمان ما بعده إيمان.

في الحقيقة لقد فتحت نجلاء شهيتي للمعرفة، معرفة حقائق المرأة في بلاد الجمال والمرأة، فالمرأة في الجزيرة العربية هي الواجهة الأنيقة لدروب السعادة المتميزة للأسرة وهذا يكفيها.

التقيت مع مجموعة كبيرة من نساء الجزيرة وعلى كافة المستويات وخرجت من لقاءاتي معهن على أن المرأة في هذه البلاد أسعد حالاً من كل النساء اللواتي يعشن على كل أرض وفي كل مدينة وقرية فتمثال الأناقة في صالونات البيت القديم لم يعد عمل هذه المرأة التي اختارت البناء بأسلوب متميز لتمنح حياتها المزيد من الجمال والكمال والضياء.

وتعرضت لأسئلة كثيرة جاءتني من هنا وهناك فلم أعرف كيف أجيب عليها لأنني كنت فتاة عادية وعادية جداً صنعتها ظروفها ومنحتها الكثير وهي لا تطمع أبداً بأكثر مما وصلت إليه.

واستغرقت في التفكير كثيراً وكثيراً جداً فكل يوم يمر علي وأنا أعايش الحياة على هذه الأرض أشعر بأنني أتعلم وأتعلم، أتعلم أشياء كثيرة كنت في أمس الحاجة لأن أتعلمها لأنها جزء من طبيعة المرأة الطيبة.

وأخذت أقارن بيني وبين هؤلاء النسوة وبين أمي وهؤلاء الأمهات لأجد البون شاسعاً فبمقدار ما تملك المرأة في هذه الجزيرة من مقومات السعادة

الحقيقية نجد أن نساءنا في الغرب يفتقدنها رغم كل هذا الهراء الذي يحاولن أن يغمرن أنفسهن به فالمرأة في الغرب لعبة الرجل يشكلها كيفما يريد ويأخذ منها أفضل ما لديها ثم عندما تكبر ينصرف عنها بلا أدنى شفقة ولا وازع من رحمة.

ضريبة المدينة التي تعتمد على الإثارة هي التي صنعت لنا نحن النساء هذا الوضع الذي نحس به يخالط عظامنا من الداخل.

الفصل الثاني عشر

اختارت نجلاء أن تدعو أكبر عدد ممكن من صديقاتها إلى (بيتش بارتي) حفلة شاطىء في الكابين الكبير أو بالأحرى الفيلا التي تربض في المنطقة الشمالية من البحر.

أضواء الكهرباء والزينات تنتشر هنا وهناك حول البيسين الكبير بينما يربض البحر إلى الجانب الآخر من الفيلا عفواً الكابين.. لم تكن المرة الأولى التي نذهب فيها إلى هذا الكابين فقد سبق لي وأن ذهبت إليه أكثر من مرة.

المكان رغم أنه مفتوح إلا أن صالون الفيلا كان من الرحابة بحيث يسع أكثر من مائتي مدعو على الأقل، وفي وسط المكان بيست تنتشر على جانبيه أضواء خافتة وملونة بينما المسجلات التي تذيع الموسيقى الهادئة تختفي في إحدى غرف الفيلا.

ماتيلدا كانت هي المكلفة بإدارة أجهزة التسجيل فهذه المرأة لها أكثر من عمل في بيت زوجي فهي بالإضافة إلى أنها مديرة المنزل فهي تجيد تصفيف الشعر والقيام بترتيب الزهور والإشراف على أصناف الطعام التي تقدم على مائدة الطعام كما تعمل على تهيئة أماكن الجلوس والاستقبال للضيوف والزوار بأسلوب مميز وجميل..

ماتيلدا عندما تتحدث الفرنسية والإنجليزية تشعرك بأنها فعلاً يونانية بفضل تلك اللكنة اليونانية التي لم تفارقها وهي لا تخلط بين عملها وبين الصداقة التي تمنحها إياها نجلاء والتي بدأت أمنحها إياها أنا شخصياً.

قالت لي ماتيلدا بأن زوجها قد عمل عند زوجي سنوات طويلة

وأنها كانت معه في رحلة العمل هذه كزوجة لكنه وبعد أن جمع من المال وجد أنه من الأفضل له أن يهرب من وجه المرأة التي أحبته لأنها لا تنجب وهكذا ترك ماتيلدا فجأة وبدون أية مقدمات ورحل إلى أستراليا.

وأنها عندما أحست بالضيق في مدينتها أثينا كتبت إلى زوجي فدعاها إلى جدة لتقيم في بيته ووسط أسرته ضيفة مكرمة معززة ولكنها اختارت أن تؤدي عملاً يمكن أن تصلح به شأنها وتساهم في سعادة أمها العجوز التي تعيش في كافوري إحدى ضواحي مدينة أثينا.

ولقد أحبت ماتيلدا الحياة في جدة وقررت البقاء فيها إلى الأبد.

لم تحدثني ماتيلدا عن أسرة زوجي كما أنني لم أسألها ولكني شعرت بأنها تحب كل إنسان يحبه زوجي وفاءً منها لوفائه معها بعد هروب زوجها.

في تلك الليلة التي دعت نجلاء مجموعة من سيدات المجتمع المخملي في جدة إلى حفل يقام في ذلك الكابين في البحر أحسست أن الحسان تلتف من حولي في أناقة وتتحدث بأسلوب رفيع يدل على ثقافة ووعي وإدراكٍ لم أجد أبداً صوراً منفرة تثير التقزز كما كنت أقرأ في بعض ما يكتبه المغرضون عن المرأة بشكل خاص والرجل والزواج في الجزيرة بشكل عام، ولقد هالني بالفعل أن أرى هذا الكم الهائل والنادر من الجمال والثقافة.

كل سيدة من هؤلاء اللواتي قابلت في الحفل الذي أقامته نجلاء تجيد أكثر من لغة وتحمل درجة علمية بتخصص ما، بعضهن يعملن في البيت ومن أجل أسرهن والمجتمع بصورة عامة.

أعجبت بواحدة من السيدات العجائز اللواتي كن يرافقن نجلاء عرفت أنها خالتها أي خالة زوجي فريد وللعلم فإن أم فريد كانت قد توفيت وتركت لأختها الإشراف على تربية أولادها لذلك فهي بالنسبة لنجلاء وفريد وإخوته خالة وأم في نفس الوقت، لم تكن تجيد أي لغة غير العربية ولكن ماتيلدا ونجلاء ساعداني على الحديث معها ولقد عجبت ودهشت تماماً عندما انتقدت خاتماً كنت أضعه في يدي فلقد قالت عنه إنه أكبر من أن يلبس في مناسبة كهذه بالطبع قالت هذه الكلمة في شيء من الحب والحنان فلم أتضايق.

في الساعة العاشرة ليلاً حضرت إلى الفيلا امرأة ومعها مجموعة من النساء

وكانت تحمل عوداً في يدها.

سألت نجلاء عن هذه المرأة فقالت إنها مطربة وإنها اختارتها خصيصاً لكي أستمع إلى الغناء السعودي أي الغناء المحلي والذي كنت أعرفه تمام المعرفة فقد دأبت على سماعه مع زوجي فريد ولوحدي في أحيان كثيرة ولكنها بالطبع هذه هي المرة الأولى التي أسمعه فيها في حفل نسائي.

وانهمكت أيضاً في مشاهدة أنواع جميلة من الرقص النسوي حتى إذا ما أحسست بتداخل الأنغام الموسيقية في عروقي اندفعت أشارك كل هذه القدود الجميلة التي أخذت تساير أحدث الرقصات في هدوء وخفة وخطوات ثابتة تدل على معرفة أكيدة بها، ولقد شعرت أنني أشبه بفراشة تتوهج في ضوء هذه العيون الكحيلة التي أخذت ترمقني بشيء كثير من الود الذي رحبت به واحترمته وتفاعلت معه إلى درجة جعلتني أشعر وكأني أعرف هؤلاء السيدات منذ زمن بعيد. باختصار المرأة في الجزيرة العربية نسيج لم أرى مثله في أي بلاد من بلدان العالم.

ربما يكون هناك بعض الهنات الصغيرة التي قد تأتي من البعض لكنها وأعني هذه الهنات ليست في مستوى يجعلني أنكر بأن جمال وأناقة الفتاة في الجزيرة شيئاً له روح وطابع مميز.

يقولون بأن عالم المرأة لا يمكن أن يكون بهيجاً وممتعاً إذا فصلناه عن عالم الرجل لكنني لم أحس بهذا الكلام وإنما العكس شعرت بأنني سعيدة وسعيدة جداً من هذا العدد الوفير من الفتنة التي تمشي على الأرض تمتلىء بها ردهات الفيلا لتمنح كل ركن فيها شيئاً من جمالها ورائحة عطرها الأخاذ.

نجلاء كانت هي الأخرى سعيدة فلقد حدثتني ونحن نعود إلى البيت بأنها كانت خائفة أن لا يكون الحفل مناسب شددت على يدها وقبلتها على وجنتها شاكرة وقلت لها ومن كل قلبي:

ـ لقد أسعدتني فعلاً بإقامة هذا الحفل الذي رأيت فيه ما رأيت وشعرت بأنني واحدة من فتيات هذه الصحراء الخيرة وليس من حريم ألف ليلة وليلة كما يحاول بعض الناس أن يصفوكم أنتم بنات الصحراء.

ضحكت نجلاء عندما قلت ما قلت وتأكدت في قرارة نفسها بأنني سعيدة

وأن الحفل الذي أقامته كان بالفعل أكثر من رائع.

وعرفت لماذا تسمى الجزيرة العربية بجنة المرأة الحقيقية في هذه الدنيا فعالم المرأة في هذه البلاد أوضح من شمس النهار لأنهن يعشن حياتهن على أجمل ما يردن بعيداً عن منغصات الطريق والشارع والناس والاختلاط المزري الذي يكبل يد المرأة ويعقدها ويصنع منها دمية لا تدري إلى أين تتجه أو حتى تسير.

الفصل الثالث عشر

لا شيء أقدر على إدخال البهجة على النفس أكثر من الحب والحب أنواع ودرجات، حب الزوجة والزوج والابن والابنة والأب والأم، تلك هي حقيقة يمكن أن نضيف إليها حقيقة أخرى وهي الصداقة فالصداقة عنصر هام يمنح الإنسان الكثير من البهجة تتجلى واضحة عندما يرى الصديق صديقه ويحاوره ويحادثه.

نجلاء بالنسبة لي أصبحت أول صديقة، صديقة اخترتها عن حب فهذه السيدة تجعلك تحس بالاطمئنان وأنت إلى جوارها.

هكذا كنت أحدث نفسي وأنا أطالع وجه نجلاء التي افترشت الحشيش في أعقاب سباحة عنيفة أمضتها في بيسين الفيلا حتى إذا ما أنهت هذه السباحة وخرجت من البيسين وملابسها تقطر ماء لتحنو على الزهور الصغيرة التي كانت تنتشر في أرجاء الحديقة.

ماتيلدا تغدو وتجيء تلبي رغباتنا وطلباتنا في هدوء وعلى وجهها ظل ابتسامة فهي تعرف كل شيء عن سيدها وحياته وأسرته.. عندما قال سيدها بأنه سوف يدعو زوجته الفرنسية لزيارة جدة خافت بادىء ذي بدىء بدء فهي تعرف العقلية الأوروبية وتعرف أيضاً عقلية المرأة السعودية لكنها وكما أخبرتني أنني بعد أن وصلت جدة ورأتني وتحدثت معي أحست بالكثير من السعادة ولقد قالت لي إنها شعرت أنني إنسانة طيبة وآسرة وأستطيع أن أتفاعل بهدوئي وطيبتي مع هذا المجتمع السعودي.

يقولون بأن المرأة بإحساسها المرهف ومقدرتها العجيبة على قراءة أفكار الآخرين قادرة على استشفاف المعاني من بين عيون

النساء والرجال معاً.

ولهذا فماتيلدا لم تخطىء عندما حدثت نفسها بأن سارة زوجة مدهشة وإنسانة كبيرة قادرة على المنح والعطاء والوفاء أيضاً.. هكذا قال لي زوجي باسماً عندما عرف رأيها بي.

كانت ماتيلدا تحدثني عن نفسها كلما جلسنا نتجاذب أطراف الحديث كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً فهي تبدو أنها قد ارتاحت إلي كثيراً ولقد عادت في إحدى هذه الجلسات بذاكرتها إلى الوراء قليلاً.. إلى يوم كانت شابة تتذكر بداية حياتها لأنها عاشتها بكل دقائقها في أثينا.. وتتذكر ماتيلدا وتقول وكأنها تخاطب نفسها:

- إن المرأة التي تعمل اليوم هنا هي ليست تلك الشابة التي كانت تقف بين جموع الحاضرين تقدم لهم بخطواتها الرشيقة وجسدها الرائع ووجهها الدقيق أحدث ما أخرجته الموضة ودور الأزياء اليونانية وذلك في محل يبيع الأزياء في فندق هلتون.

أحياناً أفكر أنه ربما كان هناك بعض الشبه بين شبابي وشبابك أنت يا سيدة سارة ولكنني مع هذه الفكرة التي توصلت إليها لا أعرف عنك الكثير.. لا أعرف سوى أنك زوجة سيدي وأنك فرنسية وشابة طيبة بل إنسانة رائعة وأنه تحقق لي صدق ما قاله سيدي فريد عنك.

أما نجلاء فهي تعرف كل شيء عن هذه الوافدة التي احتلت مكاناً كبيراً في قلبها كما احتلت ذلك في قلب أخيها ففريد أخوها لا يمكن أن يخفي عنها أي شيء، يستشيرها ويأخذ رأيها ويستمع إلى وجهة نظرها في كافة الأمور رغم أنها أصغر منه ربما لما يلمسه فيها من رزانة ونضوج وربما لأنه يجد فيها صورة طبق الأصل عن أمه بتصرفاتها الصائبة وتفكيرها الراجح. المهم أن فريد قال لها بأن سارة لا تدري شيئاً عن حياة الأسرة وفضل أن تقول هي لها كل شيء حيث إنها لم تسأله يوماً عن أي شيء بالتفصيل.

هذا ما جاء على لسان ماتيلدا عندما كانت تحدث صديقة نجلاء عني والذي حدث أن سمعته بالصدفة أثناء ذلك الحفل الذي أقامته نجلاء في الكابين.

نجلاء في مجلسها قرب المائدة الصغيرة ترتشف قهوتها في لذة حائرة من أين تبدأ لكن حيرتها لم تطل لأنها طرقت الموضوع بعد ذلك مباشرة.. قائلة:

ـ لا بد وأنك تعرفين كل ظروف فريد الخاصة بعمله وكيف كان أو كيف ابتدأ وعلى ماذا أصبح عليه الآن ثم إنك لا بد وأنك تعرفين أيضاً بعض المعلومات عن حياته الشخصية وأسرته ولكن أخبريني أولاً عن رأيك في حياتنا في هذه الجزيرة؟

ثم صمتت لتستمع إلى رأيي أسرده بلدغتي الفاتنة الرائعة كما كانت تقول عنها نجلاء.

أحببتها فوراً ودون تردد:

ـ رائعة.. رائعة.. ولكني لا أكتمك القول فإن هناك أموراً كثيرة لم أسأل فريداً عنها حتى اليوم لا لأنني لا أريد أن أعرف دقائق حياة من أحب وإنما حتى لا أشعره بأنني فضولية أكثر من اللازم.

لقد كنت أستمع إلى كل ما يقول دون أي تعقيب ولهذا فأنا عندما جئت إلى هنا فوجئت بأشياء كثيرة. فوجئت برؤيتك ورؤية الأخ غسان وماتيلدا وأشياء أخرى كثيرة رائعة في حياة زوجي فريد.

وفي الحقيقة فأنا لا أعتقد بأن هناك قصوراً في معرفتي جاء مني أو منه، لقد أحببت أخاك وكان هذا في نظري كافياً لأن أرتبط به وتركت كل شيء آخر للظروف إلا ما كان بالطبع يفضي إلي به من تلقاء نفسه...

لم تستطع إلا أن تعقب على كلامي قائلة:

ـ ولكنك قلت له عن كل شيء في حياتك.. عن أسرتك، أمك، خالتك أبيك؟

وبابتسامة كبيرة أجبتها:

ـ تعرفين بأن المرأة عادةً أكثر ثرثرة من الرجل. ثم إنه بالفعل قد شاقني أن يعرف زوجي كل شيء عن حياتي وحياة أسرتي قبل أن نتزوج...

نظرت نجلاء إلي بهدوء ثم قالت:

ـ على العموم ربما لم يكن هناك فسحة من الوقت لفريد لكي يحدثك عن

حياته بالتفصيل وفي الحقيقة لقد شغلته بحبك الذي كان يحدثني عنه دائماً. . .

ضحكت وقلت:

ـ إنك مجاملة من الدرجة الأولى يا نجلاء وأنا متأكدة أن فريداً لو أراد أن يتزوج فتاة من أرضه لوجدها بسهولة.

وبشيء من الجد قالت نجلاء:

ـ أنت على حق ولكن دعيني أحدثك بما لا تعرفينه عن فريد. . لقد تزوج فريد في مطلع شبابه بواحدة من بنات الأسرة توفيت وهي تنجب ابنته إيمان التي تبلغ من العمر الآن اثني عشر عاماً.

وبلهفة سألت:

ـ ولكن أين إيمان الآن فأنا لم أرها؟

ـ هي مع شقيقي سعيد في بيتنا الذي اشتراه فريد في لوس أنجلوس.

أجابت نجلاء وهي تعاود النظر في وجهي الذي كان يبدو عليه إمارات التفكير، وفي الواقع نجلاء لم تدع لي الفرصة للتفكير بل واصلت الحديث قائلة:

ـ تعرفين عقلية البنات عندما يتعلق الأمر بامرأة تأخذ مكان أمها ولقد حاول أخي فريد أن يتعرف على رأي ابنته في موضوع زواجه مرة أخرى لكن الصغيرة كانت ترفض الفكرة بشدة ولذلك لم يتحدث معها بأمر زواجكما بل تركها لا تدري ومضى في تدبير أمر هذا الزواج الذي هو حق حقوقه.

صمتت نجلاء لبرهة من الزمن لم أدر معها ماذا أقول أو كيف علي أن أتصرف بعد أن عرفت ما عرفت. .

ثم استأنفت الحديث مرة أخرى فتحدثت عن حياة أخيها وأسرتها بالتفصيل حيث قالت لي كل شيء على ما أظن. لقد كانت تتحدث وكأنها تقرأ في كتاب مفتوح شعرت بعده بأنني أصبحت جزءاً من هذه الأسرة التي والحق يقال أحببتها من قبل أن أعرف أي شيء عنها وذلك من خلال حبي الكبير لفريد. .

ثم طلبت من نجلاء أن أرى صورة لإيمان فأحضرت لي مجموعة من

صورها مرتبة في ألبوم خاص بها. أخذت أطالع صور الألبوم في حب وكأني أشاهد صور ابنتي التي لم أنجب حتى إذا ما انتهيت منها قلت لنجلاء وأنا أفكر:

ـ ولكن كيف سيتسنى لي أن أرى إيمان وأتحدث معها عن أختها أو أخيها الذي هو في الطريق؟

نظرت نجلاء إلى عيني بعيون ملؤها اللهفة ثم اندفعت تقبلني فرحة بالنبأ الذي سمعته مني وبعد ذلك قالت:

ـ دعي ذلك الأمر للأيام ففريد على ما يبدو يحاول أن يصنع جسوراً بينك وبينها في هدوء.

ـ ولكني أحبها هذه الصغيرة الغالية.. أحبها لأنها جزء من فريد.

قلت لنجلاء أحاول أن أوضح شعوري نحو الصغيرة إيمان التي كان وجهها يطل علي ببراءة في صورة من صور الألبوم الذي كنت قد عاودت تقليب صفحاته.

قاطعتني نجلاء لتقول:

ـ أعرف ذلك وأحسه من كل قلبي فأنت يا عزيزتي إنسانة رائعة بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ.

الفصل الرابع عشر

عدت إلى نيس وأنا أحمل في جعبتي ذكريات كثيرة بدأت تطل من مخيلتي وأنا في مقعدي المفضل في شقتي في لابرتير أتطلع عبر النافذة إلى اللوحة الرائعة التي رسمها البحر أمامي والذي أخذ هو الآخر يبدو في هدوئه يضيف الكثير من الهدوء إلى نفسي..

ترى أويمكن أن أعيش كل أيامي وباقي حياتي هناك في جدة؟ ثم لماذا أصر فريد على أن أرافقه في رحلته إلى أستراليا بعد الشهور التي أمضيتها في جدة لأعود بعدها إلى نيس خالية الوفاض وحيدة ودون أن تسنح لي الفرصة لأتعرف إلى إيمان؟

لقد حاولت نجلاء أن تجعلني أمكث معها أطول مدة ممكنة فرجوت فريداً أن يسمح لي بالبقاء في جدة وأن يسافر هو بمفرده إلى أستراليا ولكنه رفض في حزم وقال لأخته:

ـ أنا أستبشر خيراً بوجود زوجتي معي في كل رحلة عمل أقوم بها.

في نيس وقبل سفر فريد عائداً إلى جدة حدثني لأول مرة بنفسه عن كل دقائق حياته وخصوصاً فيما يتعلق بزواجه وابنته إيمان التي اخترت بضعة صور لها أحضرتها معي من جدة ونثرتها هنا وهناك في شقتنا في نيس إلى جانب صور أمي وأبي وزوجي فريد.

كنت آمل أن آخذ من ألبوم الصور صورة لإيمان مع أمها ولكنني لم أتجرأ على أن أطلب هذا الطلب.. ولقد فوجئت بفريد وهو يضع الصورة أمامي بعد أن اختار لها إطاراً فضياً رائعاً قبلته بعيني وشكرته في كلمات قليلة ثم سألته باستغراب:

ـ كيف عرفت أنني أريد هذه الصورة؟

نظر إلى وجهي في دعة وسكون وقال:

ـ كنت أحس برغبتك هذه وأنت تقلبين صفحات الألبوم مرة مع نجلاء ومرات معي وأخرى لوحدك. . .

قلت في حب:

ـ أنت رائع يا زوجي العزيز لكنني أطمع في أن ألقى الصغيرة إيمان فهل لك أن تعجل في البحث عن أسلوب أستطيع معه أن أراها وهي راضية؟

ورد فريد:

ـ لك ذلك، وأنا أحاول منذ مدة أن أفعل هذا الأمر حتى ودون أن تطلبيه. أما اليوم فقد شعرت بأمومتك لها والتي تبدو جلية للعيان.

ثم أخذت أنا وفريد نتحدث عن الوافد القريب فقال لي مداعباً:

ـ أريدها أنثى فيها الكثير من جمالك وصفاتك. . .

قاطعته لأقول:

ـ بل أريده أن يأتي ولداً يحمل صورتك أنت.

وضحكنا سوياً بعد الحديث المحبب إلى نفسي. .

وعدت بعد سفره إلى الذكريات مرة أخرى. ترى كيف مرت الأيام التي أمضيتها في جدة؟

في الواقع لم أكن أظن أنني سألاقي كل هذا الترحاب من أسرة زوجي وخصوصاً أخته نجلاء، ولم أكن أظن أيضاً أن أجد المرأة في الجزيرة العربية على هذه الدرجة من الفهم والإدراك.

ولقد تعلمت الكثير في الشهور التي أمضيتها هناك على مقربة من البحر الأحمر فدفء الجو منحني مزيداً من دفء الصداقة الذي أصبح يرتبط في ذهني بأشياء كثيرة وكثيرة جداً.

فالمرأة في تلك الأرض تصنع حياتها كما تصنع الجدات من أشغال الإبرة أشياء جميلة ورائعة وناطقة حقاً.

لقد أحسست في كثير من الأحيان بضحالة ثقافتي وعزوت ذلك إلى أنني لم أصل في تعليمي إلى الدرجة التي يمكن أن أنافس فيها كل أولئك النسوة التي قابلتهن في جدة واللواتي وقد شعرت والحق يقال بتفوقهن العلمي والثقافي.

مضيت إلى غرفة المرسم الصغيرة أرتب أدوات الرسم وأنهمك في رسم أول لوحة للصغيرة إيمان حتى إذا ما انتهيت من جزء كبير منها بدأت برسم لوحة أخرى لنجلاء وثالثة للبحر في جدة ثم للفيلا وماتيلدا وبيسين الكابين الكبير وحفل العشاء الراقص ولوحات أخرى اختزنتها في ذاكرتي المتعطشة لتجسيد سعادتي التي أحسست بها تضطرم في داخلي منذ ذلك اليوم الذي غادرت فيه جدة إلى أستراليا ثم إلى نيس من بعدها.

وتمر الأيام وأنا أجد في أن أنهي أكبر عدد ممكن من اللوحات الخاصة بزيارتي لجدة حتى إذا ما انتهيت منها حملت اللوحة التي رسمت فيها إيمان واللوحة التي رسمتها لنجلاء وبعثت بها مشفوعة برسالة إلى نجلاء قلت فيها:

عزيزتي نجلاء:

صدقيني كنت حريصة على أن أنتهي من هذين الرسمين بأسرع ما يمكن وكنت أتصور أنني لن أستطيع تجسيد صفات البراءة والطيبة التي رأيتها ترتسم على وجه الصغيرة إيمان أو صفات الحب والخير التي رأيتها ترتسم على وجهك أنت ولقد شعرت وكأنني مدفوعة لأن أكمل الرسمين بأسرع ما يمكن وفي الحقيقة إنها المرة الأولى التي أنهي فيها رسمين في يوم واحد.

لا أدري فلربما كان للصغيرة إيمان ولك رأي فيما رسمت لكنني وبكل صراحة أقول لك بأنني قد أحببت الرسمين وشعرت بأنهما من أغلى ما رسمت ولهذا تجدينني قد أرسلتهما إلى أفضل مصور ليصنع لي صورتين لكل لوحة منهما احتفظت بصورة لكل منهما عندي وأرسلت لك صورة لكل منهما مع اللوحتين الأصليتين نفسهما كما ترين. أرجو أن توضع الصورتان في غرفة النوم التي قضيت فيها أحلى أيامي في جدة.

أما اللوحتان الأصليتان فهما هدية متواضعة لك من إنسانة أوروبية أعطتها حضارة الأرض التي تعيشين عليها أسلوباً جديداً في الرسم سوف تشاهدينه

واضحاً عندما تقرئين خطوط الريشة وألوانها التي اخترتها بعناية لأرسم فيها اللوحة التي تخصك وتلك التي تخص الصغيرة إيمان. وثقي أن سعادتي لم تفارقني وأنا أشمر عن ساعد الجد لأرسم ما رسمت.

هناك رسوم كثيرة غير هاتين اللوحتين اللتان أرسلهما لك، رسوم استمديت تفاصيلها من حياتكم في جدة ولتسمحي لي إذا وافق زوجي العزيز وعندما أكمل باقي الصور التي أفكر برسمها عن أرضكم أن أقيم معرضاً لكل هذه الرسوم في أحسن صالة عرض في مونت كارلو علماً بأنني بعد هذا العرض لا أنوي أن أبيع أية لوحة منها فهذه اللوحات بالنسبة لي لا تقدر بثمن ولا يمكن أن يدفع لي قيمتها أي إنسان كائناً من كان.

وعلى أية حال فإنني سوف أبعث بكل هذا الذي رسمت إليك لتتصرفي به وتنثريه هنا وهناك في الفيلا والكابين وبيتك الجميل كما أنك تستطيعين إهداء بعضها إلى من تريدين من صديقاتك.

أما ماتيلدا الغالية فلها عندي مفاجأة ومفاجأة كبيرة وربما غريبة فلقد حاولت عند رسم اللوحة الخاصة بها أن أراجع أحاديثي معها وأدرس من خلال ذلك أعماق أعماقها لأضع النقاط على الحروف وأودعها كل ما يدور في نفسها وعقلها. قولي لها ذلك وعذراً إن أخفقت..

ولك تحياتي..

المخلصة

سارة

الفصل الخامس عشر

كثيرة هي الاتجاهات التي تحدد معالم الصورة التي يرسمها الفنان أو الفنانة فواقع الحياة وظروف الإنسان نفسها ذات أثر وتأثير نسبي على ريشة الفنان المتميز القادر على بث خطوط الأمل في نسيج القماش عبر الألوان الزاهية والقاتمة معاً.

سارة بقدراتها الشابة وخطوطها المتلونة وقدرتها على الإبداع جعلت من مسارح الأحداث التي عاشتها في جدة عنواناً لمعرض شامل حضره العديد من الكتاب والنقاد وعشاق الرسم الذين أُخذوا بنضوجها الذهني والعاطفي لدرجة جعلت الناقد الفني في كل من جريدة الليموند والفيجارو يتحدثان بإسهاب عن إعجابهما ببعض لوحات سارة وفي مقدمتها لوحة ماتيلدا المرأة التي تمضي سنوات عمرها في بيت زوجها فريد.

كما نالت لوحة إيمان التي أعادت سارة رسمها مرة أخرى بأسلوب جديد أعطى تعابير الطفلة نضوجاً وقدرة على الإفصاح بما يعبق داخل أعماقها من خلال الشفافية التي أبرزتها جوانب الصورة المحيطة بالطفلة.

صالات فندق حياة ريجنسي الكبرى التي كانت ملآى بمئات الفنانين والنقاد الذين تهافتوا لرؤية المعرض وكان كتالوج الفنانة أسلوباً فنياً جميلاً جعل منه هو الآخر لوحة فريدة ونادرة لمجموعة الصور المعروفة من جهة ولوجه الفنانة التي اختلطت رؤاها باطن العينين الواسعتين التي يخال المرء لأول وهلة أنها عيون عربية. . تلك كانت انطباعات نجلاء عن معرضي الأخير والتي حدثت بها

ماتيلدا عبر أسلاك الهاتف أمامي.

وللحقيقة أذكر أن المعرض كان ناجحاً للغاية. كنت أسير أثناء ساعات العرض برفقة زوجي فريد أتحدث إلى هذا وهذه أو تلك في شيء من الغبطة والحرية وكنت أرتدي فستاناً لؤلؤياً فضفاضاً حاولت من خلاله إخفاء التكويرات الطبيعية التي أخذت تبرز على جسمي.

ولأول مرة تحضر نجلاء معرضاً لفن الرسم فدراستها العلمية التي تميزت بها لم تكن تعطيها الفرصة للاطلاع على هذا النوع من الفنون لكنها وبعدما تلقت دعوة سارة لحضور المعرض أصرت على أن تصحب أخاها في رحلته إلى نيس ليكون بجانب زوجته إبان أيام المعرض وهكذا كان..

وفي آخر يوم من أيام المعرض انتحيت مع فريد ونجلاء ركناً قصياً في المعرض حتى تتاح الفرصة لي لاسترجاع قواي بعد هذه المدة الطويلة التي وقفتها على قدمي أتجول في أنحاء المعرض وأشرح لجمهور المشاهدين ما يريدون معرفته عن اللوحات المعروضة وكذلك كي أعمل على استجماع نفسي بعد كل هذا الإطراء والمديح الذي تلقيته على حد تعبير زوجي فريد.

قالت نجلاء:

ـ كنت أكثر من رائعة يا سارة وأنت تسيرين بين كل هذه الجموع التي جاءت لتلتقي مع ريشتك الرائعة ولكني وعلى الرغم من مراقبتي لكل صغيرة وكبيرة كانت تدور في أرجاء المعرض إلا أنني لم أنسَ أن أتابعك بعيني كطبيبة ولقد شعرت بأنك في حاجة ماسة لزيارة طبيبك.

هززت رأسي موافقة وقلت لنجلاء:

ـ كأنك تقرئين أفكاري ففي الحقيقة إنني بالفعل في حاجة لزيارة الطبيب وأنوي أن أفعل فور انتهاء المعرض أي هذا المساء بالذات.

ما إن سمع فريد حوار أخته معي حتى شدنا نحن الاثنتين من أيدينا ليخرجنا من المعرض متجهاً إلى السيارة ومنها إلى عيادة الطبيب دون إبطاء.

قال لي الطبيب بعد أن فحصني:

ـ أنت في أمس الحاجة إلى شيء من الراحة فالإجهاد يا سيدتي واضح

على وجهك تماماً كما ترين ولا أظن أنك ترغبين في أن يحس أو تحس بشيء من التعب.

ضحكت عندئذ وأنا أسمع الطبيب يتكلم عن الجنين الذي في بطني بهذه الطريقة، أما نجلاء فقد قالت للطبيب:

ـ ما رأيك يا دكتور فيما إذا كنا نريد أن نتعرف بشكل أفضل على الجنين.. ألا تظن أنه بالإمكان استخدام الموجات الصوتية من أجل الكشف عن هذا الصغير الماكر الذي بات يتعب أمه؟

أجاب الطبيب في هدوء:

ـ رغم أني من أنصار أساليب الطب القديمة يعني طبيب دقة قديمة كما يقولون إلا أنه لا مانع لدي إذا رضيت السيدة سارة بهذا الكشف. لقد اقترحت عليها ذلك من قبل ولكنها استنكفت أن تقوم به فهي تريد أن تسير الأمور في طريقها دون أي تدخل في المعرفة والكشف عن المولود قبل قدومه، هذا بالطبع علاوة على أن للموجات الصوتية ضررها كما تعرفين وأنت طبيبة..

والتفت إلى نجلاء أرجوها أن تصرف النظر عن هذا الأمر وقفلنا عائدين إلى بيتنا في لابرتير والطفل القادم والمعرض الذي أقمته للوحاتي عن المملكة العربية السعودية وأهلها يشغل بالنا ويستأثر بتفكيرنا حتى إذا ما وصلنا البيت أدارت نجلاء قرص التلفون لتتحدث حديثاً طويلاً إلى إيمان في لوس أنجلوس ثم أعطت السماعة إلى فريد الذي ابتدأ هو الآخر مع ابنته حديثاً طويلاً كله أبوة وحنان.

وبعد مضي فترة غير قصيرة أنهى الحديث وأعاد السماعة إلى مكانها بينما كنت أنقل بصري بين وجه فريد ووجه سارة التي عرفت على الفور ماذا يدور بخلدي وقالت في هدوء:

ـ لم يحن الوقت بعد لأن تتحدثي معها يا سارة.

واستسلمت للأمر الواقع وأخذت أدردش مع نجلاء في موضوعات شتى حتى جاء ذكر اللوحتين اللتين رسمتهما لها ولإيمان فسألتها عما إذا كانت إيمان قد رأت اللوحة التي تمثل صورتها وعندما أجابتني بالإيجاب عدت

أسألها عن رأي إيمان في صورتها التي رسمتها لها وعما إذا أعجبتها.

ردت نجلاء قائلة:

ـ يكفي بأن أقول بأنها أي إيمان قد أحبت الصورة لدرجة طالبتني معها أن تتعرف على من رسمتها لها...

سادت فترة صمت بيننا نحن الثلاثة كنت خلالها أفكر في أمور كثيرة. في زواجي من فريد وفي صداقتي وحبي لأخته نجلاء وفي عاطفتي المتدفقة نحو إيمان التي لم أرها بعد.

قطع فريد الصمت طالباً مني أن أذهب فأستريح قليلاً ومن ثم أرتدي ملابسي فقد عزم على أن نذهب لقضاء السهرة في كازينو الشموع السوداء في مونت كارلو احتفالاً بوجود نجلاء بيننا ثم أردف قائلاً:

ـ هذا بالطبع إذا كنت تشعرين بأنك تستطيعين الذهاب..

قاطعته لأقول:

ـ بالطبع أستطيع فالإرهاق الذي أشعر به سوف يزول بعد أن أستلقي قليلاً ثم إنني لن أفسد على نجلاء متعة السهر في الكازينو المذكور مهما كان السبب.

ضحكنا جميعاً ودخلت غرفة نومي بعدها لأستريح قليلاً بينما انهمكت نجلاء مع أخيها في حديث طويل متشعب.

وبعد ساعتين كنا في طريقنا إلى مونت كارلو. لا أدري كيف بدأ الحديث في الطريق ولكن كل ما أعرفه أنني سمعت نفسي أحدث فريد ونجلاء عن خوفي من هذه الطرق الصغيرة المتعرجة ثم بدأت أتحدث عن قصة موت الأميرة جريس كيلي زوجة أمير موناكو هنا في مونت كارلو وموت أخيها في أمريكا بعد ذلك مباشرة. وكيف أن الصحف تحدثت عن ذلك بإسهاب وبعدها وجدت نفسي أردد ضاحكة:

ـ لا أدري فقد بت أخاف أن يصيبني ما أصاب هذه السيدة الجميلة وأعني جريس كيلي...

ضحكت نجلاء من كلامي أما فريد فقد تجهم وجن وطلب مني أن لا أقود

سيارتي بنفسي ثم قال:

ـ سأبعث في طلب الحاج محمود سائقي ليكون تحت تصرفك في هذه الفترة من شهور الحمل.

أمضينا جميعاً سهرة ناجحة نسيت بعدها كل شيء عن حديثي العابر لكن فريد هو وحده الذي لم ينس ذلك بل أخذ يفكر فيه ويقلبه يميناً وشمالاً حتى إذا لم يجد ما يجعله ينشغل بكلام عابر كهذا حاول أن يتناسى الموضوع بلا فائدة. ولقد أتى على ذكر هذا الذي جال في أعماقه بسبب حديثي عن الموت والخوف والطرق المتعرجة وما إلى ذلك ورجاني ألا أعاود مثل هذا الكلام أمامه الشيء الذي أكد لي رقة إحساسه ومدى حبه لي وخوفه علي وهذا شيء لا وجود له في دنيا المرأة الأوروبية اليوم.

الفصل السادس عشر

الهدوء يغطي العمارات الثلاث التي أقيم في إحدى الشقق فيها والتي تربض فوق الهضبة الصغيرة المواجهة للبحر في لابرتير بينما أضواء القمر تتسلل عبر نوافذ الغرفة التي اخترت أن أجعلها مرسماً لي في جهة وركناً لسماع الموسيقى في الجهة الأخرى.

كان السؤال الذي يشغل بالي والذي لم أجد إجابة عنه بعد هو متى يمكن لزوجي وأخته نجلاء أن يتحدثا عني للصغيرة إيمان؟ فقد أصبح من غير السهل علي أن أعيش بعيداً عن جدة بعد أن استمرأت الحياة فيها خلال تلك الشهور التي أمضيتها هناك، ولقد أصبحت في هذه الأيام أحس بأنني هنا في نيس أفتقد الحب والصداقة والحنان التي لقيتها خلال زيارتي لجدة.

إنني على يقين من أن ما يؤخر ذهابي إلى جدة والبقاء فيها هو تلك الطفلة الصغيرة إيمان فلقد أصبحت محور أحاديثنا بعد عودتي من جدة ولقد عرفت أن هذه الصغيرة التي لم تكحل عينيها برؤية أمها لكونها توفيت في أعقاب ولادتها ترتبط ارتباطاً كلياً بأبيها وتتعلق به ولهذا أرسلها والدها فريد إلى لوس أنجلوس عند أخيه سعيد أثناء زيارتي لجدة.

إنها لا تعتقد مطلقاً بأن أباها يمكن أن يتزوج وأن يصبح هناك من يشاركها في حبه وحنانه هذا ما يحسه فريد وأيضاً نجلاء ولذلك فإن الأمر ليس بمثل تلك البساطة التي كنت أظنها ففريد حريص على نفسية ابنته ويعرف تماماً أن أمراً كهذا إن لم يعالج بحكمة وروية فإنه قد يسبب لها انهياراً. هذه الصغيرة التي لا تدرك أنني أحببتها رغم

أنها بعيدة عني ولم ترها عيناي حتى الآن.

ومضيت أفكر وأفلسف ظروف حياتي مع فريد وأسلوب العيش في مجتمع جدة، والذي أصبحت جزءاً منه، لم أكن أظن أنني سأحب الحياة الجديدة التي عشتها كما هي عليه في جدة فالمفروض أن الدماء الأوروبية التي تسري في عروقي تجعلني أرفض بأن أكون بحكم العادة والبيئة واحدة من هؤلاء السيدات اللواتي رأيتهن هنا وهناك في الحفلات التي كنت أغشاها والزيارات التي كنت أقوم بها مع نجلاء، ولكن مع ذلك وجدتني أندمج معهن وأصبح في زمن يسير واحدة مثلهن تماماً. ربما لأنني لم أعش الحياة الأوروبية التي تعيشها المرأة في الغرب وربما لأنني بطبيعتي أميل إلى حياة الأسرة والبيت وربما لأنني أنا الأخرى قد فقدت أمي وأنا صغيرة عندما هربت عائدة إلى أهلها في ألمانيا وتركتني أتمنى في أعماقي أن أعيش وسط أسرة تهتم بي وترعاني وربما وربما.

عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير قلت لنفسي:

- سوف أدع كل شيء للأيام فلربما استطاعت هذه الأيام أن تمنحني كل ما أرغب فيه.

ودخلت غرفة نومي أحاول أن أنام فالوقت قد أصبح متأخراً ولكني ما إن تمددت على السرير حتى فوجئت برنين الهاتف. رفعت السماعة فجاءني صوت زوجي وهو يقول من ضمن ما يقول:

- لقد عادت الصغيرة إيمان إلى جدة وبدأت نجلاء تتحدث معها عنك.

- عني أنا؟ كيف وماذا قالت لها عني؟

سألت بلهفة فأجاب فريد:

- لا تقلقي. دعي الأمر لأختي فهي قادرة تماماً على أن تمهد الطريق أمامنا مع هذه الصغيرة العنيدة التي نحب.

وأقفل سماعة الهاتف بعد أن تحدث عن أشياء أخرى طلب مني إنجازها في صباح اليوم التالي كما أنه لم ينس أن يوصيني بأن أواظب على زيارة الطبيب خصوصاً وأنني قد أصبحت في الشهر الأخير من شهور الحمل.

طار النوم من عيني بعد مكالمة فريد ولم أجد نفسي إلا وأنا أدير قرص

الهاتف أطلب نجلاء ولكن زوجها أجابني بأنها في المستشفى لأنها الطبيبة المناوبة في تلك الليلة.

اعتذرت لزوج نجلاء عن هذه المكالمة التي تأتي في ساعة متأخرة من الليل وطلبت منه أن يخبر نجلاء بأن تتصل بي في أقرب فرصة ممكنة.

بعد ذلك تمددت مرة أخرى على سريري أفكر وأحاول أن أربط ما في حياتي بالحاضر والمستقبل كما أخذت الذكريات تطل من مخيلتي في سلسلة صور متتالية وكأن الحياة مجرد كتاب مملوء بالصور مضمخ بالزهور حيناً وبالأشواك أحياناً أخرى حتى إذا ما نمت قليلاً وجاء الصباح عاودت طريقي إلى المرسم وأخذت أخط بريشتي على اللوحة الجديدة التي أرسمها خطوطاً اخترتها لتكون ولتمثل وليدي الذي أنتظر، أما عندما تحددت خطوط الرسم رأيت أنني في حقيقة الأمر لم أرسم سوى ملامح زوجي على هيئة طفل صغير، ضحكت من أعماقي وقلت في نفسي:

ـ ربما كان ابني الذي سوف يأتي قريباً صورة مصغرة من زوجي الذي أحب.

وفي العصر أخذت سيارتي واتجهت بها إلى عيادة الطبيب الذي قام بفحصي وطمأنني على أن كل شيء على ما يرام وأنني سوف أضع مولودي في آخر الشهر أي بعد عشرة أيام تقريباً. نظرت إليه في شيء من البلاهة وكأني لم أستوعب ما قاله فسألني:

ـ ما بك؟

قلت:

ـ لا شيء ولكنها المفاجأة لقد كنت أظن أن ولادتي سوف تكون متأخرة عن هذا التاريخ، على الأقل في الأسبوع الأول من الشهر القادم...

علق الطبيب على كلامي قائلاً:

ـ لا تقلقي فتأخر الولادة أو تقدمها بضعة أيام عما يحدد لها أمر يحدث في كثير من الأحيان ولا خطورة فيه أبداً وعلى العموم سأتحدث إلى فريد غداً وسوف أنقل إليه كل أخبارك.

ـ لا بل دعني أقول له أنا ذلك.

رد الطبيب:

ـ لا عليك يا سيدتي يمكنك أن تقولي له ما تريدين ولكني شخصياً مطالب بأن أخبر زوجك بهذا الأمر ليس لأنه طلب مني ذلك بل لكوني صديقاً له ولا بد أنك لا ترضين بأن تحرميني شرف التحدث إلى صديق أحبه.

ضحكت من كل قلبي وشكرته بعبارة قصيرة أحاول فيها أن أنهي حديثي معه إذ لاحظت أن سيدة أخرى كانت في طريقها إلى غرفة الكشف فحياني وانصرف إليها.. غادرت عيادة الطبيب وأنا أفكر بالطريقة التي أنقل بها هذه الأخبار الطيبة إلى زوجي ولكن بعد فترة من التفكير رأيت أن أترك هذه المهمة للطبيب ما دام هو شخصياً يرغب في إبلاغها إلى زوجي فريد.

وصلت البيت وغيرت ملابسي ثم اتجهت إلى مرسمي وانهمكت في إنهاء صورة الوليد الذي أنتظر، كان يعمر قلبي إحساس بالأمان والاطمئنان لم أشعر بمثلهما في أي يوم من الأيام.

بعد أن انتهيت من وضع اللمسات الأخيرة على اللوحة اخترت لها إطاراً مناسباً ثم طلبت من خادمتي بعد أن وضعتها في علبة أنيقة أن تأخذها إلى البريد وترسلها كطرد قابل للعطب إلى جدة ولقد جعلت العنوان باسم نجلاء بدافع داخلي وكأنما كنت من خلال هذا العمل أودع صورة وليدي بل وليدي نفسه فيما لو أصابني مكروه أمانة في عنق هذه المرأة التي أحببتها من كل قلبي.

وأحسست بعد أن ذهبت خادمتي باللوحة إلى البريد بشيء من الراحة النفسية وأصابتني حالة من الهدوء جعلتني أبحث وأنقب عن أسلوب يمكن لي من خلاله أن أصل إلى قلب الصغيرة إيمان في أسرع وقت ممكن ليس من أجلي فقط وإنما من أجل المولود المنتظر أيضاً وحتى يلتئم شمل أسرتنا الصغيرة فلا أعود أعيش أنا هنا مع طفلي أو طفلتي وفريد هناك في جدة مع إيمان ولكن في النهاية لم أجد بداً من الانتظار فالمشكلة في حقيقة الأمر وإن كانت مشكلتي فهي أيضاً مشكلة الجميع وعلى هذا حدثت نفسي قائلة بأن علي أن أتناسى هذا الموضوع في الوقت الحالي وأن أفكر فقط في نوعية الحياة التي سوف أمارسها بعد أن أضع مولودي وأصبح أماً.

وفي هذه اللحظة شعرت بحاجة لأن أتحدث إلى أي إنسان ففضلت وللمرة الأولى أن أتحدث عبر الهاتف إلى أمي التي استقبلت المكالمة بشيء من الخوف لأنها لم تتعود أن أتحدث إليها كثيراً فسألتني مستفسرة:

ـ ما بالك؟ هل حصل مكروه جعلك تطلبينني تلفونياً على غير العادة؟

ضحكت وقلت لها:

ـ لا بل على العكس فأنا سعيدة كل السعادة لكن سؤالاً أخذ يلح علي فلم أجد له جواباً فرأيت أن أسألك عنه.

قالت أمي:

ـ هيا قولي فأنا في شوق لأن أعرف ماذا يشغل بالك...

قلت:

ـ يشغلني هذا الحمل الذي أوشك أن ينتهي فلقد قال لي الطبيب أن ولادتي ستأتي بعد بضعة أيام وهأنذا أنتظر يوم الوضع بفارغ الصبر ولكن لجهلي بما سوف يحدث لي رأيت أن أسألك كيف استقبلتني يوم جئت إلى هذه الحياة؟ وهل كانت آلام الوضع التي سببتها لك شديدة؟

ضحكت أمي وقالت:

ـ لكل ولادة ظروفها لكن الذي أحب أن أقوله لك هو أن المرأة عندما تلد تشعر بأنها منحت العالم عنصراً جديداً هو في نظرها يفوق كل العناصر الأخرى في الدنيا بهاءً وجمالاً ثم إن آلام المخاض التي عانيتها ذهبت فور رؤيتي وجهك وهو يطل علي.

وصمتت أمي قليلاً وكأنها تسترجع تلك اللحظات الحبيبة إلى نفسها فقلت أحثها على الكلام:

ـ ثم ماذا؟.

أجابت أمي:

ـ لا تستعجلي الأمور دعيها تأتي في حينها عندما تضعين مولودك ستعرفين كل شيء ثم بعد كل هذه السنوات لا أعتقد أنني قادرة على أن أحدثك بالتفصيل عن كل ما حدث يوم مولدك باختصار يكفيك ما قلته لك وضعي الآن

سماعة التلفون مكانها فلربما أصبحت فاتورته أكبر مما تتصورين، وهذا سيكلفك مبلغاً أنت في غنى عن دفعه.

اختلطت بعد ذلك الأحداث بذاكرتي وأصبحت في جلستي تلك على الأريكة إلى جانب الهاتف أشبه بفيلسوفة لا رسامة ومضيت أنتزع الأشواك من كل تلك الأحداث التي مرت بحياتي وأبقى على الورود والأزهار فيها حتى إذا ما انتهيت من ذلك تاقت نفسي إلى أن ألقي برأسي على صدر زوجي فأنا اليوم في أمس الحاجة إلى وجوده إلى جانبي بل وأكثر من أي يوم مضى فالأمومة كما بت أراها ليست أمراً سهلاً..

يقولون بأن المرأة تعيش لنفسها بصورة دائمة حتى تنجب وعندها يصبح وجودها كله للوليد الذي تحمله بين يديها بعد أن حملته لشهور عديدة في بطنها، ولقد أحببت أن أكون أماً وهذه فرصتي ولعلها أيضاً فرصة تساعدني في الوصول إلى قلب الصغيرة إيمان ومشاعرها.. تلك الصغيرة التي لا تدري حتى هذه اللحظة أن هناك امرأة قد احتلت قلب وساعد أبيها بعد موت أمها.

وتهت بين شتى الصور التي انطلقت من عقالها لتؤلف في مجموعها شريطاً سينمائياً أقول عنه بقناعة إنه أكثر من رائع لأنه ينطوي على لحظات وأحداث سعيدة في حياتي..

لم يقطع حبل تفكيري في هذه السعادة التي أحيا بظلالها بفضل زوجي فريد سوى رنين جرس الهاتف يحمل إلي صوته عبر الأثير ليخبرني بأن الطبيب قد اتصل به وأنه هو ونجلاء في طريقهما إلي ليكونا إلى جانبي أثناء الولادة.

زغردت الفرحة في أعماق أعماقي وألقيت سماعة الهاتف مكانها ثم أدرت جهاز التسجيل لينساب صوت المغنية السعودية التي أحيت الحفل الذي أقامته نجلاء لي في البحر عندما كنت في جدة ويعيد إلى مسامعي تلك الأغنيات التي غنتها فيه حلقت مع الأنغام حتى إذا ما غفلت عيناي بعض الشيء وشعرت بالنعاس يداعب جفوني امتدت أصابعي أقفل جهاز التسجيل وأغط في نوم عميق هادىء تتخلله أحلام كثيرة تزفها موسيقى عذبة من تلك الموسيقى التي كنت قد استمعت إليها قبل أن أنام.

الفصل السابع عشر

ويمتد الطريق بين منطقة لابرتير حيث شقتنا والطريق الجبلي الضيق المتعرج حتى إذا ما وصلت السيارة بنا مرة أخرى إلى الطريق المحاذي للبحر اندفعت إلى الأمام ببطء شديد قصد به زوجي فريد عدم إزعاجي قدر الإمكان بينما انبعثت من راديو السيارة موسيقى ناعمة هادئة خلتها تنساب إلى آذاني بصورة رتيبة وأنا أقبع في المقعد الخلفي وإلى جواري الدكتورة نجلاء التي أخذت تسري عني بكلمات وعبارات ضاحكة تخفف عني آلام المخاض التي كانت تنتابني بين فترة وأخرى، وأخيراً وصلنا إلى مستشفى الولادة واستقبلتنا الورود الجميلة الزاهية الألوان المنتشرة عبر مدخل المستشفى وفي ردهاته وأركانه الأخرى تبعث الأمل في النفوس وتملؤها بالبشر والتفاؤل.

يقولون إن النظافة هي شيء ضروري وهام في حياة الإنسان بل هي من مقومات صحته وعنوان رائع لتقدمه وقد بدت المستشفى كلها بالفعل في حالة تجسد هذا المفهوم وتوضحه فردهات المستشفى كانت تبدو وكأنها ألواح من بلور اقتعدت الأرض في تنسيق ظاهر.

عند مدخل المستشفى كانت ممرضة الاستقبال تقف في انتظاري حتى إذا ما وضعت قدمي داخل المستشفى طلبت مني أن أجلس على الكرسي المتنقل الذي جهز لي وفقاً لأنظمة المستشفى ولكني رفضت ومضيت مع الجميع على قدمي إلى الغرفة التي أعدت لاستقبالي لتأخذ رحلة الكشف عن حالتي والاستعدادات الأخرى التي تتبع ذلك طريقها في دأب ونظام وصورة طبيعية إذ لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق وإلى اتخاذ ترتيبات غير عادية كما أوضح الطبيب.

أمضيت ليلتي على سريري المواجه للسرير الصغير الذي قبعت فوقه نجلاء بوجهها المشرق وأحاديثها اللطيفة التي حاولت بها أن تأخذني بعيداً عن آلام المخاض التي أصبحت تنتابني بصورة منتظمة وعلى شكل أكثر تلاحق نسبياً عما كنت أشعر به في السابق وفي الواقع لقد انخرطنا أنا ونجلاء في حديث طويل هامس كانت تقطعه بالطبع نوبات من الألم في الظهر وفي أسفل بطني وفي آخر الليل استطعت أن أنال سنة من النوم استيقظت منها في الصباح إثر شعوري بالآلام التي زادت عن الحد الذي كنت أحس به قبل أن أنام.

وجاء الطبيب إلى غرفتي ووقف قليلاً مع مجموعة من مرافقيه حتى إذا ما أنهى الكشف علي طلب أن أنقل على نقالة إلى غرفة الولادة في المستشفى وهكذا كان إذ وجدت نفسي أتمدد على النقالة بمساعدة نجلاء وإحدى الممرضات لتجر النقالة بعد ذلك في ممرات المستشفى وردهاتها بينما عيناي معلقتان في السقف أدعو الله حيناً أن يمضي كل شيء على خير وسلامة وأنظر حيناً آخر إلى وجه زوجي فريد الذي كان يسير على قدميه بحذاء النقالة بوجه تكسوه بسمة خفيفة لم تستطع أن تخفي معالم القلق الذي تمتلىء به نفسه.

استأذنت نجلاء أن تكون مع الطبيب أثناء الولادة بحكم مهنتها فلم يمانع وهكذا دخلت غرفة الولادة ليأتي بعدها بفترة وجيزة صوت ابني معلناً عن وصوله إلى هذه الحياة.

بعد عودتي إلى غرفتي بقيت فيها مع نجلاء وبعض الممرضات فترة بسيطة من الوقت خلتها في الحقيقة دهراً طويلاً فقد كنت بأشد الشوق لرؤية فريد بعد هذه الأخبار السارة التي حملتها له أخته نجلاء فور تأكدها من أن الولادة قد تمت وأن كل شيء على ما يرام.

وجاء زوجي بوجه تكسوه هذه المرة ابتسامة كبيرة تنبىء عن عميق فرحته وسروره، وابتسمت له بدوري تلقائياً من كل قلبي حتى إذا ما بدأ تهنئتي بالسلامة دخلت الغرفة ممرضة تحمل المولود الذي كان في صورته الصغيرة تلك الصورة ناطقة من أبيه وكأنه لم يأخذ من أمه إلا لون عينيها الخضراوتين.

سعدنا أنا وفريد ونجلاء بالطفل وأخذنا نعلق على شكله وبكائه وصوته ثم أعيد إلى غرفة الأطفال حديثي الولادة بعد أن تلقى أول هدية من أبيه كانت

عبارة عن سلسلة ذهبية يتدلى منها ثلاث صور صغيرة واحدة لإيمان وأخرى لي والثالثة لنجلاء شهقت لرؤية الصور وعاتبت فريد لأنه لم يضع صورته إلى جانب المجموعة فضحك ضحكة صافية وقال:

ـ يكفيني أن تظل صورتي في قلوب هؤلاء.

وأشار إلى الصور الثلاث المدلاة من السلسلة في حب وسعادة.

يقولون إن الأمومة تضفي على المرأة نوعاً آخر من الجمال لا تعرفه قبل أن تصبح أماً وهذه هي الحقيقة فلقد شعرت أنني أبدو على أجمل ما كنت عليه في أي يوم مضى، هذا لم يكن رأيي لوحدي إذ إن أمر جمالي المتألق في تلك الفترة قد استرعى انتباه نجلاء وزوجي فريد.

ومضى الأسبوع الذي قضيته في المستشفى كأحلى ما تكون الأيام حتى إذا ما عدت إلى شقتنا في لابرتير وجدت أن زوجي قد اشترى باسم الوليد الشقة المجاورة لشقتنا وعمد إلى ضم الشقتين معاً لتصبحا شقة واحدة واسعة ولقد استرعى انتباهي بأن الشقة الجديدة بالإضافة إلى غرفة نوم الطفل وغرفة نوم مربيته كانت تزخر بأنواع الألعاب التي يفضلها الأطفال والتي رصت بعناية في غرفته وغرفة المعيشة التابعة لتلك الشقة.

احتفلنا بأسبوع ابني على الطريقة السعودية حيث قام فريد بدعوة بعض الأصدقاء كما قام بنفس الوقت بتسمية الطفل واستخدم الهاون عندما انتهى من التسمية بالطريقة المشروعة يدق فيه مخرجاً نغماً عالي الجرس فيه عذوبة وحلاوة وله طابع خاص لم أكن أعرفه من قبل ولقد رافق ذلك بعض العبارات التي كان يتمتم بها زوجي وسط فرح وتهليل الحاضرين.

وعاشت نجلاء الأخرى معنا أياماً جميلة تشاركنا فيها فرحتنا بالطفل ولقد أصبح يرافقنا في الخروج إلى المنتزهات وهو نائم في عربته الصغيرة لا يدري شيئاً عما حوله وذلك بعد أن عمد فريد إلى شراء بيبي كوت صغير وأفرد له مكاناً يعلق فيه بالمقعد الأمامي من السيارة.

ثم حانت ساعة رحيل فريد ونجلاء للعودة إلى جدة وفي ليلة وداعي لهما جلسنا نتسامر مع أن فكري كان مشغولاً في الأيام التالية والتي سوف أمضيها لوحدي مع ابني وتمنيت لو أنني أستطيع السفر معهما بل وجدت نفسي أسأل

فريد دون تفكير:

ـ أولم يحن الوقت ليلتئم شمل أسرتنا الصغيرة؟ أو بالأحرى أولم يحن الوقت لأن ترى إيمان أخاها الصغير؟

هز فريد رأسه في تفهم وحب وقال:

ـ أعتقد أننا سوف نصبح قريباً قادرين على تحقيق هذا الأمر، وفي الواقع لقد حاولت مراراً التحدث إلى الصغيرة إيمان التي كانت ترفض فكرة زواجي كلياً بادىء ذي بدىء، وفي أحد الأيام أذكر أني سألتها عما إذا كانت ترغب في أن يكون لها أخ إلا أنها لم تجب رأساً بل تساءلت وفي شيء من الخبث على ما أعتقد:

ـ وكيف يصبح لي أخاً وأنت غير متزوج؟

فأمسكت طرف الخيط من عند هذه النقطة وقلت لها بسرعة بأنه لا مانع لدي من أن أتزوج لأحقق لها هذه الرغبة وإذا بها تبكي وتترك الغرفة، ومع هذا فلا تقلقي سيتم تسوية الموضوع في القريب العاجل بإذن الله وعن طريق أختي نجلاء فأنا أؤمن أنها أقدر مني على توصيل هذه الفكرة إلى إيمان وإقناعها بها بل إني كنت قد طلبت منها أن تحاول مساعدتنا في هذا الموضوع.

أليس كذلك يا عزيزتي نجلاء؟

وقبل أن تفتح نجلاء فمها لتعلق على كلام أخيها كنت أنا أعاود الحديث قائلة:

ـ أرجو ألا تعتقدا بسبب إلحاحي هذا أنني أرمي إلى ما فيه مصلحتي ومصلحة ابني فقط صدقوني أنني أهدف إلى لقاء الأخت بأخيها لكي يتآلفا ويشبا معاً تحت سقف واحد ووسط بيئة أسرية طبيعية فيها أم ترعى أمورهما وأب يكون معهما دائماً وليس يوماً هنا ويوماً هناك ثم إنني وإن كنت لم أرَ الصغيرة إيمان إلا أنني أشعر أنها كابنتي تماماً وأنني أحبها، أحبها يا ناس ومن كل قلبي ألا تصدقون؟

قالت نجلاء تحاول أن تهدئ من انفعالي:

ـ نصدقك يا سارة بل إن كل حرف مما قلته أنت صادقة فيه فأنا أعرف

مدى حبك وتعلقك بإيمان من جهة وأعرف من جهة أخرى مدى حرصك على أن يتوفر لإيمان وأخيها الجو الأسري الذي حرمت أنت نفسك منه والذي لا ترغبين في أن يتكرر حدوثه معهما لأي سبب من الأسباب، وعلى أي حال فأنا كنت على وشك أن أقول لكما بأنني سبق وأن تحدثت مع إيمان عنك يا سارة وذلك يوم أن أعطيتها الصورة التي رسمتها لها والتي أعجبت بها أيما إعجاب يومها سألت عنك كثيراً وتمنت لو أنها تلقاك بل ولقد طلبت مني أن أحدثها عنك بالتفصيل فقلت لها بأنك فرنسية وأنك صديقة للأسرة جئت إلى زيارتنا عندما كانت هي في لوس أنجلوس عند عمها سعيد وأنك قد رأيت صورتها وأعجبت بها جداً وعلى هذا رسمتها وأرسلتها هدية إليها تعبيراً عن شعورك نحوها، وأذكر أنها علقت على ذلك قائلة:

- يبدو أنها سيدة طيبة وأنها قد أحبتني بالفعل حتى ترسمني على هذا النحو الرائع.

الشيء الذي يعني أنك قد أصبحت قريبة إلى نفسها وقلبها بطريقة أو بأخرى.

وانتهى الحديث عند هذا الحد ليذهب كل منا إلى سريره فقد كان على فريد ونجلاء أن يستيقظا باكراً للتأهب لرحلتهما إلى جدة.

وفي اليوم التالي ودعت زوجي فريد وأخته نجلاء التي اصطحبت معها ألبوماً فيه صور الصغير على أمل أن تري هذه الصور لأخته إيمان وتكمل مساعيها من أجل لم شمل أسرتنا، ذلك الهدف الذي أصبح الهاجس الوحيد الذي يملأ كياني وجوانحي.

الفصل الأخير

جميلة هي الحياة عندما تعطي وتهب وجميلة أكثر عندما يعايش الإنسان الصفاء والوفاء في بيته ومجتمعه ومحيطه.

وأجمل ما في الحياة هذا الإحساس بالراحة يتمثل في قدرة الإنسان على ممارسة حياته بلا خوف ولا قلق. يسير في هذه الدنيا خلي البال مستمداً من تجربته أسلوب عمل جديد فيها فلا شيء يهم الإنسان بمقدار ما يهمه انتزاع هذا الأسى من عينيه والعذاب من قلبه والخوف من بين ضلوعه.

أوروبا في الربيع أشبه بغانية بدأت في استخدام مساحيقها وظلالها في أناقة مفرطة بعد هجعة نوم طويلة فقسوة الشتاء فيها وإن كانت تمنح المرأة ظلالاً من الجمال الذي تريد من خلاله اختيار ملابسها الثقيلة بألوانها وفرائها إلا أن الصورة تظل مهزوزة بعض الشيء لأن الأشجار العارية التي نفضت عن نفسها رداء الخضرة وغرست رأسها في تيارات الهواء البارد لا يمكن أن تمنح المرأة كل ما تبحث عنه من جمال وجلال وأناقة.

ونيس هذه المدينة التي ترقد على مقربة من البحر تلتقط أنفاسها من خلال موجات من الناس الذين يعرفون كيف يختارون من شهور الراحة في أجوائها ومع ذلك لا يسعدهم رغم دفء المنطقة أن يبتعدوا كثيراً عن بلدانهم ومدنهم بالطبع إلا تلك القلة التي اختارت أسلوب حياتها عن رغبة وعن تدفق وكثرة في الأموال فبعض من يملكون بيوتاً على الشاطىء اللازوردي يهمهم دائماً أن يقضوا الشتاء والربيع فيه مستثمرين قدراتهم لإضافة ليالي جميلة بعيداً عن عيون

الناس وأضواء المجتمع.

وجدة هذه المدينة التي تلتقط أنفاسها وهي في حيرة من ظروف التطور الذي تمارسه نجدها هي الأخرى تسير في نفس الاتجاه وإن اختلفت ظروف هذا الاجتهاد بين مدينة في فرنسا وأخرى في الجزيرة العربية.

والبحر القاسم المشترك يمنح هاتين المدينتين مزيداً من الجمال يتمثل في أن الأرض التي عرفت كيف ترتدي ملابس الشتاء والربيع في أناقة يمكنها أن ترتدي دائماً وأبداً أجمل ملابسها.

وتظل المرأة هي المرأة في كل المجتمعات تترك فراءها وملابسها الثقيلة بعد انتهاء كل فصل شتاء لتستقبل الربيع بشيء من الحرية والتحرر.

والناس في المدن الكبيرة والصغيرة والمتوسطة بل وفي القرى أيضاً هم الناس وإن اختلفت أذواقهم ومشاربهم وتعددت هواياتهم في المدينة عنها في القرية.

كل هذه الأفكار كانت تطوف بمخيلتي وأنا جالسة قرب النافذة أرقب البحر وأنتظر أن يصحو وليدي فقد أصبحت في شغل شاغل مع هذا الوليد الذي أخذ ينمو في صحة جيدة وضجيج ما بين ضحك وبكاء ليشغلني عن معاودة الرسم، تلك الهواية التي أحببتها من كل قلبي ومارستها بكل همة ونشاط قبل قدومه.

ولقد استعضت عن هواية الرسم كما استعاضت جينا لولو بريجيدا عن التمثيل بآلة التصوير وأصبح شغلي الشاغل تسجيل حركات طفلي وسكناته بالصور ومن ثم الجري وراء استديوهات التصوير لتحميضها وطبعها في مجموعات كثيرة أقتنيها في هذه الفترة الوجيزة.

آن المربية السويسرية التي اختارها فريد لتكون على مقربة من طفلنا ترعاه وتعتني به هي الأخرى رغم سنواتها الأربعين تبدو وهي تحمل الطفل بين يديها وكأنها أم صغيرة فقد كانت آن من أولئك اللواتي امتزن بوجه طفولي (بيبي فيس) لا يسمح للزمن بأن يضع بصماته عليه.

ولقد صنعت من صور وليدي ومربيته السويسرية آن لوحات فوتوغرافية

كثيرة برهنت فيها على تفوقي أيضاً في التصوير وإلى درجة كبيرة كما أن البريد حمل أعداداً من هذه الصور إلى جدة فلم أغفل بالطبع أن أضع في باطن كل رسالة أكتبها لنجلاء مجموعة منها.

الفجر يكاد أن ينبلج وأنا إلى جانب وليدي أحنو عليه وأهدهده وأمسح على جبهته ورأسه بيدي بينما امتدت عيناي إلى الساعة فبعد قليل سألتقي بزوجي الحبيب القادم من جدة إلى نيس حتى إذا ما حان موعد اللقاء ارتديت ملابسي وأخذت طريقي إلى المصعد ومنه إلى الكراج أقود سيارتي السبور لأنهب بها الطريق وأنا أدندن بيني وبين نفسي بأغنية من أغاني الطفولة التي كنت أسمعها من أمي وأنا صغيرة وفي الحقيقة لقد كنت في قمة السعادة أما كلمات الأغنية التي كنت أدندنها فقد كانت تقول:

«لم أعد وحدي في ظلمة هذا الليل الحالك
فالفجر الذي بزغ نوره أورثني طفلاً
أحنو عليه وأحبه..
في عينيه جمال الحياة وضوء القمر
وجلال شجرة الصفصاف الكبيرة
عندما يبكي أسمع من خلال بكائه..
أصوات الطيور وترانيم البشر
كم أحبه هذا الطفل الصغير
أعشقه بجنون وأرمق في عينيه
ظلال ملونة وأزهار تمنح صدري..
عبق العاطفة وأحلى النغم..
هذا الطفل الذي أحبه
هو جزء مني وهبني الله إياه..
لأصبح أماً أتيه به في الحِل
والترحال والسفر

أماً تعرف كيف تختار طريقها
في الحياة بعيداً عن الأسى والشجن
أما زوجي فلا تسل عنه
إنه هنا في مكان ما من قلبي الصغير
يتراءى له اسمه وقد انطبع بهالة
من النور تمنح نفسي إشراقة الحياة
وروح الحب والنقاء وظلال الأمل. . .»

* * *

وانتهت كلمات الأغنية التي رددتها بصوت خلته تغريد الطيور رغم أنني أعرف أن صوتي لا يصلح للغناء، ومضيت وأنا أقطع الطريق إلى المطار بسيارتي أفكر في حب ترى كيف سأستقبل زوجي الذي لم يغب لحظة واحدة عن عيني رغم غيابه بجسده؟

لقد كنت أنتظره دائماً بلهفة لكني اليوم أكثر لهفة من كل الأيام التي مضت ولا أدري لماذا؟

يقولون إن عاطفة المرأة تنمو تجاه رجلها عندما يستولدها طفلاً أو طفلة.

وأطل على المطار لتلتقي عيناي باللوحة الكبيرة وهي تشير إلى هبوط الطائرة التي تقل زوجي حتى إذا ما أمضيت بضعة دقائق في صالة انتظار المسافرين القادمين أنظر هنا وهناك وأرقب هذا وذاك هلَّ علي وجه فريد بابتسامته المعهودة فهرعت إليه أرتمي في أحضانه كطفلة وجدت أخيراً أباها.

وسألته هذه المرة قبل أي كلام آخر وبلهجة أقرب إلى العتاب:

ـ أولم يحن الوقت لأن تأخذني معك إلى جدة لنبقى فيها معاً دائماً وإلى آخر العمر؟

نظر إلي زوجي بعينين ملؤهما الحب والشوق وقال:

ـ بل حان يا زوجتي العزيزة، سنتحدث عن كل شيء ونحن في طريقنا إلى البيت.

ـ كل شيء؟

رددتها في سعادة ونحن نسير في اتجاه موقف السيارات ويدي في يده. . .

ـ كل شيء.

أعادها فريد وهو يتسلم مقود السيارة كفارس قطع الفيافي والقفار على ظهر حصانه ليلتقي بفتاته التي يحب أما أنا فقد اطمأنيت إلى أن هناك أخبار سعيدة يحملها هذا الزوج الذي أضاء حياتي وملأها نوراً وبشراً وسعادة.

وفي الطريق إلى البيت اتصل الحديث بنا تارة نتحدث عن ابننا وتارة عن إيمان ونجلاء وجدة بكل من فيها من الأهل والأصدقاء.

قال لي زوجي وهذا أهم ما في الحديث:

ـ لقد وصلنا أخيراً إلى بر الأمان فقد عرفت إيمان كل دقائق حياتنا وعرفت أن لها أماً وأخاً ينتظران لقاءها بلهفة وشوق. . نجلاء أختي أخبرتها بكل شيء.

ألقيت برأسي على كتف زوجي وأغمضت عيني أفكر بأن سعادتنا أخيراً سوف تكتمل بينما أكمل زوجي كلامه قائلاً:

ـ كنت أظن أن الأمر غاية في الصعوبة خصوصاً بعد أن حاولت أكثر من مرة كما أخبرتك سابقاً ولكن نجلاء استطاعت أن تتسلل إلى قلبها وعقلها بحيث إنني فوجئت بها في أحد الأيام تمطرني بوابل من الأسئلة عنك وعن تعارفي وزواجي بك وكذلك عن أخيها الصغيرة الذي ولد مؤخراً والذي أطلعتها عمتها نجلاء على صوره الكثيرة التي أرسلتها لها تمثله في أوضاع مختلفة، ولقد شعرت من كلامها أنها فعلاً مشوقة لرؤيتك ورؤية أخيها بل إنها أخذت ترجوني أن أحضرها معي إليكما ولكن حيث إنها مشغولة بدراستها فقد أقنعتها بأن أسافر لوحدي وأحضركما لنعيش كلنا معاً في جدة أسرة واحدة تنعم بظلال المحبة والسعادة الأبدية.

فتحت عيني وتنهدت من كل قلبي وأخذت أشير إلى زوجي بأن يأخذ باله فها نحن نسير في الطريق الجبلي الضيق وابتسم وقال:

ـ لا عليك فأنا منتبه تماماً. . .

انحدرت دمعة كبيرة على خد فريد فقد كانت هذه آخر كلمات في مذكرات زوجته سارة إذ إن ما حدث هو أنهما وصلا البيت وكحل فريد عينيه برؤية ابنه ونعم بصحبة زوجته.

وبعد عدة أيام انشغلا في التحضير للسفر إلى جدة حتى إذا ما اقترب موعد السفر قررا أن يذهبا إلى مونت كارلو ليقضيا سهرة يودعان فيها لياليهما في تلك الربوع. وفي الطريق الجبلي الضيق ذاته وبينما كانت سارة كعادتها تشير إلى زوجها أن ينتبه إلى الطريق الذي أمامه ضاعت كلماتها في الهواء وهي ترى السيارة تتدحرج لتلفظ زوجها على بعد منها بينما بقيت هي داخل السيارة وارتفع صوتها يهتف باسم زوجها وانتابها شيء من الدوار وتزغلل بصرها فأمسكت بالسلسلة الذهبية التي كانت تزين جيدها والتي تحمل صورة زوجها ثم أغمضت عينيها، ومضت السيارة تواصل تدحرجها وتنقلب مرتين المرة تلو المرة.. وامتلأ وجه سارة بشلال من الدم الذي أخذ يتناثر هنا وهناك وانطفأت شعلة الحرارة التي كانت تثير هذا الجسد الشاب.

وجاء الإسعاف وفرقة الطوارىء لالتقاط المصاب والمصابة التي كانت في شبه إغماءة وتتفوه باستمرار بكلمات وكأنها تبحث أو تسأل عن زوجها الذي رأته وهو يندفع أمام عينيها بعيداً عنها.

ووصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى التي أفرد المسؤولون فيها غرفة لاستقبال فريد وسارة التي لم تستعملها قط ففي غرفة العمليات فارقت الحياة إثر غيبوبة لم تصحُ أبداً منها.

وجاءت نجلاء وزوجها وماتيلدا ليواروا الفقيدة التراب وليكونوا إلى جانب فريد في محنته، فريد الذي أصيب هو الآخر في وجهه ويديه إصابات ليست بليغة إلى حد ما حتى إذا ما خرج من المستشفى طلب من أخته نجلاء أن تحضر له أشياء سارة الخاصة من الشقة وأن تعمل هي وزوجها وماتيلدا على تجهيز الطفل للعودة إلى جدة. فقد كان من أعماقه يرفض أن يذهب إلى المكان الذي شهد سعادته في أوجها مع سارة التي ذهبت هكذا دون وداع.

وفي جناحه الخاص بفندق حياة ريجنسي ظل فريد يعيد تقليب أوراق مذكرات زوجته المرة تلو المرة بينما كانت الدموع تترقرق في عينيه ولا تفارقهما.

وفي إحدى هذه المرات انتبه إلى أنه في دفتر المذكرات يوجد رسالتان صغيرتان مكتوبتان بخط سارة. . واحدة منها إليه والأخرى منها إلى محاميها.

قرأ الأولى التي كانت تعبر عن عميق حبها له وتعلقها به وكيف أنها تنتظر اليوم الذي تطير به هي وابنها إلى جدة، ويظهر أن القدر لم يمهلها لتودعها البريد مع مجموعة جديدة من صور ابنهما أيمن الصغير والتي وجدها طي تلك الرسالة عاود فريد البكاء بصوت مرتفع هذه المرة حتى إذا ما تمالك نفسه قليلاً أخذ يقرأ رسالتها إلى المحامي.

أتدرون ماذا كتبت سارة إلى محاميها الخاص؟

كانت الرسالة قصيرة قليلة الكلمات ولكنها كتبت بأسلوب امرأة امتلأ قلبها بحب طفلة لم تلدها فأرادت أن تهبها نصف ثروتها أما النصف الآخر فقد كان لابنها الصغير أيمن.

لم يقوَ فريد على متابعة قراءة الرسالة الخاصة بالمحامي والتي كتبتها زوجته، هذه الراحلة التي يفتقدها تماماً ولا يدري كيف ستكون حياته من بعدها. . وانخرط وهو يتذكر كل هذا الذي حدث في بكاء ونحيب مريرين بينما غابت عن عينيه كل آثار الشمس الساطعة التي التقاها فجأة هنا في نيس وسعد بها هذه الفترة القصيرة من عمر الزمن. .

لقد افتقد زوجته الأولى في يوم من الأيام وعاش عمره من أجل الصغيرة التي كبرت نسبياً وها هو اليوم يفقد للمرة الثانية هذه الزوجة الحبيبة التي منحه إياها الله ولا يدري ماذا يفعل في الغد، ولكن بالتأكيد وجود أيمن وإيمان إلى جانبه سيعيد إلى نفسه صلابتها وقوتها وسوف يرى دائماً في أيمن الصغير شيئاً من معالم وجه تلك التي أحب والتي افتقد شمسها وظلها وليلها ونهارها كثيراً بل أكثر مما يمكن أن يتصور المرء.

وأصبحت نيس في نظره أشبه بقرية فارغة موحشة لا حس فيها ولا روح ولا جمال بل ولا بهاء ولا رونق ولا خيال ولا شمس فوق المدينة.

وداعاً أيها الحزن

(روايــة)

ط ١ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



الفصل الأول

في دنيا الناس تمتلىء الأودية والمسالك ودروب الحياة بنماذج كثيرة متعددة الأهداف والاتجاهات، تمضي جميعها وفق غايات أقنعت نفسها للوصول إليها عبر مدارات الزمن وظروف الحياة.

هناك في البعيد على مقربة من بطحاء العقيق وعبر صخور الحياة وحكاياها عاشت أمة التقت في دنياها مع الخير الوارف واستظلت بسماء زرقاء تضيئها مصابيح لامعة يراها الناس كل الناس ويطرب لمرآها أولئك الذين كانوا يستهدون في رحلات الشتاء والصيف بمصابيحها التي تعبر بهم دنيا الحزن لتستقر في سويداء الأمل باقة حب طريفة جسدتها الأماني وانطلقت بها الأحلام في سماء المعرفة كواكب ملموسة لظلالها ضروب من الألوان قد تتحدى في مجموعها ألوان قوس قزح لأنها تهب الطريق للمارة وأصحاب الطريق ودنيا الناس مشغولة بنفسها عن نفسها، يتيه بعضها على بعض ويغفو ويضيع في متاهات العمر الصغير كما يمضي بعضها رحلة الحياة بعد سن اليأس على مضض، وينسى بعضها مرارة الأيام وذل الفاقة بعد أن تفتحت بهم السبل ودانت لهم عناقيد الخير. والناس، كل الناس، بين حبيب ومشفق وكاره ومحب تتأرجح رغباتهم بين الأمس واليوم والغد الذي سوف يصبح أمساً.

في ظلال أشجار السرو البرية، وبين مسالك الدروب المؤدية إلى مجاري السيل في سيدي حمزة والسيح وقباء والعوالي، وبين داليات العنب البلورية الشفافة، وتحت كعوب أشجار الورد الأصيل حيث تنتشر أوراق الياسمين وظل ماء الورد وينبوع العين الزرقاء

وجمال فروع الفاغية ولدتُ مجرد أنثى نحاسية اللون قنعت بحداء الراعي وغناء جاني الرطب ونقيق الضفادع.

اسمي "سلمى" ارتبطت ذكرياتي معها بالزرع والضرع، وتاهت أناملي بين حبات الفل وأوراق النعناع وزهرة البرسيم البنفسجية، أرسم بأصابعي الطويلة نغمات تفوق نغمات البيانو والأورج في عيني بسمة الشوق وبين جفني شبح أحلام المساء وردية عبقة تستظل بفروع عماتنا النخيل.

الزمن بالنسبة لي بزوغ فجر وانعتاقة قمر، وأنا أعيش بين الاثنين على أمل يشغل بالي طين المزرعة فتمتد إليه أصابعي لتشكل من ذرات ترابه ألعاباً ألصق عليها شيئاً من أوراق القمح الملونة لتبدو في حلتها الأنيقة رفيقة طريق لصبي أو صبية.

بيتنا مجرد حوائط صنعتها أيدينا لتقينا برودة الشتاء وقيظ الحر، وعلى مقربة من بيتنا القريب من أول مزرعة لمسجد قباء كان هناك أكثر من بيت تلتف أروقته مع الأروقة الأخرى وكأنها تحاول أن تبعد عن أصحابها غدر الزمان وسوء تصاريف الحياة.

في بيتنا طفل شب عن الطوق تجمعت أحلامه كلها في قلبه الصغير فضاع جسده الواهن بين ما يقوله الناس وما يريد أن يقوله هو للناس، لكن أحلامه الكبار كانت تدفعه لأن يلتقي مع الأمل الوافد في نفسه الملتحم بالرجاء ليصنع منهما زوادة طريق ترافقه الطريق.

أمي سيدة أضاع الزمان شبابها، فغدت كشجرة فقدت طريق الماء مدة طويلة، وأبى إنسان كبير عانق الفقر وارتدى ملابسه، لكنه كان شامخ النفس ينظر إلى الحياة نظرة لم أعتدها من غيره، يجيد ضمن ما يجيد العزف على الناي لتخرج أنغامه ويخرج معها الأسى والحزن والنحيب.

يقول أبي إنني ولدت مع الفجر في يوم شديد البرودة من أيام فصل الدلو وأمي في زيارة أختها في بستان المدني على مقربة من سيدنا حمزة.

وتقول أمي بأن أسعد الأيام التي رأتها كانت تصاحب يوم مولدي فالخير، وهي تعني المطر، كان يقذف بقربه المفتوحة إلى الأرض في وفاء عجيب.

وأنا بين ما يقوله أبي وتقوله أمي أفكر وأنقب وأبحث وأتأمل لأجد طريقي في هذه الحياة.

لا أذكر بأنني أحب أن أكون "موانة" كأمي، لكن تطلعاتي إلى حياة أفضل جعلتني أصر على أن أتعلم، ويوم ذهبت إلى الكتاب أحسست أنني أبدأ حياتي من جديد.

بين الألواح الخشبية والمضر وأقلام الخوص أمضيت جزءاً كبيراً من عمري الصغير بينما كانت خطوات أخي المسرعة المطمئنة تمضي في طريقها إلى المدينة لتلتحق بمدرسة العلوم الشرعية.

يوم جاء أخي إلى بيتنا في يوم إجازته، فقد شاء الله له أن يظل في بيت خالته في حوش النخالة على مقربة من المسجد النبوي، رأيت وجهه يطفح بالبشر وعينيه تنطق بالسعادة.

أمسك بكلتا يديه بلوحي وقال:

ـ ما هذه الخربشة يا بنت؟

ضحكت ولم أقل شيئاً فمضى يهدهدني في حب وهو يقول:

ـ أنت مثلي... ستصبحين ذات شأن في يوم من الأيام يا سلمى.

لم أفهم معنى ما يقول وإن كنت أتذكر في كل يوم كل ما كان يقوله لي.

بيتنا ملتقى للنسوة والرجال، فأمي تحب أن ترى رفيقاتها يقضين أوقاتهن معها وأبي كذلك وأنا مع أترابي صباحاً في الكتاب وظهراً وعصراً في البستان فأنا لا أزال "موانة" تعمل لتستلم في نهاية الأسبوع قروشاً معدودة كانت ولم تزل بالنسبة لي شيئاً لا أكاد أصدق أنها في يدي الصغيرة وكفي المحنّى.

في ليالي الشتاء يقرصني البرد. أحس به يلسعني في وجهي وأمعائي رغم كانون النار الذي نلتف حوله أنا وأسرتي. كان كل بيت من البيوت التي تلتف حول بيتنا لا تفارق أيدي أصحابه كانون النار حتى إذا ما بدت شمس النهار ساطعة انصرف الناس إلى أعمالهم في سعادة.

في ذلك اليوم الذي لا أنساه، أحسست بالألم يقطع نياط قلبي فالقافلة التي كانت تأتي من جدة على الجمال في طريقها إلى المدينة فقدت بعضاً من

رجالها، داهمهم الموت وهم في إغفاءة مع النوم الذي تسلل إلى جفونهم من التعب، هم الذين كانوا يمضون الليل في الطريق الطويل.

الناس يتحدثون عن هذه القضية، يلوكونها بين أسنانهم وكأنهم ينهون إلى أسماع الآخرين حكايا من حكايات هذه الدنيا. أما أنا، فقد كنت مع دموعي المنحدرة على وجنتي على موعد لدرجة جعلت أمي تنهي أعمالها وتتوجه إلي بكلماتها المتسائلة:

ـ أهم أقرباؤك يا سلمى؟ ألا تعرفين أن الموت هو بداية الحياة؟

نظرت إلى وجه أمي وقلت:

ـ أعرف يا أماه، لكن الحزن الذي تسلل إلى أعماق نفسي لا يمكن أن يغادرني كما غادر كل أولئك النسوة.

نعم نحن أقرباء يا أماه وإن تباعدت بيننا السبل. ألسنا أبناء هذه الأرض التي أحبها آدم وروتها حواء بدموعها وهي تبحث عن وليفها في هدأة الليل وضوء النهار؟

نحن يا أماه أبناء هذه الإنسانية التي يستمد الإنسان منها حياته وأمله ومشربه ولولا هؤلاء الذين يجودون بأرواحهم لافتقدنا قرص الشعير.

نحن يا أماه مجموعة خلايا تتحرك، تضج في شرايينها دماء حمراء داكنة امتزجت ذراتها بتراب هذه الأرض فكانت جزءاً منها.

نحن يا أماه خليط عجيب من اللحم والدم والأعصاب تشدنا المواقف وتدفع بنا لاجتياز المجهول واجتياز المعقول أحاسيسنا غير ملموسة وإن كانت محسوسة وقلوبنا جياشة بالعواطف تطفو دائماً لتطل على السطح في قوة واندفاع وقسوة وحنان وأمل وحب ومنتهى التفاني أيضاً.

نحن يا أماه كل هذا وأكثر من هذا ولهذا تجدينني أبكي على قوم وإن كانوا ليسو أقرباء لي.

نظرت أمي إلى وجهي نظرة أحسست أنها لم تفهم بعد شيئاً مما قلت لكنها فضلت أن تصمت وأن تتركني مع أحزاني أنا التي عشت طفولتي رغم كل ما يحيط بها من مظاهر القسوة أتخيل الفرحة تتسرب إلى أعماق أعماقي لتضفي

على وجهي ابتسامة طالما رآها الناس في بيتنا وفي الكتاب وفي البستان وحتى وأنا في الطريق إلى شارع العينية، ذلك الشارع الذي أصبح علامة فارقة بالنسبة لنا نحن بنات قباء نختلف إليه عندما نأتي من هنا وهناك ونظل نجوب أرجاءه وكأننا نواصل سيرنا في الشانزليزيه أو أكسفورد ستريت أو حتى برود واي نيويورك.

ذاك شأننا يوم كان شارع العينية ملتقى الناس الذين يفدون إلى طيبة الطيبة وفي قلوبهم حب وفي نفوسهم إيمان بأن هذه الأرض التي استطاعت أن تمنح السلام تستطيع أن تصنع الصفاء والاطمئنان في القلوب كل القلوب.

الفصل الثاني

شارع العينية أجمل شوارع المدينة القديمة كان حلماً من أحلامي. أشعر بأنني وأنا أجالس النسوة على واحدة من بواكيه الكثيرة وكأنني امرأة وليست طفلة أرتاده مع أمي يوم كنت صغيرة لا أدري معنى ما تعرض هذه الأم من بضاعة ولا لماذا.

أما بعد أن كبرت قليلاً، فقد أصبحت أعي كل شيء تقريباً، أعي حقيقة هذا الشارع الذي يصطف على جانبيه دكاكين كثيرة يثيرني منظر بعض أصحابها الذين حاولت أن أعرف من خلال حديثي مع أمي شيئاً عنهم.

الحاج يلطاش هذا الرجل الوقور الذي يعتمر على رأسه عمامة بيضاء ويحمل في يده مسبحة طويلة ورثها عن أبيه يوم كان يسكن معه في أذربيجان، شردته الشيوعية التي اشتعلت شرارتها في أرضه بعد أن استولى البلشفيك على الحكم.

يتحدث اللغة العربية بلكنة عجيبة وتمتلئ دكانه الصغيرة بأدوات تحتاجها النساء "زراير صدف ومكنات خياطة وحرير وقصب سيم وطواقي مشغولة بالزري وبالحرير".

وعند مدخل الدكان آلة عجيبة مصنوعة كلها من الخشب يضع إحدى قدميه عليها ويسن على مبردها سكاكين الأهالي وأدواتهم يسمونها: "سني سكين سني مقص".

يوم سمعت ما يقوله، ضحكت من أعماقي لكني، ولطول العشرة، أصبحت أعرف كل ما تحتويه دكان هذا الرجل الطيب الذي رضي بأن نفرش أنا وأمي بضاعتنا أمام دكانه على قاعدة من

الخشب صنعتها أمي خصيصاً لهذا الغرض.

زوار المدينة الذين يأتون إليها من مكة المكرمة والمدن الأخرى يشترون بضاعتنا الشراب والمكانس وألعاب الأطفال ويعتبرون أن أفضل هدية يقدمونها لأهلهم وأصدقائهم هو هذا الذي نصنعه نحن بأيدينا في قباء والعوالي.

أمي تتحدث طويلاً معي عن هذا الرجل وتقول:

ـ لقد فر هذا الرجل بدينه بعد أن ترك كل ثروته وأبنائه وبناته هناك في بلاده.

كنت أحرص على أن تلتقط أذني كل كلمة تقولها فإنه لفرط حبي لهذه المدينة لم أكن أظن أن في العالم مكاناً يمكن أن يكون مثلها في هذه الدنيا، فمدينتي رائعة تصحو مع الفجر وتغدق على سكانها الكثير من الهدوء والحب.

يقولون إن جيران رسول الله هم أناس خبروا الحياة حتى إذا ما عرفوها على حقيقتها انضووا طائعين مختارين على الإيثار، وأنا أجد نفسي عندما أوثر أحداً بشيء مما هو عندي رغم قلة ما عندي سعيدة وسعيدة جداً.

يوم تحدثت إلى الحاج يلطاش أول حديث طويل، شعرت بأن الرجل يحمل في صدره قلباً من ذهب لدرجة تمنيت لو كنت كبيرة وتزوجت هذا الرجل لأزيل عن نفسه كل معاني الكآبة التي أحسها يوم غادر مدينته مشياً على الأقدام.

في المدينة عدد من هؤلاء الرجال والنساء جاؤوا إليها للهجرة فجمعهم حسن الجوار.

من زوار هذا الرجل الحاج محمود الذي كنت أعجب لصلابته، فهذا الرجل استطاع أن يبني داره بيديه لم يساعده أحد سوى زوجته رغم أن هناك عادة معروفة عند هؤلاء المهاجرين فجميعهم يعملون من أجل الفرد حتى إذا ما استطاع هذا الفرد أن يبني داره ذهبوا إلى غيره وهكذا... ولقد شهدت بعيني معجزة بناء رجل وامرأة لبيت يؤويهما وأحسست أن الإنسان قادر على صنع حياته إذا وفقه الله إلى ذلك.

"في جوه المدينة" كان يقبع شيخ جليل من آل خشيم يبيع العطور أمر به لماماً واستنشق شيئاً من عبير بضاعته وأتوق لأن أمتلك زجاجة عطر صغيرة

حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه ضياء الدين الخطاط الذي يرسم لوحاته القرآنية ليبيعها بعد أن يزركشها بخطوطه وألوانه بزجاجة عطر صغيرة لأمي وقال:

ـ هديتي إليكما فامرأتي أنجبت طفلاً لأول مرة.

ضحكت وسألت:

ـ وهل هو أول طفل؟

قال:

ـ لا... عندي سبعة بنات وهذا هو أول ولد لي.

سألت أمي:

ـ لماذا يحب الرجال والنساء الأولاد؟

قالت في هدوء:

ـ لأنهم يحبون أنفسهم، يريدون لأسمائهم أن تظل ولذكراهم أن تبقى. يريدون لحياتهم أن تستمر ولعطائهم أن يعيش.

ـ والمرأة يا أماه؟

تساءلت ببراءة واضحة، فأجابت أمي:

ـ تتزوج وتنجب للغير أولاداً وبنات ثم تمضي.

ومن يومها أخذت أفكر في هذا الأمر بجدية وأقول لنفسي: لو تزوجت لما فكرت كثيراً في هذا الأمر، وأنهيت الموضوع وإن كان لا يزال يلوب في أجواء نفسي في كثير من الأحيان، أفكر فيه بشيء من الجدية التي لازمت حياتي.

"درمش" جارنا في البيت رجل عجوز طوله طول طفل ورأسه رأس رجل وتفكيره رزين. أحب الفاغية وزهر الليمون والنوامي ورائحة النعناع والفل والياسمين واختار لنفسه مهنة بيع كل هذه الأشياء الحلوة.

أحس براحة عندما أتحدث إلى هذا الرجل، فهو يعرف من أمور الدنيا ما لا أعرف وهو لا يهرف كما يهرف الباقون من زملائه. في حديثه جدية الرجل ورزانته وكبرياؤه، أعرف مبسطه عند مدخل باب المصري هو وسالم بائع الفصي "النوى" المثقف، وألمح في الرجل شوقاً كبيراً لأن يتزوج ولكن من هي التي ترضى أن تتزوج بقزم صغير، حتى وإن كان هذا القزم يفضل في عقله

وتفكيره الكثير من أصحاب الأجساد الفارهة؟ فكرت بيني وبين نفسي فيما إذا كنت أقبل أنا أن أتزوجه ولكني أقولها وبكل صراحة إنني لم أخرج بنتيجة من هذا التفكير.

يوم شج رأس سالم من جراء حجر ألقاه أحد الأطفال على شجرة السدر العتيقة وهو يريد أن يجني شيئاً من ثمرها قال الكثيرون لسالم:

ـ امض إلى الشرطة واشكُ الطفل.

إلا درمشاً هذا فقد قال يومها:

ـ لا عليك يا سالم. إنها شقاوة طفل لم يعنها ستدمل الأيام جراحك وسيحفظ والد الطفل هذا الجميل لك ويا بخت من له عند الخيرين رصيد من جميل.

ألم أقل لكم إن درمشاً هذا الرجل القزم يفضل الكثيرين من ذوي الأجسام الفارهة؟

أتصدقون بأنني وأنا الطفلة أشعر بالحرج عندما أذهب بقمحي إلى طاحونة السيد محمود أحمد التي كانت عند مفترق الطريق الذي يأتي من شارع النخاولة إلى باب المصري قرب مقعد بني حسين؟

وحرجي هذا نابع لأنني أظل أكثر من ساعتين أنتظر دوري وأتعرض لسماجة بعض الأطفال الذين شبوا عن الطوق، لكن واحداً من الأطفال كنت أحس نحوه بشيء من الحب. كان أبيض اللون يلبس جلباباً أزرق فاتحاً يحاول بأسلوبه أن يبعد سماجة الأطفال عني بلطف، أصبحت أحس بوجوده وأحن للحديث معه حتى عرفت أنه يتيم الأب توفي أبوه وعمره ست سنوات يقطن مع أمه في مكان يدلف منه سيل أبو جيدة ونسميه أيامها "البرابيخ".

أحسست في باطن أعماقي بأن لهذا الطفل معي شأن وأي شأن. لم أنس وجهه مطلقاً لكن الأيام باعدت بيني وبينه فلم أعد أراه، وكرهت أن أحمل قمحي إلى المطحنة يوم عرفت أنه لن يأتي وقلت لأمي:

ـ قد كبرت يا أماه وأصبحت أحس بالحرج عندما أذهب بقمحي إلى هناك.

أمي أمنت على كلامي وأصبحت لا تطالبني بهذا العمل وإن كانت قد

أضافت إلى أعبائي عبئاً جديداً هو خبز عيشنا نحن أبناء هذه الأسرة الصغيرة وإنضاجه في الفرن الصغير.

فرحت يومها وأخذت أمارس عملي الجديد بهمة لا تخلو من الكثير من الفكاهة. كنت أمارس خبز العيش وأنا أغني أغنيات كثيرة حفظتها عن أبي وأمي وصديقاتي اللواتي عرفتهن.

يوم زفت صديقتي نورة إلى عريسها علي، أحسست بأن الفرحة تولد الفرحة في قلوب الناس وأن العكس بالعكس صحيح. شعرت بأن هذا الزفاف ليس لها وإنما لي أنا ومع من؟ مع ذلك الطفل الذي كان يدفع عني سماجة الآخرين.

تصورت نفسي وأنا في الكوشة بجانبه، وأخذت أحادثه أحاديث كثيرة لدرجة شغلتني عما يجري في بيت نورة، وتعمق إحساسي لذلك الذي لا بد وأنه كبر لكن مكانه في حياتي قد تغير.

ترى أين هو طلال هذا؟ وماذا يفعل؟ وهل استطاع أن يصل إلى غايته التي أراد؟ كان يهمس في أذني يوم عرفته بشيء من أحلامه تتجسد بأن يصبح طبيباً يساعد المرضى فقد قدر عليه أن يموت والده ولم يكن هناك طبيب بجانبه.

مساكين هم الأبناء الذين يفقدون آباءهم وهم صغار، لكن رحمة الله عليهم تظل أكبر قد تنسيهم الأيام الألم، وقد تضمد السنون جراح السنين لكن هواجس الألم تظل عالقة بعقولنا نحن الأطفال تعايش أفراحنا وتطل بين الفينة والفينة بوضوح ولكن كثيرين هم الذين عرفوا طريق أقدامهم في هذه الحياة فأصبحوا يستحقونها نتيجة إصرارهم على طمس رواسب الألم من نفوسهم الكبيرة.

ربما كان طلال هذا واحداً من هؤلاء وربما.. لكني جزعت عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير وقلت لنفسي: لا بد للصغير أن يكبر وأن يجسد أحلامه وأمانيه فنحن من جيل ارتبطت أحلامه بأماني هذه الأرض الطيبة السمراء.

الفصل الثالث

يأتي البدو من أطراف المدينة إلى المدينة عندما يأتي الربيع يحملون على جمالهم ونياقهم خيرات أرضهم يبيعونها في الأسواق، ويستقبلهم الدلالون من خارج باب الشامي ويأخذون بأيديهم إلى الحراج قرب السمن وأقراص الجبن البيضاء اللذيذة التي تمتلئ بها السوق حتى إذا ما باع أكثرهم ما جاء به، اندفع إلى نهاية سوق باب المصيري يشتري الشعير والذرة وقلال التمر وما يحتاجه بيت الشعر في الصحراء من توابل وعطور وحبوب حتى الأطفال كان البدو يشتري لهم ما يراهم في حاجة إليه.

أبي كان يحمل إلى بيتنا قربة صغيرة من السمن الذي يبيعه هؤلاء البدو ويحرضنا على الاحتفاظ بما فيها طوال العام وإلى أن يأتي موسم الربيع مرة أخرى فهو لا يقوى على شراء غيرها حتى الموعد الذي ضرب.

زارنا في يوم من أيام الربيع صديق قديم لوالدي من البدو وأمرحَ تلك الليلة في دارنا حتى إذا انقضى جزء من هزيع الليل سألت أنا "دغش" البدوي عن الصحراء وطلبت منه أن يصف لي حياته مع القبيلة. أحسست من دغش وهو يتكلم كأنه عاشق لليل الصحراء وجمال الصحراء وعرفت في تلك الليلة لماذا يحب البدوي هذه الصحراء.

قال لي دغش وهو يضحك:

ـ الصحراء انطلاقة يشع منها النور وتضيء في بعض أرجائها الخضرة عندما يهطل المطر وتمنح الأرض صاحبها الخير الذي

ينتظر فتمتلئ المراعي بالعشب الأخضر ومع هذا العشب يأتي كل هذا النماء مما تعطيه الأرض كلوز النبي والمصيع وأنواع كثيرة من زهور الصحراء وفواكهها التي لا يعرفها إلا أولئك الذين صادقوها واختاروا لها البقاء بجانبها يرددون بين مهادها وهضابها حكايا الأمس واليوم.

وعندما يطل القمر عند منتصف الشهر، تعلو الأصوات بالأهازيج لتملأ جنبات الأرض ممزوجة بحنان قلوب أبناء وبنات الصحراء الذين نفضوا عن ثيابهم أوراق هذه الدنيا وشرورها وآثامها.

في الصحراء يعيش الإنسان ملكاً لنفسه ولقبيلته، يزرع ويضرع ويمرح، لا شيء يثير في نفسه الأذى ولا لعينيه القذى. نقاوة قلب هذا البدوي من نقاوة الصحاري والبدوي عندما يسرح بخياله في هذه الصحراء فإنه يمسك بعوده يرسم على الأرض خطوطاً واضحة المعالم والأهداف كأهدافه وأحلامه هو الآخر.

في بيتنا رجل لكن ليس كبعض الرجال لوحت بشرة وجهه الشمس ولفحه هجير الصحراء، خبر حرها وبردها وعايش الفطرة على أجمل ما تكون الفطرة. في عينيه عز وإصرار، وفي وجهه ابتسامة حب تطل من بين شفتيه وأسنانه، ويطل هو الآخر بقلبه على هذا العالم وقد تجمعت الدنيا كلها في نظره في هذه الصحراء الخيرة التي أحبها ومنحها شبابه وحياته وأهله وناسه وبناته.

بيننا نحن المزارعين ورجل الصحراء صلة نسب، فهو يزرع عندما يأتي المطر ونحن نزرع طوال العام منحتنا المدنية الفرصة بأن نتكيف مع بعض أدواتها البدائية فلم نبخل على أنفسنا بمعاني القوة فجاء عملنا متمماً لعمل هذا الصحراوي الأنيق.

قد تفرق بيننا السبل، لكننا نتوجه دائماً أمام العمل المضني الشاق نأكل خبزنا بعرق جبيننا وفي صدورنا تجيش أحلام الخير وأماني الحب أهزوجة مثالية كتبها شاعر يوم كان الشعراء يعرفون كيف يكتبون.

مسجد قباء يمتلئ بوفود الحجيج، وعند مدخل الباب يقبع بعض الصبية يبحثون عن لقمة العيش بهدوء. كنت أكره أن أراهم هكذا يمدون أيديهم لهؤلاء الناس لكن ظروف الحياة اختارت لكل واحد منا الطريق الذي يجيده.

لكثرة رؤيتي لأعداد الحجاج وأنواعهم، بت أعرف من أي موطن جاء هؤلاء وحتى هؤلاء أتصفح وجوه النسوة فيهم لأرى الحلاوة تطل من بين عيون بعضهن، أما الأغلبية فقد شاخ بهم الزمن وأغمض عليهم الدهر وصنعت يد القدر تجاعيد وجوههم لدرجة باتوا هم أنفسهم لا يعرفون أنفسهم لكثرة ما تغيرت جلودهم ووجوههم، أما قلوبهم فهي مملوءة بالكثير الكثير ومن الأعماق بالخير كل الخير.

دموعهم المنحدرة على صفحات خدودهم تعطيني فكرة واضحة عن تأجج الإيمان في قلوب هؤلاء الناس الذين تركوا بيوتهم وأهاليهم وجاءوا مع دعوة الحق إلى بيت الله ومسجد رسوله طائعين مختارين.

في يوم من الأيام دفعت إلي أمي بشيء مما نصنعه وقالت:

ـ اذهبي يا بنيتي لتبيعي هذه الأشياء لضيوفنا فلربما اشترى بعضهم شيئاً منها تشكل ذكريات له في أرضنا هذه وعنها.

نظرت إلى أمي وقلت لها:

ـ ولكنها المرة الأولى التي تطلبين مني ذلك.

قالت وفي شيء من الخضوع :

ـ ربما لأننا في أمس الحاجة إلى شيء من النقود فأبوك في حاجة لإجراء عملية جراحية سريعة.

سألت:

ـ ولكن من سيجريها له؟

قالت:

ـ الدكتور سعيد المصري الذي اختار عيادته في التكية المصرية عند باب العنبرية.

طبعاً هذا يوم كان في المدينة تكايا. المهم قلقت جداً على أبي وسألت أمي بلهفة:

ـ ومم يشكو أبي يا أماه؟

ـ لا عليك. فتق قديم مزمن لكنه وبعد أن كبر أصبح مؤذياً لجسده.

أجابت أمي بلهجة هادئة تحاول بها أن تخفف عني.

مسكين أبي يحمل جراحه على جسده ولا يتحدث. همست قائلة وكأني أحدث نفسي:

ـ سأفعل يا أماه سأفعل.

ومضيت، وكان لي ما أراده الله فقد بعت جميع ما معي وعدت وأنا أحمل ولأول مرة أربعين ريالاً سعودياً دفعتها إلى يد أمي المتلهفة في حب.

واستمرأت أمي أسلوب بيعي وبقينا على هذه الحالة حتى توفر لأبي ما يمكن أن يقدمه للطبيب. أو ليس الشاعر يقول ما معناه إن المعلم والطبيب كلاهما لا يخلص لعمله إذا لم يكرم؟

جمع أبي أغراضه في شنطة جلدية قديمة ودلف إلى المدينة ودلفنا أنا وأمي معه ثم عدنا مباشرة بعد أن ودعناه إلى البيت وجلسنا نرقب عودته لكني وبعد أن عدت إلى البيت بدونه أحسست بأن العالم كله قد فقد معنى من معاني الجمال فأبي هناك على سريره الأبيض ينتظر إجراء العملية بكل ما في هذه الدنيا من قلق وخوف لا على نفسه بل علينا نحن من قسوة الحياة من بعده.

أما أنا وأمي، فقد اخترنا ركناً قصياً في المجلس نؤدي فيه صلوات كثيرة ندعو بعدها للغائب بأن لا يطول غيابه عن عرينه.

اشتقت لأبي وسألته وأنا أزوره بعدها:

ـ متى يجري الطبيب العملية؟

أجاب بصوت هامس:

ـ غداً بإذن الله.

رفعت يدي إلى السماء ودعوت من كل أعماقي بأن تنجح العملية، لكن أبي لم يعد إلى بيته!

لم تكن الجراحة على ذلك المستوى الذي نراه الآن، فمات أبي وتسلم الطبيب أجره عن عملية غير ناجحة.

وانخرطت أنا وأمي في بكاء ونحيب لا يقطعه سوى دعاء أمي بأن يعود أخي إلينا من مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة لأنه لم يكن هناك مدرسة

ثانوية في المدينة يومها.

ومضت أيامنا أنا وأمي والحزن يغلف قلبينا في صمت. لم نكن نظن بأننا كنا نودع هذا الأب عندما حملناه على قدميه إلى المستشفى، وبدأت أحس بشيء من القلق على أمي التي بدا هزال جسدها واضحاً جلياً أمام عيني فهذه المرأة التي عاشت طوال حياتها مع رفيق دربها تجد نفسها ولأول مرة بدونه هو الذي كان يشيع البهجة في بيتنا الصغير.

مسكينة سلمى وأم سلمى، وحتى بيتنا الذي غادر الفرح غرفه من النافذة بعد أن كان الفرح يملأ كل أرجائه رغم التعب والأسى والسهر.

فقد ضاع من هذا البيت الأمل ونضب الرجاء.

الفصل الرابع

يداخلني في أعماق نفسي بعد أن عجزت على الوقوف عند أسوار المعرفة نحو هدف واحد هو المعرفة وفي زمن يفتقد فيه الرجال هذه المعرفة يداخلني إحساس كبير بأن الطريق الذي بدأته لم يكن ملكي وحدي أنا الفتاة الصغيرة التي خرجت تدب بضفيرتها في طريق الحياة.

وأشعر مع كل هذه الأحاسيس التي تضغط على صدري وأمعائي بأنني في أمس الحاجة إلى التفكير في ذلك الإنسان الذي عرفت يوم كنت وكان وضاع من قدمي الأرض والزمان والمكان وأصبحت أتيه في صحراء جديدة.

أحس برحابة حبنا وأشعر بأشواك طريقها فنحن الحرائر عندما تبدأ مسيرة الحياة وتكبر أجسادنا نفكر ولا نلغي من تفكيرنا الماضي وما وراء الماضي ثم بعد كل هذا فإن أبي سرقته سكاكين التحمت في جسده تريد أن تقضي على المرض فقضى المرض عليه.

رحلتي مع الحرف بدأت ذات يوم لكنها لن تنتهي، كلما تاقت نفسي لإبداع حروف هذه الحياة الملونة سوف أستظل بروائها عند كل منعطف وقبل كل زاوية وفي زوايا النفس أحلام تحاول أن تستيقظ.

لكنني مع كل أحلامي التي أعيش، أجدني مضطرة لأن أتنازل عنها فترة من الوقت لأقطف ثمار لقمة العيش كعادتي هناك في شارع العينية على مقربة من دكان حاج يلطاش أو حتى عند أبواب أسوار مسجد قباء وأزهاري، كما كان يقال لي، تتفتح وأكمامي تستيقظ بعد أن لفحها هجير الفقر المدقع لتطل من وراء سجاف أسود يلفني عندما

أسير كامرأة مجهولة عرفت قدماها الطريق.

أمي لا تخفي دهشتها من جمالي الآسر، وصديقاتي يقلن: "يا بخت من سوف تكونين من نصيبه"، وأنا لا أضحك وإنما أفكر في طفل الأمس وأنا أراه في عيني يكبر كما كبرت.

أما الكتاب الصغير فقد تحول إلى مدرسة، مدرسة بنات جديدة صنعها التطور وساهم في إخراجها للنور حاجتنا نحن بنات قباء والعوالي إلى العلم. مُدرّستنا مصرية المولد خمرية اللون اختارت اللون الأحمر هادياً ودليلاً لها عندما تأتي إلينا إلى المدرسة.

أيام تمضي وأيام تجيء، وفي جعبة الأيام قسوة وجمال وحتى في بعض الأحيان أحلام كنت أظنها لا تتحقق ولكن من يدري؟

وكما مات أبي ماتت خالتي وورثت أمي دارها في حوش النخاولة. حاولت مع أمي أن نغير من مكان إقامتنا فرفضت. عندما هدم الحوش لتدخل كل بيوته ضمن توسعة المسجد النبوي قالت لي أمي:

ـ أرأيت؟ لو أنني فعلت ما طلبت مني لعدنا مرة أخرى ثانية إلى بيتنا هذا وأنا أكره الترحال.

ضحكت من أمي ومن سذاجتها، لكن ما حصلنا عليه من مال تعويضاً عن بيت خالتي الذي ورثناه ودخل في توسعة المسجد أغنانا بعض الشيء ومنحنا الفرصة لأن نجدد في أسلوب حياتنا ثم نضيف بعض الغرف إلى بيتنا ونجدد في أثاثه أيضاً.

الشيء الوحيد الذي لم أستطع تجديده هو أسلوب وطريقة أمي وكيفية تعاملها مع الأخريات. كانت حريصة على أن تمضي في حياتها وفق ما تعودت. أما أنا فاكتفيت بما أتلقاه من مرتب كانت تعطيه الدولة لكل بنت تلتحق بالتعليم.

أغناني المال عن الذهاب إلى شارع العينية، وإن كنت أحن لأن أرى هذا الشارع الذي بدأ أهله يهجرونه هو الآخر توطئة للاستفادة من أرضه في توسعة المسجد.

لكن شيئاً واحداً كنت لا أرضى التنازل عنه هو أن لا أعاود عملي كموانة أداعب النسيم إلى جانب الورود والأزهار والفاغية والياسمين.

في بيتنا رجل، لكنه ليس ككل الرجال وإن كان في نظري أفضل الرجال. فأخي يزورنا بين الفينة والفينة، نلتقي معه على الحب وأدفع في شرايين جسده الكثير من الأماني والأحلام، فهذا الرجل هو أخي وأبي في وقت واحد.

زيارته الأخيرة لبيتنا لم تكن كالمعتاد فلقد أفضى لنا بقرب سفره إلى القاهرة للالتحاق بكلية الطب هو الذي أراد من هذه الدراسة تخفيف المرض عن أجساد مواطنيه بعد أن فجع بموت أبيه إثر عملية جراحية فاشلة.

قال لي أخي يومها:

ـ وأنت ماذا تريدين؟

قلت دون أن أتحرك وبدون أن أنتبه:

ـ طلالاً.

ثم غمغمت، فعاود سؤاله وكأنه لم يسمع شيئاً:

ـ ماذا تريدين؟

قلت:

ـ سوف أواصل دراستي حتى أصبح مدرسة.

تساءل أخي.

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعدها؟

قلت:

ـ أتزوج.

ـ تتزوجين طلالاً؟

قالها أخي وهو يشعرني أنه يعرف شيئاً ما عما بداخلي. انتفضت وقلت:

ـ من هذا طلال الذي تقول عنه؟

قال:

ـ لم أقل أنا وإنما أنت التي نطقت باسمه.

هربت من وجهه، لكن أخي حاول اللحاق بي حتى إذا ما أمسك بخصلة من شعري وشدني إليه وقال:

ـ لا عليك يا سلمى قولي لي كل شيء، فأنا أحبك.. أنت أختي.

وقلت لأخي، حكيت له عن أحلامي وعن الغلام الذي أفتقد حتى إذا ما أنهيت كلامي قال:

ـ لعب عيال وشقاوة بنات.

وضحك.

لكنني لم آخذ ما قاله أخي على هذا المحمل، واستمر حديثنا في الليل متقطعاً حتى إذا جاء الصباح وانتفض الناس من سباتهم قال أخي:

ـ أتعرفين؟

نظرت إلى وجهه وسألت:

ـ ماذا تريدني أن أعرف؟

قال:

ـ طلال هذا هو زميلي في الرحلة، سافرت أمه إلى مكة وبقيت هناك عند أهلها.

ثم صمت. حاولت أن أستنهض عزيمة الكلام في أعماقه وكلي شوق لمعرفة المزيد عن طلال طفل الأمس وصديق طفولتي وأحلامي، ولكنه آثر أن يتركني لكي يلحق بصديق كان يناديه عند طرف الباب.

ولكني تشجعت ونظرت إليه وقلت وهو يغادر البيت:

ـ سوف نعاود الحديث.

صفق الباب وراءه وأنا لا أدري إذا كان قد سمعني أم لا وإن كنت متأكدة بأنه سمعني فعلاً، ولكن عندما عاد أخي للبيت تحدثنا بالفعل ملياً عن طلال.

قال أخي:

ـ لم أكن أظن أن طلالاً هذا كان يعنيك بحديثه عندما قال ونحن نتذاكر

عن أيام الطفولة في المدينة إنه يهوى فتاة نخولية ساهم النحاس في طلاء وجهها الصبوح فبدت عيناها النجلاوتان أشبه بسهام مصوبة إلى قلبه.

سألته:

ـ ماذا تعني؟

قال:

ـ لا شيء وإنما كنت أنقل حرفياً ما قاله طلال لكن صدقيني أنه لم يكن يعرف أنني أخوك كما أنني لم أكن أعرف أنه يقصدك.

كان كلامه مجرد حكاية أسمعها منه ولذلك ضحكت وقلت له:

ـ لا بد أنك نسيتها الآن.

وقال:

ـ وهل يمكن أن تنسى تلك العينين؟

استمعت إلى أخي بهدوء وقلت:

ـ والآن وبعد أن عرفت ماذا سوف تفعل؟

قال:

ـ لا شيء.

ضربت بيدي على صدري وقلت:

ـ وتقولها؟

قال ضاحكاً وشيء من الحزن يغلف وجهه:

ـ لو لم أدرس وأتعلم لضربتك بيدي هذه، فالموضوع كله قد يسبب لك الحزن في المستقبل.

قاطعته قائلة:

ـ ولكنك تعرف أختك.

غير من لهجته وعاد إلى مرحه وقال:

ـ أعرف أن ما بينك وبينه مجرد إعجاب سوف يزول مع الأيام.

قلت بجدية:

ـ لا أظن... بالنسبة لي هو راسخ في نفسي يسيطر على أعماق أعماقي ولا يسخر مني كما تسخر أنت.

قال:

ـ ومن يسخر منك؟ دعي كل شيء للأيام.

قلت:

ـ أفضل أن تقول لي وعن كل شيء.

قال:

ـ ومن أنا حتى أقول؟

قلت:

ـ أنت أخي وهو صديقك.

وضع أخي يده على فمي وكأنه يطلب مني أن أصمت، فصمتُّ على مضض لكن أعماق أعماقي كانت تغلي بحكايا وكلام طويل أريد أن أفضفض به عن نفسي على أمل ولكن كثيراً ما تضيع الأماني في خضم ما يجري على أرض هذا الكون.

ولملمت نفسي وخرجت ورأيت الدموع تنساب من عيني وتتساقط، وشعرت وكأن دواراً أصابني بعد كل هذا الحديث فمن يدري... فقد يسبب لي حبي مزيداً من الحزن والألم كما قال لي أخي ولكن مع هذا كله، فإنني لم أستطع أن أدفع بعيداً عني تفكيري الدائم رفيق الطفولة الذي كنت أراه ويراني يوم لم يكن في أذهاننا نحن الأطفال شيئاً ما يمكن أن يختزن. هكذا يقولون عن الأطفال لكن الحقيقة أكبر من هذا وذاك فالأطفال يختزنون في نفوسهم أماني تكبر وأحلاماً لا تشيخ قد تجسدها الأيام وقد تمحوها.

لكنها بالنسبة لي، فهي تكبر ولكن لن تشيخ!

الفصل الخامس

نحن الحرائر في أعماق أعماقنا تستقر فلسفة العطاء بأجمل معانيها رغم كل ما يقال، فالمرأة أقدر من الرجل على هذا العطاء أو ليست هي التي تهب الأرض والمجتمع مزيداً من الأطفال تكبر بهم الأيام ويكبرون؟

وفلسفة العطاء هذه تتصل بالأمومة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في أعماق المرأة، حتى تلك التي فرغ جذعها من النماء تظل تستطيب دورها رغم محاذير ما قد تجد وكأنها على موعد مع هذه الأمومة التي اختصت بها كفرع تلتقي من خلاله مع الرجل في فروع أخرى كثيرة.

يقولون بأن الطب حرر المرأة ومنحها القدرة للتكيف مع واقعها، وأقول أنا لا شيء في حياة المرأة ولا في حياة الإنسانية ما يمكن أن يحرر المرأة من رق الأمومة وعبوديتها.

يوم جاء حاج يلطاش لزيارتنا لم أكن أظن أن لزيارته هذه سبباً أما عندما عرفت السبب فإنني قلت له:

- نحن نقيضان في اللون والمظهر والسن يا أبي العزيز.

صدقوني لم أقصد أن أسيء لهذا الرجل الطيب الذي جاء يخطب ودي ويطلب يدي، لكنني وبعد أن أصبحت على ما أنا فيه، عز علي أن لا أكون صريحة مع من أعرف وحتى مع من لا أعرف.

أمي قالت لي بأنني جرحت الرجل، وأنا وجدت نفسي أقول لها لا من منطلق إيماني بضرورة قفل الباب عندما يكون الإنسان بحاجة لأن يخلو إلى نفسه، وأنا لا أريد هذه الخطبة، لا أريدها لأنها ليست

متكافئة لا أقصد أبداً أنني أفضل شخصاً آخر وأوثره عليه ولكن المبدأ الذي بت أؤمن به يجعلني أرفض فمفاهيمي للزواج أصبحت ترزح تحت مقاييس معينة وضعتها بنفسي ولنفسي.

أخي يكتب لنا باستمرار وهو يغمز من قناتي في بعض سطوره، لكن ما أسعدني حقاً هو أنني تلقيت في إحدى رسائله كلمة عن قرب وصول طلال إلى المدينة، فأخته سوف تتزوج بواحد من أقربائه.

نزل الخبر علي كالصاعقة وأخذت بأسلوبي الخاص أبحث وأنقب حتى عرفت كامل القصة وشعرت برغبة ملحة في أن أحضر هذا الزواج.

بعد ثلاثة شهور سوف أستلم شهادتي التي تؤهلني أن أصبح مدرسة وذلك بعد اجتياز امتحانات المعهد الذي أدرس فيه. هذا الأمر منحني قدرة جديدة على التكيف مع واقع جديد. لم يشغلني عملي الجديد مطلقاً عن عملي كموانة. أو لم أقل لكم بأنني أتوق دائماً لرائحة الفاغية والفل والورد والياسمين، وأن طيب رائحة الأرض يملؤني زهواً وفخراً؟

طلال هذا الطفل الطيب يشغل قلبي ويحتل حيزاً كبيراً من تفكيري فلطول معاشرتي له بأفكاري هو البعيد النائي أجدني أحبه ومن كل قلبي وأتمنى أن ألقاه وأراه وأتحدث إليه.

أحلامي كنت أصوغها بنفسي لنفسي أجعل منها جسوراً لأماني كثيرة لا أزال أرمقها بعيني التي يقولون عنها بأنها جميلة. ولكن ما يدريني أن يظل هذا الطفل على سابق عهده، فأحاديث الصفاء التي لم أرد أن أغنيها كانت رغم صغر المدة بيني وبينه كثيرة وإن لم تمتد أواصرها إلى ما أفكر فيه. لكنها المرأة تصنع بيدها أحلامها وتصوغ أفكارها وتزرع في قلبها أماني كثيرة تأمل أن لا يحطمها لا يد الغدر ولا حتى ظروف الحياة.

يوم التقت عيناي بعيني طلال أحسست وكأنني أواجه الماضي والحاضر والمستقبل لقد تجمعت ظروف حياتي كلها في بؤبؤ هذه العين التي أراها تطل من خلال الصورة التي جمعت بين طلال وأخي.

لك الله أيها الأخ الغالي عرفت كيف تصنع جسوراً من الأمل بيني وبين هذه الحياة.

أمي عندما طالعت الصورة سألت:

ـ من هذا الذي بجانب أخيك؟

ووجدتها فرصة، فمضيت أتحدث لأمي طويلاً عن طلال. قلت لها كيف عرفت صاحب الصورة وأين ومتى وكيف أنني افتقدته، ولم أقل لها إنني أحب هذا الوجه، أحبه لدرجة الخضوع والخنوع في الإغراق.

هذا الحب الذي يغلف قلبي جعلني أناجي الصورة وأناغيها بكلام طويل شعرت بعدها وكأنني قد قفزت على الحاضر في حياتي لا أدري كيف تحقق ذلك.

آه يا أماه لو تدرين بما أحس وأشعر، لكنك لا تدرين وهذا يكفيني الآن.

وعدت بذاكرتي لأحاديثي مع أخي الذي كان يقولها لي والتي من ضمنها:

ـ سلمى أنت وأنا من طينة تغاير طينة طلال.

وكنت أجيبه:

ـ وماذا في الأمر؟ إنه صبي صغير مثلنا يا أخي.

ـ لا أقصد هذا وإنما ما أقصده تعرفينه أنت جيداً. نحن من قوم يتزاوج بعضهم من البعض دون أن يسمحوا للآخرين أن يطلوا على حياتنا وهم، وأعني أهل طلال، كذلك.

ولقد أجبت أخي يومها:

ـ قد يكون هذا صحيحاً في الماضي أما اليوم وبعد أن تعلمنا جميعاً، فقد أصبح في مقدورنا أن نعرف الطيب والرديء وأن نقضي بالتالي على تقاليد أشعر أنها قديمة وأننا توارثناها ساعة ضيق. نحن يا أخي وهم من أرض واحدة طبيعتنا واحدة. قد تكون الشمس قد لوحت من وجوهنا فمنحتها كل هذه السمرة التي يحبها سكان إسكندنافيا.

ويضحك أخي ويقول:

ـ كبرت يا سلمى وعرفت إسكندنافيا وما يحبه سكان هذه الأرض الشقراء.

ـ لا عليك يا أخي.

قلت وأضفت:

ـ قد تصبح فرص التعليم أقدر على إذابة الفوارق، فبمقدار ما نصل إلى الحياة وظروف الحياة بمقدار ما نستطيع أن نتعايش مع كل هذا الذي يجري على الأرض. قد يفصل بيننا وبينهم البحار والوديان والجبال إلا أن المعرفة والاتصالات والتعليم تقربنا من بعض لنعرف بعدها ما يحب كل منا كشعوب وأمم تعيش هنا وهناك في أرجاء هذه الدنيا الواسعة.

على أي حال، نظل نحن يا أخي أبناء آدم على هذه الأرض وحدت بين قلوبنا هذه الأرض وزرعت في نفوسنا أماني الخير ليطفو على سطح حياتنا تقاليد خيرة جديدة تمنحنا القوة لأن ننصهر في بوتقة واحدة بعيداً عن متاهات الغدر والحنق والخيانة وتلك التقاليد الضيقة التي لا زلت أصر على أنها كذلك وبحاجة لأن تتغير.

أمي ترى في التغيير الذي طرأ على حياتنا ما يجعلها تبدو سعيدة رغم أنها افتقدت بعضاً من صديقاتها اللواتي أغدق عليهن الدهر فمنحهن المال وجرى بين أيديهن نتيجة لظروف التطوير الذي تشهده طيبة الطيبة.

انتظرت بفارغ الصبر مجيء طلال حتى إذا ما اقترب موعد زفاف أخته، قلت لنفسي: لا بد لي أن أراه.

لكنني شعرت أنني سوف أفشل، وأسقط في يدي وظننت أن أخي قد غير رأيه فلم يبعث معه لي برسالة كما اتفقنا، حتى إذا ما تسلل صوته إلى أعماقي هتفت باسمه دون أن أنطق به وعرفت أن أمنيتي في أن أراه سوف تتحقق.

أحسست بأسلاك التلفون وهي تتلاعب بين حروف كلماته، وجاء صوته يحمل لي شيئاً من الاعتذار على أمل أن يزورنا بعد زفاف أخته.

لم أشأ أن أضيع الفرصة ولم أعرف من أين جاءتني الشجاعة فلم أر نفسي إلا وأنا أسأله عما إذا كانت صديقته التي كان يدافع عنها في المطحنة مدعوة من ضمن المعازيم؟

أجاب في حيوية:

ـ ربما كانت هذه هي فرصتي لأن أراك بعد أن كبرت. أتدرين بأنني أحبها؟

قلت:

ـ من؟

قال:

ـ أغنية المعازيم.

تجاهلت كلماته، وقلت له:

ـ لا تتفاءل، فأنت تعيش في القاهرة وحسان القاهرة أكثر من أن يعددن.

ضحك ثم أجاب:

ـ ولكني مشغول عنهن بزهرة من زهرات ياسمين قباء المشهورة.

قلت:

ـ أهو الغزل أم المجاملة تجعلك تقول ما تقول؟

قال:

ـ قد يكون هذا وقد يكون ذاك أيضاً، لكن صدقيني أنا أعني كل كلمة أقولها. عندما تحدثت إلى أخيك عن فتاتي التي عرفت، لم أكن أظن أنها أنت أخته ويوم فهمت حقيقة الأمر خفت أن يحمل كلامي على محمل لا أريده لكنه كان أقوى مني وأقدر على فهم حقيقة الموقف وحقيقة ما أعني أو تذكرين يا سلمى أحاديثنا يوم كنا لا ندري ما نقول؟

ـ ولكني عشت طوال سنوات عمري الماضية على ما كنا نقول.

هتفت صادقة.

قال:

ـ أنت أكثر خيالاً وشاعرية مني وهكذا تكون دائماً المرأة فهي أقدر على امتصاص الصدى من خلال لحظات تأتي ولحظات تذهب.

ـ لكنها لم تكن لحظات، كانت بالنسبة لي شيئاً أكبر وأعمق.

قلت بشيء من الحدة.

قال ومع شيء من الضحك:

ـ لم أكن أظن أنك على هذه الدرجة من الثقافة والفهم بحيث تفلسفين

الأمور وتتعمقين فيها هكذا. كنت أظن أنك لا تزالين كما عهدتك ولهذا أحس بأن أخاك قد ظلمك وظلمني فلم يحدثني كثيراً عما استجد في حياة أهل المدينة وحياتنا.

ـ وتقول حياتنا؟

ـ نعم يا سلمى أقولها وأعنيها وأفتقد عينيك اللتين أعرفهما ونضارة وجهك الذي أراه دائماً يطل من بين ناظري وسمرة هذا الوجه الذي يسعدني أن أراه.

وأقفل السماعة في هدوء وتركني مع أحلامي أفلسف قصة عطاء المرأة عندما تريد.

الفصل السادس

موسيقى أفراحنا ليست وليدة الأمس أو اليوم، وإنما هي قديمة قدم هذا التاريخ اخترناها بقدر فكانت صورة من صور اللقاء الخير عندما يتعانق مع المحبة فيها من أصالة الماضي وعبقه ما يمنحها أن تظل وتظل وتعيش.

الناس في بلادي معادنهم أصيلة وجذورهم راسخة وفروعهم قوية تمتلئ قلوبهم بالإيمان لذلك كان لهم من ماضيهم ما يمنح حاضرهم الكثير من القدرة على الانطلاق والتحليق في أجواء المحبة.

ملابس النساء قد تتشابه، لكن لكل لون منها نكهة خاصة لدرجة أصبح من حق العروس، أية عروس، أن تتدثر بأنواع من الملابس تختلف طبيعتها عن غيرها وكأنها مع الفرحة على موعد ليطل من بعد ذلك من عيني العروس ألق ليلة الزفاف الخالدة وهي تتجسد في نفس كل أنثى وأنا؟ من أنا؟ قد تحيلني الألوان الفاتحة إلى أنثى غير الأنثى التي عرفت.

ألبستني أمي ملابس الجدات وكأنها طرزتها لتناسب فرحتي. وكنت أظن، عندما رأيتها أول مرة، أنني لن أستخدمها لأنها من نوع يكاد يندثر ولكني في تلك الليلة آثرت أن أستعملها لأبدو مغايرة في نظر كل من يراني.

واخترنا طريقنا إلى المدينة على ظهر سيارة من سيارات الأجرة، وما إن وقعت عيني على ثريات الكهرباء المتلألئة حتى وجدت قلبي قد وجف وعزف وشعرت وكأنني أزف إلى طلال.

ترى أين طلال؟ وهل يراني؟ تثاقلت مشيتي وبدأت خطواتي

تتأرجح وكنت أطيل النظر في كل من أراه على أمل أن أصافح وجه ذلك الطفل الذي عرفت حتى إذا ما استمعت إلى ضحكة صغيرة جانبية شعرت بأنها ضحكته فهتفت نفسي توقاً إليه:

ـ أهو اللقاء الذي أنتظر؟

وفجأة كان طلال أمامي يواجهني بقامته المديدة ووجهه الصبوح وعينيه اللتين استقر الحزم والعزم فيهما فلم يلن أو يضيع.

لكم أحببت هاتين العينين وأنا صغيرة دون أن أعرف. سهرت معها واشتقت إليها وتحدثت معها دون أن تعرف هي كم أحبها وكم هي غالية علي.

نظر طلال إلى وجهي وقال:

ـ سلمى...

والتفت إلى سعاد رفيقة رحلتي في العلم والتي لم أتحدث عنها بعد ولم أجب، لكن وجهي أفصح عما يختلج في باطن أعماقي. مددت بعدها يدي لألمس ولأول مرة يده مصافحة وبعد أكثر من خمسة عشر عاماً ولقد شعرت خلالها بأنني أعانق، وفي تلك اللحظة بالذات، باقة فل بيضاء أنيقة جمعتها أنثى تحب لتقدمها لمن تحب.

لم أقل شيئاً لكن هو الذي قال.

قال:

ـ خفت أن تنسي دعوتي وطلبت مني أختي أن تحدثك بنفسها فهل تحدثت؟

لا أنكر أن أخته طلبتني مرة واحدة بالتلفون لكنها لم تجدني ولم تعاود الحديث مرة أخرى. قلت له ذلك، وأكملت بأنني كنت حريصة على الحضور من أجلها رغم أنني لا أعرفها.

ضحك وقال:

ـ هكذا أنتم النساء تغلفن رغباتكن بأوراق من السيلوفان.

قلت باستغراب:

ـ وأنا؟

قال:

ـ أنت تغلفين رغباتك بورود تقطفها يداك من أعماق أعماق الوادي.

أردت أن أستزيد من حديثي هذا معه، ولكن صديقتي أشعرتني بأنني أطلت الوقوف. لكزتها بمرفقي إثر ذلك فصرخت. أحسست بالذنب وأردت أن أقول شيئاً لكن طلال سبقني وقال:

ـ لا عليك أرادت أن تحرمني من الحديث مع طفلة الأمس التي أعرفها فاستحقت ما صنعت.

ضحكتُ وضحكتْ صديقتي ثم استأذنت ودلفنا إلى داخل الحفل. دخلت الصالة وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى وكأنني أود أن يلتقي شذى عطري بعطر يده التي أحببت أطول فترة ممكنة.

واجهتني زغاريد الفرح وموسيقاه فلم أسمع شيئاً سوى كلمات طلال التي أخذت تتردد في أسماعي.

استقبلتني أم العريس مرحبة، وانتحيت مع صديقتي سعاد ركناً يمكننا أن نشاهد منه ما يجري على بيست الكوشة التي كانت خالية تنتظر أن تطل عليها العروس كعادة أعراس أهل المدينة.

لم أكن وحدي في ذلك الركن ولكنني لم أكن أيضاً مع صديقتي فقد أحسست ساعتها بأنني أعايش الفرحة التي غمرت نفسي من أقصاها إلى أقصاها بعد هذا اللقاء السريع.

وتنازلت صديقتي عن أن تتحدث إليّ وكأنها هي الأخرى لا تجد حرجاً من أن تمنحني من الأمل ومن السعادة التي أحس بها حتى إذا ما أوغل الوقت قليلاً انبرت سعاد تهتف بي قائلة:

ـ انظري.

نظرت فرأيت العروس تدخل الصالة. رأيتها صورة طبق الأصل من أخيها طلال، وعرفت من إحدى الجالسات بقربي بأن العروس وأخاها توأمان جاءا إلى الحياة في يوم واحد وإن كان هو قد سبقها إلى الخروج بدقائق معدودات.

جاءت خديجة إحدى زميلاتنا في المعهد والتي أصبحت بعد تخرجنا من

المعهد وكيلة مديرة في إحدى مدارس المدينة إلينا وراحت ترحب بنا وتعتب علينا فهي لم ترنا من مدة، وانخرطنا في حديث طويل لم تقطعه سوى نظراتي إلى السيدات اللواتي كن يرقصن رقصات أجيدها لكني أخجل أن أرقصها في فرح لم تدعني إليه صاحبته وإنما دعاني إليه طفل صغير عرفته فيما مضى وأحب أن أعرفه على مر الزمان والأيام.

سعاد تثرثر وخديجة تصر على أن أرقص وأنا أضحك حتى جاءت إحداهن إلي وقالت:

ـ أنا أدعوك يا سلمى إلى الرقص.

نظرت إلى وجهها فلم أستطع أن أتبين من هي فقد كانت غريبة عني لكن نطقها باسمي جعلني أفكر فلربما كانت أماً لإحدى تلميذاتي. تساءلت عن ذلك فهمست في أذني:

ـ بل أنا خالته.

سألت:

ـ خالة من؟ العريس؟

أجابت:

ـ لا... أخو العزوس، خالة طلال.

نطقت اسمه بحيوية وهي تتفرس في وجهي وكأنها تريد أن تسبر أغواري.

ضحكت وقمت من ساعتي وأخذت أشدو على ساحة الرقص ولم أبخل بما أعرفه من رقصات كنت أشارك بها صديقاتي في قباء، وأحسست بأنني في تلك اللحظة أسعد امرأة. أو ليست خالته هي الأخرى تعرف اسمي ومنه هو؟ ألا يكفي هذا فتاة مثلي عاشت على الأحلام حتى إذا ما رأتها تبدو في الظهور إلى حيز الوجود حاولت أن تتمسك بها؟

واستمعت إلى أصوات المنشدات يتابعهن خطواتي وأنا كفراشة غطت وجهها بعسل النحل.

وعندما عدت إلى مكاني، كان كل من رآني أرقص يتساءل من هي هذه الفتاة النحاسية اللون؟ سعاد صديقتي قالت لإحداهن:

ـ ذات الرداء الأبيض.

بالفعل كان ردائي أبيض كالفجر نقياً كالثلج نقاوة قلبي الذي أحب وهو بعد لم يبلغ الحلم وحافظ على صورة من أحب حتى إذا ما حضر الأصل لم ينس الصورة وإنما مضى يقارن بين الأصل والصورة فلم يجد فارقاً يذكر.

والتقت عيناي مع خيوط الفجر البيضاء مع فارس أحلامي الذي كان ضمن رجال العائلة الذين حضروا يباركون للعريس والعروس كعادة أفراحنا.

قبل طلال أخته وعريس أخته والتفت حوله وكأنه يبحث في القاعة عن إنسانة افتقدها.

كنت أنا هي الإنسانة التي يريد، لكنني في غمرة الخجل الذي ساورني لم أشعر بيد سعاد وهي تنبهني إلى أنه قد رآني وأن ابتسامة وجهه قد كبرت.

نظرت إلى وجهه وابتسمت، وأطلت نسمة من السعادة ظللت ابتسامته التي أراد أن يخفيها عن الناس كل الناس سواي أنا. ومضيت أجرجر ثيابي إلى خارج مكان الحفل وفي يدي زهرة قرنفل بيضاء أمسكت بها دون أن أدري حتى إذا ما تهلل وجه خالة طلال وهي تودعني، منحتها الزهرة في هدوء ودون أن أقول كلمة واحدة.

لكنها نادتني قائلة:

ـ سلمى.

والتفت إليها بكل جسدي وجوارحي فأكملت:

ـ هل نراك في الغد؟

قلت:

ـ لا أدري.

قالت:

ـ لا... يجب أن نعرف، فأنا وطلال سوف نأتي الغد لزيارة بيتك. أنسيت أن طلالاً زميل أخيك وصديق عمره؟

ثم ترددت قليلاً وأردفت:

ـ وصديق عمرك أيضاً؟

وضحكت ثم قالت:

ـ أترى ما أعطيتني إياه لي أم له؟

قلت وكأني أحدث نفسي:

ـ لا لم أنس بل كيف أنسى؟

وبدأت أفكر وأفكر حتى إذا ما وصلت معها إلى الباب عاودت النظرة تلو النظرة إلى وجهها فارتاحت نفسي وسألتها:

ـ متى في الغد سوف تأتين أنت وطلال؟

قالت:

ـ سأتلفن لك.

ضحكت هي، ولكنني أنا انشغلت عن الضحك بشيء آخر. أخذت أفكر في الطريقة التي أجعل فيها أمي ترضى عن استقبالي أنا له بدلاً من أن تتركه بمفرده في غرفة الضيوف عندما يأتي مع خالته لزيارتنا. لم يكن الأمر سهلاً لكنه أيضاً لن يكون صعباً على فتاة مثلي تعلمت وتحبها أمها كثيراً.

وشددت يد سعاد وأنا في دوامة التفكير هذه ومضينا لنستقل إحدى السيارات التي كانت تنتظر في الخارج لتعيد المدعوات إلى بيوتهن كعادة أفراح المدينة.

كان قلبي يكاد يطير من الفرحة، ففي الغد سألتقي مع الربيع الوافد من بساتين الفرحة محملاً بأطيب أزاهير الحياة، مملوءاً بأغاريد الصحراء الجميلة.

غداً سأرى فارسي الذي انتظرت سيحمل في إحدى يديه زهرة توليب بيضاء وفي اليد الأخرى باقة من الفاغية، الفاغية التي أحبها من كل قلبي.

أما سعاد، فقد كانت جالسة بجانبي تدندن هي الأخرى بلحن سعيد لأغنية سمعتها في الحفل فأعجبتها ومضت ترددها كنغرية من نغاري قباء والعوالي وقربان.

وبدا الطريق أمامي أشبه بواحة ورد مهجورة لم تطرق أرضها قدم ولم تمتد إلى زهورها وورودها يد إنسان وأحسست بأنني الأخرى في حاجة لأن أشدو بأغنية من أغاني الزفاف التي أخذت تطل من بين ذاكرتي في إصرار عجيب.

الفصل السابع

في بيتنا سيدة لعب الفرح بفوديها فمنحها أضواءه وبدت أشبه بملكة متوجة. في وجهها طفولة محببة، وفي ابتسامتها لمحة إنسانية أكاد أراها تطل من وراء نظراتها البريئة في فضول.

قالت لي وكأنها تعتذر عن عدم مجيء طلال:

ـ لقد حاولت الاتصال بكم في التليفون فلم أوفق، ولهذا جئت لوحدي.

أحسست ساعتها ولأول مرة بأعطال التلفون وقلت: ترى لماذا توقف هذا الأسود عن الخفقان وفي هذا اليوم بالذات؟

أمي رحبت بالقادمة وأخذت تتحدث إليها عن المدينة أيام زمان، ذلك الحديث الذي تجيده، وأفاضت في الحديث عن كيف كانت المدينة وكيف كان بستان الجزع من أجمل بساتين قباء أما اليوم، وكان القول لأمي، فقد اخترق الطريق منتصف هذا البستان وفصل بين أجزائه وكأنه قد فصل بين قلبها وقلب أبي الذي هجع.

نظرت السيدة ثريا خالة طلال إلي وقالت:

ـ تلك هي ضريبة التطور نفقد شيئاً لنستكمل عن طريقه أشياء كثيرة.

تسلمت أمي رسالة أخي التي بعث بها مع طلال وكذلك هديته لنا، ولكني أنا كنت مشغولة بشيء آخر. لقد خفت أن لا أرى طفل الأمس مرة ثانية لكن نظرات السيدة ثريا وكلماتها التي كانت تتحدث بها في هدوء طمأنتني.

قالت لأمي:

- تعرفين أن ابن أختي يدرس الطب مع ابنك في القاهرة وأنهما صديقان منذ سنوات طويلة، ولقد كان بوده أن يراك ليحدثك أكثر عن ابنك لكن صمت تلفونك جعله يحجم عن الحضور.

لم تقل أمي شيئا، وإنما تركت الحديث لي، فقلت:

- ربما كان من الأفضل أن يأتي ليرانا فأنا وأمي نتلهف بالفعل لأن نعرف المزيد عن أخي.

واتفقنا مع الزائرة على موعد جديد لزيارة طلال لبيتنا. وعادت الدماء إلى وجنتي بعد أن أضعتها فترة من الوقت بينما مضت ضيفتنا تتحدث بإسهاب عن أسرة طلال، مولده، أمه، أبيه الذي توفي وطلال بعد طفل صغير، وعن كل شيء.

أحسست بأنني أعايش آمال وأماني وأحلام ومآسي أسرة طلال، طلال هذا الطفل الذي أحببت. وعدت بالذاكرة مرات ومرات إلى أيام الطفولة.

كان جل ما يحيرني في الماضي هو أن أعرف هل سيظل طلال يذكر سلمى رغم صغر سنه وسني؟ وبدأت أفكر فيما يريده القدر لي أنا الصغيرة التي عاشت سنوات طفولتها في سعادة رغم مظاهر الفقر والفاقة.

وجاءت سعاد لزيارتي في أعقاب زيارة السيدة ثريا خالة طلال لنا. شعرت وكأنها تريد أن تفضي إلي بمشكلة جديدة، فأنا أعرف هذه الصبية فنحن على الرغم من أننا صديقتان لكننا نختلف كثيراً في أفكارنا واتجاهاتنا.

سعادة بصراحة تخشى العنوسة وتظن بأن مجتمعنا الطيب لا يمنحها الفرصة لاختيار زوج المستقبل ولهذا فهي تتوق إلى أن أصل أنا إلى كسر جمود تقاليدنا في قبول بالزواج من فتى عرفته وأنا صغيرة لتنطلق هي الأخرى في رحاب هذه الحياة بعيدة عن بعض مساوئ التضييق والتطبيق الذي نمارسه حسب رأيها عندما تتزوج إحدى بناتنا أو حتى عندما يتزوج أحد أولادنا.

قلت لها يومها:

- رغم أني معك في كل هذا الذي تقولين، إلا أن حالتي أنا فريدة ولا

يصح أن تكون مثالاً على ما يجب أن يكون.

مدرستنا في قباء لم تعد فقط لبنات القرية الصغيرة، لقد انطلقت المدرسة وكبرت وأصبحت البنات يأتين إليها من كل مكان وتبدل كل شيء فيها.

آفاق العقل البشري تجنح في الهواء تصفق من الغِبطة عندما يدخل نور العلم والمعرفة من نافذة الحاضر والمستقبل.

وبنات قباء سعيدات بالمعرفة سعادتي أنا أيضاً وزميلاتي اللواتي كن يواكبن تطور الفتاة وهي تنهل من العلم لكن الفوارق أصبحت كبيرة بين الأسرة والفتاة.

أمضيت وسعاد يوماً هادئاً قلبت معها كل ما أعرف وما لا أعرف من أمور وخرجت من حديثي معها على أننا بدأنا مسيرة التغلب على صعاب ظروف المعيشة التي رافقت طفولتنا.

وفي المساء، كان موعدي مع مجموعة من بنات القرية اختلط فيها كل شيء وشعرت بالسعادة، فخديجة التي كنت أعرف كانت ضمن من كان في تلك الأمسية.

حديثنا لم يعد مجرد تزجية فراغ. أصبح لكل منا هدف، فنحن نعيش فترة من أسعد الفترات نبني خلالها مجتمعنا بأظافرنا بين جمود فكر العجائز الذي جعل سعاد تعتقد أنني بزواجي من طلال سوف أكسره وبين تحرر أفكارنا نحن الصغيرات اللواتي تربين في ظروف مغايرة لظروف تربية هؤلاء العجائز.

كل شيء تغير في مدينتنا.. زرع التعليم الحضارة فأثمرت بناء لم يكن يخطر على بال أحد وأصبح جل همنا أن نفيد ونستفيد.

حاج يلطاش جاء هذه المرة إلى بيتنا. لم يكن بمفرده، بل كانت ترافقه زوجته، بخارية مثله اختارها بعد زيارة قصيرة لمكة المكرمة وعاد معها إلى المدينة يحاول أن يبني حياته تلك التي أضاعها السوفييت.

لكن ما أثارني أن زوجته لطيفة كانت فتاة صغيرة لا تكبرني إلا قليلاً، وكان عليها مسحة جمال نادرة، بيضاء مشوبة بالحمرة في الوجه والكف والذراعين، يغلب عليها الحياء وإن لم ينقصها التعليم فهي الأخرى مولودة على

تراب هذا الوطن وإن كانت جذورها تمتد إلى بخارى مسقط رأس أجدادها.

سألتها لماذا لا تعمل؟ فقالت:

ـ أبي في بحبوحة من العيش رفض معها أن أعمل قبل زواجي رغم أني أحمل شهادة لا بأس بها.

استعذت من أفكاري وحاولت أن أبدو طبيعية أمام هذه الصغيرة الجميلة.

ترك حاج يلطاش زوجته تمضي يومها معنا ولم يعد إلا في المساء وكانت فترة كافية لأن أرتبط مع هذه الصبية بصداقة توطدت مع الأيام.

في مدرستنا أنواع كثيرة من المدرسات، منها الحضرية، وابنة البادية والمهاجرة. مريم الفلاتة مدرسة شابة ولدت في المدينة لكن لقبها ظل ملتصقاً باسمها في الوقت الذي كنت أتمنى أن تزول الألقاب فنحن جميعاً نلتصق بهذه الأرض ونحبها ونعمل من أجل سعادة إنسانها على طول الطريق.

المدينة المنورة أو طيبة الطيبة هذا الجزء من كياننا الكبير كان حلمي أن أراها على ما أحب. يد التطوير أخذت تجري في شوارعها وبيوتها وكل شيء فيها، حيث أصبح من حق الفرحة أن تلامس شغاف قلوبنا التي تحمل الحب لكل ذرة من ذرات هذا الوطن.

ولأول مرة اخترت أن أبعث بمقال عن المرأة في بلدي لـ "جريدة المدينة". لم أكن أظن أن المقال سوف ينشر، ولكنها كانت محاولة مني سطرت فيها رأيي في ابنة بلدي بعد أن أنار العلم دربها. عندما التقت عيناي باسمي يضيء على صفحة الأسرة أحسست بمزيج من السعادة والغبطة فخطواتنا نحو أهدافنا الطيبة تسير باندفاع كبير وهذا هو الذي نأمل.

درمش يأتي إلينا كل يوم مع شيء من بضاعته، فالمدرسة تأخذ جل وقتي وأمي أصبحت مشغولة بالثرثرة حتى إذا ما طالبتها بأن تضيع وقتها في صنع ما يفيدنا ضحكت وقالت:

ـ يكفيني أنك أنت موجودة يا سلمى.

الألقاب التي ترتبط بأسماء بعض المدرسات تثير في نفسي بعض الحنق والضيق فهذا موضوع سبق وأن أبديت وجهة نظري فيه، ولقد كنت أطالبهن بأن

يتخلصن من هذه الألقاب فنحن جميعاً بنات هذا الوطن، شربنا من مائه وتفيأنا ظلاله وأكلنا من خيراته، وها نحن نحاول أن نرد جزءاً من صنيعه معنا نحن وعياله الذين نعيش على أرضه في صفاء.

النماء الذي يحيط بأرضي يثلج صدري ويمنحني شعوراً بالسعادة أحسه ينبثق من خلال جفني وعينيَّ اللتين أرهقهما السهر، أنا التي لم أتعود السهر.

لكنني وبعد زيارة السيدة ثريا أصبحت أعشق هدأة الليل أناغي أزاهيره وأميل إلى استنشاق هوائه البارد الذي يدغدغ إحساساتي كلها ويجعلني قادرة على التأمل والقراءة.

كتب كثيرة قرأتها في هذه الفترة، ولكن أكثر ما قرأت هي تلك الكتب التي سطرتها يد الأنثى أية أنثى ومن أي بلد.

أعجبتني رواية "أيام معه" لكوليت خوري، وشعرت بالحيرة وأنا أقرأ ما كتبته فرانسواز ساجان في روايتها "مرحباً أيها الحزن" وأنا أقرأ بعضاً من نفثات سيمون دي بوفوار.

"وداعاً يا أفاميا"، هذه الرواية التي كتبها رجل شدتني وجعلتني أتوه بين سطورها بحب وعمق أيضاً، فالدكتور شكيب الجابري الذي كتبها عالم الكيمياء ومع هذا يتناول القصة بشفافية ويقدمها في إطار شيق جذاب. أما إحسان عبد القدوس فلا يعجبني وإن كان يعجب الكثيرات من زميلاتي، وأنا هنا لا أنتقد كل هؤلاء بقدر ما أسطر رأيي كقارئة وقارئة فقط.

الفصل الثامن

طلال في بيتنا، وأنا في قمة سعادتي وفرحي وابتهاجي برؤية طفل الأمس الذي شب عن الطوق.

كان حدثاً تاريخياً بالنسبة لبيتنا. حاولت أن أبدو معه طبيعية كأصلي، ذكية كمنبتي، متمكنة من حديثي كزهور الفاغية، معطاء صافية المنبع والمصب كأرضي ومياه بلدي.

لا أخفي عليكم أنني كنت أتمنى أن أرى هذا اليوم وكنت أظن أنه لن يجيء ولكنه جاء مع غروب شمس الأصيل وهي تلقي بأحمال الذهب في مياه البحار والأنهار.

طلال في بيتنا وأمي لا تدري لماذا أنا سعيدة. كانت تربط بين صداقة هذا الإنسان وأخي وتقول:

- فيه يا سلمى شيء من ريح أخيك وما أطيب ريح أخيك.

وأضحك من أعماقي ولا أعقب، فقد يفضحني كلامي وأنا أريد أن أحتفظ بكلامي كله لهذا الحبيب الذي التصقت صورته بذاكرتي وأنا طفلة وهو طفل أيضاً.

في بيتنا طفل كبر مع الشوق وسبح مع الأمواج وتدثر بزهور قباء ورياض العوالي ودوالي قربان.

في بيتنا طفل جمع الحسن من أطرافه، فكان صورة مشرقة لفارس لم يَكْبُ فرسه وإنما تطاول برأسه إلى عنان السماء وهي تحمله في رحلة من رحلات الفجر إلى وادي وج وروابي شهار.

لقد ظلمني طلال بغيابه، ظلمني بحبه، وأنا إنسانة أكره الضعف

والخور وأعتبر الحب قوة تعطي الإنسان قدرة على أن يدافع عن قلبه ومصيره.

ترى بماذا يفكر هذا العزيز الغالي؟ وهل هناك بارقة أمل في أن أصبح زوجة له؟ لا أدري... لكنني أعتبر الصعاب طريقاً يجب أن نجتازها مادامت قدراتنا قوية ونفوسنا أبيّة وما نحلم به صادق الحس والهدف.

في بيتنا طفل في إهاب رجل تحلم الكثيرات من الفتيات بابتسامته وترنين لأن يرين هذا الوجه الصبوح الذي أطل مع الفجر وكأنه مع الأمل المتجسد في أعماق نفسي الحائرة على موعد.

تتجمل النساء لرجالهن، هكذا تقول النساء، أما أنا وفي تلك اللحظة فلم أتجمل. وجدت نفسي في حيرة أيضاً وأنا أنتقي ملابسي، فقد أردتها أن تكون في مستوى الحدث ملاءمة وحشمة. حتى عطري طلقته في ذلك اليوم لأنني أخاف أن يغري هذا العطر هذا الطفل ويصرفه عن أن يسمع مني ما أريد أن أقوله. هذه واحدة وأما الأخرى فهي أنني أخاف الله وأتبع تعاليمه.

طلال بوجهه الضاحك في مواجهتي في صالون بيتنا الصغير. لم تغير السنون من جذوة هذا الوجه الذي أحببت يوم لم أكن أفهم ما يعني هذا الحب أما أمي، فقد كانت عيناها تنطقان بالدهشة فلأول مرة يدخل بيتنا رجل غريب غير الحاج يلطاش من جهة ولأول مرة تجدني متحمسة لملاقاة هذا الرجل الغريب من جهة أخرى.

جمعت فكري وانتباهي وابتسمت في حبور أنتظر أن يقول طلال شيئاً حتى إذا ما جاءتني كلماته وهو يوجهها إلى أمي شعرت به وكأنه يكلم أحدنا الآخر.

مؤدبون نحن أبناء وبنات المدينة، غرست في جلودنا طيبة هذه الأرض الأدب ومسحت على وجوهنا بالكثير الكثير من الحياء.

أخذ الحديث يطول عن أخي وصداقته له، ودراسة أخي للطب وكيف يعيش أبناء هذه الأرض في غربتهم، والظروف التي تقابلهم حتى إذا ما توقف طلال عن الكلام قالت أمي بعفوية:

ـ قالت لي سلمى بأنها تعرفك.

ـ صادقة سلمى في كل ما تقول.

أجاب طلال:

ـ وأنا أعرفها أيضاً. أعرف معاناتها ومعاناتك أيام كانت تحمل قمحها لتأتي به المطحنة.

وصمت قليلاً ثم أردف:

ـ مثلي تماماً... كما كانت حياتنا صعبة على هذه الأرض، لكن الماضي بقسوته صنع في قلوبنا جسوراً من الأمل استطعنا به أن نتخطاها في قوة. مات أبي وأنا صغير وكفلتني أمي حتى إذا ما أنهيت دراستي الابتدائية عقب لقائي بسلمى اتجهت بي أمي إلى مكة المكرمة.

ـ مثلما فعل ابني.

قالت أمي، فأجاب طلال:

ـ مثلما فعل آخرون غيرنا كانوا تواقين لأن يصلوا إلى أهدافهم في هذه الحياة عن طريق العلم. لقد عاشرت الفاقة وتغلبت عليها وكان هذا كله بفضل أمي التي كانت تخيط ملابس النساء وتصنع بإبرتها أشياء كثيرة منها طواقي السيم التي كنتن تبعنها هناك في شارع العينية.

صنع الطوى منا يا عمتاه قوة عجيبة اندفعنا بها نعبد طريق المستقبل حتى إذا ما رأيناه أصبح هيناً ليناً لم نرض عن ليونته فقد تعودنا أن ننطح الصخر ونفلق الحجارة.

طلبت أمي مني أن أصنع القهوة، فسرت في الغرفة لا أعرف كيف أمشي وطلال يضحك ويقول:

ـ أشعر بخطواتك وكأنك تبحثين عن مخرج، تماماً كما كنت تفعلين يوم كنت صغيرة تحاولين الابتعاد عن أولئك الذين كانوا يطرون جمالك يا سلمى.

نظرت إلى أمي بطرف عينيها ثم قالت له متسائلة:

ـ وهل كان هناك من يطري جمالها وهي صغيرة؟

ـ كثيرون.

أجاب طلال، ولولا يدي هاتين لامتدت أيدي الصغار يومها لمداعبة ابنتك. لقد كنت أرفض سماجتهم ولا أتقبلها وتعمدت أن أكون حامي حمى

قباء وبنات قباء من شرور أولاد السيح والتاجوري وحارة الأغوات.

أعادت أمي نظرتها إلي وقالت وكأنها تلومني:

ـ ولم تقولي لي؟

كنت أقف في وسط الغرفة، فضحكت وقلت:

ـ وماذا كنت ستفعلين يا أماه؟

أجابت أمي:

ـ على الأقل أكفيك شرور هذا الطريق فأمضي بنفسي للمطحنة بدلاً عنك.

لم أصمتِ وإنما قلت بدون تفكير:

ـ أو لا يكفيك أنه فعل؟ ثم ما يدريني أن تكوني قادرة على ذلك وأنت امرأة تحتاجين إلى رعاية أيضاً؟

ـ حفظك الله يا بنيتي. أما أنت يا طلال، فلك في أعماقنا فضلان لا يمكن أن أنساهما أولهما ما صنعت مع ابنتي وثانيهما أنك تشرفني بزيارتك هذه. ألست أنت من نسل الرسول عليه صلاة الله وسلامه؟

ضحك طلال وقال:

ـ هكذا تقول شجرة العائلة وهو فخر أعتز به وآمل أن أكون ملتزماً بما يتفق وانتمائي إلى سيد الخلق محمد بن عبد الله صاحب مكارم الأخلاق في هذا العالم الكبير.

وانساب الحديث بيننا بعد أن شربنا القهوة هيناً ليناً ولم نترك شاردة ولا واردة إلا وتحدثنا فيها، ومضت الساعات تلو الساعات ونحن نستذكر ظروف الحياة الماضية وقسوتها في طيبة الطيبة وكيف هي الآن بعد أن أصبحت بلادنا تعايش النهضة وتلتحف بالتطور.

تذاكرنا في كل شيء حتى تلك الأماكن التي أزيلت واختفى وجودها، حتى إذا ما ورد ذكر زقاق الطوال قال طلال لأمي:

ـ تعرفين أنني ولدت فيه ولكن ابنك، وهذه شقاوة منه، يؤكد أن مكان مولدي في بيتنا الكائن في هذا الزقاق والذي هدم وأدخل في توسعة الحرم قد أصبح "ميضاة" لرواد المسجد.

ضحكت أمي وقالت:

ـ هي دعابة كما تعرف.

قال طلال:

ـ نعم ولو لم يكن كذلك لتحملتها من أجل سلمى.

نظرت ملياً إلى وجهه وأخذت أحملق في عينيه وكأنني أخاف أن يغادرني هذا الوجه فلقاؤنا الأول تم بعد خمسة عشر عاماً من الهجر وهي سنوات قاسية طويلة بالنسبة إلي ولا أدري الآن متى يقدر لي أن أراه مرة أخرى.

أما أمي، فقد كانت أبعد من أن تكون كما يقول المثل "أطرش في الزفة" وإن كانت لأمر ما حاولت أن لا تناقش كل ما سمعته. نظرت إلى عينيها فرأيت فيهما أكثر من سؤال حائر تنتظر مني الإجابة بلا إجابة، وودعت فارسي كما ودعته أمي وظللت على كرسي أنتظر أن تبدأ هذه الأم أسئلتها التي رفضت أن توجهها لي وكأنها أرادت أن تجنبني مؤونة الحديث في أمور استطاعت أن تفهمها في هدوء وبلا ضجة.

جميلة هي الأم عندما تتغابى عن أمور لا تريد لابنتها أن تقولها وإن كانت تحب لها أن تقول ولكن في رغبة. وودعتها وأنا أسير إلى غرفتي، وصور طلال تأبى أن تغادر مخيلتي التي أطبقت عليها على أمل وانتشى كل شيء في نفسي وأحسست بأنني أكاد أطير من الفرح هذه المرة.

الفصل التاسع

في داخل أعماقي يعيش التفاؤل وإن كان مستقبلي يرقص على أتون من الجمر. لا أدري لم أصفه هكذا أنا التي أرفض التشاؤم ومن كل قلبي.

لم أر طلالاً بعد تلك الزيارة التي أفرغ فيها كل ما كان في جعبته من حديث شعرت بعده وكأنني امرأة من حرير ساوى التاريخ بينها وبين المعادن الثمينة ومنحها جلال الشكل والموهبة والعمق.

في المدرسة كانت أحلامي تتمحور حول كل هؤلاء الصديقات اللواتي منحهن العلم فرصة الانعتاق من ظلم الحياة في تلك الأيام. هكذا كنت أظن حتى عرفت فريدة الفتاة اللاهية التي لا تعرف كيف تتحدث بمقدار ما تعرف كيف تعزف بأناملها البضة الجميلة على كل شيء، ظلمها الزوج وأذاب نضارتها وذهب جمالها وأودع في قلبها خشونة هي في غنى عنها لو لم ترتبط بمن أرادوه لها زوجاً.

قالت لي فريدة كلاماً كثيراً جعلني أخاف من الزواج لكنني وبعد أن التقطت أذناي أسلوب زواجها ناقشتها في المشكلة وقلت لها:

ـ مشكلتنا نحن البنات أننا نريد الزواج وعندما يأتي الخطيب لا نحاول أن نتعرف إلى ما نريد حقاً وما لا نريد.

أصبحت مستودع أسرار الفتيات المدرسات ومستشارتهن، وكان هذا الأمر يفرحني ويجعلني سعيدة فحل مشاكل الأخريات شيء لا يمكن لأية إنسانة عادية أن تجيده وكنت أنا أجيد حل المشاكل.

بيتنا أصبح خلية نحل لا تتركه زميلاتي إلا عندما أكون أنا في طريقي إلى البستان أساهم في جني المحصول كموانة. ألم أقل بأنني

أعشق هذا العمل وأحبه وأؤديه راضية وأنا أغني منفردة بنفسي وذاتي؟

صدقوني أنا أضيع بين الزهور وأحس كأنني فراشة تلهب بألوانها عيون الشمس ويسطع نورها في ظلمات الأرض، وهي تحط تارة عل الورد وأخرى على الياسمين والفل ثم إن أريج النعناع والنوامي وعطر الدوش وزهر الليمون يخدر أعطافي.

الأرض السمراء التي منحتني لونها النحاسي هي الأخرى أحس بها عندما أعاود عملي كموانة، وأنا آتيه بحب هذه الأرض وأغني وتملأ نفسي قناعات أنثى لم تشب بعد عن الطوق تجري وتلعب في متاهات العمر وبين ضربات "المعول" والماء ينساب في شرايين صغيرة يروي الأرض كما تروي الدماء قلب هذا الإنسان الخافق.

صديقاتي ينكرن علي هذا العشق ويعتبرنه نقطة ضعف في شخصيتي أما أنا فأعتبره مفتاحاً كبيراً من مفاتيح السعادة يتسلل إلى أعماقي في نشوة.

رسالة أخي إليّ كانت معبّرة، حروفها وهج وكلماتها قصائد وجملها عناقيد من حبات اللؤلؤ الأبيض الصافي وجدها يضمخ صدري بعطر لا أدري كيف أصف شذاه.

مصر ـــ القاهرة تدعوني فهل ألبي النداء؟

أخي يرغب في أن يراني وأمي في إجازة الربيع وهو يهمز من قناتي بكلماته الحلوة وكأنه يستحثني على أن ألقاه، لكنني مع كل الذي قرأت كنت أفتقد شيئاً ربما جاز لي أن أقوله. ترى لماذا لم يتحدث أخي عن زيارة طلال لبيتنا؟ لقد أغفل أخي ذكر أي شيء عن هذه الزيارة وإن كان أفاض واستفاض عن حضوري حفل الزفاف ومشاركتي النسوة رقصة الرجيعي التي أحب.

أخي يتحدث أيضاً عن "الكسرات" فيذكرني بغناء جاني الرطب وردود المحيطين به، وهو يستنهض عزمي لأن أتذكر أيام "الدوس".

سوف تستغربون وتسألون عن معنى هذه الكلمة ولكم كبير حق فالزراعة يوم كنا صغاراً لم تكن بهذه التقنية التي ترونها اليوم ولهذا كان المزارعون يجتمعون بحميرهم لدوس سنابل القمح.

حداء الجماعة يجعل أخي يفكر في كل هذه الصور التي استنفذناها ثم نسيناها في غمرة الجري وراء التطور.

أهازيجنا، أغانينا، كسراتنا، مواويلنا، ليالينا، تلك التي أسمع أنها كانت تغنى من قبل فتاة أندلسية جاءت بعد مئات السنين تحمل في عروقها بصمات من رواء أرضنا التي كانت ولم تزل وستظل مصدر الإشعاع لهذا العالم.

أخي يصف هذه الفتاة ويمنحها عيني وخجلي وابتسامتي وقامتي وبعضاً مما أنا فيه وأنا أضحك من كل هذا الذي أقرأ.

حروف تضيء كمصابيح في الظلمة وحروف لا يمكن لأية فتاة أن تنساها في غمرة قلبها الذي يعايش الظلمة وأنا في مهب الريح تتقاذفني رياح الربيع الوافدة مع القمر في ليالي قباء المضيئة.

سعاد صديقتي تفلسف دورها في هذه الحياة، تتحدث عن الأخريات بشيء من الحب يغلف قلبها الواجف وهي تخطو خطواتها الأولى للخطوبة. قالت مرة وهي تمسك يدي:

- ما أجمل أصابعك يا سلمى.

ضحكت وقلت لها:

- أعرف ما تريدين أن تقوليه: "دق الخاطب بابك كحاطب ليل".

ضحكت من كلمتي ثم أردفت قائلة:

- وأنت تعرفينه.

قلت وابتسامة عريضة ترتسم على وجهي:

- محمد بن سالم صاحب الصوت الجميل سمعته كثيراً وهو يغني على "نواه" في باب المصري. كبر الصبي الذي كان يغني يا سعاد وأصبح إنساناً له مكانته في المجتمع، "مهندس مدني" يصوغ بريشته بيوتنا بعد أن كنا نخطط هذه البيوت بعصينا. لشد ما تغيرت الحياة التي نعيشها يا سعاد ولكن دعيني أسألك سؤالاً: ما رأيك أنت فيه؟

خجل الأنثى يطل على وجه الأنثى حتى عندما تتحدث الأنثى مع الأنثى عن الزواج والبيت والأولاد.

تابعت حديثي وقلت:

ـ أعرف أنك تريدينه. أمي قالت هذا وأمك أيضاً يا سعاد.

والتفتت سعاد إلي وضربت على صدرها بكفها وقالت:

ـ وي! وماذا يعني هذا الكلام؟

قلت:

ـ يعني أن تقبلي وتمضي إلى عش الزوجية بقدميك وأنت تبتسمين.

نفرت سعاد من مكانها في فناء المدرسة ومضت إلى بيتها ولم تعد إلينا إلا ويداها مخضبتان بالحناء حاملة دليلاً قديماً على موافقة الفتاة على الخطبة.

قبلتها وقبلتني وقالت:

ـ العقبى لك.

فابتسمت وقلت لنفسي: وأين أنا من كل هذه الفرحة التي تشيع في قسمات الوجه الماثل أمامي؟

لقد ساوى العلم بين المرأة والرجل ومنحها مقومات السعادة. كنا بالأمس نساهم مع الرجل في بناء الأسرة بالعمل في الأرض واليوم نساهم أيضاً مع الرجل في بناء الأسرة بأسلوبنا المتحضر الجديد.

وأعاود قراءة حروف أخي.

ربما كان هناك شيئاً لم أقرأه بعد أو قرأته بسرعة ودون أن أعي حروفه حرفاً حرفاً. كنت أضحك بيني وبين نفسي، فسطور أخي واضحة مقروءة، بل تقرأ من عناوينها. أما أنا، فقد كنت أفضل أن أبحث من خلال ما كتب وأقرأ ما بين السطور.

يريد أخي مني ومن أمي أن نمضي معه عطلة الربيع في القاهرة وهذه هي أول دعوة تردنا منه لكني أخاف أن أرى القاهرة ولا أرى الربيع.

أخاف أن أفتقد البسمة في وجوه بنات القاهرة وأشجارها ونيلها الكبير.

أخاف أن يطويني الزمن فأضيع في متاهات أم كلثوم وعبد الوهاب وشادية وشارع الهرم.

أخاف أن أنسى قباء والعوالي وحارة الأغوات ودرب الجنائز.

أخاف أن ألتقي بالنور المذاب في سراج الأيام وقد منحته الليالي شيئاً من رصانتها وهدوئها الذي نعرف.

أخاف أن أرى الربيع مزهراً صداحاً بلا ربيع.

أخاف من قلبي على قلبي ومن نفسي على نفسي ويا لهف نفسي على كل أولئك الذين يعايشون الليل والنجوم والقمر، يرقبون انبلاج الفجر لتتوه أقدامهم مع الضياء الوافد من بعيد.

الفصل العاشر

هل يتسنى للإنسان أي إنسان أن يعطي عقله إجازة ويعيش فترة من الزمن بدون هذا العقل؟

في القاهرة عشت أيامي الأولى مع أخي بدون هذا العقل الذي أردت له أن يريح ويستريح.

أمي أبت أن تفارق بيتها فكانت فرصتي أن أسافر لزيارة أخي بدونها وإن كانت قد رافقتني سعاد في هذه الرحلة.

كانت فرصتي بالنسبة لسعاد أيضاً تستطيع من خلالها أن تتدبر أمر ثوب زفافها فتخيطه عند "مدام هاروني" التي انتقلت من لبنان إلى القاهرة.

بعض الصديقات يفضلن ثوب الفرح من "مس إيجبت"، والقادرات يفضلنه من "لانفان" في باريس، أما أنا، ففستان فرحي الذي أتطلع إليه يجب أن يصنع من الورد وزهور الياسمين وأن يطعَّم بالفل والكادي وأن يرفل بألوان البنفسج. أسلاكه من ضوء القمر ولونه من شفاه بنات الغجر ومكياج بنات الفلامينكو ونقاء بنات طيبة الطيبة.

أخي عندما استقبلنا لم يقل لي حرفاً وإنما تساءل فقط:

ـ من هذه؟

قلت له:

ـ سعاد... ولكن على فكرة ولمعلوماتك تعد عدتها للزواج.

ضحك أخي وارتميت في أحضانه وأحسست بأن الدنيا كلها لا تسعني من الفرحة فهذا الفتى الأسمر الوسيم هو أخي طبيب قباء الجديد.

في الطريق قال لي أخي:

- تصوري من كان يظن أن فتاتين مثلكما في جمالكما وظرفكما وحلاوتكما تسافران من المدينة إلى القاهرة وبمفردهما لولا أنكما نلتما من التعليم ما يؤهلكما أن تمضيا في طريق الحياة على أقدامكما الصغيرة لما فعلتما فأنا أدرى الناس بفتيات بلدي. التعليم يا أختاه نعمة أضاءت طريق السعادة أمام الكثيرين من الناس في القرى والمدن.

فكرت في كلام أخي وانتابني إحساس غامر بأن أسأله ساعتها عن طلال، فقد كان لطلال دخل كبير جعلني أطير على جناح الشوق من المدينة إلى القاهرة ولكني تشبثت بالصمت فكثيراً ما كان الصمت أسلوب نجاة لنا نحن الحرائر.

أخي يراوغ، يتحدث عن كل شيء ولا يتحدث عن الشيء الذي يهمني وأنا أحاول من جانبي استخدام نفس أسلوب أخي حتى لا يساء فهمي.

في الشقة الصغيرة أفرد لنا أخي غرفة لي ولسعاد وقال:

- سأنام أنا في غرفة طلال.

هذا الشقي الصغير لم يقل لي إنه يساكن طلال قبل تلك اللحظة.

قلت وفي شيء من الهدوء:

- وأين يسكن طلال؟

قال أخي بشيء من العفرتة:

- ضقت به ذرعاً فرجوته أن يمضي إجازة الربيع عند أم هاني.

- ومن هي أم هاني هذه؟

تساءلت أنا وبي شوق لأن أعرف كل شيء عن طلال وما يدور في فلك طلال.

- والدة صديقنا هاني الذي رحب باستضافة طلال طوال فترة وجودك وصديقتك في شقتنا هذه.

أجاب أخي بلهجة هادئة ثم أردف قائلاً:

- غرفة طلال في هذه الفترة سوف تكون غرفتي أنا.

ـ لم أسألك عن هذا وإنما سألتك أين غرفة طلال؟

قلت وقد نفذ صبري ولكن أخي أجاب بهدوء أيضاً:

ـ مقفولة يا أختاه ومفتاحها في جيبي.

هذا الشقي الذي أصبح يهزأ بأخته لا يريد أن يتحدث بشكل مقبول أو حتى معقول. نظرت إلى وجهه الذي أحب وقلت:

ـ أريد أن أرى الغرفة.

قال:

ـ لا يمكن أن تريها الآن لأنها "ملخبطة" عاليها سافلها وقد وعدت طلالاً بأن أرتبها أولاً وقبل أن أريك إياها إذا رغبت.

ـ معنى هذا أنكما تتحدثان عني؟

قلت وابتسامة نصر تطوف بوجهي.

قال أخي:

ـ نعم ونتحدث عن لقائكما يوم كان في المدينة وما دار فيه من أحاديث.

ـ ولا تقول لي شيئاً عن أحاديثكما تلك في رسائلك؟

همست وكأنني أعاتبه.

ـ نسيت أن أذكر ذلك.

قال أخي مستدركاً، فقلت:

ـ نسيت أم أنه هو الذي طلب منك ذلك؟

أجاب أخي:

ـ أبداً بل بالعكس لقد رجاني أن أنقل لك كل حديثه عنك ولكني شتمته أو نسيت أنك أختي وأننا من طينة تغاير طينة هذا الصديق؟

ـ ماذا تقول؟

قلت كلمتي بانفعال. نظرت إليه بعدها ولكني رأيت أن وجهه كان جاداً واضح المعالم لا انفعالات ولا آثار أستطيع أن أستشف منها شيئاً. لقد قال ذلك وكأنه يذكرني حقيقة واقعة.

لماذا يستمر هذا الساخر في سخريته مني أنا أخته؟

قفلت عائدة إلى غرفتي. سعاد في مواجهتي تفتح شنطتها الجلدية وترتب فساتينها في أطراف الدولاب الخشبي بينما شنطتي أنا في مكانها.

قالت لي:

ـ أتريدين أن أساعدك؟

قلت في حزم:

ـ لا.

استغربت سعاد الأمر لكن حزمي جعلها تصمت.

مرت بي دقائق خمس طالعت فيها معالم الغرفة في هدوء لكني وفي غمرة انفعالي عندما دخلت الغرفة لم أر الصورة التي كانت على الكومدينو.

التقطت يدي حامل الصورة لألتقي مع عيني طلال هذه المرة وعيني أخي القابع بجانبه في الصورة ترقب عيني. ظننتها كذلك فخجلت وتركت يدي تضع الصورة في مكانها في حنان وتوجهت بعد ذلك إلى الحمام لأنفض عن جسدي وعثاء السفر وصور الماضي تطل من عيني وكأنها شريط شامل لحكاية طويلة بدأت بعض فصولها ولم تنته بعض فصولها الأخرى بعد حتى إذا ما انتهيت خرجت لألتقي بسعاد التي أخذت تلح علي بأن نخرج لنرى القاهرة التي سمعت عنها الكثير ولم ترها بعد.

أخي يؤيد سعاد في مطلبها ويرى أنها أجمل فرصة لتناول طعام الغداء في كافيتريا الهيلتون لكنني لم أتشجع وقلت له:

ـ بإمكانكما الخروج لتناول طعام الغداء أما أنا فسوف أبقى في الشقة لأن إحساسي بالتعب يجعلني أفضل البقاء وحيدة.

قال أخي دون أن يترك لي فرصة أتم فيها كلامي:

ـ وحيدة مع من؟ مع أفكارك مثلاً؟

قلت:

ـ لتقل ما تقول يكفيني أنني معك.

أضاف أخي قوله:

ـ وإذا قلت لك إن طلالاً سوف يتغدى معنا، ألا ترين أنها مناسبة طيبة تتعرفين إليه بشكل أفضل؟

صمتُّ لكنني وإن كنت في قرارة نفسي أفضل فعلاً أن أرى طلالاً، إلا أنني رأيت أن لا أتهافت على تحقيق رغبتي بهذا الأسلوب الذي يكشفني أمام أخي. أعدت النظرة تلو النظرة إلى أخي ومددت لساني إليه وأنا أقول:

ـ وحتى لو كان طلالاً هناك فلن أذهب.

أخي يعرف أنني عنيدة فلم يزد وإنما طلب من الخادمة أن تعد مائدة الغداء ثم أدار قرص التلفون وبدأ صوته يتسلل إلى أسماعي وهو يحادث طلالاً قائلاً:

ـ كان من الأفضل أن نلتقي على العشاء فسلمى على ما أراها متوعكة المزاج غير قادرة على الخروج.

لم أسمع ما قاله طلال عني، لكنني أحسست بأن أخي ومن كلامه كان يحاول أن يطمئنه بأن لا شيء وراء هذا الاعتذار سوى وعثاء الطريق على فتاة مثلي تخرج لأول مرة تسافر برفقة زميلتها إلى القاهرة على متن طائرة.

وأحسست بعد ذلك أن أخي بدأ يضحك من أعماقه حتى وصلت قهقهاته أسمعي في صدى عجيب. سألته:

ـ ما الأمر؟

أجاب:

ـ لا عليك... كان طلال يقول لي عنكما بأنكما في أمس الحاجة إلى مطوف يعرف كيف يريكما القاهرة ويقترح أن يكون هو هذا المطوف وطبعاً قلت له كلمة واحدة: "بُعدك بُعدك يا شيخ".

عاودت النظرة متلصصة إلى عيني أخي فرأيتهما تلمعان ببريق من الشقاوة والحب، فأغمضت عيني وأحسست وكأنني أضم هذا الأخ ليستقر في أعماق قلبي.

ترى هل استطاع الناس في القاهرة تغيير مفاهيم أبناء قباء، أم أن وسائل التعليم والحضارة تمنح الناس أو بعضهم بعداً جديداً في فهم الأمور؟ ذلك

شيء لا أستطيع أن أدركه وأنا في موقعي الذي أراه متميزاً لكوني في شقة أخي وطلال في القاهرة.

ولكن، ومع أنني حاولت أن أستشف من تصرفات أخي شيئاً ما زرعته الغربة في نفسه لكنه لم يكن يعطيني هذا الحق، فهو يتأرجح دائماً بين القبول والرفض لأشياء كثيرة أخاله يعرفها ولكنه لا يريد أن يظهر بمظهر اللامبالي من تقاليد ورثناها ساعة ولدنا ورغبنا في التحرر منها عندما كبرنا.

كبر الشوق في عيني وأنا أصافح عيني طلال التي كانت تطل من خلال الصورة الصغيرة التي أحببت وامتدت يدي لتضيء حامل النور الصغير ليكشف لي تسلل الضوء عبر عيني هذا الذي أحببته منذ أن كنت صغيرة وازداد حبي له عندما كبرت.

الفصل الحادي عشر

الناس في القاهرة في شغل شاغل عما يجري من حولهم حيث شغلت أكثرهم ظروف الحياة فلم يعد الواحد منهم يدري ماذا يفعل حتى المرأة أصبحت تبحث عن مورد تستطيع من خلاله أن تعيش.

عندما تنقلب موازين المجتمع من مجتمع زراعي ويزداد عدد السكان وتصبح الصناعة هدفاً من أهداف تطوير المرأة، تخرج المرأة إلى العمل وتنسى أنها بهذا الأسلوب إنما تضيف أعباء جديدة إلى أعبائها وأن طبيعة التعليم الذي تلقته يجب أن لا يضيع عليها فرصة أن تظل أنثى وأنا أنثى جاءت من قباء لفها الأمل بردائه وأصبحت ترى من خلال ما تراه شيئاً فيه الخير وفيه الشر تنتقي الخير الذي تريده وتترك الشر لأصحابه بعيداً عنها وعن مجتمعها.

ما أجمل أن تعيش المرأة سنوات حياتها أسيرة طبيعتها الخيرة بعيدة عن كل ما يشوه تطورها وتقدمها.

أخي حريص على أن يريني القاهرة وأنا حريصة على أن أرى طلالاً بعد أن فقدت الأمل في رؤيته تلك الليلة.

ليتني لم أرفض الغداء... لكنني لم أعلم بأن عمل الطبيب ونوبات العمل نفسها قد تجعله يبقى في المستشفى وقتاً أطول مما يريد أو تجعل وقته ليس ملكه كما يقولون وطلال لم يستطع الحضور بعد ذلك الموعد في ذلك اليوم لأن مستشفى القصر العيني الذي يستكمل تدريبه فيه كان مليئاً بالحوادث والاستقبالات.

ولكنه اتصل بالتلفون، اتصل أكثر من مرة ثم عندما ضاع الليل جاء اعتذاره النهائي عن القدوم إلينا في ذلك اليوم ليضيف إلى كاهلي

عبئاً جديداً.

أخي يضحك مما حدث وسعاد تقول:

ـ ها هي أول ليلة من ليالي القاهرة نقضيها بين أربعة جدران، لولا هذا التلفون لانقطع بيننا وبين الناس الاتصال.

أخي أصبح أكثر هدوءاً معي وقال بجدية إن إجازته التي أخذها من المستشفى هي فقط لثلاثة أيام ضاع أولها في عنادي معه. لم أكن أظن بأن الوقت هنا أحدّ من السيف وخصوصاً وقت أخي وطلال إلا بعد أن فهمت ما فهمت فقلت عندها لأخي:

ـ لن أقول شيئاً بعد الآن سأترك لك الأمر لتصنع ما تريد بإجازتنا هذه ولكن لي كيف نعيش بقية أيامنا في القاهرة عندما تنتهي إجازتك؟

قال أخي:

ـ لا عليك سأتناوب أنا وطلال على تعريفكم بمعالم القاهرة.

ـ وفستان فرح سعاد كيف نستطيع تأمينه؟

أردفت متسائلة، فأجاب:

ـ لا عليك عندي صديقة تدرس معنا من أسرة كبيرة في مصر تعرف دقائق ما تحتاجه المرأة وسأعمل على أن أجعلها تصحبك أنت وسعاد لشراء ثوب زفاف جاهز بدلاً من ضياع الوقت في الحياكة.

فرحت سعاد بما قاله أخي وأخذت أفكر أنا من جانبي في كل كلمة قالها هذا الأخ كما أخذت أقارن بين حياتنا أنا وأخي بالأمس وحياتنا اليوم. أوَ يمكن أن يصل التعليم بالإنسان إلى هذه الدرجة التي وصلنا إليها من الوعي؟

أخذت بعد ذلك أستعرض في مخيلتي ما قرأت عن أولئك الذين يقوي مناعتهم العلم والتعليم، وخرجت من ذلك الاستعراض بأننا في هذه الدنيا قادرون على احتلال أماكننا فيها إذا قويت عزيمتنا وصح إدراكنا للأسلوب والطريق الذي يمكن أن نصل عن طريقه إلى أهدافنا.

عندما جاء طلال إلى شقته شعرت بأنني امرأة تريد أن تحلق في أجواء الفرح والسعادة. مد يده ليسلم علينا ثم أخذت عيناه تجوسان صفحات وجهي

حتى إذا ما ألم بتفاصيل هذا الوجه عاود قراءة وجه سعاد. شعرت في تلك اللحظة وكأنه يحاول أن يقارن بيني وبينها. خفت أن أسقط في الامتحان، ولكن عزيمتي كانت أقوى فلم أعر الموضوع أكثر من هنيهات عاودت بعدها الحديث معه.

قلت:

ـ نسيتنا يا طلال.

ضحك طلال ولم يقل شيئاً ولكن أخي هو الذي قال:

ـ أنسيت يا بنت أنك فتاة من قباء حتى تقولي ما تقولين أمامي أنا أخوك؟

نظرت إلى أخي بحب وقلت:

ـ أنت الذي علمتني قول الحقيقة.

ـ أية حقيقة؟

قال أخي باسماً. صمت وفضلت أن يأخذ الكلمة طلال هذه المرة.

قال طلال وفي عينيه تتجمع أحلامي كلها وتتجسد:

ـ أعرف أنني قد قصرت في حقكما.

وكان يتحدث في هدوء ثم أضاف قائلاً:

ـ لكن ظروف الدراسة هي التي حالت بيني وبين أن أراك ومع ذلك فعدم اللقاء على الغداء كما أظن كان فكرة أخيك.

ضحكت، ولكن أخي استمر في سخريته ومداعبته لي فقال:

ـ لا. وألف لا إنما كان هذا برغبتها هي لأنها لم تكن مشوقة لأن تراك أو حتى تلتقي بك.

ضحك طلال وضحكنا جميعاً وأخذنا نتحدث في أشياء كثيرة وفجأة قال أخي لطلال:

ـ أتظن أن أهلك وقومك يقبلون بزواجك من فتاة قروية من قباء؟ أنت تعرف يا طلال ما أعنيه. ربما نكون أنا وأنت قد اجتزنا حواجز الأمس في حرية لكن الأهل، وأنت تعرف ما تعنيه هذه الكلمة، قد تكون ظروفهم غير ظروفنا

ومفاهيمهم غير مفاهيمنا.

التفتت سعاد إلى طلال وقالت:

ـ وهل تنوي أن تتزوج بقروية من قباء وأنت كما أرى علاوة على عقبة أهلك سوف تصبح طبيب المستقبل؟

غمزت سعاد وطلبت منها بطرف خفي أن تصمت. كنت أود أن أسمع من طلال شيئاً عن هذا الموضوع إلا أن أخي واصل حديثه وكأن شيئاً لم يكن وقال:

ـ دعني أسألك يا طلال... ترى هل ترضى أسرتك أن تزوجني أختك مثلاً؟

التفت طلال إلي وقال:

ـ ولكن أختي تزوجت ولو طلبتها مني وكانت هي راغبة في ذلك فما المانع؟

قال أخي:

ـ المانع هم أولئك الذين تتغير جلودهم لكن عقولهم تظل متحجرة.

حاول طلال أن يغير مجرى الحديث وقت قال لأخي:

ـ دع كل ذلك للأيام وانظر ماذا فعلت الأيام بالنسبة لسعاد مثلاً. هل كنت تطمع أن تراها هنا وبرفقة أختك؟

أجاب أخي بسرعة:

ـ لا.

فقال طلال:

ـ نحن نستبق الأحداث إذن ونتحدث عن أشياء لو تركناها للغد لمسح الغد على مشاكلها بيديه وأزال غبارها من النفوس.

قلت لنفسي: هذا الطفل الذي كبر يظل قمة شامخة كما عهدته. لم تلن الأيام من قناته وإنما زادت من جذوة شهامته. بدا أمام عيني أشبه بفارس لم يكبُ به جواده في يوم من الأيام.

القاهرة في نظري مدينة عرسي. زال الخوف من قلبي تجاهها وأصبحت

أملك طريق قدمي فيها بحرية أنا القروية التي جاءت من قباء.

في كافتيريا هيلتون حدثتني إحدى المضيفات بالإنجليزية متسائلة:

ـ هل أنت برازيلية؟

لم أخف دهشتي من السؤال وكنت مع سعاد لوحدنا، فرددت عليها بالعربية وقلت:

ـ بل من طيبة الطيبة من قباء حيث يقع أول مسجد أسس في الإسلام.

لكن تساؤلها أصبح يشغلني لدرجة جعلتني أزور بعض مكتبات القاهرة لأشتري بعض الكتب عن البرازيل حتى أعرف هذه الأرض التي ظنت إحدى بنات القاهرة أنني أنتمي إليها.

في اليوم التالي، عدت إلى مكاني في الكافيتريا وأخذت أدردش مع الفتاة التي حدثتني بالأمس فعرفت منها بأن جمالي كما تقول جمال ثائر ونادر، وأن عيني تشبهان عيون البرازيليات، وأنها هي تعشق عيون البرازيليات وألوان أجسادهن وتعتقد أنهن أجمل بنات الأرض لدفء قلوبهن وصدق عاطفتهن.

سألتها كيف عرفت كل ذلك، فقالت على استحياء:

ـ أنا متزوجة من برازيلي مسلم يرحل في الربيع ويأتي إلى القاهرة في الشتاء وكأنه يخاف علي من صقيع ليالي الشتاء الباردة في البرازيل.

ضحكت من كل قلبي وقلت لها:

ـ أنت شاعرة.

وبهزة من رأسها قالت لي:

ـ أشعار كثيرة كتبتها ولم أنشرها فأنا من خريجات كلية الآداب، درست فنون الأدب وتذوقت الشعر على أحلى ما يكون ومع ذلك كله تجدينني أعمل فتاة كافيتريا فهل تستغربين؟

قلت:

ـ لا.. ربما كانت لك ظروفك.

قالت وقد غلفت قولها بنكتة صغيرة:

ـ لا ليست الظروف ولا الجوابات هي السبب وإنما هي لقمة العيش التي تفرض علينا أن نقضمها بحرية وأنا لا أعرف طريقاً آخر أستطيع أن أقضم به قطعة الحلوى التي في يدك بدون أن أعمل ولكنني بالطبع لم أجد ما أريد من عمل فلا مكان عمل لي فيما أريد أن أعمل حقاً فيه.

عدت إلى المدينة وأنا أحمل في باطن ذاكرتي ذكريات عزيزة كثيرة وشعرت بعدها بأنني أنثى غير تلك الأنثى ولكن مع كل هذا الشعور وهذا الإحساس، كان أول عمل صنعته عندما عدت هو أن أمسكت "بالمحش" وذهبت إلى البستان وعملت كموانة محترفة، واستغرقت في عملي في سعادة وحبور وصور القاهرة وليالي القاهرة وأحاديث طلال وأخي تملأ أذني وتمنح عقلي وقلبي إجازة مفتوحة.

الفصل الثاني عشر

تظل أحلام المرأة دائماً وسيلتها للانطلاق والتحرك وهي، أي الأحلام، قد تتأقلم في كثير من الأحيان مع واقع الحياة إذا كانت المرأة على مستوى من الإدراك والمسؤولية وقد تشذ عن هذه القاعدة فتنطلق في الأجواء تعربد في الصدور معلنة استياءها من الواقع تتلمس في فورتها بصيصاً من النور قد يهدي وقد لا يهدي المرأة إلى الطريق الذي تريد لكنها، مع هذا كله، تظل وتبقى تطل من بين الجفون تعلن عن الرضى والسخط واليأس والرجاء.

وأنا معلقة بأهداف طفل، طفل في إهاب رجل يسر لي أخي طريقي بعد أن صنعته بآمالي وأماني. لكنني على الرغم من أن إحساسي بمكانتي في قلبه وقلب الآخر، أجد الخوف كثيراً ما يتسلل إلى أعماق ذاتي حتى النخاع.

حاج يلطاش أنجب طفلة كبرت مع الأيام وأصبح يحلم بأن يراها وقد تزوجت. جاءني يوماً إلى المدرسة يطلب إدخالها فيها للدراسة. أحسست بفرح وأنا أراه فهذا الرجل أصبح سعيداً بعد أن تزوج لكن زوجته تضيق بي كما عرفت لكثرة ما يتحدث عنا هذا الرجل أنا وأمي. شعرت بكل هذا منها في أكثر من موقف فالمرأة تعرف بإحساسها من يحبها ومن يكرهها.

قال لي يومها بعفوية:

ـ لو كنت قبلت بالزواج مني لكانت هذه الفتاة الشقراء ذات الشعر الذهبي هي ابنتك ولجاءت عيناها كعينيك وبشرتها مزيج من بشرتي البيضاء وبشرتك السمراء الداكنة.

قلت للرجل في عفوية أيضاً:

ـ الزواج قسمة ونصيب.

التفت إلي وقال:

ـ وأنت أراك تكبرين لم لا تتزوجين؟

قلت بسرعة:

ـ لم يحن الوقت بعد عندما يأتيني صاحب النصيب سأتزوج.

قال:

ـ أتريدين أن أبحث لك عن عريس شاب مثلك؟

قلت له في هدوء:

ـ لا.

وأقفلت فمي عن الكلام وأنا أرجو أن لا يضيف هذا الرجل إلى ما قاله ولا حتى كلمة واحدة.

احترم الرجل صمتي فسكت، وأخذت أقلب في يدي بعض الأوراق ثم قلت له:

ـ سأعدك بترتيب أمر دخول طفلتك إلى المدرسة مع المديرة.

وانصرف شاكراً.

مديرة المدرسة فتاة مثلي تكبرني ببضعة أعوام. بيضاء، نقية البشرة، جميلة الوجه، يشع الحزن من بين عينيها في إطلالة عجيبة. تتحدث مع ذلك بكل هدوء وثقة وتشيع روحاً من الحب بيننا نحن المدرسات.

هي من بيت أصيل من الساحة تزوجت عن رغبة وانفصلت عن زوجها برغبة فقد كان عريسها واحداً من أبناء الأسرة ابناً من أبناء عمومتها.

يقولون بأن مشوار الحياة الزوجية لا يقطعه إلا الحكماء، ومديرة المدرسة حكيمة ولكنها مع هذا لم تستطع أن تقطع مشوارها مع شريك حياتها الذي عرفت. ربما كان الذنب ذنبها، وربما كان الذنب ذنبه، فهي لا تحكي قصة زواجها وطلاقها وأنا فضولية لأن أعرف.

إلحاحي على سهير ــ وهذا هو اسمها ــ جعلها لا تتردد في الإفضاء بما يجيش في صدرها على مضض.

قالت في شيء من الهدوء:

ـ لم يكن الذنب ذنبي كما أنه ليس ذنبه هو أيضاً. الذنب ذنب هذا المجتمع فلقد ولدنا على أرض وفي بيت نُذِرْتُ بأن أكون زوجته وأن يكون هو زوجي منذ مولدنا كأبناء عم. وعندما كبرنا وكبرت معنا الأيام وأطعنا الأهل وتم كل شيء انكشف الستر وعرف كل واحد منا أنه ليس للآخر.

كثيراً ما يظلم المجتمع المرأة يا عزيزتي سلمى ويظلم الرجل أيضاً ونحن نعيش بين رحى هذا المجتمع الذي يقسو أحياناً ويلين حيناً آخر، تسيرنا ظروفنا حتى إذا ما اصطدمت هذه الظروف بواقع إحساساتنا، انتفضنا كطير بلله المطر وتسلل الخوف إلى أعماق أعماقنا دون أن ندري. ولكن كم من النساء من أمهاتنا وجداتنا عايشن هذا الأسْر ولم يستطعن الخلاص منه؟ ولقد جاء التعليم يا سلمى ليمنح المرأة قدرة جديدة لأن تقول كلمتها حتى ولو بصمت.

تأكدي أنني لو لم أتعلم وأدرس لبقيت كمًّا مهملاً يعايش أثاث البيت والمطبخ بعيدة عن أن أستطيع الحديث أو حتى الخوض فيما أريد أو لا أريد.

قد يظلمنا المجتمع يا سلمى لكننا اليوم نحن أيضاً قد نظلم أنفسنا بأيدينا إذا لم تحاول الواحدة منا أن تفكر فيما تريد حقاً ومن ثم تقوم بإقناع من حولها بما تريد وصدقيني إن هي فعلت ذلك، فإنها تستطيع أن تفرض هذا الذي تريده. صحيح أنها قد تخطئ، ولكنه في هذه المرة يكون خطؤها هي وليس خطأ المجتمع أو الأسرة.

لله درها سهير هذه. إنها حقاً حكيمة تماماً كما سبق وأن وصفتها. أحياناً أفكر في كلامها لي خلال تلك الأحاديث التي كنا نتبادلها بين الحين والحين فأجد أن كل كلامها يؤيد فكرتي عنها بأنها حكيمة حكيمة.

ولقد قالت لي من جملة ما قالت:

ـ نحن يا سلمى بنات هذه الدنيا ظلمنا الإنسانُ وحرَّرَنا الإسلامُ، لكننا لو عرفت نفوسنا طريق هذا النور على حقيقته لهدأت بكل تأكيد. فنحن يا سلمى

نعايش الفتنة. عندما نخرج من بيت أهلنا في سياحة ما نرى العالم من حولنا، نظن أنه هو العالم المثالي وننسى في غمرة ما نراه أن المرأة في ذلك المجتمع أبعد ما تكون عن التحرر يصنع الرجل منها ما يشاء ويستخدم أنوثتها فيما يشاء وأحياناً من أجل نفسه فقط باسم المساواة تارة وباسم الحرية تارة أخرى.

وهي تقول أيضاً:

ـ قد يكون في السفر فوائد جمة، لكن فيه أيضاً شرور وآثام والمطلوب منا ونحن نسافر هنا وهناك ونلتقي بالفتنة بأشكالها المختلفة أن نحذرها فهي قد تتسلل إلى القلوب نتيجة تكرار السفر ورؤية الأشياء.

بعض إخواننا وأبنائنا يا سلمى ينسون تقاليدهم فور أن يضعوا أقدامهم على أرض مدينة جديدة وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك فيدفعون بنا نحن أخواتهم ونسائهم إلى معرفة أشياء يخالونها جميلة وهي يا سلمى على عكس ذلك تماماً قبيحة ولا تتناسب مع بيئتنا وعاداتنا.

في دنيا القاهرة وباريس ولندن ولوس أنجلوس تتحلق بعض الأسر في أماكن السهر يضحكون ويسمرون وينسون بأن كل ما يرونه ويفعلونه إنما هو مغاير لطبيعة هذه الأرض.

نحن يا سلمى من مدينة صنعت النور، لكن بعض أبنائها وبناتها، وزوجي السابق واحد منهم، ينسون هذا في غمرة التجوال هنا وهناك.

نحن يا سلمى مدينون بسلامة تفكيرنا لذلك الإيمان الذي يعتمل داخل صدورنا ولولا هذا الإيمان لضل أكثرنا وتاهت أقدامنا في طريق الأشواك.

أما زوجي ومن هم على شاكلته، فهم من طينة مغايرة لطينتنا. تفكيرهم غير تفكيرنا. أتصدقين يا سلمى بأنني قطعت شهر العسل وعدت إلى مدينتي لأن ابن عمي، أي زوجي السابق، أراد أن نقضي شهر العسل في بيئة لا تتناسب وتقاليد المرأة في بلادنا وبيئتنا؟ ويكفي أن أقول لك إن في تلك البيئة تحرر المرأة حتى من خدش الحياء الذي يجب أن تحافظ عليه وهو شيء أرفض أن أراه أو أن أعايشه أينما كان.

وإذا جاز لي أن أقول شيئاً في هذا المجال يا سلمى، فإنني أقول: هناك

أناس منا يا سلمى صدمتهم المدنية وأضاع تفكيرهم إيقاعها السريع كما قيدت أقدامهم وشلت تفكيرهم أحداث أصبحت تتسلل إلى عيونهم وآذانهم عبر وسائل الاتصالات السريعة.

قد تقولين بأننا محصنون ضد كل ما نرى ونسمع، ولكن هل نكون جميعاً محصنين ضد كل هذه الأمراض المتفشية في المجتمعات المتحضرة؟ وهل نملك بعد أن أصبحت رقعة العالم أصغر من أن تظل بعيدة عنا أن لا يفسد هواؤها هواء مدينتنا الطيبة؟

ستقولين بأن هناك باستمرار ضحايا تأكلهم وتحرقهم حياة المدينة التي نمارسها اليوم، وأقول أنا: قد يكون ذلك حتمياً لكننا إذا تركنا أعدادهم تتكاثر فإن المشكلة تتفاقم ويزداد عبؤها على المجتمع.

لقد هبت رياح التفكك على بعض المجتمعات العربية فما أغنى المرأة تعليمها وما استطاع أن يمنحها القوة وإنه لعمري ليفعل ذلك فقط إذا كان يساند هذا التعليم فهم حقيقي وصادق لمعاني الدين السماوي الخالد.

نحن يا سلمى نقطة صغيرة في سطر لم تكتب حروفه بعد، وعلينا يقع عبء التجربة بمقدار ما تتحمل كواهلنا من أعباء وقدرات وفهم وإدراك لتلك المعاني الإسلامية العظيمة بمقدار ما نستطيع أن نلمع الصورة التي نعيش فيها ونمنحها ظلالها التي نريد.

وتابعت سهير كلامها وهي تنظر إلى الدهشة تعلو وجهي قائلة:

ـ لا تقولي عني بأني فيلسوفة صغيرة، فأنا لا أحب أن أصف نفسي ولا أن يصفني الآخرون بما ذكرت، لكن كل ما أفعله هو أنني أفكر ومن خلال هذا التفكير أستثمر فهمي لصالح حياتي ومجتمعي وبنات جنسي.

ونظرت إلى سهير بعد ذلك نظرة جديدة شعرت بعدها أنني لا أحب هذه المرأة فحسب وإنما أحترمها أيضاً وأقدرها وأجلها كثيراً. إنني أرى في وجهها صور نقاء أرضي ومتانة أخلاق فتياتها.

أمسكت بذراعها في حب وكأنني أترجم كل ما بنفسي نحو تلك السيدة التي لا تعرف كيف ترحم مجتمعنا الذي أخذ ينمو ويكبر فلقد انتقدت في

كلمات قليلة ظروف حياة الأسرة والمجتمع، وعالجت بحكمة ومنطق معنى أن يستمر العطاء في هذه الأرض على ما كان عليه يوم كانت موئلاً لرجال عرفت نفوسهم الحق ونساء فهمت جوارحهم معانيه فزرعوا في جنبات هذه الدنيا بعداً إنسانياً رائعاً تعهدوه بالسقي حتى إذا ما تكالبت عليهم قوى الشر بعد ذلك انصرفوا لمقاومته في صمت بعد ضعف خائر.

الفصل الثالث عشر

يعز على الإنسان أحياناً أن يحيا بذكرياته هكذا دون أن يدونها. كنت أقول لنفسي وأنا أحادثها. ترى... ماذا أريد من طلال وماذا يريد طلال مني؟

أيامي التي أمضيتها في القاهرة كانت مشحونة بذكريات كثيرة لفظها عقلي وفكري، وما بقي منها إلا ذكريات لقاءاتي مع طلال.

أخي يقول بأن طلالاً يريد أن يتزوجني وأنه ينتظر بفارغ الصبر انتهاء دراسته ليعود إلى المدينة ويعمل وبعدها سيكون له ما أراد، وأنا لا أدري كيف استقبلت كلامه لكنني، وعلى الرغم من كل لقاءاتنا العابرة أنا وطلال، فإنه لم يحدثني عن هذا الشيء وإن كنت قد فهمت من إيماءاته كل المعاني التي قالها أخي.

لا أدري لماذا أحسست بصورة "منى واصف" الفنانة السورية تطل من بين عيني وأنا أتذكر المواقف التي وقفتها وأقفها في حياتي، ربما لأنها الفنانة التي استطاعت أن تجسد صورة الشاعرة العربية الخنساء وأنا أحب كل هذه الصور لنساء العرب اللواتي عرفت أقدامهن طريق المجد.

هذا الطفل الذي كبر أشعر بأنني لا بد وأن أرتبط به برباط الزوجية. أما إذا لم يتيسر لي أن أتزوجه، فسوف أبقى عانساً طوال عمري.

عهد قطعته على نفسي ولم أكن أدري كيف قطعته. في كثير من الأوقات والأحيان نحس بحاجتنا لأن نقول أشياء نؤمن بها، وأنا أؤمن بأن زفافي يجب أن يكون من هذا الطفل الذي كبر والذي عرفت.

في القاهرة قال لي طلال بأن علي أن أواصل تعليمي وأن أنال الشهادة الجامعية. لم أجب ساعتها ولم أعده بشيء لكنني، وفور عودتي إلى المدينة، عمدت إلى الالتحاق بكلية العلوم قسم الأحياء. لا أدري لماذا اخترت هذا القسم بالذات لكنني بعد أن درست ونجحت، عرفت السبب، فالذين يدرسون الأحياء قادرون على أن يكونوا شيئاً في المجتمع الطبي الذي ينتمي إليه طلال ذلك إذا ما أكملوا تعليمهم.

كنت أفكر بيني وبين نفسي أن يصبح لي ولطلال وأخي مستشفى خاصاً. ربما راودتني هذه الفكرة بعد أن درست في قسم الأحياء ولكن من أين لنا أن نأتي بالمال وأنا وأخي وحتى هو لا نملكه؟ قلت لنفسي لأدع هذا الأمر للأيام فلربما استطعنا تنفيذه بطريقة أو بأخرى.

أخي وطلال لم يحاولا أن يعودا إلى المدينة بعد أن نالا البكالوريوس في الطب، وكانت رسائلهما تقول بأنهما يريدان أن ينهيا دبلوم التخصص هناك في القاهرة وبأسرع ما يمكن.

أخي يكتب باستمرار وصور طلال تطل من بين سطوره. الأيام تمضي ونحن نكبر وأنا لاهية عن نفسي. زميلاتي كلهن تزوجن وأخي هو الآخر تزوج، تزوج من صبية أصلها من إيران وأمها مصرية بعث أخي بصورتها لنا. لم يدعني أخي إلى الفرح. وقال بأن زواجه تم في هدوء فهو، كما أعرف، لا يملك تكاليف الفرح ولا يريد لأهل زوجته أن يدفعوا هذه التكاليف. ويوم تسلمت رسالة قصيرة منها أحسست بأنني أحبها. أمي تضايقت من زواج أخي المفاجئ، وطلال يكتب لي رسالة لأول مرة يهنئني فيها على حسن اختيار أخي لزوجته. كلماته قليلة لكنها واثقة وكأنه يقول الدور علينا يا سلمى.

تريدون أن تعرفوا كم بلغت سنوات عمري؟ لقد أصبحت في العقد الثالث من عمري. أمي تقول عني بأنني مجنونة وتؤكد بأن زواجي بطلال مجرد كلام فهي تعرف حقائق ما يجري في عقول أهالي المدينة وأنا أضحك وسعاد بات يلتف حولها ثلاثة صبيان وطفلة. أما سهير مديرة المدرسة فقد تركتنا وتركت المدرسة بعد أن تزوجت للمرة الثانية.

أزورها بين الحين والحين وأسعد بحكمها ونصائحها وأشعر بأن هذه

المرأة محظوظة فقد وجدت طريق قدميها بنفسها.

زوجها أستاذ للتاريخ في فرع جامعة الملك عبد العزيز في المدينة وهو يكبرها بسنوات. طلق زوجته الأمريكية بعد عودته من الدراسة وعاش ينتظر نصيبه من المرأة فكانت سهير.

انتقلت من مدرستي إلى مدرسة ثانوية وأصبحت المسؤولة الأولى عن المدرسة لكني لم أترك التدريس فكنت أقوم بتدريس الأحياء للطالبات بحب.

وجوه كثيرة مرت علي في المدرسة، فبعض الفتيات تزوجن، وبعضهن واصلن تعليمهن ،وأنا كما أنا أعايش الأحلام علها تتجسد ذات يوم.

يوم جاءني خطاب أخي بأنه قد اختير وزوجته وطلالاً لبعثة تخصص وتدريب في كندا قلت: الحمد لله لكنني، وبعد أن مررت ببصري على سطور أخي، شعرت بأنهم سوف يسافرون جميعاً إلى كندا بدون أن يعرجوا على المدينة. تضايقت لكني سكت على مضض ولم أقل شيئاً ورفضت أن أرد على تلك الرسالة.

الأيام تمر بطيئة والحلاوة تأكلها النار وأمي تسوء صحتها وتنحدر والمدينة تكبر وتنتشر، وأنا كسنديانة أقف أمام كل هذه العواصف التي تهب على رأسي وقفة جندي لا يحارب ولكن يدافع عن عرينه فقط.

عندما ساءت صحة أمي، كتبت إلى أخي وطلبت منه أن يأتي إلينا، فجاءتني رسالته تقول إنه في الطريق إلينا. وجاء أخي وجاءت زوجته وعاشت أمي معهم ثلاثة أيام فارقت بعدها الروح ولبست أنا السواد حزناً عليها.

شاهناز زوجة أخي قالت بعد أن تأصلت أواصر الصداقة بيننا بأن الملابس السوداء تضفي علي جمالاً وحسناً لا تدري كيف تصفه.

أنظر إلى وجهها وأبتسم ابتسامة باهتة، وكل ما يشغل فكري أن أخي لا يتحدث عن طلال وهي الأخرى كذلك.

عاش أخي وزوجته أكثر من خمسة عشر يوماً معنا وفي الليلة الأخيرة، رأيت في وجهه علائم أخبار لم أتوقعها. قال لي بهدوء هذه المرة:

ـ متى تتزوجين يا سلمى؟

أجبته وبنفس الهدوء:

ـ عندما يعود طلال.

قال وأنا أتابعه بعيني وهو يشيح بوجهه عني:

ـ لا بد وأن تفكري بنفسك كثيراً. أنت لم تعودي صغيرة وسنوات العمر تمضي مثل لمح البصر.

سألت وكأن صاعقة حطت على رأسي:

ـ ماذا تعني؟ هل غير طلال موقفه؟

قال:

ـ منذ زمن... أخذته حياة المدينة والعصرنة التي عاشها في كندا ذهب عقله وراء إحداهن وابتعد عنا ولم نعد نراه وفي النهاية سمعت أنه طب كما يطب أكثر الشباب وتزوجها.

قلت:

ـ ألهذا كنت تغفل ذكره في رسائلك بل وتشجعني على أن أتزوج إذا ما وجدت الإنسان المناسب حتى لا يضيع عمري في الانتظار؟

قال بحب وبلهجة مشفقة:

ـ كنت أخاف عليك الصدمة فأردت أن أخففها عليك قدر ما أستطيع.

لم أقل شيئاً وإنما تركت أخي وزوجته ومضيت إلى غرفتي. لحقت بي شاهناز زوجة أخي وأخذت تتحدث عن طلال وعن الرجال عامة وعن القسمة والنصيب وعرفت من ذلك أحوال طلال وزوجته بل وأبناءه الثلاثة، بل وشعرت وكأنها تريد أن تخبرني أن طلالاً قد أخطأ بزواجه من امرأة بعيدة عن بيئته وعاداته وتقاليده وأنه ربما الآن قد تحقق من ذلك وبدأ يسير في دروب الأسى والندم. أما أنا فقد شعرت عندما انتهت من حديثها وكأن بحراً من الدموع قد أخذ يهطل من عيني.

في اليوم التالي، وقبل سفر أخي وزوجته شاهناز قالت لي وأحسبها أنها كانت تريد أن تسري عني:

ـ هل تصدقين يا سلمى لم أكن أظنك على هذا القدر من الجمال رغم كل

صورك التي رأيتها وأحسب أنني قد ظلمتك في هذا!

تابعت بعد ذلك كلامها بلهجة جدية فقالت:

ـ قول لك ومن كل قلبي إنني أؤمن أن وفاء المرأة دائماً أكبر من عقل الرجل وقلبه وإنها أقدر أيضاً على تخطي عتبات الأحزان ولهذا أريدك أن تعودي إلى طبيعتك وأن تبتسمي للحياة فمشوار الحياة لا يزال أمامك طويل وطويل جداً.

ستجدين يا سلمى من يَفضُل طلالاً وستسعدين. أما هو، فثقي أنه لن يكون سعيداً فاختلاف الطباع وتنافر المجتمعات لا تمنح مثل زواجه فرصة الاستثمار أبداً.

ـ ولكنه تزوج ورزق بأولاد.

قلت هامسة:

ـ هذا صحيح.

قالت شاهناز ثم أردفت:

ـ ولكن السعادة في الزواج لا تأتي إلا من توافق الطباع قبل كل شيء وهو ما يفتقده تماماً.

ـ أتظنين أنها على نقيضه؟

سألت وكأني أعزي نفسي.

ـ سوف أترك لك التخمين والجواب على ذلك.

أجابت شاهناز وهي تغادر غرفتي وتتركني أسبح مع أفكاري التي أخذت تشدني إلى الماضي، إلى أيام القاهرة، إلى المطحنة في مقعد بني حسين، إلى ليلة زفاف أخته، إلى اليوم الذي ذهب فيه أبي إلى القبر برجليه، إلى الرفيعة وبير شميلة، إلى الرانونة، وصواعق الأمطار الغزيرة التي غطت بيتنا ذات ليلة عندما كان بيتنا وجدرانه أوهى من بيوت العنكبوت.

الفصل الرابع عشر

عندما تفقد أقدامنا طريقها على الأرض تتوه أفكارنا في البحث عن مخرج للأزمات المتلاحقة التي لم نفتقدها طوال حياتنا لكننا في حالات الصحو أقدر على ملامسة أشعة الشمس التي تضفي على كيان هذه الأرض الدفء والراحة.

طوال حياتي لم أكن أظن بأنني سأصل إلى ما وصلت إليه من يأس وقنوط أنا المرأة التي لم يخامر ذهنها في يوم من الأيام أنها قادرة على اجتثاث الألم كما تجتث الموانة الحشائس الضارة التي تلتصق بالزهور.

أمي، رغم عجزها وجهلها، كانت بالنسبة لي الحائط الكبير الذي أستند عليه عندما تلم بي أي من الملمات.

وبعدما ماتت أمي، أصبح بيتنا خاوياً لا حرارة فيه ولا دفء ولا عاطفة. حتى صدري الذي كنت أحس به يخفق دائماً أصبحت نبضاته خافتة، لم يعد للحياة بالنسبة لي أي طعم فقدت مذاقها الرائق في فمي وضاعت نفسي في متاهات الأحزان بلا أمل.

الطريق إلى قلبي أصبح موصداً حتى الكلام، فقدت شهيتي للحديث مهما كان نوعه وهكذا بدأت أطل على الدنيا بقلب جريح ونفس مكسورة.

لقد خلى بي طلال... ليته فعل ذلك ونحن في بداية المرحلة أما الآن، فقد كان هذا الذي حصل منه أكبر من أن يتحمله جسدي أو حتى يقبله عقلي.

في المدرسة ألتقي الزميلات بالكثير من الحزن. وهن

يعزينني لوفاة أمي، أمي التي أحبها والتي ماتت ومات بموتها كل شيء جميل وبهي في نظري.

عندما تتحدث معي سعاد أحس بأنها هي الوحيدة التي يمكن أن أفضي إليها بما في نفسي ثم تثور عليّ كرامتي فلا أتحدث معها أو أنطق حرفاً ينبئ عما يعتمل في صدري.

وتعاودني الذكريات، وتطل صور الأمس كيف كانت وإلى أين ذهبت؟ وأشعر بالغصة لما وصلت إليه حالتي لدرجة أتمنى معها لو أنني ظللت مجرد موانة لا طموح لها ولا تطلعات.

وتمر الأيام ولا جديد يمكن أن يضاف إلى القديم القديم. أحلامنا التي كنا نراها تتجدد مع تجدد الأيام لم تعد كما كانت. ذهبت بها رياح الحياة وقست عليها بل وأهالت عليها حفنات كثيرة من التراب بين روابي قباء هناك في البستان كنت أجد نفسي بين الخضرة والماء وحداء الراعي وكسرات الشباب. كم هي جميلة ورائعة هذه الأرض وكم هي معطاء تهب من يعمل من أجلها بلا حدود.

أفقت من تأملاتي على صوت لم أكن أتوقعه. نظرت حولي، فوجدت أخي الذي عاد. لم يطق البقاء في البيت بعد أن حط بقدميه على أرض الوطن ووصل إلى البيت ولم يرني فيه.

نسيت أن أقول بأنني أترك نسخة من مفاتيح بيتي عند جارتي سهى بعد أن فقدت مفاتيح بيتي قبل مدة واضطررت لأن أبقى عند الجارة حتى استطعت أن أجد من يفتح الباب عنوة.

أخذني أخي بين ذراعيه، وأحسست بأنه قد كبر أكثر من اللازم. شاب فؤاده وأصبح أكثر امتلاءً عما سبق.

قال:

ـ أراك تهربين إلى المزرعة.

ابتسمت وقلت:

ـ وهل يمكن لإنسانة مثلي أن تهرب من قضاء الله؟

قال أخي في إيمان ظاهر:

ـ لا... والله ولكني بعد أن رأيتك الآن يا سلمى أصبحت أخاف عليك.

وضع أخي يده في يدي ومضينا في طريقنا إلى البيت نتحدث في موضوعات شتى حتى إذا ما وصلنا إلى باب البيت أطلت زوجته شاهناز بابتسامتها الحلوة تستقبلنا قائلة:

ـ ها نحن قد عدنا إليك لنبقى معك يا سلمى وإلى الأبد.

نظرت إلى وجه أخي وقلت له:

ـ أصحيح ما تقوله شاهناز؟

ـ نعم يا سلمى!

أجاب أخي باسماً ثم أردف قائلاً:

ـ سأبقى بجانبك وفي مدينتي التي هي في حاجة إليّ.

ـ وأنا في حاجة إليك أيضاً يا أخي.

قلتها بدون أن أشعر. رأيت شفتي أخي تنفرجان عن ابتسامته العذبة القديمة التي أعرفها فأخي هذا الحبيب العائد هو أبي وأمي وكل شيء لي في هذه الدنيا، لم يعد لي في هذه الدنيا سواه.

أمضيت ليلة هادئة شعرت بعدها وكأن ما يثقل صدري قد بدأ ينزاح عني. من يدري... ربما نظرتي إلى الحياة قد تغيرت وأنني على وشك أن أبدأ عهداً جديداً يدخل الصفاء إلى قلبي؟

نظرت إلى مرآتي التي أحبها فوجدت وكأن أكداساً من الغبار قد حطت عليها فمددت يدي وبدأت أنفض الغبار عن المرآة وكأنني أنفض الحزن الذي أختزنه بباطن عينيّ.

لك الله يا طلال وسامحك ...ولكن علي أن لا أنكر بأنني سأظل أحب هذا الغادر وإن لم أعد أحترمه.

يا طفلي الصغير... تظل أحلامي تطل رغم كل هذا الذي صنعت وسأبقى وفية للذكرى ما دام في قلبي عرق ينبض لكن يوم تطلب مني أن أكون لك زوجة بعد كل هذا الذي جرى منك فثق بأنني سأرفض وأرفض وأرفض.

منطق عجيب منطقي هذا، ولكنني مقتنعة به فالمرأة تظل أسيرة شيئين كبرياؤها وحبها وهي لا تود أن تفرط في واحد على حساب الثاني.

كلاهما يرتبطان معها إذا كانت حقاً امرأة.

وأنا امرأة من قباء من العوالي، من قربان، من أرض عرف أبناؤها الكرامة حتى عندما يحبون.

أخي بعد أن فتح عيادته وأصبح معروفاً بل مشهوراً في المدينة جعل جُلَّ همه إسعادي رغم كل مشاغله. إنه يحاول في كل عام أن يأخذنا أنا وزوجته إلى أي مكان في الدنيا لدرجة أصبحت أعرف معها كل مدن أوروبا السياحية.

كنت أصف المدن التي أراها كفساتين المرأة، وكنت أصف هذه الفساتين لدور الأزياء الكبيرة بغض النظر عما تعني هذه الصفات.

شاهناز حامل، ونحن ننتظر أن يكون في بيتنا طفل. عندما ولدت شاهناز رجوت أخي أن يسمي طفله طلالاً، ووافق أخي على هذه التسمية بعد حوار معي قلت له فيه إنه صديقك وإن الإنسان بشكل عام عرضة للتغيير والتبديل وإن قلوبنا معلقة بخيوط صغيرة رفيعة وقلت وقلت... لكن أخي عاد إلى سخريته ومداعبته لي والتي كان يمارسها معي في الماضي وقبل أن يحدث ما حدث من طلال وأصبح الآن لا يدخر وسعاً في تأنيبي على الوفاء لمن لا وفاء له.

قلت له يومها:

ـ انتظر... وبعدها سوف تعرف أن ما أفعله ليس وفاء فقط، وإنما هو بالإضافة إلى الوفاء شيء آخر فأنا سلمى يا أخي، الموانة التي تعلمت كيف تسير على الأشواك بصلابة ما بعدها صلابة. ثم إنني من أولئك الذين قد نفتقد الحنان بعد أن نصيب منه ما نريد لكننا عندما نفتقده نحس وكأننا لم نمارسه.

سلوى مدرسة جديدة عمرها في عمر الزهور، في وجهها براءة الطفولة وفي عينيها حنان دافق تحس به الطالبات والمدرسات وحتى عاملات النظافة. عندما قدمت أوراقها لي لم أكن أظنها مدرسة.

كنت أتصور أنها طالبة مستجدة نقلت أوراقها من مدرسة إلى مدرسة. سألتها عن أمانيها وآمالها، لم تقل الزواج والبيت بل قالت:

ـ أن أصل إلى نهاية الرحلة فأصبح أستاذة متفرغة في الجامعة.

سألتها عن السبب فقالت إنها ابنة لزوجين فرق بينهما الطلاق وهي صغيرة ولذلك فهي لا تريد الزواج مطلقاً.

أخذت أساير سلوى حتى أصبحت تثق بي. بعد ذلك، وفي أحد الأيام وبينما كنا نتحدث، حاولت أن أفهمها خطأ رأيها ولكني لم أصل معها إلى أية نتيجة إيجابية في البداية ولكني، مع الوقت ومع كثرة أحاديثي المتواصلة معها حول هذا الموضوع، اعتقدت أنني وصلت بها إلى الحد الذي جعلتها تتنازل شيئاً فشيئاً عن أفكارها ورأيها في الزواج وعندما أذكر أنني قمت بمفاجأتها بسؤال قلت فيه:

ـ متى تتزوجين يا سلوى؟

ردت علي سلوى بكثير من الهدوء:

ـ بعد أن تتزوجي أنت يا سلمى.

هكذا إذن... فأنا إنسانة فاشلة أنصح غيري من الفتيات بأمور لا أصنعها.

قلت لها بعد ذلك ضاحكة أحاول أن أغير الموضوع:

ـ هيا على يديك عندما تجدين لي العريس المناسب سأتزوج.

قالت:

ـ هو موجود.

سألت متعجبة:

ـ من؟

أجابت:

ـ أبي.

قلت:

ـ وهل سألته؟

أجابت:

ـ نعم وهو موافق. أتريدين أن تري صورته؟

وأخرجت صورة لأبيها من حقيبتها ودفعتها إلي. تأملت الصورة فوجدته في مثل سني، ولونه يبدو أنه يميل إلى البياض.

قلت لها:

- ولكني داكنة السمرة وفوق ذلك كله أنا كنت ولا زلت موانة.

قالت:

- هو يعرف ذلك.

ثم أردفت ضاحكة:

- أبي يحتاج في مزرعته إلى موانة وفي بيته إلى زوجة.

شاركتها الضحك، وأخذت الموضوع على سبيل المزاح بل وحاولت أن أنساه حتى جاء أخي ذات يوم يقول لي:

- الأستاذ علي والد سلوى زميلتك يريدك.

- يريدني أنا؟

قلتها وأنا أسترجع كلمات سلوى عن أبيها ورغبته في أن يقترن بي.

قال أخي:

- نعم يريدك كزوجة له. جاءني إلى عيادتي اليوم وحدثني في الأمر وهو يريدني أن أسألك رأيك في أقرب فرصة ممكنة.

قلت لأخي وكأني أحادث نفسي:

- دعني أفكر يا أخي.

وهاأنذا أفكر وأفكر والأيام تمضي والسنوات تمر لكن... لماذا أرادت هذه الصبية أن تزوجني أباها؟

ذاك أمر لا أعرفه، ولكن كل ما أعرفه أنني امرأة لم يَعُد عندها وقت للزواج.

ترى هل أنا صادقة في كل الذي قلت أم إن كل ما قلته مجرد اعتذار واعتذار سخيف جداً؟

الفصل الخامس عشر

تمتلئ أروقة مسجد قباء بالمسلمين الوافدين من جميع أنحاء الدنيا لأداء الصلاة في فناء أول مسجد أسس في الإسلام، وأنا في طريقي لزيارة سهير بعد أن اتفقت معها تلفونياً على الموعد.

زوجة أخي ترمقني بشيء من العطف فقد كنت خارجة لتوي من دور النقاهة من مرض لم أكن أظن أنني سأصاب به "الأنيميا". لو أصابني هذا المرض في بادئ حياتي لكان الأمر معقولاً أما أن أصاب بالأنيميا الحادة وأنا أعايش التخمة فذاك أمر لا أعرف كيف أصفه.

شاهناز زوجة أخي تصر على أنني، رغم هزالي، أبدو جميلة وأن تقاطيع جسدي تخفيها ثيابي التي أرتديها ثم تمضي وكأنها تحدث نفسها: إنني أيضاً أقدر على تحمل الشدائد من أخي الذي عَرَفَتْ.

وأخي مشغول حتى شوشته في عمله، فهو وبعد أن انضم إلى عضوية العاملين في المستشفى الأهلي الجديد الذي فتح أبوابه مؤخراً ليستقبل المرضى أصبح لا وقت عنده يضيعه. أما شاهناز، فقد كانت راضية بساعات عملها في عيادة أخي.

سهير تبدو أمامي أشبه بحورية جميلة على رأسها ثروة من الشعر الأسود الجميل وهي تعرف كيف تقصه بعناية. ملابسها، رغم بساطتها، إلا أنها أنيقة. شعرت وأنا أراها بأنها منحتني شيئاً منها هذه المرأة التي أحببت من كل قلبي.

قالت لي بشوق:

ـ أعرف أنك مشغولة مع زوجة أخيك ولكنني مع هذا كنت أنتظر مجيئك. أتدرين؟ كثر عدد الأطباء السعوديين في مستشفياتنا فزوجي

يقول بأن طبيباً مدنياً قد عاد من كندا قبل بضعة أيام.

قلبي يدق، وحواسي تتحضر، وعيناي تتسمران على شفتي هذه المرأة الصديقة، لكنها لم تكمل...

سألت وأنا أحرص على أن يبدو صوتي هادئاً:

ـ أو تعرفين هذا الطبيب الجديد؟

أجابت:

ـ لا... ولكن زوجي يعرفه فهو صديق قديم قابله أثناء دراسته في القاهرة.

ـ واسمه؟

سألت بصوت لم أستطع أن أخفي اللهفة منه:

ـ على ما أعتقد طلال.

ثم أضافت:

ـ لكن مشكلته أنه طلق زوجته الكندية وعاد مع ثلاثة من الأبناء وطفلتين.

ـ وأين تعيش أسرته؟

ـ يقال إنه اختار بيتاً في باب الشامي على مقربة من "الترسيس" حتى يكون قريباً من أخته. لكني، حسبما سمعت، أعرف أنه يعيش في دوامة من القلق والتوتر والتشتت ما بين أسرته وعمله.

نظرت إلى عيني سهير، وأحسست بأن لعيني هذه الأنثى سحراً آخر غير عيون النساء. كل ما فيهما يوحي بالراحة والثقة وصمت... لكنها هي لم تصمت. قالت:

ـ أعرف أنك فتاة ناضجة. قد تكون الحياة في بعض الأحيان طاحنة لنا نحن الحرائر، لكننا نملك أمورنا بين أيدينا ونتصرف من وحي إحساسنا بأننا من لحم ودم.

أنا أعرف قصتك مع طلال وإن تظاهرت في بداية حديثي هذا أنني لا أعرف.

قاطعتها أحاول أن أقول شيئاً لكنها أردفت متجاهلة أنني حاولت مقاطعتها:

ـ ستقولين بأنك قد طعنت في صدرك من طلال، وأنا أقدر على معرفة مشاكل المرأة ليس فقط بحكم معاشرتي لهذه المشاكل، وإنما أيضاً لما أراه يطل أمامي من أحداث. نحن يا سلمى، وأقصد من هن على شاكلتي، نسير في هذه الحياة بعيون مفتوحة حيناً وبعيون مغمضة حيناً آخر إلا أننا عندما نغمض أعيننا فإنما نفعل ذلك برغبتنا.

انظري إلى كل فتاة في هذا العالم.

كل واحدة منا لا يخلو قلبها من مشكلة. ربما تكون مشكلة هذه أكبر من مشكلة تلك، لكن الحقيقة تبقى أن هناك في حياتنا تعيش المشاكل بشكل عام وبمقدار ما نكون قادرين على احتواء هذه المشاكل بمقدار ما نصبح جديرين بالحياة التي نعيشها.

الإنسان يا صديقتي ليس شراً كله وليس خيراً كله. يكفي أن يكون مزيجاً من الاثنين ليكون إنساناً وهكذا يصبح كل ما علينا أن نزرع الخير في قلوبنا لنحصده كما نحب ونشتهي في قلوب الآخرين.

انظري إلي، لقد عشت سنوات بعد أن طلقت أنتظر من ينتشلني من وحدتي وعندما جاء أعطيته قلبي وحياتي وكل شيء. ولكن هذا الجديد لم يكن ملاكاً في يوم من الأيام كما أنني لم أكن أنا كذلك ولكننا نأخذ من هذه الحياة بقدر. ثم تعالي قولي لي: ألا تزالين تحبين طلالاً؟

وبهزة من رأسي أجبت بنعم.

ـ الأمر سهل إذن. يمكنه أن يستعيد مكانته في حياتك؟

قالت سهير وكأنها توحي لي بأن هذا ما يجب أن يحدث.

ـ لا.

قلتها في حزم:

ـ لقد اختار طريقه واخترت أنا طريقي فأنا كما تعرفين قروية من قباء "موانة" تعرف كيف تهزم الأشواك من بين صحبة الورد والياسمين. موانة أنا رغم كل هذا الذي وصلت إليه. ربما لأن حب الأرض متأصل في نفسي... ألست أنا ابنة هذه الأرض التي أعطتني لونها، ورسمت على وجهي خطوطها

الرائعة وكحلت جفني بكحلها كما مسحت على أطرافي فبدوت، رغم كل تصاريف الزمن، أشبه بعروس ملت وضاقت بها فانطلقت في أجواء الحقول عارية القدمين مكشوفة الرأس مجلجلة الردفين؟

للأرض فلسفة تمنحها للأوفياء من أبنائها وبناتها وأنا ابنة هذه الأرض، ابنة قباء وقربان والعوالي والعقيق وأبي جيدة وسيدي حمزة، ابنة الصفاء البادر والنماء القادر والجمال الباهر والحياة الآمنة المستقرة.

وداعة الحياة في عيوننا وكبرياؤها على أنوفنا وجلالها وجمالها في عقولنا وبهاؤها ورواؤها في صدورنا. نرفض في إباء وشمم زلة عقل وإن كنا نتطلع لأن ننصف هذا الإنسان الذي أصبح يحيا على هذه الأرض في ملل.

حياتنا لم تعد كما كانت ملك أيدينا. أصبحنا نعايش الناس الذين نراهم، نزورهم، نستقبلهم. ضاعت المسافات من بين عيوننا وانطوى الطريق وأصبح كل منّا له أسلوبه في هذا الطريق.

تطل علينا تقاليع أوروبا وموضات باريس وأفلام هوليود والمسلسلات الأمريكية والبريطانية وحتى الصينية. أصبح لكل واحد منا أكثر من عينين يرى بهما كل هذه الأشياء، بعضها يؤثر وبعضها يتأثر والناس بين مشفق ومطبق. أحلامنا قتلتها السرعة وسرقها الوقت وأضاعها كل هذا الجري وراء المجهول.

طلال في المدينة وأنا كذلك وبيني وبينه سد من الصخور وأخي كالشمعة يحاول أن يضيء أمامي الطريق.

قالت لي سعاد صديقتي في يوم من الأيام:

ـ كثر الخطاب يا سلمى.

ضحكت وقلت:

ـ ومن أين لك أن تعرفي؟

قالت:

ـ زوجي سالم يعرف أن أسعد ومحمد وعبد القادر قد طلبا يدك.

قلت:

ـ وتعرفين أنني رفضت أن ألبي طلب أي واحد منها. لقد نضب زيت

السراج يا سعاد، و لم يعد عندي قدرة على أن أعطي أي واحد من هؤلاء قلبي. في عز شبابي أعطيت واحداً من الناس هذا القلب فحطمه وسحقه ولم يتفضل حتى بإعادته لي.

ـ أنت لا زلت تحبينه إذن!

ـ ومن قال غير ذلك؟

ـ ولماذا لا تتزوجينه؟

ـ لأنني لا أريد إنساناً أضاع حبي عند أول إشارة في مفترق طرق.

أرأيتم كيف تضيء الشمعة طريق الناس وهي تحترق؟ كنت مثلها.

جسدت كل حنان يعيش في أعماق صدري لهؤلاء الفتيات اللواتي أدرسهن في المدرسة لدرجة أصبحت كل مدرسة تحسدني على حب كل هؤلاء الفتيات لي. لقد أصبح بيتي ملتقى لتلميذاتي يزرنني فيه في أيام العطل والإجازات ويملأن غرفه زهوراً وحبوراً ونشوة.

سارة أخت طلال في زيارتي ولأول مرة فأنا لم أرها منذ يوم زفافها، قالت لي بعد مقدمة طويلة:

ـ هو يسأل عنك.

تجاهلت وقلت:

ـ هو من؟

قالت:

ـ أخي طلال.

قلت بهدوء:

ـ ما هي المناسبة؟

قالت:

ـ يريد أن يراك، ويعتذر لك عن كل الذي سببه لك من ألم.

ضحكت وقلت لها:

ـ وفِّري عليه مشقة الاعتذار فأنا قد نسيته.

ـ ولكني أراك ترفضين أن تتزوجي.

ـ وهل معنى رفضي الزواج أنني أذكره؟

حملقت في وجهي بدهشة بالغة. لا أدري... ربما كانت تنتظر مني أن أرتمي على صدرها وأبكي وأجيبها إلى طلبها فور أن تفوهت به.

نسيت من أنا ومن أية طينة نحن بنات قباء، نسيت أن الإباء وظيفة من وظائف المرأة في طيبة الطيبة بشكل عام.

لقد خرجت من عندي وهي غير متصورة كل ما حدث ودار بيني وبينها من حديث، هكذا عرفت فيما بعد. أما أنا، فقد كنت أحس بمزيج من الفرحة واللهفة، الفرحة لأنني عرفت أنني فعلاً استطعت أن أشفى من داء اعتقدت أنني لن أشفى منه، واللهفة لأن أرى وقع كلماتي على طلال، هذا الغادر الذي أُحِبّ وسأظل أحب، لكنني سأئد هذا الحب في باطن أعماقي.

أخي يسأل عنها وماذا تريد؟

ضحكت وقلت له في محاولة لإنهاء الموضوع:

ـ لا شيء مهم.

فلم يعاود السؤال. تذكرت أنني نسيت موعدي مع الزهور، فمضيت أحث الخطى إلى البستان، مكان الأمان بالنسبة لي، وكنت أغني موالاً كنت قد سمعته وأنا طفلة صغيرة:

"يا راعي الحب أنسى الحب وأتذكر.

جمال الزهور والورد وأتفكر.

بكره يضيع الحب ويبقى لك.

ربيع وردك وحزن قلبك.

وكل أشجانك".

في يدي مدية صغيرة "المحش"، سلاح الموانة القديم، وفي عيني إصرار عجيب على أن أدفن حبي القديم بين أزهار الورد والفل والنرجس والياسمين وأن أنسى كل الذي كان وأتذكر فقط بأنني أحب هذه الورود وهذه الزهور وأعشق هذه الأرض التي عاش الأجداد يرعون أريجها منذ بدء الخليقة وحتى يأذن الله لهذا العالم أن يندثر.

أرضي السمراء الوفية!

عندما وصلت بتفكيري إلى هذا الحد، أحسست بومضات من نور أشبه بالهالة تبدو ساطعة في سماء قباء وكأنها تحاول أن تطيب خاطري أنا سلمى الموانة.

وعدت إلى الدار لتواجهني صورة أمي التي عرفت. رأيتها وقد كبرت الابتسامة على وجهها وكأنها تحس بأنني قد شفيت من مرضي المزمن.

ذلك الطفل الذي رأيته في مقعد "بني حسين" عند الطاحونة عندما كنت صغيرة أطحن القمح هناك.

رأتني شاهناز هناك أقف متسمرة أمام صورة أمي، فاحترمت صمتي ووقوفي حتى إذا ما قفلت ذاهبة إلى غرفتي أمسكت بكتفي وقالت:

ـ سلمى كم أنت عظيمة يا أختاه. عشت عمرك كله وفية فمن غيرك يعلمنا أنا وأبنائي وبناتي فضيلة الوفاء؟

ارتميت على صدر شاهناز، وأخذت أبكي وأنتحب حتى إذا ما انتهيت وانتهى بكائي ودون أن تحول شاهناز بيني وبينه قالت:

ـ صدقيني يا سلمى كل من يراك لا بد وأن يحبك.

ابتسمت من بين دموعي وقلتها جملة واحدة:

ـ إلا هو.

فقالت:

ـ لقد فرط في السعادة والحب هو السعادة ولهذا أصبح ذنبه على جنبه يا أختاه وكل ما يزرعه المرء يحصده.

وامتدت يد شاهناز تمسك بيدي في هدوء وتشد عليها في حب شعرت به يتسلل إلى أعماق أعماقي. أحسست ساعتها بأن هناك لغة مشتركة تجيد نقلها الأصابع، أصابع الإنسان لأخيه الإنسان. وتمتمت بيني وبين نفسي بكلمات لم أكن أظنها تصدر مني أنا المرأة التي تعرف طريق أقدامها في الحياة. ونظرت إلى وجه شاهناز لأرى الابتسامة وهي تغيب من فوق شفتيها فقد كانت هذه الإنسانة العجيبة التي اقترن بها أخي تحبني وقد أحببتها من كل قلبي.

الفصل الأخير

بعض الناس تمتلئ قلوبهم بالحقد فيضيع الزمن من بين أيديهم رغم كل الذي يريدون أن يفعلوه من أجل أن لا تفلت الحياة من قبضة أيديهم وينسون بأن الحقد من مظاهر الضعف البشري ينتاب الإنسان في لحظات من الضيق.

وبعض الناس تأكل الحيرة عقولهم فلا يعودون يعرفون أي طريق يسلكون. تتوه بهم الأقدام وتضيق بهم الشوارع والأزقة وحتى الموانئ.

وبعض الناس يزيد ضعف أجسادهم قوة في عقولهم تضيف إلى نفوسهم إحساساً بالقدرة لا يضيع. يجيدون صنع حياتهم ويعرفون طريق أقدامهم في هذه الحياة. يملؤون شعابها ووهادها بالأمل وينسجون من هذا الأمل بيوتاً قوية جذورها تعرف كيف تمنح النماء والصفاء رغم كل ما يجدونه من محبطات.

وأنا إنسانة قوية، تزداد قوتي عندما أشعر بضعف هذا الجسد وخوره وتصطك جميع رغباتي أمام الخير الذي يمكن أن يعم الجميع.

أعرف طريق قدمي فلا أضل، أبحث عن المعرفة في بطون الكتب بعد أن فقدت أعز ما تفقد الفتاة: أمها وأبيها وحبيبها أيضاً.

طلال ابن أخي كبر، وأصبح يلازمني في بيتي بعد أن ترك أمه وأباه ولم يعد همه الشاغل سواي.

في أحد الأيام سألني:

ـ لماذا لم تتزوجي يا عمتاه؟

ضحكت في وجهه وقلت:

ـ هذا سؤال يحتاج مني إلى أن أكتب لك مئات الصفحات على الورق حتى تعرفه.

قال في طفولة:

ـ معنى هذا أن مشاكل كثيرة واجهتها في حياتك فقضت على جذوة رغبتك في الزواج.

ـ لا يا حبيبي.

قلتها في حب وأضفت:

ـ إنما هي الظروف لم تمنحني الفرصة لأن أتزوج.

قال:

ـ تقول أمي عندما سألتها عن السبب بأن السبب في بقائك على ما أنت عليه هو حبك للتدريس وأن أكثر المتقدمين لك كانوا يريدون حرمانك من العمل.

قلت:

ـ لا أدري!

لم أكن ساعتها أود أن أكذب على هذا البريء. المهم أنه عرف مني أنني أريد أن أقفل باب الحديث لكنه مع ذلك مضى يثرثر وفجأة سألني:

ـ عمتي... هل تظنين أنني سأتزوج عندما أكبر ؟

قلت:

ـ ولماذا لا تتزوج وأنت رجل؟

قال:

ـ لأنني أخاف أن لا أجد فتاة في مثل جمالك وكمالك.

سألته باسمة:

ـ أتحبني بهذا المقدار؟

قال:

ـ أكثر.

قلت في نفسي: ليت طلال الآخر يسمع ما يقول طلال الصغير.

مسحت على رأسه بيدي في حنان بالغ وقلت أحاول تغيير الموضوع:

ـ ما رأيك في أن نذهب معاً إلى البستان؟

ـ نحش الورد؟

سأل بحزن ظاهر.

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ أتدرين يا عمتاه أنني أكره أن تحش الورود أريد أن أراها في حوضها يانعة.

قلت:

ـ قد يكون هذا الذي تقوله صحيحاً لو أنها ستبقى وتظل لكنك تعرف أن الورود يا عزيزي تكبر وتشيخ كما يكبر ويشيخ الإنسان.

التفت إلي وقال:

ـ ولكنك أنت وردة لا تشيخ يا عمتاه.

أودعت جبينه قبلة ناعمة. هذا الصغير يحيرني أمره يظل هادئاً تماماً وعاقلاً عندما يكون معي أما عندما يكون مع أمه وأبيه فيتغير الحال، يصبح شيطاناً صغيراً يقضي على لعب إخوانه وأخواته بعيداً عن أي عقل أو تعقل. نسيت أن أقول لكم بأن شاهناز أصبحت أماً لنصف دستة من الأولاد والبنات، وأن أخي زاد غرف البيت حتى يتسنى لأطفاله أن يستمتعوا بالحياة فيه.

حاول أخي أن نترك بيتنا ونرحل إلى فيلا أقامها ولكنني رفضت وقلت له:

ـ في هذا البيت رأت عيناي النور وفيه مات أبي وماتت أمي وسأموت أنا الأخرى فيه أما عندما أموت، فادفنوني بجانب أبي وأمي في البقعة التي بجانب مسجد قباء.

كلامي هذا لم يعجب أخي رغم أنه كان يقول لي دائماً إن الذين يطلبون الموت أقوياء لأنهم حريصون على الحياة. لا أدري من أين أتى بهذه الفلسفة.

يفلت الزمن من يدي ويضيع عندما أكون في الحقل "البستان"، أو في فصل المدرسة. كلاهما حبيب إلى قلبي وأنا حائرة.

هل أنا ممن يحبون الحياة؟ وإذا كنت أحبها، كما يقول أخي، فلمن أحاول أن أعيش؟

طلال أو الدكتور طلال، بعد أن سدت في وجهه المنافذ، جاء يزور أخي بلا موعد. فتح طلال الصغير الباب وأدخله إلى الصالون.

سمعت أخي يعنف ابنه الصغير على ما فعل.

حاولت أن أهدئ ثورته فلم أستطع وفي النهاية قال أخي:

ـ لا بأس سأراه من أجلك.

سألت بنرفزة ظاهرة.

ـ من أجلي أنا؟

ـ نعم.

قالها أخي ومضى لا يلوي على شيء.

شاهناز كانت في غرفتها. رجوتها أن تذهب لتكون مع أخي وهو يستقبل طلالاً هذا.

ضحكت شاهناز من كلامي، ولكنها لبت طلبي وذهبت، وبقيت في مكاني أضرب أخماساً في أسداس وأسأل نفسي: لماذا يجيء هذا الرجل إلى بيتنا؟

أكثر من ثلاث ساعات مرت عادت بعدها شاهناز إلي لتقول:

ـ طلال يريد أن يراك.

ضربت على صدري وقلت:

ـ قولي له بأنني لا أرغب في رؤيته.

شدتني من يدي وقالت:

ـ لا تكوني مجنونة. النعمة عندما تأتي إلى بيت الإنسان يجب أن لا يرفضها.

ـ وهل تظنين أن مجيئه نعمة؟

سألت بأسى ومرارة.

ـ نعم!

أجابت زوجة أخي ثم أضافت:

ـ الرجل أخطأ وهو معترف بكل أخطائه، معترف حتى النخاع ويريد أن يصلح ما أفسدته الأيام.

ـ أتظنين بأنني سأقبل أن أزف إليه؟

ـ ولم لا؟ أنت لا تزالين شابة وهو كذلك وإن شاب فؤاده وبدا أكبر من عمره بكثير.

رفضت أن أخرج من غرفتي معها وقلت لها دعيني وأخذت أبكي، أبكي وأنا لا أدري لماذا أبكي.

أخي جاء إلينا في غرفتي وأخذ يرجوني أن آتي معه لمقابلة طلال. وافقت في النهاية وذهبت إلى الصالون حيث يجلس. لقد رأيت طلالاً رجلاً آخر غير الذي عرفت.

تحدثنا ملياً في الكثير من الأحاديث لكن أخي قطع حديثنا وقال وقد عادت إليه سخريته:

ـ هذا العجوز جاء يطلب يدك فما رأيك؟

قلت وبشيء من العصبية أحسست بها تطل من نبرات صوتي:

ـ فات الأوان.

أخذ طلال دفة الحديث ومضى يحكي قصته يحاول أن ينتزع من خلال حروفه وكلماته أخي وزوجته ويضمهما إلى صفه.

قال ما قال وحكى كيف يضيع الإنسان ما بين المدن والموانئ وفي متاهات الغربة.

حاول أن يلون صوته مع كل موقف. لم أكن أعرف هذا منه، فخفت لكنني وبعد أن رأيت أخي يضحك ويعاود حديثه لطلال قائلاً:

ـ دع العجوز تفكر في طلب العجوز يا دكتور طلال. ربما استطاع الليل والهدوء وأصوات الحادي ومواويل الجناة أن تعطيها أضواء تستطيع من خلالها أن تفهم كل ما مر بك يا صديقي من أحداث.

عرفت أنه سامحه وأن صداقتهما ستعاود طريقها كما كانت.

ودعنا طلالاً لكنني أنا وحدي التي لم أودعه، لم أمد يدي لمصافحته بل تركتها مكانها وكأن نفسي تأبى أن تسمح رغم كل معاني هذا الاعتذار الطويل.

شاهناز كانت معي بعد خروج طلال. قضت ساعات طويلة من الليل كانت تقلب خلالها جميع الأمور معي وتدفعني كي أقبل.

نمت ولا أدري كيف نمت تلك الليلة. أحلام الماضي أخذت تطل تظهر تكبر ولا تختفي أو تتلاشى.

في الصباح ذهبت إلى المدرسة، وقابلت سعاد التي قالت لي:

ـ أراك اليوم سعيدة على غير عادتك.

أخبرتها بما جرى بالأمس فقالت:

ـ لا تفوتي هذه الفرصة. أعرف أنك تحبينه وهو كذلك رغم كل ما صنع.

دردشنا طويلاً ثم عدت إلى البيت. سألني أخي رأيي فلم أجب. التزمت الصمت المطبق فقال أخي:

ـ موافقة العروس تأتي في أعقاب صمتها.

ثم أدار قرص التليفون وجاء صوت طلال فقال أخي:

ـ هاك إياها ستتحدث إليك.

سمعت صوته وهو يقول:

ـ سلمى.. سامحيني.

فلم أتمالك نفسي من البكاء وقلت كلمة واحدة:

ـ سامحتك.

قال:

ـ ومن كل قلبك؟

لم أجب، وتركت سماعة التلفون تفلت من يدي،تتدحرج على الأرض وابتسامة أخي وزوجته شاهناز وطلال الصغير تكبر وتكبر وتكبر لتظل شاهدة على كلمتي التي قلت.

لا شيء يمنع الحب

(روايــة)

ط ١ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



الفصل الأول

كثيراً ما يبدو الإنسان في أسعد حالاته فتظهر أحلام اليقظة، وكأنها تطفو على السطح لتأخذ أشكالها المتعددة لتمنح الإنسان مزيداً من النضال من أجل الغاية التي أرادها. وتظل دائرة البوح في مكامنها النفسية هي الأخرى لتدفع كل تلك الأحلام لأن تبدو مزيجاً جديداً من الصور المشرقة حيناً والباهتة أحياناً أخرى.

ومع هذا، يظل الإنسان مشوقاً لكل هذه الأحلام التي تساور خياله في كثير من الحالات والمملوءة بالنشاط والحياة التي نمارسها وظروفها التي تصبو إليها. فالتطلعات في الحياة ليست ملكاً لإنسان دون إنسان آخر.. وهي لهذا لا تشذ مطلقاً عن القاعدة.

فيراها كل واحد منا بأسلوبه وطموحاته. أنا امرأة واسمي لا تهمكم معرفته.. ومع هذا سأختار اسم رجاء محمد ليدلل على أني أنا التي أكتب كل هذه الكلمات.

ولدت في قرية صغيرة (أبيار علي) تبعد قليلاً عن المدينة المنورة. عايشت القرية في ذاكرتي بعيداً عن مسقط رأسي بعد وفاة أبي وأنا صغيرة أمي رأت أن تتركني أمانة لدى سيدة كريمة امتهنت تعليم الفتيات في دارها الصغيرة كنت بالنسبة إليها خادمة وابنة وتلميذة أيضاً.

عندما أعود بذاكرتي إلى كل تلك الأيام أجد نفسي مترددة وأنا أتحدث عن ظروف الأمس وكأنها تتابع خطواتها فوق رأسي ومترددة لأن أتحدث عن كل ما يساور صدري وقلبي وعقلي من أفكار.

كانت المدينة المنورة في تلك الأيام مدينة صغيرة يعرف الناس بعضهم البعض جل هم سكانها قضاء الصيف في البساتين القريبة

منها . وكانت أزقة المدينة وحواريها على ما هي عليه ضيقة ومتقاربة وتشبه الواحدة الأخرى في الساحة. الحارة التي عشنا فيها صغيرة وعلى مقربة من بيت الصافي والكماخي وأسر المدينة التي اختارت تلك المنطقة سكناً لها كانت تمضي جل أيامها فيها.

أسعد كثيراً عندما تصحبني عمتي معها إلى أحد البيوت المجاورة التي كانت تشمل ضمن ما تشمل على ديوان وبركة وبعض الأشجار كالنخيل والليمون والليم وورود الزينة وأسعد أكثر عندما تسمح لي عمتي بأن أسبح في البركة مع أطفال البيت. كنت أنفخ سروالي الطويل بعد أن أبلله لتحملني مياه البركة وأنا أسبح.

صداقاتي مع البنات اللواتي يدرسن معي في الكتاب كانت جيدة لدرجة جعلتني أحس بكثير من الحب للحياة التي أمارسها بعد أن تركت القرية وأنا طفلة صغيرة.

كان يشاركني في الدراسة بعض الأطفال الذين ما إن يبلغ عمرهم السادسة حتى تطلب عمتي من أهلهم نقلهم إلى المدارس الابتدائية ولهذا ظللت أحتفظ في ذاكرتي بأسماء الكثير من شباب القرية الذي كبروا وأصبحوا يعملون في أماكن هامة سواء في الوظيفة في الدولة أو حتى العمل في البيوت التجارية.

كنت عندما أخرج إلى السوق لشراء بعد الأغراض التي تحتاجها عمتي ألتف من رأسي إلى قدمي بعباءة سوداء تغطي كل شيء ما عدا وجهي وأصبح مشدودة وأنا أمشي في الطريق خوفاً من أن أتزحلق تحت تأثير قشرة موز أو حصاة صغيرة. أصحاب السوق المؤدي إلى باب الرحمة (المسجد النبوي) يعرفونني ويلبون جميع طلباتي وبعضهم لا يأخذ النقود التي تعطيني إياها عمتي لأن بناتهم يدرسن في الكتاب وهكذا كنت أعود بأكثر ما تعطيني إياه ـ خوجه هانم ـ إليها فتستقبلني بسعادة.

يسعدني أن أقول لكم بأن خوجه هانم سيدة حلبية الأصل جاءت إلى المدينة مع زوجها حتى إذا ما توفي فضلت الإقامة فيها وظلت هناك حتى توفيت. هي الأخرى. . يعرفها كل سكان المدينة ويحترمونها كثيراً فهي امرأة فاضلة.

في الكتاب كان هناك نوع من الاحتفالات فعندما تختم واحدة من البنات

جزء عم تقوم أسرتها بعمل حفل نسميه (صرافة) يوزع فيها الكثير من الحلوى ويدعى إليه الكثير من النسوة.

أما حفل ختم القرآن فقد كان شيئاً هاماً في تاريخ من تختمه ولهذا يصبح الاحتفال بهذه المناسبة شيئاً غير عادي وأنال أنا من الهدايا والنقود من أسرة الفتاة التي ختمت القرآن الشيء الكثير فأفرح وأحس بالسعادة.

في المناخة، وعندما يحين وقت الحج يصبح المكان مليئاً بالناس وعلى مقربة منها الجمال والجمالين. كنت أفرح كثيراً عندما أذهب إلى هناك مع الأطفال لأطلب من واحد أو أكثر من الحاجّات المصريات زغرودة.

يكفي أن أقول ويقول من معي: زغرودة للنبي يا حاجة.. فتبدأ الحاجات في الزغرودة، كل واحدة منهن حسب مقدرتها. بعض هؤلاء الحاجات ينشدن أهازيج معينة يسمونها (التحنين) وهي عبارة عن كلمات تنشدها الحاجات في محاولة لجلب أكبر عدد من الناس لأداء الفريضة وزيارة مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم. في أعلى الدار التي اختارتها خوجه هانم كتاباً كانت تعيش فيه امرأة يسمونها بيبي فاطمة هندية الأصل تملك الكثير من المال هي كعمتي سواء بسواء.. فقدت زوجها واختارت البقاء في المدينة.

سأحدثكم عن بيبي هذه كثيراً فقد كان دورها بالنسبة لي واضحاً وبصماتها على حياتي كبيرة.

في كتاب البنات كان لي صديقات كثيرات أذكر منهن نجاة وسعاد وسلمى.. كما أذكر أيضاً أبلة شرف التي أصبحت مديرة لأول مدرسة بنات في المدينة فقد وهبت هذه المرأة حياتها للتعليم فلم تتزوج حتى ذهبت إلى بارئها.

أما أم غريب العجوز المصرية التي اختارت مهنة بيع الخضروات فقد كان لها دور في حياتي لا أزال أذكره رغم طول المدة.

في أيام الجمع، كنت أذهب مع عمتي لزيارة صديقاتها اللواتي يقطن في العنبرية، وكنا نلتقي دائماً ونحن نتحرك من الساحة إلى العنبري في عربات تجرها الخيول ببعض مجانين المدينة كسيد ملوخية وعبد الرحمن الطيارة وغيرهم وهم مشهورون لدرجة كبيرة نعرفهم نحن الأطفال ونسعد بالحديث معهم.

سائق العربة التي كانت تقلنا كل أسبوع كان واحداً من أربعة من أشهر من

يعمل في هذه المهنة. فهو رجل أبيض اللون تخطى الخمسين من العمر تشع من عينيه علامات الفهم والإدراك والذكاء لم أحفظ اسمه الأصلي وإن كان لقبه لا يزال يرن صداه في أذني «أبو حلمة».

هذا الرجل الذي جمع بين عمله وقضاء أكثر أوقاته في مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام يؤدي الفريضة ويستمع إلى أحاديث العلماء والمشايخ من أمثال الشيخ عمر بري والشيخ حميدة والشيخ الطيب الأنصاري والشيخ القوني والشيخ الشاعر وغيرهم. . كان كل واحد من أبناء المدينة يعرف هذا الرجل ويعرف أصدقاءه.

يقولون إن الرجل كان حجة في الفقه لكنني لا أستطيع أن أجزم بشيء لا أدريه.

على أحد مقاهي المناخة كان أبو حلمة ينتظر زبائنه دائماً مع زملائه سوكه ودلوكه والحويحي وأسماء أخرى نسيتها لكنني مع كل هذا لا أنسى أيام المطر وتجمع المياه داخل حواري المدينة وأزقتها. هذه الأيام التي كانت تأتينا بالخير.

فكم مرة قضيت أياماً في بيت خشيم نرقب (سيل أبو جيرة) الذي كان يشق المدينة من باب قباء وحتى المساجد السبعة.

وكم من المرات أمضينا الأيام على ضفاف سيل وادي العقيق فهناك كانت أمة تعيش على ضفاف هذا الوادي في التاريخ القديم عرفتها من أحاديث العجائز والجدات وألهمتني بكلام كثير كنت أقوله بيني وبين نفسي وألهبت خيالي الصغير بأحلام كثيرة راودتني مراراً وتكراراً لدرجة جعلتني أبحث في كتب التاريخ عن كل هؤلاء كغيري نسيت تلك الحقبة من حياتي وأنا طفلة أذرع الأرض هنا وهناك أواجه الناس بوجهي الأسمر وجسدي الصغير وصوتي الهادىء. لكني مع كل هذا الذي خبرت أحس بأنني لم أكن مجرد طفلة تهذي وتلعب. كنت أتصرف كما يتصرف الكبار. . فأنا خادمة وطالبة علم ومسؤولة عن احتياجات عمتي العجوز.

شعرت في الأيام الأولى من وجودي في كتّاب البنات بشيء من التعاسة. لكن هذه التعاسة ذهبت وحلت محلها أحلام اليقظة التي كانت تراودني منذ الصغر واستمرت تخالط فكري حتى اليوم رغم أن كثيراً من تلك الأحلام قد تحققت.

الفصل الثاني

بيبي فاطمة امرأة تخطت الثامنة والأربعين من العمر. طويلة، شعرها أسود فاحم لامع وعيناها واسعتان وأنفها دقيق. في ملامح وجهها هدوء وأناقة. تضع على أرنبة خشمها حلية صغيرة وتختارها بعناية يسمونها «زماما» وتستخدم الحناء في طلاء يديها وقدميها.

جاءت منذ أن كانت في الثامنة عشر من العمر إلى المدينة من كشمير ترافق زوجها وابن عمها. وعندما توفي هذا الزوج على مقربة منها عملت المستحيل لتحمل جسده إليها ثم تودعه البقيع كما أوصى ومن يومها اختارت بيبي فاطمة المدينة مقراً لها رغم أن والدها الذي يعيش في الهند من كبار التجار وزوجها من أسرة غنية يزورها بعضهم في كل عام ويأتون معهم بالأموال التي تستحقها ويدفعونها لها وبمقدار ما كانت خوجه هانم دقيقة في مصاريفها كانت بيبي فاطمة على العكس كريمة ومتسامحة وقد شاءت الظروف أن تكفل الطفل سالم الذي كبر معي في هذا البيت.

سالم من قرية المسجيد، أبوه كان يجلب الماء للدار التي نقطنها من مياه العين الزرقاء يوم لم تكن في دور المدينة شبكة مياه كما هو الحال الآن.

بيبي فاطمة استطاعت أن تدخل سالم مدارس الحكومة بعد أن أمضى ست سنوات في كتاب الشيخ محمد سالم وأن ترعاه وتوصله لأن يسافر إلى القاهرة ويلتحق بكلية التجارة ويعود إليها وهو شاب يحمل شهادة كبيرة.

بيبي فاطمة هي التي كانت تعتني بي وبملابسي وتحاول دائماً

أن تعلمني كيف يمكن أن أصبح ست بيت لكن شيئاً واحداً لم أستطع أن أتعلمه منها هو أشغال الإبرة التي كانت تجيدها وتصنع منها الكثير.

والد سالم كان من أولئك الذين يعرفون كيف ينتهزون الفرص ولهذا استطاع أن يحصل على أموال كثيرة من بيبي فاطمة بشتى السبل تارة باسم أسرته ومرضها، وتارة لحاجة سالم بأن يشاركه العمل بعد أن كبر وبيبي فاطمة لا ترضى لابنها سالم أن يعمل مطلقاً ولهذا تدفع لوالده ما يريد لقاء أن يظل معها في البيت ويدرس ويتعلم.

ولسالم أخ من أبيه شاءت الظروف أن يعيش في القرية وعندما توفي والد سالم جاء ليحل محله في سقيا الكتاب وبيبي فاطمة والجيران الذي هم يعيشون في الساحة. محمد أخو سالم هذا كابد الأمرين من أطفال الساحة وفي مقدمتهم السيد هاشم وأخوه سالم لكن المشكلة التي تصاعدت هي أن سالماً شارك الأطفال في ضرب قربة محمد بمخيط كبير دون أن يحس فتناثر الماء من قربته بين ضحك الأطفال حتى إذا ما أحس بالمشكلة تصاعد غضبه وحاول أن يضرب الأطفال الذين تفرقوا كل واحد في جهة إلا سالم الذي أبى إلا أن يقف في مواجهة أخيه فنال علقة ساخنة مرغت وجهه وملابسه في الوحل وجعلته يقضي بضعة أيام في دار البيبي بعيداً عن المدرسة يداوي جروحه في الوقت الذي انزعجت فيه بيبي فاطمة من هذا العمل فعاقبت محمداً بأن أوقفت راتب قرب الماء الذي يأتي بها إلى بيتها وإلى الكتاب واختارت غيره حتى توسطت أنا الصغيرة في هذا الأمر فانتهى الموضوع وعاد كل شيء إلى سابق وضعه.

بيبي فاطمة كانت تتحدث دائماً معي حديثاً أشعر من خلاله بأن هذه السيدة تحبني و ريد أن تصنع مني شيئاً ما لا أدريه ولهذا ما فتئت دائماً أن أتلقى هداياها الـ ي تقدمها لي في شكل ملابس جديدة تصنعها بنفسها.

ولقد أكبرت تلك السيدة الفاضلة يوم أعطتني شيئاً كانت تصنعه منذ شهور. أتـ ون ما هو؟ فانلة صوفية تلم عظامي من برد شتاء المدينة القارس. عز علي كثيراً أن تصنع معي هذه الأم ما صنعت ولذلك ارتميت في حجرها وبكيت من كل قلبي.. وتمنيت أن أصرخ وأقول ليت هذه المرأة كانت أمي.

سالم كان يضحك من بكائي ولقد اغتظت كثيراً من ضحكه ولكن من يراه

ويرى شياكة ملابسه يشعر بأنه ابن أسرة غنية ولذلك عرفت سبب ضحكه فهو لا يعرف قيمة ما أهدتني إياه بيبي فاطمة لأنه يعايش النعيم وليس الحرمان مثلي.

يوم جاء الجراد إلى المدينة خاف المزارعون على محاصيلهم. لكن بعضهم كان حريصاً عن أن لا يخفي سروره بهذا الجراد الوافد والذي يعتبر وجبة شهية لنا نحن أبناء وبنات القرى. عندما تحدثت عن هذا الأمر لبيبي فاطمة ضحكت وقالت بأنها لا تعرف كيف تأكله. أما خوجة هانم فقد عنفتني كثيراً على هذا التفكير وقالت لي كلمات قاسية لا أزال أذكرها حتى الآن ومع هذا جريت وسالم إلى سطح المنزل واستطعنا أن نجمع كمية منه وأن نقليه على النار ثم نطعم بيبي فاطمة واحدة منه بعد أن تمنعت كثيراً حتى إذا ما ذاقته معنا استطابت طعمه ومضت تستمتع بأكل ما تبقى معنا من تلك الوجبة الصغيرة.

يوم ١٥ شعبان من كل عام كان من الأيام التي أحبها. فالأولاد الذين يتجمعون كمجموعات يدقون بأيديهم على أبواب البيوت يطلبون من أصحابها أن يدفعوا لهم شيئاً مما اشتروه من حلويات وغيرها لهذه المناسبة يغنون: شاهين شاهين يا شوربيت.

فتتدافع النسوة لإرسال «اللوز والحمص والفشار والحلوى عبر النوافذ لتتسلمه غتر الأطفال التي أمسكوا بها، كل واحد بطرف» إذا ما انصرم الليل اقتسم الأطفال محصولهم من هذه الحلوى والنقود وغيرها.

عندما كبرت وسافرت إلى أمريكا رأيت الأطفال يصنعون ما كنا نصنعه في المدينة في شعبان فاستغربت الأمر.

وعزوته إلى أن بعض الهجرات التي وصلت إلى هناك استطاعت أن تنقل عاداتها بعد أن استقرت فيها.

جارنا السيد الصافي واحد من كبار المزارعين يهتم بالبساتين ويستأجرها ويحمل دائماً بعد الجداد تمورها إلى بعض غرف بيته الكبير. كان الأطفال يتجمعون حوله كل واحد يغني بكلمات ممطوطة:

«عمي يا بقاع حبة شعيرة ما تنباع».

حتى إذا ما أعطاهم من نتاجه دعوا الله له في حبور وسرور.. أما إذا لم

يعطهم فكلمات الاستهزاء وشعر السخرية من نصيبه.

في أحد الأيام حفظت إحدى الطالبات القرآن وصنع لها أهلها (صرافة) وكانوا يقطنون في حارة الأغوات.

عندما ذهبت إلى تلك الحارة شعرت وأنا أمشي في زقاق طويل تتقارب فيه البيوت على الجانبين بشكل يضايق الذين يجتازونه. سألت صديقتي سهى عن اسم زقاقهم فقالت بأن اسمه «زقاق عانقني».

ضحكت من هذه التسمية وأنا صغيرة. وعندما كبرت عرفت بأن التسمية في مكانها لأن من يمشي في الزقاق لا بد وأن تصطدم كتفاه بكتفي الآخر لضيقه.

على مقربة من هذا الزقاق حمام تركي يستقبل النساء في بعض ليالي الأسبوع ذهبت إليه مرة واحدة في حياتي وهالني ما رأيت وشعرت بعد أن استحممت فيه مع عمتي بأنني نظيفة جداً من رأسي حتى أخمص قدمي.

حاولت أن أجبب بيبي فاطمة في زيارة الحمام لكن السيدة الرقيقة رفضت بإصرار وقالت:

ـ كيف تريدينني أن استحم مع مجموعة من النسوة في مكان واحد؟

قلت لها بأن هناك مكاناً لكل سيدة تريد أن تستحم بمفردها. . لكنها مانعت وطلبت مني أن أصرف انظر.

حتى عمتي لم تغشَ الحمام بعد تلك المرة لكنني لم أجرؤ أن أتحدث إليها في هذا الموضوع فقد كانت سيدة صعبة المراس.

أما الأبله شرف فقد كانت في كل مرة تقابلني فيها تسألني أن أحكي لها حكاية الزقاق الضيق والحمام، وتنخرط في ضحك متواصل لا أعرف سببه لكنني وفي يوم من الأيام وبعد أن سألتني عن الموضوع للمرة العشرين قلت لها:

ـ لماذا لا تأخذينني معك إلى الحمام؟

ضربت أبله شرف على صدرها وقالت:

ـ أنا؟

وشعرت بأنها تستهجن ذهاب أية امرأة إلى هذا الحمام.

عندما كبرت عرفت أن أبناء وبنات الأسر الكبيرة في المدينة لا تغشى هذه الأماكن ولا تحب حتى ارتيادها وفهمت سر استهجان أبله شرف عندما سألتها أن تأخذني معها إلى الحمام.

من يومها، أصبحت عندما أمر على مقربة من الشارع الضيق والحمام أحس بشيء من الضيق يسيطر على تفكيري وينسيني حتى مجرد الإحساس بلذة ما قمت به في يوم من الأيام.

الفصل الثالث

أبلة شرف فتاة من أسرة طيبة ومحافظة اختارت التدريس في الكتّاب عن رغبة وعزم وسابق إصرار وانبرت تتفاعل مع هذه المهنة التي أحبتها عن رغبة لدرجة كنا نحسدها على قدرتها وجلدها وهي تتابع الأطفال وهم يتلقون العلم في هذا الكتاب العتيد طوال كل هذه الساعات التي نقضيها معهم.

مر علي وأنا أعمل في الكتّاب العديد من الفتيات اللواتي درسن فيه وكانت كل واحدة من الفتيات تحرص على أن تدعو خوجة هانم وبيبي فاطمة وتدعونني لحضور حفل زفافهن.

وحفلات الزفاف في المدينة من أهم ما نحاول أن نشاهده نحن البنات اللواتي نعيش في ترقب هذه الليالي بفرح وغبطة. كما تختلف ليالي هذه الأفراح بين أسرة وأسرة فبعض الأسر التي منحها الله بسطة في الرزق تستمر أفراحها أكثر من عشرة أيام بين أيام الحنة وتسليم الفراش وليلة الدخلة والصبحة وغير ذلك من أمور.

لكن كان أكثر ما يهمني هو أن أقف لأشاهد الحمالين وهم يحملون «فرش بيت الزوجية» الذي يبدو وإن كان متماثلاً في الشكل فظروف الأمس لم تكن مثلها كما هي اليوم لكن كمية الأثاث والفرش ومرايا العروس وصناديق الملابس وأواني المطبخ كل هذه تختلف بين أسرة وأسرة حسب إمكانياتها وقدراتها يستعرضها الناس في حرية وهي تخرج من بيت والد العروس إلى بيت العريس.

والذين يعرفون المدينة يدركون أهمية الأحواش بالنسبة لبعض السكان. وإن كان سكان الأحواش دائماً من متوسطي الأسر إلا أن

الحوش بمجموعه عبارة عن حاجز يبعد شبح من لا يريده السكان بقفل باب الحوش ليلاً عند ساعة معينة كما يجري في ساحته دعوات الأفراح للرجال فإلى جانب حوش التاجوري وحوش منصور وحوش أبو جنب، وحوش النخاولة هناك أحواش كثيرة أنساني الزمن أسماءها فلم تعد تطل على ذاكرتي بعد كل هذه السنين.

وللمدينة سور عظيم وأبواب معروفة منها: باب المجيدي، وباب العنبرية، وباب العوالي، وباب قبا، وباب الشامي. وتختار كل أسرة من الأسر الغنية السكنى خارج هذه الأبواب في بيوت مملوكة يعرفها الكثيرون.

لشد ما تغيرت المدينة وتطورت ولم يعد لكل ما ذكرت وجود أو تواجد ومع هذا نجد بعض الناس يذكرون معالم المدينة وكأنها تعيش معهم وتعايشهم ومن هؤلاء أبله شرف التي عاشت ترقب التطور في مدينتها بعينين مفتوحتين.

عند مدخل حوش القناصة المؤدي إلى زقاق الطوال حيث يوجد قبر والد الرسول عليه الصلاة والسلام كان هناك رجل من أصل بخاري يمتهن السمكرة ويئن لسانه تحت وطأة لكنة لغته التي لا يزال يتحدث بها هذا الرجل. كنت أراه وأعجب مما يفعل فقد كان يطلب من الأطفال أن يأتوا له بما يستطيعون صيده من العقارب ثم يدفع لهم قيمة هذا الصيد قروشاً صغيرة ليقوم بوضع الواحدة تلو الأخرى على كعب رجله لتلدغه ثم تموت العقرب بعد لدغه وليس هو.

كنت أرى هذا الذي أشاهده وأنا أتعجب. لم أدر ما السبب حتى عرفت من بيبي فاطمة بأن الرجل من المدمنين على الأفيون. فقد شاءت ظروفه أن يهرب من بلده ويأتي إلى المدينة ولما كان جسده مشحوناً بهذه المادة التي لا يجدها أصبح في أمس الحاجة لاختيار هذه السموم التي عن طريقها يمارس لعبته دون أن يعرف الصغار.

ولقد ساءني أن أرى في يوم من الأيام سيد ملوخية هذا الرجل الشيخ الذي يلبس على رأسه عمامته البيضاء وجبته وهو في طريقه لأداء صلاة الجمعة حتى إذا ما قوبل بأحد الأطفال الذين ينادونه بسيد ملوخية نسي كل شيء وحمل عصاه وأخذ يجري وراء من تجمع منهم والأطفال يتضاحكون فيما بينهم.

صور غريبة اندثرت ولله الحمد فبعد أن ارتفعت نسبة التعليم والعلاج لم يعد هناك مكان لمريض في هذه المدينة التي أحبها ومع هذا تظل كل هذه الصور تحاول أن تندفع لتطل على هذه الأوراق التي أثبت فيها فصول حياتي وأنا صغيرة وأنا كبيرة أيضاً.

في بيت خوجة هانم أمضيت ثلاثة عشر عاماً في غرفة صغيرة لا شيء فيها يوحي بأنها غرفة لولا لمساتي الضعيفة التي بدت تظهر عليها شيئاً فشيئاً.

فراشي الذي كنت أنام عليه هو هو لم يتغير والسرير السفري الصيفي جاءني هدية من بيبي فاطمة بعد أن أمضيت أكثر من عامين وأنا أنام على الأرض. وصندوق ملابسي عبارة عن صندوق خشبي له ضلفة غير ثابتة. أضع فيه ملابسي وما يمنحني إياه أمهات الفتيات اللواتي يتعلمن في الكتّاب والمرآة التي أرى فيها وجهي هي عبارة عن نصف مرآة مكسورة شاركتني الحياة طوال تلك المدة ومع هذا فقد كنت راضية لأنني أتعلم ولأن أمي كانت تأتي كل بضعة أشهر فتأخذ أجري من خوجة هانم.

لم أكن أخاف من الظلمة بعد أن أطفىء مصباح الغاز وأتوه في أحلامي التي تراودني قبل أن أنام وحتى بعد أن أصحو. أما طعامي فهو عبارة عما تتفضل به زميلاتي عندما يطلبن مني مشاركتهن في تناول الغداء. أما العشاء فعبارة عن كسرة من الخبز وقليل من الجبن.

لا أظلم سيدتي فهي الأخرى لا تتناول ليلاً شيئاً أفضل مما أتناوله ولهذا كنت أسعد عندما أعرف بأننا مدعوون لحفلة من الحفلات.

الشيء الذي كان يثير شهيتي في هذه الحياة هو القراءة فبعد أن تعلمت القراءة وأصبحت أتلذذ كثيراً وأنا أقرأ ما تطاله يدي من كتب وقصص وحكايات. وأنا لا أنسى فضل هذه المرأة التي ربتني فهي تستحق كل خير فقد كان يهمها أن تقوم بتعليمي في فترات الراحة فتساعدني كثيراً على فهم ما يصعب علي أنا الصغيرة التي أصبحت مهتمة لأن تقرأ.

كما أن الأبله شرف لا تبخل علي بإعارتي كتبها التي تأتي لها من هنا وهناك فهي تمنحني عن طيب خاطر بعض ما يصل إليها.

أما بيبي فاطمة فكانت تعمد دائماً إلى تعليمي مبادىء اللغة الإنجليزية في

الصيف ولأول مرة أخذتني عمتي معها إلى مكة المكرمة. لم يكن الطريق من المدينة إلى مكة مزفتاً كما هو الحال عليه الآن وكانت سيارة البريد هي التي حملتنا إلى مكة بعد أن اقتطعنا أنا وبيبي فاطمة وخوجة هانم مكاناً حاولنا أن نفصله بستار من القماش. كانت رحلة شاقة كما قالت لي بيبي فاطمة لكننا وبعد أن وصلنا إلى مكة. وسكنا في الفندق الوحيد بها في أحياء أجياد ضاع كل التعب وجاءتنا دعوات كثيرة من فتيات كن درسن في الكتاب وتزوجن من أبناء بعض الأسر في مكة.

لكن أجمل حفلة رأيتها في مكة هي الحفلة التي أقامتها السيدة سهى لخوجة هانم.. فقد استمعت لأول مرة لسيدة تغني وتعزف على العود وكان هذا الأمر بالنسبة لي شيئاً هاماً وغريباً.

في سوق الليل وعلى مقربة من المسجد الحرام التقت عيناي بإحدى المكتبات التي تبيع الكتب فتوقفت عندها واشتريت بكل ما أملك ثلاثة كتب أحدها للمنفلوطي النظرات، وكتاب النثر الفني للدكاترة زكي مبارك كما كان يحب أن يسمي نفسه، وقبض الريح لمحمد عبد القادر المازني. وبدأت أغرق في قراءة هذه الكتب وكانت أجمل لحظات القراءة عندي الوقت الذي أمضيه من بعد صلاة العشاء في المسجد وبعد أن أؤدي الفريضة مع خوجة هانم وبيبي فاطمة وعندما نعود سوياً إلى الفندق.

أعجبتني حياة الفندق فقد خففت عن كاهلي أعباء الخدمة وأخذت أنصرف للقراءة شيئاً فشيئاً.. وبدأت أجمع ما يصادفني من مجلات أقرأها جديدة بصورها الأنيقة وحروفها اللامعة. ومضيت أجتر الذكريات لدرجة جعلتني ولأول مرة أحاول أن أخط على دفتر اشتريته لهذا الغرض شيئاً من ذكريات الحياة التي أعيشها وأحسست بالراحة فقد كان الأمر بالنسبة لي وكأنني أفرغ ما يمتلىء به عقلي في مخي دفعة واحدة على الورق في تنميق أطربني. وبدأت أحس بمسؤولية ما أكتب وأنا لا أدري كيف أمنع نفسي من هذه الفرحة الغامرة التي تجتاحني كلما مددت يدي وأمسكت بقلمي أخط به في هدوء على أوراقي التي أصبحت أغار عليها من أن يراها الناس.

حتى إذا ما عدنا إلى المدينة، أطلعت أبله شرف على شيء مما أكتب..

وكنت قد أسهبت في بعض الصفحات في بث أوراقي لواعج نفسي فقالت الأبله وهي تضحك:

ـ يا بت ايش هذا اللي كتبتيه!

ونظرت إلى عينيها خائفة فرأيت البسمة تحيط بوجهها فلم أنطق ببنت شفة فعاودت أبله شرف حديثها لي:

ـ أنت أصبحت شاعرة. يا بنت هذا الكلام حلو وجميل ويدل على أنك قادرة على البوح لأوراقك بما يمر بك من ذكريات.

أجبتها في تطلع:

ـ صحيح الكلام اللي تقوليه ولا حبيبتي تساعدي بنت زيي فقيرة بكلام حلو زيك.

والتفتت لي الأبله شرف وكأنها نسيت كل شيء وتذكرت شيئاً واحداً وقالت:

ـ صحيح يا رجاء أنا حلوة؟

لم أدر ماذا أقول وأنا أرى لهفتها لأن تعرف رأيي هي التي تعيش لنا نحن الذين نتعلم في كتاب البنات فقلت لها:

ـ والله يا أبله أنا صادقة في اللي قلته إنتي حلوة وحلوة كتير.. بس الشيء اللي محيرني ليه ما تزوجتي يا أبله شرف.

والتفتت أبله شرف إلي وهي تقول:

ـ لا عليك فأنا كما تعرفين أصغر أخواتي الخمسة وكلهن في سن الزواج فعندما يريد الله وتتزوج كل واحدة منهن سأفكر أنا في الزواج.

كان جوابها بالنسبة لي غير مقنع لكنني أخذته على علاته. وعندما كبرت عرفت الحقيقة كلها. فقد كانت أسر المدينة لا تسمح للبنات الصغيرات بأن يتزوجن قبل من سبقهن في العمر. وكانت مشكلة لا أزال أتذكرها كلما دعيت إلى حفل زفاف. وبعد أن كبرت كان هاجسي الدائم أن أسأل هل للعروس شقيقات وهل العروس هي الكبرى أم الصغرى؟

وأتذكر أبله شرف المسكينة.

وتغمرني السعادة عندما أعرف أن العروس هي الصغرى التي عقد قرانها قبل الكبرى لماذا؟ لا أدري وإن كنت أحس بأنني أنتقم للأبله التي أحبها.

الفصل الرابع

بيبي فاطمة تستعد لرحلة طويلة إلى مسقط رأسها في نيودلهي في الهند بعد مرور ما يزيد عن العشرين عاماً قضتها بعيدة هنا في المدينة المنورة.

حنت البيبي إلى هذه الزيارة خصوصاً وبعد أن توفي والدها وأصبح من الضروري أن ترى أهلها وأخوانها وإخواتها، وتجري بعض الأمور الخاصة بإرثها والتي تقتضي حضورها.

أحسست بفرحة عامرة عندما عرفت بأن بيبي فاطمة اختارتني للسفر معها إلى الهند، وأن خوجة هانم وافقت على أن أسافر معها ولولا أن سالماً يجيد أن يبقى في مدرسته لقرب أيام الامتحان لما حصلت أنا على هذه الغرفة.

استعديت ليوم السفر بشوق وفرح ولبست أجمل ما عندي من ثياب وذهبت مع البيبي وعم مختار إلى إدارة الأحوال المدنية التي تقع في شقة قريبة من مستشفى الحكومة بجوار باب السلام وفي مدخل زقاق الزرندي. لم تكن الإجراءات كثيرة تسلمت بعدها وثيقة التابعية التي أحتفظ بها حتى الآن وعن طريق هذه التابعية أخرجوا لي جواز سفر سعودي بدون صورة فلم يكن من الجائز في تلك الأيام أن تتصور النساء، أما اليوم فقد تغير كل شيء وأصبح من الصعب على أي أنثى أن تستخرج جواز سفر بدون صورة.

وجاء الموعد المحدد لنسافر مرة أخرى إلى جدة بسيارة البريد ومن جدة التي كنت أراها لأول مرة ركبنا والبيبي الباخرة في طريقنا إلى الهند. أمضيت أياماً عصيبة مع دوار البحر الذي أصابني وبيبي

فاطمة حتى إذا هدأت الأحوال أحسست بطعم الرحلة وشعرت بأن شيئاً جديداً من الحياة أمارسه أنا الصغيرة التي لم تخرج من بلادها إلا في تلك الأيام. كانت مياه البحر حول الباخرة التي ننطلق منها في هذه الرحلة على مهل، وتصوروا معي قروية مثلي تسافر لأول مرة.

في نيودلهي أمضينا ثلاثة شهور تعرفت فيها إلى أسرة البيبي وتعلمت كيف ألبس الساري وتخلصت لأول مرة في حياتي بعد أن كبرت من الملاية التي كانت تلازمني في الخروج. واستفدت كثيراً من دراسة اللغة الإنجليزية مع أقراني في البيت وفي المعهد الصغير. كانت أياماً حافلة بأشياء جديدة تعلمت فيها الكثير والكثير.

وفي العودة اصطحبت معي فونوغرافاً صغيراً، اعتبرته أجمل هدية أقدمها لخوجة هانم عندما أصل إلى المدينة لكن خوجة هانم رفضته فأعطيته لأبله شرف وأصبحت أستمع إلى أصوات المطربين من خلاله عندما يقدر لي زيارتها في بيتها.

في الهند كنت أشعر بالخوف رغم كل مظاهر الحرية التي أمارسها لكنني وبعد أن وصلت إلى المدينة هدأ وجيف قلبي وأحسست بالسعادة.

بيبي فاطمة اشترت لي ملابس كثيرة من هناك ارتديتها في أكثر من مناسبة وكان من أجمل الملابس التي اختارتها لي بيبي الفستان والسروال السندي المقصب وكنت أرتديهما بعد أن اجعل شعري ضفيرة واحدة كما تفعل السنديات.

بعد عودتي من الهند أصبحت في أمس الحاجة للاعتناء بمظهري، لم أعد تلك الصغيرة التي تفضل الخروج لشراء احتياجات سيدتها، ولقد واجهت سيدتي بما أحس، فلم تنكر علي ما أمسيت عليه وإنما قالت في هدوء:

ـ والله كبرتي يا رجاء وأصبحت ستاً.

وشعرت بأنني فعلاً قد كبرت لدرجة جعلتني أعاود تذكر ما فات من حياتي يوم كنت في القرية هناك مع أمي وأبي.

ستسألون فأنا لم أتحدث عن هذه الفترة بشيء كما أنني تجاهلت في شيء

من الحذر الحديث عن أمي التي زرعتني في هذا البيت، لكنكم تريدون الحقيقة فأنا أحب أمي كثيراً وأعتقد أنها سيدة عاقلة لأن وجودي في الكتاب جعل مني شيئاً مغايراً لما كان يجب أن تكون فيه بنات القرية آنذاك.

أبيار علي مكان معروف قريب من المدينة وأمي لا تزال تعيش هناك رغم أنها وحيدة مكتفية بما أستطيع توفيره لها مما أتناوله من سيدتي من مصروفي قانعة بأنني أعيش عيشة رضية وهانئة. وتسعد عندما تزورني وتراني على ما أنا فيه من نعمة، لكنني لم أكن أشعر رغم إحساسي بالكثير من الراحة بأنني قد وصلت إلى الهدف الذي أصبحت أنظر إليه فأنا الأخرى أحن لأن أصبح زوجة وسيدة بيت ومثقفة وأما لدزينتين من الأطفال.

كنت عندما أفكر في هذا الأمر أضحك لغبائي فمن من الرجال الأكفاء والأغنياء يهمه أن يتزوج بفتاة قروية بدأت حياتها كخادمة حتى جاء ذلك اليوم الذي أسرت فيه إليّ أبله شرف بأن زوجاً يكاد يظهر في طريقي أنا الفتاة الصغيرة.

تلهفت لأن أعرف التفاصيل لكنني خجلت من مجرد أن أسأل وفضلت أن انتظر لتصلني الأخبار على مهل فلقد تعودت الصبر دائماً على نفسي وحتى على الآخرين.

في الكتاب وجدت إحدى الفتيات الصغيرات تتطلع إلى وجهي بإمعان، فسألتها عن السبب وعرفت منها أن أمها ماتت وأن أباها في حاجة لزوجة وأنها هي التي طلبت من أبيها أن يقترن بي.

كانت تتحدث لي في عفوية لكنني لم أحاول بحث الأمر معها فهي أصغر من أن تفيدني بما أريد معرفته وحاولت أن أتناسى الأمر بعضاً من الوقت حتى جاء اليوم الذي قالت لي فيه بيبي فاطمة بعد حصة درس الإنجليزية.

ـ ما رأيك يا بنتي في الزواج؟

فأجبتها:

ـ قد يكون ذلك يا سيدتي مطلب كل فتاة.

ولم أكمل ولم تكمل هي أيضاً وفضلت أن أصمت فأنا إنسانة لم تتعود

على الإلحاح في تفسير ما يقال لها.

لكن سالماً قال لي يومها وأنا أعود إلى غرفتي الصغيرة:

ـ استعدي يا رجاء فالعريس في طريقه إليك.

نظرت إلى وجهه بغباء ولم أفه بكلمة بل تركته ومضيت إلى غرفتي أفكر وأفكر، ومن بين عيني تطل صورتي بملابس الزفاف البيضاء.

أمضيت ليلة طويلة. فكرت كثيراً في الرجل الذي سيخطبني ومن هو وهل سأكون سعيدة؟ وهل سيستطيع هذا الرجل أن يملأ حياتي ويمنح قلبي الهدوء؟

واستمر تفكيري متواصلاً في هذا الرجل الذي لم أعرفه بعد من هو.. وكم عمره.. وهل هو غني أم فقير.

وعندها بدأت صورة تلك الصغيرة تطل من عيني وأخذت أقول لنفسي: من يدري ربما يكون العريس هو والد هذه الطفلة الصغيرة ولكن..

ومضيت أفكر بلا هدف حتى إذا ما داهمني النوم أحسست وكأنني أنطلق من عقال كل هذه الأفكار التي تحيط بي.

وكانت ليلة بيضاء مليئة بأجمل الأحلام وأحلاها لفتاة قروية صغيرة مثلي تنتظر لحظة يدق بابها بهدوء ليدخل فارس أحلامها في هدوء.

الفصل الخامس

قد تختلف الرغبة من أنثى وأنثى في كثير من الأمور لكنها تتفق دائماً على أن المرأة في حاجة إلى رجل يحميها وتتزوجه، وتصنع معه عشها الصغير بجواره.

عشت أكثر من أسبوع أرمق النجوم وهي تبدو من خلال سماء المدينة الناصعة أبحث وأنقب من خلال إحساساتي التي تفجرت عن صورة هذا الفارس الذي قرأت عنه كثيراً. . وشعرت بأنني سأحب هذا الرجل رغم أنني لا أعرف عنه شيئاً. أولا يكفيني أن يكون لي زوجاً؟

قد تضحك مني بعض الفتيات اليوم ممن قدر لهن أن يصلن إلى درجة كبيرة من العلم والثقافة والفهم، لكنني لا أود أن أنسى بأنني أنا الأخرى أصبحت أقرأ وأعي كل هذا الذي أقرأ ولهذا أجد نفسي مشدودة بخيط لا أراه إلى هذا الرجل الذي أنتظره بفارغ الصبر.

أبله شرف أطلعتني على ما يجري حولي وفهمت أن الزوج الذي سيأتي رجل فقد زوجته وله ثلاثة أولاد وطفلة هي التي تدرس في كتابنا وهي التي رشحتني للزواج من أبيها.

وعرفت أن الفارس المنتظر رجل ميسور الحال يعيش في فيلا بناها مؤخراً في قباء بعد أن تغيرت أحوال الناس في بلادنا وأخذ العمران يمتد هنا وهناك، حتى ذلك اليوم الذي جاءت فيه بيبي فاطمة إلى مجلس خوجة هانم.

رأيتهما تتهامسان فترة من الوقت قالت بعدها عمتي:

ـ يا بختك عريس لقطة لا يمكن أن تحلمي به. صحيح قد

يكون أكبر منك بقليل لكن يكفيه أنه غني وكسيب، ويعيش في بحبوحة من العيش.

فهمت من عمتي كل شيء عن الرجل وأنها بعثت في طلب أمي للحضور وتركت لي فرصة التفكير في الأمر.

خرجت من الغرفة وأنا لا أدري ما الذي سأقوله سوى أن أوافق حتى إذا ما ظللت مع نفسي بدأت أضرب أخماساً في أسداس وعقلي يشدني إلى أن أرضى بقسمتي إحساساً مني بالنعمة التي سأعيش فيها إذا تزوجت هذا الرجل ولكني فضلت أن أستشير بيبي فاطمة وأبلة شرف لأعرف رأيهما في الموضوع.

هنأتني بيبي فاطمة على فرصتي التي يجب أن أمسك بها قبل أن تضيع. وقالت بأن لا شيء يعيب الزوج سوى قلة ماله.

أما أبلة شرف فقد تحدثت معي حديثاً طويلاً وهي تنكِّت وتضحك.

كانت تقارن بين الزوج الجاهز والزوج التفصيل، لدرجة جعلتني أضحك من كل قلبي.

عرفت منها ما تعني بالجاهز والتفصيل وقالت رأيها في النهاية بأنها تفضل لي أن أنتظر لأجد الزوج التفصيل على حد قولها. كان هذا هو رأيها أن تتزوج المرأة شاباً يماثلها في العمر بغض النظر عما يملك. يكفيه علمه وثقافته وشبابه ليبنيا معا عش الزوجية.

استمعت لرأيها صامتة، وفضلت أن أتروى في الأمر وأسمع كل ما ستقوله في هذا الزواج. عندما جاءت أمي لتأخذني معها إلى الطريق إلى غرفتي قالت:

ـ مبروك.

وأخذتني في حضنها وتحدثت معي حديثاً طويلاً. وقالت:

ـ يا بنيتي أعرف ما قالته لك بيبي فاطمة وأعرف أيضاً رأي الأبلة شرف لكن الأمر بالنسبة لنا قد يكون مختلفاً بعض الشيء.

التفت إليها متسائلة:

ـ وماذا تعنين بالنسبة لنا؟

فأخذت تشرح وجهة نظرها بضرورة الإسراع في الزواج مذكرة إياي بأنني

مجرد خادمة تخدم سيدتها حتى ولو أنني تعلمت وأنها، أي أمي، أصبحت في أمّس الحاجة لأن ترتاح بجانبي وهي فرصة أن أتزوج أنا وترتاح هي. وأفهمتني بأن العقل يقضي بأن أمسك هذه الفرصة لئلا تفلت من بين أعصابي ومضت تزين لي حياة الزوجية التي سأقبل عليها وقالت:

ـ لا شك أنك جميلة بما فيه الكفاية وشبابك سيدير رأس الرجل وسيمنحك كل ما تريدينه وهذا هو الذي أريده وتريدنه أنت.

لقد عشنا أياماً كلها معاناة وفقر وضنك وأصبح من حقك يا بنيتي أن ترتاحي بعد كل هذه السنوات التي أمضيتها هنا مع خوجة هانم.

بيبي فاطمة أعطتنا أنا وأمي غرفة واسعة في بيتها انتقلت إليها وأصبح كل واحد في الكتاب يعرف بأنني سأتزوج.

سالم الذي جاء في إجازة من مكة حيث يدرس بارك لي هذا الزواج وقال:

ـ يا بختك يا بنت ستتزوجين أخيراً وتصبحين غنية.

لم أعقب على حديثه بأية كلمة وإن كنت ساعتها فضلت لو أنه قال لي شيئاً آخر.

لا أدري لماذا طافت بذهني هذه الفكرة فأنا في الحقيقة لم أفكر فيها قبل تلك اللحظة مطلقاً.

وقلت:

ترى لو طلب مني سالم رغم فقره أن يقترن بي هل أقبل أو أرفض؟

وأجبت نفسي بهدوء بأنني سأقبله على رأي الأبلة شرف باعتباره زوج أفضل.

مسكينة الفتاة الفقيرة مثلي، تظل ترقب الأيام التي تجيء بكثير من الخوف والشك والقلق والحيرة.

كنت أنا هذه الفتاة وحتى إذا ما عقد قراني وانتقلت إلى فيلا الشيخ صالح، أحسست بمزيج من الحيرة والقلق تواكب مسيرتي في دنياي الجديدة فالبيت كان فوق مستوى الأحلام التي عايشتني، أما الشيخ صالح فقد كاد يطير

من الفرح. أحسست به يملأ وجهه المتغضن عندما أطللت عليه في غرفته الكبيرة فزال عني القليل من الخوف مما ألم بي وبدأت أعرف طريقي إلى قلب هذا الشيخ فقد كان أولاده في سن كبيرة يعيشون في بيوتهم ولم تكن معنا في الفيلا إلا تلك الصغيرة التي فتحت عيني على هذا النعيم الذي أراه.

الشيخ صالح يعامل أمي بطيبة ويرجوها أن تظل دائماً إلى جانبنا كأم لطفلته وهذا ما كانت تصبو إليه.

سارت الأيام على ما نشتهي أنا وأمي من سعادة. وأحسست بأن الحيرة والقلق وما كان ينتابني من سابق فكر قد ضاع في خضم ما أعايش من رفاهية ونسيت خلال السنوات التي قضيتها مع زوجي كل أيام الفقر التي مضت والحرمان الذي ذهب فسنوات الطفولة وأيام الخدمة في كتاب خوجة هانم هي التي منحتني طريق المعرفة ومن ثم الزواج بهذا الرجل الطيب.

كنت أنظر إلى الحياة بمنظار يغاير ما كنت أراه في السابق وأخذت الحياة في المدينة وكل جزء من بلادي يتغير، وأصبح الشيء الوحيد الذي ينغص حياتي هو أنني امرأة عاقر لا يمكن أن تلد طفلاً.

كان هذا الأمر شاغلي في السنوات الأخيرة وأما في سنوات زواجي الأول فلم يشغلني شيء غير سعادتي بل حمدت الله في بعض الأحيان على أن لا ألد حتى إذا ما مرت الأيام أخذت أنظر إلى هذا الموضوع بنظرة أخرى غير تلك التي كنت أنظر بها إليه.

فالمرأة يهمها أن تمنح الحياة شيئاً من ذاتها ونفسها، أليس كذلك؟

وتظل هذه القصة تعايشني طوال مراحل حياتي فالمرأة التي لا خلفة لها أشبه بشجرة قضي عليها بأن تموت دون أن تهب الأرض التي تعيش عليها شيئاً من ذاتها، هي التي أحبت هذه الأرض.

لكني ومع كل ما ألاقيه من رعاية من زوجي لي ولأمي أجد نفسي في كثير من الأحيان أصبو لأن يكون زوجي في نفس سني ثم أنسى كل هذا تحت تأثير ما ألاقيه من خير في ظل هذا الإنسان الذي منحني اسمه.

قد تكون ظروف الرجل وحاجته إلى أنثى هي التي جعلته يقترن بي ولولا

هذه الحاجة لبقيت في موقعي أنتظر من يدق بابي ولن يكون بأي حال من الأحوال على ما هو عليه هذا الإنسان الطيب من محاسن.

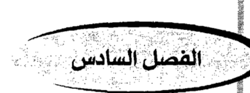
لكني مع كل هذه الأفكار التي أحاول طردها من مخيلتي أشعر بأنني وقد أصبحت زوجة متوجة تعيش حياتها بالطول والعرض لولا بعض التداخلات من أبناء زوجي والتي كان يقضي عليها زوجي في مهدها، والتي أحاول أن أقضي عليها بنفسي بأن أبعد عنها منهمكة في تعلم الإنجليزية من بيبي فاطمة.

فالرجل أصبح يميل لي كثيراً ويشعر بأنني قد ضحيت بالزواج منه، كما أن ابنته الصغيرة كانت خير عون لي في حياتي التي أعيشها حتى جاء ذلك اليوم الذي جاء فيه زوجي وهو يقول:

ـ لقد اشتريت لك بستاناً كبيراً في قريتك وهو هدية مني لك أنت أيتها العزيزة.

أحسست بالغبطة وهي تتسلل إلى أعماق أعماقي وأخذت أطوق زوجي بذراعي وأنا أتمتم بالدعاء له فقد كان رجلاً كريماً لم يبخل على بأي شيء. وأصبحت المرأة المدللة التي تستمتع بجميع وسائل الراحة فقد غزت أسواق مدينتي كل معدات الحضارة التي تحتاجها المرأة لكنني ومع كل ما أجده من سعادة كنت أطمع دائماً بأن أثقف نفسي لدرجة أصبحت مكتبتنا أنا وزوجي تضيق بشتى الكتب والصحف والمجلات.

ولم أكتف بذلك بل أخذت أتعلم اللغة الإنجليزية على يد معلمة متخصصة غير بيبي فاطمة تحسباً للسفر إلى خارج المملكة في رحلة وعدني بها زوجي كنت أؤجلها عاماً بعد عام حتى أصبحت قادرة على فهم اللغة ويومها طلبت زوجي أن نسافر وكان لي ما أردت.



الفصل السادس

أجمل أيام العمر تلك التي تقضيها في رؤية الأشياء الجديدة والجميلة معاً.. كل شيء في بلادي لم يصبح كما كان سابقاً، تغيرت الظروف والأحوال وحتى أجواء البيت والأسرة. التطور الكبير لامس شغاف كل مدينة وقرية، ويبدو وكأنه يثير التساؤل. فلقد ضاعت معالم الأمس في كل مدينة وقرية وأصبح الجديد هو الواجهة الحقيقية التي يراها الزائر.

أقلتني الطائرة «البوينج» بمقاعدها المريحة في رحلة طويلة. أحسست الفارق الكبير بين رحلة سيارة البريد إلى جدة وهذه الرحلة، حتى إذا ما وصلت برفقة خروجي إلى مطار هيثرو، استقبلنا أحد أصدقاء زوجي ممن نتعامل معهم في تجارته لنذهب معه في سيارته إلى فندق «انتركونتننتال» الذي رأيت صوره في الكتاب الذي قرأته عن السياحة في بريطانيا.

زوجي كان أشبه بطفل صغير، فهو وإن درس وتعلم، لكن عدم إلمامه باللغة جعل مني أنا القروية أكثر فائدة له في رحلته تلك! عشنا أياماً رائعة «في لندن» زرت فيها «الهايدبارك» وحديقة الملكة، وتسوقت في شارع «اكسفورد» وتغديت أكثر من مرة «في كوينز واي» ورأيت العرب ودنياهم في ذلك الشارع الكبير من شوارع «لندن».

أجمل ما أثارني متحف «مدام توسو» الشخصي الذي التقطت فيه أكثر من صورة مع كبار الشخصيات السياسية في العالم، وبدأت أقارن بين برامج التلفزيون البريطاني وتلفزيوننا، وأحسست بأنني قادرة على اختيار طريقي في الحياة بعد أن منحني هذا «الشيخ»

اسمه ومركزه.

زوجي لم يبخل علي بشراء ما أريد دون أي سؤال لدرجة خجلت فيها من نفسي فكرم هذا الزوج لم يدع لي فرصة بأن أقول كلمة «لا».

من يراني وأنا أجوب شوارع «لندن» يظن أنني اسبانية ولست تلك القروية الصغيرة التي جاءت تبحث عن لقمة العيش في «كتّاب خوجة هانم» بالمدينة المنورة! سمعت كلمة «ليدي».. تقال لي من أصدقاء زوجي الذين يجتمعون معه، وشاركت في هذه الاجتماعات مع زوجي كمستمعة.

أديت وزوجي صلاة الجمعة في مسجد «لندن» وزرت أكبر المتاحف فيها، وشاهدت بعض الأفلام والمسرحيات، واشتريت بعض الكتب والملابس. حتى تسريحة شعري غيرتها فبدوت شيئاً آخر غير تلك المرأة التي عرفت.

في «هايدبارك» أحسست بالفرحة عندما تقابلت مع أسرة كويتية تعارفنا عليها هناك، سألتني السيدة عما إذا كانت هذه هي رحلتي الأولى إلى «لندن» مع أبي فأحسست بالامتعاض ونظرت إلى وجه زوجي فلم أر شيئاً من ملامحه في تلك اللحظة.

زوجي حاول أن لا يلتفت إلى ما قالته السيدة أما أنا فقد قلت وباعتزاز:

ـ لا يا سيدتي إنه زوجي.

خجلت السيدة فلم تعد تدري ما تقول لكني وزوجي خففنا من خجلها هذا كثيراً.

وأنا في الفندق كنت أسأل نفسي:

ترى هل أنا سعيدة في حياتي؟

في كثير من الأوقات ألوم نفسي على التفكير في هذا الأمر.. فماذا تريد المرأة أكثر من رجل يستطيع أن يمدها بما تحتاج ويرعاها كعينيه ويغمرها بحبه وحنانه؟ بعض الناس يعتبرون فارق السن بين الزوج والزوجة شيئاً هاماً أما أنا فأعتقد غير ذلك.. فالرجل ما دام قادراً على إسعاد زوجته ومنحها كل ما تطلب وإحاطتها بكل حبه ورعايته عندها يصبح فارق السن أمراً ثانوياً وغير هام.

زوجي كان في بعض الأحيان يسألني وهو يضحك:

ـ ترى لو تزوجت شاباً في مثل سنك أكنت سعيدة مثل ما أنت عليه؟

كنت أجيبه بعفوية:

ـ لا وألف لا..

وأحاول أن أجعله ينسى هذه الأسئلة لأنني فعلاً نسيتها أنا الأخرى.

أمي أصبحت شيئاً آخر غير تلك البدوية التي تعيش على الفطرة! من يراها يظن أنها منذ ولدت تعيش في هذا العز.. كنت أداعبها وأسألها رأيها.. فتمسك يدي وتقول:

ـ لقد رضي الله عنك يا بنيتي، وعني، فوهبك ووهبني كل هذه السعادة.

مشكلتي في المدينة تتمثل في أسرة زوجي التي لم تزل تنظر إليَّ على أنني تلك القروية التي جاءت من القرية. ومع أنني كنت أحاول دائماً أن أقفز على كل حديث يوجه لي، إلا أنني أحس بيني وبين نفسي بشيء من الضيق والألم.

فأنا وإن تفوقت بعلمي وفهمي وإدراكي على الكثيرات منهن إلا أنني أتألم عندما يشار إليَّ هكذا من قريب أو بعيد.

صديقاتي كلهن من خارج نطاق الأسرة، وهن يرون فيَّ إنسانة نادرة استطعت أن أدرس وأتعلم وأجيد لغة أخرى وأقرأ وأناقش.

وبعد عودتي من «لندن» أصبحت هوايتي قراءة الصحف البريطانية. استطعت من خلال قراءتي «للفايننشيال» أن أساعد زوجي في الحديث عن أوضاعه العملية وحياته التجارية بشيء يسير من الفهم.

قراءاتي فتحت لزوجي آفاق جديدة جعلته يطلب من موظفة كل شيء عن العملات وأعمال الصيرفة.

يوم جاء يحمل لي مبلغاً كبيراً من المال قال لي:

ـ هذا هو لك عزيزتي فقد نذرت أن أدفع لك شيئاً مما يفيء به الله على من عملياتي الجديدة.

رفضت أن آخذ المبلغ منه، لكنني أمام إصراره وجدت نفسي مضطرة لقبوله، ولكني مع هذا حاولت أن أصنع شيئاً لزوجي فاشتريت له هدية مناسبة

فرح بها كثيراً. أما بقية المبلغ فقد احتفظت به حتى يوم خطوبة «سهى» ابنة زوجي الصغيرة صاحبة الفضل الكبير عليَّ قدمته في شكل هدية مناسبة نالت إعجابها وإعجاب زوجي، الذي كافأني بعدها بشهور بأن اشترى «فيلا» صغيرة باسمي في طريق «سيدنا حمزة» ومنذ ذلك اليوم اختارت أمي أن تقيم في هذه «الفيلا» بمفردها تساعد في رفاهيتها خادمة «اندونيسية» مسلمة.

مع كل العز الذي أعيشه أجد نفسي دائماً تلك الصغيرة التي عاشت أول أيام حياتها في «كتَّاب خوجة هانم» أحترم هذه المرأة كثيراً لدرجة أنني بكيت بحرقة يوم توفيت.

أما «بيبي فاطمة» فكانت الأم الثانية بالنسبة لي. كانت دائماً تمتدح قدرتي على هضم مفردات اللغة الإنجليزية، وقد سألتها بعد أن توحدت أن تعيش مع أمي في «الفيلا» لكنها رفضت بإصرار وجاءت تودعني في زيارتها الثانية لأسرتها ولم تعد.

لا أدري ما الذي جرى لهذه الإنسانة الكبيرة، لكنني مع هذا لم أترك أية مناسبة للسؤال عنها، حتى عرفت أخيراً بأنها تعيش لدى أسرتها بعد أن أصبحت لا تستطيع العودة إلى المدينة. فقد فقدت بصرها نتيجة مرضها بالسكر وكبر سنها.

لزوجي أخت تصغره كثيراً، كانت هذه الأخت أقرب بنات أسرة زوجي إلى قلبي.

ولقد كبرت في عيني هذه المرأة، عندما وجدتها تثني عليَّ في غيابي، وتطالب زوجي بأن يعمل شيئاً من أجلي خصوصاً وأنه لا ابن لي ولا ابنة.

قلت لها:

- لا تخافي، سأموت أنا قبل أن يموت هذا الرجل الطيب!

فقالت:

- بعد عمر طويل.

لكن فكرة أن أموت قبل أن يموت زوجي راودتني كثيراً لدرجة جعلتني أفكر في هذا الأمر لطول العشرة، عشرة زوجي، أحببت هذا الرجل من كل

قلبي وأصبحت يوم مرضه حائرة، ماذا أصنع حتى إذا ما ردَّ الله له صحته، بدأت حياتي تأخذ طريقها المعتاد.

نسيت أن أقول لكم بأن تعليم الفتاة في بلادي منح المرأة فرصاً كبيرة، وأصبح في مدينتي فرع لجامعة الملك عبد العزيز، سعدت بوجوده وسعدت قبله يوم تخرج أول فوج من البنات في مدرسة «أبله شرف» أول مدرسة حكومية في المدينة.

أمي عندما تتحدث عن قريتنا، تتذكر ظروف الأمس البعيد قبل الحكم السعودي. لم يكن أمن الحجاج على ما هو عليه الآن وهي تعتقد بأن حياة الأمس كانت حقبة يسودها القتل لأي سبب.

كنت أفكر في هذا الذي تقوله أمي عن حياة القرية في الماضي، وعن حياتها اليوم، فأجد أن قريتي أصابها من زخم الحياة الشيء الكثير، وقضى الأمن على العادات السيئة فيها.

المدينة بحواريها وأزقتها تغيرت وأصبحت شيئاً آخر، فزقاق «الطوال» و«الحمام» و«باب المجيدي» و«الساحة» و«زقاق الزرندي» و«جوا المدينة» كل هذه المناطق انتهت وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من مشروع توسعة «المسجد النبوي».

سعدت كثيراً عندما زرت مزرعتي في «أبيار علي» بجانب المزرعة. كان مبنى مدرسة البنات يتسم بشكل يلفت الانظار إليه بمبناه الجميل فابتسمت وقلت: سبحان مغير الأحوال!

الطريق من «المدينة المنورة» إلى «مكة المكرمة» عمِّر أكثر من مرة وآخر طريق فتح هو «طريق الهجرة»! وذلك الذي يعيد إلى الأذهان هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مضت وانقضت.

لشد ما تغيرت حياتنا نحن أبناء هذه البلاد! فلقد تعودت عيناي على أن أرى أشياء جديدة كثيرة في مقدمتها هذا الزخم الكبير في تعليم الفتاة الذي أخذ يكبر ويكبر، لتصل المرأة في بلادي إلى أرقى درجات العلم والثقافة.

وعلى الرغم من كل هذا الذي أراه فأنا أحس بأنني في حاجة لأن أبذل

المزيد لأصبح مثل هؤلاء الفتيات اللواتي يتأبطن محافظهن وهن في طريقهن إلى فروع الجامعة وكليات البنات.

توعك صحة زوجي المستمر جعلني أفكر في أمور كثيرة فعلى الرغم من أنني قد بذلت ما بذلت من أجل راحته، إلا أنني اعتقد أنني مهما فعلت مع هذا الرجل فلن أفيه حقه، فلقد استطاع أن ينتشلني من وهدة الفقر كما انتشلني «كتّاب خوجة هانم» من متاعب الجهل.

ومع ما أراه في عيون أبنائه وأسرته من تشفٍّ فقد كنت أحاول دائماً أن أتناسى جل ما أراه. أما هو فقد كان يعرف كل شيء، ويتحدث لي أنا زوجته بما يحس فأطمئنه. فأنا اليوم أقدر من ذي قبل على معرفة طريقي بين كل هذه الأمواج التي أخذت تطفو على السطح رغماً عنه وعني أنا أيضاً!

الفصل السابع

المرأة هي المرأة. في فترات الضعف تبدو وكأنها ليست تلك التي كانت تتحرك على الأرض في قوة وثقة واستعداد للمواجهة عندما كانت قوية.

لم أكن في يوم من الأيام امرأة ضعيفة، لكني وبعد أن انقضت أيام قلائل على موت زوجي أحسست بالخوف من أيامي المقبلة لأول مرة.

خوف ارتبط في نفسي مع ظروف المرض التي أصابت زوجي وظهرت آثاره أكثر وأكثر بعدما تركت بيتنا الكبير وتوجهت إلى «الفيلا» الصغيرة لأعيش مع أمي.

حاولت أسرة زوجي أن تثير العديد من المشاكل أمامي، لكن وقوف «سهى» معي وقدرتي على إقناع الجميع جعلني أجتاز هذه المحنة. وخرجت بعد شهور ستة وقد تراكمت الأحزان على كاهلي وعقلي، وارتفع رصيدي في البنك كوارثة، وتسلمت جميع مالي في تركة الرجل الذي أحببته، فقد جعل المسكين لي في ذمته بالإضافة إلى ما ورثته مؤخر صداقاً كبيراً لم يتحدث عنه ولا مرة لي.

اختار أولاد المرحوم قطعاً من الأراضي التي لا يريدونها كجزء من نصيبي في الإرث فلم أبال وكان الله معي، فبعتها بالملايين بعد أكثر من عامين، وأحس الجميع بأنني إنسانة طيبة تجد العون في النهاية فحاولوا أن يشتروا مني المتبقي فرفضت.

أجمل ما في الحياة لا أن يشعر الإنسان بالشبع، وإنما أن يحاول أن يمنح هذا الشبع لكل من يحتاجه، ولهذا أصبح بيتي مأوى لكل فتاة من قريتي تريد الالتحاق بدور العلم في المدينة

أطعمها وأكسوها وأمنحها مصروفاً شهرياً.

أمي تحاسبني على هذا العمل، وتعتقد بأنني إنسانة مسرفة، وتنسى بأن كل هذا الخير الذي عشت فيه إنما جاء هو من عند الله ومنحه لي. اجتهدت أن أعيش للآخرين فانصرفت أغرق نفسي في العمل مع جمعيات الخير والبر لدرجة جعلتني محط الأنظار والتطلع وبنيت لاسمي قاعدة ارتكزت عليها في انطلاقي في عمل الخير، حتى جاء ذلك اليوم الذي تلقيت فيه مكالمة تلفونية من سالم، سالم رفيق طفولتي وهو يتحدث لي حديثاً طويلاً بعد أن عاد من دراسته العليا في جامعات أمريكا يسألني في إذا كان بإمكانه زيارتي.

سألته إن كان قد استطاع أن يصل إلى شهادة الدكتوراة، لكنه لم يشف غليلي برده، فعرفت أنه فشل في الحصول على هذه الشهادة وعرفت أنه تزوج بامرأة أمريكية طلقها بعد عدة أعوام.

واكتفيت شاكرة سؤاله وهو يعزيني بوفاة زوجي، ولم أكن أعرف بأنه كان ينتظر هذه الفرصة ليلقي بشباكه حولي ليصطادني كزوجة.. حتى رأيته وهو يأتي إلى بيتي ويتحدث مع أمي التي تعرفه حديثاً طويلاً خرج بعدها من البيت وجاءت أمي وهي تلهث قائلة:

ـ أتدرين ماذا يريد سالم؟

قلت:

ـ أويريد نقوداً يبدأ بها عملاً جديداً؟

ضحكت أمي وقالت:

ـ لا بل يريدك أنت كزوجة!

وضربت بيدي على صدري.. وقلت:

ـ يريدني أنا؟ ولماذا لم يطلب ذلك في الماضي عندما كنت بلا زوج ولا مال؟

قالت أمي:

ـ لقد ناقشته كثيراً في هذا الأمر.. وعرفت بأنه كان يهاب الحياة يومها عندما كان صغيراً فلم يقو على إبداء رغبته هذه.

قلت في جفوة:

ـ والآن وبعد أن أصبحت صيداً ثميناً أراه يفكر في أمري.

وانخرطت مع أمي في حديث طويل حاولت أن أفهمها فيه بأن سالماً هذا لم يكن يأتي ليطلبني كزوجة لو لم أصبح امرأة ذات مال.

حاولت أمي أن تفلسف الأمور بأسلوبها وأن تشعرني بأن المرأة في حاجة دائمة إلى زوج يشد أزرها وأنني لو تزوجت سالماً لأصبح رهن إشارتي وأن يعرفه الإنسان أفضل ممن لا يعرفه.

وطلبت من أمي فترة من الوقت أخذت استعرض حياتي وحياة سالم بشيء من الدقة.. فالأمر يستدعي مني الكثير من التفكير والاهتمام بدقائق تفاصيل الماضي قبل أي وقت آخر، وأخذت صور الماضي تطل من بين عيني وكأنها أشبه بشريط سينمائي مطبوع داخل أعماق أعماقي.

لم أكن أظن بأنني ساعاود التفكير في هذا الماضي لو لم يدق بابي هذا الرجل الذي لم يعايش الحرمان صغيراً مثلي. لقد منحته «بيبي فاطمة» مقومات الحياة وعمدت إلى تربيته تربية ممتازة، ومع هذا كان سالم أقرب إلى الجحود منه إلى الاعتراف بحق تلك السيدة الفاضلة عليه.. فلقد قطع كل اتصالاته بها بعد ابتعث للدراسة في جامعات أمريكا، وأصبح يأتي في بعض الإجازات إلى المدينة وإلى قريته دون أن يسأل عن تلك المرأة التي منحته العيش الكريم صغيراً.

وبدت لي نواقص الرجل كثيرة. وأخذت أسأل نفسي مرة ومرات، عن السبب الذي جعل سالماً يفكر بي. فأنا وهو رغم أننا كبرنا في بيت واحد إلا أننا لم نتبادل الحديث حول أي شيء يجعلني أظن بأنه كان يأمل أن يكون زوجاً لي.

ومع هذا وجدت من المناسب أن أسأل أبلة «شرف» رأيها، فهي تعرفنا كلينا أنا وهو.. حتى إذا ما حانت الفرصة لأن أراها وأطرح عليها أسئلتي وأنتظر جوابها.

قالت:

ـ ربما إذا جاز لي أن أقول في موضوعك شيئاً فلا يجوز لي أن أنسى ما صنع سالم مع «بيبي فاطمة»!

قلت:

ـ ماذا تعنين؟

قالت:

ـ حتى لا أظلمه أقول: ربما يكون صادقاً، فأمثال هؤلاء الرجال يهابون المواقف فيظلون دائماً أقرب إلى الظل منهم إلى النور.

وتابعت قولها:

ـ كما أن زواجه في الغربة لا حكم لي عليه. فكثيراً ما يصادف الشباب أوضاعاً تجعلهم يقدمون على أمور لا يرغبونها. شيء واحد يحز في نفسي جحوده ونكرانه لما قدمته له «بيبي فاطمة» من معروف.

ورأيت أن أكتفي بما قالت ولا أطيل وبدأت أناقش كل ما «أبلة شرف» فهذه السيدة التي أحبها لم تكن راضية عن زواجي من «الشيخ» عندما سألتها، وإن لم تقل، ورأيت أن أمعن التفكير في خطوات المستقبل في هدوء بعيداً عن الضغوط رغم أن أمي تحاول أن تحبب لي هذا الزواج، وتقول:

ـ ربما استطعت وأنت على هذا المقدار من العلم أن تمسكي بخناق رجلك في يديك كما أن الطب منح المرأة اليوم الفرصة لأن تنجب ألم تقولي بأن في جدة مستشفى لعلاج العقيمات؟

طلبت من أمي أن تكف عن الحديث، لكن موضوع الأطفال والعقم الذي قرأت عنه، وعرفت بأنه وسيلة لاسترداد بعض النساء دورهن كأمهات، أثلج صدري وفتح شهيتي لأن أناقش نفسي في الأمر.

وأخذت أتصور نفسي وأنا «أم» لطفلة أو طفل، وشعرت باستغراق لذيذ ملأ قلبي بهجة وزاد في عزيمتي أن أتزوج، خصوصاً وأنني لم أبلغ بعد سن اليأس، ولكوني راغبة بأن يكون لي ولد أرعاه صغيراً ليرعاني عندما أكبر. مضت أحلام اليقظة تتداخل في أعماق نفسي، أنا التي عايشت أحلام اليقظة جل سنوات عمري فلم تبخل علي بما أريد.

وأحسست بأن زواجي ضرورة يجب أن تتم ولكن هل أتزوج سالماً أو غير سالم.. لا أدري ولا أحب أن أناقش هذا الأمر كثيراً.

واعتذرت لسالم عن تلبية رغبته وإن لم أقفل الباب أمامه بل تركته شبه مفتوح أنا أضحك في أعماقي فقد أصبحت أعرف طريق قدميّ في الحياة بكثير من الحرية والوضوح.

من يدري؟ ربما هيأت لي الأيام من يفضله من يدري؟

الفصل الثامن

أفضل أوقات التفكير الوقت الذي نستطيع أن ننسى فيه ماذا نفكر. قد يقول أحدكم بأن ما قلته مجرد حكي ومغالطة كلامية لا تغني ولا تسمن من جوع لكنها الحقيقة، فأنا أحاول أن أنسى حياتي التي عشتها، وأمي التي أكفلها، وسالماً الذي جاء يخطبني، ومضيت أقرأ وأقرأ في كتاب جديد يتحدث عن المرأة في دول أوروبا الشمالية، ولقد هالني أن أقرأ عن كل هذه الحرية الغريبة التي تستنفد طاقات المرأة في الدول الاسكندنافية، وعرفت لماذا تزيد نسبة الانتحار في تلك البلدان عن غيرها رغم كل هذه الرفاهية التي يحصل عليها الإنسان هناك.

وقلت لنفسي:

أو يمكن أن تصنع الرفاهية والشبع كل هذه المآسي والمشاكل؟ وخرجت من تفكيري بأن السبب يعود لأن الإنسان في تلك البلدان لم يعد مرتبطاً بدينه، رغم ثقافته، ولا بمجتمعه أو حتى بأسرته.. وحمدت الله على أننا نتمسك في بلادنا بديننا وتقاليدنا الطيبة.

أمي لا تزال تصر على مواصلة الحديث حول خطبة سالم لي بدرجة جعلتني أسألها فيما إذا كانت قد أعطت وعداً بقبولي لسالم كزوج، لكنها لم تتفوه ببنت شفة.. آثرت الصمت ومضيت أجتز ذكريات الأمس الذي مضى وأنا أحاول أن أصنع منه قاعدة للانطلاق لحياتي القادمة.

ظروف التطور التي نمارسها على أرضنا منحتني هي الأخرى أضواء جديدة من المعرفة جعلتني أمسك بخيوطها حتى لا تفلت من

قبضتي. اخترت بعدها الالتحاق بفصل دراسة اللغة الفرنسية في جمعيتنا التي أنشأناها، وأقدمت على تفهم ظروف هذه اللغة بحب، حتى أصبحت أتفوق على الكثيرات من اللواتي أكملن تعليمهن ووصلن إلى شهادة البكالوريوس، أنا التي لم تدرس شيئاً سوى ما تعلمته في «كتاب خوجة هانم».

في الفصل، تعرفت بواحدة من مدرسات هذه اللغة وهي فرنسية أسلمت وتزوجت واحداً من شباب بلادي وآثرت أن تتخلص من عاداتها وتقاليدها وأن تقبل بحب على معايشة تقاليد حياتنا.

جميلة (فرانسواز) التي سمت نفسها صفية ورقيقة هي عندما تنطق كلمات لغتها الأم.. ارتبطت بهذه الصديقة وقايضتها على المعرفة.. تعلمني الفرنسية، وأعلمها العربية.. وقد كان.

عندما استطعنا فتح فصل لتعلم مبادىء الصحة في جمعيتنا الخيرية، كنت أنا و(صفية) أول الملتحقات بهذا الفصل الذي منح الكثيرات معرفة أشياء كثيرة في حياة الإنسان والأنثى بصفة خاصة.

مرت ثلاثة أعوام وأنا على هذه الوتيرة من الحياة التي أعيشها. كل شيء في حياتي يشدني لأن أتشبث بالحرية التي أعيشها. فظروف الحياة التي أمارسها جعلت مني إنسانة أخرى قوية. حتى إذا ما أخلدت إلى التفكر وأنا في مخدع نومي. تسللت إلى ذهني فكرة أن أصبح «أماً». الزواج بالنسبة لي وسيلة، ووسيلة آمل منها أن أصل إلى الأمومة لكنني وفي باطن أعماقي أرفض أن أكون زوجة لسالم. أشعر بأن هذا الرجل لا يصلح لي، وأنا أيضاً لا أصلح له، ولكن أمي لا تتوانى بأن تشعرني بين الفينة والفينة بأن أقبل.. مشيرة في كل أحاديثها إلى سنوات العمر التي تمضي، دون أن يكون لي ولد أو بنت حتى ضعفت أمام أحاديث أمي وقلت لها:

- لا بأس قولي له بأنني موافقة.

وهكذا تزوجت سالما وأنا مشفقة على مستقبل حياتي الألم الذي سيعتصرني وأنا أعيش معه.

مضت أيامي الأولى وأنا أعايش الخوف، حتى إذا ما زال هذا الخوف وجدت سالما يسألني:

ـ ما رأيك؟ ألا تودين أن يكون لنا طفل يملأ بيتنا حركة؟

نظرت إلى وجهه ولم أقل شيئاً، فواصل الحديث:

ـ لقد تحدثت مع صاحب المستشفى في جدة والطبيب المختص الذي وعد بأن يراك.

وعرفت أن أمي تحدثت معه في هذا الموضوع.

وضعت يدي على فمه وقلت:

ـ أتريد الحقيقة؟

قال:

ـ نعم!

قلت:

ـ أخاف من النتيجة.

قال:

ـ الحياة دائماً تطلب منها أن نبحث عن الطريق الذي يمنحنا السعادة.

قلت:

ـ أولست سعيداً معي؟

قال:

ـ تريدين الحق؟

قلت:

ـ نعم.

قال:

ـ ستكمل سعادتي يوم ننجب.

كلامه هذا أبهجني وهدأ من شكوكي التي أحملها بعض الشيء، ورتبنا

الأمر للسفر إلى جدة.

عندما رآني الطبيب ضحك وقال:

ـ أمرك يا سيدتي ليس فيه مشكلة. لقد تطور الطب في بلادنا، أنت في حاجة ماسة إلى عملية صغيرة تعيد لقناتي «فالوب» عملهما وهذا سهل وميسور.

وأجريت العملية وخرجت ووجهي يطفح بشراً.. فقد آن لي أن أنجب.. طلب الطبيب معاودة زيارته لمدة ثلاثة أشهر.. حملت بعدها والدنيا لا تسعني من الفرحة ومع هذا كنت أفكر في زوجي الأول.

شيء واحد كان يدور في خلدي يؤكد أنني كنت أحب «الشيخ صالح».. لقد سألت نفسي يومها لماذا لم أجر العملية يوم كنت زوجة لذلك الإنسان الطيب؟ ترى! هل أحب هذا الطفل بمقدار حبي لو كان ابنا لي من الشيخ صالح؟

حاولت أن أنسى هذا الأمر لكنني لم أستطع وبدأت ألملم نفسي داخل أعماقي حتى لا تخونني تعابير وجهي وأنا مع زوجي الجديد سالم وقلت الأولاد هم الأولاد يظلون قرة أعين لنا.. نحبهم ونرعاهم.

صور الشيخ صالح في مكانها رفضت أن تنقل من صدر مجلس الأسرة، رغم إصرار سالم على ذلك قلت له:

ـ إذا لم أكن وفية للرجل الذي منحني السعادة فلن أكون وفيه لك.

قبل على مضض وترك صور الشيخ في مكانها..

مضت أيام الحمل على خير ما يرام.. وأنجبت أنا العاقر التي لم تلد كما كانوا يقولون طفلاً أصريت على أن أسميه صالحاً رغم أن سالم وأمي كانا يعارضان أن أسميه باسم زوجي الراحل. نزل سالم عند رأيي بعد نقاش طويل شعرت فيه أنه يغادر من ذكرى زوجي الأول.

وتمضي الأيام وصالح يكبر أمام عيني وأنا في منتهى السعادة. لقد منحني الله ما أريد ومنحني أيضاً بعد صالح طفلة اسميتها «سهى» باسم تلك التي عرفتها قبل أن أتزوج أباها في كتاب «خوجة هانم». «سهى» الكبيرة كانت

تزورني باستمرار وتداعب «سهى» الصغيرة بحب وتجلب لها ولصالح في كل زيارة الكثير من اللعب.

ما أروع هذه الصغيرة التي كبرت. كانت تحمل قلباً من ذهب، سعدت بها كثيراً وهي تقول إنها تحس أنها أخت لـ «صالح» و«سهى» قبلتها في وجنتيها بحب وقلت لها:

ـ لا أنسى أبداً أيامي مع أبيك كانت رائعة لدرجة أشعر بأنني لو لم أكن في حاجة لأن ألد لما تزوجت.

قالت لي بكثير من الحنان:

ـ أعرف ذلك يا أبلة، فقد ترجمت حبك الكبير لأبي ولي باختيارك اسمه لابنك واسمي لبنتك ولهذا ثقي بأنني أحبك اليوم أكثر من ذي قبل.

سالم بعد أن أنجبت أخذ يكشف عن وجهه القبيح وبدت أطماعه واضحة في ثروتي، لكنني كنت أعرف كيف أوقف هذه الاطماع، حتى جاء ذلك اليوم الذي سافر فيه في إجازة أمضى ثلاثة شهور حينها خارج البلاد دون أن يكلف نفسه حتى مجرد السؤال عن ابنه أو ابنته.

وعندما عاد إلى البيت وجدته رجلاً آخر، فقد ظهر سالم على حقيقته مكشراً عن أنيابه. كان يتحدث لي عن رغبته في ترك عمله الوظيفي وأنه يأمل أن ينزل إلى السوق يبحث عن مستقبل أفضل له ولي.

يومها أمضيت معه ساعات من الحوار عرفت بعده ما يريد هذا الرجل، وفضلت أن أقدم له بعد كل هذا الحوار شيئاً من مالي يبدأ به حياته الجديدة التي قرر أن يبدأ بها.

قلت له:

ـ آمل أن يغنيك هذا المال عن سؤالي عن تزويدك بغيره في المستقبل.

خرج سالم من البيت وهو عازم على من يبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته. لكن الأيام أصدقتني رأيي فيه، فهذا الرجل كشف عن أنياب الغدر بعد

أن استتب له الأمر وعرف من أين تؤكل الكتف. لكنني لم أكن صغيرة على معرفة ألاعيبه، فسالم الذي عاش حياة سعيدة على حساب «بيبي فاطمة» يريد أن يكرر الحكاية معي أنا، أنا التي خرجت إلى الحياة من أضيق أبوابها لأعيش فيها مع أحسن الظروف.

لكنني مع كل الذي يجري في بيتي أمسك قلبي بيدي، أحاول أن أوقف وجيفة. فالقلوب أقدر على ترجمة أحاسيسها وما تشعر به في لحظات الخوف والصفاء سواء بسواء.

ترى هل استطيع أن أوقف أطماع هذا الحاقد؟ لا أدري وإن كنت أترك ذلك للأيام التي تجيء.

الفصل التاسع

كثيراً ما تبدو الهواجس التي تنتاب الإنسان، أي إنسان، بمثابة إنذار لأحداث وحوادث، حتى إذا أطلت هذه الأحداث أصبح من السهولة علينا صدها والوقوف أمامها أو حتى التعايش معها.

أمي بعد أن تكرر غياب سالم عن الدار وزادت خناقاتنا المتكررة عما يجري في البيوت، «لعب الفأر في عبها»، فأمسكت بي وهي تعتذر:

ـ لم أكن اظن أنني سأوصلك إلى ما وصلت إليه، فقد كنت حريصة على سعادتك، فأنت ابنتي التي تحملت ما تحملت من أجلي، ولهذا أجدني أؤاخذ نفسي على ما سببته لك من ضيق وكدر وحزن؛ فهذا الرجل أشعر بأنه لا يصلح لك..

سألت أمي، وأنا أسرح شعري أمام المرآة في غرفة نومي:

ـ وهل اكتشفت ذلك الآن يا أماه؟ أم أن هناك أموراً تحاولين إخفاءها عني؟

قالت:

ـ إذا كنت أخفي أمراً في السابق عنك، فأنا اليوم في أمس الحاجة لأن أقول لك كل شيء! لطالما جاءني سالم يستعديني عليك بشتى الطرق ويطلب مني أن أساعده في أن تمنحيه توكيلاً يستطيع عن طريقه إدارة أموالك بأسلوبه.. كنت أسمع الكلام ولا أقول شيئاً أما اليوم!

وصمتت.

ـ قلت أما اليوم ماذا؟

قالت:

ـ أعرف أنك تعرفين.

قلت:

ـ أعرف ماذا؟

قالت:

ـ تعرفين أن سالم قد تزوج بامرأة مغربية جاءت لأداء الفريضة مع أهلها، وانتهز أهلها فرصة وجود زوجته في المدينة، فلم يمانعوا بأن يزوجوا ابنتهم لرجل متزوج وأب.

قلت:

ـ أعرف يا أماه وأعرف أنه قبل هذا الزواج، خطب إحدى الفتيات في أعقاب تسلمه المبلغ الذي أعطيته إياه، لكن أهل الفتاة رفضوا أن يعطوه ابنتهم.

التفتت أمي إليَّ بوجها:

ـ تعرفين كل هذا وتسكتين؟ أما كان الأجدر بك أن تقولي لي أنا أمك كل هذا الذي عرفته؟

ونظرت إلى وجه أمي بحنان وقلت لها:

ـ وما هي الفائدة التي أحصل عليها عندما أقول لك كل ما أعرف؟

ثم تابعت قولي:

ـ أنا يا أمي امرأة نبتت في ظلال من الشوك لكن قدميها لم تصابا بأذى، لأنها عرفت كيف تحميهما من شرور الطريق.

ربتت أمي على رأسي بحنان وتركتني بعد أن امتلأ رأسي بأفكار سوداء كثيرة حاولت أن أبددها لتصفو نفسي وأستطيع التفكير بحرية، ويومها جاء سالم إلى البيت لم يقل شيئاً لي، ولم أقل له أية كلمة.

حاولت أن أبدد سحابة الشك التي أخذت تطفو أمام عينيه ونجحت،

لكنني منذ ذلك الوقت عزمت على أن يكون لكل واحد منا غرفة نومه دون إبداء الأسباب.

قبل سالم بالأمر الواقع دون أن يتشدد في حقوقه أو حتى يتشدق بها، وكأنه يريد أن ينجو بجلده من آثار العاصفة التي ستطيح بحياتنا ويؤخر ظهورها على المسرح أكبر مدة من الزمن، نتيجة تخطيط لا أدري ما هو لكنني أكاد أراه يطل من بين عينيه.

حتى ذلك اليوم الذي جاء فيه يقول بأن بعضهم يريد شراء الأرض التابعة لي في «سيدنا حمزة». كان المبلغ الذي قدم لشراء الأرض مجزياً، لكنني مع هذا ظللت أبحث عن السبب، فعرفت بأنه قد أخفى جزءاً من القيمة لصالحه.

حاولت أن أتناسى كل ما عرفت.. وبعت الأرض عن طريقي، بعد أن حققت مبلغاً أكبر مما جعل سالم يكشر عن أنيابه ويفتعل مشاجرة صغيرة خرج على أثرها من البيت، بعد أن قال لأمي بأنه لن يعود مطلقاً إلى هذا البيت، مؤكداً بأنه لا يطيق الحياة مع امرأة، «شكاكة» لا تقدر مواهبه ولا تثق به.

«ضحكت في كمي» لكل ما قاله لأمي، فنظرت إليّ من طرف عينيها وهي مستغربة، فهززت كتفيّ بلا مبالاة ومضيت إلى غرفتي بعد أن اطمأنيت على ابني وبنتي، ووجودهما في غرفتهما مع المربية وكأن شيئاً ما يدفعني إليهما لأحيطهما بعنايتي دون ما سبب.

في زيارتي لبعض الصديقات قدر لي أن أرى عروس سالم المغربية، فتاة شقراء صغيرة.. في عيونها جرأة الشباب. لا أنكر أنها جميلة ورقيقة وتصغرني كثيراً.. قدمتها لي واحدة من معارفي، فمضيت أتحدث معها لأخرج في نهاية الحديث بأنها إلى جانب الجمال والجرأة على ضآلة في التفكير وضحالة في العلم، كانت تتحدث معي عن خصوصياتها بشيء من «العبط».

عرفت منها بأنها سبق وأن اقترنت بمغربي من العمال الذين يعملون في باريس، وأن زوجها أذاقها سوء العذاب طوال التسعة شهور التي أمضتها زوجة له.. وأنها جاءت مع أمها لأداء الفريضة، وكان نصيبها أن تقترن بإنسان من المدينة، هي التي لم تكن تفكر في هذا الأمر.

سألتها إن كانت رأت خاطبها قبل أن تقترن به، فهزت رأسها بالإيجاب،

وأن شخصيته وشكله لم يعجباها في البداية، لأن به ملامح كثيرة من زوجها، لكنه على أي حال يفضله مادياً وهذا هو ما تحتاج إليه.

بعد حديث طويل قدمت لها نفسي كزوجة لسالم! وعندما عرفت بأنها ضرتي، لم تعتذر عن الألم الذي سببته لي وقالت:

ـ خذيني أختاً لك، فأنا أعرف من سالم بأنك امرأة غنية وأنه يعتمد على إيرادك بشكل أكبر.

حاولت أن أبدو طبيعية، ووعدتها بأن أدعوها إلى بيتي، وقد بيت في نفسي أمراً.. فلقد انكشف المستور وانتهى (سالم) بالنسبة لي كزوج بعد أن وضحت لي مراميه بصورة واضحة.

خرجت من الحفل وذهني مشتت، لكنني كنت أقوى على رد الصفعة أضعافاً مضاعفة للرجل الذي تزوجته. حتى إذا ما جاء الغد جاءني صوت سالم بعد أن عرف حكاية اللقاء وهو يقول على التلفون:

ـ ها ما رأيك أليس ذوقي مناسباً؟

قلت وفي شيء من البرود:

ـ نعم!! فهي وأنت من فصيلة واحدة..

وأقفلت التلفون لأباشر مهام أولادي وأنا أنظر إليهما بحنان فهما بالنسبة لي كل شيء وهذا يكفي.

لم أكن حريصة على أن اتذكر الأيام التي أمضيتها مع سالم، بمقدار حرصي على تذكر أيام «الشيخ صالح» فهذا الرجل هو الذي أظل أذكره طوال حياتي حتى أموت.

«سهى» عندما وصلها الخبر جاءت لزيارتي، وجل همها أن تساهم في التسرية عني.. وعندما وجدتني متماسكة، طربت وفرحت وقضينا ساعات كثيرة في الحديث عن المرأة، وكيف أنها هي وحدها القادرة على إيصال الألم إلى قلب أنثى غيرها.. فلو رفضت كل أنثى الاقتران برجل جل همه الزواج بلا سبب، لما استطاع الرجل أن يصل إلى أغراضه على أكتافنا نحن السيدات.

«سهى» يومها قالت كلاماً كثيراً، تحقق أكثره بعد أن مر على زواج سالم

أكثر من عام. . فالفتاة المغربية بعد أن عرفت أنها غير قادرة على كسب ما تريد من زوجها الذي تزوجته، تركت البيت عائدة إلى أهلها ولم تعد. وأصبح سالم يضيق بعيشه بمفرده، فحاول أن يصفي موقفه معي دون أن يجد الطريق إلى ذلك. . وعندها آثر أن يضغط عليّ بأن يطلب عن طريق بعض من معارفه وأصدقائه حقه في كفالة ابنه وابنته. . فلم أسأل لكنني في الوقت نفسه حاولت أن أساومه على هذا الحق مادياً فتجاوب معي وأنهينا إجراءات الطلاق بعد أن أضفت إلى مبلغ التنازل عن الطفلين مبلغاً آخر جعله يوافق على جميع طلباتي.

يومها شعرت بأن المال هو عصب الحياة بالنسبة لأمثال زوجي، وأنه يستطيع أن يفعل الأعاجيب مع ضعاف النفوس الذين يرون بأن أفضل وسيلة إلى الوصول إليه، تمريغ كرامتهم في الوحل، كما فعل الذي قرر الرحيل عن المدينة بعد أن باع كل شيء، حياته وأولاده والمدينة التي منحته السعادة، واختار مكاناً يبعد عنها بالآف الأميال، فلم انزعج وقلت لنفسي: أو ليس من الخير لي أن أعيش بقية حياتي في سعادة مع أولادي؟ أما الزواج فقد نسيته وإن كانت أمي تحاول أن تذكرني به بين الفينة والفينة فلا ألتفت لما تقول وأذكرها بكل الذي صار في الماضي.

انخرطت بشكل أكبر في العمل الاجتماعي، وأصبح جل همي أن أقوم برسالتي في أداء هذا الواجب، لدرجة جعلتني أقدم بعضاً مما أملك من أجل هؤلاء الذين ينتظرون منا نحن السيدات خدمات اجتماعية معينة.

في قمة عملي مع الجمعيات الخيرية، كنت أحرص على المشاركة في تقديم العون لليتيمات، وأشعر بكثير من الراحة عندما يضمني مكان ما، أي مكان، مع كل هؤلاء. . وأصبحت أستقبل في صالون بيتي أيام الجمع، بعضاً من هؤلاء اللواتي أرى في عيونهن السعادة وهن يلعبن في حديقة بيتي الصغيرة.

وأصبح جل همي أن اتبضع في السوق، أحد أنواع الألعاب لأقدمها هدية لبناتي، أولم أكن أنا الأخرى يتيمة عندما بدأت مراحل حياتي اصغيرة في كتّاب البنات؟

بنتي «سهى» كانت تسأل عن صديقاتها الصغيرات دائماً عندما لا يأتين في موعدهن، وهذا السؤال منها يمنحني السعادة كل السعادة، فقد استطعت أن أغرس الحب في قلب ابنتي الصغيرة وهو ما أريده وأتمناه.

الفصل العاشر

لم يكن المال هدفي حتى عندما كنت فقيرة، لكن المثل الذي يقول المال يجلب المال كان صادقاً. هذا المثل كان واضحاً بالنسبة لي ولحياتي، وبشكل لا أنكر بأني كنت أضحي به في بعض الأحيان، وإن كان هناك كثيرون غيري يرحبون بهذا المال.

ثلاث فتيات من بنات قريتي احتفلت بزفافهن في بيتنا، أحسست وأنا أزف كل واحدة منهن إلى زوجها بأنني أزف ابنتي «سهى». ما أرفضه هو ما تقوله أمي فهي تكرر كلامها وتمضي في انتقاد تصرفاتي، وتعتبر أن ما أفعله هو تبديد لمالي وثروتي، وأنا أضحك لأنني مقتنعة بما أفعل.

ناقشتها كثيراً، وتحدثت معها عن أيام الحرمان التي عاشتها وسألتها ماذا سيكون رأيها إذا وجدت من يسدي لها المعروف في محنتها؟

أمي تجيب بأنها لا ترفض أن أقوم بمساعدة الآخرين، لكنها تعتبر بأن هناك حدوداً للمساعدة يجب أن نضعها نصب أعيننا.

أسمع كلام أمي وأضحك وأقول لها:

ـ لو حسبت ما صرفت من أجل هؤلاء الفتيات الصغيرات لوجدت ما صرفت عبارة عن مبالغ صغيرة إذا قستها بالأرباح التي تحققت عن طريق بيعي لأرضي في «العيون».

وقلت لها:

ـ إن الله يساعد من يساعد الآخرين. خمسة ملايين من

الريالات أمسكت بها في ورقة، جاءت قيمة لأرضي التي اشتريتها قبل سنوات، وبمبلغ لا أكاد أذكره.. أليس هذا هو نعمة من الله عليّ؟

أمي تقول بأن المشكلة ليست ما أصرف، وإنما هو في التعود على الصرف فجبال الكحل تفنيها الموارد! هذا هو رأيها، وأنا سعيدة برأيها ورأيي في آن واحد، أو ليست أمي؟ وإن كنت أشك في أنها ستصمت إذا ما عرفت الحقيقة، وهي أني أضفت لمهر كل واحدة منهن مصاريف تأثيث بيروت الزوجية لهؤلاء الفتيات الفقيرات.

كنت أقول لنفسي بأن كل هذا الذي أفعله لم يكن ليتيسر لي لو لم يمنحني ذلك الرجل الطبيب كل تلك الأموال التي أراها تزداد على مرور الأعوام.

سنوات عمري التي تمضي جعلتني أحس شيئاً فشيئاً بالوحدة، رغم أن ابني وابنتي يعيشان معي.

كان يثلج صدري أن أرى ابنتي صورة طيبة مني، بينما جاء صالح ممثلاً لسوءات سالم بكل نواقصها وعيوبها، حاولت أن أفرغ في فؤاده مثلي وعاداتي وتقاليدي، وتحدثت كثيراً له عن نشأتي وظروف حياتي، لكن هذا الولد الذي أراه يكبر لا تعجبني تصرفاته.

وفي الوقت الذي أصبحت فيه أخته في مراحل سنوات الثانوية العامة كان يتأرجح صالح في الصف الثالث إعدادي لأكثر من أربع سنوات، وجل همه أن يأخذ ما يريد من نقود، وأن يصرف هذه النقود على أصدقاء السوء من الفاشلين أمثاله، جل همه في الحياة أناقة في الملبس ولا شيء غير هذه الأناقة.

في نهاية العام الدراسي تسلمت شهادة صالح، ومع الشهادة خطاب من المدرسة يعلمني فيه مديرها بأن ابني صالح لم يعد له مكان في المدرسة.

أحسست بطعنة خنجر تصيب أحشائي أنا التي كنت أظن بأنني سأسعد مع هذا الابن الذي أحببته.

«سهى» قبلت كطالبة في كلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز، وأصبح جل همي أن أبحث عن الأسلوب والطريقة التي تمكن هذه الفتاة أن تصل إلى أهدافها وأهدافي.

وابتدأت أفكر في الرحيل إلى جدة. لم يكن من السهل علي أن أجد

السكن الملائم لي ولابنتي في هذه المدينة التي تكتظ بالسكان.. فظروف الحياة الاقتصادية التي تعيشها وملايين المغتربين من الوافدين الذين جاءوا للعمل فيها، لا يهيىء لي ما أريد؛ فرضيت بأن أقطن في شقة قريبة من الجامعة، وإن كانت لا تليق بنا ولا بأوضاعنا المالية، ودفعت إيجارها آلاف الريالات وأصبحت أعيش حياتي بين جدة والمدينة طوال أيام الدراسة.

في جدة ازدادت مشاكل صالح بعد أن اشتريت له سيارة لتنقلاته، وبعد أن وعدني بأنه سيعود لمذاكرة دروسه. لم أكن أظن أن هذا الولد سيصبح على ما أصبح عليه، فقد كان جل همه أن يمضي وقته في أحد الشوارع الكبيرة في «الحمراء»، يمارس «التفحيط» بسيارته مع زملاء له في مدرسته الجديدة.

من ير جدة اليوم، يشعر بأنها أصبحت مدينة كبيرة تتميز بعمرانها الجميل وأناقتها المفرطة و«كورنيشها الكبير» وهي ملتقى الملايين الذين يفدون لأداء الفريضة كل عام، كما أنها الميناء الأول للمملكة.

فترة بقائي في «جدة» منحتني الفرصة لأن أتعرف إلى كرائم الأسر فيها ممن كانت بناتها يدرسن مع ابنتي في الجامعة وهذا التعارف جعلني أمارس حياتي الاجتماعية بشكل آخر جديد أحببته كثيراً.

في جدة أصبحت أقدر على دراسة اللغة الفرنسية التي قطعت فيها شوطاً كبيراً في المدينة، وهذا الأمر أثلج صدري خصوصاً وأن حياتي فيها تمنحني الوقت لأن أشتري جميع ما أحتاجه لبيتي ولأسرتي من المراكز التجارية الكبرى التي تفوق مثيلاتها في أوروبا وغيرها.

ولما كنت في أمس الحاجة إلى بيت أملكه في هذه المدينة التي تمضي فيها ابنتي سنوات الدراسة الكثيرة، فقد قررت شراء أرض في الحمراء وبناء «فيلا» فيها على غرار الفيلل التي أراها.

ويوم بدأت في التنفيذ، عرفتني إحدى الأسر على مهندس جاوز الثلاثين سنة بسنوات من العمر كلفت مكتبه بكل هذه الإجراءات.

أكثر من عام وأنا انتظر انتهاء البناء، تخللتها زيارات كثيرة لموقع المبنى وأكثر من حديث مع هذا المهندس.

حتى إذا ما تم كل شيء لي، انتقلت وأسرتي إليها وبدأت أحس بطعم الحياة في هذه المدينة الجميلة.

أما في الصيف فقد اخترت الرحيل إلى خارج الديار بعد أن أصبحت أعرف كيف أتدبر شؤوني في أوروبا والشرق الأقصى، زرت في ذلك اليونان وتمتعت برؤية جزره وضواحيه، وشاهدت روما وآثارها القديمة، ومنها كانت زيارتنا «لجنيف».

تقابلت في «جنيف» مع الكثيرات من سكان عروس البحر جدة، وعدت إليها وأنا مشوقة للقاء كل من عرفت، وفي ذاكرتي يعيش مهرجان الزهور الذي تقيمه جنيف كل عام مع بداية شهر أغسطس.

«صالح» كان يصر عليّ بأن أشتري شقة في «لوزان»، لكنني لم أستجب لرأيه.. قلت له في صرامة:

ـ عندما تنهي دراستك الثانوية بتفوق عندها يجوز لك أن تطلب مني ما تطلب.

في «جدة» استمعت إلى حديث عابر بين صالح وأخته، خرجت منه بأن «صالح» يظن هذا المال الذي أملكه جاءني من أبيه.

ضحكت بيني وبين نفسي وأنا أستمع لابنتي وهي تذكره بأن أباها لم يكن يملك شيئاً من المال، وأن ما أخذه من مال أمهما يفوق ما صرفه عليهما.

ارتاحت نفسي لحديث ابنتي فهذه الفتاة عاقلة ومهذبة أيضاً، سألتها بيني وبينها عن سر الصراخ الذي كنت أسمعه وهي تتحدث مع أخيها، فلم تقل شيئاً بل أجابتني بشيء من الهدوء:

ـ مجرد حوار حاولت من خلاله أن أفهم أخي ما لم يفهمه.

فلم أعد اسألها مرة ثانية.

فشل صالح في الدراسة جعلني أفكر في هذا الذي يجب أن أصنعه لهذا الولد الشقي بعد أن استشرت المهندس الذي ساعدني في بناء بيتي، اقترح علي أن يعمل صالح عنده في حقل البناء لكن ابني رفض بإصرار أن يعمل أجيراً في مكتب المهندس فواجهته بما أكره أن أواجهه به وقلت له:

ـ عندك شهر واحد تفكر فيه بأسلوبك، فإما أن تقبل العمل أو تبحث عن عمل آخر!

وأمرت السائق بأن يقفل باب كاراج سيارته وأن لا يسمح له باستعمالها مطلقاً.

ومن يومها وأنا أبحث عن ابني الذي خرج ولم يعد.

حتى إذا ما طفح الكيل أبلغت البوليس بهروبه، ومع هذا فالأيام تمر ولا شيء عن صالح هذا.

وبدأت أتساءل: أتراني قد صنعت مع ابني خيراً أم شراً؟ ويأتيني الجواب بعد شهور طويلة مملة عن هذا التساؤل أقسى مما كنت أتوقع. حدثني ضابط البوليس الذي أبلغته هرب ابني بأدب قائلاً:

ـ لقد أُلقي القبض على ابنك يا سيدتي ضمن عصابة تتولى سرقة البيوت والسيارات.

وأغمي عليّ بعد سماعي للنبأ، لكنني تماسكت ومضيت أحاول أن أزوره في سجنه لكنه رفض أن يستقبلني.

ترى! لماذا رفض هذا العاق استقبال أمه؟ أهو الخجل من كل هذا الذي ارتكبه في حق نفسه وأسرته؟ أم إنه يؤاخذني على ما فعلته معه عندما طلبت من السائق إبقاء سيارته في الكراج إذا لم يصل إلى رأي في اختيار العمل الذي يناسبه؟ حاولت أن أنسى كل شيء وتصرفت كأم وبعثت لابني بكل ما يحتاجه في سجنه لكنه كان في كل مرة يرفض أن يتسلم شيئاً مني.

ويوم صدر الحكم عليه بالحد الشرعي هو ورفاقه لم أتمالك نفسي من البكاء، لكن بكائي كان أشد عندما عرفت بأنه قد انتقل إلى رحمة الله في المستشفى بعد إقامة الحد عليه وأنه خرج من هذه الدنيا إلى الأبد.

وعادت أحاديث الأمس البعيد تطل من ذهني مرة أخرى، وحكايا أمي التي قالتها عن سكان القرى في طريق المدينة، وكانوا يقتلون ويسرقون الحجاج قبل الحكم السعودي.

وفجأة لمعت في ذهني فكرة. أو يكون العرق «دساسا» بهذا الشكل؟ حتى يصبح ابني سارقاً هو الآخر؟ أم أنني أنا السبب في ما وصل إليه حاله؟ لا أدري، وإن كنت أحاول ان أنفي عن نفسي تهمة أن أكون أنا السبب فأنا أم، والأمهات يحببن دائماً أبنائهن.

الفصل الحادي عشر

لأول مرة في تاريخ حياتي أحس بالألم يكاد يعتصر فؤادي، لدرجة جعلتني أنسى كل شيء، وأتذكر فجيعتي في ابني الذي كنت أضع عليه أموالاً كثاراً ذهبت مع الريح فجأة.

كنت ألوم نفسي لأنني لم أعرف كيف أتعامل مع هذا الطفل الذي كبر حتى حدث ما حدث.. وأصبحت أعيش أكثر ساعات الليل والنهار في حوار دائم مع نفسي لدرجة أخافت «سهى» ابنتي مما أعانيه.

لكنني لم أغفر لنفسي كل هذا الذي جرى لابني، واعتبرت نفسي مسؤولة مسؤولية كاملة عنه فلو كنت قادرة على تربيته التربية المثالية لما تردى إلى ما تردى إليه. ثم لماذا تصرفت معه بعد أن منحته كل شيء بهذه الطريقة التي جعلته يهرب من البيت والأسرة وينضم إلى رفاق السوء ويصبح سارقاً ثم ينتقل إلى رحمة الله بعد إقامة حد السرقة عليه؟

ومما زاد الطين بلَّة، أن سالماً بعد أن بلغه ما بلغه جاء هو الآخر ليعنفني في عقر داري. استمعت إلى كل كلامه بهدوء ثم قلت له، وفي هدوء أيضاً.. وبعد أن فكرت كثيراً بيني وبين نفسي:

ـ لقد كنت أنت السبب في كل هذا الذي حصل لابني، فالولد دائماً سر أبيه، كما أن البنت سر أمها، ولو كنت أنت أباً صالحاً، لعرفت كيف تمارس أسلوب الأبوة الصالحة ولم تتصرف مع ولدك وابنتك بتلك الطريقة.

عرف سالم ما أعني فلم يحر جواباً، لكنه طوال بقائه في جدة،

كان يحاول أن يستعيد مكانته في بيتي مرة أخرى كزوج، لكنني رفضت وقلت له وعلى التلفون هذه المرة:

ـ دع عنك كل هذه الأوهام فأنا لا أريد أن أعيد الأيام التي مضت إلى سابق عهدها.

وأنهيت الحديث لكنه أعاد الكرة فأجبته دون تفكير:

ـ لا أريد أن أعيد أيامي معك وهذا يكفي!

وانطويت على نفسي أياماً وشهوراً..

كانت ذكرى وفاة ابني تنغص حياتي، مما اضطر ابنتي وهي التي تسلمت شهادتها الطبية أن تحملني لواحد من كبار أساتذتها في علم النفس الذي عقد لي أكثر من جلسة حاول خلالها أن يبعدني عن هذا الاكتئاب الذي أصبحت أحس به.

ولكم دهشت كثيراً وأنا أسترجع تاريخ حياتي مع الطبيب المعالج، لأجد نفسي وقد أفضيت بمكنونات صدري دون أن أترك لا شاردة ولا واردة بدون ذكر.. وكنت أظن وقد تحقق ظني، بأن إفضائي بتفاصيل حياتي على هذا النحو يمنحني الراحة وشيئاً من القوة، وأحسست أخيراً بأن بإمكاني معاودة رحلة الحياة بحلوها ومرها مرة ثانية بعد كل هذه الزيارات المتكررة لطبيبي المعالج الذي أشار عليّ بطرد الأفكار السوداء التي استقرت في باطن أعماقي.. فأنا أم.. وأمومتي تجعلني أقف بالمرصاد لكل ما من شأنه ضياع مستقبل ابنتي.

انصرفت لممارسة حياتي في هدوء، على اعتبار أن ابنتي في حاجة ماسة لي، لكنني استغربت أن يطالبني الطبيب بحزم أمري وقبول الزواج من أي إنسان مناسب إذا طلب ذلك مني.

مجرد فكرة ان أتزوج بعد أن وصلت إلى العقد الخامس لم تكن واردة في ذهني مطلقاً.

لكن ابنتي التي التقطت كلام الطبيب، أخذته قضية مسلمة ومضت تجادلني في هذا الأمر فقلت لها:

ـ الزواج يا ابنتي الآن لن يكون من نصيبي، وإنما من نصيبك أنت!

واستدارت لي ابنتي بوجهها وقالت:

ـ حتى لو كان هناك من يرغب في أن يتزوجك؟

نظرت إليها في عصبية وقلت:

ـ ومن هو هذا الذي يرغب أن يقترن بي؟

نظرت «سهى» إلى وجهي بدهشة وأحست بما يعتمل في نفسي، ففضلت أن تصمت أدباً، وعندما كررت عليها السؤال أجابت:

ـ المهندس سعيد الذي فاتحني في الأمر منذ مدة.

ـ المهندس سعيد؟

قلتها باستغراب وأكملت:

ـ لو أنجبت من الشيخ صالح لكان لي ابن يقارب سنه!

قالت «سهى»:

ـ لا يا أمي أنت تنظرين للأمر من زاويته الضيقة. انظري إلى ما يجري في العالم تجدي كثيرات ممن هن في سنك، وتزوجن من هم في سنه. لقد طلبك مني أكثر من مرة، وكنت في كل مرة أطمئنه على أنني سأختار الوقت المناسب لأنقل لك رغبته.

طلبت منها أن تقفل فمها، وتركتها وانصرفت إلى غرفتي وأنا أفكر، حتى إذا ما طالعت وجهي في المرآة أخذت أتمعن وجهي في هدوء.. وشعرت في تلك اللحظة بعوامة من الذكريات تلفني وتتلاعب بي كأمواج البحار.

لم أجد في وجهي ما يشير إلى أن السنوات التي أمضيتها قد أصابت شيئاً من نضارته، وأخذت أحسب فارق السن بيني وبينه، فوجدت أنني أكبره بسنوات لا أريد ذكرها. شعرت من حديثي مع نفسي أن الموضوع يحتل حيزاً صغيراً من تفكيري.

ابنتي تواصل هجومها عليّ وتطالبني بالموافقة وتقول بأن الحياة تقتضي منا أن لا نتنازل عن أفراحنا، وأن نتخلى عن أحزاننا وأن نصنع من أنفسنا جدراناً نحمي ما نستطيع أن نصل إليه من سعادة.

في إحدى زيارات سعيد لنا فاتحني شخصياً في الأمر.. فقلت له بأنني أكبره.. وأن زواجي منه، إذا وافقت، سيضيف أعباء كثيرة على كاهله، فأنا امرأة تقدمت بها سنوات العمر وضاعت منها فرصة الإنجاب. وهو في سن تمكنه أن يتزوج فتاة تفضلني، لكنه لم يقتنع وطلب مني أن أفكر بجدية في عرضه.

قلت له بأنني تزوجت مرتين، وأنه سيتزوج للمرة الأولى، لكنه لم يقتنع، وتركني على أمل أن نتحدث في الأمر مرة ثانية.

عندما بحثت ونقبت في حياة «سعيد»، عرفت السبب في رغبته أن يتزوج مني. «فسعيد» هذا فقد أمه وهو في شهوره الأولى، ولهذا فهو يرغب في أن يتزوج امرأة تعطيه حنان الأم الذي افتقده، وعندما قلت له ذلك ضحك ولم يعقب.

قلت له بأنها نزوة عارضة هذه التي تدفعه لأن يلح في طلبي كزوجة. لكنه كان يصر على أنه سيسعد بي.

ـ لأول مرة ذهبت إلى الطبيب النفساني بدون أن ترافقني ابنتي في هذه الزيارة، قلت للطبيب مشكلتي فضحك، وقال دون أن يفكر:

ـ وماذا في الأمر؟ أنصحك بالزواج منه ما دام هو الذي يرغب!

احترت كثيراً في كلام الطبيب، وأصبحت بعد هذه كله شبه مقتنعة بفكرة الزواج، رغم أن عقلي في بعض الأحيان يرفض الفكرة، فلا يكفي أن أفلسف الأمر على ما ذكرت، ولربما كان وراء طلب سعيد الاقتران بي شيئاً آخر. أيكون المال السبب؟وحاولت فور انطلاق هذه الفكرة وأدها في خاطري.

وأمضيت أياماً شغلني فيها التفكير في هذا الأمر عن أشياء كثيرة.. وفي يوم من الأيام وأنا أتناول الغداء مع ابنتي الطبيبة قالت «سهى»:

ـ سيزورنا في الغد الدكتور حليم زميلي.

وتضرج وجهها بحمرة الخجل، فعرفت معنى أن يزورني زميلها وقبلتها في وجنتيها وقلت لها:

ـ مبروك ومن كل قلبي..

وفي اليوم الذي يلي جاء إلى بيتنا الدكتور حليم ترافقه أمه وأخته، وامتلأت نفسي بشراً وأنا أستقبل هذه الأسرة الطيبة. .

وشعرت بأن هناك خيوطاً كثيرة تشدني إليها، تحدثت والدة الدكتور حليم بحرية وقالت ما تريد مني أن أسمعه. لم أقل شيئاً في بداية الأمر، لكنني وفي نهاية الزيارة طلبت منها فترة من الوقت للتفكير، هكذا تفعل جميع الأسر. .

بعد ثلاثة أيام حادثتني أم الدكتور حليم فأبلغتها الموافقة، وأمضينا شهوراً ثلاثة ونحن نرتب ليوم الزفاف الذي جاء على أبهى ما يكون، عقد القران، في فندق الهوليداي إن الكبير في كورنيش جدة. . أعداد كبيرة من كرائم عقيلات الأسر في جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة حضرن هذا الحفل الذي ظهرت فيه ابنتي بملابسها البيضاء كالحمامة الوديعة.

في «الكوشة» وبين زغاريد الكثيرات شعرت بدمعة ساخنة تسقط على وجنتي في صمت، عرفت ساعتها بأن ليالي الشتاء قادمة، أليس أكثرنا يصف أيام الوحدة بليالي الشتاء؟ لكنني ومع كل إحساساتي المتوترة حاولت أن أبدو وأنا ابتسم.

أمسكت ابنتي بيدي وقالت:

ـ أوتبكين يا أماه في يوم فرحتي؟

قلت:

ـ لا.

وحاولت أن أمسح بيدي آثار الدمعة الساخنة لكن ابنتي كانت أقرب إلى وجهي من يدي، فازالت آثارها بقبلة، أحسست وقعها على وجهي حتى اليوم، وانتهى الحفل لأعود إلى بيتي تسبقني إليه الخادمة الفيليبينية التي عاشت معنا أكثر من ست سنوات، حتى أجادت اللغة العربية.

في البيت لم أنم تلك الليلة بل أمضيتها وأنا أطالع صور ابنتي في «ألبومها» الذي احتفظت به من أجلي.

كانت الصور عبارة عن شريط سينمائي لحياة الصغيرة التي كبرت والتي فاجأتني في صباح اليوم الثاني بحديثها التلفوني، وهي تقول:

ـ أظنك مثلنا يا أماه لم تنامي بعد.

وانخرطنا في حديث طويل لا ينتهي وشعرت بأن النعاس أخذ يداعب عينيّ. وأخلدت إلى النوم ساعات وساعات، امتلأت خلالها نفسي بفيض زاخر من الأحلام الجميلة التي لا تنتهي، وصحوت لأجد ابنتي وزوجها في بيتي وعلى مقربة من سريري، فأكبرت تضحيتهما بسعادتهما في هذا اليوم ومجيئهما لزيارتي، وأحسست بأن ابنتي قد وفقت للشريك الذي يرعاها ويحنو عليها وعليَّ أنا إذا لزم الأمر، فرفعت يديَّ لهما داعية وهما يبتسمان في وجهي من كل قلبيهما.

الفصل الثاني عشر

الفراغ الذي عايشته طوال الشهور الستة التي أعقبت قران ابنتي أعادني للتفكير في كثير من أمور حياتي منذ أن كنت طفلة وبعد أن كبرت وتزوجت وأنجبت. كان جل همي أن اقنع هذه النفس الأمارة التي لم تطلع دائماً إلى الحياة بقلب مفتوح بأنني استطعت أن أصنع من دروب الحياة وظروفها ما يجعلني سعيدة في كثير من الأحيان وشقية في أحيان أخرى.

تفكيري المتواصل هداني لأن أبحث عن عمل املأ به فراغي ولا أدري إذا كنت صادقة مع نفسي في هذا الكلام أم أن هناك عوامل أخرى تدفعني لأن ألتقي بالمهندس سعيد.

سعيد يتصل بي دائماً ويلمح من بعيد ما سبق وطلبه مني، وأنا أحاول أن أتناسى ما يتحدث عنه.

اتصلت بالأمس بسعيد وطلبت منه أن يستعد لإنشاء مستشفى صغير للأطفال على الأرض التي اشتريتها في طريق المدينة قلت له بأن ابنتي بعد أن أصبحت دكتورة أطفال هي وزوجها، فقد وجب علي أن أقدم لهما هدية مناسبة ما دمت أملك الكثير من المال.

طلبت منه أن يبقى أمر هذا المستشفى سراً بيني وبينه.

لم تمض بضعة أسابيع حتى جاءني سامي بالخرائط والمواصفات وكل شيء في يديه.

اطلعت على ما قدمه لي من تفصيلات ووجدت من المناسب أن يضيف إلى أبنية المستشفى فيلا أنيقة لابنتي ونادي صغير للعاملين في المستشفى وافترقنا على أمل في اللقاء خصوصاً وأن رخصة البناء أصبحت في يديه.

كثرة مقابلاتي لسعيد ورؤيتي له ساعدت في إيجاد قناعات خاصة في اتجاهه ذاته خصوصاً وأني كنت أتحدث وأناقش في كثير من الأمور معه حتى إذا ما تطرق حديثنا إلى الزواج قلت له بأنني سأسمعه رأيي يوم تظهر الأعمدة الخرسانية على الأرض ويصبح من حقي إطلاع ابنتي على حقيقة المفاجأة.

خرج سعيد من بيتي فرحاً مبتهجاً وكأن الدنيا لاتسع فرحته التي بدت واضحة عى وجهه واستغربت أن يصل الأمر به إلى هذا الحد، وخفت أن يكون قد فكر في أمر الزواج مني لأسباب أخرى منها توفر المال بين يدي مثلا، صرفت النظر عن هذا الشك، وقلت لنفسي بأنني كنت مخطئة في تصوراتي فسعيد شاب ومثقف ومكتبه يدر عليه الألوف.

ابنتي وزوجها يزورانني باستمرار ويتحدثان دائماً عن رغبتهما بأن أعيش معهما فأضحك، حتى جاء ذلك اليوم الذي قال لي فيه زوج ابنتي:

ـ ما دمت ترفضين يا حماتي أن تكوني بيننا فلماذا لا تتزوجين؟

ونظرت إلى ابنتي نظرة لها معناها فأطرقت برأسها إلى الأرض وعرفت أنها قد تبادلت شيئاً من موضوعي وسعيد مع زوجها مما دلل لي على أنه يعرف خطبة سعيد لي.

واصل حليم حديثه، بعد أن مل الانتظار بأن يسمع رأيي فيما يقوله.

لكنني كنت أذكى منه فمضيت أتخابث عليه..

قلت:

ـ ومن سيتزوج حماتك وهي في هذا السن؟

قال وهو يضحك:

ـ أعرف على الأقل أن هناك إنساناً قد يرغب في هذا الأمر وهو على ما أعرف كفء وقادر.. وعلى أحر من الجمر لتسلم جوابك.

صمت وحاولت أن أنأى بنفسي عن الخوض في تفاصيل ما يريدني أن أتحدث إليه به.. فاحترم حليم صمتي ولم يقل شيئاً حتى جاء اليوم الموعود الذي دعوت فيه سعيد وابنتي وزوجها إلى الغداء.

كانت على المائدة تشكيلة جميلة لأنواع كثيرة من الأطعمة التي صنعتها

بيدي، حتى إذا ما تناولنا الغداء طلبت من الجميع الاستعداد لمغادرة البيت.

قلت لابنتي وزوجها:

ـ هناك مفاجأة أريد أن أريكما إياها.

أجابت ابنتي بعفوية:

ـ إذن فقد وافقت أخيراً على الزواج.

ونظرت إلى سعيد الذي وجدته هو الآخر يحاول أن يقلب مجموعة من الأوراق بين يديه، لكنني وبعد أن سمعت ما سمعت قلت:

ـ لا عليك يا بنيتي، كنت أريدها مفاجأة واحدة ولكن ما دمت تريدين مني أن أتزوج وتظنين أن مفاجأتي هي موافقتي على هذا الزواج، فأنا أطمأنك بأن زواجي سيكون المفاجأة الثانية.

أما المفاجأة الأولى فسترينها أنت وزوجك حالاً.

مستشفى للأطفال هدية مني إليكما في ذكرى زواجكما الأول.

قبلتني ابنتي بحب وشد زوجها على يدي ومضينا جميعاً في الطريق إلى موقع العمل لنرى البناء وقد تطاول على الأرض في ظلال جميلة تمنح المكان جمالاً وروعة.

وهناك أعلنت موافقتي على الزواج من سعيد واشترطت أن يتم هذا الزواج في أضيق الحدود بعيداً عن أي مظهر من مظاهر التكلف والفرحة.

رضي سعيد بما قلت وأكد موافقته على رغبتي، وتقبل من ابنتي وزوجها التهنئة وعلى وجهه ابتسامة ساحرة رأيتها لأول مرة تطل من بين عينيه اللتين أخذتا تلمعان وتبرقان وكأن الدنيا كلها لا تسعه من الفرحة.

حاولت أن أعرف سبب كل هذه الفرحة التي تبدو على وجهه فلم أجد تعليلاً لما رأيت وفضلت أن نعود جميعاً إلى البيت لكن سهى رفضت أن ينتهي الأمر عند هذا الحد وطلبت من زوجها إحضار المأذون الذي جاء بعد أن دعت أحد أصدقاء زوجها من الأطباء ليكون الشاهد الثاني على عقد القران.

وهكذا، أصبحت زوجة لسعيد وأنا لا أدري كيف تم كل هذا الأمر بهذه السرعة الفائقة لكنني وفي أعماق نفسي كنت أحس بالسعادة والخوف ينتابانني

في الوقت نفسه، فهذا العالم، عالم الزواج الذي أراه ينتصب أمامي وكأنني أدخل دهاليزه وردهاته لأول مرة في حياتي، يخيفني. قد يختلف الأمر بين زواجي الأول والثاني. فقد كان زوجي الأول، يكبرني بعدد من السنوات، والثاني أيضاً، أما سعيد ففارق سنوات العمر لصالحه بالإضافة إلى أنه شاب ومتعلم ومثقف درس في أكثر من جامعة أوروبية وخبر الحياة وعرف معانيها.

صحيح، قد يكون مشوار حياته منذ الطفولة لا يختلف عن مشوار حياتي، فهو يتيم عاصر الحياة بحلوها ومرها، وشق طريقه فيها بساعديه حتى امتلأت جيوبه ذهباً كما يقولون.

سعيد كان حبي الكبير الذي تفتحت عيناي وأنا في سنواتي التي أسير إلى الخمسين على وجوده بمقربة مني لدرجة لا أدري إذا كنت أنا التي أحب أم هو.

لقد أثبت هذا الزوج أنه إنسان قادر على انتزاع الحب والإعجاب والتقدير من نفسي أنا التي عشت سنوات حياتي كلها طمأنني إلى الحب الكبير الذي تنتظره كل أنثى، ولهذا كنت ولا أزال أقول بأننا نحن الحرائر قد ننتظر وننتظر طويلاً حتى نحب من نحب.

لا تقولوا عني بأنني جاحدة، فحبي لزوجي الأول شيء يغاير هذا الحب ولا ينكره. لقد احترمت ذلك الزوج الذي منحني السعادة وأنا صغيرة وأدخلني دنيا كان من الصعب على أن أصل إليها لولاه ولكن، كل ذلك لا يخيفني من أن أقول وملء قلبي بأنني أحب سعيداً الحب كله.

يقول بعض الفلاسفة إن المرأة ينضج حبها إذا ما عاش هذا الحب سنوات حياتها يطهى على نار هادئة، وأنا لا أنكر بأنني كنت راغبة في الاقتران بسعيد منذ أول يوم طلب فيه يدي، لكني إذا قلت بأنني كنت أحبه يومها أكون كاذبة، فحبي له بهذه القوة لم يأت إلا بعد عقد القران. كان أملي أن أزف إليه رغم كل ما كان يجتاحني من خوف، وهذا يكفي.. فالبعض يعتبر الخوف طريقاً لأن نجد الإنسان الذي نخاف العيش معه.

لا أود أن أتفلسف لكنها الحقائق، تطل دائماً بوجهها الأبيض لتتضح معالم الطريق كل الطريق أمامنا نحن الحرائر اللواتي نبحث عن طريقنا في خضم هذه الحياة الكبيرة، وكم أعطت الحياة وكم أخذت أيضاً من الأخريات.. ولكننا نظل دائماً في الانتظار.

الفصل الثالث عشر

لا يلد الشر إلا شراً مثله، تلك حقيقة لا يمكن أن ننكرها نحن الذين نعيش على هذه الأرض، فالحياة بحلوها مرة وليست غريبة علي أنا التي عشت سنوات الطفولة أحاول تجسيد أحلامي حتى إذا ما أصبحت على ما أنا عليه من سعادة، تحطم الهيكل على رأسي، وبدأت ظروف الواقع المر الذي تعيشه ابنتي تجعلني أفكر في أمر هذه الفتاة التي ولدت وفي فمها ملعقة من ذهب.

زوجها الطبيب الذي تزوجته عن حب لم يعد هناك مكان للحب في قلبه، قضت عليه فتاة لم أكن أظنها ولا ابنتي تظنها قادرة على أن تصنع ما صنعت.

ربما كانت هناك أسباباً أخرى أدت بزوج ابنتي إلى أن يجري وراءها، لكن.. أو يكفي الجمال وحد ليدير عقول الرجال الأذكياء لو لم تكن تلك المرأة على درجة كبيرة من المكر والدهاء.

أكثر من عامين مضيا وانقضيا، بعد أن شغلت ابنتي بالمستشفى الذي بنيته، كنت أظهر بأنني قادرة على إدخال السعادة على قلبها هي الصغيرة التي أحببت.

لم يعد لي بعد موت ابني في هذه الدنيا غيرها وزوجي، لكنني عندما أقارن بينها وبين زوجي لا أجد في إمكاني المقارنة فأنا وإن كنت أحب من كل قلبي لكنني أحبها هذه الصغيرة أكثر.

سعيد يعرف أحداث القصة وهو من جانبه يحاول أن يخفف من أعباء الصدمة على ابنتي، أفكر كثيراً في أمر هذه المسكينة التي أحبت حتى النخاع وأقارن بينها وبين غريمتها وما يمكن أن تمنحه

الجديدة له، وتفكيري في سلامة تفكيري فأنا غير قادرة على استيعاب ماحدث.

أويمكن للإنسان أن يحب أخرى ثم يقترن بها؟ وهو يعيش كل هذا الحب الذي يعتمل في نفسيهما (ابنتي وزوجها)، لكن هذه الوافدة التي جاءت من اسكتلندا استطاعت أن تكسب المعركة بهدوء.

أعجبته الممرضة الشقراء فما عاد يعرف ماذا يصنع. كانت ابنتي تراقب ما يجري في خوف لكنها لم تجرؤ أن تقول شيئاً عن هذا الذي يجري أمام عينيها وأصبح يعرفه كل المحيطين بها في المستشفى، ولقد حمل الطبيب الشاب ملابسه وخرج من بيت الزوجية إلى بيت زوجة أخرى. هالني الأمر، ولكني ولهول الفاجعة قررت أن يطلب سعيد من زوج ابنتي أن يقطع كل صلاته بنا ويترك عمله ويمضي بعد أن يمنح ابنتي الطلاق.

سعيد نفذ كل ما أطلب ورفض أن تطلب ابنتي الطلاق من زوجها على اعتبار أن ما صنعه الطبيب ربما كان نزوة، لكنني أصريت على هذا الطلب ورجوت سعيد ونحن نتناول طعام الغداء معاً ومع ابنتي أن ينهي إجراءات الطلاق بأسرع ما يمكن.

ابنتي كانت تبكي بحرقة لكنها لم تنبس ببنت شفة.

طلبت من ابنتي أن تنتقل إلى دارنا فرفضت وقالت بأن مرضاها وعملها يقضيان بأن تكون قريبة من مستشفاها. ولهذا كان انتقالي أنا وسعيد إلى بيتها ضرورة حتمتها ظروف ما تعايشه ابنتي.

في الفيلا الملحقة بالمستشفى كنت أناقش سعيد كل يوم في موضوع حياة ابنتي التي تصدعت.

سعيد كان أقدر مني على الإمساك بخيوط المشكلة، حتى إذا ما مرت الأيام ازددت يقيناً بأن ما انكسر لا يمكن أن يعود لسابق عهده فقلت:

ـ ابنتي كسرت، وهي قادرة على انتزاع مشاكلها بيديها وبمساعدتي.

الحياة في بيت ابنتي تسير في طريقها كما أن ظروف تواجدي على مقربة منها جعلني أمسك بعض الشيء بأحوال المستشفى وأمارس عملي الجديد فيه، بين إعجاب ابنتي وسعيد أيضاً.

تدهور أحوال زوج ابنتي وهروب زوجته الممرضة إلى بلادها وتخلخل عمله أبعد مرضاه عن عيادته التي اختارها مما جعله يعايش الألم فترة ثم يحاول هو وسعيد أن يعود إلى ابنتي كزوج بعد أن تلقى درساً لا ينساه في حياته، لكن ابنتي ترفض وأنا معها أرفض أرفض أيضاً.

ابنتي تقول دائماً:

- الشر يولد الشر فمن يدري كيف سأعامله في المستقبل لو قبلت عودته؟

وأنا صامتة لا أتدخل، فحياة ابنتي ملكها هي وليست ملكي أنا.

سعيد طلب مني أن أقابل زوج ابنتي فأنا لم أبخل بهذه المقابلة.

تحدثنا أنا وهو وسعيد حديثاً طويلاً اعترف فيه بغلطته التي ارتكبها عرفت جميع جوانب المشكلة وفهمت بأن زوج ابنتي لم يكن مهيئاً لارتكاب هذه الغلطة لو حاولت سهى أن تعيده إلى صوابه، وعدت زوج ابنتي بأن أتحدث لسهى عن هذا الأمر، لكن سهى رفضت حتى مجرد الكلام مع زوجها وقالت:

- تلك حياتي يا أمي دعيني أمارسها كما أرغب. لست صغيرة. فأنا قادرة على رعاية شؤوني، يكفيني أنك علمتني كيف اعيش.

وتابعت قولها:

- الزواج يا أماه قسمة ونصيب وسأرضى بما أراده الله لي وهذا يكفي.

وتمضي بي الأيام، لا جديد يمكن أن أضيفه إلى كل هذا الذي كتبت، ظروف حياتي تسير على ما أرغب، لكن مرارة ما فعله زوج ابنتي تحرمني من أن أواجه السعادة وأنا أرى ابنتي التي أحب على هذا الحال.

الأيام التالية منحتني ما يثلج الصدر لكنني لا أدري لماذا ترفض هذه الصغيرة الزواج. كنت كمن يعايش الفرح والألم في وقت واحد وكنت أحس بمشكلة ابنتي وهي تتفاقم دون حل، أشعر عندما أطالع صفحة وجه ابنتي وكأنني طير مذبوح، فهل قدر لهذه الفتاة الصغيرة أن تعايش الحسرة على ما ضاع من أيام حياتها أم إن في جعبة الأيام القادمة ما يعيد لهذا الوجه نضارته؟

لا أدري! ولا أود أن أفكر أكثر في هذا الأمر، فلقد أصبحت كريشة في مهب الريح رغم مظاهر السعادة التي يحيطني بها سعيد زوجي الذي أكبره.

ألست أنا أيضاً إنسانة أريد أنت اعيش أم أن مظاهر الأمومة في نفسي تطغى على كل ماعداها؟

وتطل الذكريات. . ذكريات الأمس واليوم والغد الذي أرمق.

وتمتد يدي إلى أقرب حوض من أحواض الزهور لألثم في حب تراب الأرض التي أحببت، فللأرض رائحة لا يعرفها إلا من أحبها، وأنا أحب هذه الأرض من كل قلبي.

ومع هذا، أجدني وأجد نفسي على شيء من الحيرة. فسعيد لم يعد هو الآخر كما عرفت. بدأت صورته هو الآخر في نفسي تهتز وترتعش. ربما أكون صادقة وربما هي مجرد أوهام. فقد بدأ الفأر يلعب في عبي عندما طلب مني سعيد توكيلاً يدير به شؤوني لم أقبل ولم أرفض وأخذت أتحدث لابنتي التي قالت لي وفي هدوء:

ـ لا يا أماه. . لا تفعلي ذلك. دعينا نمضي في حياتنا بأسلوبنا بعيداً عن المخاطرة. .

قلت لها:

ـ أتراك تشكين في نوايا سعيد؟

قالت وفي نفس الهدوء:

ـ الشك ورثته من ذلك اليوم الذي فعل زوجي ما فعل. الرجال يا أماه لا يؤمنون.

ضحكت وقلت لها بأنها أصبحت عجوزة مثلي تهتم بما يقال من أمثال. . لكنها لم تضحك وبدأت أفكر وأتصور مواقف سعيد الأخيرة لأجد نفسي أشك أنا الأخرى في وجاهة ما طلبه زوجي لكنني لم أبد أي انفعال ومضيت في حياتي معه بعد أن تناسيت مطلبه حتى إذا ما عاود الكرة معي مرة ثانية قلت وأنا انظر إلى وجهه:

ـ دع ذلك للأيام فهي كفيلة بأن تجعلني أقرر ما يفيدني وابنتي يا سعيد.

الفصل الرابع عشر

كثيراً ما يفقد الإنسان الرغبة والاهتمام بما يجري في هذه الدنيا حوله.. وتبدو الحياة بالنسبة إليه أشبه بخرابة أكل عليها الزمان وشرب بعد أن هجرها الناس، كل الناس.

كل شيء في ذهني أصبح مشوشاً ومضطرباً، لدرجة خفت معها أن تكون عاطفتي، وأنا القروية التي عاصرت الحياة بأحلامها وأمانيها، هذه العاطفة قد نضبت أو تحجرت، ربما كان ذلك جائزاً وممكناً.. لكن الأمر يختلف كثيراً بالنسبة لابنتي.

مسحة الحزن التي أخذت تلازم وجهي ووجه ابنتي، تكبر مساحاتها على وجهي، وتطل من بين عينيَّ بشكل واضح ومزعج فلا شيء يمكن أن يعيد البهجة إلى نفسي.

وتمر بي الذكريات، أنا التي عشت في هذه الدنيا بين مد وجزر، وخوف وخجل بعد أن امتحنتني الدنيا ومنحتني المال والحب والسعادة.

لا شيء يثير في نفسي الاهتمام، فقد توقفت مسيرة الحياة بالنسبة لي، وخف وجيب قلبي، وأنا في موقعي أدور على نفسي أكثر من دورة في كل يوم؛ وتوقف عقلي عن التفكير واليقظة، لكن شيئاً ما يجعلني أتطلع إلى الغد رغم كل هذا الذي قلت، وإن كنت لا أدري عنه شيئاً.

قد تطهر قلوبنا الأحزان، وقد تقضي علينا أفراحنا، لكن إصرارنا على الوجود، ومواكبة مسيرة الزمن، هي التي تجعلني أسعى لأقف على قدميَّ ما دامت هذه الصغيرة بجانبي، فكثيراً ما تحمل قلوبنا هموماً كالجبال، وأحزاناً لا تهدأ، ومع هذا نواصل

مسيرة النضال وقلوبنا تدمى، وعيوننا لا تهدأ من البكاء!

ربما كان هذا الإنسان الذي يبدو وهو في قمة السعادة قادراً على احتواء الألم، أكثر من ذلك الذي عاصر الألم وعاشره وصادقه ربما!

صحراء اليأس تبدو أمام عيني قاحلة ناضجة، تملأ قيعانها الأشواك وتهدد طرقاتها الحفر وأنا من أنا! أنا التي أدمت مسيرة الأحزان قدميها دون أن تكل أو حتى تتعب، ربما لأن هناك أمانيّ تعشعش في الأعماق، تدرأ كل هذه الأخطار وتحاول الالتفاف بها.

موت «سعيد» هز كياني فلم أدر ما أصنع. كان بالنسبة لي كل شيء في زحام هذه الحياة، لكن الحياة كثيراً ما لا ترحم، أصابني في قلبي بحسرة فراق هذا الزوج الذي ذهب ضحية نزق شاب. تصورته وهو ينطلق بسيارته نحونا.. كالصاروخ ونحن في طريقنا إلى بيتنا في الحمراء. حاولت أن أنبه «سعيد» إلى ما يجري، لكن الصدمة كانت أقوى من أن أتحملها، ويمضي بعض من الوقت، لأجد نفسي في النهاية في سرير أبيض أنيق في مستشفى ابنتي.

سألت «سهى» عن سعيد. لم تقل شيئاً، لكن مسحة الألم التي شاهدتها على وجهها أنبأتني بنذير العاصفة.

مات «سعيد» وأنا بين الشك واليقين حول أهداف هذا الرجل، هل تزوجني وأنا التي أكبره لأنه أحبني ولأنه كان في حاجة إليّ، أم إن هناك أسباباً أخرى؟ لا أستطيع أن أؤكد ما كان يدور في خلدي في الأيام الأخيرة من هذا الموضوع ولا أملك أن أنفيه. يكفي أن روحه ذهبت إلى بارئها، وأصبحت أنا وابنتي بلا رجل. وتصورت الأمس وكأنه يطل عليَّ من بعيد، رأيت بعين خيالي صورة «بيبي فاطمة» و«خوجة هانم»، ورأيت نفسي أنا وابنتي في مكانهما.

هل قدر لي أن أعاود رحلة الحياة من نقطة البداية؟ تلك ظروف الأمس آمل أن تذهب ولا تعود، لكنني وجدتها فجأة أمامي بقضها وقضيضها وكأن الأمس قد عاد في صورة جديدة.

ذهب آخر الضحايا مضرجاً بدمائه، وبقيت أنا، وكنت أتمنى أن يبقى رفيق دربي مع ابنتي يرعاها ويكلأها، أليست هي بمثابة الابنة له؟ ولكن لا أود أن استمر في شكوكي حول الذي ذهب! يكفيني أنني أمضيت معه أياماً طيبة.

وبدأت أحس بفراغ الحياة وخوائها بعد خروجي من المستشفى، فهذا

المال الذي بين يديّ زاده زوجي الذي ذهب ولم ينقصه.

ومع كل هذه الآلام التي أحس بها تتفاعل في أعماقي، تجدني مشدودة برباط وثيق، فلا شيء يمنع أن اظل أحب وأحب واحب! ذلك الذي ذهب ولن يعود!

«سهى» ابنتي هي التي أصبحت أعيش لأجلها اليوم، فأمرها يهمني لدرجة كبيرة. ابنتي هذه أصبحت كالشمعة التي تحترق لتمنح مرضاها الحب والحنان، وتتفانى في خدمتهم ليل نهار، ولقد دعوت الله لها من أعماقي بالتوفيق، فلو لم تكن طبيبة وتصرف جل وقتها مع هؤلاء الذين يحبونها بقلوبهم لضاعت وتاهت!

أعرف أن الأيام لا يمكن أن تظل على وتيرة واحدة! فهي كما أعطت تأخذ، وكما منحت تشح.

كثيرون هم الذين توافدوا مرات ومرات، يطلبون يد هذه الفتاة التي صنعت بينها وبين الزواج حائطاً مسدوداً، رغم كل ما أقول، ومع هذا تظل صامتة لا تجيب على ما أتحدث به معها.. وكأنها تريد أن تشعرني بأن أصمت أنا، فأضطر لأن أصمت. الإنسان هذا الذي يتطاول برأسه في الفضاء لا تقف أمام تفكيره حدود، يدمي قلبه ويحرك عواطفه ما يحيط به من أحداث، وكأنه ريشة تتقاذفها الأنواء هنا وهناك.

هكذا أعيش، وتعيش معي ابنتي، في ظل من الحب والحنان يربط بين قلبينا ويتواصل عطاؤه إلى آخر مدى وكأن الغد قد أصبح جزءاً من الماضي. لا شيء يمكن أن يدفع إلى قلبينا بالدفء الذي أرغب، لكنني عندما أتذكر الماضي وأتحدث عنه، أشعر بأن ابنتي تنصت لكلامي في هدوء وكأنها تستجمع شتات أفكارها لتحيط بدقائق حياتي التي مضت.

قلت لها بأن علينا أن نناضل في هذه الحياة، وأعدت عليها نظرتي بأن لا شيء يمنع أن تتفاعل مع الحب، فالحب مصدر سعادتنا نحن الذين نعيش على الأرض.

وتمضي بي الأيام وهي تسير على وتيرة واحدة، لكن بعضها يجعلني أضحك ومن كل قلبي.. فطلبات الزواج مني أصبحت تصلني تباعاً وأنا أرفض.

حاولت أن أفهم معاني الرغبة في الاقتران بي، فلم أحر جواباً لكل هذه الأفكار، إلا إذا كان رائد بعضهم هذا المال الذي أصبح عنصراً تافهاً في حياتي!

في بعض الأحيان عندما أتناقش مع ابنتي أقول لها:

ـ صدقيني فالزواج ضروري لمن كان في مثل سنك.. أما بالنسبة إلي فذاك

أمر لم يعد له وجود.

الحياة يا ابنتي تطلب منا أن نترك شيئاً يعايشها، وهذا لا يتسنى بدون أن تتزوجي وتنجبي.

أمضيت سنوات وسنوات، ونحن نعايش الألم، أنا وهي، على حد سواء، لكنني مع كل هذا الألم أجد نفسي قادرة على متابعة الحركة على أوسع نطاق، فالذين يعملون يجدون لأعمالهم أصداء بلا شك.

ويأتي ذلك اليوم الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر، لأجد «سهى» تتحدث لي وهي تنظر في أوراق كثيرة في يدها تقلبها ذات اليمين وذات اليسار، وكأنها مشغولة بأمر هام لا تدري كيف تبدأه وبإحساس الأم. قلت لها:

ـ أعرف ما تريدين!

فقالت:

ـ أتعنين أنه زارك؟

ابتسمت من كل قلبي وقلت:

ـ ليس بعد، لكنه سيزورني بلا شك..

ولمعت الفرحة في عينيها وعرفت أنها مقدمة على الزواج بعد أن اختار عقلها وفكرها شريك حياتها.

أخذت أسأل وهي تجيب، حتى إذا ما انهت حديثها قلت لها:

ـ مبروك. سأنتظر الدكتور «خالد» غداً مع أسرته.

وكان يوماً لا زلت أذكره عن غيره من بقية الأيام، فهو بداية الحياة بالنسبة لي ولابنتي بعد أن كبرت. وأحسست وأنا أرى الدكتور «خالد» بقامته المديدة، ووجهه الوقور أنه يلامس شغاف قلبي فلم أنتظر حديثه، بل أبديت له موافقتي وأنا أكاد أطير من الفرحة.

نظرت في وجهه، ثم في وجه ابنتي، فوجدت أن ما يشدني إلى هذا الرجل يجعلني أسرع بإجراء مراسم القران.. وقد فعلت، وبدأت ابنتي بعد ذلك حياة جديدة، وبدأت أنا معها نفس الحياة وبعدها ابنتي نسيت من خلالها كل آلام الماضي وارتاحت نفسي لرؤية الابتسامة وهي تطل على وجهها الأنيق، ثم ذهبت تلك الأيام السوداء وآمل أن لا تعود!

الفصل الأخير

وتمضي الأيام..

لا جديد يمكن أن أضيفه إلى القديم القديم.. ربما لأن سنوات الشيخوخة بالنسبة للإنسان قد تبهت معالم كل شيء في هذه الحياة.

بعض الناس يقولون بأن الملل يتسرب إلى عروق الإنسان في سنوات الشيخوخة ليجعلها قادرة على استيعاب الظروف بأسلوب أفضل من ذلك الأسلوب الذي كانت تمارسه في سنوات الشباب وهذا في رأيي مدعاة هو الآخر لأن يعكر الناس في أحوالهم المعيشية في ضوء ممارساتهم لها.

كثيراً ما كنت أخلد إلى التفكير في أمور كثيرة، لأجد نفسي في نهاية المطاف وقد تسمرت عيناي في سقف غرفتي، أرمق كل تلك الصور التي شاخت وهي تبدو مرة ثانية تطفو على السطح لتمنحني بعضاً من الراحة والهدوء حيناً، وتنفث في عروقي سموم الألم من زيف هذه الدنيا ومشاكلها حيناً آخر!

لكن لا شيء يهم، ما دام الإنسان قد استطاع أن يصل إلى شيخوخته وهو ممتلك لحواسه، قادر على تجميع أفكاره.

تلك منة من الله سبحانه وتعالى عليَّ شهدتها وهي ترافقني، وأراها اليوم تطل مرة أخرى أمام شيخوختي بهدوء واتزان.

بيتنا امتلأت غرفه بأطفال ابنتي.. وأصبحت أميل كثيراً لقضاء أكثر أوقاتي مع «منى» «ومي».. و«غادة» و«صخر» و«سحر». كنت أمثل دور الجدة بإتقان واضح. كل هؤلاء الأطفال متعة لي أنا

العجوز التي أصبح همها الحديث.. فحكايات الجدات دائماً تظل رصيداً لا يفنى، يعايش حياتنا ويظل معنا حتى أواخر العمر..

تلك حقيقة عرفتها لهذا وجدت من المناسب لي أن أقوم بهذا الدور عن حب ورغبة لدرجة جعلت أطفال ابنتي يتعلقون بي ولا ينامون حتى يستمعوا إلى حكاياتي التي كنت أحاول عن طريقها أن أزرع الأمل في نفوسهم، وأطلعهم على أجواء حياتي بأسلوب صغير مبسط.

ابنتي تمتدح قدرتي على مخاطبة هؤلاء الصغار من جهة، وقدرتي أيضاً على اختزان الملامح والصور التي مرت بحياتي وحياتها، وكل من عايشني طوال تلك السنوات.

صدقوني عندما أقول لكم بأنني لم أفتقد أمي عندما ماتت بالدرجة التي كنت أظن، لا لأنني لا أحب تلك السيدة، وإنما لأنها غابت في سنواتها الأخيرة عن ناظري، واكتفت بزيارتنا بين الحين والحين، مفضلة البقاء في «فيلتي» بسيدي حمزة.

بكيت عليها كثيراً وأنا أشيعها إلى مثواها الأخير، ثم نسيت الأمر وأصبحت بعض صور حياتها بالنسبة لي باهتة بعض الشيء.

قلت لابنتي عن كل ما أحس، ورجوتها أن لا تصبح مثلي فتنساني عندما أذهب! فقالت وفي هدوء:

ـ بعد عمر طويل أولاً، ثم أحب أن أقول لك بأن ظروف حياة الجدة بالنسبة لك كانت مغايرة لظروف حياتك معنا.. لقد كنت الأصل بالنسبة لها ولنا، ولهذا كيف ينسى الناس أحوالهم مهما كان السبب؟

هدأت نفسي بعض الشيء لحديثها، ومضيت أجتر السعادة من خلال وجه هذه الابنة وأطفالها الذين أحببتهم وأحبوني.

في أحد الأيام سجلت لي «منى» جزءاً من حكاياتي لها على أحد المسجلات وأسمعت أباها بعض ما قلت.

قالت ابنتي وهي تنظر في وجهي:

ـ ترى! لماذا لا تكتبين يا أماه قصة حياتك بما فيها من صور؟

لم أرد بادىء ذي بدء، وإن راقت لي الفكرة وأخذت أعد نفسي لكتابة هذه الرواية بعد تفكير عميق.

لا أدري، ربما كانت هناك قصص تفضل حكايتي مع الزمن، لكنها وأعني ـ حكايتي ـ لا بد وأن تأخذ طريقها إلى أذهان الناس بكل ما فيها من حلاوة وطرافة وألم.

الإنسان يعيش في هذه الحياة لغاية قد تختلف غاية أحدنا عن الآخر، لكننا في نهاية المطاف نجمع أمرنا على أن غايتنا التي وضعناها نصب أعيننا والتي تحققت أو لم تتحقق لا بد وأنها الهدف.

عندما كنت طفلة لا أنكر بأنني كنت أحلم، لكن أحلامي لم تكن على ذلك المستوى الذي وجدته، وإن كانت قد اختلفت صور هذه الأحلام في نفسي بعد أن كبرت..

كم من الناس وجدوا الأشواك باستمرار في طريقهم! وكم من الناس ولد وفي فمه ملعقة من ذهب لكن هذه الملعقة اختفت عندما كبر.

الحياة هي الحياة، والناس هم الناس في كل زمان ومكان، لكن أجمل ما أبتغيه في حياتي هذا الأمل الذي تحقق على كل ركن من أركان جزيرتي.

لشد ما تغيرت الأحوال! عندما أتحدث إلى أحفادي عن الماضي أشعر بالاستغراب يبدو في عيونهم! فهم يعيشون حياة مغايرة لحياتنا كل شيء في حياتنا أصبح شيئاً أجمل ولكن هل يعرف كل هؤلاء الأحفاد كل هذه الحقائق؟

أستطيع أن أؤكد بأن الكثيرين من الصغار لا يعرفون شيئاً عن معاناتنا يوم كنا صغاراً لأن النقلة الحضارية التي تمت على أرضنا كانت بحجم أكبر يختلف عن أحجام أية نقلة حصلت وعلى أي أرض.

ابنتي تضحك عندما يتحدث إليها أبناؤها ويقولون:

ـ جدتي صاحبة خيال خصب.

لكنها لا تصمت؛ بل تبدأ في معالجة الأمر مع هؤلاء الأطفال بأسلوبها، فهي فتاة متعلمة، وتعرف كيف ترسخ معاني ما قلت في أذهان أبنائها.

عندما يكبر الإنسان أو يشيخ، وينسى هواياته التي عرف؛ يبدأ في تذوق

الطعام بلذة. كنت من هذا النوع الذي لم يكن يهتم كثيراً بما يأكل، لكنني وبعد أن كبرت أصبح جل همي بقاء الساعات في المطبخ.

ولقد أدركت سحر هذا الوقوف الذي كنت أفضله، بدعوى أنني حريصة على هؤلاء الأطفال. الحقيقة يزيد نهم الإنسان للطعام، ويصبح ذواقة عندما يشيخ.

أمراض الشيخوخة كانت بي حانية، فتفكيري لا يزال كما هو، وإن أصابت قدميّ بعض العلل لدرجة جعلتني أستخدم في تنقلاتي عربة من هذه العربات التي يستخدمها المعوقون، كنت أضيق بها بادىء ذي بدء، لكنني في النهاية عرفت بأنني في أمس الحاجة إليها.

يوم طلبت من ابنتي أن تسمح لي بأخذ الأطفال في الإجازة لأمضيها معهم في بيتنا في «قباء» لم ترفض. كانت تلك الأيام من أجمل أيام حياتي، لأنني أمضيتها متنقلة في كل زاوية من زوايا هذه المدينة التي أحببتها، ومن كل قلبي. فهذه الأرض التي استطاعت أن تهب النور للعالم، هي التي تمنح العالم اليوم مقومات الأمن والسلام.

الذكريات كثيرة، وسنوات العمر تمضي أشبه بقنديل زيت شحب ضوؤه. يكفيني أنني أكتب وأكتب وأكتب.. ولا أدري لمن أكتب، لكنها هوايتي التي أضيفها لهواية الأكل..!

أجد عندما أكتب الراحة، وأنظر إلى كل هؤلاء الأطفال بحب؛ أرى حبي لهم يفوق كل حب، فلا شيء يمنع الحب على هذه الأرض ما دام الإنسان موجوداً على ظهرها، هذا الإنسان الذي استطاع أن يبني على كل ركن من أركان جزيرتي معالم حضارة ترتبط بأصولها وجذورها حضارة الأمس، يوم خرج الأجداد يمنحون العالم الحياة المثلى التي أرادها الله.

وتواكب حركتي الدائبة كل ما أراه في هذه الدنيا، فالحياة جديرة بأن نعيشها ونعايشها كما نحب..

تلك صفة التصقت بي منذ كنت طفلة، وحتى بعد أن كبرت، وستظل لاصقة بابنتي وبكل طفل يولد على هذه الأرض، الأرض الطيبة المعطاء التي أحببناها من كل قلوبنا، والتي منحتنا السعادة لنعيش على جبالها، ووديانها

وهضابها وجبالها، نرمق الأفق نظرات راضية لا تقف أمامها ولا تحول دونها الحدود.

لن أقول كلمة وداع.. فالحياة يجب أن تستمر وعطاؤها يجب أن يظل، ووجوه هؤلاء الأطفال الذين يولدون كل ثانية هم المستقبل. وضياء المستقبل يجب أن يعيش ليستمد نوره من ذلك الماضي، الماضي السعيد الذي عاشه الأجداد يوم كانوا ملء القلب والبصر.

وتستوقفني لحظات من السعادة أطلت فجأة من بين عيني.

ترى..! لماذا تظل مثل هذه اللحظات مختبئة في تجاويف القلب تنتظر أن تطل؟

ربما لأن الإنسان هذا المعلوم المجهول الذي يجري على قدمه في سباق دائم، يريد أن يلتقط أنفاسه بين الفينة والفينة، وهو يعرف بأن عمره على هذه الأرض قصير.. وقصير جداً!

ثم بعد هذا كله. أليس من حقي أن يصبح هاجسي الأول هم الذين سيقرأون تجربة فتاة قروية، شاءت ظروفها أن تسعد حيناً وأن تأسى أحياناً أخرى؟

من هم هؤلاء؟ لست أدري! لكنهم كلهم أحبائي....

أنت دائماً

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



- وهكذا تزوجت فاتن
- لم تعد من نصيبه
- ويعيد التاريخ نفسه
- سهى فتاة لا تتكرر
- أوهام امرأة
- الحب يأتي بالعشرة
- عندما يمرض الطبيب
- أنت دائماً
- رجل سعيد سعيد
- حماقة صغيرة



وهكذا تزوجت فاتن

تردد في أعماقي أصوات الماضي وعبقه الذي عشته فيه فعلى الرغم من أنني لم أكن في سن يسمح لي أن أتعرف إلى جوانب كثيرة من الحياة التي عشتها هناك على ضفاف الصقيع، إلا أنني أعرف جيداً بأن في كثرة معاشرتي للكبار بحكم أن أبي كان من ذلك النوع الذي يهمه أن يرعى تطور عقول أبنائه فحرص على أن يصحبهم معه في كل روحاته وعوداته بعد بدء الإجازة المدرسية.

أنا وأخي نحمل صفات متشابهة وكأننا توأمان جئنا سوياً وفي بطن واحدة ووقت واحد لولا أنه يكبرني بخمسة عشر عاماً ساعده ذلك على أن ينفذ بجلده من هذه المراقبة الذاتية التي كان يفرضها الوالد والتي كان يراها قيداً يلهب معصمه بينما لم أكن أنا كذلك. لا أدري ما السبب لكن سفر أخي إلى أمريكا لإكمال تعليمه جنبه كل تلك الأمور التي كان يعتقد أنها مضايقات.

فهو من طينه يرى في الانطلاق من فقد رقابة الوالد الأفضل لما كان في سنه. ورغم أن أخي من المتفوقين إلا أن هروبه من جلسات أبي والكبار جعل أبي يحقد بعض الشيء عليه.

أما أنا فكنت أرى المسألة مغايرة لكل تلك الآراء التي يحملها أخي فأنا من أولئك الناس الذين يهمهم أن يأخذوا المعرفة من أفواه الكبار وكان تواجدي في مجالس أبي وسيلة جيدة لأن أصل إلى ما أرغب لذلك تجدني أعود بذاكرتي دائماً إلى الماضي وعبقه أمارس من خلاله هوايتي في فلسفة الواقع من خلال ذلك.

الحياة كما يقولون جميلة وأجمل ما فيها أن نعايشها على

علاتها فهي ليست دائماً كما نريد وليست دائماً وفق ما نرغب بل أحياناً تحاول أن تتدلل علينا ودلالها هذا قد يخلق بعض الضيق والحنق عند البعض أما الذين عايشوا الصبر وفهموا إلى أين سيصل مثلي عندما يكبر فهؤلاء لا يضيقون بما تأتي به الحياة وإنما يفلسفون كل ذلك بلغاتهم التي يجيدونها.

عندما ماتت أمي انزعجنا جميعاً وفي مقدمتهم أبي لكنه بعد شهور ستة اقترن بامرأة أصغر من أمي اخترتها برغبتي أماً رغم كل طيبتها وسلبياتها. أما أخي فقد كان عندما يأتي في الإجازة ويعيش معها وأبي ومعي في البيت فكان شيئاً آخر حتى إنه لا يطيق النظر إلى وجهها ويصر على أن يوغر صدر أبي ليأخذ الجانب الآخر ضدها حتى وإن كانت هي على حق.

للمرأة التي تزوجها أبي ابنة تعيش مع أمها في بيتهما الصغير. فاتن تزورنا بين الفينة والفينة وهي أكبر مني وأنضج لذلك كنت أسر عندما أراها تداعبني وتمسك خدي بيدها وكأنها أم تهدهد طفلها الوحيد. أخي يحاسبني على هذا التصرف ويقول عني أشياء تضحكني رغم صغر سني فهو يتهمني بأنني لا أحب أمي ولو كنت أحبها لما رضيت لأبي أن يتزوج وحتى إذا تزوج فقد كان واجبي أن لا أتخذها أماً.

رغم صغر سني فقد كنت أجيب أخي بكلمات كان يعتبرها كلمات مجنونة قلت له مرة:

ـ أمي ماتت وأبي هو الذي يعيش فهل من مصلحتي أو مصلحتك أن نرفض تصرفاته إذا رأى أن يتزوج؟ ثم إذا هو لم يتزوج وبقي هكذا فمن الذي سيرعى هذا البيت وأبي كما تعرف رجل أعمال مشغول بتجارته؟ ثم لا يكفي أنه اختار امرأة قد تعدت سنوات الإنجاب حتى لا يشاركنا أحداً في ثروته وحبه بعد عمر طويل..

أخي لا يجيب وإنما ينظر لي بقهر ويحاول أن يتهرب مني ومن الإجابة عن تساؤلاتي ومن الأم الجديدة ومن فاتن ابنة زوجة أبي.

فاتن كانت تسألني دائماً عن السبب الذي يجعل أخي يهرب من لقائها وهل في وجهها ما يخيف وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا يصر أخي على أن لا يشاركنا الكلام عندما تأتي لزيارة أمها؟

في بادىء الأمر كانت أسئلة طارئة أجيب عنها بما تيسر لكنها وبعد أن أخذت منحى آخر عرفت بأن دلال تعشق أخي وتحبه وتتمنى أن يحبها هو الآخر.

في يوم من الأيام سألتني فاتن وهي تفرد شعرها الكستنائي الطويل فتنظر إلى المرآة تارة وإلي تارة أخرى:

ـ ما رأيك ألست جميلة؟

أجبتها بهزة من رأسي بنعم، ثم عادت تسألني عن رأيي في طول شعرها وإنها تفكر في قصه.

قلت لها دون وعي:

ـ لا.

فضحكت ثم نظرت إلي وقالت:

ـ لماذا؟

قلت:

ـ لأني لا أحب الفتاة التي تجز شعرها وأشعر بأنها ستصبح كالماعز التي كنا نجز شعرها في الصيف في بستاننا الصغير.

تضحك فاتن من كل قلبها وتمارس معي أنواع الدلال وكأني أخوها الصغير. وأنا أحب هذا النوع من الدلال من فتاة جميلة أشعر بأنها تحبني كأختي.

في إحدى المرات دخلت عليها غرفتها وهي تمشط شعرها الطويل وتهذبه بأسلوب أحسست فيه بأن هذه الفتاة أكبر من عمرها وأن وراء كل هذا الاهتمام بشعرها أمر آخر لا بد وأن أعرفه. وكانت تنظر إلى المرآة وبجانبها صورة صغيرة التقطتها من أحد الألبومات كنت أظنها صورتي لكني عندما دققت النظر عرفت أنها لأخي، وعندها عرفت سبب اهتمامها بشعرها وأنوثتها. حاولت أن أفهمها بأنني لم أر شيئاً. ضحكت دلال وأمسكت بشحمة أذني وقرصتها مداعبة وقالت:

ـ يا شيطان أنت تعرف أن هذه الصورة لأخيك فلماذا تتجاهل ما رأيت؟

ثم ما رأيك، أليس أخوك وسيم بما فيه الكفاية حتى تشغف به حباً فتاة مثلي؟
قلت:

ـ لأنك لم تسأليني لمن هذه الصورة ولو سألتني لقلت لك. .

نظرت إلى وجهها فرأيته شاحباً بعد أن اختفت تلك الابتسامة التي كانت على شفتيها وقالت:

ـ لماذا يصر أخوك على أن يتجاهل وجودي ويرفض أن يتعامل معي؟
قلت بشقاوة:

ـ حظه سيّىء ولو كنت في سنه لتزوجتك في الحال.

انفرجت أساريرها وضحكت وحاولت أن تمسك بيدي لكني هربت فجرت ورائي وأنا أحاور وأداور حتى تعبت فألقت بجسدها على أول كرسي.

في تلك اللحظة شعرت حقيقة بجمال هذه الفتاة الساحر. كانت أشبه بملاك صغير يسترخي بعد عناء يوم كبير.

في وجهها فتنة تكاد تلمع كالنجم الصغير البعيد وهو يقبع في مكانه يومض بين الفينة والفينة على ثغرها تبدو شبه ابتسامة دائمة تراها من جميع الزوايا وكأن هذه الابتسامة هي لك وحدك.

قلت لنفسي: حقاً ما أجمل هذه الفتاة ولكن. ولكن لماذا، لماذا لا يلتفت لها أخي؟ ثم وما ذنبها إذا كانت أمها تزوجت أبي؟ ثم ما ذنب أمها إذا هي الأخرى رضيت أن تكون زوجة لأبي؟ فالمرأة والرجل في حاجة للزواج فهذه سنة الحياة وقد ماتت أمي ومات أبوها وهكذا كانت أمها من نصيب أبي وأبي بها قانع.

غريب أمر هذه المرأة ففاتن هذه الفتاة التي أراها جميلة وتستحق الالتفات يجري وراء الاقتران بها عدد من الشباب في مقدمتهم ابن جارنا الشيخ حامد الذي تقدم لأبي لخطبتها لابنه. أبي عرض الأمر على أمها التي عرضته هي الأخرى بنفسها عليها. . أتعرفون ماذا كان ردها؟ قالت بشيء من العصبية:

ـ إنه لا يناسبني.

خليل هذا ابن الشيخ حامد طبيب ناجح يعمل في عيادته التي أسسها له

أبوه والتي تعتبر من أفضل المجمعات الطبية في جدة التي تميزت بوجود مجموعة من كبار الأطباء الذين اختارهم خليل من بين أساتذته ومدرسيه ليشاركوه العمل.

هذه واحدة أما الثانية، فقد خطبها سعيد ابن خالها الذي رفضته بإباء وشمم دون أن تذكر السبب.

عندما عرفت كل هذه الأمور أدركت أن المرأة دائماً تجري وراء الذي لا يسأل عنها وتترك كل من يرغب فيها إذا صح هذا التعبير. ولما سألتها عن سبب رفضها لكل هؤلاء الخطاب لم تجب وإنما نظرت لي وقالت وهي تضحك:

ـ لأنني أنتظرك حتى تكبر.

فالمرأة عندما تجري وراء المستحيل فهي تساير طبيعتها المشاكسة وهي دائماً هكذا تمنح قلبها لمن تحب وترفض من أحبها. أخي عرف كامل الحكاية مني لكنه مدمن على الرفض. لماذا؟ لا أدري.

ربما يجدها غير مناسبة له، وربما ينتظر أن يجد فتاة تفضلها لها مواصفات معينة وربما وربما. .

عندما قلت له ذلك قال لي وفي شيء من الهدوء:

ـ لم يحن الوقت الذي أفكر في الزواج وعندما أفكر ستكون هي قد تزوجت وبهذه الطريقة ترحمني وترحم نفسها.

أمها، بل أمي. . عرفت بالحكاية. سألتني يوماً فيما إذا كان أخي يعرف شيئاً عما تريده ابنتها.

لم أجب خوفاً من أن يضايقها كلامي وأخذت ألف وأدور في الموضوع لكنها كانت أذكى من أن يغيب عن بالها أنه يعرف وأنني أنا أعرف رفضه لابنتها.

في يوم من الأيام كانت هناك مكاشفة من الأم لفاتن جرت أمامي. أحسست بأن هذه المرأة عظيمة لأنها واجهتها في وجودي وقالت عنيّ بأنني أخوها ولهذا فلا مانع من أن تتحدث معها عن كل شيء وأخبرتها بأن السنين

تجري وأن هذا الحب الذي يأتي من طرف واحد لا يمكن أن يجيء بأية نتيجة.

سمعت فاتن كلام أمها وبكت وقالت لها بأنها لا تمانع من أن ترتبط بأول رجل يأتي لخطبتها. كانت بائسة وهي تلقي بموافقتها على الاقتران بأي شخص لأمها وعندما جاء الفارس الذي حملها على حصان بني اللون وليس أبيضْ كما كانت تريد، ذهبت معه رغماً عنها. ومضت سنوات ثلاث عاد أخي من دراسته وعادت فاتن إلى بيتنا بعد أن تطلقت.

وبعد شهور خمسة من طلاق فاتن عاد أخي من بعثته وبدأ يتقرب من فاتن ويتحدث إليها حديث المنشرح القلب الهاوي المزاج، فاستغربت لكن استغرابي كبر عندما سمعت أخي يريد أن يتزوج فاتن هذه المرة. لكنها لم تجب بكلمة ومع هذا لم ترفض وتركت الأمر للظروف ولم تكن تلك الظروف سوى أنها كانت تريد أن يستشيرني في الموضوع أنا أخوها الذي أخذت أشجعها على قبول الأمر بعد شيء من التمنع والدلال وقلت لها:

ـ قد يكون في تمنعك ودلالك ما يشجعه على أن يجري وراءك وقد كان.

أصبح أخي يجري وراءها يطالبها بالجواب وهي تتهرب من الجواب.

حتى ذلك اليوم الذي كنت فيه مع أخي الذي كان يسألني أن أساعده لأن تقبل فاتن الاقتران به فسألته:

ـ لماذا؟ ألم تكن أمامك طوال كل هذه السنوات؟ ثم هل نسيت أحاديثنا عن حبها لك وكيف استقبلت هذا الحب؟ ثم بعد ذلك سافرت لإكمال الدراسة دون أن تقول شيئاً يجعلها تنتظرك؟

قال أخي في شيء من الخنوع وكأنه يصارحني عما في قلبه:

ـ لا أكتمك فقد كنت أحبها من كل قلبي لكن زواج أبي بأمها حال بيني وبينها، لقد شعرت بأن هذه المرأة أخذت مكان أمنا في البيت، واستطاعت أن تجعلك دائماً في صفها وهذا ما أثارني.

قلت:

ـ وماذا في الأمر؟ أليس الموت نهاية هذا الإنسان؟ ثم ماذا فعلت فاتن

حتى تعاقبها بما فعلته أمها وإن كان هذا الذي فعلته هذه الأم لا يحتاج إلى عقاب؟

قال:

ـ لا أدري ركبتني الشياطين ورأيت أن أكتم إحساساتي جميعها تجاهها. ثم سافرت إلى أمريكا ولكم حاولت أن أنساها دون جدوى ولهذا صدقني بأنني فرحت جداً عندما عرفت أنها تطلقت وعادت إلى البيت وقلت لنفسي هذه هي الفرصة التي يجب أن لا تضيع ولهذا طلبتها للزواج.

ضحكت وقلت في نفسي: هذه هي طبيعة البشر نجري دائماً وراء الأشياء التي نريدها ونحاول أن نظهر عدم اهتمامنا بها حتى إذا فقدناها جاءت الطامة الكبرى. والتفت لأخي وقلت:

ـ موعدنا الليلة أنا وأنت وهي.

في المساء جاء أخي بعد أن تحدثت مع فاتن وأفهمتها ما حصل واتفقنا على أن تمنح قلبها الفرصة لأن تلقاه بعفويتها وحبها المكتوم وقد كان الأمر فأمسك أخي بيدي ويدها ومضينا إلى حيث كان يجلس أبي وأمي (أمها) وقلت في صوت حاولت أن أتصنع فيه الرجولة الكاملة:

ـ أنا جاي يابا أخطب منك بنتك لأخويا.

ضحك الجميع وألقت الأم زغرودة كبيرة جاء على إثرها كل من كان في البيت لتهنئة العروسين.

لم تعد من نصيبه

ويمل الحياة، يرفض أن يعيشها، كما هي بعد أن اختار لنفسه أسلوباً تميزت به خطواته. ويحس بأن العالم يأبى أن يستظل بنوره ضعيف أو حتى محزون، وتتشكل قناعاته بأسلوب آخر يغاير كل ما كان فلا استسلام ولا خنوع ولا رضوخ لمغريات يمكن الحصول عليها.

وتمتلئ جوانح نفسه بأشياء كثيرة ارتبطت في ذاكرته وأطلت في لحظة أمل، جسدتها إرادة قوية وعزيمة رائدة صنعت في قلبه جسوراً وجسوراً ارتقت راياتها تستنفر عزائمه ليلقي بثقله في جوف هذا المارد الهائج يجدف بساعديه في قوة من يدرك بأن الحياة أية حياة لا ترضى لصاحبها أن يستسلم فالاستسلام للهزيمة هو أكبر من كل معاني الهزيمة، والناس هم الناس.

وينظر إلى المرآة لتطالعه صورة وجهه الذي عرف وقد تلون بشتى أحاسيس الرغبة للهيمنة على الواقع المعاش دون أن يدرك أن الدنيا هي الدنيا وأن كل هذا القلق المقنع يبدو وقد فقد وسائل إقناعه وانتهت كل روافده وأصبح شيئاً ممجوجاً يغامر قلبه الذي أخذ يخفق لتظهر دقاته في رتابة مملة هي الأخرى.

في دنيانا نعايش الفرحة ونقتسم الألم. أما الأمل فذاك أمر لا يمكن أن نفرط فيه إذا ما عرف طريقه إلى قلوبنا ففي غمرة البحث عن الذات تطل ذكريات الأمس صغيرها وكبيرها وكأنها قد رسمت على شفتي فتاة لم تتعد العشرين من العمر. ويتذكر كم أحب وهو في تلك السن الغضة، لكنه وبعد أن كبر أصبح يحب نفسه، ومن

طرف واحد لا يشاركه في حبها حتى كل أولئك الذي أحبهم.

ويتذكر. . . ترى أين هي تلك التي شغلته حيناً من الدهر؟ لم يزل اسمها محفوراً في ذاكرته، فكل شيء في وجهها يثير التفاؤل فهي أكثر من جميلة وأكثر من أن تكون أنيقة، وأعظم من أن تكون فاتنة وهي جد متفائلة تمنح شعرها الأسود الداكن الحرية بأن يختار المكان الذي يستقر عليه، يداعب أمواجه الهواء يتنقل كغجرية عرفت كيف تعزف على أنغام قيثارتها القديمة أجمل البشارف وأنعم الطقاطيق.

وجهها الأبيض كلون الفجر وشفتاها كلون الكرز الناضج وعيناها بحيرتا سكون هادئة يتوه الملاح بين دروبها عندما يخطر بباله أن يرتادها، وهي فوق ذلك كله امرأة مثقفة ملأ كلامها أنهار الصحف وفوق ذبذبات الأثير وسطورها تتداخل بين أسلاك التلفزيون وأمواج الفضاء.

يخال من يلقاها كأنه يلتقي بجوهرة صاغها فنان ملهم تفرض عليك شخصيتها الاحترام والمهابة، ويقودك حديثها إلى بحور العلم والمعرفة. لها في كل مدينة زارتها حكاية ولها فيها رأي تجيد عرضه بابتسامتها المتألقة وطلتها الأنيقة وهي تختار ملابسها بعناية وتناسق وحشمة وهي من أقدر النساء على مزج الألوان والأشكال عندما تخط بريشتها على قطعة قماش.

لطالما عاش يرقب الفتنة وهي تسير على الأرض معلنة عن لقاء لم يتم لا لأنها أخلفت الموعد، ولكن لأنه لم يكن قادراً على دعوتها لأي موعد رغم أنه كان يراها بحكم الصلة العائلية التي تربط بين أسرتها وأسرته.

تلك أيام مضت، ذهبت ولم يذهب رواؤها وبقي في قلبه أشياء كثيرة يذكرها رغم أنه يود أن لو نسيها منذ زمن فلقد غدت تلك الفاتنة جزءاً من التاريخ ظن كذلك حتى إذا ما التقى بها هناك وهو في طريقه إلى المقهى الذي تعود على ارتياده عندما كان طالباً في سان جرمين في باريس هناك وجدها هكذا فجأة ودون سابق إنذار تتراءى بعينيه في لهفة من أحب أن يلقاها رغم سنوات الغربة التي عاشتها هي بعيدة عن وطنها تتلقى العلم في عاصمة الضباب لندن.

كان يعرف عنوانهاورقم تلفونها من أخته لكنه لم يكن قادراً على أن

يتحدث إليها فتقاليد الأسرة والمجتمع تمنعه أن يفعل.

عندما رآها تهلل وجهه وانبسطت أساريره ومد يده محيياً لكنها لم تكن هي كانت أشبه بمن عرف غير أنها من بلد غير بلده وأرض غير أرضه. وآثر أن يقف مشدوهاً للشبه الواضح مما جعل الفتاة تدرك أنه لم يكن ينوي المعاكسة اقتربت منه وقالت له في عربية لم تكن واضحة:

ـ إذن كنت تظنني هي.

لكنه لم يجب، آثر الصمت وإن كانت هي قد آثرت الثرثرة.

دعته لفنجان قهوة فلم يمانع. ذهب معها وكأنه قد نوم مغناطيسياً. وألقى بجسده على الكرسي الصغير الذي أخذ يئن تحت ثقل جسده وبلل شفتيه بشيء من لعابه.

شعر بعدها بأنه قد استرد وعيه فتأسف لكنها لم تقبل عذره إلا بعد أن تسمع حكايته. وعندما تحدث إليها وكأنه يعرفها من عشرات السنين، ضحكت تلك الجزائرية الحسناء وقالت:

ـ لا عليك ربما استطعت أن أحتل مكانها بعضاً من الوقت أستطيع خلاله أن أسري عنك.

أجابها وبغمغمة:

ـ ربما ربما.

وضاقه أن يستمر في الحديث إلى أنثى الطريق حديث الصديق للصديق. وعندها أحس بشيء من الاطمئنان، استرد معه بعض عافيته.

سان جرمين تموج بزوارها من جميع الأجناس.

والطريق مبلل بمياه المطر الذي أخذ يتساقط في غزارة، والناس من حوله يعايشون حياتهم بأساليبهم وهو إلى جانب هذه الغريبة في مكاشفة علنية حاول خلالها أن يزيح عن قلبه آثار الماضي. ولكن حتى هذه اللكن لم تعد طريقها إلى عقله فماذا يضيره إن عرفت أنثاه ما يفضي به إليها؟ وما يدريه أنها ستتركه بعد لحظات وأنه لن يراها بعد هذه الجلسة؟

طرد هذا الهاجس عن نفسه وأحس بثقل ظله وهو يفكر فيه وعاود النظر

إلى وجهها في عفوية حاولت هي من جانبها أن تمتصها بهدوء لكنه أطال النظر إلى عينيها مما جعلها تضحك وهي تسأله:

ـ ترى أهناك فارق كبير بين عيني وعينيها؟

ـ لا..

قالها بسرعة عجيبة وأدرك أنه استعجل الإفضاء بكل ما قال لكنه لم يبال وتابع توجسه خوفاً من أن يفقدها كما فقد الأخرى.

قال بعجلة:

ـ هل يمكن أن نظل أصدقاء؟

قالت وفي شيء من الخجل:

ـ ولماذا تريدنا أن نكون أصدقاء؟

قال:

ـ لا أكتمك. لقد أعجبني شيء فيك فهذه هي أول مرة أجد فتاة تتجاوب للحديث معي بهذه السرعة ولقد عزوت ذلك إلى الغربة فأنا وأنت غريبان عن هذه المدينة.

ابتسمت في سخرية وقالت:

ـ ومن قال لك بأنني غريبة؟

ـ جنسيتك فأنت كما عرفت جزائرية وهذا يعني أنك غريبة عن هذه الديار.

ـ لا..

قالتها في تشفٍّ فأنا ابنة هذه الأرض رغم دمائي الجزائرية أحمل جنسيتها.

ـ ولكن اسمك مريم كما عرفت.

ـ نعم مريم بالنسبة لأبي وماري بالنسبة لأمي وأنا أميل للاسم الذي تحبه أمي، فهي فرنسية مثلي.

قال وفي شيء من العبوس:

ـ أتتنصلين من جلدك؟

ـ لا . .

لكنها الحقيقة فأنا لا أعرف الجزائر وأبي هو الآخر لا يعرفها لأنه ولد هنا على مقربة من هذا المقهى في بيت صغير كان يملكه أبوه.

ـ وأين والدك الآن؟

ـ ذهب إلى أمريكا بعد أن تركني وأمي وأختي.

ـ ولماذا ذهب؟

ـ ربما كان يبحث عن الذهب مثله مثل غيره.

ـ ولكنه لم يعد.

ـ وكيف يعود من قضى نحبه في الغربة؟

ـ وتعرفين هذا؟

ـ نعم عرفته أمي من زوجته الألمانية التي زارتها بعد خمسة عشر عاماً من غيبته، كان قد أعطاها اسمها وعنوانها وكنا نعيش في الشقة ذاتها فلم تجد تلك الزوجة صعوبة بأن تتحدث.

ـ وتحدثت معها؟

ـ لا. لأنني لم أكن موجودة، كنت أعيش في القسم الداخلي في مدرسة من مدارس الضواحي.

أمي أرادت ذلك لي ولأختي لتستطيع أن تتدبر أمرها لأنها كانت جميلة وعارضة أزياء في آن واحد، وأنت تعرف ما يعني أن تكون المرأة جميلة وعارضة أزياء.

ـ وأختك ماذا تفعل؟

ـ تزوجت، وأخذها زوجها إلى البرازيل.

ـ وأنت لماذا لم تتزوجي؟

ـ لأن أحداً لم يخطبني بعد. ما رأيك لو خطبتني أنت؟

ـ وترضين؟

ـ لا . .

ـ ولم؟

ـ لأنك غريب وتريدني أن أعايش الغربة وأنا كما ترى أكره الغربة.

ـ وماذا تعملين هنا؟

ـ مهنة أمي ذاتها.

ـ ولكنك جميلة جداً.

ـ وهل يقبلون في باريس أو غيرها عارضة أزياء غير جميلة؟

وتابعت:

ـ ربما يكتفون بأن تكون العارضة صاحبة جسد رائع، ووجه جميل أيضاً.

قالتها بسرعة أكبر من تلك التي رفضت بها خطبته.

شرب القهوة مرات ومرات حتى إذا ما جاء موعد عملها استأذنت منه لكنه قال:

ـ أود أن أراك.

ـ لا بأس غداً في المكان ذاته فأنا أحب هذا المقهى.

ـ ولكني أريد عنوانك وتلفونك.

ـ ولماذا تريدهما؟

ـ لأنني أريد خطبة أمك ما دمت أنت ترفضين خطبتي.

قالها بمرح، لكنها لم تلتفت إلى مرحه وإنما أملته بسرعة عنوانها وتلفونها وقالت له:

ـ تعال قبل موعدنا بساعة لترى أمي فربما أعجبتك وكان حظك من السماء لو قبلت أن تتزوجك.

ومدت يدها لتودعه فنظر إلى وجهها المرة تلو الأخرى وشد على يدها وتركها تخرج وبقي هو واقفاً في مكانه ينتظر وهي تخطو في الشارع برشاقة. وعاد هو إلى فندقه في تاكسي تقوده امرأة إلى جانبها كلب ضخم. أحس بضيق وهو يشم رائحة الكلب وهي تختلط بعطر المرأة الرخيص.

في الفندق استعاد حديثه مع الفتاة وشعر براحة عجيبة وقام لأول مرة في

هدوء. يحلم بالغد الذي سيأتي. حتى إذا ما جاء، نثر الماء على جسده في الحمام الصغير وأمسك بسرعة التلفون يثرثر مع صديقه الحميم إبراهيم الذي تركه في جدة يرمق الفجر وهو يسطع نوره وهنا على مقربة من البحر الأحمر عشقه وحياته. فلكم حاول أن يزيل ملله بأن يشاركه هواية الغطس التي يجيدها، والتي كان يمضي ساعات وساعات في قاع البحر يحادث جنياته في شوق المحب الذي يلثم الأرض إرضاء لتلك التي أحبها.

وجاء صوت صديقه مستنكراً أنه يهاتفه في هذه الساعة المبكرة وهو يقول:

ـ ترى ما الذي أصابك حتى تنهض من فراشك مبكراً على غير عادتك؟

وأجابه بهدوء:

ـ هي السبب.

ـ من؟

قالها صديقه، فأجابه:

ـ التي أحببت.

ـ ماذا تقول يا رجل؟

ـ لا، لكنها مثلها. لقد التقيت بها بالأمس وتحدثت معها.

ولم يترك لصديقه مكاناً للدهشة بل قال:

ـ هي جزائرية يوحي شكلها الأنيق بأنها صورة طبق الأصل ممن أحببت علاوة على أنها امرأة طيبة.

ـ ما دام الأمر كذلك فلماذا لا تتزوجها؟

قال:

ـ سأفعل لأنهي هذا الملل الذي أعايشه.

فقال صديقه:

ـ وتأتي بالقرف الذي يطرد الملل ليأتي من بعده الاكتئاب الذي تخافه وأخافه أنا؟

ـ لا.

قالها وهو واثق.

ـ السعادة يا صديقي تمنح الإنسان جداراً واقياً من الأمراض يجعله لا يفكر في شيء في هذه الحياة إلا فيها وأنا سعيد، سعيد جداً يا صديقي.

وأقفل السماعة ليعاود طريقه إلى الحمام مترنماً بكلمات أغنية أحبها عندما كان طالباً في جامعة القاهرة.

لكن شيئاً أوقف ترنمه بالأغنية. ربما ظن أنها لن تأتي لتلقاه رغم أنها قالت ستحضر. ولكن ما يدريه أنها صادقة؟ ربما أرادت بكلماتها تلك أن تنهي حديثها وتذهب.

عبس وجهه وتغيرت ملامحه وبدأ الملل يتسرب إلى كل جسده بعد أن انفرجت أساريره فترة من الزمن خالها أنها ستظل كذلك ولكن ليدع كل هذه الأفكار جانباً. ويعود إلى بشاشته فلماذا هو هكذا دائماً يستبق الأحداث؟ أحس بشيء من الراحة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ومضى صامتاً ينتظر ساعة اللقاء ينظر إلى الساعة التي يراها لأول مرة تطل من جدار غرفته ليجد عقاربها لا تتحرك. ربما هي الأخرى تحاول تستهزىء منه ومن هذا الإحساس الذي يغمره.

فبمجرد أن يرى شبيهة تلك التي أحب يقع هكذا في غرامها، ولماذا...

باريس مدينة تعشق الحركة وتكره الرتابة. كل شيء فيها مثير حتى أولئك المتسكعات في الطريق وهن يرمقن نوافذ الحوانيت بحب وبكره أيضاً. لكن الحب والكره عند المرأة الباريسية لا يصل مطلقاً إلى درجة الحقد، فالحقد بضاعة مردودة في عالم الإنسان في هذه المدينة التي لا تنام.

التاكسيات صغيرة وضيقة لكنها جديدة بعض الشيء وهو في طريقه إلى مقهى سان جرمين تحدوه الرغبة بأن يلتقي بها ويعرض عليها قلبه وشبابه وعاطفته ويطلب منها أن تقبل أن تتزوجه. فلقد استقر عزمه على أن يقترن بها حتى وإن لم ترض أن تذهب معه إلى بلاده سيبقيها هنا في باريس قريبة من أمها ومن قلبه. ينتظر الفرصة التي لا بد وستأتي وعندها سيحملها إلى بيته في جدة ويطير.

في المقهى كانت هناك فتاتان في عمر الورد عبست إحداهن في وجهه وابتسمت الأخرى لكنه لم يكن يهمه لا تلك التي عبست ولا الأخرى التي ابتسمت حتى إذا ما طالت جلسته هلت عليه بقامتها تمسك في يدها امرأة أكبر قليلاً منها لكن الشبه بينهما واضح لدرجة كبيرة.

اتجهت هي بعينيها إليه واتجه هو إليها بقلبه مد يده ليمسك بيدها في شوق حتى إذا ما طالت ملامسته ليدها استدارت إليه وقالت:

ـ أمي.

ثم عاودت كلامها:

ـ نعم أمي.

حاول أن يتكلم لكنها لم تدعه يفعل بل قالت وهي تبتسم:

ـ كنت تظنها أختي أليس كذلك؟

وبهزة من رأسه أشار بالإيجاب، لكنها استكملت الحديث وقالت:

ـ قد أخبرتها بحكايتك فشاقها أن تراك.

قال وفي شيء من العصبية:

ـ لا بأس.

ورحب بالمرأة التي انفرجت شفتاها عن ابتسامة جعلته يقلب ناظريه بين الأم والابنة حتى إذا ما طالت نظرته ضحك في شيء من الهدوء وقال:

ـ لم أكن أظن أن أمك مثلك هكذا جميلة.

شكرته الأم واختارت كرسيها بجانبه بينما اختارت الابنة الآخر وكان مواجهاً للباب الذي أخذت ترقبه بحذر فسألها:

ـ أتنتظرين أحداً؟

قالت:

ـ نعم.

قال:

ـ من؟

قالت:

ـ خطيبي الذي عاد فجأة من الجزائر.

ـ ولماذا يعود اليوم؟

قالها في ابتسامة صفراء، ثم سألها:

ـ ألم تقولي إن بإمكاني خطبتك؟

ضحكت الأم ولم يكمل هو الحديث بل مضى يفكر في كل ذلك الذي قاله لنفسه فلم يجد الجواب لكن الجواب جاءه فجأة على غير ما يتوقع فقد انتصب أحدهم أمام الطاولة وهو يبتسم، فأشارت إليه الصغيرة وقالت:

ـ خطيبي كما ترى جزائري يعرف العربية ويجيدها أكثر منك.

مد يده بلا مبالاة للرجل الذي أمسك بها يهزها في قوة. حتى إذا ما انتهى منها ألقى بنفسه على الكرسي وأخذ يتحدث إليه حديثاً شك أنه فهم شيئاً منه فقد كان يفكر ويفكر واهتدى إلى حل واحد هو أن يهرب من هذا الواقع الذي اصطدم به لكنه لم يدر ما يفعل.

أحست الفتاة بالحرج الذي أصابه وأدركت أنه قد أحبها فرأفت لحاله وقالت له:

ـ لو لم أكن مخطوبة لما تزوجت غيرك.

قالتها بإنكليزية تخللتها لكنة فرنسية. نظر إلى الرجل فوجده يبتسم فسأله:

ـ أتعرف الإنجليزية؟

أجابه الرجل بالنفي فحمد الله. ووجدها فرصة لأن يقول لها كلمات وكلمات قالها كشاعر واستمعت هي إلى كلماته كأنثى حتى إذا ما انتهت مد يده إليها مودعاً وأطبق بكلتيهما على يدها البضة الصغيرة بينما أمسكت يده الأخرى بيد الأم وقال لها متضاحكاً هذه المرة:

ـ عندك عنواني، فلربما غيرت رأيك في هذا الخطيب.

وأشار إليه.

ـ وعندها ستجديني تحت أمرك.

قالها وهو لا يدري كيف قالها لكنها خرجت هكذا من بين أسنانه مما جعل الأم هذه المرة هي التي تضحك وتقول في شيء من العبث:

ـ ربما كانت هي أو كنت أنا من نصيبك.

قال للأم:

ـ ماذا تعنين؟

ضحكت وقالت:

ـ لا شيء.

لكن هذا اللاشيء أضاع من بين يده فرصة العمر وأصبح مجرد ذكرى فلقد هربت منه الأولى وهربت منه الثانية، ولم تبق أمامه سوى الأم التي التفت إليها متسائلاً:

ـ وأنت ما هو رأيك؟

ـ في ماذا؟

قالتها الأم بريبة.

ـ في أن نتزوج أنا وأنت؟

وضحك فلم تعقب المرأة وإنما نظرت إليه نظرة من لغة الغضب فلم يجد فرصة سوى أن يهرب إلى الطريق بعد أن لوح لهما بكلتا يديه حتى إذا ما هدأت حركته نادى بأعلى صوته:

ـ تاكسي.. تاكسي...

لكن سائقة التاسكي في هذه المرة لم تجبه هي الأخرى إلى طلبه ومضت بسيارتها تنهب الطريق إلى بيتها بعد أن أنهت ساعة عملها في هدوء.

ويعيد التاريخ نفسه

امتلأت عيناها وهي تقبل طفلتها الصغيرة ذات الستة أعوام. ومضت تقتلع قدميها من الأرض تجوب أنحاء الغرفة تحاول أن تلملم بذاكرتها أجمل سنوات حياتها العشر التي أمضتها مع زوجها في غربة دائمة لم تمض منها سوى بضعة شهور قليلة في مسقط رأسها المدينة المنورة.

لكم أحبت هذا الرجل. أحبته بكل جوارحها. وأحست يوم ألتقت عيناها بعينيه في خطبة تقليدية كما يجري عادة في مدينتها بأنه هو وحده فارس أحلامها الذي تنتظر.

لم تنظر إلى وجهه في تلك الطلة القصيرة وإنما اخترقت شغاف قلبه لترى صورتها مرتسمة هناك بكل تفاصيلها الدقيقة.

كان أسامة نسيجاً يغاير كل أنسجة الرجال التي كانت تلتقي بهم من رجال أسرتها حتى إذا ما اقترنت به أحست أنه يفوق أيضاً كل الرجال الذين كانت تلقاهم في رحلتها الطويلة بين لندن وطوكيو والأرجنتين واليونان.

فأسامة زوجها شاب لم يتخط الثلاثين من العمر عندما اقترنت به بينها وبينه بضع سنوات كانت تقول عنها بأنها سنوات الضعف وإلا لماذا ألقت بثقلها على كتفيه لا تفكر وإنما هو الذي يفكر لها حتى فساتينها وإكسسواراتها وأدوات تجميلها واحتياجات البيت ونوع الطعام لم تكن تتدخل فيه تترك العنان لفارسها يختار ما يريد وهي بكل اختياراته سعيدة راضية لكنه كان يحاول دائماً أن يأخذ فتصر على أنها لا تدري ولا تعرف.

سنوات من الحب غرقت خلالها إلى أذنيها وأصبحت مجرد طيف يمشي إلى جانبه، يراقب خطواته، تنظر إلى عينيه يلهب خيالها ذاك الوميض الذي ينبعث منها فتحس به وهو يترسخ في أعماق نفسها ليظل دائما هو الحامي لها من كل نائبات الحياة فلقد أسلمت قيادها له ورضيت بأن تكون هي كما هي إلى جانبه ترمق تحركاته وعمله وما يحب وما يكره.. تحب ما يحب وتكره ما يكره.

لم تكن تظن أن هناك شيئاً ما قادر على أن يفرق بينهما حتى جاء الموت الذي استقبلته بشيء كبير من الرضى بعد أن أدركت بأنه هو نهاية هذه الحياة التي نعيشها على الأرض. لكن هذا الرضى أدار رأسها وجعلها تفكر كثيراً في الأيام التي ستجيء فهي وحدها في هذه الحياة برفقة طفلة صغيرة لم تبلغ الحلم بعد.

العالم كله أصبح في نظرها أصغر من قرية. نسيت كل تلك المدن التي زارتها وكل الأيام التي أمضتها. نسيت كل شيء وتذكرت هذا الغول الذي يأكل الأخضر واليابس ولا يبقى ولا يزال هذا الفراغ القاتل الذي أصبح يلازمها في روحاتها وجيئاتها معلناً سلاحه الرهيب على عنقها الضعيف.

ترى ماذا تستطيع أن تفعل بعد كل هذه السنوات التي أمضتها برفقته؟ لقد مارست الغربة معه فكان نعم الرفيق والصديق والزوج والصدر الحنون أما اليوم فها هو قد ذهب وتركها تضرب أخماساً في أسداس تفكر في الأيام التي ستأتي وهي بمفردها مع طفلتها وأمها فقط.

أمها بجانبها ترمق وجهها الشاحب يعصر الألم فؤادها فهي ابنتها الوحيدة التي خرجت بها من هذا العالم بعد موت زوجها وهي صغيرة. أخذت الأم تفكر ترى هل قدر على سلالتها أن يموت أزواجهن وهن في سن مبكرة؟ وإلا ماذا تقول عن هذا الذي يجري؟ ومضت تجتر ذكرياتها منذ ذلك اليوم الذي تركها فيها زوجها وحيدة ترمق الأفق كما تفعل ابنتها اليوم. فكثيراً ما يكون فراق الزوج أليماً لكنه أكثر ألماً عندما تشعر المرأة بأنها لوحدها في غمار هذه الحياة.

لقد أمضت سنوات عمرها منذ أن كانت شابة من أجل هذه الابنة التي

استطاعت تأديبها وتعليمها حتى إذا ما كبرت جاء زوجها ليأخذها من بيتها تعاصر الوحدة بأشد معانيها لكنها رغم ذلك كانت سعيدة، بهذا الزواج فعريس ابنتها من أسرة طيبة وهو الآخر شاب في مقتبل العمر يميل دائماً إلى الخير كان يراها كأمه هو الآخر ماتت وهو صغير. وكانت تشعر بأنها فعلاً أمه حتى إنها وهي التي لا تحب السفر (تشنطط) نفسها هنا وهناك وراءهم لتزورهم حتى ولو لأيام قليلة فهي لا تستطيع البقاء بعيداً عن بيتها الذي تركه لها زوجها والذي لم تغير شيئاً من أثاثه حتى الآن.

لقد نثرت صور زوجها في كل مكان ليواجهها أينما ذهبت وكانت سعيدة لأن ابنتها كانت تتصل بها وتشعرها بكل هذه السعادة التي تلفها من رأسها حتى أخمص قدميها.

يوم طرق الخطاب بابها طردتهم بابتسامة. فهي وإن كانت في عمر الصبا وسنوات الشباب إلا أنها نذرت نفسها لتربية هذه الابنة التي عوضتها عن كل مباهج الحياة. لطالما تحدث إليها أخوها وهو يقول سيأتي اليوم الذي يجيء فيه أحد الفرسان ليأخذها بعيداً عنك ويومها ستظلين وحيدة إن لم تقدمي على اختيار أحدهم.

كانت تضحك في وجه أخيها وتقول:

ـ تكفيني هي من جهة وأنت من جهة أخرى.

ويوم جاءها ابن خالتها محمود يعرض عليها قلبه وماله عسى أن تقبل وتقترن به رفضت طلبه وقالت:

ـ قد أصلح أن أكون أماً، أما أن أكون زوجة فقد انتهى الأمر.

وعندما ألح في السؤال قائلاً بأنه سيكون نعم الأب لابنتها. أغاظها هذا الإلحاح وحاولت أن تبدو كما تعودوا أن يروها داخل الأسرة واصطنعت الهدوء لكنها لم تقدر وأجابته بقسوة شعرت بها بعد ذلك:

ـ دعني وشأني أما أنت فهناك عشرات من بنات الأسرة يرغبن فيك وهن أحق مني بك فأنت لم تتزوج أما أنا فقد جربت حظي في الزواج وحظي في هذه الدنيا هي هذه الابنة التي من أجلها أعيش.

تناثرت الصور والذكريات داخل مخيلتها وقالت لنفسها: ترى هل سيكتب على هذه الابنة أن تضحي مثلها أم أن القدر سيمنحها زوجاً تقبله وتعيش معه؟ لكنها في قرارة نفسها تدرك طينة هذه الابنة فهي مثلها وفية حتى النخاع وترفض أن يستقر في قلبها غير فارسها الذي مضى.

وتعيد النظر إلى صفحة وجه هذه الشابة الجميلة التي ترملت قبل الأوان وإلى طفلتها الصغيرة بضفائرها الكستنائية ووجهها الطفولي البريء فتتذكر طفولة ابنتها عندما ترملت هي الأخرى.

قد تكون ابنتها أصغر من أمها في وقفتها هذه وحديثها المشبوب بالكثير الكثير من العاطفة وبالإحساس المرهف الذي يغلف قلبها. فهذه الصغيرة التي كانت متعلقة بأبيها والذي تفتقده الآن أحوج ما تكون إلى التسرية منها ومن أمها أيضاً.

أمسكت بيد سهى، وجذبتها برفق وأخذت تقبلها في حنو بالغ بينما امتدت ذراعها الطفلة لتطوق عنق الجدة وانخرطت بعده الأم في بكاء صامت جعلها تدرك مدى العناء الذي أصاب كبد ابنتها التي كانت تأمل لها حياة أفضل وأجمل من حياتها هذه، لكنها استدركت محدثة نفسها قائلة: ربما يكون حظ هذه المسكينة أفضل من غيرها فسنواتها العشر التي أمضتها كانت عسلاً دائماً لم ينل شيئاً منه الكثيرات ممن لا يزلن يعشن مع أزواجهن في هذه الحياة.

فالحياة لا يمكن أن تعطي كل شيء وإذا أعطت فإنما تعطي بقدر. تلك هي الدنيا مسيرها دائماً إلى الزوال لكننا نبكي ونستمرىء البكاء عندما نفقد عزيز علينا ثم ننساه أو نحاول أن نتناساه.

ترى هل ستنسى ابنتها (رفيف) زوجها الذي مضى؟ وإذا كانت ستنسى هل يمكن لها أن تقبل بأن تعاود الزواج كرة أخرى أم أن مصيرها كمصيرها هي التي أمضت كل سنواتها من أجل (رفيف) الفتاة البيضاء الجميلة؟ كانوا يلقبونها بالجميلة حتى بعد أن تزوجت لأنها كانت ولم تزل جميلة.

في دنيا البشر نعايش أحزاننا فترة نعود لنساير حياتنا نحاول أن نجعل منها شيئاً يستحق كل هذا العناء. هكذا قالت لنفسها في هدوء وهي تواصل تفكيرها في الذي مضى. ولولا إيمانها بأن ابنتها أحق بها من كل زوج فهل كانت ستظل

بدون زوج طوال سنواتها التي مضت، وحتى بعد أن تزوجت ابنتها طرق بابها العديد ممن كانوا يطمعون أن تكون من نصيبهم لكنها رفضت.

ثم هل هي نادمة على التضحية التي بذلت؟ وإذا هي لم تكن نادمة فلماذا تخاف على ابنتها أن تضحي هي الأخرى؟

يقولون إن الأم من نسيج يغاير كل أنسجة النساء اللواتي لم يجربن الإنجاب أو حتى لم يفكرن في أن يلدن طفلاً أو طفلة تملأ بيتهن حباً وجمالاً وفتنة.

ويمتد بها الخيال إلى أختها التي تزوجت منذ أكثر من أربعين عاماً عاشتها برفقة زوجها وحتى اليوم دون أن يكون لها أو له ابن أو ابنة.

لكم عذبتها هذه الأخت عندما كانت تناقشها في أمر تضحيتها التي اتخذتها عن تصميم وسابق إرادة وكانت تهزأ بها وتذكرها بأن الرجل بعد أن تموت زوجته بشهر واحد يبدأ يفكر فيمن تلك التي ترضى بأن تتزوجه حتى إذا ما استقر رأيه عليها خطبها وبنى بها غير آسف.

قد تكون مشكلة هذه الأخت أنها ليست أماً وعندما كانت تقول لها ذلك تضحك منها أختها وتقول:

ـ تدفعين شبابك في صحراء التضحية لتتوه حتى يجف عودك وعندها لن تجدي أحداً يسأل عنك حتى ابنتك هذه ستكون مشغولة ببيتها وزوجها وأولادها.

ترى هل القدر صنع ما صنع لتصبح ابنتها على مقربة منها؟ وهل هي راضية من أن تكون رفيف شريكتها في حياتها التي تمارسها؟

لا! قالتها بحزم وكأنها تريد أن تنفض عن نفسها أي إحساس بالأنانية.

ربما لو عاش زوجها لأحست بالسعادة ولما شعرت بهذه التعاسة التي تحيط بقلبها الذي أصبح يدق ويدق كبندول الساعة الكبيرة.

وتصبح الحياة في عروق الصغيرة سهى التي تفتحت أكمامها كما تتفتح الزهور في فصل الربيع وتجتاز السادسة عشر من العمر وجمالها وأنوثتها يتفتحان، لتبدو كأشبه بملكة من ملكات الجمال أولئك اللواتي كنا نرى

صورهن تملأ الصحف والمجلات ويبدو في الأفق بعض من المشاكل حول أرض تركها الزوج أمانة في عنق واحد من أعز أصدقائه.

لم تكن قيمة الأرض يوم مات زوج رفيف على ما هي عليه من غلاء الأسعار مما جعلها تبحث وتنقب عن كل ما يتصل بهذا الإرث الذي حاول أحدهم أن يستولي عليه دون حق ومضت رفيف برفقة أمها إلى مكتب المحامي خالد أحد أقاربها لتعرض عليه المشكلة والذي يتولى الادعاء في ملكية الأرض المنهوبة. وتتوالى زياراتها إلى مكتبه وتتوالى مراجعته إياها في دارها ويلتقي خالد بسهى في كثير من المناسبات. كانت تشعر رفيف باحترامه الكبير لها وأدبه الجم معها حتى أصبحت تميل لأن تضع كل معاملاتها في يده.

وتمر الأيام وخالد يتابع قضاياها في حب جعله يضحي في كثير من الأحيان بأكثر أتعابه ويقبل منها القليل حتى لا تفكر في أنه يخدمها مجاناً كان يتحدث دائماً معها حديثاً تشعر بأنه كمن يريد أن يلقي إليها خبراً ساراً حافظ عليه طوال كل تلك الشهور تعاملها معه، وكانت ترمق تلعثمه عندما يفكر أن يفضي إليها عما يريد، عزت الأمر فلربما يفكر خالد في خطبة سهى بنتها التي كبرت واستشارت أمها في الأمر وتحدثت مع نفسها طويلاً اطمأنت إلى أن فارق العمر بين خالد وسهى ليس بالأمر الذي يحول بينه وبين الاقتران بها فهو على الرغم من أنه يناهز عمره الثلاثين من العمر إلا أنه سن معقول..

أقنعتها أمها بطيبة الرجل وحسن معدنه وأنه قادر على أن يسعد سهى إذا ما رضيت سهى فاستراحت للأمر في انتظار أن يتحدث إليها خالد برغبته لكن أياماً ثلاثة كان خلالها خالد يتردد على البيت ويتحدث إلى الأم ويرى الابنة دون أن ينطق بما يريد حتى إذا جاء اليوم الرابع انطلق لسانه من عقاله، عندما وجد رفيف بمفردها. قال خالد:

ـ ربما أكون متسرعاً عندما أطالبك بأمر لا أدري مدى استقبالك لكلماتي عنه لكنه يكاد يشغل بالي طوال تلك الشهور التي مضت.

ضحكت واستراح قلبها فها هو أخيراً استقر عزمه عن أن يفضي بما يحس تجاه سهى. وقالت له في كثير من البشاشة والتودد:

ـ لا عليك بإمكانك أن تتحدث وبإمكاني أن أسمعك فأنت كما ترى عزيز

على قلوبنا جميعاً أنا وأمي وسهى.

وابتسمت مشجعة وواصلت كلامها:

ـ ها، ماذا تريد أن تقول؟

أجاب خالد:

ـ اعذريني فأنا كما تعرفين عشت سنوات عمري في ظلال سيدة رفيقة كانت تغمرني بحبها لكني مع هذا لم أكن أحبها لأنها لم تكن أمي فأمي تطلقت وتزوجت بآخر وطلاقها هذا عندما كنت صغيراً أعزوه إليها رغم أنها كانت بعيدة يوم ذهبت أمي لكني لا أدري ما هي الأسباب فلربما كانت المشاكل مشاكل أبي وأمي.. لكنها الحقيقة عشت سنوات طفولتي أواجه حرمان حنان الأم بكثير من الصبر حتى رأيتك.

وصمت.

ـ وبعدين؟

قالتها مشجعة:

ـ عندما رأيتك أحسست بأنك وحدك القادرة على أن تمنحيني هذا الحنان.

وأغرق في الصمت فقالت لنفسها: ربما كان حديثه هذا مقدمة لطلبه فهو ينظر إليها وكأنه يرى أمه وفي هذا ما شجعني على أن أكون كذلك بالنسبة له ولسهى أيضاً.

وعندما طال صمته شجعته على أن يتحدث فقال في كثير من التلعثم:

ـ لقد فكرت كثيراً ورأيت..

ـ رأيت ماذا؟

ـ رأيت أن أخطب.

وصمت.

ـ تخطب من؟

قالتها بعد أن فرغ صبرها..

ـ أخطبك أنت فأنت أصلح إنسانة يمكن أن تكون زوجة لي.

ضحكت في هدوء وقالت:

ـ ولكن أنسيت فارق العمر بيننا؟

ـ لا، لم أنسه وإنما وظفته لنفسي فأنا في حاجة لمزيد من الحنان لن أجده مطلقاً عند أية امرأة، فرغم كل الذي تقولين إلا أنني أراك أكثر صبى وجمالاً حتى من سهى ابنتك.

نظرت في وجهه وقالت له وفي هدوء:

ـ لقد أخطأت كثيراً يا خالد بهذا الطلب فأنا امرأة لا يمكن أن أتزوج أي إنسان بعد موت زوجي.

ـ ولا حتى أنا؟

ـ ولا حتى أنت..

ولملم نفسه ومضى يجر أذيال الخيبة حتى إذا ما خرج من الباب أخذت تضحك وتضحك فجاءت سهى ابنتها على صوت ضحكاتها لتسألها عن الأمر فغمغمت بكلمات غير مفهومة حتى إذا ما أصرت سهى على أن تعرف الحكاية، قالت لها كلاماً غير كل الكلام الذي سمعته، ومضت إلى التلفون تحدث أمها عن الموضوع وفي قرارة نفسها إحساس بالراحة فهي كما يرى خالد لا كما ترى هي ترى نفسها مطلوبة ومرغوبة، وهذا ما تريده المرأة حتى ولو شاخت أو كبرت.

سهى فتاة لا تتكرر

رحلت سهى عن مدينتنا فجأة، وقالت إنها لن تعود إلينا إلا بعد أن يمنحها الله المال الذي تستطيع من خلاله أن تعيش كما يعيش بقية الناس. ولقد ذاقت مرارة الفقر فلم تتحملها. وعانت أمها من تعب العمل ما جعلها تخاف عليها بعد أن وصلت إلى سنها الكبيرة.

الذين يعرفون سهى مثلي يدركون أن أباها عندما جاء مع أمها وهي صغيرة لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد الرسول عليه السلام لم يكن يدرك بأن الأسباب قد تقطعت بينه وبين أسرته. فهو وإن كان إنساناً بسيطاً في كبره إلا أنه كان يملك من مقومات الحياة ما يكفيه شر العوز لقدرته الفائقة على صناعة الذهب ومشتقاته تلك التي تحبها النساء في كل مكان. لكن الموت كان أقرب إليه من العودة إلى بلاده تونس. فأبت أمها أن تعود وظلت تعيش في مدينتنا وهي تدرك مدى شظف العيش الذي سيلازمها هي المرأة الوحيدة التي لا قدرة لها ولا استطاعة على مواكبة الحياة بالأسلوب الذي كان تواكبه وهي متزوجة.

أهلها وأهل زوجها في تونس سألوها العودة فلم ترض وبقيت ترمق الفجر يطل من عين سهى وهي تكبر وهي عنها غير لاهية تعمل بجد لتهيّيء لها ما يتسنى لها أن تهيئه حتى كبرت تلك الصغيرة وتخرجت معنا من المدرسة الثانوية.

الذين عرفوا سهى يدركون جمال هذه الفتاة وكمالها وقدرتها على مساعدة الآخرين رغم مظاهر الفقر التي ارتبطت بها وأمها طوال مراحل حياتهما في المدينة.

كانت أمها أشبه بمن يحفر بأظافره في الحجارة لتصل ابنتها إلى ما وصلت إليه حتى إذا ما أصبحت على وشك الدخول إلى الجامعة تجمعت الأسباب لتحرمها من فرصة الدخول كما أن أمها ليس بمقدورها أن تبعث بها إلى جامعة قريبة في مدينة أخرى.

في مثل هذه الظروف وصلت لسهى رسالة من إحدى صديقاتها تعرض عليها الموافقة على العمل في بيتهم كمرافقة لجدتها العجوز بمرتب لا بأس به دفعها وأمها لأن تنتقل من مدينتنا إلى جدة حتى إذا ما مضت أكثر من سنوات ستة على غيابها وأمها.

علمت بأن سهى قد تزوجت وأن زوجها قد سافر برفقتها إلى أمريكا لإكمال دراستها هناك.

سنوات مضت وانقضت على تلك الفتاة التي قاست كثيراً حتى إذا ما ابتسمت الحياة لها بعد سنوات خمس عايشت فيها العجوز حتى أصبحت بمثابة ابنة لها طلب يدها حفيدها فلم ترفض وإن كانت قد عانت من رفض والده الشيء الكثير. لكن إصرار سعيد كان أقوى من الرفض مما جعل الأب يرضخ أخيراً إلى رغبة ابنه الذي أحس بوجيف قلبه أمام طيبة تلك الفتاة وجمالها وأدبها.

أما الأم فقد عاشت في كنف ابنتها ترمق تطور أحوالها في حب حتى سفر ابنتها إلى أمريكا برفقت زوجها وعندها عادت إلى المدينة لتقطن في أحد فلل والد زوجها المتناثرة. حتى ذلك اليوم الذي تلقيت هاتف صديقتي التي تحدثت معي طويلاً ورجتني أن أواصل زيارة أمها وأن أرعاها فلم أبخل لكنني بدأت أشك في قدرتي على القيام بكل ما طلبت. ربما لأنني أنا الأخرى زوجة وربة بيت. في تلك الأيام كانت الحياة في المدينة هادئة أكثر من اللزوم، وكان الناس أشبه بخلية واحدة يأخذ الواحد بيد الآخر في حب لكنها الدينا تتغير وبتغيرها يتغير الإنسان هذا الإنسان الذي ملأت أسماعه ما يجري على الأرض لكنه مع هذا لم يكتف بالسماع بل عرف كل جديد بيديه.

أم سهى تملأ ساحات المدينة بالحب أصبح بيتها محط أنظار مثيلاتها ممن تعرف. وممن لا تعرف ضحكت الحياة لها ولابنتها فمنحتها الكثير والكثير من

الظل والنماء فأصبحت موضع ثقة الناس خصوصاً أولئك الذين يعيشون المحن. هكذا كانت تقول عنهم ولها من جلستها حيال هذا الموضوع ما يدعو للإعجاب والتبصر...

عندما قامت سهى بزيارة أمها في خليتها الأشبه بالمدينة كانت غير سهى التي تعرفها فلقد أفرطت النعمة بمنحها مزيداً من الجمال وأصبح في مقدورها أن تمارس حياتها الجديدة بأسلوب أولئك الأثرياء الذين يرافقهم الخدم والحشم ويواصلون زيارة بيوت الأزياء ودور الموضة ودنيا المساحيق والجمال لكنها كانت كما كانت في قرارة نفسها فتاة طيبة تكن الحب لكل من تعرف ومن لا تعرف.

ولقد أمضت أسبوعاً كانت محط إعجاب كل صديقاتها اللواتي حاولن دعوتها إلى بيوتهن فلم تقبل أو ترفض وإنما طلبت منهن جميعاً أن تكون هي الداعية والمدعوة في آن واحد فأضفت على بيت أمها مزيداً من الحركة والتأنق حتى أصبحت فيلتها محط أنظار أترابها من الفتيات أولئك اللواتي قدر لهن أن يتزوجن وينجبن في المدينة. كانت أشبه بملكة متوجة تسبح في بحر من الجمال والخيال والأبهة في آن واحد. وقدمت لزميلاتها الكثير من الهدايا الأنيقة مما جعل الكثيرات يتحدثن عن فرط أناقتها وذوقها بإسهاب.

ومع تكرر زيارة سهى للمدينة في أكثر من إجازة استطاعت أن تملأ قلوب صديقاتها حباً لها بما تقوم به تجاههم من أعمال رائعة.

كانت أشبه بالأخت الكبرى للكثيرات منهن حتى ذلك اليوم الذي تخرجت فيه سهى كطبيبة وتخرج فيها زوجها كدكتور في الهندسة واستقر بهما المقام في مدينة جدة مضت سهى بعدها تمارس عملها بشغف جعلها تدرك مدى المعاناة التي يلاقيها الفقراء عندما يحتاجون للعلاج ولقد ساعدها زوجها بماله على أداء هذه المهمة بالنسبة لأولئك الذين في حاجة ملحة للعلاج ولا يملكون المال فقدم لها الكثير مما جعل الكثيرون يتجهون بالثناء والتقدير لهذه الفتاة التي عاشت الفاقة حتى إذا ما قفزت عليها لم تنس أولئك الذين عانوا مثلها يوم كانت في حاجة إلى المال. لكن الحياة دائماً لا تظل على ما يريدها الإنسان فقد شاءت الأقدار أن يموت زوجها وتصاب سهى بإصابات كثيرة عندما انقلبت

سيارتهما وهي في طريقهما للمدينة. وعادت سهى بجروحها إلى جدة حيث أمضت أكثر من شهرين عالجت خلالهما بعض جروح الجسد لكن الجرح الأكبر كان وفاة زوجها وفقدانها لأمومتها إذ كانت حاملاً في تلك الفترة ولقد ضاع طفلها وضاع معه كل أمل في أن تنجب فنذرت نفسها لكل الأطفال الذين يفقدون آباءهم وأمهاتهم وصنعت من بيتها في المدينة مكاناً لكل هؤلاء واكتفت بأن تصبح هي الأم للأعداد التي تتكاثر كل يوم ولم تكتف بذلك بل عادت لممارسة مهنتها كطبيبة في خدمة هؤلاء الأطفال وملء قلبها ايمان بنبل المهمة فلقد عايشت هي في صغرها الفقر واليتم ولهذا تريد أن تدفع عن كل هؤلاء مصائب الفقر واليتم وأصبح بيتها معلماً من معالم المدينة يزوره الكثيرون والكثيرات ليروا المعجزة التي حققتها فتاة فقيرة اسمها سهى.

أوهام امرأة

استعادت روان رباطة جأشها بعد تلقيها لتلك المكالمة التلفونية ومضت تنهب درج الفيلا في سرعة عجيبة إلى مخدع نومها لتلتقي بحقيبتها الصغيرة التي أودعت فيها رقم تلفون صديقتها ربى. حتى إذا ما لقيتها أدارت قرص التلفون في رعونة رشيقة بدا خلالها وجهها الأبيض الجميل وقد تورد من فرط أحاسيسها بالسعادة. فمحمود خطيب ربى الذي سافر منذ أكثر من ثلاثة أعوام لتلقي العلم في أمريكا عاد وفي يديه شقراء جميلة اختارها بعناية.

أمسكت بسماعة التلفون على أمل أن يتسلل إلى أذنيها صوت صديقتها ربى لتبدأ حديثها معه عن خطيبها وزوجته الأمريكية الشقراء لكن ظنها خاب لأن ربى لم تكن في بيتها فقد أفهمتها الخادمة بأن ربى مريضة وأنها تقضي فترة النقاهة في المستشفى الجديد الذي افتتح مؤخراً في مدينة جدة.

أقفلت روان التلفون وتمددت على سريرها ترمق الأفق بنظرة لم تعرف كيف تصفها لكن سعادتها لم تكتمل إذ جاءها صوت أمها يطالبها بأن تسرع قبل أن يفوتها الموعد وهما في طريقهما إلى المطار لزيارة أقارب لهما في مدينة الرياض.

السيارة تنهب الطريق في إصرار عجيب وهي في جلستها تلك كانت تأمل أن تلتقي بربى لتشاهد خيبة الأمل تبدو ناطقة على محياها هي التي سعدت كثيراً بفشل خطبتها لأخيها بسام وهي تذكر ذلك اليوم وتذكر أيضاً كيف غلفت ربى ابتهاجها وفرحها بهذا الفشل هي التي حاولت كثيراً أن تثني أمها وأخاها عن هذه الخطبة.

ومضت تصارع أفكارها بينما أخذت صور الماضي تبدو أثر عمقاً في خيالها لتعيد إليها أيام الدراسة وكيف كانت مصحوبة دائماً بمشاركة ربى لها رغم تظاهرها بحبها وصداقتها لها.

كانت تدرك بأن طفولتها لم تكن في يوم من الأيام سعيدة بهذه الصديقة التي فرضت صداقتها عليها رغماً عنها. فربى فتاة شقية تختار عن عمد الإساءة إليها بتكسير لعبها من جهة وفرض صداقتها على من تحس بأن روان تميل إليه أو يميل إليها وهي تعرف مدى الخلاف الذي كان بينها وبين ربى على صداقة محمود ذلك الطفل الأسمر جارهما في الشارع والبيت وصديق عمرهما معاً.

كانت ربى أقدر على جلب محمود إلى صفها وإن كانت تشعر بأن محمود هو الآخر يميل إليها بقلبه ويخاف أن يظهر هذا الميل لئلا تكشر ربى عن أنيابها وتصنع من القصة قصصاً كثيرة كانت تكره أن تنقل عنها.

وكانت سنوات الطفولة أشبه بكابوس جثمت ربى خلالها على صدرها. لم تكن تظن أنها تحب محمود بهذه الصورة التي بدت تظهر مبكرة في سنواتها الأولى. لكن ربى كانت تدرك ذلك كله وتحاول أن تثني عزمها عن أن تكون قريبة لقلبه فهي تعتقد أنه يحبها هي وهي وحدها حتى ذلك اليوم الذي تقابلت فيه بمفردها مع محمود الذي يتحدث كثيراً عن ربى ومحاولاتها لأن ينأى بصداقته عنها وحزنه الكبير من هذا الأسلوب الذي تمارسه معه ومع الآخريات.

أحست ساعتها بأن باب الأمل مفتوح وأن السنوات القادمة كفيلة بإزالة كل تلك العوائق والوصول إلى هدفها حتى ذلك اليوم وبعد أن نالت شهادتها الثانوية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الجامعة أعلن محمود عن عزمه للدراسة في أمريكا بينما اختارت هي طريقها إلى كلية الطب واختارت ربى دراسة الآداب.

يومها جاءت ربى إليها وقالت لها بأنها ومحمود مخطوبان وأنه قد وعدها بالزواج في أول فرصة يعود فيها من أمريكا إلى جدة، لكن محمود لم يأت.. أمضى أكثر من ست سنوات درس خلالها الهندسة ونال شهادة البكالوريوس والماجستير.

ست سنوات مضت وانقضت لعبت خلالها ربى لعبة القط والفأر معها دون

خوف أو حياء متمادية في إغاظتها بالرسائل الملونة الطويلة التي كانت تكتبها لنفسها على أنها مرسلة من محمود.

لم تكن روان تدري أن ربى كاذبة بل كانت تأخذ حديثها على محمل الجد: فتشعر بالتعاسة، لا لأنها فقط تحب محمود وإنما لأنها كانت تدرك بأن ربى لن تكون تلك الزوجة الصالحة لمحمود. ومع هذا فقد كان غياب محمود عن العودة إلى جدة في الإجازات ما طمأنها على أن شيئاً ما قد حدث بينه وبين ربى وإلا لماذا يأتي لزيارة خطيبته؟

واستعادت روان رباطة جأشها وأدركت أنها محظوظة فها هو محمود يعود وفي يده زوجة أمريكية وهذا في حد ذاته يؤكد تخرصاتها التي كانت تراودها بين الفينة والفينة بأن ربى كاذبة وكاذبة أصيلة.

في المساء أبلغتها أمها دعوة السيدة فاطمة أم محمود للحفل الذي ستقيمه بمناسبة عودة ابنها من الخارج.

سألت روان أمها عما إذا كانت تريد أن تصحبها إلى هذا الحفل فقالت نعم وبإصرار فالسيدة فاطمة تأمل أن تكون هي الأخرى مع أمها في هذا الحفل في الموعد المحدد.

كانت هي وأمها في بيت محمود وقد انتظمت القاعة الكبرى العديد من النساء اللواتي عرفت بعضهن. وكانت عيناها منصبتان على الجموع الحاشدة باحثة منقبة عن ربى وأمها فلم تجد لهما أثراً بعد.

عزت ذلك إلى تأخرهما في الحضور وانتظرت بعض الوقت حتى إذا ما دعي الجميع إلى البوفيه العامر بأطايب المأكولات أدركت أن ثمة شيء جعل ربى ترفض الحضور وهذا الشيء هو وجود الزوجة الأمريكية التي لم ترها هي الأخرى في الحفل فاطمأنت بعض الشيء. حتى إذا ما قاربتها سألت روان أم محمود عن ربى وأمها فقالت بأنها لم تدعوهما إلى الحفلة لانقطاع أسباب المودة بينها وبينهما . مضت روان تزدرد الطعام بشهية لم تعهدها حتى إذا ما انتهت حاولت الكرة مرة ثانية للتحدث مع أم محمود التي انشغلت بعض الشيء بضيوفها فلم تتمكن من سؤالها عن الزوجة الأمريكية.

شعرت روان بأن أمها قد لاحظت حيرتها وانشغال فكرها فلم تسألها عن

السبب فقد كانت مقتنعة بأن ابنتها لا بد وستقول لها عن كل شيء كعادتها معها.

في السيارة ألقت روان سؤالها لأمها عن الزوجة الأمريكية التي حضرت برفقة محمود فضحكت الأم وقالت في شيء من الهدوء:

- من قال لك إنها زوجة محمود؟

أجابت روان بشيء من الحزن:

- بعض صديقاتي اللواتي رأينها وهي تصل برفقة محمود..

أعادت أمها الضحك وقالت:

- لقدأ خطأن جميعاً فكلوديا ليست زوجة محمود وإنما هي زوجة صديقه عباس الذي رجاه بأن يساعدها وهي تجمع أثاث بيتها وما تحتاجه بعد عودة ذلك الصديق للعمل في المستشفى العسكري.

ارتاحت نفس روان وهدأت لحظات لكنها بعد أن أعملت فكرها عاودت سؤال أمها:

- إذن سيخطب محمود ربى كما اتفقا.

نظرت أمها إليها بشيء من الدهشة وقالت لها:

- هل رأيت ربى في الحفل؟

قالت:

- لا.

قالت:

- إذن لمعلوماتك فالصلة بين الأسرتين مقطوعة منذ أكثر من ثلاث سنوات بعد فصل بارد صنعته ربى مع أم محمود وإن كانت أم محمود لم تذكره لي بالتفصيل.

في غرفة نومها في البيت أخذت تخلع ملابسها في فرحة غامرة. بدت على وجهها معالمها حتى إذا ما استعادت ملابس النوم جلست إلى مرآتها تنظر إلى وجهها لتدرك أنها لا تزال فاتنة رغم أنها قد وصلت إلى الخامسة والعشرين من

العمر بالإضافة إلى شهادتها كطبيبة والتي ستنالها بعد ستة شهور. وفي الصباح تناولت إفطارها بشهية جعلت أمها تبتسم وهي تدرك في أعماق نفسها سر هذه السعادة لكنها لم تكن تريد أن تتحدث إليها عن شيء جديد يضيف إلى سعادتها فرحة وسعادة أخرى.

أدركت روان أن أمها تخبيء شيئاً في نفسها فراحت تسائلها في هدوء حتى إذا ما الحت قالت وفي شيء من الدلال:

ـ لقد تحدثت لي أم محمود عن رغبة ابنها في خطبتك لكني لم أرد أن أقول شيئاً لك حتى تأتي بشكل رسمي.

ـ خطبتي أنا؟

قالت روان:

ـ نعم فمحمود حسبما قالت أمه لا ينسى أيام الطفولة التي سعد بها وهو بجانبك رغم كل ما كانت تصنع ربى.

ـ وتعرفين ذلك يأماه؟

ـ نعم. بل وأكثر من ذلك.

ثم مضت بعد أن تركتها لأفكارها وأحاسيسها.

ترى منذ متى فكر محمود في خطبتها؟ ولماذا أخفت أمها الخبر عنها هي التي تعرف تفاصيله؟

صور كثيرة راودت مخيلتها وهي في جلستها تلك وقد طغت سعادتها على تفكيرها وأحست بأنها أنثى وليست طبيبة.

فالأنثى تعيش بغرائزها بينما الأخرى تستمد مقومات حياتها من تلك الخطوط التي منحها إياها تعليمها ودراستها وما تقرأه في كتب الطب وغيرها.

ولقد ساورها شيء من الخوف فهي لم تلتق بمحمود منذ سنوات عديدة كتمت خلالها حبها في قلبها فلم تدل بشيء حتى لأقرب الأصدقاء إلى قلبها خوفاً من أن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. ولكن وحتى بعد أن عرفت ما عرفت فستطبق فمها حتى يصبح الأمر نافذاً وعندها سيكون لكل حادثة حديث.

في الصباح جاءها صوت ربى في التلفون مثلما جاءها فيه شيء من

العدوان. وهي تسائلها عن الحفل الذي أقامته أم محمود وكأنها تعتذر عن عدم وجودها في الحفل لمرضها رغم وصول الدعوة إليها.

لم تشأ روان أن تقول شيئاً مما تعرف بل حاولت أن تصف لها الحفل في عفوية ممزوجة بقليل من الحب شأنها عندما تتحدث مع أية صديقة.

لكن ربى أخذت تدور وتدور في حديثها حتى جاءت على ذكر الزوجة الأمريكية.

أفهمتها روان الحكاية على حقيقتها وقالت لها بأن محمود لم يتزوج وإن كان يعتزم الإقتران بفتاة أخرى.

سألتها ربى عن الفتاة فأجابتها بلؤم بأنها لا تدري وقالت معقبة:

ـ ربما تكونين أنت يا ربى.

صمتت ربى بعض الوقت ثم قالت في تخاذل:

ـ لا أظن.

واكتفت ببضع كلمات أنهت بها حديثها لكن روان أخذت تستعيد كل حرف من مكالمتها تلك التي أحست بعدها بأنها لا بد وقد علمت بما تفكر فيه أم محمود ومحمود بخطبتها ولهذا رأت أن تحاورها لتتعرف بأسلوبها على الحقيقة لكنها لم ترد عليها وتركتها تضرب أخماساً في أسداس مع أنها قادرة على أن تقول لها الحقيقة.

روان تتخرج من كلية الطب بعد أن تمضي فترة خطبة جميلة أحست خلالها بحب محمود وولهه بها لدرجة جعلتها تنسى ربى صديقة الأمس فلم تسأل عنها محمود مطلقاً حتى إذا ما جاء يوم الزفاف لبست روان فستان الفرح وقلبها ينبض بالحب والأمل. كانت تثق كل الثقة في زوج المستقبل وتشعر بأنه رجلها الذي انتظرته.

في قاعة ليلتي بجدة زفت روان إلى زوجها في احتفال كبير ورائع لم يفسده عليها حتى وجود ربى التي حاولت تهنئتها ضمن أصدقائها وعلى وجهها مسحة من الألم والحزن أحست بهما روان وهي تبتسم وإن كانت لم تقل شيئاً سوى أنها كانت تدعو في أعماقها لأن تجد ربى الزوج الذي يقضي على كل مشاكلها وما كانت تصنعه معها في الصغر والكبر معاً.

الحب يأتي بالعشرة

يتمالكني الزهو وأنا أطالع وجهي على صفحة المرآة الأنيقة داخل غرفة نومي تلك التي استطعت أن أحيل كل ركن فيها إلى لوحة رسم فريدة صاغها رسام ماهر.. فلقد تحملت من أجل أن تصبح على ما هي عليه الكثير من الوقت والجهد وبعض من المال، أدركت بعده أن الحياة لا يمكن أن تستقر بدون هذا المال الذي يتطلع إليه الناس دائماً وكأنه البلسم السحري لإضافة شيء من السعادة على حياتهم.

بيتنا من البيوت الأنيقة جاهد أبي وكافح لأن يصبح لنا مثل هذا البيت بعد أن كبرت وكبر أخي وأختي سمية.

الفارق بينه وبين بيته الأول كبير جداً لدرجة شعرت يوم أن وطأت قدمي عتبة البيت أننا انتقلنا من الفقر إلى الغنى ومن الحياة المتوسطة إلى حياة جديدة أخرى كنت أتطلع إليها في صمت لأني لم أكن أتوقع أن نعيش في مثل هذا البيت وأبي رجل من عامة الناس لم يعطنا الفرصة لأن نتعرف على أفكاره وأحلامه وأمانيه كان يحقق أحلامه الواحدة تلو الأخرى في صمت.

وأنا أذكر يوم جاء ليأخذني أنا وأمي لنشتري البيت الذي يفكر أن يبني مثله خصوصاً وأنني مهندسة ديكور تخرجت مؤخراً من الجامعة. عندما رأيت البيت أعجبني لرؤيته من أول وهلة وتعلقت برقبة أبي أرجوه أن يفعل.

ضحك أبي وقال في عفوية:

ـ ولكنه بيتنا يا هدى.

صعقت للخبر وانهمرت دموع الفرحة من مآقي، وتلمست شفتاي رأسه ووجنتيه وأشبعته لثماً وتقبيلاً نظرت بعدها إلى وجهه فرأيته في قمة السعادة، أدركت في ذلك اليوم قدرة أبي على اجتياز الصعاب والعمل في صمت ومحاولة جلب السعادة إلى قلوبنا جميعاً نحن أسرته الصغيرة.

قالت أمي بعد أن عرفت الخبر إنها اختارت الغرفة الكبيرة ذات الجناح المزدوج لها ولأبي وأخي الصغير واخترت أنا غرفتي عن سابق عزم وإصرار فلقد أحببت الغرفة منذ أن رأيتها لأول وهلة ومضيت أرسم في مخيلتي أسلوب فرشها ووجهي يتهلل وقلبي يرقص طرباً وسعادة.

عندما انتقلنا إلى بيتنا الجديد قالت أمي لأبي بأنها ترغب في تأجير بيتنا القديم لأخيها لكن أبي رفض وقال لها في شيء من الهدوء بأنه قد منحه لصديق وأنه لا يستطيع أن يتراجع عن هذا المنح. أحست أمي بأنها المرة الأولى التي يرفض فيها أبي طلبها وقد قالت وحاولت لكنه لم يلن أو يتراجع وتركها تتحدث كيفما شاءت دون أية رغبة في إجابة طلبها. أخي وأختي في سنواتهما الأولى يهرولان في سعادة حول بركة السباحة الأنيقة وأبي هو الآخر سعيد بما حقق.

في الشهور الأولى من انتقالنا إلى البيت الجديد كان أبي يتغيب كثيراً حتى إنه ترك عادة تناول الغذاء معنا بدعوى انشغاله في أعماله وشريكه عبد المجيد الذي كان يقول عنه بأن السعد يجري في ركابه. لم نكن ندري بأن أبي قد تزوج بأخرى ويوم عرفت كان أبي قد أنجب طفلة شاركت في ولادتها صديقة لي عزيزة لكني وبعد أن عرفت رجوتها أن لا تتحدث عن هذا الأمر بشيء.

كبرت ثريا وبلغ عمرها الخامسة بينما أختي الأخرى قد تجاوزت التاسعة. أمي لا تعرف شيئاً عن هذا الزواج وأنا من جانبي حاولت تناسي الموضوع لكن أبي أصبح يغيب عن البيت ليلاً بدعوى السفر هنا وهناك.

بعد أكثر من عامين من ذلك التاريخ عرفت أمي بزواج أبي لكن كبرياءها منعها من أن تتحدث إليه في هذا الشأن وسارت الأمور على ما يرغب أبي وإن كانت أمي ازدادت بعداً عن أبي.

عرفت أنا الأسباب أما أخي وأختي فلم يعرفا شيئاً عن هذا الموضوع.

بعد ستة شهور جاء أبي يحمل أختي بين يديه ليضعها أمانة في عنق أمي. فقد ماتت أمها أثناء الولادة وذهب طفلها معها فوجد من الصعب أن يترك بنته عند أحد من أهلها فكان يوماً خفت فيه أن تنفجر أمي لكنهالم تفعل وإنما أخذت الطفلة بحنانها وأصبحت تتعهدها كابنتها مما أخجل أبي وجعله يدرك تضحية أمي وقدرتها على التضحية والبذل والعطاء أيضاً.

أبي انعدل حاله لم يعد يفكر في الزواج مرة أخرى. لكني كنت دائماً له بالمرصاد حتى تلك الليلة التي كانت أمي في زيارة لإحدى صديقاتها لتناول العشاء. سألت أبي عن السبب الذي أدى به إلى الاقتران بأخرى غير أمي، فضحك أبي وقال:

ـ لو قلت لك لما صدّقت فكثيرون يظنون أن المال عندما يجري في يد الرجل يتجه تفكيره إلى الزواج بأنثى ثانية لكنني لم أكن كذلك فقد تزوجت أمك وأنا صغير لم أرها ولم ترني اختارتها أمي عن سابق عزم وتصميم حتى إذا ما مضت الأيام شعرت بأن علي أن أغامر وأتزوج بأخرى أختارها بنفسي ولقد اخترت الأخرى ولا أكتمك فعلى الرغم من أنها من بيت صغير لكنني أحببتها وأحبتني.

نظرت إلى وجه أبي وقلت:

ـ أكثر من أمي؟

ضحك أبي وقال:

ـ نعم.

فلم أعقب بل تركته يفضفض عن نفسه بعض الشيء. وعاود الحديث قائلاً:

ـ لقد كنت أود أن أتزوج أخت هذه التي تزوجت قبل عقد قراني على أمك لكن أبي وأمي رفضا أن يخطباها لي لأنها من بيت فقير وظل الأمر بيني وبين نفسي حتى إذا ما وجدت الطريق خالياً لقلب أختها بعد أن تزوجت الأولى طلبتها للزواج فلم ترفض أسرتها وهكذا كان. فهل تلومينني على ما قمت به وقد أخبرتك بكل شيء؟ لقد تدخل القدر ليعيدني مرة أخرى إلى بيتي وأمك

ولولا أنها قضت نحبها لبقيت معي هي الأخرى. فهي كما قلت اختياري شخصياً ولهذا فأنا آمل أن لا تلوميني فأنا وإن كنت أقدر أمك وأحترمها وأعرف أنها من الفاضلات لكن هناك أمور كثيرة يتدخل القدر فيها دون أن يكون لنا فيها أي يد وستعذرينني عندما يلامس شغاف قلبك شيء من الحب لعريس المستقبل الذي ستختاريه وستشعرين بأننا في مجتمعنا هذا نتصرف وفق عادات وتقاليد تحد بعض الشيء من جزء كبير من حقوقنا التي نحس بأنها ملك لنا لكن إرادة الآخرين تتدخل وهي عندما تتدخل تحسم الأمر كأمر مفروغ منه وعلينا نحن الطاعة فهذه حياتنا وهذا هو مجتمعنا الذي نعايش.

لا أدري ماذا أقول. شعرت في أعماق نفسي بتعاطفي مع هذا الأب بعد أن أحسست بمدى ألمه لوفاة تلك التي شاءت الأقدار أن تكون ضرة لأمي. ربما لأني من جيل غير جيل أمي وربما لأن انفتاحنا على هذا العالم منحنا القدرة على الفهم والإدراك واستيعاب مشاعر الآخرين وتقدير ظروفهم.

أبي مع شريكه في توافق عجيب كبرت تجارتهما وازداد دخلهما حتى إننا أصبحنا أشبه بعائلة واحدة يعايش بعضنا البعض في حب ويعامل بعضنا الآخر في حب أيضاً. أختي كبرت وابن شريك أبي كبر هو الآخر بعد أن تزوجا وأنجبا صبياً وصبية لكنني مع بعدي عن بيتنا الأول كنت أتابع أختي ودراستها وأشعر أنا بأنني أمها خصوصاً بعد أن توفت أمي هي الأخرى وأصبحت أختنا الثانية جزءاً هاماً منا ومن حياتنا.

حياة الصبا تسري في عروق سمية أختي التي أحب كانت أشبه بدمية جميلة بشعرها الكستنائي الطويل وملامح جسدها التي أخذت في التغير. لم تعد تلك الطفلة أضفت عليها السنين مسحات من الأمومة لدرجة جعلت كل من يراها يعشق حديثها وتصرفاتها العفوية الجياشة. تفوقها في الجامعة كان محط أنظار الأسرة التي أخذت تشد من أزرها وتدفع بها لأن تنهي دراستها بأسرع ما يمكن.

لسمية صديقة من أسرة كبيرة مكونة من الأم والأب وهي وأخيها الذي عاد مؤخراً من إنجلترا بعد أن نال شهادة الماجستير في العلوم السياسية رغم غنى والده وإمكاناته الكبيرة. فسمير لا يرغب أن يعمل في التجارة ويفضل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسي لفترة يلملم فيها نفسه ويصلب فيها عوده وبعدها يعود

ليواصل العمل في تجارة أبيه.

ضحى هذه الصديقة أدخلت في عقل سمية أن تتزوج بأخيها الذي شاهدته أكثر من مرة أثناء زيارتها لبيتهم. لم أكن أظن بأن سمية ستتعلق بهذا الشاب حتى عرفت منها كل التفاصيل. حدثتني أختي عنه بإعجاب وقالت لي بأنها تتمنى بالفعل أن تزف إليه، لكنها تفضل إنهاء دراستها ومن ثم الزواج.

تحدثت أم سمير لي عن هذه الرغبة ولم أشأ أن أفاتح أبي حتى تنتهي أختي من الدراسة.

كثيراً ما كنت ألوم نفسي على أنني لم أسرع بإخبار أبي ولو تم الأمر قبل أن تنهي سمية دراستها لانتهى كل شيء لكنها الظروف جعلتنا نؤخر هذا الحديث حتى جاء شريك أبي يعرض أن يتزوج ابنه من أختي.

لم يقل أبي شيئاً ترك لنفسه الحرية ليتعرف على رأي سمية. شعرت بأنها ترفض هذا العريس بقوة رغم أنها تعرفه لكنها حاورت وداورت في الأمر لكن أبي أراد أن يعرف رأيها بصراحة فأعلنته غير هيابه أو وجلة.

نظر أبي إلى وجه أختي بصورة لم أعهدها من قبل وكأنه يريد أن يكتشف سبب الرفض وإن لم يسأل لكنها لم تكن قادرة لأن تمنحه معرفة السبب ربما لأنها كانت خائفة أن يرفض هو الآخر هذا العريس الآخر هكذا قالت لي أختي بعدئذ عن سبب عدم إفصاحها عما يجري بينها وبين صديقتها.

أبي مقتنع بالأمر فلم يحاول البحث معها عن السبب بل انصرف إلى الأخت الأخرى يسألها عما إذا كانت تقبل الزواج بابن شريكه فالتزمت الصمت ولم تجب وإن بدا على وجهها القبول فارتاح أبي للأمر وانصرف.

عندما قابل أبي شريكه أعاد عليه حديث الخطبة، لم يترك الأمر للظروف بل وضع النقاط على الحروف وطلب بالاسم أن تزف سمية لابنه الذي يحب.

أبي عرض عليه أن يزوجه أختنا غير أن شقيقه رفض بإباء وقال في شبه تصميم:

ـ لقد اخترت لابني من أدرك أنها تستحقه. أما الأخرى فأنت تعرف فنحن

الذين تجري في عروقنا دماء البداوة نرفض أن نتزوج أو يتزوج أبناؤنا من فتاة مجهولة الخال.

تلك هي عاداتنا وتقاليدنا. فأنا حريص على صداقتك واستمرار شراكتنا وأعتقد أن من تليق بأن تكون زوجة ابني هي سمية التي تجري في عروقها الدماء الزرقاء.

ضحك أبي ولم يعقب لكن انزعج كثيراً لإصرار شريكه وأخذ يفكر في الأمر بروية حتى استقر رأيه على أن لا يفقد صديقه ولا يفقد شراكته ما دام مصراً على ما ذكر. أفهمني أبي الأمر فذكرته بأنه سيحاول فرض شيء هو نفسه أحس فيه بالضيق وقلت له:

- ألم تقل لي يا أبي بأن زفاف أمي كان مفروضاً عليك ولهذا اتجهت للاقتران بأخت الأخرى التي أحببت؟

أختي هي الأخرى لا تدري شيئاً لكن سيأتي اليوم الذي سيشرح فيها أبي لها حقيقة الأمر ولا أدري إن كانت ستستطيع الرفض أم لا فأسرتنا جميعها تميل إلى الطاعة.

طلب أبي مني أن أخبرها بالأمر وأن أهيئها لما سيتم وها أنذا أضرب أخماساً في أسداس لا أدري كيف أبدأ معها رحلة الكلام عندما نقلت إليها الأمر بكت في صمت وأشاحت بوجهها عني وأخذت تتمتم في صوت خافت بكلمتها:

- ليكن ما يريده الأب.

سعدت بكلمتها تلك وأخذت أعزيها بأن أقول لها بأن الأيام التي ستعيشها مع زوجها القادم ستأتي بالحب بطول العشرة فنحن الحرائر نميل دائماً لأن نكون مطيعين لأبائنا على أمل أن يطيعنا أبناؤنا وبناتنا عندما نكبر.

عندما يمرض الطبيب

ميعاد زيارة الطبيب اليوم، وسيتجول في أنحاء المستشفى، ويلتقي بأُناس يعرفونه تماماً وأُناس يعرفون اسمه، فهو واحد من أكبر جهابذة الطب شاءت الظروف أن يقع فريسة المرض هو الذي عايش المرضى وأراح الآلاف منهم وساهم في إسعاد الكثيرين وشارك بعضهم الفرحة بعودة معالم الصحة.

مسكين هذا الجسد الطويل الممشوق وهذا الوجه الأبيض المتلألىء وهذه الشعيرات البيض التي غزت فوديه وهذا الحزن الطاغي الذي بدأ يتسلل إلى قلبه الذي لم يعرف الحزن ولم يرض بالتململ.

خمسة وعشرون عاماً قضاها في غرفة العمليات أكد خلالها شخصيته وإنسانيته وقدرته الفائقة على إعادة الأمل لقلوب أولئك الذين راجعوه، فنال من وسائل الإعلام التكريم ومن الأصدقاء الحب ومن المرضى الشكر والعرفان.

خمسة وعشرون عاماً لا يدري كيف مضت وإن كان يدرك بأنها ليست كل سنوات عمره فقد سبقتها خمسة وعشرون عاماً درس خلالها وتعلم ونال شهادة الطب من أكبر كلية للطب في أمريكا، هي كلية طب هوبكنز الشهيرة التي استحوذت على لبه وفتحت له صدرها بعد أول تسجيل له لنوع جديد من العمليات تفهم خلالها بمعالجة أهم جزء في الإنسان ألا وهو الدماغ، كثيرون جاءوا وقد هرمت نفوسهم بعد أن علموا بنوع إصابتهم حتى إذا ما قام بتطبيبهم ومعالجتهم عاودوا مسيرة الحياة لدرجة جعلت بعضهم يتأثر بصداقته

طوال حياته فيسألون عنه ويسأل عنهم ويتبادل معهم التهاني في مناسبات عدة.

ولكم شعر بالأسى والحزن يفجر قلبه يوم لم يستطع أن يعالج تلك الفتاة الشقراء التي جاءت مع أصحابها من المدينة بعد أن أصيب مخها بمرض عضال، قد يكون من الصعوبة بمكان معالجته لأنه واقع في مكان قد يقضي على جميع مظاهر الحياة والأنوثة لدى تلك الصغيرة التي أحس بها تتسلل إلى قلبه وهو يفتح دماغها جراحياً أكثر من مرة محاولاً قدر المستطاع إزالة الضرر دون ما جدوى.

ويوم ودع تلك الصغيرة وهي تعاود رحلتها إلى مدينتها شعر بألم طاغ يعتصر كل قلبه ويشل كل تفكيره.

فالصغيرة رغم جمالها الأخاذ كانت مستسلمة راضية بقضاء الله وقدره، وهو يتذكر كم ذرف من الدموع يوم بقي بمفرده في غرفة العيادة يتأمل في صمت ملابسات مرض الصغيرة والتي استعصى عليه علاجها فلم يتمكن من إزالة الخطر عن الجسد الأشقر الرقيق.

وداعة الفتاة وحديثها العفوي وكلماتها المتقطعة أحس بها كخنجر يتكسر على حافة كل إحساساته كطبيب وأب وإنسان وعاد إلى بيته ليفضي لزوجته بكل ما في صدره متلمساً بين ذراعيها راحة قلبه الذي تعب.

وهو يذكر كم كانت المسافة بين المستشفى التخصصي وبيته في الرياض والتي قطعها ولأول مرة في أكثر من ساعة لأنه كان يتلمس طريقه في هدوء بعيداً عن الطريق الأصلي الذي كان يختاره. كانت يداه على مقود السيارة وعيناه مفتوحتان على الطريق لكنه لم يكن طريقه فلقد تاه عن طريق بيته لأول مرة في حياته.

بعد هذه الحادثة بشهور ستة أحس بفتور في جسده وشيء من الحرارة يتسلل إلى وجنتيه مما دعاه لأن يستخدم لأول مرة ميزان الحرارة ليجد حرارته تنزل حتى رأسها للصعود حيناً وللنزول حيناً آخر.

ترى ما الذي أصابه؟ فهذه الحرارة وهذا الألم المتواصل في جسده يواصل سيره رغم كل شيء، مما جعله يدرك بأن ما أصابه ليس بنزلة برد ولا حتى زكام طارىء.

ويوم أخلد للراحة في بيته لأول مرة شعر بالأسى والحزن يصادر جميع إحساساته فحاول أن يخبىء تلك الأحاسيس وهو يرى ترحيب زوجته لبقائه معها لفترة هو الذي لم يفعل ذلك مطلقاً طوال سنوات حياته.

وفي الصباح عاهد نفسه على أن يقوم بجميع التحليلات التي يستطيع من خلالها أن يتعرف على أسباب هذه الحمى الوافدة التي تنخر جسده بعد أن أحس بازدياد الإرهاق، هو الذي لم يعرف مثل هذا الإرهاق في حياته وجاء الغد يحمل تباشير يوم جديد صحا فيه وهو أحسن حالاً، لكن هواجسه الداخلية أخذت مكاناً كبيراً من تفكيره بعد أن أعاد حساباته وحاول أن يتلمس الطريق لمعرفة الأسباب التي صنعت به هذا الذي صنعت.

كان يشعر بكثير من الضعف يصافح أجهزته الجسدية التي درسها وعرفها عن ظهر قلب، واستطاع من خلال معرفته أن يصل إلى كنه المشكلة التي أدارت رأسه وجعلته يتمنى أن لا تكون إصابته مثل ما فكر، فالطبيب دائماً أقدر الناس على معرفة خطوات المرض من الإنسان العادي وهو أقدر أيضاً على تلمس الجوانب السريعة التي توصله إلى التأكد من الأسباب بعد استخدام كافة الوسائل العلمية المتطورة.

أما زوجته فقد خافت عليه وطلبت منه أن يرتاح رغم أنه لم يقل لها شيئاً عما يفكر فيه، لكنها كانت أسرع منه في طلب أخيها فهو الآخر طبيب مشهور له باع طويل في التحليل واستنباط الأسباب وها هو اليوم يعاود للمرة الثانية زيارة الأطباء وأقسام التحاليل، فلقد أعطت أكثر هذه التحاليل نفياً لتواجد أي نوع من المرض، لكنه كطبيب يشعر بالمرض ويحس به ويحاول أن يدفع عن نفسه هذا الإحساس المرهق بالألم والضنى والعذاب ولقد افتقده الكثيرون من مرضاه فلم يشغلهم مرضهم عن السؤال عنه بل ألحوا في السؤال حتى وجدوه أخيراً على السرير الأبيض يستلقي عليه ومن حوله شتى التقارير التي أخذ يقرأها بعناية وإمعان.

التحليل الثالث لدمه أثبت تكسراً فظيعاً في صفائح الدم وضعفاً شديداً لأعداد الكريات البيض.

الأطباء يواصلون فحصه بإمعان وهو على إيمانه يستلقي على السرير مغتبطاً

بجهاد زملائه وطلابه. كلهم يحبون هذا الطبيب ويقدرونه ويدعون له بالشفاء، أما زوجته فقد هزل جسدها وشحب وجهها وهي ترى كل هؤلاء الأطباء وترى حيرتهم في تشخيص نوع المرض.

ويوم أخذ الأطباء شيئاً من نخاعه الشوكي كان أمله أن يعرف كبير أطباء الدم حقيقة هذا المرض الذي لم يتسن لهم معرفة مصدره لكن أملهم جميعاً خاب إلا واحداً منهم كان أستاذاً قضى أكثر من عشرة أعوام فلقد حاول هذا الطبيب بعد جهاد طويل اكتشاف مسببات مرض أستاذه الذي أحب، كان سعيداً بهذا الاكتشاف رغم إحساسه بفداحة أثره على الجسد الإنساني لكنه نتيجة لما درس يعرف جيداً بأن سرعة اعلاج تُنهِي وتُوقِف مثل هذا المرض الذي تزداد فداحته أكثر بكثير من مسببات السرطان اللعين.

لم ينم ذلك الطبيب بل مضى يواصل استخدام جميع المؤثرات الكيميائية ليتعرف إلى قدرتها لمقاومة المرض حتى إذا ما استطاع الوصول إلى هدفه أحس بالراحة وشعر بأن واجبه أن يسرع في علاج أستاذه بعد أن يطلعه وكبار أساتذته على هذا الفيروس العجيب الذي يدفع الأجسام المضادة لمهاجمة الجسم وتدمير صفائحه الدموية.

سبع ليال أمضاها الطبيب الشاب على مقربة من سرير أستاذه الطبيب المريض يدفع في شرايينه بجرعات الدواء التي اختارها بعد اجتماع طويل شارك فيه الكثيرون ممن سبقوه في الخبرة وإن كانوا جميعاً معترفين بأسلوبه وطريقته في الكشف عن أسباب المرض وطريقة العلاج حتى إذا ما كان اليوم الثامن دب الأمل في جسد الأستاذ الذي استجاب للعلاج المتميز بينما كانت زوجة الأستاذ تراقب بحنان وسائل العلاج المتميزة التي اختارها الطبيب التلميذ الذي بزَّ الكثير من أساتذته، ولم يمض أكثر من ثلاثة أيام حتى غادر الطبيب غرفة الإنعاش إلى غرفة المستشفى ليواجه بالجيش الكبيير من مرضاه، وقد دفع أكثرهم بورود الحب تحية لهذا الطبيب الإنسان.

أما هو فقد انصرف إلى سريره يفكر في هذا المرض الذي أصابه والذي استطاع معه أن يتبادل الفكر مع نفسه قبل أي شيء آخر رغم كل الحب الذي يربط بينه وبين زوجته، وغدا يحس بأن الحياة ليست مجرد روتين يمارس كل

واحد منا فيها ما سخر له وإنما هي كيان كبير يربط القلوب بوشائج فتية من حب نقي لا يقهر يرتبط بالواقع، ويتسلح بالخيال ليستطيع من خلاله تجسيد ما يتمناه للآخرين خصوصاً عندما يكون هذا الإنسان واحداً من رجالات الطب الذين نذروا أنفسهم لخير البشرية. وما أجمل أن يصنع الناس الخير على هذه الأرض وما أجمل أن يشع الحب ويطفو على صدور الناس كل الناس، فالأرض هذه التي أحبها الإنسان رغماً عن أنفه والتي ستضمه في آخر المطاف ستظل وتبقى ما دام الخير يعشعش على القلوب والحب يطل من العيون، العيون التي عاشت للحب فانصهرت فيه وانصهر فيها حتى أصبحا كياناً واحداً.

قد لا نخطيء عندما نقول إن بعض هؤلاء الذين نسميهم عن حب ورغبة بأنهم أكثر إنسانية حتى من الإنسان نفسه.

أنت دائماً

افتقدتك بعد تلك الصلة، كنت أظن بأنني سأتخلص من هذا القيد الذي يشدني إلى البيت. اشتريت تذكرة سفري وحجزت غرفتي في الفندق الكبير في باريس، لكني لم أكد أصل إلى الفندق حتى أحسست بفراغ كبير جعلني أحس بشيء من تبكيت الضمير، فلقد كذبت عليك وقلت إني سأذهب في رحلة عمل.

لم يكن الأمر كذلك وإنما هي نزوة من نزوات أصدقائي الذين شجعوني على هذه الرحلة. كان كل واحد منا يريد أن يتخلص من رتابة البيت والزوجة والأسرة والأولاد. أحسست بفراغ كبير جعلني أضع حقيبتي ثم أغادر الفندق مشياً على قدمي لأضيع بين هذا السيل العارم من البشر في شارع الشانزلزيه العريض في ليلة من ليالي السبت الرائعة.

الأضواء تملأ الشارع والزهور تمتلىء بها واجهات الحوانيت والرجال والنساء في تسكعهم يضحكون وأنا وحدي تمتلىء نفسي بالكآبة لا لأني كذبت فقط وإنما لأنني ظننت أنني قادر على الانفكاك من عقالك. أشعر بالضيق وأنا ألمح يديك البضتين تضع ملابسي بعناية في حقيبتي الصغيرة خوفاً من أن أنسى أشيائي التي عادة ما أنساها إن لم تذكريني بها، ذاك طبعي وأنت تعرفينه، لكن الذي لم أعرفه هو أنني غير قادر على الاستمرار في كذبي عليك، ربما لأنني أحبك وربما لأنني أحب نفسي، فالرجال دائماً يشعرون بحاجتهم إلى المرأة عندما يفتقدونها.

باريس جميلة، لكن جمالها من نوع صعب لأنها مدينة مكتملة

المواهب يجد فيها الإنسان غايته أيا كانت غايته تلك هي الحقيقة التقيتها وأنا في طريقي إلى المقهى الصغير الذي تعودت أن أجلس فيه آخر كل أسبوع بعد أن تنتهي أيام الدراسة فأنا من خريجي السوربون عايشت العلم والفن والملاعب بين كواليس الجامعة ودروب الحي اللاتيني الذي أصبح بالنسبة لي لكثرة ترددي على جميع أمكنته أقرب إلى قلبي من مدينتي مسقط رأسي، ربما لأنني لم أعش كثيراً في مسقط رأسي.

المرأة في باريس ودودة جداً تختلف كثيراً عن الرجل ومن طينة أخرى غير طينته، ربما لأنها ولدت وتربت على عشق للرومانسية التي تغلف قلبها الذي يدق كسمفونية جميلة من تلك السمفونيات الخالدة التي لا يشترك في كتابة نغماتها أي إنسان.

وعالم المرأة في باريس عالم مشبع بروح العطر الذي تختاره كل أُنثى لنفسها بأسلوب يتفق وخطوات قدميها الرشيقة وابتسامتها الصافية وأناقتها المفرطة وهي أشبه بكتاب مفتوح تستطيع أن تقرأ صفحاته وأنت تتطلع إلى ملابسها الرقيقة واختيارها الأنيق.

المطر يهطل بقوة وباريس ليست كلندن، فالمطر هنا نادر لكن أصيل يغسل أقدام المدن في شوق المحب ولهذا تجدين يا حبيبتي خلو الشارع من المارة واختيارهم لأقرب مكان لأنهم لم يتعودوا على حمل المظلات ذات اللون الزاهي أو الداكن.

ما إن وقف المطر حتى انطلقت إلى دكان مدام لاروشييه القريب من الشانزلزيه اخترت طريقي إليه في عزم وتصميم حتى إذا ما دخلت المكان حتى وجدتها كما تعرفينها بابتسامتها العريضة وشعرها الأشهب تمد يدها لتصافحني وتسأل عني بحب، طبعاً لم أقل شيئاً سوى أنني في رحلة عمل جعلتني لا أقدر على مرافقتك لي، اخترت معها ثلاث قطع ثياب جميلة ارتدت إحداهن كريستين الصبية الجميلة لأرى كيف يكون مقاس ما اخترت من ثياب.

عندما أردت الخروج من دكان مدام لاروشييه حملتني في يدي هدية صغيرة إليك عبارة عن شال حريري يمتاز بألوانه الثلاث قالت عنه وهي تضحك بأن بإمكانك ارتداؤه مع الفساتين الثلاث التي اخترت، وقالت عنه أيضاً:

ـ كثيراً ما نستدل نحن اللواتي نعمل في حقل الأزياء معاني اختيار المرأة أية امرأة للألوان التي تحب وهذه الألوان الثلاثة التي لن أقول لك عنها تحبها امرأتك ومعنى حبها لهذه الألوان أنها تحبك أنت زوجها بشراهة . .

استمعت لكلماتها في صمت ولم أعقب لكنها كانت أسرع في التعقيب بكلمات قليلة:

ـ دع هديتي لها كما هي لا تفتحها فهي مفاجئة لك ولها ويوم تصل إلى بيتك ستراها برفقتها وعندها ستعرف كم تحبك هذه الأنثى الرائعة التي هي أنتِ.

الحسان في باريس كثيرات منهن من صنعتها الطبيعة ومنها من صنعتها المساحيق، ومع هذا لا تستغني الأولى عن المساحيق رغم نضارة وجهها وجمال ابتسامتها ذلك لأن أصحاب دور التجميل استطاعوا أن يعتبروا حرية المرأة من خلالها وأبقوها في شراكهم فلم تستطع الانفكاك.

قد تقولين إنها مؤامرة وقد أقول أنا كذلك لكن ما تقولين ستعيشينه حتماً عندما تقفين أمام المرآة وتمتد يدك إلى مستحضرات التجميل التي اختارتها هذه المؤسسات، ستضحكين بلا شك من قولي هذا لكن ما أقول هو الحقيقة، فالمرأة هي المرأة تختار مساحيقها برغبة وحب، ولا تفرط بما أحبت مهما كان الثمن.

في طريقي إلى الفندق لفت نظري فستان أحمر جميل واجهني بضراوة أحسست بعدها بضرورة التوقف قليلاً بينما كانت تتنازعني الرغبة بأن أشتريه لك. . لكني وبعد حديث صافٍ مع نفسي أحلت الأمر إلى الغد على أمل أن ألقى ما يبزه ويفضله.

في الفندق أعطاني رجل الاستعلامات ورقة صغيرة وردية اللون يفوح من بين جنباتها رائحة عطر أعرفه. فتحت الورقة وقرأت ما خطته يد نيفين الفتاة الذكية التي رافقتني أيام الدراسة، كانت كلماتها صغيرة وقصيرة وأنيقة أيضاً:

ـ جئت لأراك ولم أجدك.

وبعدها كان رقم التلفون. لا أدري كيف عرفت هذه المحبوبة بقدومي.

ألقيت الورقة جانباً ثم التقطتها ووضعتها في جيبي ومضيت أجرجر قدمي إلى غرفتي ليأتيني صوتها قوياً واضحاً.

قالت:

ـ كنت أعرف أنك عدت فلم أضيع الفرصة لأنني خفت أن تفقد الورقة التي تركت أو تتردد في مهاتفتي.

جاءني صوتها كالمعتاد صافياً كأسلاك الفضة يماثل في نقاوته خصلات شعرها البلاتيني الطويلة. اتفقنا على موعد وأقفلت السماعة وأنا أفكر فيك فيك أنت أنت وحدك للحظات ثم مرّت بعدها صورتها لثوان خلت نفسي أنني سأرتكب جريمة لكوني فكرت فيها.

في الغد جاءت نيفين إلى الفندق تحمل على كتفيها شالاً يشابه الشال الذي اشتريته قبل عامين. جاءت تسبقها ابتسامتها وبرفقتها فتاة تصغرها بأعوام قدمتها لي باسمها فاتن زميلتها السورية في منظمة اليونسكو.

ورغم شباب الفتاة السورية ونضارتها إلا أن فتنة نيفين وروعة صوتها وهي تتحدث يمنحها القدرة بأن تكون الأحلى والأجمل لمن يصغرنها سناً.

في بهو الفندق تناولت نيفين الشاي في انتظار صديقة ثالثة جزائرية وبعدها تمضي إلى المطعم الصيني القريب من فندق «جورج سانك» كما ينطقونها، عندما جاءت الصديقة الثالثة عرفت منها أنها مولودة في طيبة الطيبة يوم كان أبوها وأسرتها يعيشون هناك بعد هروبهم من الجزائر.

قالت إنها تتذكر أيام طفولتها لأنها غادرت المدينة وهي في سن العاشرة وهذه المرة ليس إلى الجزائر وإنما إلى المغرب.

في المغرب عاشت وتعلمت وكبرت ثم عملت بعد ذلك في باريس منذ ثمانية أشهر فقط. كانت فرحة بمقابلتي فأنا وهي من مسقط رأس واحد، ومضت تثرثر عن أيام طفولتها وتذكر أسماء بعض الأسر من جيران الأمس لأسرتها حينذاك. في المطعم قالت إن المرأة المدنية تتقن فن الطعام أكثر من أية أُنثى عربية ومسلمة أُخرى وإن المطبخ المديني يمتلىء بأنواع كثيرة من الأطعمة أجادت أمها صنعها فأصبحت هي أسيره لكل ما تطبخه هذه الأم.

وأشارت بأن من وسائل التعرف على حضارة الشعوب قدرة المطبخ عى تقديم أنواع كثيرة لا تعرفها شعوب أُخرى وقارنت بين المطبخ الفرنسي وغيره من الدول الأوروبية وخرجت من المقارنة بأن فرنسا أكثر حضارة من أي بلد أوروبي آخر.

كانت ثريا أشبه بفتاة لا تريد أن تكبر.. نيفين تضايقت كثيراً من ثرثرة صديقتها أما أنا والصديقة السورية فقد أُعجبنا بطفولة ثريا وعفويتها. نسيت أن أقول لك بأنني لم ألحظ لون فستان نيفين إلا بعد أن نظرت إليه بتمعن. كان لونه أحمر قاني مثل الفستان الذي رأيته في فاترينة الحانوت وأنا في طريقي إلى الفندق.

في تلك اللحظة بدأت أتذكر أيام الدراسة وسنواتي التي أمضيتها في السوربون وصداقتي بنيفين زميلة الأمس التي كادت تصبح زوجتي لو لم أعد إلى بلدي في تلك اللحظة بدأت أقارن بينها وبينك. لا أنكر بأنني كنت معجباً بحيويتها وقدرتها على العيش بعيداً عن أهلها وممارسة الانطلاق والحرية في بلد الحرية والانطلاق لكن كل هذا لم يكن في صالحها عند المقارنة وإنما كان في صالحك أنت يا زوجي العزيزة، فالرجل لا يحب أن يقترن بامرأة تحب الانطلاق وتعشق الحرية، وهذا الرجل ليس الرجل الأوروبي أو الأمريكي، وإنما أعني الرجل العربي فقط الذي تختلف مواصفات الزوجة عنده عن أي رجل آخر.

سألتُ نيفين:

- لماذا لم تتزوجي؟

ضحكت وقالت بصراحة:

- لأنني لم أستطع أن أدخل أحداً في شراكي.

قلت:

- أو تعنين أن المرأة هي الصائدة؟

قالت وفي شيء من الحذر:

- قد يكون ذلك هنا في باريس صحيحاً.

قالت:

- وفي تركيا أيضاً ومع هذا نحاول نحن النسوة أن نصنع من أنفسنا الفريسة عندما نريد حتى إذا ما أطبقنا شراكنا على الرجل ضحكنا من أعماق قلبنا. .

ابتسمت ونظرت إلى الجزائرية متسائلاً:

- وما رأيك أنت؟

قالت:

- صدقني لم أفكر في هذا الموضوع لكني أعرف أن الزواج قسمة ونصيب يأتي عندما يريد أن يأتي وأنا كما ترى لست على عجل. .

أما السورية فقد كانت في حالة هرب من الزواج لأنها مارسته فجاءت النتيجة ليست على حسب ما تريد وتطلقت ولم يمض على زفافها أكثر من شهور ستة. . والتفتت بكل جسدها بعد أن أمعنت النظر في وجهي وقالت:

- ولكن لم هذه الاسئلة؟ أو تريد فعلاً أن تتزوج لتعرف كيف تصطاد المرأة الرجل أو العكس؟

ضحكت وأجبتها:

- ولكني متزوج ونيفين تعرف ذلك فقد قابلت زوجتي قبل عامين.

نظرت نيفين إلى وجهي نظرة أعادت لي شيئاً من ذكريات نظراتها يوم كنا على مقاعد الدراسة وأطرقت بعدها برأسها قليلاً ثم قالت في صوت عميق شعرت بمدى الشجن الذي لازمه في تلك الجلسة وقالت:

- لو كان الأمر بيدي لتزوجت هذا الرجل ولبقيت تلك المرأة التي تعيش في ظل رجلها في هدوء ولضحيت بكل هذه المناصب حتى منصبي الأخير ليس فقط لأنني أحببته وإنما لأني أيضاً امرأة تحب نفسها. لكنه كان يخاف أسرته ويهاب تقاليدها فعاد إلى أرضه دون أن أكون أنا برفقته أتوكأ على ذراعه. أتدرون؟ ما أحلى أن تتوكأ امرأة على ذراع رجل يحبها وتحبه، فنحن اللواتي تزوجن العمل نحلم بالبيت والأسرة ونشتاق إلى ثرثرة النسوة نصانع هذه ونجامل تلك لتمضي الحياة وفق نواميسها كل واحد فيها في مكانه الصحيح.

في تلك اللحظة ظهرت بائعة الورد بردائها الأسود الذي يفضح تضاريس

جسدها الصغير ووجهها الأسمر المنمنم ونظرت إلي بعناية لكنني لم أمنحها شرف نظرتي خوفاً من أن تستعيد الذاكرة مواقف شبيهة بهذا الموقف وعندها قالت لي نيفين بصوت هادىء رزين:

ـ ألا تشتري لي عقد الياسمين كما كنت تفعل سابقاً؟

اعتذرت لها ومددت يدي إلى جيبي لأخرج بعضاً من النقود وأتسلم في الوقت نفسه العقد.

وفي تلك اللحظة استعدت رباطة جأشي ونظرت إلى وجه البائعة الذي بدا لي أجمل مما كنت أتصور وسألتها:

ـ لماذا لا تختارين عملاً غير هذا؟

فقالت:

ـ أنا لا أحب للمرأة أن تعمل، لكن أحداً لم يطرق بابي ولهذا تراني أعمل على توسيع دائرة الحب في جو رومانسي يشيع منه رائحة الورد والفل والياسمين.

أحسست أنها استمتعت إلى أحاديثنا فأعدت النظرة مرة ثانية فابتسمت ملء وجهها ابتسامة أصيلة ونادرة ومضت تلملم شعرها عن وجهها البريء المضيء ومضت تلاحقني ابتسامتها حتى اختفت عن الأنظار.

أمضيت الليل كله ساهراً بعد انتهاء العشاء وعودتي إلى الفندق. كنت أفكر في أشياء كثيرة بعضها حول نيفين الفتاة التركية التي رافقت رحلتي الدراسية وكنت أقارن بينها وبين زوجتي وأدقق كثيراً في هذه المقارنة. صحوت على صوتك يتسلل إلى أذني عبر التلفون. كنت كعادتك تعدين لي كشفاً مفصلاً عما جرى في غيابي عن البيت والأسرة سألت عن أوقاتي وكيف قضيتها في باريس. لم أشأ أن أكذب وإنما حاولت أن اخفي كل ما يتصل برحلتنا، عنك. وسألت عن عودتي فلم أشأ أن أقول شيئاً عن هذا الموضوع بل تركت لنفسي حرية التصرف.

سألتك فيما إذا كنت ترغبين في شراء أي شيء فأعطيتني قائمة صغيرة بما يحتاجه ولدي من ملابس ولم تطلبي شيئاً معيناً لك رغم تأكيدي عليك بأن تفعلي.

في الزمن الرديء تضيع الأقدام بين منعطفات الطرق ويبدو الشارع أشبه بمظاهرة ضخمة تباينت خلالها شتى الألوان والصور ولتسترد الظهيرة بعض معالم الصحوة التي فقدتها في شهر أغسطس وتعود الطيور المهاجرة إلى أوكارها بعد رحلة صيف ممتعة تتلمظها الشفاه وتتحسس العيون آثارها على الوجه والجسد.

باريس تبدو لعيني أشبه بمدينة قاتمة اللون أنا الذي أحببتها لطول معايشتي لإنسانها وهكذا تساقطت أمام عيني كل الحجج التي كنت أدخرها للبقاء بضعة أيام في باريس المدينة والذكريات بعيداً عنك، ألمح وجهك يطل من بين وجوه الفاتنات اللواتي مررن من أمامي وأنا على مقعدي أحتسي فنجان القهوة بالحليب وصدى الشارع وحكاياه تغيب عن أذني ومقعدي هو المقعد نفسه الذي كنت أنتظرك عليه وأنت تتبضعين احتياجات ولدي وكأنني في تلك الجلسة أنتظر عودتك لنمضي سوياً في طريق الحياة بعيداً عن آلام الناس نستعيد ذكرياتنا ولونها بألوان الطيف وكأننا على موعد مع صحوة الحياة لتتسلل بأفراحها عبر أوردتنا وشراييننا لتدفع فيها نبض الحب الأصلية تلك التي كانت ولم تزل نبراس الأمل في الغد المشرق الذي يجيء وسألقاك غداً فقد عزمت على الرحيل إليك هذه المرة بعد أن فعلتها قبل أيام تحت ضغوط الحياة فبعدت لكن قلبي كان معك رغم آلاف الأميال التي لم تستطع أن تفصل بين الروح والجسد.

وهكذا سألقاك وألقى تلك الصبية اليافعة الممشوقة الجسد الوضاءة الوجه الكبيرة القلب ليمسك كل واحد منا بيد الآخر وليسير في دروب الحياة الطويلة بثقة المحب واعتداد المخلص نبني جسور التواصل نرمق عن قرب نسمات الربيع وهي تداعب وجوه ولدينا في لمسة حب كبير وحنان أصيل.

رجل سعيد سعيد

انتابني الضجر بعد أن غمرت نفسي آلام مبرحة أكاد أحس بها تطبق على صدري في قسوة. كل شيء هنا ممل، الناس، الأطباء، الممرضات. حتى تلك التي كانت تلبس على رأسها قلنسوة بيضاء، والتي قلت عنها بيني وبين نفسي إنها جميلة بدت مملة حتى وهي تبتسم، ففي ابتسامتها بلاهة، وإلا لماذا اختارت هذه المهنة وهي على هذه الدرجة الكبيرة من الجمال؟

يقولون إن المرأة الجميلة كثيراً ما كانت خالية من الذكاء، وأنا أكذب هذه الفرية، وأعترف بيني وبين نفسي بأن خطيبتي سهى رغم جمالها النادر فقد كانت من أذكى النساء، لأنها عرفت كيف تتخلص من خطبتي بعد شهور عدة لأنها قد اكتشفت فيها أمري، واستطاعت أن تحلل نفسيتي، وأن تفهم إحساسي وشعوري. فأنا إنسان متقلب يتحكم فيه مزاجه بشيء كثير من العنف، تساورني أحلام اليقظة، ويقتل جديتي شعوري بالملل والقرف والسأم رغم حظي الكبير لوصولي إلى جل أهدافي.

أمي تقول عن طفولتي بأنها كانت مريحة. فقد ولدت مع الفجر، واخترت طريقي إلى الحياة مع خيوط الصباح أيضاً، لكنني عندما كبرت أصبحت أعزف عن الذهاب إلى المدرسة.

وكنت في كل مرة أذهب فيها إلى المدرسة أختار البقاء في ديوان البيت الذي يطل على البركة في بستاننا الكبير في قباء بالمدينة المنورة أفكر فيما علي أن أصنعه.

أخي سبقني في المولد. وأخي تأخر ميلاده عن مولدي

بعامين، وأنا وهو على طرفي نقيض، فهو مجد ومجتهد، وأنا لا أميل كثيراً إلى الدرس بل أختار العمل ما دمت قد أخذت من الدرس بطرف يؤهلني على أن أعتمد على نفسي وليس على أبي في الكسب والمعيشة. وأمي فوق هذا كله تحبني أكثر مما تحب أختي وأخي. ربما لأنني أشبهها وجهاً وقامة.

قلت لها في يوم من الأيام في بداية خروجي إلى العمل:

ـ سأريك يا أماه أنني على حق عندما أجمع المليون على المليون وأقدمه لك هدية صغيرة مني عندها سترين.

أمي تضحك، وتدعو لي من كل قلبها أن أنجح، تختلف من أجلي مع أبي، وتقول له:

ـ دعه يعمل فلربما استطاع أن يصل إلى ما يريد ما دام قد اكتفى بشهادته الثانوية.

أول مبلغ أعطتني إياه أمي اشتريت به عشرة مخازن في أرض قريبة من باب التمار رفضت أن أبيعها بضعف المبلغ واقترضت من أخي مبلغاً آخر اشتريت به أرضاً في قباء بعتها بثلاثة أضعاف ثمنها ومن هنا كانت البداية. من أرض لأرض، والنقود تتضخم في جيبي ثم يجيىء الوقت الذي بعت فيه أرض التمار بأكثر من ثلاثة ملايين ريال دفعت بأكثر المبلغ لشراء أرض أخرى.

وهكذا حتى جاء اليوم الذي قدمت فيه لأمي شيكاً بعشرة ملايين ريال هدية مني لها كما وعدتها بينما أخي لا يزال يدرس ويدرس..

ابتسمت أمي وهي تتسلم الشيك وتريه لأبي وتقول:

ـ سيكون لي في البنك أضعاف أضعاف ما لديك.

نظر أبي إلي وكأنه يريد هو الآخر شيكاً مثلها، لكنني لم أفعل.. تركته يقترض مني وأنا أدفع له ضعف ما يطلب وأقيد ما أدفع في دفتر صغير حرصت على أن يظل دائماً في جيبي مع أشياء أخرى لازلت احتفظ بها.

عندما طلب أخي الذي استمر في الدراسة حتى الوصول إلى الدكتوراه من أبي بعض المال قلت لأبي:

ـ أنا الذي سأبعث له ما يريد وبعثت له بخمسة أضعاف ما طلب.

قال لي أبي:

ـ لماذا تبعثر مالك بهذه الطريقة؟

صمت، لكن أمي أجابته:

ـ إنه لا يبعثرها بل يريد إسعادنا جميعاً بما رزقه الله.

نعم رزقي وفير، والمال يتكدس، ومشروعاتي كثيرة هي الأخرى، وجميعها ناجحة، لأنني أعرف كيف أستخدم الرجال ليتفانوا في خدمتي، وإنجاح مشاريعي.

حتى هذا المستشفى الذي أشعر بالضيق والضجر وأنا داخله من ضمن مشروعاتي التي كنت أحبها لفترة لكنني اليوم أحس بالضجر، أشعر بالملل أتمنى أن أتخلص من هذا المستشفى وأهديه إلى جمعية الهلال الأحمر ليكون ضمن مستشفياتها هدية مني أنا الذي اخترت طريق العمل منذ صغري وكأنني عاشق مال يعرف كيف يصل إلى المال لا ليجمعه وإنما ليسعد من حوله بمنح بعضه لهم..

أبي في مجالسه الخاصة يتحدث عن أعمالي بشيء من الفخر والاعتزاز. بعض من كانوا ينظرون إليّ شذراً وأنا صغير، أصبحت نظراتهم لي مختلفة، فهي مزيج من الاستغراب والدهشة والاحترام والتقدير وهم عندما يتكلمون عني بحب يطمعون بأن أسهم في تعيين واحد ممن يلوذ بهم في شركاتي، وأنا لا أفعل إلا بعد أن يكثروا من رجائهم وكأنني أتلذذ باستعطافاتهم، ومع هذا فإنني لم أكن شريراً في يوم ما رغم كل ما أملك أعيش عيشة هادئة في بيت صغير اختارته أمي لي وبقيت معي بعد أن تزوج أبي بفتاة مغربية صغيرة كنت أنا السبب في زواجه منها دون أن أدري، يوم طلبت منه أن يقضي بضعة أيام في كازابلنكا في فيلتي التي اشتريتها هو وأمي. أمي رفضت أن تسافر وذهب هو ثم عاد وفي ذراعه امرأة صغيرة جميلة. سألتها عن السبب الذي جعلها تقترن برجل في سن والدها، فعزت ذلك إلى رغبتها بأن تعيش مع رجل غني بدلاً أن تتمرمط مع شاب في مثل سنها كما تمرمطت أختها.

هكذا قالت لي ولا أدري إن كان كلامها هذا حقيقة أم مجرد إجابة عن سؤالي. بعد هذا الذي فعله أبي رأت أمي أن تترك بيتها للقادمة الجديدة

وفضلت أن تعيش برفقي معززة مكرمة مع أختي التي تزوجت في حفل عرس كبير أقمناه بجدة.

وأنا أحب الموانىء ولهذا اخترت لي فيها منزلاً ومستشفى وأشياء كثيرة.

في المستشفى الذي أقمت في جدة كنت أجد الراحة لتصوري بأنني أساهم في تخفيف الألم عن رواده، حتى ذلك اليوم الذي أحسست فيه بالضيق والضجر. لأنني عندما اخترت الوسيلة الطبية الصحيحة، اخترت معها العائد الجيد الذي يدخل إلى جيبي، أصبحت اليوم أميل إلى أن أتخلص من عقدة العائد المادي بعد أن امتلأت جيوبي بالمال لكن زوجتي التي اقترنت بها أخيراً ترفض هذا المبدأ.

ألم أقل لكم بأنني تزوجت بامرأة تحمل أعلى الشهادات لم تجد بأساً أن ترتبط بي وهي في غير حاجة إلى المال لأنها من أسرة غنية، وهي التي طلبت مني إقامة مستشفى جدة لتشرف عليه بنفسها؟

قدراتها كطبيبة كانت محل الإعجاب لدرجة أصبح مستشفانا يمتلك آخر ما توصل إليه العلم بالنسبة للأجهزة والمعدات. كما أنها اختارت مجموعة راقية من الأطباء والطبيبات وأصبحت تستقبل كبار الأطباء العالميين في زيارات متتالية للمستشفى.

خلافي الوحيد مع زوجتي ينحصر في رغبتي في استقبال المرضى الفقراء ومعالجتهم دون أجر وهي ترفض هذا وترى أن مكانهم المستشفيات العامة. لكني في كل مرة أتغلب عليها وأنفذ رغباتي.

في أحد الأيام جاءت إلى مكتبي في المستشفى الممرضة الجميلة التي قلت عنها بأنها بلهاء تشكو لي زوجتي لأنها لم تمنحها العلاوة التي كان من المفروض أن تنالها، خصوصاً وأنها تؤدي واجبها على أفضل وجه. منحتها بعض المال بما يزيد عما طلبته من علاوة وطلبت منها أن يظل الأمر سراً بيني وبينها حتى أرتب الأمر مع زوجتي لكنني لم أفعل وتناسيت الموضوع فظلت نورا ـ وهذا اسمها ـ تراجعني فيما طلبت.

كثرة ترددها على مكتبي جعلني أفطن إلى مواطن الفتنة فيها. هي المرأة الإنجليزية التي اختارت التمريض مهنة.

في أحد الأيام بدت لي أنها قريبة إلى قلبي، فسألتها عما إذا كانت ترضى بالزواج مني فلم تمانع.. وهكذا تركت نورا عملها في المستشفى وسافرت إلى لندن لأطير إلى هناك بعدها بأسابيع وأعقد قراني عليها وأسكنها في إحدى الشقق الجميلة في الماي فير.

وأمضيت سنوات ثلاث مع نورا الجميلة التي أهدتني طفلاً وطفلة وأنا عندما أصفها بالجمال لا أعني بأن الأخرى ينقصها الجمال ولكن جمال الثانية جمال ملتزم، رزين، يفضل العمل على البيت، وكأنها في سباق مع الحياة.

خلال السنوات الثلاث كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في لندن مع نورا بينما تكون زوجتي الطبيبة في مستشفاها في جدة ترقب العمل وسيره بحب وجلد.

ثلاث سنوات مضت لم تتحدث لي وفاء عن زواجي ولا عن نورا وكنت أظنها لا تدري لكن هذا الظن لم يكن صحيحاً. وفاء لا تنجب وربما لأنها لا تنجب سمحت لي بأن أتزوج وأنجب وكأنها لا تدري. وكان لهذا العمل في رأيها ضرورة حتى ذلك اليوم الذي جاءت فيه معي في زيارة قصيرة إلى لندن قالت وبعد أن استقر بنا المقام في فندق دور شيستر الكبير:

ـ ألم يحن الوقت لأرى خالد وهالة؟

نظرت إلى وجهها وقلت لنفسي: حتى اسم طفلي وطفلتي تعرفه هذه المخلوقة التي لم يدر بخلدي أنها تعرف، قلت:

ـ مَنْ خالد وهالة؟

قالت وفي شيء من الوداعة:

ـ بنتك وولدي.

قلت:

ـ ونورا ألا تريدين رؤيتها؟

قالت:

ـ نورا أعرفها.. وإذا شئت الصدق فأنا لا أحبها ولا أكرهها أما ابنتك وولدي فشيء آخر إنهما بالنسبة إلي مستقبلنا الذي نعيش من أجله.

نظرت إليها وأنا جد مستغرب، فتابعت قولها:

ـ قد تكون هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها إليك عن أمر لا أشك أنت تعرفه فملفي الصحي كان بين يديك قبل أن تتزوج بشهور. ولقد حاولت أن أطلب منك أن تفعلها لكني خفت أن لا يطاوعني قلبي واتفقت بيني وبين نفسي على أن أترك لك الأمر لتتصرف بحرية.. وها أنت قد تصرفت.. فما هي المشكلة؟

قبلتها بحب ولم أضف إلى ما قالت. شيئاً ومضيت معها لنرى نورا والطفل والطفلة. عندما التقت نورا بوفاء كانت خائفة مضطربة بادئ ذي بدء لكنها بعد أن فهمت حقيقة الأمر قابلت الأمر بشيء من اللامبالاة، ومضت تعامل وفاء كأنها هي الأخرى طبيبة.

عندما التقت وفاء بالطفلة والطفل قبلتهما بحنان وقدمت لكليهما مجموعة من الهدايا الثمينة وتركتني في البيت بعد أن استأذنت عائدة إلى الفندق وعلى محياها مسحة من الحزن والسعادة خلتني أراهما وهما يطلان من خلال نظراتها إلي وإلى ابنتي وولدها كما قالت:

ـ لا أكتمكم بأنني عندما تزوجت نورا لم أكن أدري عن عقم زوجتي، بل حتى لم يكن تفكيري منصباً على الإنجاب، لكنني أردت شيئاً من التغيير في حياتي وإحساسي نتيجة انشغال زوجتي من جهه ولكوني تعودت على أن أبحث عن الجديد في الحياة لأضمه إلى ممتلكاتي، بعد أن كثر المال في يدي وأصبح كل شيء لا يساوي شيئاً في نظري.

أخي عاد من أمريكا، وأبي منزعج جداً منه، ففي اتصاله التلفوني بي من جدة، عزا زواج أخي من أمريكية إلى النقود الكثيرة التي كنت أبعث بها إليه، أما أنا فلم أنزعج بل سررت للأمر خصوصاً بعد أن عرفت بأن زوجة أخي الأمريكية قد أعطته ابناً أشقر جميلاً.

قبل عودتي إلى جدة، أصيب أبي بذبحة صدرية صغيرة طلبت على أثرها أن يسافر أبي إلى أمريكا إلى هيوستن لعرض نفسه على أطباء القلب المشهورين على أن ألحق به من لندن.. أتعرفون من رافق أبي في هذه الرحلة؟ إنها زوجة أخي الأمريكية التي لم يرض أبي لأخي أن يتزوج منها بينما عارضت زوجتي

الطبيبة سفره إليها.

عندما قابلت أبي في مستشفى هيوستن عرفت أن والد كريستين واحد من كبار أطباء القلب مما أشعر أبي بالراحة. بعد فحص أبي وعلاجه، قال لي:

ـ صدقني لم أكن أظن بأن العالم مجرد قرية صغيرة ولقد أحسست بالفخر عندما عرفت أنني صهر طبيب مثل الطبيب مورجان والد كريستين.

كريستين أمضت جل وقتها مع أبي بعد أن تركت ابنها في ضيافة أمي.

رغم كل الذي فعله أبي مع أمي، كانت تتحدث يومياً مستفسرة عنه، عندما سألها عن السبب بعد أن تركها بزواجه من أخرى قالت في استسلام:

ـ هي العشرة يا بني. فسنوات عمري التي أمضيتها برفقته رغم قسوتها في بعض الأحيان إلا أنها جميلة ولا تنسى.

عاد أبي وكريستين وعدت أنا معه إلى جدة. إلى زوجتي الأولى لأضمها بعيني وأحتويها بقلبي، وأحسست ساعتها بأنني قد نأيت بنفسي عن ذلك الملل الذي كان ينتابني منذ زمن كما شعرت بأنني قد ولدت من جديد، وأمضيت أياماً رائعة أحسست فيها بطعم السعادة الرائق في فمي.

وبعد مضي أيام قليلة قلت لزوجتي بأنني عائد إلى مكتبي في المستشفى لأساهم في مساعدتها، لكنها لم ترض وقالت لي:

ـ يكفيك عملك في الشركة، أما مكتبك في المستشفى فقد احتللته أنا.

وعندما سألتها عن السبب.. ضحكت وقالت:

ـ حتى لا تقابل نورا جديدة وتتزوجها بحجة الملل والضجر.

وضحكت لكنني لم أضحك بل قلت:

ـ ولكني طلقت الضجر والملل إلى الأبد.

لم تبتسم زوجتي هذه المرة وإنما نظرت إلي نظرة ذات معنى عرفتها وعرفت كل ما رمت إليه فابتسمت وأنا سعيد سعيد.

حماقة صغيرة

أحسست وأنا أودع زوجتي في المطار أن روحي تكاد تفارق جسدي في قسوة ما بعدها قسوة فهي المرة الأولى منذ أكثر من عشرين عاماً عمر زواجنا تسافر زوجتي بمفردها من جدة إلى الرياض لتمضي أياماً في زيارة ضرورية لأمها التي أصيب قلبها بشيء من المرض كانت تهابه طول عمرها، فهذه العجوز النشطة لم تكن طوال سنوات حياتها تشكو شيئاً وكأنها ولدت في يوم يبعد عنها أي شعور بالمرض.

النساء في مدينتنا نسيج مغاير لكافة النساء في بلادنا الكبيرة. ربما لأن المدينة بلدي علمت إنسانها الصبر، لذا أجد أُمي وأُمهات الآخرين أقدر على الصبر من زوجات اليوم. فالمجتمع الذي عشن فيها يختلف عن مجتمع اليوم. أُمي من تلك الطبقة التي لا تكل ولا تمل، تلبي طلبات الكل في بيتنا الواسع.

ذهب البيت ولم يبق من آثاره شيء كما ذهبت أغلب بيوت الأسر أضافها المسجد إلى أرضه وتداخلت كل تلك الأراضي التي زرعت فوق أديمها بيوت الأمس لتصبح في خبر كان لأننا أردنا أن يكون مسجد الرسول أكبر من أي مسجد في العالم.

أُم زوجتي عندما داهمها المرض لم تكن في بيتها في المدينة وإنما كانت في زيارة لابنتها التي تلد فقد جرت عادة الأُمهات أن يكن إلى جانب بناتهن أيام الولادة، لكن المرض داهم جسد أُم زوجتي التي أعرفها ويعرفها كل بنات الأسرة وشبابها فهي امرأة جميلة الوجه، قادرة على انتزاع الضحك بكلماتها العفوية البسيطة،

تدب من الصبح إلى المساء في أرجاء البيت تمنح سكانه الراحة وتدفع عن أنفسهن الملل.

عندما عدت إلى البيت شعرت بأنه قد أصبح خالياً رغم أن بناتي يشغلن أكثر غرفه وأولادي يعيشون على مقربة مني يأتون لزيارتي مع كل مساء.

في ذلك اليوم لم أكن على استعداد لاستقبال أولادي كالعادة فدلفت إلى حجرتي ومضيت أنظر في البومات الصور التي كانت تؤرخ مسيرة حياتي الزوجية.

زوجتي من طراز فريد لا تعرف الغلظة. قلبها مليء بالحب حتى مع كل أولئك الذين يكرهونها، تعرف ذلك لكنها لا تعاملهم بالمثل، تعتقد أن الحياة قصيرة وأننا إذا أردنا أن نحرص عليها فعلينا أن لا نضيعها في الحقد أو الحسد أو حتى الغيبة والنميمة.

جميع أفراد عائلتي يحبونها لأكثر من سبب، تلك المرأة الرائعة ويقدرون كل ما تصنعه من أجلهم فهي تعرف الأخريات وتذهب لمساعدتهن عندما يحتجن لمن يساعدهنّ، وتتفنن في شراء الهدايا لهن وتقول عن الهدايا بأنها تجلب المحبة. حتى وهي تسافر إلى الرياض لترى أُمها المريضة لم تنس أن تشتري هدية لكل من ستقابله أثناء إقامتها في بيت أختها..

لأول مرة شعرت بأن زوجتي قلقلة وقلقها جاء لكونها علمت بمرض أُمها فاستعجلت بعد أن استماحتني المعذرة في أن تسافر، فهي لا تدري إذا كانت ستعود إلى جدة أم لا وكأنها هي المريضة وليس أُمها.

فور وصول زوجتي إلى الرياض جاءني صوتها يحمل لي بشرى بأن أُمها أخذت تتماثل للشفاء وأنها لن تبقى كثيراً في الرياض، بل ستغادر المدينة بسرعة لتعود لي وللبيت وللبنات والأولاد.

أكثر من عشرين يوماً وزوجتي في الرياض وأنا هنا أتخبط في الظلمة التي أحاطت بي لا أدري ماذا أفعل.

كنت أعتقد أنها أيام قليلة تمضيها زوجتي هناك ثم تعود لكن الأمر يكن كذلك، تراها هل استمرأت الغربة؟

كنت أمضي الليل أفكر في هذا العش الخاوي الذي فقد رواءه ولم يعد كما كان وأصبح كل شيء في بيتي لا أعرفه. ربما لأن النظام الذي صنعته زوجتي طوال سنوات حياتها معي قد ذهب ولم يعد شيء منه، فبناتي أصبحن يذهبن إلى المدرسة بلا إفطار وغذاؤنا تتحكم فيه امرأة فيليبينية لا تدري من أمر الطبخ أي شيء كانت تساعد زوجتي من بعيد، وأصدقائي الذي كانوا يأتون للسمر معي ويتذوقون أطايب الطعام لم يعودوا يأتون وأنا أصبحت أكثر تحرقاً من داخل أعماقي لرؤيتها.

في يوم من الأيام فكرت أن أسافر بنفسي لآتي بها ثم خجلت. ماذا ستقول أُمها عني فأنا لم أرافق زوجتي لزيارتها حتى إذا ما تأخرت ذهبت لأستعيدها بنفسي؟

زوجتي تسمعني صوتها كل يوم وأشعر بأنها هي الأُخرى تشعر بالحرج لكنها تقول لي بأن السبب في عدم العودة إلى بيتها هو رجوع أُمها إلى المستشفى وأن أُمها تميل لأن تكون هي وحدها رفيقتها في غرفة المستشفى.

صدقوني كم مرة تمنيت أن تموت المرأة لينتهي عذابي ثم أستغفر الله في داخلي لأني أخطأت في حق تلك المريضة.

زوجتي أصبحت مشتتة الفكر تنتابها نوازع كثيرة فنصف قلبها بقي معي والنصف الآخر مع هذه الأم التي استولى عليها اليأس فخافت أن تموت في الغربة بعيداً عن مسقط رأسها. وتمر الأيام وكل شيء باقٍ على حاله، لكن حبي لهذه المرأة لا يزال يتأجج في صدري ومع هذا قد يرتكب بعضنا حماقات صغيرة عندما يجد نفسه هو الآخر قد أصبح في منأى عن أحبائه وأصدقائه.

عندما اتصلت بزوجتي آخر مرة قلت لها بأنني سأسافر إلى خارج البلاد في رحلة قصيرة، لكنني ويعلم الله لم أكن صادقاً في كل ما قلت، كانت تلك الكذبة أول كذبة أقترفها بحق زوجتي لكنني ولكثرة دوي صديقي محمود أقدمت على هذه الحماقة وارتبطت بفتاة واحدة وضعها أبوها في طريقي على أمل أن يسعدها وهو مخطىء، فالسعادة ليس في أن تقترن فتاة شابة برجل في منتصف العمر مثلي، لكن من يعيش في هذا العالم قد يفكر بهذا الأسلوب. الفتاة رقيقة وجميلة ومقنعة، التقيتها بعد عقد القران، وتحدثت معها وشعرت أنها راضية

عن هذا الذي تم وهي تعتقد أنها بزواجها بي ستنتقل من حياة إلى حياة.

فكرت في الأمر طويلاً. ورغم أني صنعت لها ولأبيها ما أستطيع، فمنحتها شقة في عمارتي الكبيرة وأهديت والدها سيارة صغيرة، إلا أنني رأيت من واجبي أن أقدم لها ما يسعدها ما دمت قادراً على العطاء. كنت أزور شقة زوجتي الجديدة كالغريب تنتابني شتى الأحاسيس، أشعر وكأنني أخون زوجتي بما صنعت رغم أن ما صنعت لا يدخل في باب الخيانة.

وعندما طلبت مني الصغيرة أن تسافر إلى مصر لزيارة أهلها لم أرفض بل وجدتها فرصة لأن تكون بعيدة عن عيني، أنا الذي كنت أشفق عليها كثيراً وأعتقد أنني ووالدها مشتركان في جريمة الإساءة إليها.

ثلاثة شهور جديدة مضت. امرأتي التي أحبها في الرياض والأخرى في مصر، حتى ذلك اليوم الذي تلقيت فيه رسالة من الصغيرة تطلب مني أن أوافق على التحاقها بالجامعة. بررت هذا الطلب بأن إمكاناتي كبيرة وباستطاعتي زيارتها آخر كل شهر وساعات الطيران بين جدة والقاهرة ليست كثيرة. أرسلت لها موافقتي وكأن حملاً كبيراً قد أزيح عن كاهلي ووضعت نصب عيني أن أصرف عليها حتى تتخرج ويومها يذهب كل واحد منا إلى سبيله.

صدقوني إذا قلت لكم بأنني أصبحت زوجاً بالمراسلة حتى ذلك اليوم الذي عادت فيه زوجتي إلى بيتنا وبدأت أعاتب نفسي وأعايش الواقع بشيء من السرية، لكني ألمح في عينيها بعض الاتهامات التي لم تفصح بها إليّ. حاولت كثيراً أن أستشف ممن حولي أسباب هذا الحزن الذي يحيط بوجه امرأتي التي لم تكن تعرف الحزن لكنني لم أجد أية وسيلة لأصل إلى ما أُريد أن أصل إليه، فزوجتي تمارس عملها في البيت بحب وتتفنن في إطعامي بيديها وتتوخى كل ما أحب، فتعمد إلى تقديمه لي كسابق عهدها.

في إحدى الليالي وأنا جالس معها على كرسي المفضل أمام بركة السباحة وكل شيء هادىء حولي والليل يضفي شيئاً من الرومانسية نظرت إلى وجه زوجتي وهي تتحرك هنا وهناك وكأنها لا تريد أن تعطيني الفرصة لأن أسألها شيئاً. كانت عندما تحس بأنني سأواجهها بشيء ما تتهرب من أمامي منشغلة بجمع أكواب الشاي أو بتحضير ما يريده الأطفال لا تنتظر كثيراً وإنما تتحرك

أكثر فسكت على مضض، حتى جاءتني الفكرة التي يمكن عن طريقها أن أهدىء خاطرها لو كانت قد عرفت عن المرأة الأُخرى.

قلت لها وأنا أنظر في عينها لأرى وقع كلامي عليها:

- أتعرفين بأنني قد أضعت من عمري كل تلك الأيام التي قضيتها بجانب أُمك؟

أجابت بكلمة واحدة:

- ولماذا؟

أعدت النظرة وأنا أرقب خلجات نفسها وهي تطفو على صفحة الوجه الأنيق.

- وتقولين لماذا؟ ألا تعرفين بأن الرجل يفقد كل أيامه عندما تسافر زوجته التي يحبها وتتركه بمفرده؟

وسكت لأكمل بعد أن أعدت نظراتي إلى عينها، فرأيتها تتململ على كرسيها وكأنها تريد أن تقول لي. وماذا يمنعك أن تستمتع بحياتك ما دمت قادراً على ذلك؟

شعرت ساعتها بغصة كبيرة في حلقي، فلم أكمل كلامي فاستحثتني على الكلام.

قلت:

- بعض الأزواج عندما تغادرهم زوجاتهم يحسون بالقلق نتيجة فراغ البيت، ثم يبدأ القلق يزداد وعندما يزداد القلق يحل التفكير في أسلوب يدفع به الزوج قلقه.

وصمت فقالت:

- وبعضهم يدفع عن قلقه وفراغ وقته بالبحث عن لعبة جديدة قد تضيف إلى حياته شيئاً من الحركة وعن طريقها قد يرتكبون حماقات كثيرة تضر بهم وبأسرهم وبأولادهم ولكن. . .

- ولكن ماذا؟

قالت:

ـ من أي الأزواج أنت؟

قلت بعد أن بلغت ريقي:

ـ قد تكونين أنت أعرف من نفسي بي فما رأيك؟

قالت:

ـ يتغير الإنسان بتغير الظروف، فهل غيرتك الظروف؟

أجبت مطرقاً:

ـ ربما.

ولم أكمل، وتركت لها بعض الوقت تفكر فلربما ستفصح عما في دخيلة نفسها لكنها كانت في صمتها أكثر من أبي الهول.. كان صمتها رائعاً.

أعدت نظراتي إلى وجهها ثم قلت:

ـ ترى ما رأيك في المرأة التي تغفر حماقات زوجها؟

قالت وشيء من الفرحة يلف وجهها بإضاءة عجيبة:

ـ ربما أغفر لأنني أحب زوجي.

وسكتت فصمت أنا ولم أكمل واكتفيت بهذا الذي قالته زوجتي وبدأت ألملم نفسي بعد أن استقر عزمي على أن أنهي علاقتي بتلك الطفلة، فأنا أحب هذه المرأة التي هي زوجتي، أحبها من كل قلبي وبكل جوارحي فهل ينسى الحب تلك الحماقة التي ارتكبتها لحظة فراغ؟ لا أدري.

الطريق إلى سراييفو

(روايـــة)

ط ١ ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



الفصل الأول

امتلأت عيناي بالدموع وأنا أواصل قراءة كل ما كتب عن البوسنة والهرسك. لم أكن أظن بأن هناك في الدنيا وحوشاً كهؤلاء الصرب الذين أجادوا صناعة القتل والتعذيب والاغتصاب، وطالعتني في منامي صور الفتيات المؤمنات من بنات البوسنة والهرسك وقد اعتدى عليهن قساة الرجال في همجية جاوزت كل همجية.

الكلام كثير، والناس يقرؤون، والذين يشاهدون المآسي يرونها دون أن يتحرك في جوانحهم شيء يوقف هذا النزيف الذي أصاب هذه الأرض المسلمة التي ارتوت بدماء الشهداء.

عَزّ عليَّ أن أرى كل ذلك، ثم أقتعد بيتي دون أن أصنع شيئاً، فهذه الأصوات الناعمة التي ارتفعت ببكائها لتوصل صوتها إلى العالم الذي كنت أظنه قادراً على أن يصنع شيئاً،لكن كل الذي قلته لنفسي لم يمنحني الراحة، فالصرب على مدى التاريخ كانوا هم الطغاة الذين يقتلون الزهور في شوارع المدينة.

كم امرأة شقراء من بنات البوسنة ودعت الحياة وهي ترفع يديها إلى السماء تطلب القصاص من هؤلاء المجرمين، وكم من الأطفال راح ضحية بقر البطون حيث كان الجيش الصربي يتسلى بالقتل، ويتحدث في قسوة عن المقابر الجماعية التي أدخلوا بعض الرجال البوسنيين بعد أن رشوهم بالرصاص.

سعيد، ذلك الرجل العجوز الذي تلقى ركلة الجندي الصربي وهو يدفع به إلى القبر لم يكن قد قضى نحبه.. لكن المشكلة ليس أن يموت الناس عند هؤلاء البرابرة، وإنما المشكلة هي أن يدفنوهم في

قبر واحد يحفره بعضهم لأنفسهم والبعض الآخر.

نادوجا، في ربيعها السابعَ عَشَرَ كانت تبكي وهي ترى أسرتها صريعة أسلحة القوم، وكانت تأمل أن تلحق بهم، لكن قائد المجموعة لم يكن يريد ذلك فهو يريد أن يشبع نهمه من هذا الجسد الذي ذبل. أمسك بها من شعرها ومضى يجرجرها على الأرض في قسوة حتى إذا ما التقت بسكين صغير ظهر أمام وجهها فجأة أمسكت به وقامت لتمشي على رجليها، لكنها لم تكن خطوات حتى استطاعت الصغيرة أن تقتل صائدها بهذه السكين المفاجئة. لم يمهلها القوم بل مضت كوكبة من العسكر تضغط على زناد البنادق لتخترق جسَدَها آلافُ الرصاصات.

رأيت وجهها في منامي وكأنها تبتسم لأنها هربت بالموت من جريمة الاغتصاب التي يمارسها هؤلاء البرابرة.

أفقت من نومي مذعوراً، هرب النوم من عيني جلست القرفصاء على مقربة من جهاز التلفزيون الذي كان يبث في تلك اللحظة صوراً من مآسي البوسنة ورجال البوسنة وبنات البوسنة وأطفال البوسنة وحريم البوسنة.

كانت الصور أشد قسوة من كل الكلام الذي كنت أقرأه، فقد التقيت في هذه الصور بنماذج غريبة من العمل الإجرامي يمارسه هؤلاء القساة مع الرجال والنساء والشيوخ، لا يردعهم رادع، وكأنهم عايشوا الشر فاستحوذ على قلوبهم الصلدة. وتتابعت صور أخرى على ذاكرتي وأنا في مجلسي، تذكرت زينب الفتاة البوسنية التي كانت تَدْرس في كلية الآداب في جامعة القاهرة مع أختي، وتذكرت يوسف صديقي الذي كان يدرس في الأزهر.

كانت زينب ابنة عمه، وكنت أعجب بهذه الفتاة، ألمح في عينيها إيماناً بدينها رغم أنها تعيش في الغرب. ولقد حاولت أن أُفْهِمها ما يجيش في صدري تُجاهها، لكني كنت أهاب الموقف حتى جاءت أختي بعد أن أحست بما يعتمل في نفسي تجاه تلك الصبية، وسألتني عما إذا كنت أحبها؟

لم أقل لأختي شيئاً، وإن كانت قد طالعت الحقيقة في عيني.

ولكم حاولتُ أن أتحدث إلى يوسف عن هذا الذي يتأجج في صدري من حب لهذه الصبية التي لم تفارق ذاكرتي أكثر من عامين، هي أعوام المعرفة،

فقبل هذا التاريخ لم تكن هي ولا هو ولا أنا في الجامعة المصرية، لكني كنت أضن عن أن أقول شيئاً، ربما لأن تربيتنا في بلادنا لا تسمح لنا أن نتحدث عن هذا الوافد الذي يتسلل إلي ضلوعنا فجأة.

زينب وأختي صديقتان، وأنا ويوسف صديقان، وهكذا كنا نجتمع كثيراً في بيتنا.

كانت أمي سيدة طيبة تحدب على زينب كثيراً، وتحبها من كل قلبها حتى إنها في يوم من الأيام فاتحتني قائلة:

- لماذا لا تتزوج زينب؟

ونظرتُ إلى أمي كالأبله، وقلت:

- وما يدريك أنها ترضى؟ ثم لا تَنْسَيْ أن أهلها في البوسنة.

قالت:

- لا عليك، فأبوك تزوجني وأنا وأهلي كنا نعيش في هولندا، لم يعرف عني شيئاً حتى جئت أنا وأمي وأبي إلى مكة المكرمة لأداء الفريضة، ويومها طلب أبوك يدي، فقبل أبي، فرحت أنا كثيراً لأنني سأسكن في أعز البقاع إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهكذا جئتَ أنت وجاء إخوتك وأخواتك.

لم أجب بشيء، وتركت أمي تتحدث طويلاً، حتى جاءت أختي وقطعت علينا الحديث قائلة:

- استمعت إلى كل ما تقولينه يا أمي، لكن المشكلة أن زينب مخطوبة ليوسف.

وهذا فَتَّ في عضدها وعضدي.

نسيت أمي الحكاية، لكنني لم أنسها، لأنها ظلت تؤرق ليلي رغم أني حاولت أن أنأى كثيراً عن زينب حتى ذلك اليوم الذي التقيتها به.

قالت زينب:

- أراك تهرب مني دائماً، ولا أدري أسباب هذا الهروب إلا إذا كان كلام أختك سبباً فيه. لهذا أود أن أقول لك: لقد ارتبطت أسرتي بأسرة يوسف، فهو ابن عمي، وقُرِئت الفاتحة على أن أكون زوجته وعمري ثلاث سنوات.

أخلدت للصمت قليلاً حتى سمعتها تقول:

- صدقني، لو لم يكن الأمر كذلك لكنت أنت عريسي.

ظننت أنها تريد أن تهوّن عليَّ الخبر الذي سمعت من أختي، لكنها كانت تقول الحقيقة. فزينب كانت تحبني هي الأخرى في صمت، لكنها أبعدت عن قلبها شبح الحب وانخرطت في الدراسة لتعود إلى وطنها بأسرع ما يمكن.

عندما عرفت هذه الحقيقة أحسست بشيء من الفرح، لكنه كان أقصر مما أردت، وأرادت زينب، فقد طلب يوسف أن يعقد قِران زينب في القاهرة، وجاء أهل زينب. استقبلتهم أمي أجمل استقبال، وجاءت مع أم زينب أختها (ناجية) التي تصغرها، وإن كانت قد بدأت تمارس عملها قبلها.

ناجية فتاة أنيقة، لكنها على نقيض زينب، شعرها الأسود أشبه بالليل وهو ينسدل على أكتاف الصباح لتبدو إشراقة الفجر من خلال جبهة عريضة تبدو عليها معاني الكرامة والكبرياء.

بعد أن أُجرِيَت مراسم عقد القِران قضى الضيوف سهرة دافئة في بيتنا، اشترك الجميع في تقديم الهدايا للعروس التي أخذت تَمِيسُ دلالاً بفستانها الزهري الأنيق وشالها الذي اختارت لونه من لون خدها.

عيناي أخذتا تتسللان إلى وجه زينب تارة وإلى ناجية تارة أخرى، ولكني كنت أحس بكثير من الاضطراب عندما تضبطني زينب وأنا أواصل نظري إلى وجهها. ليلتها لم أنم، كنت أشبه بإنسان فَقَدَ كل شيء حتى قطعة الخشب الصغيرة التي يتعلق بها الذين يغرقون في البحر لم تكن معي. ربما لأنني كنت فعلاً أحب زينب في صمت، وربما لأن زينب هي الفتاة الأولى التي أتحدث إليها بصدق أثناء دراستي.

وارتفعت درجة حرارتي، وأحست أمي وأختي بما أعانيه، أصرّت أختي على أن تأتي بالطبيب ليراني، وبعد أن رآني طلب مني أن أرتاح بعض الشيء وقال لأمي:

- عارض سطحي بسيط نتيجة جهد جسماني كبير.

ضحكت أختي من تشخيص الطبيب، وأعادت النظر إلى وجهي، أحسست

ساعتها بأن عليَّ أن أجاملها في ضحكاتها.. ابتسمت في هدوء وأخذتُ أُمضي بعض الساعات على فراشي حتى إذا ما أحسست بالعافية تتسلل إلى جسدي غادرت الفراش وأنا أنتظر أن أرى زينب، لكن زينب كأي أنثى كانت مشغولة بعريسها، وهذا في رأيي حقه وحقها، فكيف يحق لي أن أفكر في شأن امرأة متزوجة! لمت نفسي كثيراً وقلت: لا بد من أن أنتزع هذا الحب من قلبي بأية طريقة، لكنني لم أستطع.

في اليوم الثاني التقيت وزينب وزوجها وأمها وأختها، أما أبوها فقد اضطر للسفر إلى الإسكندرية ليرى أختاً له لم يرها منذ زمن طويل بعد أن تزوجت بطبيب مصري.

أمضينا ذلك اليوم في القناطر، كان الجميع يمرح ويلهو ويضحك إلا أنا فقد بقيت أفكر كثيراً أحاول أن أنسى هذا الحب الذي يجب أن يموت.

وتعاودني الذكريات تطل بكل أشجانها. لقد عشت أيامي تلك في القاهرة تتجاذبني أفكار غريبة، لكنني كنت أحاول أن أبعدها عن خاطري لأنها لا تنسجم والمبادىء التي عرفت. ومع هذا أطلت ناجية على حياتنا بكثير من البهاء، كنت أراها كذلك حتى إذا ما حاولتُ أن أقارن بينها وبين أختها تلاشى ذلك البهاء بعد أسبوع من عقد قران من أحببتها في صمت.

جاءتني زينب وفي يدها وردة حمراء. خلتها تكاد تقفز من بين أصابعها لكنها لم تفعل، بل أعطتني إياها في هدوء ثم سألتني بشيء من الجدية:

– ما رأيك في أختي؟

قلت:

– يكفي أنها أختك.

نظرت إلى وجهي نظرة حانية وقالت:

– ليس هذا الذي أعنيه، ولكن ألا تعتقد أنها ستكون زوجة صالحة؟

قلت:

– ومن يقول غير ذلك؟

أعادت النظرة مرة أخرى بشيء من العبث وقالت:

- ما رأيك في أن تقترن بها؟

قلت:

- ومن قال لك إنني أريد أن أتزوج؟

عندما وصلنا إلى هذا الحد من الكلام جاءت أختي، فسكتت زينب لكن أختي على ما يظهر كانت داخل المؤامرة لأنها طلبت من زينب أن تكمل حديثها.

زينب رفضت أن تواصل وقالت لأختي:

- لا عليك فهو لا يريد أن يتزوج.

سنوات مرت على هذه الصور لكنها عادت تطل من بين صفحات ذاكرتي في تلك الليلة تؤرقني، وتشدني إلى دقائقها، وتعيدني إلى عالم كان أشبه بالحلم الجميل.

الفصل الثاني

العالم لم يعد كبيراً. استطاعت وسائل الاتصال أن تمنحنا جميعاً فرصة التعرف على أقصى الأرض في سويعات معدودات، لذا لم تعد مشكلات أي بلد وقفاً على البلد نفسه، فالتلاحم الذي صنعه عصر الاتصالات جعل الناس في كل مكان يَعُونَ ظروف حياتهم وحياة الآخرين ومشكلاتهم.

في مثل هذه الظروف كنت أعيش أيامي، أفكر في هذا العالم وتناقضاته وأنظر إلى كل تلك المشكلات التي تطفو على السطح لأجد أن مشكلة البوسنة والهرسك أكبر من أن يتصورها الإنسان، فالإنسان ـ هذا الكائن الحي الذي تمتزج في دمائه أحاسيس كثيرة ـ يتناول قضايا الآخرين تارة بالحب، وتارة بالكره وتارة بين بين.. لكننا لو درسنا الناس في كل مكان في هذا العالم لوجدناهم يشجبون هذا الذي يجري في سراييفو، حتى الفنانون الذين يعيشون في أقاصي المعمورة تجاوبوا مع هذه الأحداث وكتبوا عنها أشعاراً وقصائد غنتها العامة والخاصة، وأفردت لها الصحف المقالات الكثيرة، ورآها المشاهدون على شاشات القنوات الفضائية كأكبر جريمة يرتكبها هؤلاء القساة الصرب في حق الإنسان المسلم في سراييفو.. ما عدا روسيا التي أخذت على عاتقها مساندة الصرب. لكن لو سألت أي إنسان يعيش على أرضها لشجب هو الآخر ما يجري على أرض البوسنة والهرسك، واستنكر جرائمهم ومساندة بلاده لهم.

هذا الوجه الكريه للصرب أخذ يطفو على السطح لدرجة جعلت أقرب المقربين له ينأون بأنفسهم عنه، وبدأت حملة الصحافة

الأمريكية تعطي أُكُلَها وتأثيرَها في نفوس الناس الذين يقرؤون ويفهمون. لقد بلغت الأيدي القذرة الشجر والثمر وقتلت الزهور البريئة، التي تطل على هذه الدنيا بمنظار الطفولة البريئة وغدا العالم كله يعي حقائق الجريمة المنظمة التي ترتكب في البوسنة والهرسك؛ فالصرب لم يعودوا قساة القلوب فقط وإنما أصبحت وحشيتهم مظهراً من مظاهر وجودهم على الأرض.

في قراءاتي المتعددة عن الإجرام الذي يرتكب في البوسنة كنت أحس بالألم يعتصر قلبي لدرجة تجعلني أجهش بالبكاء على كل هذه القسوة الإجرامية التي تمارس على أرض سراييفو.

كنت أشعر بالألم للامبالاة العالمية التي تعالج بها القضية، وأحمل على مجلس الأمن وهيئة الأمم وحلف الأطلسي هذا الصمت الذي كنت أظنه سيستمر. لكنه لم يستمر ولله الحمد.

* * *

الرسالة التي تلقيتها من زينب كانت ثالث رسالة تصلني منها بعد أن عادت إلى بلادها، وبعد أن عدت أنا الآخر إلى مسقط رأسي. كانت الرسالة تقطر حزناً وأسى وألماً، فزينب رأت بعينيها الصرب وهم يقتلون زوجها ويجعلونها تحفر قبره بيديها، حتى إذا ما انتهت ودفن الزوج احتضنت أصغر أطفالها لتغادر سوق البهايم إلى المكان الذي أعد لمثيلاتها في مدينة أخرى. لم يرحموا طفولة ابنها بل انتزعوه من بين يديها وهم يقولون: سنأخذه ليعيش في مكان آخر مع أسرة تعرف كيف تربيه. ومن يومها لا تدري زينب أين هو طفلها، الذي ظنت أنه سيؤنس وحدتها بدلاً من والده الذي اغتيل، لكن وليدها ذهب ولا تدري أين هو، ولهذا فهي حائرة لا تدري ما تصنع. أكثر من مرة فكرت بأن تقتل نفسها، ثم تعود عن هذه الفكرة لأنها مسلمة، والإسلام لا يجيز هذا العمل.

رسالة الأسى والحزن التي بعثت بها زينب إليَّ أعادتني مرة أخرى لأن أعيش في جو سراييفو التي أحببتها ولم أرها، فقد كانت تصفها لي زينب عندما كنا على كراسي الجامعة، لكن سراييفو اليوم أصبحت غيرها بالأمس، لقد

فقدت هذه المدينة كل مظاهر الحياة. أصبحت مدينة أشباح تخلو من الحياة لأن الصرب أرادوا لها ذلك.

هكذا قالت زينب لي في رسالتها الدامية التي حاولتُ أن أتم قراءتها، لكن صدقوني لم أستطع ذلك، ربما لأن بشاعة صور الإجرام التي ارتكبها الصرب ضد المسلمين والمسلمات جعلتني لا أقدر أن أقرأ كل ما وصفته في رسالتها التي استطاعت أن تهرّبها بأسلوب أو بآخر.

ترى ماذا يخبّىء القدر لسراييفو، هل ستعود هذه المدينة إلى سابق وضعها أو أن العالم رغم كل الذي يراه قد نسيها ليطويها الزمن؟

في تلك اللحظة أحسست أن المسلمين في سراييفو سيعودون إلى ممارسة حقوقهم مهما طال الزمن، فالتضحيات التي يقدمها إنسان هذه المدينة تجعلني أؤكد على هذا وأصدق. وأخذت أكتب رسالة مطولة أجيب فيها على كلمات زينب، لكنني ـ وفي منتصف الكتابة ـ توقفت، وتذكرت كيف يمكن لي أن أوصل هذه الرسالة، فأنا لا أعرف أين هي، وفي أي سجن، وهل يمكن لسجانيها أن يوصلوا لها رسالتي، لو كنت أعرف العنوان؟ وتضاربت في ذهني شتى الأحاديث والصور وأخذت صور الماضي تطل في رتابة وكأنها تحاول أن تنقذني من شر هذا العذاب الذي ألقاه.

في تلك اللحظة تساءلت بيني وبين نفسي: وماذا عن أختها هي الأخرى؟ ولما لم أجد الجواب عدت لقراءة كتاب زينب مرة أخرى. كانت كلمات الخطاب أشد قسوة من رمي الحجارة على رأس أي إنسان. أحسست أن زينب في مأزق كبير وأحسست بأنني شخصياً غير قادر على إخراجها من هذا المأزق. مضيت في قراءة الرسالة، وعرفت في النهاية أن أخت زينب وزوجها وخمسة أطفال أكبرهم سناً في السادسة عشر من العمر قتلتهم يد الغدر، وهم في بيتهم آمنون مطمئنون، كان هذا القتل قبل موت زوج زينب بأسبوع، عفواً لم يمت زوج زينب قضاءً وقدراً، وإنما قتل بأيدي مجرمين عتاة عاثوا في أرض سراييفو قتلاً وفساداً. ومضيت ألملم دمعات حارة انحدرت على خدي في صمت، لكنه كان صمت الحزين المقيد الذي لا يعرف ماذا يصنع.

أحسست بالألم، فزينب لم تعد مجرد مواطنة في البوسنة والهرسك وأختها

وأطفالها أيضاً، وإنما هي أخت مسلمة أضيرت بيد آثمة غادرة لا تعرف الرحمة ولا الإنسانية.

ومضيت أكتب مقالي في الجريدة التي أعمل بها، فقد نسيت أن أقول لكم بأنني بعد عودتي من الدراسة عملت في الصحافة في وقت كان فيه الخريجون يتلهفون على العمل الوظيفي في الدولة.

ربما لأن الكلمة المقروءة قد أسرتني وأسعدتني حيناً من الزمن، وأزعجتني وأتعبتني حيناً آخر، لكني على كل حال هاوي صحافة، والذين يهوون العمل الصحفي يدركون مدى السعادة التي يحس بها كل من يمارس هذا العمل.

طائرات حلف الأطلسي تضرب الصرب، لكنه ضرب غير موجع، وكأن هذا الحلف هو الآخر يربّت على ظهور هؤلاء القتلة بما يفعل، أو ربما لأن هناك رأياً سياسيّاً معيَّناً ينتظره الحلف ليؤدب هؤلاء القساة.

* * *

الناس في الطريق إلى المسجد الحرام وأنا من ضمنهم لأداء فريضة الظهر. لم أحس ساعتها بمن كان حولي، مضيت إلى المسجد، لأطوف بالبيت، حتى إذا ما انتهيت وقفت أمام الكعبة رافعاً يديَّ أدعو بحرقة وألم بأن يزيل الله سبحانه وتعالى، هذا الكرب عن هذا الشعب وهذه الأمة المسلمة.

لم أشعر باليد التي ربتت على كتفي إلا بعد لحظات، حتى إذا ما أدرت رأسي نحو الرجل الذي لم أكن أتصور أن أجده هناك، فقد كان واحداً من أصدقائي الذين يعيشون في لندن، قال لي الصديق:

- ترى ماذا أصابك، فلقد تابعتك في الطريق حتى المسجد، وحاولت أن أشعرك بوجودي، لكنك لم تحس بهذا الوجود.

ابتسمت بهدوء، ورحبت بالصديق، وقلت له:

- سأقول لك كل شيء.. كل شيء، ولكن بعد حين.

الفصل الثالث

في أوروبا وأمريكا يقرؤون أشعار الطفلة البوسنية التي ترجم بعضها إلى العربية، والتي كنت ألاحقها عندما تأتينا عبر وكالات الأنباء. الأسى والتفجّع صفتان لازمتا الطفلة كما لازمتا أسرتها وأهلها وأهل سراييفو جميعاً، لكن كل هذه الأشعار كان يتلاشى بعض صداها عندما ينصرف الناس إلى أعمالهم.

ابني قال لي بأنه كتب هو الآخر قصيدة عن سراييفو قرأها عليّ، أحسست بنبضات قلب ابني تدق وهو يضغط على أحرف كلمات القصيدة ليوصلها إلى قلبي وعقلي. أعجبتني القصيدة، لكنني خفت أن أنشرها حتى لا يقال بأنني أحاول تلميع ولدي، لهذا اكتفيت بأن بعثت بها إلى حفنة من الأصدقاء أعجبوا بها جميعاً وطلبوا إذا كان في الإمكان أن تنشر في أجهزة الراديو والتلفزيون، وحين سمع ابني كلام بعض الأصدقاء أخذ يلح عليّ أن أبعث بها إلى أحد أصدقائي من المطربين قلت له: سأفعل، لكنني لم أفعل، ربما لأنها لو جاءت من إنسان غير ابني لفعلت.

تتراكم الأحداث على صدري، أحس بثقل وقعها على نفسي. تزداد صور الإجرام بشاعة وتبدو وكأن هؤلاء الجلادين لا يعرفون في حياتهم شيئاً غير القتل.

استغربت عندما عرفت بأن رانكو ميلادتش شاعرٌ، وقلت لنفسي: لا بد أن شعر هذا الرجل هو من الشعر الأسود وإلا أين ضاعت رهافة حس الشاعر وشفافيته؟ وهل يمكن أن يمسك شاعر بسكين ليقطع رقاب ضحاياه في قسوة ووحشية، لا لذنب ارتكبوه،

وإنما لأنهم من عقيدة غير العقيدة التي ينتمي إليها.

* * *

أختي تحدثت معي من باريس. كانت في رحلة إجازة هي وزوجها وأولادها، كانت تتحدث بانفعال، أحسستُ وكأنها تود أن تلقي بسماعة التليفون على رأسي، سألتها عن السبب، قالت:

- مشكلة أن لا تعرف السبب وأنت صحفي، ألا ترى أو تقرأ عن هؤلاء الأطفال المسلمين الذين يرسلون إلى أي مكان في هذه الدنيا بعد قتل آبائهم وأمهاتهم؟ رأيتهم بالأمس على شاشة التلفزيون يستقبلونهم هنا بحب، قد يكون هذا الحب بدافع الشفقة أو الإنسانية.

قلت لها:

- هوّني عليك، فنحن في بلادنا لا نتأخر عن مساندة أي مسلم له قضية في أي مكان، ثم أنت تعرفين كم ندفع من أجل المسلمين في البوسنة، لقد تشكلت أكثر من لجنة إغاثة، جميعهم لخدمة المسلمين في البوسنة وإغاثتهم.

لم تسمع أختي كلمة مما قلت، بل اندفعتْ مرة ثانية وهي تقول:

- أتعرف كم صحفي وصحفية غربية قضوا نحبهم في سراييفو كان هدفهم إطْلاع العالم على ما يجري على هذه الأرض، دفعهم إلى ذلك حبهم لمهنتهم وتفانيهم. أما أنتم - وأعني الصحفيين العرب - فقد بقيتم على كراسيكم تنظرون إلى أجهزة وكالات الأنباء لتغطوا الأخبار التي تأتيكم. لم أسمع عن صحفي عربي أو مسلم قضى نحبه في البوسنة، ولم أسمع عن أي صحفي عربي أو مسلم كتب شيئاً من مكان المشكلة، كلكم تكتبون كلاماً زائفاً لا أصل له، ولهذا تجدنا لا نحس بما تكتبون. خذ مثلاً أنت، هل فكرتَ أن تسافر يوماً إلى البوسنة؟ لو قيل لك إن هناك دعوة موجهة من البرازيل لجريت مسرعاً وراء تلبيتها، أما البوسنة وما يجري في البوسنة فلا شأن لك به، لأنها لا تهمك إلا من زاوية أن تملأ صفحات جريدتك بالأخبار التي تردك ليقول القراء عن جريدتك: إنها مواكبة للحدث. وتنسى أن القارىء في بلادنا يعرف تقصيرك وتقصير زملائك، وينعى عليكم تقاعسكم عن ملاحقة الخبر من مصدره بدلاً من

كل هذا الذي تفعلون.

ثم أقفَلتِ السماعة وتركتني أتيه في كل كلمة قالتها، فأنا أعرفها منذ أن كانت صغيرة لا تقبل أن تصمت عن الحق، وها هي ذي تلقي باللائمة على رأس أخيها. ومنذئذٍ أخذت أفكر كيف أستطيع أن أؤدي واجبي تجاه القراء، فالطريق إلى البوسنة طويل وطويل جداً، لكن تلك الأحداث التي تجري تحتم عليَّ أن أفعل شيئاً.

أخذت الفكرة تخترق أعماقي حتى أصبحت تلح عليّ بشكل عنيف لأحققها. في الصباح ذهبت إلى لجنة الإغاثة في جدة وتحدثت طويلاً مع المسؤولين عنها. أبديت رغبتي بأن أقوم بزيارة سراييفو. رحب الجميع بالفكرة وبدؤوا يتحدثون عن الطريقة التي يمكن أن أصل بها إلى سراييفو، وخرجت وفي ذاكرتي بأن الأمور ستصبح وفق رغبتي. في البيت سألتني زوجتي عن الذي يمكن أن أفعله في سراييفو، أفهمتها كل ما في أعماقي. هابت الموقف في البداية، لكنني استطعت أن أقنعها بضرورة أن أفعل شيئاً. قلت لها عن حديث أختي، لم تستغرب زوجتي كلام أختي، فهي تعرفها جيداً، وتعرف أنها لا يمكن أن تخفي ما بداخل أعماقها.

ابني طلب مني أن يسافر معي، رفضت وقلت له:

- المفروض أن تبقى حتى إذا قضى الله ولم أعد كنتَ أنتَ ربَّ البيت بدلاً من أبيك.

لم يقتنع ابني بكلامي. ناقشني طويلاً، أفحمني بكلماته، استغليت أبوتي وأقفلت باب المناقشة، لكني بعد أن نظرت إلى وجهه، عرفت أنه لم يقتنع فهو من طينة عمته التي أعرفها وتعرفها زوجتي ويعرفها ابني.

أمضيت الليل بطوله قلقاً أفكر في الذي يجب أن أصنعه. في هذه اللحظة جاءتني دعوة للسفر للمشاركة في افتتاح الأكاديمية التي تبرع بإنشائها الملك فهد في بون وكانت الصداقة التي تربطني بالسفير السعودي لا تدعني أعتذر. قلت في نفسي: لا بأس، يمكن لي أن ألبي الدعوة، ومن هناك أستطيع أن أسافر إلى سراييفو.

حين وصلت إلى هذا الحد من التفكير ارتاحت نفسي وهدأَتْ، وشعرتُ

بشيء من الراحة يلازم تفكيري، لكن سراييفو بقيت تدعوني في أعماقي.

وبدأت أفكر: هل سأكتفي بأن أكتب ما أراه، أو أن عليَّ واجباً آخر يجب أن أصنعه؟ أحسست بأنني وصلت بتفكيري حول ما يعتمل في نفسي: لا يكفي أن أراسل جريدتي بما أراه، بل يجب علي أن أحاول دراسة الوضع بشكل أكبر فقد أخرج من هذه الرحلة بكتابة قصة سراييفو بشكل أُظهِر فيه الأسباب والمسببات وأسلوب العلاج، وأعود بالتاريخ إلى كل أحداث سراييفو السابقة، فقد أستطيع بكتابتي هذه أن أقدم فكرة للناس عن هذه القضية وأبعادها.

وبدأت أخطط لفصول الكتاب وأكتب وأخزن بعض ما أكتب، وهكذا أمضيت الوقت وأنا أعايش تفكيري، حتى إذا ما جاء الصباح ذهبت إلى مكتبة الجامعة أبحث عن جميع ما صدر من كتب عن سراييفو عبر التاريخ، وكتبت أسماء بعض الكتب، ثم عدت إلى مكتبي لأطلب مكتبنا في لندن والقاهرة وبيروت وأطلب من هنا وهناك شراء بعض هذه الكتب التي نويت أن أقرأها قبل أن أبدأ الكتابة. وعندما انتهيت من كل هذا الذي صنعت أحسست بالراحة، فلربما حق لي أن أرتاح بعد أن هدأت نفسي، وعرفت قدماي الطريق إلى سراييفو.

الفصل الرابع

لأول مرة في حياتها تدعوني أمي لأن أتحدث معها في أمر هام، كنت ساعتها في المكتب قلت لها:

- ألا تستطيعين أن تتحدثي بكل ما لديك عبر الهاتف؟

رفضت أمي بإصرار وقالت:

- بل يجب أن أراك بنفسي.

أمي تقطن بجدة مع ابني الأكبر، ومكتبي في مكة المكرمة. حاولت أن أعرف ماذا تريد هذه الأم لكني لم أستطع. سألت زوجتي عن الموضوع قالت هي الأخرى إنها لا تعرف شيئاً. بدأت أضرب أخماساً بأسداس، إذ من الصعب أن أترك العمل في الجريدة وأذهب إلى جدة. طلبت من أمي هاتفياً أن توافق بأن تؤجل الحديث حتى وقت متأخر من الليل. قبلت على مضض بعد أن عرفت بأنني لا أستطيع أن أترك عملي وأذهب إلى جدة.

عندما التقيت بأمي وجدتها مضطربة، حدثتني عن رؤياها في نومها وقالت:

- لا أريدك أن تسافر إلى سراييفو.

ضحكت وسألتها عن السبب، فحكت لي تفاصيل الحلم الذي شاهدته أكثر من مرة، وقالت في شيء من الهدوء:

- برضاي عليك لا تذهب إلى سراييفو.. أكثر من مشكلة ستصادفك في هذه الرحلة.

سألتها في جدية:

- هل معنى هذا أنني سأقتل أو أُغتال في هذه الرحلة؟

قالت:

- لا.. لا هذا ولا ذاك، لكن أشياء كثيرة ستراها بعينيك إذا أصررت على الرحلة.

قلت:

- ما دام الأمر لم يصل إلى الموت أو القتل، وما دمت سأعود إليك فكل المشكلات ستهون يا أمي. لقد عزمت على أن أكتب شيئاً عن هذه الأرض وعن الأخوة الذين تغتالهم يد الغدر، وما أظنك تريدين مني أن أتقاعس عن أداء هذه المهمة.

وعندما رأيت إصرارها، حاولت أن أطمئنها بقولي:

- ما دمت تريدين ذلك فأنا لن أذهب، وستكون رحلتي إلى ألمانيا فقط.

ربّتت على كتفي وقبلتني في خدي وقالت:

- الله يرضى عليك، أنت هكذا دائماً ذلك الابن الذي يستمع إلى كلام أمه، ولهذا تجدني أدعو لك دائماً.

تركت بيت أمي وعدت مرة ثانية إلى بيتي لأجد نفس الكلام تحاول أن تعيده زوجتي على مسامعي، فقد عرفت بأن أمي قد أطلعتها على الرؤيا التي شغلت بالها، وجعلتها تحاول أن تثنيني عن السفر. تركت زوجتي في الصالة وأخذت طريقي إلى غرفة النوم، وقد خلا ذهني من كل ما قالته أمي، كان تفكيري ينصب حول كيف أعد لرحلتي إلى ألمانيا ومنها إلى كرواتيا فسراييفو في النهاية.

أمسكت سماعة الهاتف وطلبت أختي من باريس، كانت هي التي ردت عليّ. قلت لها الحكاية، وأفهمتها بأن أخاها لا يقل عنها إيماناً بقضايا هذا العالم الذي نعدّ أنفسنا جزءاً هاماً منه.

كانت أختي تتحدث معي بحب، شعرت وكأنها عادت تلك الصغيرة التي أداعبها دائماً وأحاول إثارتها. لم تدعني أكمل الحديث حتى سألتني:

- هل وصلتك رسالة زينب؟

قلت:

- نعم.

قالت:

- لقد بعثت إليّ برسالة، وقد بعثت بها إليك بالفاكس لتقرأها. ولذلك أطالبك بأن تبعث لي بصورة من رسالتها إليك بنفس الأسلوب.

طمأنتها وقلت لها:

- سأفعل ذلك فور أن أنتهي من المكالمة.

عند هذا الحد شعرت بأن صوت أختي قد تغيّر، ربما أشاعت رسالة زينب في نفسها الحزن، فأنا أعرفها تحب الناس، وتحب زينب أكثر.. قالت:

- أتدري بأنني هنا على صلة بأسرة بوسنية؟ فإذا قدر لك أن تمر على باريس فسأقابلك بها لتتعرف على المآسي التي يلاقيها هذا الشعب.

قلت وفي صوتي أنا الآخر شيء من الأسى نقلته لي أختي عندما تحدثت عن زينب:

- سيكون الله لهؤلاء الظلمة بالمرصاد.

أمّنت أختي على كلامي وودعتني، وبدأت أدير قرص التليفون لأطلب من مكتبي أن يبعث بصورة الفاكس الذي بعثت به أختي إليّ في المنزل. ولم يمض سوى دقائق حتى كانت صورة الرسالة أمامي، أحسست وأنا أقرأ الرسالة بأن هناك تفاصيل كثيرة كتبتها زينب لأختي، ربما لأن المرأة تعرف كيف تكشف للمرأة عن الأحداث التي صادفتها. أظلمت الدنيا في عينيّ وأنا أقرأ تفاصيل اغتصاب زينب ومحنتها التي عاشتها في ذلك القبو الذي أسكنها الصرب فيه مع فتيات في عمر الزهور. هي وحدها التي تعدت الأربعين، أما الأخريات فكن أجمل وأحلى منها لكنهن جميعاً لم يكنّ في صبرها على هذه المحنة.

قالت زينب لأختي في رسالتها: إن إحدى الفتيات قد قضت نحبها أثناء اغتصابها، وإنها كانت في الرابعة عشرة من العمر لم تر الحياة ولم تعرف عنها شيئاً.

أحسست بخنجر مسموم يصوّب إلى صدري، أهكذا يتعامل هؤلاء القساة

مع الحرائر؟ وددت لو كنت أستطيع أن أحمل البندقية لأكون ضمن أولئك الشباب الذين يدافعون عن أرضهم وعرضهم.. لم أنم ليلتي، كانت صورة زينب وصور الفتيات اللواتي كن معها تطغى على كل صورة تمر بذاكرتي، وأحسست بأن هناك جريمة كبرى ترتكب بحق الأمة الإسلامية، وأن علينا جميعاً أن نهب هبة رجل واحد للدفاع عن مسلمي سراييفو وبنات سراييفو.

زوجتي أحست بما يعتمل في خاطري، حاولت أن تقرأ الرسالة لكني مزقتها إرباً إرباً خوفاً من أن أزيد الألم في نفس هذه الزوجة التي تحملت نزواتي سنوات طويلة.

سألتني:

- لماذا مزّقت الرسالة؟ أليست هي من أختك؟

قلت:

- بلى، لكن كل ما فيها يثير الاشمئزاز والقرف من هؤلاء الأجلاف الذين يعيشون في القرون الوسطى، فالصرب يا عزيزتي بلاء لا يمكن أن نصف قسوته على قلوب سكان سراييفو.

أحست زوجتي بالألم الذي يعتصر قلبي، وشعرت بأنني لم أتألم مثلما تألمت بعد قراءة تلك الرسالة، فلم تحاول أن تزيد أو تعيد كما تصنع المرأة، بل أخذت تحاول أن تهدىء خاطري، لكني كنت لا أقوى أن أجلس في أي مكان فقد أحسست بأنني ضعيف مثلها، لأنني لا أستطيع أن أدافع عن الحق في سراييفو.

الفصل الخامس

سافرت العائلة جميعها إلى لندن. الأيام التي أمضيتها بمفردي أحسست فيها بالغربة وإن كنت لا أزال أعيش في بيتي وبلدي. فالغربة ليست انتقال الإنسان من مدينة إلى مدينة أو من قارة إلى قارة أخرى. الغربة في نظري أن يعيش الإنسان وحيداً دون أهل ولا أسرة ولا عائلة. أحسست بالاختناق وأنا أفكر في صديق العمر محمود الذي أضرَبَ عن الزواج وأمضى سنوات عمره وحيداً، كنت أقول له ذلك بالسر والعلانية، وأحاول أن أفهمه بأن الإنسان الذي لم يتزوج ولم يكوّن أسرة إنما يسيء إلى نفسه قبل أن يسيء إلى الآخرين. تصور عندما يكبر الإنسان ويمرض ويموت وهو وحده ماذا سيكون الحال؟ محمود كلمني اليوم بالهاتف وطلب مني أن أتغدى معه ما دامت أسرتي مسافرة. لبّيت الدعوة، لكن الأسى والصمت أصبحا يلازمانني كثيراً بعد أن فكرت في أن أسافر لأرى ما يجري في سراييفو.

في فترات الراحة كنت أحاول أن أخطط لفصول الكتاب الذي أعِدّ، لكن عندما يأتي الليل أجدني قد غيرت وبدلت في كثير من الفصول. كنت أقدم في الصباح هذا الفصل ثم يبدو لي تأخيره في المساء وكنت أحس أني ضائع أو مرتبك وليست عندي الطاقة على أن أحدد أسلوب الكتاب ولا حتى عناوينه. زوجتي وأولادي يتحدثون معي من لندن، يطالبونني أن أسافر إليهم فأجيبهم: بعد زيارتي لبون. كانت سراييفو وبنات سراييفو وأطفال سراييفو وعجائز سراييفو يعيشون معي طوال الليل والنهار، أما صورة زينب فقد كانت تكحّل عيني وكأنها تتجسد أمامي. قلت في نفسي: ربما تغيرت صورتها،

فالإنسان ـ أي إنسان ـ عندما يكبر تتغير ملامحه، لكن شعوري الباطن يهتف بي أن وجه زينب لم يتغير، وإن كانت السنوات التي أمضتها والعذاب الذي عاشته ربما أضاف بعض التجاعيد إلى وجهها.

ترى لو لم أكن متزوجاً، هل أتزوج زينب؟ سؤال صعب لم أستطع الإجابة عنه. عندما تتحدث زوجتي معي فإن عقلي يرفض التفكير في أن أتزوج زينب، وعندما يغيب صوت زوجتي تطل صورة زينب في فستان الفرح الأبيض وأنا بجانبها في (الكوشة) والموسيقا تصدح بألحان الزفاف الصاخبة.

لمت نفسي على هذا التفكير ليس فقط بالنسبة لزوجتي وإنما حتى بالنسبة لزينب، ثم بعدها قلت لنفسي: ولماذا ألوم نفسي على هذا التفكير بالنسبة لزينب فزينب أرملة لم تعد زوجة لأحد، وإن اقتراني بها قد يكون الأفضل، فلربما أبعدتها عن جو المأساة التي عاشتها. أمضيت أكثر ساعات الليل في كتابة مقالات نارية عن الحرب في البوسنة كنت بحروفي وكلماتي أحاول أن أنتقم من هؤلاء الأجلاف لزينب وأختها وأخواتها المسلمات البوسنيات.

عندما تحادثت مع أصدقائي في بون شعرت بشيء من الراحة، فهم، وإن كانوا يعدون على الأصابع، لكنهم أصدقاء عشت وعملت معهم سنوات.

وحين حزمت أمري على السفر إلى بون أصبحت أحس بدقات قلبي تعزف ألحاناً غريبة، ظننتها بادىء ذي بدء الخوف من هذه الرحلة، فأنا لم أنس رؤيا أمي. طردت هذه الفكرة من رأسي وقلت: ربما لأني سأرى زينب. ولكن زينب ليست في سراييفو ولا أدري أين هي حتى الآن؟

أخذت الطائرة إلى مطار فرانكفورت، ومن هناك ركبت القطار لأجد بعض الإخوة في انتظاري في محطة القطار. أحسست بكثير من الحب والاعتزاز وأنا أرى هؤلاء الصفوة من مواطني بلادي يعملون في صمت من أجل بلادهم ووطنهم. وفي الفندق التقيت بالسفير السعودي السيد عباس غزاوي الذي كان في فترة من الزمن زميلاً عزيزاً على قلبي يوم عمل مديراً عاماً للإذاعة السعودية.

تحدثنا طويلاً عن كل شيء، وأعلمت صديقي عباس بعزمي على السفر إلى سراييفو، وتأليف كتاب يكون كتاب الموسم.

ضحك عباس وقال لي:

-هكذا أنت تظل كعهدنا بك، تسعى وراء إنجاز فكرتك مهما كانت الصعوبة، لكن المشكلة الآن في سراييفو ليست كتابة كتاب وإنما الخوف من أحد القناصة وهو يمارس قنص رأسك من بين الناس إذا أحس بما تريد أن تصنع.

أخَذَنا الكلام وضحكنا معاً.

في الليل زارتني أسرة بوسنية بعد أن سمعت بمقدمي، كانت مكونة من رجل ووالدته وأختيه الصغيرتين. أمضينا معاً أربع ساعات في الحديث، كنت أدوّن كل كلمة يقولها الرجل البوسني أو تقولها أمه أو الصغيرتان، ولم تقولا أيّة كلمة ربما لأنهما كانتا خائفتين، وكم شعرت بآيات الهلع والخوف على وجهيهما.

حدثت الأسرة بما كتبته لي زينب، فقال لي الرجل:

- مسكينة، لكنها ليست الوحيدة. مئات من الحرائر أصابهم ما أصاب زميلتك زينب.

انحدرت دمعة على صفحة وجه الأم المغَضَّن، ونظرت في وجهي وقالت:

- لا أريد منك شيئاً إلا أن تعدني بأن آتي لأداء فريضة الحج.

وعدتها خيراً وقلت في نفسي بعد أن أخذت عنوانهم بأن أفعل شيئاً لرغبة هذه الأم المسكينة.

لم أعرف بأن لهذه المسكينة بنتين قتلتا مع زوجيهما وأبنائهما في إحدى قرى تبوزلا. انطلقت دموع الأم التي سألتني إن كان معي نسخة من القرآن لتأخذه معها. أعطيتها نسخة من النسخ التي حملتها معي من مصحف المدينة المنورة.

قَبَّلت العجوز المصحف وتركت لبنتيها أيضاً تقبيله بعد أن حرصت الكبرى على أن تحفّظ الصغرى بعض الآيات القرآنية. أما الرجل فقد حاول أن يدعوني للغداء في بيته قائلاً بأنه لن يقدم لي إلا ما تصنعه أمه، لكنني اعتذرت لسفري وقلت لهم:

- إذا تيسر لي العودة كنت معكم ومع هذه الأم الطيبة.

بون مدينة جميلة لكني لم أتذوق جمالها رغم أحاديث الأصدقاء عنها، فقد كنت مشغول الفكر بالرحلة التي أزمعت عليها، فالطريق إلى سراييفو هو الذي يطغى على تفكيري.

تحدثت زوجتي معي من لندن تسأل عن الوقت الذي سأكونه معهم وقالت:

- لا تفكر في ذلك الموضوع الذي تفاهمنا على أن تنساه.

وعدتها خيراً لكني بقيت مشغول الذهن أيضاً بأمر السفر الذي يهم أمي وزوجتي.

أما أختي فقد كانت أكثر سروراً بما اعتزمت عليه، وكانت تشجعني على ألا أتأخر، لأنها تعرف رأي أمي وزوجتي في هذا الموضوع.

أختي تقول بأنها لن تسافر إلى جدة إلا بعد عودتي من سراييفو، فهي متشوقة لأن تعرف ماذا يمكن أن أصنع لهذه المدينة، ونسيت أنني إنسان، وأن أي واحد بمفرده لا يمكن أن يصنع شيئاً ذا أهمية، لكن أختي قالت:

- عندما يقوم كل واحد بواجبه تجاه أمرٍ ما، يمكن لهذا الأمر أن يصل إلى قلوب الناس وعقولهم وأفكارهم.

ثم عاودت الحديث قائلة:

- وماذا يملك أصحاب الأقلام إلا أن يقدموا الحقيقة مجردة لمواطنيهم رغم أن المواطن السعودي يعرف جيداً ما يجري في البوسنة وهو لا يبخل أن يقدم كل ما في يديه لإخوانه هناك؟

أمَّنْتُ على قولها وطلبتُ منها ألا تقول شيئاً للوالدة أو لزوجتي على ألا تنسى أن تدعو الله لي في أعقاب كل صلاة.

الفصل السادس

ارتفعت درجة حرارتي حتى بلغت/ ٣٩/ درجة في أعقاب الحفل التاريخي الذي أقيم بمناسبة إنشاء وتشييد أول أكاديمية سعودية أقامها الملك فهد في بون ليدرس فيها الشباب العرب ومن يود الدراسة فيها من أبناء المسلمين .

وعدت إلى الفندق وأسناني تصطك من البرد حتى إذا ما وصلت إلى الغرفة حاولت أن أتناول قرصاً من الأسبرين على أمل أن يخفف عني ما أصابني لكن لم تفلح الأدوية التي في جعبتي في خفض درجة الحرارة، وعندما أحسست بذلك طلبت من الفندق أن يأتيني بطبيب ليرى ما أنا فيه. جاء الطبيب وفحصني بعناية ثم قال:

ـ مجرد برد سيزول إذا ما ارتحتَ بضعة أيام.

قلت في نفسي: معنى هذا أنني سأبقى في بون بضعة أيام أخرى من هذا العارض الطارىء.

زوجتي تتصل بي دائماً من لندن، وأمي من جدة، وأختي من باريس وكلهم يسألون عني بعد أن عرفوا بارتفاع درجة حرارتي، ومع هذا كنت أنتظر أن يتصل بي أحد الإخوة من المسؤولين عن الإغاثة، فقد رتبت رحلتي معهم على أساس (أن أهل مكة أدرى بشعابها)، لكن أحداً منهم لم يتصل.

خَفَّت درجة الحرارة وأصبحت أستطيع أن أخرج للتنزه بعض الوقت مع بعض الأصدقاء. شعرت بأنني كنت محل الحفاوة من أولئك الإخوة الذين التفوا حولي في ساعات المرض، وقلت في نفسي: هكذا نحن حتى الذين لا يعرفونك تراهم على رأس من يقدمون إليك الخدمة في الخارج.

أختي في اتصالها الأخير قالت بأنها تسلمت رسالة جديدة من زينب، فقد بعثت بها زينب من أحد المستشفيات العلاجية في لندن إلى عنوانها في جدة ومن جدة تسلمتها عبر الفاكس بعد أن طلبت منهم في البيت فتحها وإرسالها. وقالت بأنها طلبت من زوجتي أن تزورها، وأنها هي الأخرى ستقوم بزيارتها بخاصة، ورجتني إذا ما انتهت زيارتي لسراييفو أن أعرج على لندن، فهي تعرف بأن الأسرة في هذا الوقت ستغادر لندن إلى باريس فلربما رأيتها وعشت قصتها كاملة، أما إذا لم أستطع فسنراها في جدة لأنها ـ أي أختي ـ ستدعوها لأداء العمرة.

بعد ساعة من الزمن جاءني صوت أختي هذه المرة خانقاً ومتأثراً وهي تقول:

- لقد تحدثت إلى زينب تلفونياً لكنها لم تستطع مواصلة الحديث، بل مضت تجهش في البكاء طوال فترة الحديث.

أختي منزعجة لأن زوجتي لم تقم بزيارة زينب، ولا تدري ما السبب، وتقول:

- هكذا نحن النساء نغار من ماضي أزواجنا حتى وإن كان ذلك الماضي ناصع البياض.

هوّنت على أختي الأمر وقلت لها:

- ما دمت ستزورينها أنت فهذا يكفي، وإذا كانت في حاجة إلى المال فلا بأس أن تعطيها نيابة عني ما تريد، على أن نتحاسب عند عودتي إلى جدة.

صدقوني عندما أقول لكم بأنني كنت في تلك اللحظة بين الفرح والحزن. الفرح لأن زينب لا تزال على قيد الحياة، وأن الله قد فكّ أسرها من بين أيدي العتاة غلاظ القلب، والحزن لأن ما مرَّ على هذه المرأة من مآسٍ لم يمرَّ بأي إنسان آخر. وبدأت أفكر كثيراً في أمر هذه المسكينة: ترى كيف هي، وكيف استطاعت أن تأتي إلى لندن، ومن يتعرف على المستشفى الذي تستشفي فيه؟

أسئلة كثيرة لكنها بلا جواب وإن كانت تنتظر الجواب، ومن يدري هل يقدَّر لي أن أعرف الجواب من زينب عندما أراها أو أن قناصاً ماهراً سوف

يصطادني وأنا أسير في شوارع سراييفو؟ فكثير من الناس قضوا نحبهم على أيدي هؤلاء القناصة.

عندما يصاب الإنسان باليأس يبدأ الخوف يتسلل إلى قلبه، ومن قلبه إلى جميع جوارحه ليبدو أشبه بإنسانٍ فقد قدرته على التماسك. كنت أنا هذا الرجل ربما لأنني أحسست بشيء من الخوف يتسلل إلى قلبي بعد أن تذكرت أولئك الذين يتخفون وراء الأشجار ليصطادوا رؤوس الرجال والنساء معاً. ولكن هل يمكن أن يقضي الإنسان نحبه دون أن يحين أَجَلُه، ذلك ما كنت أفكر فيه، وأقول في نفسي: لن أموت قبل أن ينتهي العمر وأنا آمل أن يكون هناك في العمر بقية أستطيع أن أرى فيها زينب فتاة الجامعة التي أحببتها في صمت، والتي أصبحت زوجتي أشد غيرة منها بعد أن عرفت الحكاية، حتى إنها لم ترض أن تزورها في المستشفى عندما طلبت أختي منها ذلك.. في تلك اللحظة قررت ألا أسافر إلى سراييفو إلا بعد أن أرى زينب.

عندما تحدثت معي أختي بالهاتف أخبرتها بما عزمت عليه، فقالت في حزم:

– لا، دَعْ زينب لي، واذهب محفوفاً بعناية الله.

سألتها:

– لماذا هذا الإصرار؟ قالت:

– أنت أعرف بزوجتك مني، فهي رغم كل ما تتميز به من رصانة وهدوء وسعة خلق إلا أنها لا تنسى كل هذا الأمر عندما يأتي الحديث عن زينب، والذنب في الحقيقة ذنبي، فأنا التي حدثتها بحبك لهذه الغريبة، هذا الحب الصامت الذي لم تعلن به لأحد سواها وسواي.

وضَحِكَتْ، لكني لم أضحك، بل أخذت أفكر في أمر هذه الزوجة التي أحب والتي استطاعت طَوال أكثر من عشرين عاماً أن تحافظ عليّ، تسامحني على نزواتي وتبحث لي عن مخرج عندما أخطىء، وعندما لا أخطىء أراها تحاسبني على أنني لم أخطىء في حقها فعلاً.

في تلك اللحظة أحسست أن الوقت قد سرقني في محادثة نفسي وقلت:

- لندع كل هذا للغد، فلربما جاء الغد بما نشتهي، أما ما لا نشتهي فذاك هو الذي لا نريد أن نراه.

أمضيت بعض الوقت في ترتيب ملابسي داخل الحافظة الجلدية. وفي الصباح أخذت طريقي إلى محطة القطار في طريقي إلى مطار فرانكفورت لآخذ الطائرة في رحلتي التي عشت أفكر فيها كثيراً وكثيراً.

في القطار كان مقعدي تُجاهَ رجل وامرأة، نظرت إليهما، وشعرت كأن الاثنين قد تزوجا قُبَيْل أيام.

كانت المرأة أكثر تولّهاً في حب زوجها الذي فاتحتُه في الأمر، وعرفت بأنه فعلاً قد تزوج قبل أسبوع واحد من الزمن، وأنهما في طريقهما إلى فرانكفورت ومنها إلى إسبانيا حيث يعيش الرجل رغم أنه وزوجته من الجنسية الألمانية.

أمضيت الوقت مع الزوجين في حديث ناعم، حاولت من خلاله أن أفهم رأيهما في قضية البوسنة، لكن الرجل والمرأة لم يكونا معي في هذا الأمر، وكأنهما يسمعان بالمشكلة لأول مرة.

قلت في نفسي: هكذا هو العالم الأول كل واحد مشغول بحياته وظروفه وأوضاعه ومستقبله أيضاً، أو كأنّ كل فرد فيه يقول: نفسي.. نفسي.. ومن بعدي فليكن الطوفان.

الفصل السابع

في مطار فرانكفورت أمضيت أكثر من أربعة ساعات أنتظر قيام الطائرة التي ستقلني إلى مطار زغرب، كنت أحلم بالوصول إلى سراييفو عن طريق كرواتيا بحثت عن بعض الكتب التي يمكن أن أشتريها لتؤنس وحدتي في هذه الرحلة التي لا أدري ماذا ستكون نتيجتها وخاتمتها؟

رؤيا أمي أخذت تتراءى أمام عيني، كذلك كلام زوجتي وإصرارها على ألا أذهب إلى سراييفو يرنّ في أذني، وحديث أختي وحرصها أن أؤدي واجبي تجاه إخواني في الدين. كل هذه الأفكار كانت تملأ عيني وخواطري لكني كنت أجد رؤيا أمي مسيطرة على تفكيري، فأنا أعرف مرائيها التي كانت تحدثنا عنها.

في مطار فرانكفورت التقيت بأحد الإخوة العرب، تعرفت عليه وأنا أقف إلى جانبه على مقربة من المقهى الصغير، أحسست كأنني أعرفه، وحين عرف بأنني سعودي دعاني إلى فنجان قهوة. جلسنا سوياً وبدأنا نتحدث عن مشكلة البوسنة. لا شيء في ذهني غير هذه المشكلة، قال لي صديقي:

- ما بالك وكأنك تحمل السُّلَّم بالعرض، هل أنت صحفي؟

ولما أجبته بنعم قال:

- لهذا السبب تحشرون أنفسكم، أنتم معشر الصحفيين، وأنوفكم في أشياء تنقلونها إلينا لتنغصوا بها حياتنا. وضحك الصديق العربي وكأنه قال نكتة تحتاج إلى أن أضحك معه بها ولكني لم أضحك، وأمضيت بعض الوقت معه حتى أزف موعد سفره إلى باريس فمضى عني

وهو يقول:

- ربما أراك هناك في الشانزلزيه. قلت له:

- ولماذا لا تقول سراييفو؟ قال:

- لا، فال الله ولا فالك، فأنا لا أحب أن أحشر أنفي في أشياء لا أعرفها، لأنني فنان. قلت:

- يمكن لك أن تجسد ما ترى في لوحة. قال:

- حتى هذه لن أصنعها، سأتركها لغيري، فأنا أحب الحياة، ثم ما الذي يجبرني على أن أذهب إلى هناك ما دمت لا أعمل جندياً أو ضابطاً مطالباً بأن أكون هناك؟

وارتفع صوت ضحكاته وكأنها تصم أذني، فهل يعقل أن يوجد في عالمنا العربي من هو على شاكلة هذا الذي عرضه لأول مرة؟

عندما حلقت بي الطائرة في طريقي إلى مطار زغرب كنت أحلم بأشياء كثيرة، رغم أنني لم أنم، بعد، لكن كثيراً ما نحلم نحن الذين نجري وراء الكلمة والحرف، بما نحققه من أجل هذا القارىء الذي يلاحقنا دائماً أو يطلب منا أن نعطيه ما يجعله قادراً على فهم ما يجري في عالمه الذي يعيش فيه.

الطائرة تتأرجح يميناً ويساراً وأنا أغرق في خوف دون شك، ولكن في هدوء. ستقولون كيف يكون هذا؟ فأقول:

- فسّروه كما ترون، لأن كل واحد منا يعيش الهلع في هدوء بأسلوبه. أما أنا فلم أكن تلك اللحظة قادراً على تفسير خوفي.

السيدة التي كانت بجانبي على كرسي الطائرة امرأة نَصَف، أي إنها في النصف الثاني من عمرها. على وجهها تعلو ابتسامة تدل على أنها في تلك اللحظة أكثر وثوقاً بأمر الطائرة مني، قلت لها بعد أن نظرتُ إلى وجهها:

- هل أنتِ من زغرب؟

لم أكن أدري من أين هي، فالأوروبيون كالصينيين، كل واحد يُشبه الآخر. قالت:

- لا. وإنما أنا من البرازيل.

سألتها:

- وهل تذهبين إلى زغرب في سياحة؟
زادت ابتسامتها على شفتيها اتساعاً وقالت:
- لا، ولكني صحفية، فأنا وزميلتي نتناوب تغطية الأحداث من هناك.
سألتها:
- وأين هي زميلتك؟
قالت:
- قتلتها شظية من قنبلة وهي تؤدي واجبها، فأصبح عبء العمل كله على رأسي.
سألتها عن عمر صديقتها القتيلة قالت:
- أصغر مني بعشرين عاماً.
قلت:
- إذن هي في الثامنة والعشرين.
ضحكت وقالت:
- مجاملة لطيفة، ولكن من أين أنت؟
قلت لها كل شيء، وعرّفتها بأنني صحفي وذكرت لها رؤيا أمي وزوجتي وكلام أختي وكأنني أعرفها منذ سنوات طويلة. يقولون: إن الغربة أحياناً تصنع الصداقة، وأنا بطبعي أقدر على مصادقة الآخرين.
نظرت إلى وجهي بعد كل ذلك الحديث. وقالت:
ـ أشعر بأنك خائف.
قلت: تريدين الحق؟ نعم.
قالت: ومم تخاف؟ من الموت مثلاً.
قلت: لا، فالموت حق، ولكنني أخاف من أشياء كثيرة، أخاف على أولئك اللواتي قتلهن واغتصبهن الصرب، أخاف أن أسجن أو أحبس أو أن يُمَثَّل بي، أخاف.. وأخاف.
وعددت لها مصادر الخوف في نفسي. ضحكت كريستينا ـ كان هذا هو اسمها ـ وقالت:
- لو قلت لك ما حدث لي ولأسرتي لضاع منك الخوف، فأنا زوجة

لصحفي عمل طويلاً في تغطية أحداث الحروب، ومات في حرب الفوكلاند، فأخذت ابنتي مكانه أما والدي فهو الآخر صحفي، لكنه من نوع آخر، فقد آثر أن يكون في الإخراج الصحفي والرسم لأنه مبدع، وها أنت ذا تراني هنا أواصل العمل ولا أخاف لأنني أعرف بأن رسالتنا أن يعرف الناس كل ما يجري في الحروب والأحداث. إذا قلت لك بأنني قد فكرت فترة من الوقت أن أترك هذه الوظيفة بعد وفاة زوجي فإني أقول لك الحقيقة، لكنني وبعد أن غيّرت ابنتي وظيفتها من محررة للشؤون الفنية لتأخذ مكان أبيها غيّرت رأيي.

الخوف يولّد الخوف يا صديقي ونحن في عملنا هذا ندع الخوف جانباً ونبحث عن المجهول لنسجله، ثم بعد ذلك لا ندري متى سنكون نحن أنفسنا عنواناً مثيراً في الصفحة الأولى، وهذا لا يتأتّى إذا لم نصل أو نخرج أو يُلق القبض علينا أو نحاكم.

هذه هي رسالة الصحفي، البحث عن الحقيقة لا تعريتها، نشرها كما هي، ولندع للآخرين من زملائنا كتابة ما بين السطور.

الصحابة قدوة وإحساس وفن وإيمان بما تصنع وصدق في تقديمه، إذا ضاعت واحدة من هذه الأشياء لم تعد صحافة.

فنحن نمتلك من مقومات الأخلاق ما لا يمتلكه بعضهم، ومع هذا فالذين يذبحون على خشبة المسرح هم نحن لا هؤلاء الذين يصنعون المشاكل والحروب الجانبية ويقتلون الزهور. صدقني لم تعد المرأة في عالمنا سوى زهرة برية تبحث عن الماء على ضفاف الهضاب التي تعيش فيها، عالمنا قاتل، وأول من يقتل هو المرأة.

بعضهم يقتلها بحجر وآخر بخنجر، وثالث بقنبلة، ورابع بمعسول الكلام.

قلت لها:

- أنت أكثر من صحفية أنت فيلسوفة.

نظرت في وجهي وقالت:

- فلسفتي أجدها من الواقع، والواقع كثيراً ما يكون أغرب من الخيال، ألست معي في هذه المقولة؟

أمّنت على كلامها، واستمعت إلى صوت المضيفة تطالبنا أن نشد الأحزمة فنحن في طريقنا للهبوط في مطار زغرب.

الفصل الثامن

حين هبطت الطائرة في مطار زغرب أحسست بأنني في حالة نفسية غير مستقرة، لا لسبب إلا لأنني تذكرت بأن فكرة السفر إلى سراييفو عن طريق زغرب كانت تمثل لديّ قناعة وطنية، ومفهوماً صحفياً، أتطلع إلى أن أنقل كل تلك الصور الإنسانية من خلال لقاءاتي بالمسؤولين وبعض من أبناء الشعب البوسني المسلم الموجودين في كرواتيا.

كنت أظن ـ ومن خلال التنسيق الذي تم بيني وبين هيئة الإغاثة الذين باركوا خطواتي، وقرروا مساعدتي واستضافتي في كرواتيا بين زغرب وسراييفو ـ أن من السهولة الحصول على تأشيرة دخول إلى كرواتيا ما داموا سيتصلون ويحصلون لي على تأشيرة وبخاصة وأنهم قد وعدوني أن أجد هناك من يستقبلني في المطار ويُسَهِّل تنقلاتي في كرواتيا. لم أدع أي شيء للظروف، بل زودتُ هيئة الإغاثة بموعد وصولي إلى مطار زغرب. كنت أظن بأن كل شيء سيكون متاحاً لي فأنا صحفي وصديق، وأحمل كثيراً من الحب للكرواتيين بعد وقوفهم مع المسلمين في البوسنة. عندما وصلت إلى مطار زغرب قالت لي شابة ذات وجه طفولي يميل إلى الدمامة بأن هناك مكتباً في المطار يمنح التأشيرات للراغبين في الدخول. توجهت إلى المكتب بعد أن سبقني إليه أربعة من جنسيات أوروبية مختلفة حصلوا في لحظات على التأشيرات، أما أنا فقد أوقفني المسؤول عن المكتب، ووجه لي بعض الأسئلة كنت أظنها عادية لأنها كانت تتعلق بأغراض زيارتي، وعما أحمل من النقود، قلت له كل شيء بصراحة، وأشعرته بأن معي

من المال ما يكفيني بالإضافة إلى البطاقات الائتمانية.

أعاد علي السؤال مرة أخرى:

- هل تعرف أحداً هنا؟

ذكرت له أسماء من أعرف من المسؤولين في الهيئة، وأنه لا بد أن هناك شخصاً ما في انتظاري خارج المطار. بعث معي أحد موظفيه، وهناك وجدت موظفاً عربياً من هيئة الإغاثة ومعه موظف آخر كرواتي الجنسية. كانت المشكلة أن الموظف العربي لا يعرف الإنجليزية ولا يتحدث الكرواتية، أما الموظف الذي كان معه فلا يتحدث الإنجليزية كما أنه كان خائفاً من أن يقوم بدور المترجم بين مسؤول الجوازات وموظف الهيئة السعودية، هذا الخوف أوجد شيئاً من الشكوك حولي وحول المهمة التي أنا قادم إليها.

ولكم حاولت أن أفهم المسؤولين في المكتب مهمتي، لكنني وبعد أن توقفت حركة الطائرات القادمة والمسافرة أصبح وضعي محرجاً.

في تمام الساعة السابعة مساءً أقفل المطار، ولم يبق فيه سواي وجنود ثلاثة كانوا مدججين بالسلاح لحراستي. قادوني إلى صالة الترانزيت في خشونة لم أعهدها حاولت التفاهم معهم لكنهم لم يكونوا يعرفون سوى الكرواتية.

صالة الترانزيت صالة كبيرة لا يوجد فيها أي كرسي، حاولت أن أتجه إلى صالة القادمين المجاورة لأستريح على أحد الكراسي، لكن الجنود تبعوني وأمروني بالعودة. وحين رفضت لوى أحدهم ذراعي وأمسك الآخر بذراعي الأخرى ولم أحس إلا ولكمة قوية على وجهي. ترى لماذا كل هذه الشراسة؟ أحسست بعد أن أفقت من هول وألم الضربة أنني أصبحت كريشة في مهب الريح، وقلت في نفسي: ربما كان هؤلاء الجنود من الصرب وليسوا من الكروات، ولهذا جاؤوا للانتقام من شخصي الضعيف.

سألتهم عن السبب قلت لهم:

- لماذا تفعلون معي هكذا؟

وجوه كريهة جامدة ليس فيها شيء من الإنسانية.. وكأنها صلبت على خشبة طويلة.

اقتادوني إلى صالة الترانزيت مرة أخرى ووضعوني في ركن قَصِيٍّ في الصالة وحرموا عليّ التحرك حتى إلى دورة المياه إلا بأمر منهم. طلبت منهم أن أشرب ماءً أو شراباً أو طعاماً. لم يقولوا شيئاً وإنما أشاروا فقط بأن لا شيء هنا يمكن أن أشتريه.. المساحة التي سمحوا لي أن أتحرك فيها هي (٢×٢) متراً وهم حولي كالزبانية يحملقون في وجهي ينظرون إلي نظرات غاضبة.

أحسست أن حركة الزمن قد توقفت وأن عقارب الساعة هي الأخرى توقفت حتى لا تزيد قلقي أو تكثر من انفعالاتي.

حاولت أن أنام فوضعت رأسي على حقيبة يدي، وتمددت على الأرض. أحسست بالبرودة تتسلل إلى كل بدني وآلمتني ضلوعي، فقمت واتجهت إلى أحد الكراسي وجلست عليه، وتبلّد إحساسي، ولم أعد أميز شيئاً وتساوت الأمور في عقلي، واختلط كل شيء أمامي حتى إنني لم أشعر بوجودي. ولما أطفئت الأنوار شعرت بشيء من الرهبة لولا بصيص من الضوء يأتي عبر الإضاءة الخافتة التي كانت تنبعث من الإعلانات المعلقة على الجدران.

أمضيت الليل بطوله ساهراً، وعندما بزغ نور الفجر أحسست بأن شيئاً من مخاوفي قد زال، وأحسست بقليل من الطمأنينة، وتذكرت أهلي وبيتي وأولادي ورؤيا أمي، فقد بدت تفاصيل الرؤيا وكأنها تراها أمي. فهذا الذي صنع معي والذي نسيت أن أربطه بالرؤيا لانشغال فكري وضيق نَفَسي، وحين صفا تفكيري أدركت بأن الرؤيا التي رأتها أمي أصبحت حقيقة، وبدا كل شيء أمامي واضحاً دون أي تفسير. ترى لماذا أقدمت على هذه المغامرة، ولماذا لم أُلَبِّ رغبة أمي فقد طلبت ذلك مني، لكنني رفضت وإن لم أشعرها برفضي.

وفي الساعة السابعة فتحت المتاجر، ودبّت الحركة في المطار، لكن هذا الاستبشار فقدته بعد أن أشعرني رجال الدورية بألا أتحرك إلا بأمرهم.

تعرفون كيف يعامل رجال الشرطة المجرم؟ كنت أتمنى في تلك الساعة أن أعامل بمثل هذه المعاملة، لكنني لم أنلها لأنني على ما يبدو لا أستحقها، أو ربما لأنني جئت إلى هذا المطار دون تأشيرة، أو ربما ظنوا أنني سأحدث ما أحدث في حياة هؤلاء القوم فرأوا أن يصنعوا بي. وبدأت الهواجس تعاود طريقها في أعماق ذاكرتي، وأخذت الصور الوحشية التي يستخدمها الصرب مع

الرجال والنساء المسلمات تتراءى أمام عيني. وفجأة أخذت أقرأ كتاب زينب حرفاً حرفاً رغم أنه لم يكن معي، وأخذت أنتحب ولكن في صمت، فقد عزّ عليّ أن أبكي أمام هؤلاء الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة.

كنت أنظر إلى الإعلانات التي أخذت تبدو من بعيد فلا أراها إعلانات وإنما هي جميعها جزء من رسالة زينب التي أخذت تظهر في حروف كبيرة خالطت نفسي، فشغلتني بعض الوقت أن أفكر في نفسي، وارتفعت يدي إلى السماء أدعو وأدعو وأدعو عسى أن أنتهي من هذا العناء والعذاب الذي التقيته هنا في مطار زغرب.

الفصل التاسع

لم أكن أظن أنني قادر على الحديث عن فترات الضنى والعذاب التي عشتها في مطار زغرب. هذا المطار الذي أحسست بأنه سجن كبير لشخص واحد هو أنا دونما سبب. قد تكون الغربة مضنية، لكن ضناها أكبر وأشد عندما يواكبها شيء من الأسى والتفجع. لا يكفي أن تتفجع على كل أولئك الذين ماتوا وقضوا نحبهم لأن عذابهم بالموت قد انتهى، لكنني أتفجع على زينب التي تستشفي هي ومثيلاتها في مستشفيات العالم، وأحس بالألم والحزن والغضب لما أنا فيه في جلستي تلك على كرسي من كراسي صالة الترانزيت. التقيت بأحد الإخوة، حاولت أن أناديه بصوت خافت خوفاً من الزبانية، لكنه لم يسمع، رفعت صوتي فالتفَتَ، أشرت إليه أن يأتي. جاء الرجل وقلت له في كلمات متقطعة ما أنا فيه وطلبت منه أن يبلغ أسرتي لتتصرف. لكن الرجل قال بأنه سيبلغ سفيرنا في فيينا فهو مسافر إليها. وقد فعل، لأن توالي الأحداث هو الذي جعلني أقول هذا في تلك اللحظة. قدمت إحداهن لترى هذا الذي يجلس على الكرسي ببشاعة مظهره. لم أكن أظن أنه سيأتي يوم ما أقابل فيه الناس بملابسي التي أصبحت متسخة نتيجة نومي على الأرض لدقائق لأنني لم أكن أستطيع النوم. قالت لي الفتاة بإنجليزية ذات لكنة أوروبية:

- ماذا حدث؟

قلت لها كل شيء في كلمات سريعة. لكزني أحدهم ببندقية في خاصرتي، رفعت الفتاة صوتها عليه، وتحدثت معه حديثاً بلغته. نظرتُ إلى وجهه، وشعرتُ وكأنه يريد أن يعتذر عن اللكزة.

أعطيت الفتاة رقم تليفون ابني، وقلت لها بأن تخبره بكل ما حدث لي. قالت:

- سأفعل.

ونظرت إلى الرجال تؤنبهم على ما فعلوا، ثم ودعتني وذهبت.

ارتحت بعض الشيء وقلت: لا بدّ أن الرجل سيفي بما وعد، وكذلك هذه الفتاة وإن كانت هي الأخرى كرواتية.

أحسست بعد ذلك بأن في إمكاني أن أتحرك في مساحة أكبر، لكن إقدامي على هذه الحركة لم يلاق قبولاً من سَجّاني.. جلست على الكرسي وأنا أفكر ولم يمتدَّ تفكيري إلى شيء، وشعرت بشيء من التبلد قد أصابني، فلم أعد ذلك الإنسان الذي عرفت.

هكذا يفعل الظلم في نفوس الناس.. يُضِيع حقوقهم، ويُضيع مع إضاعة هذه الحقوق توزانهم أيضاً.

كنت أنا ذلك الرجل، الذي فقد توازنه وأصبح بدون ظل.. لأن بعض الذين لا يعون الحياة أصبحوا يسيطرون على مقادير الناس في بلدانهم.

في تلك اللحظة التقيت بسيدة، كل ملامحها تدل على أنها من بلدي لكني عندما تحدثت معها عرفت أنها أردنية. قلت لها عما أعاني في عبارات قصيرة. أحسست أن السيدة قد فهمت كل ما أقول، وطلبت منها أن تتصل بالجريدة التي أعمل بها.. وبدأت أفكر هل سأقضي ليلة أخرى هنا أنام فيها على الأرض كما فعلت بالأمس؟ أحسست بأنني يجب أن أستعد لهذه المفاجأة حتى لا يداهمني الليل وأنا لا أدري ما أفعل، وبدأت أفتح حقيبتي لأتناول منها ما يمكن أن أستخدمه في محنتي تلك، وبدأت أغيّر ملابسي في العراء. في تلك اللحظة، انشغل الجنود بمحفظتي، حملوها معهم للكشف عليها فلربما وجدوا فيها شيئاً.. قلت: مساكين هؤلاء الجهلة، كان من المفروض أن يصنعوا ذلك منذ الأمس لا اليوم، لكني حمدت الله لأنهم أتاحوا لي الفرصة أن أمضي إلى المقصف لأتناول كأساً من الشاي بعد أن حرمت من هذا الشاي ومن الماء النظيف والطعام أربعاً وعشرين ساعة لا أدري كيف مرت، لكنها تجربة قد تمنحني القوة على غيرها. وحين وصلت إلى هذا الحد من التفكير ابتسمت

وقلت في نفسي: شرّ المصائب هي المصيبة التي تضحك صاحبها وليس أولئك الذين يتابعونها، وإن كنت أظن بأن هؤلاء المجانين قد ضحكوا عليّ كثيراً طوال ساعات الأزمة.

لقد فقدت الأمل في النجاة، وفي تلك اللحظة جاء الجنود بمحفظتي مقفولة، لم أعر الجنود شيئاً من الاهتمام، لكن الذي أعرته بعضاً من اهتمامي وجود جنرال يحمل الكثير من النياشين والأوسمة معهم. قلت لنفسي: جاءت المصيبة، فلربما عرف الناس هناك أنني مجرم خطير، ولهذا أتوا بهذا الجنرال ليحملني معه إلى السجن. والسجن في أي مكان يخيف لكن سجن هؤلاء أكثر تجريداً للإنسان من إنسانيته التي يفقدها في بعض الأحيان نتيجة سوء فهم أو عدم معرفة.

كانت المفاجأة أن الضابط الكبير قال وفي وجهه علامات البغضاء والاشمئزاز:

- آمل ألا نكون قد سبّبنا لك أي إزعاج.

نظرت إليه ببلاهة، ولم يكمل حديثه. فهذه الكلمة ربما لا تعني ما فهمت. ثم قال بلغته وفي كلماته شيء من العنجهية:

- تريد أن تغادر المطار الآن؟

قلت:

- كيف، وأنا أرى الطائرتين اللتين كانتا على مدرج المطار تستعدان للمغادرة.

قال:

- سنوقف إحداهما.

قلت بالعربية:

- أرجوك.

لكنه لم يفهم ما أعني، فأفهمته المعنى بالإنجليزية، وتابعت قولي بأنني أريد أن أغادر إلى باريس. قال وبكل حزم:

- بل لفرانكفورت.

قلت بعد أن نظرت إلى عينيه رأيت أن الكلام مع أناس مثله لا فائدة له:

ـ لا مانع.

وحاولت أن أتحدث معه قليلاً، لكن الغضب برقع وجهه وقال لي:

- لا أريد أن أسمع منك كلاماً فلقد اضطررتني أن أقطع إجازتي وآتي إلى هنا لترحيلك.

قلت لنفسي دون أن أرفع صوتي: ربما كان ذلك غباءً من رجالك ومعاونيك، ولم أجرؤ أن أواصل، بل بقيت في مكاني أكثر من خمس عشرة دقيقة ثم اتجهت إلى بوابة الخروج لأعاود الدخول عبر بوابة ثانية حيث تقف طائرة اللوفت هانزا.

وهناك طلبوا مني التوقيع على إقرار لا أدري كنهه. كنت مستعداً أن أوقع على أية ورقة حتى ولو كانت اعترافاً مني بالسرقة لأنني في تلك اللحظة كنت أنتظر الفرار بجلدي.

ألقى أحد العساكر محفظتي إلى منطقة اللوفت هانزا وأخذت طريقي إلى الحافلة.. وأنا أتلفت يميناً ويساراً خوفاً من أن يغيروا رأيهم ويعيدوني حيث كنت. وفي الطائرة حمدت ربي على انتهاء هذه التمثيلية القاتلة، وقررت بيني وبين نفسي ألا أصدق أي وعد يأتيني من أي إنسان على أنه سيهيّىء لي أسلوب الاستقبال عندما أصل، وفي مقدمة كل هؤلاء رجال الإغاثة التي كنت أنتظر أن يحاولوا إغاثتي من الشر الذي لازمني أكثر من أربع وعشرين ساعة.

في الطائرة كانت هناك فتاة يعيش أهلها في فرانكفورت، أبوها بوسني مسلم وأمها كرواتية. قالت لي أشياء مفجعة عما سمعت، وقالت الكثير الكثير لكنني لم أسمع شيئاً من كل هذا الذي قالته لأنني كنت لا أزال في حالة انعدام الوزن وهذا أقسى ما يصيب الرجال.

ما أكثر الرجال والنساء الذين عاشوا انعدام الوزن في كرواتيا والبوسنة من الكرواتيين والصرب أيضاً.

الفصل العاشر

كثيراً ما نتساءل بيننا وبين أنفسنا عن الرابط الذي يجمع بين الناس، أهو اللغة: لا أعتقد، لأن لكل إنسان في أي بلد لغته التي يتخاطب بها. أم هو اللون: لا أعتقد كذلك لأن للناس ألوانهم ومشاربهم تختلف باختلاف المدن والموانىء والقارات ومفاهيم الأخلاق، إذ قد تختلف النظرة بين مفاهيم الإنسان في آسيا ومفاهيم الإنسان في أوروبا. وعندما ننظر إلى هذا الموضوع الرابط بين الإنسان والإنسان في أي مكان: والذي يجمعنا هو أننا نعيش على هذه الأرض، نأخذ من خيراتها بمقدار ما نستطيع، ونحمل أنفسنا ما لا طاقة لنا به. وهذا المخلوق الآدمي البشري يظن نفسه أقوى من الحصان وأشجع من الأسد، يقتله الخوف ويطحنه الفزع، عندما يلوح له خطر داهم، أو مصيبة تنتهي إلى الفتك به. وتلك هي الحقيقة التي كنت أرددها بأن الإنسان أي إنسان في أي مكان ـ هو هو، مَثَلُه مَثَلُ غيره حين يتسلل إلى قلبه الهلع أو يواجهه الخطر دفعة واحدة، لهذا فقدت شجاعتي وضاعت هيبتي، ونسيت أنني إنسان قويّ كالحصان، هصور كالأسد وأنا أواجه الخطر في مطار زغرب.

وعندما نحسّ بالأمان نشعر بالجوع، وننشد من وراء هذا الإحساس أن نمنح أنفسنا مساحة من المرح من خلال تلبية الرغبات التي نشعر بها.

في الطائرة التي أقلتني إلى مطار فرانكفورت أحسست بالجوع والامتلاء في وقت واحد، وقد يُسْتَغْرَبُ كيف يحس المرء بالجوع والشبع في وقت واحد. لن أتفلسف في الموضوع وإنما أقول: عندما نكون أحراراً نشعر بالامتلاء كما يمكن أن نشعر بالجوع، وجوعنا هذا

ينحصر في شيء واحد: هو أننا قادرون على أن نأكل وقادرون على أن نشرب وقادرون على أن نمتنع عن الأكل وقادرون على أن نحب وقادرون على أن نكره.

رغم كل الذي صادفته في مطار زغرب كنت أتمنى لو قدّر لي أن أصل إلى سراييفو، ولكني مع هذا منعت، وها أنا ذا مرة أخرى في فرانكفورت.

عندما حطّت الطائرة وأخذت جواز سفري لأقدمه لرجل الجوازات عاودني الخوف وأحسست بقشعريرة تسري في جسدي، ولم يطمئن قلبي إلا بعد أن ناولني الرجل جواز السفر وطلب مني أن أدخل فرانكفورت.

مضيت لا ألوي على شيء، أخذت حقيبة ملابسي من قسم الجمارك ومضيت أجرجرها وأنا أصفر لحناً فولكلورياً. كنت أحب أن أسمعه وزوجتي تغنيه بينها وبين نفسها. ترى لماذا أردد هذا اللحن بالذات؟ ألأني افتقدت زوجتي؟ وما هو الأمر بالنسبة للأولاد، هل نسيتهم؟ وتذكرت بأن الزوجة هي رأس مال الزوج يقضي معها الحياة سالماً آمناً إذا كانت من نوع زوجتي تلك السيدة الطيبة الفاضلة.

ركبت سيارة التاكسي ومضيت إلى الفندق، وحين قدمت جواز سفري إلى رجل الاستقبال، نظر إلى وجهي بأدب وقال:

- هل يسمح سيدي بأن يعطيني بطاقة الائتمان التي يحملها.

أعطيته واحدة من هذه البطاقات التي أحملها وأخذت أفكر، فلربما كانت ملابسي هي السبب في أن ينظر لي الرجل وكأنني لا أملك أن أسكن في فندق محترم كهذا.. قلت في نفسي: للرجل حق في توجسه فإن بشكلي الذي دخلت به إلى الفندق ما يستدعي لأن يكون حريصاً معي ومع أمثالي. فالعالم الحر يلفظ بلا شك أي إنسان لا يملك قيمة ما يحتاجه.

في الغرفة نفحت الخادم مبلغاً من المال لم يكن ينتظره، انحنى الرجل انحناءة كبيرة تدل على أن المبلغ الذي دفعته كان كبيراً، ومضى يريني كيف أستفيد من كل ما هو موجود في الغرفة حتى إذا ما انتهى طلبت منه أن يفتح صنبور المياه الساخنة والباردة في حوض الحمام ولمّا انتهى ودعني بأدب. لم أنتظر طويلاً بل أخذت أتحدث إلى غرفة الخدمة لأطلب عشاء يكفي خمسة أشخاص على الأقل، ومضيت إلى الحمام لأنضو عن نفسي غبار الرعب وعندما انتهيت وارتديت ملابسي رنّ جرس الباب في هدوء ففتحته ودخل

الخادم ومعه جميع ما طلبت من أنواع الأطعمة.

وقعت على ورقة الطلب ونفحته بعض المال وقلت لنفسي: الأفضل أن أرتاح قليلاً قبل أن أبدأ الأكل، وهكذا فعلت حتى إذا ما ألقيت بجسدي على السرير، أخلدت إلى النوم دونما حاجة إلى مقدمات كما كنت أفعل. أحسست بالكثير والكثير من الراحة في نومي لأن الحلم الذي راودني آنذاك كان أجمل مما أتصور، لقد رأيت نفسي وقد وصلت إلى سراييفو لأرى السلام وقد غطى جميع أرجائها. وبعد أن وافق الجميع على شروط السلام البوسنية أخذت صور هذا السلام تبدو بأشكالها الملونة وتطل في ترتيب طويل. كان حلماً من أجمل الأحلام لأني رأيت زينب وقد أصبحت وزيرة ترعى الفنون والثقافة في بلادها، وتعمد إلى تقديم اللوحات التي تؤكد أحقية المواطن المسلم بأن يمارس عقيدته على أرضه وبلده.

رأيتها وهي تفتتح مهرجاناً أسمته مهرجان السلام في مدينة زغرب، والتقيت بقربها ابنتها التي لم أرها، وزوجها الذي قتل، وتواصلت الصور حتى الصباح. وحين أفقت من نومي وجدت المائدة بكل ما فيها من أطايب الطعام موجودة في وسط الغرفة.. لم أمَسَّ منها أي شيء، فقد غلبني النوم ثانية، ونمت وعندما استيقظت أحسست أن كل هذا الطعام لا لزوم له، ومددت يدي إلى التلفون لأستمع إلى صوت زوجتي وهي تبكي:

- لقد عشنا أياماً من الضنى والعذاب بغيابك، وعلمنا بما جرى لك، فأين أنت الآن؟

عندما قلت لها إنني الآن في الفندق وأن كل شيء على ما يرام، قالت لي:

- تكلم مع أمك.

تحدثت أمي طويلاً. أحسست أنها منزعجة هي الأخرى أكثر من زوجتي وإن كانت لم ترد أن تظهر ذلك لها، رجوتها أن تسامحني لأنني رفضت أن أستمع إلى ما قالت وأصرف النظر عن السفر إلى سراييفو.

سراييفو التي أحببتها وإن كنت لم أرها حتى الآن.

ترى هل يأتي اليوم الذي أذهب فيه إليها لأزورها؟

لا أدري وإن كنت قد قلت لنفسي: لا بد من أن أراها يوماً ما. سأراها ولكن ليس عن طريق مطار زغرب، مطار الفزع والخوف والليالي النابغية الطويلة.

الفصل الحادي عشر

لم أكن أظن أنني سأغير رحلتي، عندما توقفت أمام مكتب الطيران الموجود في الفندق، كما أنني لا أدري كيف طلبت من السيدة التي كانت وراء المكتب بفستانها الأنيق وشعرها الأشقر البديع أن تحاول إيجاد مكان لي في طائرة الغد إلى لندن، وأن تحجز لي في فندق الإنتركونتيننتال. قالت وبصوت يميل إلى المرح:

- سأعمل على تنفيذ رغبتك، وسأبعث بكل ما أتّخذه من ترتيبات على صندوقك في الاستقبال.

تركتها.. وبدأت أفكر ماذا ستقول زوجتي وأمي عن هذا الترتيب الذي اتخذت. قلت في نفسي: أفضل شيء أعمله هو أن أتصل بأختي في لندن.

هاتفتها فلم أجدها، وتركت لها رسالة في الفندق لتحدثني هي.. في هذه الأثناء تسلمت تذكرة السفر، وعرفت موعد السفر والوصول إلى مدينة الضباب.

عندما بدأت ألملم حوائجي وأضعها بلا ترتيب في الحقيبة التي لاقت الأمرّين معي، دق جرس الهاتف لأسمع صوت أختي التي رحبت برؤيتها لي. قلت لها:

- أريد فوراً أن أرى زينب لأطمئن عليها، وبعدها سأغادر إلى باريس لأرى أسرتي.

ورجوتها أن تتحدث إلى أمي وزوجتي وتختار ما تريده من عذر لي لكوني سأسافر إلى لندن. قلت لها إن أفضل طريقة أن تقول لهم بأن سفري إلى لندن كان بطلب من الجريدة. ضحكت أختي ولم تقل شيئاً.

في مطار لندن كانت أختي وزوجها في استقبالي، فرحت كثيراً بلقائها، وسألتها عن زينب وقلت لها بأنني أريد أن أراها فلم تمانع، وقالت بأنها قد قالت لزينب عن ذلك، لكن زينب طلبت منها ألا تفعل، ربما لأنها لا تريدك أن تراها وهي على هذه الحالة.

سألتها عن حالة زينب فإذا دموعها تنهال على خديها فعرفت أنها في حال مرضي خطير.

قالت أختي وكأن صوتها يأتي من قاع بئر عميق:

- لن تراك زينب يا أخي لقد فقدت عينيها ضمن ما فقدت.

- يعني هذا أن هناك أشياء كثيرة فقدتها هذه العزيزة.

وبهزة من رأسها قالت أختي:

- نعم!

- قولي لي كل شيء.

قالت:

- أعتقد أنك ستراها بنفسك، وتتحدث إليها رغم أنها لا تريد ذلك، لكني سأستأذنها خصوصاً وأنها تعرف ما حصل لك في رحلتك.

وصلنا الفندق وأمضيت الليل ساهراً، لم أعد أفكر في أي شيء سوى زينب هذه العزيزة التي لقيت ما لقيت من قومها.

في الصباح جاءت أختي بمفردها لتأخذني إلى زينب، قالت بأنها رضيت بعد حديث طويل أن تراني. ذهبت معها وأنا أفكر في هذا الذي أراه وقلت في نفسي: هل هناك أفظع من أن يفقد الإنسان بصره.

أنا وأختي كنا صامتين أثناء ركوبنا سيارة الأجرة حتى إذا ما وصلنا إلى المستشفى وأخذنا المصعد إلى الصالة الكبرى التي توصلنا إلى غرفة زينب كانت هناك فتاة بوسنية لا أعرفها، قدمت نفسها لي بأنها ابنة أخ يوسف وكانت تدرس الطب في لندن. رأيتها تلبس ملابس الأطباء البيضاء وعلى صدرها سماعة. عرفت منها أنها نجت من أن تصاب كما أصيبت خالتها، لأنها كانت بعيدة عن سرايفو.

حمدت الله على أنها بجانب خالتها ورجوتها أن تتخذ من الأسباب كل ما يساهم بإدخال السرور على زينب فلقد حلت بزينب أشياء كثيرة، لكنها لم تفقدها صوابها رغم كل ذلك.

في غرفة زينب التقيت مع الوجه الذي أعرف. كان شعرها مرتباً، عيناها للذي لا يعرف أنها لا ترى لا يمكن أن يظن ذلك. مدت يدها إليّ وكأنها تعيد إلى الذاكرة ليالي الشباب في القاهرة. وبدأنا نتحدث، قالت لي كل شيء وعرفت أن زينب قد تسلل الشلل إلى نصفها نتيجة الضرب المبرح الذي كانت تتعرض له أثناء سجنها. لم تخفِ عليَّ زينب أي شيء، قالت كل شيء.. كل شيء وكأنها تتحدث إلى نفسها عن كل ذلك الذي مر بها.

بكيت وأختي كثيراً، لكن زينب لم تبك. قالت بصمت:

- هذه إرادة الله، وسينتقم الله لي من كل أولئك الذين حرموني نعمة البصر.

لقد قربوا إلى عينيها أجهزة كهربائية كثيرة، كانوا يتناوبون على إيصالها لجسدها وعينيها بأسلوب مقزّز، لأنهم كانوا يربطون جسدها بحبال طويلة بعد أن يأمروا إحداهن بأن تنتزع منها كامل ملابسها. يضحكون وهم يمارسون أذاها بأيديهم وأرجلهم وأدواتهم. هؤلاء الوحوش، هل يمكن أن يتركوا بدون أن تُستعَاد حقوق كل هؤلاء منهم؟

قالت ابنة أختها بأسى:

- هل تصدق بأن من كان يقوم بإيذائها واحد من جيرانها حاول أن يتقرب إليها ذات يوم وصدته، ولم تتحدث عن ذلك لزوجها خوفاً من أن يقتله فهي تعرف زوجها جيداً، ولهذا آثرت الصمت حتى جاءت الحرب، فكان هو في مقدمة من أمسك بها وبزوجها أيضاً.

أحسست بدوار كبير جعلني أغفو، أفقد وعيي بعض الوقت، ولم أحسّ بمن كان حولي إلا بعد أن قدمت لي ابنة أختها شيئاً من العلاج، فقد كان حديث زينب فوق تحملي وقدراتي، فلكم تعذبت هذه الإنسانة التي أراها اليوم أشبه بملاك رغم بصمات السنين من جهة وآلام التعذيب من جهة أخرى.

الفصل الثاني عشر

ويستقر بي المقام هذه المرة في هذه المدينة التي أحبها وأحبها معي الكثيرون، فمدينة النور تعتبر من أجمل وأحلى مدن العالم بشوارعها ومتاحفها وتاريخها وفنانيها ورساميها الذين انتشرت شهرتهم في الآفاق.

زوجتي تحمد الله على سلامة الوصول وأمي كذلك، وإن كانت بالفعل منزعجة لأنها المرة الأولى التي أخالف فيها رغبتها.. أما أولادي فقد كانوا دائمي الاتصال بي من جدة.

أخذت أقرأ الصحف بينهم، فقد حرمت طوال كل تلك الأيام من معرفة أي شيء عما يجري في هذه الدنيا.. وأصعب شيء على الصحفي أن تكون الكلمة والحرف بمنأى عن عينيه.

حمدت الله لأن الجريدة لم تنشر موضوعي على صفحاتها، ورجوتهم أن يستمروا في هذا الوضع.

زوجتي سألتني عن زينب، لم يكن سؤالها بريئاً مائة بالمائة. تناسيت النغمة التي كانت تبطن السؤال وأخبرتها بكل ما رأيت على زينب. أحسست بأنها تجهش بالبكاء ودموعها تتساقط من مآقيها، وعقدة الذنب تبدو في محياها، وقالت لي:

- ربما أكون مقصّرة لأنني لم أزرها عندما كنت في لندن.

وبنفس النغمة المبطّنة أجبتها:

- لقد فعلت ذلك من أجلك ومن أجلي أيضاً وهذا يكفي.

قالت:

- لا ، وإنما يجب عليّ أن أتصل بها وأدعوها لأن تأتي لبلادنا لأداء العمرة، فهذا أقل ما يمكن أن أقدمه لهذه المسكينة.

نظرت إلى وجهها نظرة حب، فهذه الإنسانة الرائعة التي واكبت نزواتي سنوات الزواج كلها دون أن تتحدث عني إلا بكل خير تستأهل مني كل حب وتقدير.

وارتاحت نفسي وهدأت بعض الشيء، وأخذت أواصل الخروج في شوارع المدينة الجميلة وأمضي كثيراً من الوقت على كراسي مقاهي الشانزليزيه، فهذه المقاهي ليست فقط لشرب القهوة وإنما لممارسة أشياء كثيرة في مقدمتها الحوار الأدبي والسياسي والصحفي الذي كنت أعقده مع أصدقاء جاؤوا من أماكن كثيرة.

جريدة اللموند تطل من بين أيدي كثير من الناس، فالسياسي والصحفي الذي يأتي المقهى دون أن يمسك بهذه الجريدة لا يمكن أن يسمى صحفياً، حتى إنني لاحظت أحد الإخوة ممن أعرفهم وينتمي إلى الصحافة الخليجية يحمل هو الآخر الجريدة.. سألته وأنا أعرف أنه لا يجيد الفرنسية، فقال لي بأنه يشتريها لتقرأها له ابنته التي تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة الفرنسية.

ضحكت وضحك معي الحاضرون، لكن صديقنا أسَرّها في نفسه حتى إذا رأى أسرته تمشي في الشارع خرج إلى ابنته وطلب منها أن تأتي لتقرأ لنا الجريدة، وقد كان فأحسسنا بأن الرجل كان صادقاً، فهو قد ضرب عصفورين بحجر واحد نال احترام الذين يجلسون في المقهى ومعرفة ما يكتب على صفحات الجريدة بواسطة ابنته.

المقهى يعجّ بالناس، والصحفيون يتحدثون عن سلام البوسنة، واجتماع دايتون إلى آخر ما تم ويتم. كل واحد منهم يحس الثقة بأن موضوع البوسنة سينتهي إلا صديقنا صاحب صحيفة اللموند الذي قال وبالحرف الواحد:

- لن يأتي السلام للبوسنة كما نريد، فهؤلاء الصرب يتلاعبون دائماً بالانفعالات، وعلى العالم أن يكون يقظاً أمام تلاعبه. أصغيت بهدوء لكل ما يقول، وأخذت أفكر فعلاً في هذا الكلام الذي يدل على أن قراءة ابنته لصحيفة اللموند قد أعطته كثيراً من الفهم، لا تظنوا أنني أقلل من قيمة الصديق

الصحفي، أقول بأن الصحفي الذي يجيد لغة أي لغة، أقدر على فهم ما يجري في العالم من ذلك الذي لا يعرف إلا لغة قومه.

اتصلت من بيتي بزينب، تحدثت إليها طويلاً، وتحدثت زوجتي هي الأخرى معها وبعد أن انتهت طلبتُ الطبيبة هدى ابنة أختها ورجوتها أن تشعرني بما تحتاجه هذه المسكينة إذا رأت أنها في حاجة إلى أي شيء، ودعوتها مع زينب لأداء العمرة. أمي كانت بجانبنا، فطلبت هي الأخرى أن تتحدث إلى زينب حتى إذا ما أكملت حديثها قالت لي:

- يا بني، عليك الآن واجب تجاه هذه السيدة التي فقدت كل شيء ولهذا أوصيك ألا تتأخر عن مساعدتها.

نظرت إلى وجه أمي وقلت:

- هكذا هي بلادنا، تنتج الطيبة والأخلاق والعمل من أجل الآخرين، فنحن من طينة تختلف عن الكثيرين، لكننا نأمل أن يكون الجميع مثلنا، فالمروءة جزء هام وكبير من الأخلاق.

ومضيت إلى غرفتي لأكتب لك يا قارئي قصة رحلة لم تتم، نلت فيها صنوف العذاب، لدرجة أحسست فيها أنني ضائع، وهكذا الإنسان لا يحس بالألم إلا عندما يذوقه.

أختي تحدثت معي من لندن قالت:

- إن علاج زينب قد أعاد إليها بعضاً من نشاطها الحركي، وأنها بدأت تحرك قدميها في نشاط لاحظه الطبيب، وقد عزا ذلك كله إلى العوامل النفسية التي أصبحت تعايشها المريضة وطلب منها أن تساعده في زيادة هذا الإحساس من جانب المريضة، وقد تحدثت مع زينب في هذا وحثثتها على أن تحاول استعادة ثقتها بالحياة.

وقالت أختي إن زينب أجابتها ضاحكة:

- ربما كانت الدعوة التي وجّهت لي لأداء العمرة هي السبب، فأنا متشوقة لأن ألتقي بكثير من الأخوات اللواتي عرفت أثناء دراستي. فقالت لها أختي:

- أنت محقّة، فدعوة العمرة التي قدمها أخي لك ربما كانت السبب،

لأنك مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بدينك وعقيدتك.

وكررت عليها الدعوة هي والدكتورة هدى التي ترعاها، ومنذ تلك اللحظة وصحتها في تحسن، حتى إن طبيبها المعالج قال لي:

- يمكن لزينب أن تسافر إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، فلربما أعادت هذه الرحلة الحركة الكاملة إلى قدميها التي أشعر بأنها تستجيب استجابة كبيرة لعلاجي.

وها أنا ذا أقول لك بأنني قد عمدت إلى تأمين تأشيرة العمرة لها ولطبيبها من إخواني في السفارة السعودية الذين رحبوا بقدومها بعد أن عرفوا حكايتها.

لقد أحسست وكأن الجميع يريد أن يقدم خدمة لزينب.

هكذا نحن يا أخي يضيرنا أن تضار أخت أو أخ كما أضيرت زينب.

بعد أيام تلقيت فاكساً من زينب تقول فيه:

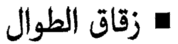
- انتظروني، سأكون معكم وسألتقي بالفجر الذي أشرق نوره من بطاح مكة المكرمة، وسأسعد برؤية الكعبة المشرفة التي كنت أود أن أراها بعيني، ولكن يكفيني أن أراها بقلبي في هذه المرحلة. ادعوا لي جميعاً فأنتم أهلي وإخوتي وعشيرتي.

قرأت ما كتبت زينب على زوجتي وأمي وانخرطنا جميعاً في بكاء ونحيب لكل ما أصاب هذه المسكينة التي أخذنا جميعاً نناديها بالأخت زينب.

حتى لا تتساقط الأوراق

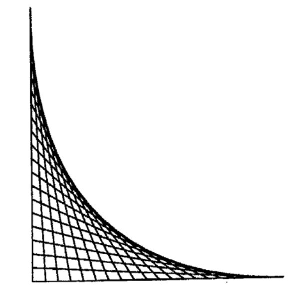
(روايتان)

ط ١ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



- زقاق الطوال

- حوش التاجوري



زقاق الطوال

الفصل الأول

أنسى، في غمرة انشغالي في ظروف الحياة، كل تلك الأيام التي مرت بي منذ ذلك اليوم الذي تفتحت فيه عيناي على معالم هذا العالم. هناك على مقربة من بركة باب الشامي التي كان يقال إن المحمل الشامي بحجَّاجه الوافدين من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن كان يستقر حولها.

معالم المدينة المنورة القديمة تطل من بين تلافيف ذاكرتي التي لم تشخ، وكأنها تتجسد أمام عيني في هذه اللحظة. ربما لأن انعتاقي من أَسر الحياة وبُعدي عن مشكلاتها جعلني أستعيد الماضي بجلاله وجماله وروائه وكل شيء فيه.

تلك سُنة الحياة، ننسى الماضي ونتناساه فترة من الوقت حتى إذا ما غدونا بأقدامنا في خضم هذه الحياة، عاد من حقنا أن نتوقف قليلاً للبحث عن الماضي، نتوقف للحظات تكون كافية لاسترداده بكل معطياته وذكرياته.

في باب الشامي، كانت كرائم أُسر المدينة تختار بيوتها خارج سور المدينة الكبيرة وكأنها تود أن تنطلق من إسار ذلك السور الذي يلف المدينة كما يلف السوار معصم أمي.

هكذا كان خيالي يراه في ذلك الوقت، أما البيت الذي ولدت فيه، فقد كان أكبر من البيت؛ تلتقي جدرانه مع جدران البيوت الأربعة التي

تعانقه وكأنها تحاول أن تخضع ظروف الحياة والأسرة والمجتمع الذي نعايش داخل هذه الجدران التي شمخت بسقوفها العالية ورواشينها الجميلة.

لقد أبرزت يد الصانع الجميل الماهر التي زرعت في كل ركن من أركان هذه البيوت الأربعة آثاراً لا يخفى جمالها؛ بل يدهش وكأن هذا الصانع قد تخرج من أكبر معاهد العمارة التي توجد بين ظهرانينا اليوم.

أمام بيوتنا كان هناك نخلتان أصيلتان من نخل المدينة المنورة تطل عليهما رواشين البيت في حب وكأنها تعانقهما. ولطالما أظلتنا النخلتان ونحن نلهو ونلعب. بل وساهمت في إسعادنا بما كانت تجود به علينا من ثمراتها الطيبة التي كنا نلتهمها وكأننا لم نذق قط مثلها من قبل.

وبجانب دارنا، كان هناك دور كثيرة ومتعددة لا تختلف عن دارنا في طريقة البناء، وإن كانت تختلف عنها بأسلوب التزيين والنجارة.

تقول جدَّتي: إنَّ بيتنا في باب الشامي تم بناؤه خلال عشر سنوات أمضاها الصناع في عمل جاد، وإنَّ جدّي قد جلب له العديد من هؤلاء الصناع من تركيا ومصر وسوريا فكان نتاج ذلك هذه الرواشين الجميلة الأنيقة التي يتحلى بها بيتنا والذي له طابع مميز يلاحظه كل من تقع عيناه عليها.

لم يكن عهد الكهرباء قد جاء يوم ولدت، ولكننا، بعد أن انتقلنا إلى بيتنا الآخر في زقاق الطوال، أصبح الأمر على غير ما كنا نعهد.

أكثر جيراننا في بيت الشامي انتقلوا هم الآخرون إلى زقاق الطوال.

لا أدري ما السبب، وإن كانت جدتي تعزو الأمر إلى حرارة الشمس وانصراف بعض سكان المدينة التي تركوها طلباً للرزق بعيداً عنها لسنوات مما جعل عدد السكان في طيبة الطيبة يتناقص باستمرار ولهذا أصبح من حقهم أن يعودوا إلى داخل سور المدينة.

ذاك عهد مضى وانقضى، لكن الكثيرين من شيوخ المدينة يذكرون تفاصيل الحياة على هذه الأرض إذ عندما شح كل شيء فيها، هرب الكثيرون طلباً للرزق والحياة، وبالطبع هذه سُنة الحياة ـ كما يقولون ـ والكلام هنا أيضاً لجدتي.

عم أحمد السقا واحد من شخصيات ذلك العصر عايش الحياة في زقاق

الطوال وعايشناه وملأ أزيارنا بالمياه العذبة الباردة.

والسيد أحمد يسلم أو "دكة خالي" هو الآخر كان واحداً من سكان ذلك الزقاق، أتذكره يتمخطر بملابسه الأنيقة بكبرياء غير مفتعل. أما عم سعيد "حلا حلا"، فقد كان بعض أبناء الزقاق وروّاد الحكاوي والقصص يحكون قصصه الرائعة وحكاياه التي تحبس الأنفاس وتبهر العقول في كل مكان يتواجد فيه.

وتتوالى الأسماء والذكريات ما بين همس وهدير في أعماق نفسي.

الحاجّة مريم التكرونية، سعاد المغربية، خالة عيشة، استيتة صالحة، نعيمة ونزيهة، وغيرهن كثيرات أذكرهن كلما أذكر خوجه هانم، فقد تخرجن جميعاً من عندها في يوم من الأيام وقبعن في بيوتهن ينتظرن فتى الأحلام الذي جاء بالفعل للبعض ونسي البعض الآخر منهن.

لكن أكثر ما كان يثير في ذهني الذكريات ذلك الصوت الشجي الذي كان يرتفع بأحلى أغنيات مصر والمغرب العربي.

إنه صوت محمد أبو عزة الشاب الذي ولد على هذه الأرض لأصول مغربية، فقد كانت أسرته قد هربت من المغرب خوفاً وهلعاً من المستعمر الفرنسي. جاء جده وأبوه وأمه وعاشوا جميعاً في بيت كبير اشتراه أبوه على مقربة من بيتنا. أما قبر سيدي عبد الله والد الرسول الحبيب عليه الصلاة والسلام، وعلى مقربة من رباط الحسينية وأيضاً على مقربة من الرباط.البيت الكبير لآل أسعد، ذلك البيت الجميل البناء ذو الرواشين المتميزة والحديقة المنسقة والتي امتلأت بأشجار النخيل.

أما الشيخ حامد الأفغاني، بلحيته المهيبة وزوجاته الثلاث، فقد كان يقطن مقابل دار أسعد الكبيرة، لا يعرف أحد شيئاً عن أسرته وزوجاته اللواتي لا يخرجن من البيت مطلقاً.

زقاق الطوال لا تنقطع الرِّجل عن ارتياده رغم أنه، ككل أزقة المدينة، لا يزيد عرضه عن الأربعة أمتار، فالحجاج الذين يأتون لزيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، يهمهم أن يقفوا لقراءة الفاتحة على قبر والد الرسول سيدنا عبد الله.

عم سعيد الكاتب صاحب الكتاب الصغير المعروف باسمه يعيش مذ عرفته على مقربة من السقيفة عند آخر الزقاق من جهة شارع الساحة ومعه زوجته المصابة بالصرع وابناه وكذلك والدته، كلهم يعيشون في الدار الصغيرة.

السقيفة في زقاق الطوال مخيفة في الليل، والدار التي في أعلى السقيفة كانت مهجورة، وقد أشيع في ذلك الوقت أن الأشباح تنتشر في جنباتها مما جعلها مصدر خوف لا ينتهي لنا نحن الصغار، بل ومصدر حكايات وقصص لا تنتهي وإزعاج يجعلنا نهاب التجول هناك بالليل.

في الصيف، كان النَّاس يحملون أسرَّتهم التي كانوا يختارونها ويشترونها من شارع القفاصة وينامون على أسطح المنازل، وكانت فرصة للجميع فيها التجديد والتغيير. وبالنسبة لي، كانت فرصة أطالع النجوم التي يتلألأ نورها في السماء، وأهيم بخيالي في أحداث الماضي وأحلام المستقبل، ولم يكن هذا حالي لوحدي، بل أكاد أجزم أن معظم الصغار بل الشباب والكبار كانوا يفعلون الشيء ذاته.

ربما كان الصغار أمثالي يفعلون ذلك بحماس أكبر كأن يحادثوا هذه النجوم بحب وشغف وينتظروا منها أن تتحدث هي الأخرى إليهم وتجيب عن تساؤلاتهم الكثيرة البريئة ولكن بالطبع بلا جدوى.

كان بين كل سطح دار وسطح الدار المجاورة جدار صغير يحمي سكان هذه الدار أو تلك من أعين الفضوليين. لكن سكان زقاق الطوال، كما كنت أظن وأنا صغير، لم يكن بينهم أي فضولي سواي، لا أذكر لماذا! ربما لأن جدتي غرست في ذهني حكايا كثيرة كانت تلقيها على مسامعي طوال الفترات التي كنت أقضيها بجوارها وخصوصاً في ليالي الحرّ.

لربما يتساءل البعض أي فضولي كنت؟ ولعلي لا أبالغ إذا قلت: كنت الفضولي الذي يريد أن ينهل أكبر قدر من المعرفة والعلم، للتعرف على ما حوله، على ما جرى قبله وعلى ما يمكن أن يجري بعده.

باختصار، كانت المعرفة التي أتطلع إليها معرفة إنسان يطمع إلى تحقيق ذاته وكيانه في المستقبل القريب والبعيد، معرفة إنسان يريد أن يعرف ليتعلم، ويتعلم ليستفيد ويفيد ويكون إنساناً له قيمة وله دوره في هذه الحياة، لا مجرد

تكملة عدد، كما يقولون.

وكان الناس في دنيا زقاق الطوال أشبه بالكتاب الذي عليَّ أن أقرأه، أتمعن في كل صفحاته وأتأمل كل حروفه لأفهم أدق معانيه وأعي كل ظروفه. ولطالما اختزنت صور ذلك الماضي الذي أراه يحاول أن يطل اليوم؛ لأنني في ذلك الماضي لم أكن قادراً على الإفضاء بكل ما سمعت وعرفت ورأيت وقرأت لأي أحد، فظروف الحياة التي نعيشها تجعل في بعض مراحل حياتنا وقفات قد تكبر وقد تتضاءل وها أنا ذا أقف على كل تلك المراحل التي مضت لأرى نفسي وأقول لها:

لَكَم كانت حياة حافلة بأحداث سعيدة وأخرى حزينة، ولكن، مع ذلك، كانت حياة جميلة لبساطتها وطيبة كل من كان يشاركني فيها. فالحياة أخذ وعطاء، وما أجمل أن يكون ذلك الأخذ والعطاء بين أناس يحب بعضهم بعضاً ويتمنون لبعضهم الخير والسعادة وصفاء العيش، تلك الحياة التي كنت أحياها في الماضي مع كل من حولي.

الذين يعرفون طيبة الطيّبة يتذكرون كيف كانت وكيف أصبحت. وتهدر الذكريات في أعماقي مدوية صارخة، فأرى من خلالها كيف تغير كل شيء فيها، شوارعها وطرقها، أبنيتها، لفها العمران بثوب آخر جديد قضى على كل القديم فلم يبق شيء منه.

ضاعت معالم الماضي وتاهت بين عيون الشباب والشيوخ الذين كتب لهم أن يعايشوا تلك الفترة يوم كان زقاق الطوال مدخلاً من مداخل الساحة وطريقاً ملتوياً من الطرق المؤدية إلى المسجد النبوي، البيوت القديمة، عرصات الأحوشة، باب المجيدي، جوة المدينة، زقاق الزرندي، سقيفة الرصاص، حارة الأغوات. كل تلك الأماكن التي يعرفها أمثالي أصبحت الآن جزءاً من التاريخ، هدمتها عمارة المسجد النبوي الذي أصبح في حلته الجديدة يرمق الفجر الذي سطع نوره ليضيء مرة ثانية بمعالمه على هذه الأرض يضيف إلى رسالة الأجداد التي بدؤوها في بداية القرن الأول الهجري حاملين مشاعل التعلم والإسلام إلى أرجاء هذه الدنيا الواسعة الشاسعة.

الحياة في المدينة المنورة نسيج يغاير كل الأنسجة التي نشاهدها في مدن

العالم الأخرى، ظاهرة فريدة تميزت بأشياء كثيرة ربما لأن تقاليد أهلها كانت جزءاً من تاريخ طويل ساهم في إشاعة الخير على أديم الدنيا.

في دنيا الناس تختلط المشاعر وترتبط بظروف الحياة وتقترن بأحداث الماضي القريب البعيد معاً، ثم بعد ذلك كله نجدها تطفو وتظهر من خلال تصرفات الإنسان الذي يعيش على أرضه مشدوداً بقيمها وظروفها وتاريخها وما يمارس من أعمال وأفعال وما يتطلع إليه من أماني وأهداف، تلك سمة العصر، بل كل عصر، لكن عندما تختلط مظاهر الحياة وترتبط بتقاليد الأمس، يصبح من الصعب على الإنسان أن يعيش الواقع دون أن يصل هذا الواقع بالماضي القريب والبعيد معاً.

في زقاق الطوال عاش إنسان هذه الأرض أخاً يرتبط بجاره القريب والبعيد رغم فوارق الناس. كل واحد من أبناء هذا الزقاق كان ستراً للآخر مهما تباعدت بهم ظروف الحياة وتطاولت مادياتها على أكثر من بيت، وعلى أكثر من أسرة. ربما لأن الناس، في ذلك الزمن، كانوا يؤمنون بالأخوة وحسن الجوار، يدفعهم إلى ذلك حب فطري غرسته تعاليم الدين الإسلامي ورسخته في نفوسهم، فجاء الواحد منهم على صورة أقرب لصور الماضي يوم كان الأجداد يعيشون في هذه الدنيا ويحيون على هذه الأرض ويصدرون النور والمعرفة إلى العالم أجمع.

عم أمين بخاري الترزي العنيد الذي تقبع دكانه في شارع العينية على مقربة من بيته في زقاق الطوال، هذا الرجل الذي حرم نعمة أن تلد له امرأته طفلاً، بينما يمتلئ حوش بيته بالعديد من الأطفال فقد كانت هوايته تربية الأيتام وتعليمهم وتزويج بعضهم لبعض ليمتلئ بيته فيما بعد بأطفالهم وقد علت البسمة وجوه الجميع وارتفعت ضحكاتهم معلنة السعادة التي يعيشونها ورغد العيش الذي يرفلون به.

في زقاق الطوال تعيش نماذج طيبة من البشر، صنع لها الحب عقوداً وردية فعاش جميع سكانه في ود متبادل وكأن كل واحد من سكانه أخ للآخر يحمل في جنبات قلبه همومه وآلامه ويشاركه طموحه وأحلامه.

ومضى هذا الزقاق الذي ظل مئات السنين يمنح سكانه شيئاً من الرقة

والعذوبة والحب والوفاء. ذهب مع الريح، أكلته رياح التطور، وقذفت بكل سكانه إلى خارج منطقته وكأنه كان على موعد مع الرحيل إلى خارج الديار برضائه ودون أي قسوة. ولطالما هدمت الأعاصير جدران المدن وقوضت مبانيها، وكثيراً ما اجتاح الطوفان الأودية والشوارع والمنازل والأسواق والمعالم التي قد تتميز بها غيرها في ذلك العصر والزمان، أما هذا الزقاق فكان نصيبه أن يختفي بأن يصبح جزءاً من المسجد النبوي الكريم.

ولئن ضاعت بعض معالم ماضي المدينة المنورة في عمارة وتوسعة المسجد النبوي الشريف، فقد كان ضياعاً محموداً تلمح آثاره على هذه الجدران والأعمدة الكبيرة التي زرعت هكذا فجأة بين رحاب المسجد الذي نُجلّ ونحترم ونأمل أن تظل عمارته على حسن اختيار الزمن لظروف الأرض والبيئة والمجتمع شعاعاً كبيراً من الأمل في حياة جديدة صاحبت ضياع الزقاق ولا يزال هذا الشعاع تتطاول إلى رؤياه أعناق الناس كل الناس في بلاد الناس الطيبين في طيبة الطيبة.

وسيظل التاريخ يحكي صفحات من رؤياه الخالدة في طيبة الطيبة للأجيال القادمة، تلك الرؤيا التي لا يمكن أن تندثر حتى يأذن الله لشمس هذه الدنيا أن تغيب وأن تحتجب.

وسيظل الناس في طريقهم تسير بهم أقدامهم في دنيا الخير رغماً في كثير من الأحايين في هذه الأرض، إذ من هذه الأرض انبثق نور الشمس وأضاء معالم طريق الناس حتى إذا ما تجاوبت الأرض لدفئه انطلقت جحافل الخير تجوب أصقاع الدنيا تورثها أوراق الربيع الحاني وكأنها تريد أن تطهّر قلوبها من أضغان الشر الذي شاع فترة من الزمن، وآن للأمجاد الصامتة أن تتكلم، أن ترفع عقيرتها بالأناشيد في ظل ثروتها الكبيرة وإيمانها العظيم، فلا جديد تحت الشمس إلا هذا الجديد الذي نرمق ونتطلع إليه بقلوب واجفة، يمد غدها بأمل، ويمنحها الحنان روابي شامخة من قدرات الإنسان على العيش بين الأصالة والمعاصرة، وكأنه على موعد مع رياح التغيير التي يشاهد عظمتها تبدو في أناقة ظاهرة تستمد قواها من إدراك الإنسان الذي يعيش على هذه الأرض وملء قلبه شوق للماضي وللحاضر والمستقبل على السواء.

الفصل الثاني

جَدَّتي تتذكر الماضي وتتحسر، تعتقد أنها فقدت مع ذكرياتها جُل حياتها أو كادت، وهي تنظر إليَّ وإلى أختي ونحن نكبر وتقول:

ـ من غدٍ ستنطلقان في هذه الدنيا وتريانها على حقيقتها، أما أنا فسوف أظل لوحدتي، أختك لا بد أن تتزوج أما أنت فتصنع بيتك بأسنانك، فأنا أعرفك جيداً وأقرأ كل أحلامك في وجهك هذا الذي أحب.

أضحك من كلامها وأردده بيني وبين نفسي، أحاول أن أتناسى كل هذا الذي تقوله وأتساءل:

ـ ترى ماذا تعني بأكثر ما تقول؟

قد تختزن الذاكرة بعضاً من كلامها، لكنه، على أي حال، ليس كلامها، فكلام جدتي كثير ومثير ومضحك ومحزن أيضاً!

جدتي امرأة تجاوزت الثمانين من العمر، قضت أكثرها في طيبة الطيبة وتعرفت إلى دروبها وشوارعها وأحواشها وهضابها ووديانها، لم تتركها إلى أي مكان من هذه الدنيا إلا لمكة المكرمة حيث أدت خلالها الحج ثلاث مرات على الجمال ومرتين بالسيارة واحدة عندما كان الطريق مليئاً بالتعاريج والأتربة والثانية بعد أن عُبّدَ الطريق؛ طريق مكة ـ جدة المدينة لأول مرة.

جدتي تجيد الحديث وتعرف أكثر سكان المدينة، وهي صديقة عزيزة لجميع سكان زقاق الطوال لكنها تدرك إدراكاً تامّاً أن أعز سكان الزقاق بالنسبة إليها أمي جميلة السنارية ووالدتها وأختها وجارتنا اللواتي يسكنَّ في بيت مجاور لبيتنا الكبير.

هي تذكر يوم ماتت أخت أمي جميلة السنارية، فهذه السيدة السمراء اللون التي أجادت الغناء والعزف على العود ظلت أختاً وفية لأختها التي ماتت في عز الشباب. كان المصاب أكبر من أن تتحمله أو يتحمله عقلها، فاهتزت أعصابها وبدت على صورة مغايرة لصورتها السابقة. طلّقت العزف والغناء وتناست أيامها ولياليها السابقة وبقيت لا تتذكر سوى شيئاً واحداً هو أختها التي ماتت. وعلى الرغم من أن أمي جميلة كانت زوجة لرجل من رجال مكة الذين اختاروا البقاء في طيبة، إلا أن هذا الرجل الذي لم تنجب منه رأى أن يطلقها في هدوء بعد أن اهتزت أعصابها وبدت على تلك الصورة المغايرة للصورة التي عرف.

لم تكن أمي جميلة مؤذية في تصرفاتها، لكن صمتها وحزنها أحالا حياة البيت إلى موات بعد أن كان ينبض بالحيوية والعافية.

عاشت هذه السمراء التي جاءت من زنجبار مع والدتها سنوات طويلة في بيتها ترمق السماء وتنتظر عودة أختها إلى البيت دون جدوى حتى إذا ما لحقتها أمها، زادت الطين بِلّة، فهجرت أمي جميلة بيتها واختارت السكن في بيت بعيد في أحد الأحواش في العنبرية.

هربت من كل الناس وبقيت وحيدة حتى عدت من دراستي لتلتقي بي وألتقي بها هذه المرة ولأراها كما تركتها وتعلقت بها وأنا صغير وكأن السنوات التي مضت لم تغير فيها شيئاً. أمي جميلة كانت تعتبرني ابناً لها فهي التي ربتني صغيراً واعتنت بي لتلك الدرجة التي جعلتني أتعلق بها وتتعلق بي وكانت أمي تحبها لمحبتها لي وكذلك جدتي وأنا.

في تلك الأيام، لم تلك طيبة الطيبة ولا أبناؤها يعرفون هذا السيل المنهمر من أنواع الحلويات والشكولاته. يوم ذهبت إلى المدرسة منحتني جدتي شيئاً من حلوى الزنجبيل التي كانت تصنعها بيديها. وحلوى الزنجبيل هي مزيج من السكر والليمون والزنجبيل وشيئاً من الدقيق تقلبه جدتي على كانون النار حتى إذا ما نضج، تركته يبرد قليلاً ثم تدير كفها في شيء من أجزائه ليصبح في النهاية شيئاً رائعاً من الحلوى التي أحب.

في الصيف كنا ننتقل جميعاً من البيت إلى الطابق الأرضي حيث يقبع الديوان والقاعة، فجو المدينة الحار يحتاج إلى هذا الانتقال فقد كان أبناء

المدينة يتبارون في تجميل وتكبير قاعاتهم وأروقتهم التي تمتد جدرانها حتى نهاية البيت لتستقبل الهواء الحار، ثم تحيله إلى هواء بارد بعض الشيء عن طريق الجلاء المغطى بستائر بيضاء أو ملونة.

أما النساء، فلم يكنَّ يعرفن أنواع الملابس المتوفرة اليوم في الأسواق. كان جلهن يمضي طوال النهار في السروال والسديري الذي صنع من قماش مخطط كانت تنتجه القاهرة فسمي باسمها. في رمضان تنشط النساء لإعداد لأنواع جديدة من الطعام والحلوى، فمن عادة العوائل تمضية الأمسيات كل ليلة في بيت من بيوت الأسرة بعد أن يبدأ بالأكبر والأكبر. لهذا كان الأطفال ينتظرون هذه المناسبات ليسعدوا بلقاء إخوانهم ليلاً، حيث كان السهر ممنوعاً على الأطفال.

تتساعد نسوة الأسرة في إعداد الأنواع المختلفة من طعام رمضان، فالعدد الكبير يجعل من الصعب على نساء البيت إعداد كل هذا الطعام كلٌّ بمفردها، ولهذا تجد أكثر بيوت المدينة وقد امتلأت بالأهل والأقارب يمضون لياليه وقد امتلأت قلوبهم بالحب والود، حتى أولئك الذين باعدت بينهم المشكلات والخلافات نسوها مع مطلع فجر هذا الشهر الكريم. تلك أيام مضت، ولا أقول هنا ضاعت مع التطور الذي شمل أكثر مدن المملكة وقراها.

في زقاق الطوال يجد الإنسان نفسه صديقاً لكل سكانه. تلك هي سُنة الحياة على هذه الأرض الطيبة، وهذا هو أسلوب سكان هذا الزقاق العتيق.

جدتي تقول هذا وتؤكده وتتحدث عن زواج بنات الأسرة وتتذكر كيف هب سكان الزقاق لمشاركة والدي يوم زواج أختي الكبيرة.

أربعون ليلة دامت أفراح الأسرة. وهذا في نظرنا، نحن الذين نمارس حياتنا الجديدة، شيء غير مألوف. لكنني أستمع لكلمات الجدة بكثير من الحرص؛ فهي تعرف كيف تغلف كلماتها بكثير من الرواء والتحسر، لدرجة تجعلني أفكر في هذا الماضي وأتحسر على الأيام التي ذهبت ولن تعود، وذلك في نظري شيء يجيده الكبار. فكل إنسان ترتبط دنياه بذكريات معيَّنة عاشها في صباه أو شبابه أو حتى طفولته، ولهذا نراه وكأنه يحاول استعادتها، في حياته المستقبلية على الأقل، ما دام غير قادر على تجسيدها كما كانت.

جدتي امرأة سوداء جاءت من أقصى جنوب السودان، قدمت مع مجموعة من أبناء قريتها الصغيرة لأداء الفريضة مشياً على الأقدام حتى إذا ما استقر بها المقام باعها أحدهم لجدي يوم كان يباع الإنسان، هكذا يبيع القويُّ الضعيف. لكنها ما لبثت أن تعودت على دارنا بعدما رأت معالم التكريم لشخصها الضعيف حتى أصبح يهابها الكبير ويحبها الصغير.

في ليالي الصيف، عندما كانت المدن تعيش على الفوانيس والأتاريك قبل عهد الكهرباء. في تلك الليالي كان يحلو السمر للأسرة الصغيرة والكبيرة معاً على أسطح المنازل والسماء تمتلئ بالنجوم التي كانت تدخل البهجة إلى قلوبنا، نحن الأطفال، لدرجة تجعلنا نمضي في تعدادها. جدتي كانت تحول بيننا وبين أن نقوم بتعداد هذه النجوم خوفاً من أن تمتلئ أجسادنا بالحسنات أو الزوائد اللحمية التي عرفها الطب بهذا الاسم وعرفناه بعد أن كبرنا.

كنا نضحك ملء قلوبنا من كلامها لكننا، خوفاً من غضبها، كنا نميل إلى الاستماع لقصصها دون أن نؤمن بأن ما تقوله هو الصحيح.

الأستاذ أحمد سليم أو "دكة خالي" كان مضرب الأمثال بيننا نحن أطفال زقاق الطوال، لكن صيته ووقاره ومنظره العابس والمتزمت كان يحول بيننا وبين أن نتبسط معه، حتى ذلك اليوم الذي قام فيه أشقى أطفال الساحة، سعيد سلامة، بزيارة صديقنا محمد كما كان كل يوم جمعة، والأطفال في ذروة لعبهم عندما نادى سعيد سلامة على "دكة خالي" راجياً منه قتل العقرب الذي يعيث فساداً في دهليز بيت أسعد الكبير.

شمر الأستاذ أحمد سليم عن ساعده ودخل الدهليز ليرى العقرب ويقتله فما كان من سعيد إلا أن وضع قفلاً على الباب اختاره لهذه المهمة وترك الرجل ينادي على الأطفال دون جدوى.

سمع عمي الذي كان في طريقه إلى المسجد استغاثة الرجل وأخرجه بعد وقت وهو يرغي ويزبد بينما كان عمي يضحك في كمه.

عندما عاد عمي إلى البيت، سألني عن الموضوع فأخبرته بالحكاية، لكنه لم يكتف بذلك وإنما سألني مرة ثانية عما إذا كنت قد اشتركت معهم في هذه الجريمة، لكنني أجبت بالنفي فانفرجت أساريره وقال:

ـ تلك لعبة شيطانية شقية لا يمكن أن يفعلها عاقل.

أمَّنت على قوله وإن كنت لا أزال أذكر الأستاذ أحمد سليم الذي طالعني وجهه وهو يخرج من دهليز بيت أسعد مرغياً مزبداً.

الأستاذ أحمد سليم لم يدع الموضوع يمر دون أن يعاقب المشتركين، فأخبر والد سعيد بالأمر، فنال الطفل من أبيه علقة كبيرة بدت آثارها على يديه التي كنا نراها معلقة على عنقه فيزيد ضحكنا وعبثنا معه.

يوم تزوج الأستاذ سليم ابنة جارنا الشيخ إبراهيم، كنا نظن بأننا سنفرح ونمرح في ليلة العرس، لكن الأستاذ سليم حرمنا من هذه النعمة فتزوج في صمت يليق بسنِّه التي كبرت.

يقولون إن تسمية الأستاذ أحمد سليم بدكة خالي جاءت من أنه أراد أن يبعد مجموعة من الذين يريدون أداء الفريضة عن دكة شيخ الحرم الذي هو خاله، حاول ذلك فلم يقدر ومنذ ذلك التاريخ التصقت به هذه الكنية.

الحاج حامد التكروني العتيق الذي أمضى طفولته وشبابه وكهولته في بيتنا، اختار له والدي البقاء في بستاننا في قباء ليكون مشرفاً على الزراعة فيه، يأتينا كل يوم وهو يحمل أطيب ما في البستان من خضروات ولبن وبيض وعلى وجهه ابتسامة تظلل عينيه الواسعتين.

جدتي تحب زوجة هذا الرجل وتمنحها مما لديها من ملابس وأكل وشرب، وتطالبه دائماً أن تأتي إلى بيتنا لزيارتها فقد كانت زوجته سنداً لزوجها كما يقولون. عندما تخرج حامد ابن هذا الرجل أرسله والدي إلى مدرسة تحضير البعثات يتلقى العلم، ومن ثم إلى مصر ليعد طبيباً جرَّاحاً. فرحت به أمه وفرح به أبوه، وفرحت به الأسرة جميعها.

عندما عاد حامد إلى المدينة، أقام له والدي حفل تكريم كبير حضره العديد من زملائه ومن سكان الزقاق العتيق. حامد يتحدث لي عن رحلته مع العلم فأحس بفرحة تبدو على وجهه. يومها قال لي:

ـ نحن الفقراء رأس مالنا في هذه الحياة هذا العلم الذي نتسلح به في هذه الدنيا.

أم حامد وجدتي تحاولان أن تزوجاه لتفرحا به وهو يرفض. عندما كبرت

عرفت السبب فلقد ارتبط حامد بفتاة مصرية عاد بها بعد إحدى إجازاته التي كان يقضيها في مصر.

كانت فتاة بيضاء جميلة وأنيقة. سألت يومها جدتي كيف رضيت هذه الفتاة البيضاء بأن تتزوج حامد الأسود، فقالت لي في حزم وهي عابسة:

- لقد تزوجت هناء من حامد الطيب وليس حامد الأسود كما تنعته.

أخذت أفكر وأفكر وأتساءل بيني وبين نفسي:

- لماذا لا ترضى الفتيات في المدينة الزواج من أسود؟

لم أع الجواب، لكنني عندما كبرت عرفت حقّاً جواباً لهذا التساؤل الذي كان يثير في نفسي أشياء كثيرة ولا يزال.

الفصل الثالث

عم سعيد الكاتب مات، ودبت الأرجل في الزقاق الهادئ. يومها عندما كنت عائداً من المدرسة. تناهى إلى سمعي أصوات البكاء من أول الزقاق حتى آخره. سألت عم أحمد السمكري عن الأمر فقال لي وهو يجهش بالبكاء:

ـ عم سعيد الكاتب مات.

مات عم سعيد، ولم يترك لأسرته شيء. حتى مبنى كُتّابه في سيدي مالك لم يكن ملكاً له. كانت أسرته مكونة من فتاتين صغيرتين وأمه وزوجته ووالدتها. شعر كل من بالزقاق بواجبه تجاه هذه الأسرة، فأقبل على البيت الصغير يشُدّ أزْرَ الأسرة التي فقدت عائلتها.

بعد أيام قال أبي لأمي بعد أن دفع إليها مبلغاً من المال:

ـ خذي هذا واذهبي إلى أسرة الفقيد فقد تكون أسرته في حاجة إلى العون، وواجبنا يقضي أن نقدم لها بعض ما نستطيع.

لم يكن أبي هو الوحيد الذي قام بأداء هذا الواجب، فقد عادت والدتي وقالت له بأن أكثر من جاء فعل ما فعلت فابتسم وواصل حديثه معي.

في أوائل كل شهر أصبحت أقوم بهذه المهمة بدلاً من أمي، كان أبي يقول لي دائماً:

ـ اسألهن إن كان ما أقدمه لهن يكفي أم لا.

قمت أنا بدوري بالمهمة على أكمل وجه، وأخذت عيون الفتاتين تلاحقني وأنا أتحدث إلى أمهما، واستمعت إلى تساؤلهما

فيما إذا كان أبي قريب لهن من بعيد، ابتسمت الأم وقالت:

ـ قد يكون الشيخ حمزة أقرب لنا من كل الأقرباء لأنه جارنا منذ سنوات كثيرة.

عرفت ساعتها معنى الجيرة وحقوقها، وعدت إلى بيتنا، ولا تزال عيون الفتاتين تلاحقني بنظراتهما إليَّ أحسست بهما وكأنهما تريدانني أن أبقى بعضاً من الوقت معهما.

سهى إحدى بنات سعد الكاتب كبرت ونضجت وأصبحت "خوجه هانم" تعلم البنات وتثقفهن وكأنها تواصل مسيرة أبيها الذي مضى ولكن بأسلوب آخر.

بجانب المحكمة الكبرى التي تقع على مقربة من حوش الجمال كان هناك زوجها الذي اقترنت به يقبع على كرسيه وأمامه منضدة من الخشب يكتب عليها دعاوى المتشاكين. كان شابّاً أسمر اللون يرتدي جبة سوداء على ثوبه الأبيض الناصع ويتدلى من بين أذنيه قلمه الذي اختار له مكانه بعناية يردد شيئاً مع أحد المتشاكين أعجبني وأنا أطالع وجهه في طريقي إلى المدرسة الثانوية.

أحد أصدقائي الذي كان يسير بجانبي لاحظ إعجابي بالشاب فقال لي في تهكم:

ـ أوَ تريد أن تصبح مكان هذا الرجل عندما تكبر؟

نظرت إليه وقلت بلا وعي:

ـ لا.

ولكنني، مع هذا، لا أرى في الأمر شيئاً يستحق السخرية فهو يبحث عن لقمة العيش بجد، وبالطريقة التي يجيدها، نسيت أن أقول بأن أم الفتاتين أبت أن تستمر في تسلم الإعانة التي كان أبي يبعث بها إليهم أبي إليهم قائلة في أدب:

ـ لقد أصبح لنا من يعولنا يا بني فلأبيك مني الشكر ومن الله الثواب.

صفة من صفات أبناء الزقاق أذكرها بإعجاب؛ عندما يأتي الشتاء يصبح جو المدينة المنورة قارس البرودة ومع هذا كنا نستمتع بأوقاتنا في هذا الفصل البارد، بقضاء بعضٍ من الوقت عند الحاج أحمد دندرمه الذي يقع دكانه الصغير

من دكان لبيع الدندرمه "الآيسكريم" إلى قاعة صغيرة لشرب السحلب. هذا الرجل الذي امتاز بالنظافة، ترك المدينة بعد هدم شارع العينية وسافر إلى بلاده وأصبح علماً بالنهاية في صنع الدندرمه في مدينة أزمير التي زرتها وزرته عندما كبرت برفقة بعض زملاء الدراسة.

إلى جانب الحاج أحمد دندرمه، كان هناك فرن للتميز يعمل فيه عدد من البخاريين الذين استوطنوا المدينة. جل أهل طيبة يحبون لإفطارهم أن يكون من "تميز" هذا الرجل الذي تفنن في إعداده.

شارع العينية يعج بالناس وكل واحد من أصحاب هذه الدكاكين التي تقع إلى ناحيته اختار مهنته بجدارة فهم يشكلون مجموعة من أصحاب الحرف اليدوية التي لا غنى لأي بيت أو أسرة عنها، لكن أهمها الدكانان اللذان يقعان على يمين القادم من المسجد. ففي الدكانين المذكورين كانت تجمع وتحرر وتطبع مواد جريدة المدينة التي كانت تدار باليد ويتناوب على إدارتها عدد من الزملاء أصبحوا بعد حين من الزمن يمسكون بتقاليد العمل في جهاز الدولة.

صدور الجريدة كان من الأيام المشهودة في طيبة الطيبة. امتلأت الدكاكين بكبار الأدباء والأساتذة الذين شاركوا في صدورها، وابتدأ الباعة ينادون على الجريدة بأصواتهم، وامتدت الأيدي الصغيرة لشراء الجريدة، وهي تدفع بالقروش المعدودة في أيديهم. كانت الأغلبية لأبناء المدارس الذين ابتاعوا الجريدة في جمهرة. أحسست بالفرحة وهي تكاد تبرز على وجوههم. لكن الأمر لم يدم طويلاً، فرغم حاجة الشباب لما كان ينشر في هذه الجريدة، لكنها لم تكن تلبي طموحاتهم، ربما لأن ظروف الحياة وظروف المشرفين عليها لم تكن على ذلك المستوى الذي يريده الشباب، أما الكبار فقد كانوا على غير ذلك، كانت تجربة منحتهم الشجاعة للاستمرار والعمل وهذا ما كانوا يرغبون فيه.

توالى صدور الجريدة، وتوالى من بعدها صدور مجلة المنهل التي منحت الساحة الأدبية شيئا كنا في أمس الحاجة إليه. لكن الحياة لم تمضِ على تلك الوتيرة، ابتدأ دبيب الأقدام إلى مصر كنانة الله وأصبح كل من يقضي بضعة أيام فيها بعد سفر طويل يعود ليتحدث عن الذي رآه بالكثير والكثير. ومضت أيام الزقاق على منوالها الذي تعرف، القلوب الشابة الواصفة، وقلوب الكبار الذين

استمرأوا الحياة على وتيرتها وعاشوها وعاشوا فيها.

في حلقات الدروس في المسجد النبوي كان بعض أبناء الزقاق يتحلقون حول الشيخ الطيب الأنصاري والسيد عمر والشيخ صالح التونسي والشيخ حسن الشاعر وغيرهم يتلقون العلم على أيديهم بعد أن ينهوا دراساتهم في مدارسهم الصباحية كما كانوا يستمعون إلى قراءة القرآن من الأستاذ أمين القرشي ومعاذ التكروني ومن بعض الحجاج المصريين الدارسين في الأزهر والوافدين لأداء الحج والعمرة.

وكان مجانين المدينة أكثر من أن يعدوا، فهناك عبد الرحمن الطيارة الذي افتتن بالطائرة التي وصلت من القاهرة تحمل أول وفد من بنك مصر، وسيدي عاكف، وكامل، والسيدة عزيزة، ومريم التكرونية التي كان يوم وفاتها من الأيام المشهورة فقد وجد في غرفة نومها الصغيرة في خرابة بيت المدني مجموعة من التنك، تنك الكاز وقد امتلأت عن آخرها بالنقود بعد أن وزعتها بعناية. ساعدت رجال المال على عدها، فهذه المسكينة التي حرمت نفسها من أطايب الطعام، منحت بيت المال مبلغاً لا بأس به من المال.

نماذج كثيرة من البشر عايشتها زمناً هنا فعاشت داخل أعماقي سنوات طويلة حتى في سنوات الغربة. كنت أراها تتجسد أمام ناظري بصورها المختلفة وكأنني لا أزال أعيش على تلك الأرض التي احتفت بيوم مولدي يوم جئت في الزمن القديم حين كان الناس يمنحون الخير حُبّاً في الخير، حيث لا أحد يدفعهم لأن يصنعوه، حتى أصبح سكان تلك المدينة صورة يتغنى بها البشر، وإن خَبَت تلك الصورة، إلا أنها لا تزال تبرز بين الفينة والفينة في قلوب البعض ونفوسهم بحب.

لطالما وقعت الأسوار الشاهقة التي أحاطت بطيبة الطيبة كالسوار، رمقتها وأنا أغدو وأروح من كل باب من أبوابها المختلفة حتى إذا ما شاخت تلك الصور وكبرت وضاعت في زحام التغير أصبحت أحن إلى رؤيتها.

لم أكن أعرف الرسم، فحاولت أن أتعلمه لأجسِّد معالم الجمال في أرض الجمال الطيبة، صور بريئة أشبه بملابس فتاة قروية أطلت على العالم الجديد وهي غير مبهورة بهذا العالم لكنني أحب تلك الصور وأعتقد أنها تتوارى عندما

أجد في طريقي إلى رؤيتها في بيتنا الجديد في سلطانة.

جدتي قضت نحبها بعد أن قضت سنواتها تبحث عن معالم افتقدتها في دنياها الجديدة. كانت تتحدث عن الماضي بحب وحرية وترمق التطور بشيء من الفضول يشوبه بعض الدهشة ولكنه ليس كل الدهشة، فهي تعتقد أن وسائل الحضارة التي اكتسبناها بالتطور قد لا تمنح الإنسان الراحة لكنها لا تمنحه حق التحرك إلا في دائرة ضيقة ترفضها بشدة ولا تستنكرها. كانت ترانا دوماً، ورغم مرور الزمن، أطفالاً كما عهدت، وتخاف علينا خوفها على أطفالها الذين تحبهم، وتستنكر قسوتهم عندما يغيبون عن ناظريها بالسفر للراحة أو حتى للعمل أو طلب العلم.

يوم أخذناها في رحلة إلى مصر، كرهت الخروج من الفندق فهي ترفض رؤية تلك الفتيات اللواتي يمشين في الطريق على حل شعورهن، كما كانت تقول، إلا أنها كانت ترحب عندما نأخذها إلى أحد مساجد القاهرة، وتجد راحتها في جوار المسجد.

قالت لي يومها إنها تريد أن تشتري نظارة سوداء، ولما سألتها عن السبب وأنا أعرف ضعف بصرها، أجابت وهي تبتسم:

ـ حتى لا أرى ما أراه وأنا في طريق العودة من مسجد الحسين إلى الفندق.

ابتسمت ولبَّيت رغبتها ففرحت وكأنها طفلة تجد لعبتها المفضلة في حوزتها أخيراً.

أيام قليلة قضتها جدتي خارج مدينتها المفضلة ويوم قلت لها:

ـ ألا تودين أن تَرَيْ مسقط رأسك في جنوب السودان؟

ضحكت جدتي وقالت:

ـ لا إنما أريد أن أعود إلى مسقط رأسك أنت يا حبيبي الصغير، فطيبة الطيبة بلدي وأرضي ومسقط رأسي ومثواي عندما أموت.

الفصل الرابع

أبواب المدينة وأسوارها ضاعت فجأة، فلم يفتقدها أحد من شباب هذه المدينة، أما شيبها فقد كانوا ينظرون إليها باعتبارها الماضي يحيون ذكرياتهم التي لم ينسوها بعد.

مع فقدان أبواب المدينة وسورها، أخذت الكهرباء طريقها إلى البيوت القديمة والجديدة معاً. وأصبح من حقِّنا، نحن الطلبة، أن نشعر بالراحة، فقد كانت جل ذكرياتنا يوم لم تكن الكهرباء متوفرة إلا في المسجد النبوي الذي يقفل أبوابه بعد انتهاء صلاة العشاء بوقت قصير.

الذين يعرفون مدارس المدينة وقتذاك يتذكرون مدرسة دار الأيتام التي كانت تعلم خريجيها مهنة يستطيعون من خلالها العيش بكرامة.

قبل هدم السور، كان الناس، عندما يريدون النزهة في بساتين المدينة، يستقلون عربات الخيل الخشبية المصنوعة في المدينة. وكانت المناخة تعج ببعض هذه العربات التي صنعت بأسلوب بدائي لكنها كانت تغني الكبار والنساء عن المشي على الأقدام.

تجار المدينة الذين تقع مغازاتهم خارج باب المصري على مقربة من مبنى البلدية القديم يتناولون الغداء يوميّاً في أحد البساتين القريبة، يغلقون مغازاتهم ويمضون سويّاً بعد صلاة الظهر إلى العمرانية أو الصافية نسبة لأصحابها أو غيرها من بساتين المدينة القريبة يتناولون الغداء ويمضون أوقاتهم سويّاً ثم يعودون إلى بيوتهم بعد صلاة العشاء، لا هَمَّ لهم في هذه الدنيا، فأولادهم بين المدرسة وحلقات التدريس، وبيوتهم آمنة مطمئنة، وزوجاتهن يرقبن عودتهم بتلهف.

أحواش المدينة المتعددة تزهو بسكانها كما يزهو زقاق الطوال بسكانه وإن اختلفت أساليب الزهو بين حوش وآخر. ربما لأن طراز البيوت وإن كان من نوع واحد إلا أن بعض البيوت الكبيرة ، برواشينها الخشبية، أجمل من الأخرى، صنع خشبها صانع لم يستخدم المسامير في عمله كما يستخدم النجار هذه المسامير اليوم.

لأول مرة يتخرج الطلبة من أول مدرسة ثانوية في المدينة كان يوم التخرج هو الآخر من الأيام المشهورة بعد أن كان الطلاب يبعثون إلى مكة المكرمة إلى مدرسة تحضير البعثات والمعهد العلمي السعودي ومن ثم إلى جامعة الملك سعود بالرياض، وهكذا عرف الطلاب طريقهم إلى الرياض.

وارتفعت أعدادهم، وابتدأ التعليم النسوي يأخذ طريقه في كل مدينة بعد أن كان تعليم الفتاة مقتصراً على كتاتيب معدودة تقرئ الطفلة القرآن وتعلمها بعض دروس الفقه والتوحيد. وأنشئت أول مدرسة ابتدائية، وثانية عسكرية، وأصبح للتعليم العسكري أسسه وقواعده، وامتد العمران في طيبة الطيبة، وبنى الناس بيوتهم خارج السور.

عند باب المصري وعند دكة صغيرة بجوار قسم الشرطة كان العم إبراهيم الحسيبي يجلس وإلى جواره عدد من أصدقائه فالعم إبراهيم معروف بين أهالي المدينة وزوارها بوجهه الأبيض الأنيق وقامته الفارعة وابتسامته الدائمة.

كان الحديث يدور، ولأول مرة، بينه وبين أصدقائه عن أول صفقة أرض اشتراها أحدهم من خارج المدينة من العم عبد الرحمن. تجاوزت الصفقة المليونين، وتندر الناس بهذه الصفقة، ووصف بعضهم الشاري بأنه مجنون وصمت بعضهم، لكن الدنيا تغيرت، فالعم إبراهيم كان يقول:

ـ إن العاقل هو الشاري لا البائع لأنه سيبيعها بأضعاف أضعاف ثمنها.

ضحك الذين كانوا يتحلقون حوله يحتسون الشاي الأخضر بالنعناع إلا أنه لم يضحك حيث شرد بذهنه وأخذ يفكر في كلام العم إبراهيم الذي قال بأن التطور والتقدم في المدينة وغيرها من مدن المملكة سيجعل أسعار الأراضي في ارتفاع مستمر.

قال أحدهم:

ـ ولماذا لا تبدأ في الشراء أنت ما دمت تعرف كل هذه الحقائق؟

ضحك من كل قلبه وقال:

ـ لو كان لدي ما يزيد عن عملي من أموال لما تأخرت.

تقدم الأستاذ مصطفى بعد أن دامت صحبته طويلاً وقال للعم إبراهيم:

ـ لديَّ مبلغ من المال سنشتري لي به أرضاً نتقاسم ربحها معاً.

وفي الغد، جاء الأستاذ بما يحمل من أموال سلمها للعم إبراهيم الذي شمر عن ساعده، واستطاع أن يشتري قطعة أرض قريبة من شارع أبي ذر كانوا يسمونها في ذلك الوقت باب التمار . ومضت الأيام باع بعدها الأستاذ مصطفى أرضه بأضعاف أضعاف ما اشتراها، حتى إذا جاء بنصف ما ربح للعم إبراهيم، رفض العم إبراهيم أن يأخذ شيئاً من هذا الربح، واكتفى بأن يقيم الأستاذ مصطفى حفل غداء كبير في بستان الربعي حضره كل أصدقاء الطرفين.

أطفال العم أحمد الخياط الذين رباهم كبروا، وأصبح بعضهم يملك أكبر دكان لبيع الذهب الذي ارتفعت أسعاره هو الآخر، وودَّع العم أحمد الخياط الحياة بعد أن ترك زوجته لدى أطفاله الذين اختاروا سكنهم في قباء في فيلا أنيقة وجديدة.

في المدينة، كانت عيناي تتوقفان أمام وجوه من الناس وأعني جلالهم وهو يقبعون داخل دكاكينهم فالتصقت صورهم بذاكرتي، فلم أنسها ولم أتناساها طوال سنوات حياتي.

كان هناك الشيخ أمين خشيم صاحب دكان العطور بوجهه الأبيض وقامته المديدة يلتف حوله أخوه ومجموعة من أصدقائه.

وكان هناك دكان الشيخ عبد الله بشاوري بائع الحناء الشهير، وكان هناك الشيخ محمد الصائغ صاحب اليد الذهبية التي تعرف كيف تصوغ الأقراط والأساور وكل ما تحتاجه المرأة، وكان هناك دكان أحمد مقلية فاسوخة السوق، والرجل الذي لا يعرف في هذه الدنيا سوى الابتسام، هكذا يقولون عنه، أما أبناؤه فيختلفون مع أصحاب السوق في هذه التسمية ويقولون بأن أباهم لا يعرف الابتسام في البيت.

وفي المدينة، كان هناك خان البغدادي المملوء بأنواع البضائع المختلفة وهو أشبه بسوق متكاملة يديره بنفسه ولا يرضى أن يشاركه في البيع والشراء أحد، حتى إذا ما شعر جيرانه بغيابه أبلغوا الشرطة التي قامت بزيارة بيته لتجده قد فارق الحياة دون أن يكون بجانبه أحد. جميع أفراد أسرته كانوا في جدة، لكنهم فور وفاته جاؤوا إلى المدينة لتسليم ثروة الرجل التي ضاع أكثرها هنا وهناك.

لم تكن المرأة في طيبة الطيبة على ما هي عليه اليوم؛ فهي، وإن كانت أفضل من غيرها لتواجد الكتاتيب ولقدرة أكثر بنات المدينة على التعليم فيها، لكن هذا الأمر لم يعن أنها كانت قادرة على تحريك حياتها بالأسلوب الذي تحرك به المرأة اليوم حياتها، فقد كانت دائماً وأبداً تحت جناح أسرتها؛ أبيها وأخوتها وزوجها عندما يقدر لها أن تتزوج.

كانت المرأة في زقاق الطوال سيدة بيتها، فهي تجيد أنواعاً كثيرة من الطبخ، ولهذا كان مطبخ الأسرة في المدينة غنيًّا بأنواع كثيرة من المأكولات التي تجيدها. وهي دائماً تجوب غرفة بيتها تؤدي واجبها للأسرة في حب وصمت، وهي بالإضافة إلى إتقانها للطبخ تجيد لحياكة وأشغال الإبرة وصنع الحلويات وتعرف كيف تضيف إلى بيتها لمسات أنثوية عرف بها البيت في المدينة المنورة.

والمرأة في طيبة الطيبة بيضاء ناصعة البياض أو حنطية اللون تحب أن تربي شعرها وتزينه بأسلوبها وزهورها، وهي أيضاً جميلة تقاطيع الوجه والجسد، دائمة الحركة والبسمة على شفتيها دون أي جهد.

يوم سافرت أول بعثة لدراسة الطيران في إنكلترا كان أكثر أعضائها من طلاب المدينة المنورة كما كان الحال في تلك التي سبقتها بأكثر من عشرين عاماً وإن كانت آنذاك إلى إيطاليا.

بعد أن عاد الطيارون إلى جدة من إيطاليا أنشأوا أول نادٍ من نوعه، كنا نتغنى نحن الطلاب باسمه فقد اختاروا له اسم نادي "الحمير" لأول مرة!

وعندما هاجرت جريدة المدينة ومجلة المنهل من طيبة الطيبة إلى جدة، قال بعض الأصدقاء:

ـ ربما كانت جدة في حاجة إلى هذه المجلة والجريدة أكثر من طيبة الطيبة، وإن كان أكثر سكان طيبة يواصلون قراءة الجريدة بكثير من الشوق بعد أن استقر بها المقام في الثغر الجميل "جدة".

أما أنا، فلا أنسى الجريدة بعدما صدرت وفي صدر عناوينها عنوان لا يزال يشغل فكري، فأنا أذكر كيف خرجنا، نحن طلاب المدارس، نهتف وننادي بسقوط اليهود وبتقسيم فلسطين. لم نكن نعي أية أهمية لهذا الذي نقوله، لكن لفظ فلسطين ظل يكبر مع الأيام في نفسي ونفوس جل زملائي الذين عرفت.

كبرنا وكبرت هذه الكلمة، وعرفنا معناها ومعنى القول إننا لا نريد تقسيم فلسطين، وبدأت حروف الكلمة تزهو بكل المعاني التي عشقناها.

لم نكن نظن أننا غير قادرين على الوصول إلى هذه الأرض إلا إذا عرفت أقدامنا طريقة الحب، الحب الذي ورثناه نحن أبناء هذا العالم المسلم. لكن تشابك القضية واستغلال البعض لها، جعلنا ندرك، مع الزمن، أننا نشارك في ضياع هذا الجزء من أرضنا، كنا وجدنا نعمل في صمت من أجل أرضنا، من أجل التاريخ الذي أحببناه، لكن هذا الأمر لم يعطنا الفرصة لأن نصل إلى ما نريد، وتشابكت مصالح الدول في زحزحة بعض المعاني الجميلة التي عشقناها، وسارت أيامنا مع الغضب الذي لا يجدي، حتى إذا ما عاود العقل طريقه في صمت انبرت له أصوات الذين أفادوا كمن رفع هذا الشعار ورأوا في استمراره وبقائه بقاءهم ووجودهم.

أيام تمضي وأيام تجيء، وعالمنا يكبر. عالم طيبة الطيبة يكبر ويكبر، والمدينة هي الأخرى تكبر، ونفوسنا وعقولنا هي الأخرى تكبر، والزمن لا يمكن أن يتوقف ما دامت عقارب الساعة تمضي في طريقها المعتاد. تلك هي سُنة الحياة على هذه الأرض التي أدركت نصيبها من الجهاد والكفاح من أجل المثل العليا التي يؤمن بها اليوم أكثر من ألف ومائتي مليون مسلم يعيشون في أرجاء هذه الدنيا الواسعة الشاسعة الأرجاء، لكن الأنظار تظل دائماً ترنو نحو هذه الأرض نحو أول عاصمة إسلامية في التاريخ. منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مضت يوم لم يكن الإسلام قد شاع وذاع وعرف معانيه السامية الناس في كل أرض وتحت كل سماء.

الفصل الخامس

في بيتنا فرح. عمرت أضواء الزقاق وامتدت آثاره حتى الساحة. ابنة عمي ستزف إلى عريسها السيد محمد الذي كان يتطلع إلى هذا الزقاق منذ فترة. أبو العريس وأبي صديقان، وعمي لا يمكن أن يخيب رجاء أخيه فعندما خطب والد السيد محمد البنت خطبها من أبي فأجابه برغبته ولم يحرك عمِّي ساكناً حيال هذا الأمر.

لأول مرة أشاهد عقد القران في المدينة. امتلأ الزقاق بروَّاده، وامتلأت قاعة بيتنا وديوانه بالرجال الذين جاؤوا من كل مكان في المدينة.

عندما جاء العريس، جاء معه المنشد الذي أخذ يطلق صوته بالغناء إشادة بعائلة العروس والعريس حتى إذا ما استقر المقام بأهل العريس، انبرى أحدهم يقرأ في ورقة طويلة كلمة الخطبة التي شعرت بأنني أفهم كل كلمة فيها، حتى إذا ما انتهى، قام أبي يرد على الخطيب في كلمات قليلة، شعرت بعدها بأن أبي خطيبٌ لم أكن أدري عنه شيئاً.

شعرت بحبي يزداد لهذا الرجل، ونظرت بوجهه لألتقي بعينيه اللتين كانتا تبحثان عني، وكأنهما تأملان أن تريا زفافي.

شعرت ساعتها بأن أبي يتمنى أن يرى اليوم الذي يعقد فيها قراني على من يختارها هو لا التي أختارها أنا، أليس هو كبير العائلة؟

سألت نفسي فيما إذا كنت سأرفض اختيار أبي أم أنني سأقبل! وأجبت عن هذا السؤال بهزة رأس، وكأنني أود أن لا أعطي الجواب

الصريح. ففي أعماقي أرى الرفض يطفو ويطفو، لكني أحسست بشيء من الخوف يتسلل إلى قلبي بعدما وصلت إلى التفكير. أيمكن أن أرفض لهذا الأب طلباً؟

وفي المدينة المنورة كبير العائلة كلامه نافذ لا يمكن لأن يرفضه أحد، هكذا نشأت الأسرة في طيبة وهكذا ظلت، حتى أخذ التعليم ينتشر وبدأ التململ يبدو واضحاً على وجوه أولئك الذين تعلموا وظنوا أن في هذا ظلم فادح لهم.

عندما عاد هاشم من دراسته في القاهرة بزوجته المصرية، حدث له ولزوجته الكثير من المشكلات، لكنه صمم على رأيه واختار لسكناه بيتاً قرب بيت الأسرة حتى قام أبي بمصالحة بينه وبين والده، استغربت أن يقوم أبي بهذه المصالحة، لكنني فرحت لأنها دليل على أن أبي ليس كأولئك الآباء الذين تحجرت عقولهم وقلوبهم.

سمعت أبي يتحدث إلى أمي ويقول لها:

ـ لقد تغير الزمن وأصبح من حقه علينا أن نتغير نحن الآخرين.

كان حديثه هذا، وهو يشرح لها ما حصل، وكأنه شيءٌ جديدٍ مما يضيف إلى قلبي الكثير من الاطمئنان.

تلك هي المرة الأولى التي رأيت فيها أبي يفضي برأي إلى أمي، وكان في السابق لا يأخذ رأي أحد، بل يبرم بكل ما يراه، حتى أمي كانت تستمع لحديثه وهي مستغربة. عندما جاء عمي الأصغر يطلب منه أن يسكن في المناخة بمفرده، تحدث إليه بحب وقال له:

ـ لا.

لكنها لم تكن لا التي أعرفها عن أبي دائماً. أفهم عمي بأنه لا يريد أن يخرج من البيت إلا بعد وفاته، فوافق عمي على البقاء.

عانق أبي أخاه ورأيت عمي يبكي فلم أفهم السبب. لكن عمي، بعد ذلك اليوم، أصبح يمارس حياته مع زوجته وأبنائه بأسلوبه، وأبي راضٍ لا ينطق بكلمة، ينظر إلى الأمر وكأنه لا يعنيه.

كانت المرأة في بيتنا، عندما ترغب في الذهاب إلى بيت أبويها، تستأذن أبي باعتباره الأكبر. زوجة عمِّي غيَّرت الوضع وأصبحت تخرج بإذن عمي هذه المرة وأبي صامت وراضٍ أيضاً، يهمه فقط أن يبقى أخوه معه في كنفه كبقية الأخوة فالبيت كبير، وهو قادر على أداء نفقات هذا البيت كما كان أبوه يفعل.

تقاليد توارثها الأبناء عن الآباء فيها الطيب وفيها الرديء، لكن، وللحقيقة والتاريخ، أكثرها طيب.

أبي يحب الموسيقى ويستمع إليها من فونوغراف قديم، ويوم دخل الراديو بيتنا كان يوم عيد.

تجمع أصحاب أبي في الديوان الكبير ليلاً ليستمعوا إلى إذاعة الحلفاء والمحور، بعضهم مع الحلفاء وبعضهم مع المحور. والحلفاء في نظرهم الإنكليز. العم شفيق زوج عمتي مع الحلفاء، ويوم كسب الحلفاء الحرب، أقام حفلاً كبيراً في بستان الربعي في قباء.

في زمن الحرب العالمية الثانية كان كل شيء متوفراً في المدينة لكن الشيء الجديد هذا السكر الأحمر الذي كان يرفض شراءه الكثيرون، هكذا قالت لي جدتي عن تلك الفترة، وجدتي تكره الإنكليز والألمان وكل أولئك الذين لم يُسلِموا.

وتحمد الله على أن جميع سكان بلادنا من المسلمين وهي تعرف عبد الله فيلبي، رأته بعد أن أسلم وتعرف أيضاً رجلاً آخر قالت إن اسمه هند ربول، وهي تشك في حقيقة إسلامهما ولكنها ترفض أن لا تقبلهما كمسلمين فلها الظاهر، هكذا عرفت الأمر، ثم قالت:

ـ تلك نصيحتي لك يا بني فلنا، كما يقولون، الظاهر، فنحن بشر لا يمكن لنا أن نتغلغل في قلوب الناس.

عندما كبرنا، تذكرنا كم كان أهل المدينة يتحدثون عن قدرة الشيخ سعود دشيشة على مجابهة الأمور ومساعدة الناس، والتوفيق بينهم رغم أن الرجل كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، لكنه أصبح يمثل طيبة الطيبة في مجلس الشورى الذي أقامه الملك عبد العزيز يرحمه الله.

قال بعض الأصدقاء:

ـ قد تكون ميزة الرجل أو أهم مزاياه أنه أميٌّ.

نظرت إليهم وتساءلت:

ـ أو يمكن أن تكون الأمية ميزة في عصرنا الحاضر؟

ضحك أحدهم وقال:

ـ لو تعلَّم لوزن الأمور بميزان بعض المثقفين الذين يجرون وراء مصالحهم ولانزوى الرجل عن محبيه ومريديه.

ضحكت واستغربت هذا القول فقال صديقي إبراهيم:

ـ أو لم تقرأ كتاب "أفيون المثقفين" المترجم عن الفرنسية؟

قلت:

ـ نعم، ولكن هذا شأن وذاك شأن آخر.

قال:

ـ لا! عندما يتعلم الإنسان ينظر المتعلم إلى الأمور بميزان دقيق يتوخى فيه مصلحته فيداهم قلبه الخوف من الخوض في أي من أمور لا تتفق ومصلحته.

سكتُّ على مضض، وانتظرت أن يأتي اليوم الذي أستطيع أن أفهم معنى ما يقال. وقد فهمت، بعد قراءة متأنية للكتاب مرات ومرات، جل ما كان يقصده هؤلاء الأصدقاء.

أبي يحتسي أقداح الشاي ويلقي بتعليماته إلى أمي، فالليلة ليلة جمعة، وكوكب الشرق أم كلثوم تغني كل أول شهر أكثر من أغنيتين طويلتين يعيش على سماعها ألوف الناس في طيبة وغيرها من مدن المملكة بعد أن انتشر جهاز الراديو وأصبح السماع إلى الموسيقى أمراً مسموحاً.

عشرات الأصدقاء تؤم بيتنا الليلة يتناولون طعام العشاء الذي يقدم قبل بداية الحفلة والذي تجيد أمي وجدتي وباقي أفراد العائلة طهيه لدرجة أصبح يتندر به أصدقاء والدي ويطلبونه بلا أدنى خجل حتى أصبحت أمي تعايش المطبخ لا عن رغبة، وإنما إرضاء لوالدي الذي تحبه.

أو لا يكفيه أنهم يطلبون طعامه ويصرون عليه؟ وهذا ما كان يدخل السعادة على قلبها وقلبه. لأول مرة أدعو أنا الآخر عدداً من زملائي لتناول طعام العشاء مع ضيوف أبي، ولأول مرة نتناول نحن الصغار طعامنا مع موائد الكبار. شعرنا ليلتها أننا كبرنا فكنا نتيه ونفخر ونحلم برؤية كوكب الشرق عندما يقدر لنا زيارة مصر في يوم من الأيام. فأحلامنا التي كانت تسبق خيالنا كانت نسيجاً جديداً لا ندري كنهه، لكنه، على أية حال، كان نتيجة ما قرأناه وسمعناه عن هذا العالم الذي بدا لنا ونحن في طينة الطيبة عالماً جديداً.

بيتنا يزخر بالمعرفة التي نشتاق للقائها في حب، ذلك شأننا ونحن لما نبلغ الحلم. وكأننا نعايش كل هذا الخيال الذي نريد له أن يتجسد أمام ناظرينا طفولتنا رائعة، فأكمامنا التي تفتحت على روابي قباء والعوالي وقربان والقبلتين كانت ولم تزل أصيلة تعرف كيف تمنح الحب في أرض الطهر بلا زيف ولا خنوع، وكأننا قد تعاهدنا أن نقيم حول أنفسنا سياجاً من الجمال صنعته الأيام التي قضيناها في كل تلك الربوع نأخذ من الحياة نصيبها الوافر، في دنيا تعشق القيم والمثل والتراث.

يقولون إن الإنسان هو الذي يزرع الخير وهو الذي يزرع الشر وإنه وحده القادر على إشاعة الحب متى أراد وكيفما أراد.

بين زوايا الأمس نجد الماضي تطل في أصالتها، وكأنها تنطلق من وراء الأزهار التي تطل بحسنها على أديم الأرض التي عرفت قباها وتكحلت أعيننا بمرآها ونحن صغار ونحن نكبر، لا شيء يثير في النفس إحساسات الملل والقرف.

ربما لأننا من نسيج لم تطغ المدنية على أصوله وجذوره وحتى فروعه حتى إذا ما فقدت ريحه وذهب صداه ونحن نحبو حول الأرض في رحلة العلم الصغيرة، بدا لنا الماضي شيئاً جميلاً لا يمكن أن نختار برغباتنا بديلاً عنه.

لكن العالم من حولنا يطالبنا بأن نتغير، فهل تغيرت كل تلك الأصول والفروع أم أن جذوة الحب التي تعشش في أعماق القلب لا تزال تظلنا بظلها الوارف الكبير؟

وكما للحياة بدايات صغيرة، تكون لها أيضاً تلك النهاية التي نريدها أو

حتى التي لا نريدها. فالحياة، بظروفها وواقعها وجمالها وروائها، وحلوها ومرها، لا يمكن أن تظل على حالها الذي نريد في مجتمع زقاق الطوال.

كان الحب وظل يرفرف على سكانه، ربما لأننا لم نمتلك بعد تلك القوة الرهيبة التي توصلنا بمجتمعات أخرى، وربما لأن الحياة في ذلك العهد لا تتحمل أن تكون على نحو ما هي عليه الآن، ولكن.. ما هو الجديد الذي أحببناه وما هو الجديد الذي نرفضه؟

فالتطور سُنَّة الحياة وناموسها، وبدون هذا التطور لا يمكن لنا أن نسير. وكما يقولون: كما تدخل الشمس إلى البيوت الهانئة تدخل العاصفة في بعض الأحيان، وشتان ما بين الشمس والعاصفة!

الفصل السادس

لا تظنوا بي الظنون وتعتقدوا أنني مع القديم الذي بلي أو حتى مع الجديد الذي بدا.

لا! أقولها كلمة حق صريحة، فحياة الإنسان لا يمكن أن يعيش فيها على وتيرة واحدة. ولهذا جاء التطور لا ليجرف القديم وإنما ليجدد بعضاً من مظاهره ويمنح بعضه الآخر مزيداً من القوة والقدرة على الانطلاق.

القديم الجيد يمنح الجديد الطيب. قوة نراها تبدو على ملامح أرضنا بصورة واقعية، لكننا ونحن نسير بخطى ثابتة نحو هذا التطور نجد أنفسنا أحياناً نتلفت قليلاً إلى الوزراء نبحث عن الماضي لنستدرك جماله وقوته ونستفيد من كل قيمه التي توارثناها، وطيبة الطيبة نموذج جيد لهذا التطور الذي نلمس آثاره في كل زوايا هذه الأرض الطيبة.

في هذا الجو الذي أخذ يخيم على سماء هذه الأرض، بدت مظاهر الحياة الجديدة تأخذ طريقها لأهدافها على أمل أن تصل إلى كل ما ترجو وتريد.

ولكن أوَ يكفي أن أكتب كل هذا الذي كتبت؟ بعضهم عندما يتحدث عن الطيب بأسلوبه يجد علامات استفهام تبدو أمام ناظريه وهي تستوي على أشدها. أوَلم يكن بعض سكان الزقاق أشراراً؟

سؤال أثرته بيني وبين نفسي، لكنني ورغم كل الذي بحثت فيه وعنه ونقبت لم أجد ذلك النموذج الذي يمكن أن يقال بأنه شر كله، ولهذا خلت كلماتي من تلك الصور، لولا عودة إلى النفس حاولت

أن أغلف كل ذلك بأسلوبي بعيداً عن تصورات الحاضر. فالشر في ذلك الزمان القديم يقف على قدم المساواة مع كل أولئك الرافضين لعمل الخير وإن كانوا لا يعرفون الشر لأبناء بلدتهم.

وفجأة طفت على السطح صورة ذلك الإنسان الذي عرفت، ربما لأن صور الشر كانت مغموسة بصور أخرى ولهذا تغلفت بعيداً عن أن تراها العين وإن سمعت بها الآذان.

عندما أتذكر السيد محمد علي السمكري وما يحاط بهذا الرجل من شوائب، أجتهد، رغم صغر سني، أن أطالع صفحة وجهه في تمعن لكنني لا أجد في هذا الرجل أية صورة من صور الشر التي أسمعها عنه، ربما لأني أراه وهو يهب من دكانه الصغير لمساعدة عجوز عمياء ضلت طريقها ليدلها على الطريق، أو مساعدة فقير بما يملك من نقود حتى وهو ينطلق داخل الزقاق وخارجه لا تبدو على وجهه علائم هذا الذي يقولون عنه.

عندما سألت أبي عن ذلك قال لي:

ـ لا تحكم بما يقوله الناس. الشر، يا بُنيّ، في قلوبنا جميعاً، لكنه يتباين بأشكال بين إنسان وإنسان، وهذا الرجل، في رأيي، مظلوم. لقد التصقت به أشياء كان يمارسها عندما كان صغيراً، فلما كبر وعرف أنها مؤذية، نسيها وإن لم ينسها الناس له؛ ربما لأن الإنسان في مجتمعنا الصغير كصحن الصيني لا يمكن أن تلتئم كسوره عندما يسقط على الرصيف.

تعلمت من كلمات أبي أشياء خالطت نفسي ثم نسيتها بعد أن غدت لي أقدامي في طريق الحياة التي يحبها الناس، وأكذب إذا لم أقل بأنني أنا الآخر أحبها أيضاً.

على مقربة من باب الرحمة، كان هناك أكثر من مكتبة يتعدد كتب بعضها ويزيد أو ينقص، لكننا كنا نُجمِع دائماً على أن أقرب المكتبات إلى قلوبنا مكتبة الأستاذ عبد الحميد عنبر؛ ففي هذه المكتبة قرأت الكثير من الكتب وانتظمنا في حلقات لدراسة اللغة الإنكليزية، التي كنا بدأنا نتعلم كلماتها في مدرستنا الابتدائية على يد الأستاذ منشي كرامة.

يختلف معدن الأستاذ العنبر عن الأستاذ منشي؛ ففي الوقت الذي كنا

نضحك على نطق الثاني، كنا نعجب بأسلوب الأول لا لأنه قادر على امتلاك ناصية اللغة الإنكليزية، فلم يكن القدرة على التعرف على هذا الأمر، وإنما لأن أسلوب الرجل كان يجعلنا نحب هذه اللغة.

عندما سألته:

ـ أين تعلمتها؟

قال:

ـ ماهي؟

قلت:

ـ الإنكليزية؟

قال:

ـ في الهند.

ونظر إليَّ نظرة من يستهين بما تعلم. وتابع القول:

ـ لا تظن أنني أفضل من هؤلاء الآخرين. فلو وجد الآخرون مثلي الفرصة لتعلموا ما تعلمت، أوَ تدري أن أكثر رجالات السوق يجيدون أكثر من لغة؟

قلت:

ـ كيف؟

قال:

ـ الأوردية والإندونيسية والسواحلية والتركية والفارسية جميعها بلغات اكتسبها أهل السوق بالممارسة، وبرع بعضهم في فهم معانيها كما فعل الأستاذ الشاعر عبد الرحمن رفه الذي أجاد الفارسية إجادة تامة مكَّنته من ترجمة أشعار الخيام.

هزني حديث الرجل وتواضعه، وأصبحت أحس بأنه أقرب إلى نفسي من بعض أساتذتي وإن لم يعن ذلك الذي كنا نجمع نحن الطلبة على حبه، وأعني به الأستاذ أحمد بوشناق، كان هذا الرجل نسيجاً مغايراً لكل من عرفنا. ربما لأنه جاء منذ فترة قصيرة بعد أن أكمل دراسته في القاهرة، وربما لأنه عرف

كيف يصل إلى عقول طلابه من خلال إلمامه وفهمه برسالة التعليم التي يعشقها ويحبها من كل قلبه.

أمور كثيرة أخذت تبدو لناظري بعد أن شببت عن الطوق، أحسست بأن الزقاق ومن في الزقاق، وإن كنت أميل لهم، لكنهم لا يمثلون طموحاتي بعد أن عرفت قدماي طريق المعرفة عن قراءة متأنية لبواطن الكتب التي أحببتها.

نسيت أن أقول بأن جدي لأمي واحد من كبار العلماء الذين ساهموا في حلقات الدرس في مسجد رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام. مات الرجل وترك كمَّاً هائلاً من الكتب بقي زماناً طويلاً في إحدى الغرف حتى شاء الله لي أن أعرف طريق القراءة، فمسحت عن أكثره التراب وحملته إلى غرفتي لتمتلئ الرفوف بمجموعة نادرة المنال في أيامنا هذه.

لم تكن حياتنا خالية من الهوايات، فالفروسية، والسباحة، والتزمير، والكبت، ومصارعة الأيدي، وكرة القدم، الشراب كنا نمارسها في هدوء بعيداً عن الطرقات في بساتين الأسرة.

ذاك قدرنا عندما كنا صغاراً نعايش الأمل ونرقب التفتح ونبحث عن النضج في أسلوب ممارستنا للحياة في مجتمعنا الذي بدأت تتسلل إليه أساليب جديدة كسبناها بالسفر والترحال.

ولكم أحسست بالإحباط وأنا أتخطى الثانية عشرة من العمر لأجد بيوت الزقاق والأهل والرفاق مقفولة أمام تحركاتنا، فتيات الأسرة الصغيرات وأخوات الأصدقاء ممن عرفت أصبحن يهربن من أمام وجهي عندما أزور بيوتهن.

عندما سألت إحداهن السبب قالت:

ـ لم تكبر أنت وحدك، وإنما كبرنا نحن وأصبح من الواجب علينا أن نختفي عن عيون الشباب.

وضحكت. قلت لها:

ـ ولكننا لم نصل بعد إلى سن الزواج والقدرة على اختيار الرفيقة!

قالت وهي تضحك:

ـ ربما لأنهم يريدون أن يزوجوك برغبتهم دون أن ترى رفيقة دربك أو تعرفها.

وابتسمت في أعماقي، وعرفت أنها تحاول أن تسخر بإجابتها من سؤالي وتدرك بأنني أعرف أسباب هذا الأمر وأحاول أن أتجاهله.

منذ ذلك اليوم بدأت أفكر في سهى. لا أدري إن كنت إفتقدها أم أتمنى رفضها. حاولت أن أتعرف على ما يريده هذا الخافق، لدرجة جعلني كثيراً أفكر فيها وأنا أراجع دروسي. وبدأت أدبج رسائلي لا أبعث بها لمن أحب. أكتبها وأقرأها ولا أمزقها وإنما أحتفظ بها بين كتبي.

حتى ذلك اليوم الذي وجدت فيه أختي تطالعني بابتسامتها وهي تقول:

ـ كشفت سرك.

وضعت يدي على فمها، وطلبت منها أن تصمت لكنها لم تصمت وقالت:

ـ أعرف أنك لا تريد أن يعرف بهذا السر أحد، لكن الظروف جعلتني أقرأ رسالتك التي نسيتها في درج المنضدة، وثق تماماً بأن أحداً لم يدرِ بما قرأت.

شكرتها من كل قلبي، وطلبت منها وأنا أؤكد عليها كل ما قلته مرة ثانية:

ـ أرجوك يا ناجية دعي ما قرأت بيني وبينك.

هزت رأسها بالإيجاب، وخرجت من الغرفة لا تلوي على شيء. وبدأت أمعن النظر في كلامها وكلامي، وأجد في كلماتها حروفاً مضيئة تنير طريقي.. أليست هي أختي؟

وفجأة، وأنا أفكر في هذا الأمر، طرأت لي فكرة. ترى ماذا سيجري لو قالت أختي لسهى عن هذا الذي قرأت؟ أوَ لَيست صديقتها هي الأخرى؟

بدأت صلة جديدة تضاف إلى صِلاتي، فأختي ناجية التي أحسست أنها جادّة في عدم الإفشاء بسري، أصبحنا نتحدث كثيراً عن سهى وأتعرف عن طريقها أخبارها وماذا تصنع. عرفت أنها في دراستها الابتدائية وانتقلت إلى مدرسة جديدة تواصل من خلالها تحصيلها العلمي، سررت للخطوة التي اتخذتها سهى، فقد كنت أود في قرارة نفسي أن تواصل رحلتها العلمية.

وتمضي رحلة الحياة بين مد وجزْر، فأبي الذي أحبه أصبح ينظر إليَّ على

أن أكون بجانبه بعد أن أنهي دراستي الثانوية، وأنا لا أدري ماذا أفعل، وأنا عقدت العزم على إنهاء تعليمي الجامعي. كنت أتطلع لأن أصبح علماً من أعلام الطب الذين قرأت عنهم في كتب التاريخ.

ربما لأن إحساسي بمعاني أن أصبح طبيباً في مدينة كمدينتي رأيت فيها كيف يحترم الناس ويحبونه جعلني أصمم على رأيي وأمضي في عزمي ويومها قالت لي أختي:

ـ أتدري من تزورنا اليوم؟

قلت لها:

ـ من؟

قالت:

ـ سهى. جاءت وهي تصر على أن تتحدث معك.

قلت:

ـ كيف؟

قالت:

ـ ستغادر أمنا البيت وستظل هي برفقتي وقتاً تستطيع أن تتحدث فيه إليك.

وأطرقت برأسي إلى الأرض قليلاً وخيال سهى أمام ناظريّ، بينما ذهبت أختي من عندي وهي تضحك. مرت الدقائق كالساعات، وأخيراً قدر لأمي أن تغادر البيت فجاءتني أختي قائلة:

ـ إنها خلف بابك تنتظر أن نبدأ الحديث.

قلت:

ـ وما يخيفها من أن تدخل؟

قالت:

ـ لا ترضى بأن تفعل أمراً يرفضه أبوها، ولهذا فستكتفي بأن تسمع صوتك.

طال صمتي فجاء صوتها هامساً كنسيم الفجر ساطعاً كنور الشمس يتسلل إلى أذني. قالت:

ـ وددت أن أرجوك بأن لا تضعف فأنا...

وأحسست بأنها تحاول أن تسترجع كلماتها التي باحت بها. قالت مستدركة:

ـ مدينتك في حاجة لك كطبيب، فلا تضعف وامض لما قررت، فقد عرفت في البيت بكل الذي دار بينك وبين أبيك.

قلت:

ـ وأنت، هل تنتظرينني؟

قالت:

ـ سأنتظر إذا قدّر لي ذلك.

ومضت لا تلوي على شيء، أما أنا فقد أخذت أسترجع ذكريات طفولتي وجل أحاديثي مع أختي عنها، وبدأت أغرق في حديث طويل مع نفسي هذه المرة. لكن حديثي هذا لم يكن عن سفري إلى مصر لدراسة الطب وإنما عنها، عن سهى هذه الطفلة الحلوة التي أخفوا وجهها عني بعد كل هذه السنوات الطويل لماذا؟ لا أدري.

الفصل السابع

ضمن الظروف التي يعايشها أمثالي، تبدو في الأفق معالم صمت كبيرة أحس بها وهي تزلزل كياني وتمنح الأجوبة التي تثار حول المجتمع والتي تزيد كثيراً من علامات الاستفهام التي تتوارى كحالة من التأرجح بين الذات وما يريده الآخرون منها.

وأنا أعايش قلقي بسهولة رغم أنه قلق محزن يملأ نفسي باستفسارات عدة أحاول أن أجد لها الجواب ضمن إطار المعرفة التي توصلت إليها، تلك المعرفة التي هي، رغم حقائقها الواقعة، تظل تواصل مسيرتها في شرايين العمر الدقيقة كموصل كهربائي عرف طريقة في هذه الحياة ببساطة.

يقولون إن المجتمعات تغير جلودها دائماً بين الفينة والفينة ضمن تجارب اختارها إنسان هذه الحياة والظروف أيضاً، لكن فلسفة التغير هذا لا تأتي فجأة، دائماً تدفع بها قدرة إنسان هذه الأرض على التخطيط والمحاكاة والبذل والعطاء.

في ظل هذه الظروف، بدأت أفكر في سهى وأنا مشفق عليها من التجربة. ستقولون إنني نسيت هذه الفتاة، وأقول: أبداً، بل كانت دائماً وأبداً في خيالي ووجداني، ولقد كنت أحدث نفسي دائماً وأقول لها:

ـ أَوَ تَستطيع هذه الصغيرة أن تقف بالمرصاد لكل المؤثرات التي تبدو وتظهر في طريقها، وهل ستظل صامدة قادرة على الانكفاء حول أفكار أوحت بها إلي عن بُعد؟

لا أدري وإن كنت أثق بقدرة الإنسان على اجتياز ما يريده وما

لا يريده إذا عرف كيف ينقي الأشواك منه طريقه.

سنوات العلم التي تبعدني عنها ستصبح بلا شك طويلة مضنية خصوصاً عندما نعاود الاتصال بأوضاع الحياة التي يمارسها مجتمعنا على الفتيات. فالفتاة في بلدي، في تلك الآونة بالذات، لا يمكن لها أن تقف أمام ظروف أسرتها وما تريده هذه الأسرة وتدخلاتها في أهم شؤون حياتها. ربما لأننا جُبِلنا على أن نقتنع بكل ما يريده الآخرون لنا، وربما لأن هؤلاء الآخرين يعرفون أكثر مما نعرف من حيث ما يصلح لنا. لكننا، مع كل هذا الجديد الذي يتسرب إلى أعماقنا، تبدو كل الطاقة القديمة وقد سدّت بعض أجزائها برقّة.

لهذا أجدني وقد امتلأت نفسي خوفاً بعد أن استقر بي المقام في مدينة القاهرة الكبيرة التي سرعان ما أحببتها بعد أن عرفت قدماي طريقها فيها، كل هذه المعرفة يصاحبها في بعض الأحيان إحباط يملأ الناس مرارة وألماً لبعض ما أقرأ على صفحات الصحف أو حتى بين الكتب التي أُولِيها كثيراً من الحرص على اقتنائها رغم بعدها عن نوع الدراسة التي اقتنيتها لنفسي.

قد تقولون بأن الفارق كبير بين مجتمع طيبة ومجتمع القاهرة، وأنا بدوري أوافقكم على هذا الرأي. وآمل، في الوقت نفسه، أن تتاح الفرصة لسهى لأن تجد طريقها إلى العلم كما وجدته فتاة القاهرة حتى إذا ما تحقق ذلك بعد عودتي الطويلة إلى طيبة، وجدت الفتاة التي تعيش على أرض بلدي قادرة على التمتع بهذا العلم ودون أي تبجج، وذلك، في نظري، صفة عظيمة أوليتها بعضاً من الدراسة فترة من الوقت. لكن الأقدار التي شاءت أن تربط ذكرياتي بذكريات سهى وقفت سدّاً منيعاً في أن أصل إلى غايتي وغايتها وإلى ما نريد.

فلقد تزوجت سهى وانقطعت صلتي بها، تزوجت من ابن عمها، وأصبحت بالنسبة لي مجرد طيف كبير يراود أحلامي ويعطيني بعضاً من النصح والإرشاد، ويدفعني لأن أمنح نفسي مزيداً من التأمل في تصاريف هذا المجتمع الذي أحب حتى إذا ما اتخذت طريقتي في الحياة تناسيت الأمر، لكنني في الوقت نفسه لم أنسَ مجتمعي الذي عرفت.

قد تتشابه وجوه النساء رغم بُعد مساقط رؤوسهن آلاف الأميال عن بعض، ويظهرن وكأنهن قد جئن من رحم واحد وأب واحد. لكنهن، رغم كل هذا

التشابه الواضح، تبدو الفوارق أضخم من أن تعد، في الكلام والإيماء والفكرة والابتسامة. تلك هي حقيقة الحياة نجيد تذوقها وهضمها حيناً، ونفقد طعمها الرائق حيناً آخر.

في القاهرة لم تضل قدماي الطريق، لأنني كنت أنظر إلى الحياة من جانبها الطيب فأنأى بنفسي عن أن أمسك بيدي تلابيب الشر رغم مغريات الحياة وما يجر ي على بعض أرضها. ولقد انطوت نفسي على أماني جمة كنت أخالها بعيدة عني. لكنني، عندما تعرفت على بعض من تعرفت، عرفت أن الإنسان هو الذي يمكن أن يصنع نفسه ويحقق أمانيه وآماله، وهو قادر على صنع أحلامه بكفاءة.

على مدارج الدرس، التقت قلوبنا على الأمل الذي أخذ يتطاول في عقولنا كشجرة لبلاب ضخمة من تلك الأشجار التي تطل على ضفاف النهر النيل الكبير.

كنت أظن أنني سأضيق كثيراً بنوعية الحياة في مجتمعي الجديد، لكن طول العِشرة نفض عن نفسي شوائب الإحساس بالحرج، وأصبحت الإلفة طريقنا الجديد نحو حياتنا الجديدة.

في قاعة بورت بالجامعة الأمريكية التي أخذت أعتاد على زيارتها لاكتساب مزيد من الثقافة ووضوح الرؤيا عرفتها، فقد كان اسمها هي الأخرى سهى، وإن اختلف المظهر ومكان الولادة فهذه الإسكندرانية الرائعة التي جاءت من سِيدي بِشر على بساط الريح جعلتني أحس بشيء من الوله تجاه وجْهها الذي هو صورة من وجه تلك التي تزوّجَت.

فقد تكون سهى الجديدة أقدر على مقارعتي الحجج والحديث من تلك التي مضت، لكن صوتها يحملني إلى آفاق بعيدة أحس من خلالها بجمال روابي قبا والعوالي وقربان والشاطئ سيدي بشر والأنفوشي وسيدي جابر.

مزيج من الجمال والحرية يتلاقيان معاً في حديث هادئ وصريح.

وكانت كل هذه الأحاديث تعود بي إلى زقاق الطوال وسكان هذا الزقاق الذي تعدى دوره ولم يصبح في ذمة التاريخ.

في القاهرة، كان لي لقاء مع أولئك الذين جاؤوا من كل مكان من أرض بلادي في رحلة العلم يعودون بعدها كل واحد منهم لموقعه.

الناس في القاهرة يملأون الشوارع، يسدّون الطرقات بمناكبهم، يتحركون في شيء من العصبية المحببة. ربما لأن حياتهم وحياة مجتمعهم لا تمنحهم القدرة على الراحة بين ضجيج المدينة التي أخذت تضرب على أجساد النساء بحرية، ومع هذا يجد الإنسان من التناقضات ما لا يستطيع يدرك كنهه.

فلقد حاول الغرب أن يضرب بجناحيه بقسوة على معاصم النساء اللواتي أصبح لا هم لهن إلا الجري وراء الموضة، أما الأخريات، فقد عشن حياتهن في القرية، فلا تزال ظروف ملابسهن تتميز بالبساطة والسواد أيضاً، فعلى الرغم من أن الشعب المصري شعب يحب الحياة والتنكيت على الحياة، إلا أنه مرتبط بإحساسه وشعوره بالحزن التي تبدو معالمه على أكثر ملابس الريف.

يقولون إن من الأسباب التي جعلت المرأة في الريف متمسكة بهذا اللون، قضية الثأر التي أفسدت في بعض من الزمن حياة الكثيرين من سكان القرى، ثم جاء التعليم ليفرغ من عقول الكثيرين معالم هذه النظرية. ولكنها، مع ذلك، تظل بين مد وجَزْرٍ، وكأنها تحاول في كثير من الأحيان إخراج لسانها لما يمنحه العلم للإنسان من معرفة.

تلك الأيام التي خلت كنت خلالها أعيش الحياة عن كثب حتى إذا ما اصطدمت تقاليد الزقاق بتقاليد القاهرة، تغلّب الجديد على القديم وأضحت أيامي مزيجاً تحتدم آثارها في نفسي بلا اضطراب.

كنا أكثر من ثلاثة ربطت بين قلوبنا صداقة متينة زادت في عُراها الغربة وجعلتها أقوى وأشد وأمتن، لكنها، على كل ما هي عليه من قوة، كانت تصطدم في بعض الأحيان بإحساسات يحتدم أوارها في النفوس الصغيرة التي شبت عن الطوق فجأة وبلا استئذان.

لكننا مازلنا نثابر على الرفض لمستجدات الحياة بشيء من الخجل، وكأننا نحاول أن نتشبث بالقديم الذي تركناه وراء ظهورنا، فأخذت آثاره تتجسد في نفوسنا تلك التي مازالت غضة الإهاب.

لطالما عشقت نفوسنا أجواء القاهرة وتفتحت أعيننا على مفاتن النيل الذي

امتلأت جوانبه بكواكب كثيرة من الفتيات يرحن ويجئن في ثيابهن الملتصقة وحول أعناقهن سلاسل ذهبية يزداد بريقها في عيوننا ونحن نلتمس الطريق إلى مقياس النيل في الروضة.. حتى جاءتنا رجاء التي كنا نلتقي بها عند باب عمارتنا الأربعين عند محطة الهلباوي في المنيل، كانت الأخرى هناك تستنشق عبير الأصيل في إحساس الأنثى المنتشية بجمالها الأسمر الرقيق، وخصرها الناعم الدقيق، وخصلات شعرها السوداء التي تلاعبها نسمات الهواء وهو يشد ملابسها الضيقة على جسدها الرقيق ليبرز مفاتن ذلك الجسد الذي كنا نتلمس النظر إليه في شيء من الخفر والعذرية.

لكن صديقة لرجاء جعلتنا نقبل على مجلس الفتاتين نتجاذب أطراف الحديث في عفوية من لا يدري من كان البادئ في الحديث مع الآخر، حتى إذا ما غربت الشمس عن أحداقها وتوارت ضمن غلالتها البنفسجية ومضت تقبل أحداقها مياه النيل، ابتسمت على وجه رجاء ابتسامة حائرة وهي تستأذن رفيقها العودة وتطالبنا، على استحياء، بأن لا نمضي إلى شقتها خلفها خوفاً من أن يرانا أحد من أهلها، ونحن نتابع خطواتها في هدوء شعرت ساعتها بأنها واحدة من بنات الزقاق وليس القاهرة.

واسترقت النظر إلى وجه صديقة رجاء التي طلبت من زميليَّ في إصرار أن يقوما بتوصيلها إلى بيتها في مصر القديمة بعد أن رفضت أن أقوم معها بمثل هذا الأمر لا خوفاً من رجاء وإنما إحساساً مني بأنني لا أزال ذلك الكائن الحي الصغير الذي عاش زقاق الطوال وعرف أهله وسكانه ومُثُلَهم وقيمهم فلم يرض أن يفرط في هذه القيم حتى ولو أنه يعيش بعيداً عن الزقاق آلاف الأميال.

وانتظرت فترة من الوقت خلتها بالنسبة لي طويلة جدّاً، ثم تابعت طريقي إلى مسكني وشتى الأفكار تتوالد داخل رأسي الصغير تعلن عن أشياء أراها وأريدها وأتمنى أن أصفها ولكنني أخاف أن أواصل طريقي في اقتناصها، لأنها جديدة عليَّ، جديدة على كل ما أحلم وأحمل من عادات لا أدري هل يطول بها الزمن فتظل لصيقة بي أم أنني سأنساها أنا الآخر بعد فترة.

حتى إذا ما وصلت إلى العمارة، رأيت رجاء هذه المرة وكأنها تنتظر مقدمي بفرحة، ومضت إلى المصعد أمسكت بيدي وأدخلتني وإياها ليحملني

وإياها كل إلى طابقه. نظرت إلى وجهها هذه المرة ولم أنطق بكلمة فأحسست بابتسامتها تهوي على وجهي وكأنها تستثير رجولتي بأن أنأى بها من أن تهاب الحديث مع امرأة في هذا الصندوق العجيب الذي أحببته لأول مرة والذي نسميه أنا وصديقاي بصندوق الدنيا، وانتهى المطاف لأن يمضي كل واحد منا إلى غايته، لكنه هذه المرة لم يكن وحيداً وإنما هو بعقله وخياله برفقة من يظن أنها قادرة على منحه مزيداً من القوة للسير قُدُماً في طريق الحياة التي لم نخترها لأنفسنا بمقدار ما جاءت هكذا نتيجة لتوالد الظروف حول هذه الأرض التي عاشت زمان النهضة، فالمرأة في القاهرة، هي تلك التي استطاعت أن تستهدف الماضي عبر سنوات الرخاء والشدة، الفرح والحزن معاً.

الفصل الثامن

أَلِفت عيناني ترف القاهرة ومفاتنها الكثيرة، وأصبح من جملة همومي أن أعتني بملابسي وأناقتها فظروفي المادية لا تسمح لي بأن أهتم بهذه الأناقة التي أصبحت مضرب الأمثال بين زملائي وزميلاتي.

ومضت أيامي بين الدراسة وارتياد أماكن اللهو بالتساوي أشبه بذلك الذي يعرف كيف يسير على أرضه الجديدة، وامتلأت نفسي غبطة وأنا أرى الأصدقاء والصديقات من حولي في الجامعة يشيدون بنجاحي في الكلية التي اخترتها "الطب". ومن سطح فندق سميراميس حيث تلتقي أفراد الطبقة الراقية من رجالات مصر ونسائها وصالات شبرد والكونتننتال وأخيراً فندق النيل هيلتون الذي بدأت أرتاده هو الآخر مع نادي الجزيرة الكبير.

كان جل همي أن أنجح في دراستي وأتفوق فتفوقت. وكان يطربني أن أسمع صيحات الإعجاب بأناقتي، وبدأت أتردد، لأول مرة بعد أن ظفرت بكل ما أردت، إلى "دار الكتب المصرية" بباب اللوق أنهل من كتبها، وأضيف إلى ثقافتي ثقافات كثيرة حققتها لي زياراتي المتكررة وقراءاتي المستمرة لكتب التراث والتاريخ والعلوم الحديثة.

وهناك على مقاعد الدار القديمة التقيت بها لأول مرة، فتاة في عمر الزهور، يملأ وجهها الأبيض الأنيق علامات حزن رقيقة تحاول أن تقتلعها من جذور قلبها بلا جدوى.

في عينيها حلاوة البحر وعمقه وصخب أمواجه، وعلى ابتسامتها ابتسامة فجر رقيقة تمنح وجهها ظلالاً من الأمل رغم رقة نظراتها،

وعلى صدر جبهتها يسكن إصرار عجيب ورغبة أكيدة على التفوق. طالعتها عيناي بعد أن لمحها قلبي لأول مرة وهي تخطو بين دهاليز الكتب برشاقة.

كانت سهاد تمضي الساعات تلتهم صفحات ما تختاره من كتب، ثم تمضي في هدوء ودون صخب وكأنها تحاول أن تتسلل من بين أعماق عيني التي كانت تتلمس محاسن الشباب في الوجه الأبيض الوقور. ولكم شعرت بالخيبة عندما كنت آتي إلى الدار فلا أجدها، لكنها لم تكن تطيل غيابها عنها، بل تفعل ذلك لماماً حتى ذلك اليوم الذي التقيتها فيه وهي على أبواب الدار تهم بالدخول وقدمت إليها التحية على وجل. خفت من أن تنفر من تحيتي لكنها ردتها بأحسن منها، وهكذا مضيت خلفها وقد استمديت العون من طراوة إجابتها المقتضبة وصوتها الملائكي الحنون.

وتصادقنا. أدركت بأنني التقيت بمن أستطيع من خلاله أن أؤكد ثقافتي بأسلوب بجديد بعد أن عرفت إجادتها لأكثر من لغة.

وتبادلنا الحديث باقتضاب، وكان المدخل لصداقة أحسست بأنني فقدتها بعد أن تركت الدار ومضت لشأنها.

واختلفت نظرتي للفتاة المصرية بعد أن عرفت سهاد التي كانت تكبرني بثلاثة أعوام. عرفت ذلك بعد أن استمرأت حديثي معها وأحببت حديثها معي وشعرت يومها بأن أبواب السعادة قد تفتحت لي بعد ذلك الحديث الطويل الذي عرفت فيه كل شيء عني، ولم أعرف من شأنها سوى القليل، ربما لأنها خافت من أن تبوح بأسرار حياتها لغريب، وربما ارتأت أن تترك ذلك للأيام القادمة فقد تستطيع هذه الأيام أن تؤكد لها طيب أصلي ومعدني.

ولم ألحّ، وتركت الفتاة التي أحببتها باب الدار تمتطي سيارتها الأنيقة في طريقها إلى بيتها دون أن تتفضل في إيصالي معها إلى بيتي وهي في الطريق إليه، ولكن من يدريني إن كان بيتها في طريقي أم لا؟ ذلك أمر أحسبني غير واثق منه.

وتمر الأيام، وتزداد الثقة بيني وبين الفتاة التي حسبتها لم تتزوج بعد، لكن ما عرفته منها جعلني أفقد كثيراً من أمور هذا العالم الذي نعيش فيه، فقد أذهلني أن تقترن هذه الفتاة بزميل دراستها ثم تطلّق منه ولم يمضِ على زفافها

منه سوى شهور بسيطة.

لقد أمضت المسكينة سنوات الخطبة الأربع في حبها الوردي الذي انقشع فجأة وظهرت حقيقة الحياة واضحة أمام عينيها وهي تمضي في دراستها الجادة للماجستير في علم النفس بعد أن هَيَض جناحها الطلاق المفاجئ، وهي بالفعل لا تؤاخذ فتاها على ما فعل وتلقي اللوم على نفسها؛ فشلت في دراسة أول حالة نفس تصادفها في حياتها.

ولكم أسعدني قولها بأنها لا تفكر في الزواج بعد هذه التجربة، فلقد خفت أن أنجرف في حب هذه الفتاة، لكن حديثها جعلني أستعيد ماضي حياتي في طيبة الطيبة، وفي الزقاق بصورة حادة.

ولقد قالت لي بأنها تود الحصول على الدكتوراه في علم النفس الذي أحبَّته، وأنها وهي تمضي في إعداد رسالتها للماجستير تضع نصب عينها هذه الحقيقة.

فترات الراحة التي أمضيتها بين الكتب وبين حديثي مع هذه الفتاة جعلتني أحس بقيمة ومعاني الثقافة بالنسبة للإنسان.

لكن السؤال المباغت لي في ذلك اليوم عقب اختباري لكتاب من كتب علم الاجتماع جعلني أفكر فعلاً في قولها، فأنا طالب طب وكان الأولى بي أن أضيع كل دقيقة في دراسة كتب الطب، لكنني مع هذا، أجبتها بأن قدراتي على هضم العلوم ورغبتي بأن أكون طبيباً مثقفاً تدفعني إلى قراءة ما أحب من أنواع الكتاب. ولكم سعدت بزيارة بيت الفتاة ورؤية أمّها التي لا يزال يحمل وجهها آثار جَمال غَابر، لكن أكثر ما أثلج صدري أن أمها طبيبة أطفال ماهرة وأستاذة محنكة لهذا العلم.

ولقد هالني أن أجد والد أم الفتاة من مدينة ينبع اختار الإسماعيلية مركزاً لتجارته يوم كانت هناك تجارة اللحوم والفحم بين المدينتين حتى إذا ما استمرأ الحياة وجاءت ابنته إلى الحياة، انتقل بتجارته إلى القاهرة. ولكم أحسست بطيبة ماما فايزة التي عَرَفت أنني من مدينة رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، مدينة النور والإسلام فمضت تعاملني بحب وكأنني ابن من أبنائها، ولقد سألتني بعد أن ازدادت الإلفة بيني وبينها عما أريد أن أصنعه بعد تعرفي بابنتها وهل

أنوي الاقتران بها؟

فقلت في حزم لم أدر من أ ين جئت به:

ـ لا.

وشعرت بوجه المرأة وقد تلون وبدت آثار الغضب في وجهها وهي تقول لي بهمس:

ـ إذن فعليك أن تختفي من حياتنا ما دمت لا تنوي ذلك فأنا أخاف على ابنتي من أن تتعلق بك فتصدم وأنت تعرف أنها صدمت قبلاً.

وقلت لها كل ما عرفته من ابنتها، فضحكت وقالت:

ـ هكذا نحن النساء نغلف رغباتنا بأوراق من السلوفان حتى لا تبدو ظاهرة بوضوح للآخرين.

ولم تكمل ولكني أكملت أنا، وتركت البيت في ذلك اليوم الذي جئت فيه قبل أن تجيء الفتاة وصوت ماما فايزة يشد أذني كلها وهي تقول:

ـ لا تغضب، فأنا أم تجري في عروقها دماء حجازية يا ولدي، ولهذا فإني أطالبك أن تختفي من حياة ابنتي ما دمت لا تريدها.

وغبت عن البيت وعن دار الكتب أكثر من أسبوعين، خلتهما شهوراً حتى ذلك اليوم الذي رأيت فيه الفتاة تدق باب شقتي لأول مرة ومعها أمها التي جاءت تسائلني عن أسباب عدم الزيارة.

فكرت في الأمر سريعاً، وادَّعيت بأن إصابتي بالأنفلونزا كانت السبب، وشربنا القهوة وتركتني الأم وفتاتها بعد أن وعدتهما باستعادة موقعي في قلبيهما، أنا الغريب الذي يبحث عن الحنان في أي مكان من هذه القاهرة، المدينة الكبيرة الصَّاخبة التي أحب.

وأخذت أفكر في زيارة الأم لي هذه المرة ولم أعرف السبب وإن كنت عَزَوته لفرط حبها لابنتها الوحيدة ورغبتها لأن تظل سعيدة بأسلوبها، أي الفتاة، وليس أسلوب أمها، لكنها لقصر الوقت الذي قضته في شقتي لم تمنحني فهم المقصود من هذه الزيارة.

وجاءتني كلمات سهاد هذه المرة عبر التلفون وهي تضحك قائلة:

ـ كم كنت سخيفاً وأنت تكذب كفَتى صغير. أود أن تصارحني بكل ما قالته لك ماما لأعيد على مسامعك أنا الأخرى كل ما قلته لها.

وأضافت بمرح:

ـ تكفيني صداقتك ويوم أجد العريس المناسب ثق بأنني سآخذ رأيك أنت الآخر كأخي الذي لم تلده أمي.

وأمضيت ليلة هادئة، ونمت نوماً عميقاً تخللته أحلام كثيرة ضاعت مني بعد أن أفقت لكنني شعرت أن بالإمكان أن تكون الصداقة بين الرجل والمرأة على الأقل بين مجتمع القاهرة وليس كمجتمع الزقاق مثلاً.

ولكن كل هذا لم يقنعني، وأخذت أتحدث إلى نفسي حديثاً طويلاً لم أصل في نهايته إلى رأي سوى أن أواصل صداقتي لهذه الأنثى التي أعجبتني وأعجبني فهمها لمعنى الصداقة.

الفصل التاسع

عاصم بن سعيد طبيب مصري أقام سنوات عمره في كندا مع والده وأمه التي ماتت وتَمُتُّ بصِلة القرابة من بعيد لوالدة سهاد التي تناولت جريدة الأهرام الصفحة الثقافية رسالتها للدكتوراه في أصول علم النفس عند الرواد العرب بكثير من الإشادة والفخر.

قريبها قرأ الخبر في المهجر، فاتصل بها تلفونيّاً بعد أن استقى كافة المعلومات عنها من سفارة مصر في كندا وجاء هذه المرة وقد تكون هي المرة الأولى ليحرمني من سهاد الصديقة وأمها دفعة واحدة. ومع هذا، ورغم غيابها عني، فلقد أحسست بشيء من الفرحة لخطبة سهاد، وإن لم أستسغ بالفعل خطبة الأم للأستاذ حمدان الكيميائي والذي قضى جل سنوات حياته في القرية بلا زواج بعد وفاة زوجته.

ربما كان لتأثير الزقاق الكثير من نظرات الاستغراب التي واجهت بها أم سهاد وأنا أزورها بعد أن عرفت بنبأ الخطبة الأم والابنة دفعة واحدة. ولقد ازدادت حيرتي عندما قدمت الأم للأستاذ عاصم على أنني قريب لوالدها من بعيد. استغربت أن تكذب الأم هكذا دون أن تستأذنني أنا الذي ألصقت به شرف القرابة، وشعرت ساعتها بهذه الكذبة، وعرفت بأن المجتمع المصري هو الآخر كمجتمع الزقاق لا يرى معنى للصداقة التي تربط الرجل بالمرأة إن لم يكن من أهلها أو قريباً من أقربائها.

سهاد هي الأخرى لم تستسغ الكذبة وإن لم تتحدث بصراحة، لكنني شعرت في كل مرة أراها فيها بأنها غير راضية عن الشرف الذي ألصقته بي أمها يومئذ، وقلت لنفسي:

ـ ربما كان جيل اليوم أقدر على الصدق والصراحة من الجيل الذي لا ينتمي لا للقديم ولا للجديد.

وفي آخر يوم قابلت فيه سهاد قبل ليلة زفافها سألتها:

ـ أو يمكن للمرأة أن تجري وراء الرجل لتتزوج وتنأى بنفسها عن بيتها الأصلي وأرضها ومجتمعها؟

ضحكت سهاد وقالت لأول مرة:

ـ بيت المرأة هو كتف الرجل تسكن إليه وتضع رأسها عليه، إذا كانت مطمئنة.

وأردفت:

ـ لنفرض أنك الذي طلبتني للزواج، فهل معنى قبولي لطلبك أن أبقى وأطلب منك أن تبقى أنت في بلادي أم أن المنطق يقول غير هذا؟

نظرت في وجهها وقلت بصراحة:

ـ أَوَ كنتِ تنتظرين مني أن أفعل؟

قالت:

ـ ربما لا أكون صادقة إذا قلت إنني لم أنتظر منك أن تفعل. ورغم كلامي عن معاني الصداقة بين الرجل والمرأة، فالمرأة يا صديقي تظل دائماً رغم ثقافتها تنتظر وليفها الذي تقتنصه.

نظرت إلي نظرة حانية وطلبت مني أن أصمت، لكنني لم أفعل ومضيت أثرثر هنا وهناك، وأقول:

ـ لا سأنتظرك وزوجك وأولادك في بلدي عندما تقررين زيارة البلاد المقدسة للحج أو العمرة.

ولمحت دمعة صغيرة تنحدر على وجنتيها وهي تترك مقعدها في صالة بيتها عندما وصلت أمها إلى صالة الغرفة. قالت لي أمها:

ـ أَوَ أَزعَجتَها بشيء لا أعرفه فهي تبكي؟

نظرت إلى وجهها وقلت:

ـ صدقيني لم أقل شيئاً يضايقها.

فصمتت، وعادت سهاد إلى الغرفة وهي ترسم بسمة صغيرة على وجهها وكأن شيئاً لم يكن، فحمدت لها هذا المعروف وأمضيت معهما ليلة باردة ثقيلة على النفس خرجت على أثرها وأكثر من هاجس يداعب نفسي التي لم تعد تستقر على أمر من الأمور تلك الليلة. قلت لنفسي:

ـ ترى هل ظلمت الفتاة أم ظلمت نفسي بهذه الصداقة التي فرضتها؟

وعندما لم أجد الإجابة عن كل تساؤلاتي، تركت الأمر يتسرب في أعماقي في صوره الصغيرة والمتعددة، ولكن هل كان عاصم بن حمدان الطبيب المصري على حق عندما ترك بنات كندا ليقترن بفتاة من أرضه وبلاده؟

تلك قصة أخرى لا أزال أحاول أن أعرف أسبابها وملابساتها عند كثير من الناس الذين تنقلهم الغربة بعيداً عن أجواء أرضهم فتراهم يسعون إلى جو هذه الأرض التي ولدوا عليها حتى ولو كان ذلك على شكل مصغر بسيط لأخرج من دائرة ومحيط البيت الذي يقضي الإنسان أكثر من نصف حياته بين جدرانه.

ولقد أمضيت ليال حائراً أبحث عن نفسي من خلال المجتمع الذي أعايشه حتى ذلك اليوم الذي تخلى فيه أحد أفراد شلّتنا نحن الثلاثة عنا واستقل بحياته؛ فقد سرقت فتاة مصرية فريداً صديقي الطيب الذي يعرف مباهج الطعام وأشكاله ويجيد طهيه فافتقدنا بفقده كثيراً من أطباقنا التي تعوّدنا عليها في بلادنا.

لم نكن نعرف كيف استطاعت فتاة كماجدة، أو ماجي كما يلقبونها، اختطاف هذا الصديق فقد كانت واحدة من الفتيات اللواتي يدرسن معه في جامعة القاهرة بكلية الهندسة.

حضر بعضنا وقضينا حفل الزفاف الذي تميز بالجديد والبعيد عن عاداتنا بلا شذوذ وامتلأ سطح العمارة الذي سيج بأقمشة براقة من أقمشة الخيام وشارك في الاحتفال بالزفاف عدد من المغنين والمغنيات الذين تزخر بهم أمثال هذه الحفلات، ولقد قضى على السهر وقضى على كل آثار الفرحة في نفسي تذكري لابنة عم فريد، تلك التي كان يتحدث عنها لنا بإسهاب وعن أمله بأن يعود ليزف إليها هو الذي أحبها منذ أن كان صغيراً.

ترى ما ذا تقول ابنة عمه صفاء عندما يعود إليها برفقة عروسه وأكثر من طفل؟ وماذا سيقول لأبيه ولأمه؟ فقد عرفت بأنهما لا يدريان شيئاً عن كل هذا الذي دبره بليل هذا الصديق.

ثم كيف يمكن لأية أسرة أن تقبل أن تزف ابنتها إلى رجل لا يشارك زفافه أحد من أسرته؟ ولقد قابلت فريداً بعد أيام وتحدثنا سوياً عن هذا الأمر، فوجدته إنساناً مغايراً لذلك الذي أعرف. أصبح يخطط لأن يعيش في القاهرة بعد أن يتخرج وبعد أن يعود إلى بلده ويرى كيف يمكن له أن يحقق هذه الغربة، وعندما سألته عما إذا كان سيأخذ زوجته معه عند العودة؟

قال:

ـ لا.

وأضاف:

ـ لقد اتفقت معها على كل شيء. سأعود وأعمل وأكسب وعندما يحين الوقت، سأبلغ أبي وأمي بما حدث!

وقال أيضاً:

ـ سأدع الأيام تضمد جراح تلك التي أحببتها في طيبة ونسيتها في القاهرة.

لم أَقُل شيئاً، فقد كانت تلك المرة الوحيدة التي لم أجد فيها كلاماً يمكن أن أقوله لهذا المستهتر. هكذا وصفته بيني وبين نفسي، وإن لم أكن أجرؤ على أن أقولها في وجهه، ولكن لقد كان الذي ليس منه بد وأصبح فريداً زوجاً وصاحب بيت، نالنا من طيبات مأكله الشيء الكثير.

ولقد حاولت زوجة فريد أن تضع في طريقي ابنة خالتها هناء التي كانت، في حقيقة الأمر، فتاة مثالية شديدة الذكاء جميلة إلى حد كبير، لكنني استطعت أن أصمد أمام مفاتن هذه الفتاة، وأن أمضي في طريقي بعيداً عن كل رغبة يمكن أن تخامر نفسي بأن أتزوج منها أو من غيرها.

إلا أنني، في حقيقة الأمر، كنت أطرب عندما أراها في بيت فريد وأمضي معها ومع فريد وزوجته أوقاتاً سعيدة جعلت فريداً يخاطبني بشأنها أكثر من مرة. وفي إحدى المرات قال لي فريد:

ـ أَوَ تَدري أن هناء تحبك؟ لقد باحت بسرها لي ولزوجتي وطلبت منا أن لا ننقله إليك.

أحسست ساعتها بأنني أجرمت في حق هذه الفتاة فجعلتها تحبني أنا الذي أرفض الزواج بأية أجنبية من غير بلدي ووطني، ومع ذلك فقد قلت له:

ـ أرجو أن تبلغها إعجابي بها وبأخلاقها وجمالها. وأرجو أن تطلب منها أن تكف عن محبتي إذا كانت تريد أن تتزوج.

ضحك فريد ولم يَع كلمتي أو معناها، فظن أنني موافق على حبها لي على أن لا تطمع بالزواج مني فقال:

ـ تريد أن تتسلى إذاً؟

فقلت له:

ـ لا.

وأفهمته ما أعنيه. لكن هناء مضت تواصل ملاحقتي بأحاديثها التليفونية وكلماتها الدافئة من ذلك اليوم الذي التقيتها فيه في فناء الكلية فقد كانت تدرس الطب هي الأخرى وكان حديثاً معها واضحاً و صريحاً انتهى بأن تطلب مني أن نظل أصدقاء إذا كان هذا يناسبني.

شعرت في تلك اللحظة كم هي قادرة المرأة على أن تغلف رغبتها وإرادتها بأساليب شتى حتى إذا ما استطاعت أن تصل إلى غرضها، انقضَّت بكلها وكليلها على قلب الرجل، ومع هذا أجبتها وفي هدوء:

ـ لا شك أنني سأكون ممتناً وسعيداً بصداقتك يا عزيزتي، وثقي بأنك عندما ستختارين عريسك فلا تتأخري واطلبي مني كأخ أن أقدم لك مشورتي فيه إذا كنت أعرفه.

نظرت إليَّ نظرة باسمة، لكنني شعرت بأنها تعتقد أن هناك الكثير من الوقت. الوقت في صالحها، ولهذا هي لا تفقد الأمل في اصطيادي.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت هناء لا تفارقني في كافيتيريا الكلية، بل تفرض وجودها عليَّ حتى وأنا أتحدث إلى أية فتاة غيرها، وكأنها تحاول أن تفهم الأخريات أنها خطيبتي.

وفي يوم تسلمي شهادة البكالوريوس، دعتني وفريداً وزوجته إلى دارها، ودعت شلة كبيرة من الأصدقاء والصديقات. لكنني، في حقيقة الأمر، وجدت حرجاً كبيراً وأنا بين هذا العدد من فتيات أسرتها اللواتي كن يتفحصن وجهي بإمعان وكأنني أ شبه بجارية في سوق الرقيق، يحاول من يشتريها أن يتعرف إلى جوانب وجودها على أرض هذه الدنيا.

مضت تلك الليلة وأنا في دوامة من التفكير أزعجتني، وعندما عدت إلى بيتي قررت بيني وبين نفسي أن أقطع صلاتي بهذه الفتاة التي تظن فيها أنها قادرة على امتلاك قلبي بأسلوبها وطريقتها، ومما زاد ألمي تليفونها الذي جاء في وقت متأخر من الليل، وكأنها تطالبني بأن أكشف لها عن نفسي وأسباب انزعاجي الملموس والظاهر على وجهي تلك الليلة، حاولت أن أفهمها بأن لا شيء من كل هذا الذي تقوله حقيقة، لكنها تابعت قولها:

ـ أَوَ تَدري بأن كل صديقاتي من أفراد الأسرة يحسدنني على صداقتي لك لاسيما بارعة؟

وبارعة هذه فتاة رأيتها في بيتها أكثر من مرة.

لقد بدوتَ أمام أعينهن أشبه بفارس عربي نزل عن صهوة جواده ليواجه عيون كل هذه الزهرات اليانعات ولقد أفضت لي بارعة برغبتها في التعرف عليك بدعوتك إلى بيتها ودعوتي.

وصمتت بعضاً من الوقت ثم جاء صوتها مكملاً الحديث وهي تقول:

ـ أَوَ تدري أنها بمفردها في شقتها؟ فزوجها في أمريكا يكمل دراسته هناك وهي لا ولد لديها ولا ابنة.

وبحزم قلت لها، وأنا أعرف ما تريد أن تدعوني إليه:

ـ إنني أرفض أن أدخل بيت رجل لا يوجد فيه.

وقفلت السماعة وكأنني أنهي هذه المحادثة بقسوة افتعلتها، وهكذا عاودتني مُثُل الزقاق وأهل الزقاق دفعة واحدة. لكنها عادت إلى محادثتي وهي تقول:

ـ ربما انقطع خط التلفون، فأنا وأنت لم نكمل حديثنا بعد.

وبصوت حاولت أن أظهر بعض الضيق والحنق قلت لها:

- وهل بقي بعد كل الذي قلناه حديث؟

ومع كل هذا الذي قلت مضت تثرثر ببعض كلمات حاولت أن أسايرها فيها، حتى إذا ما ضقت بكل هذا الكلام الذي لا طائل معه أشرت إليها بشيء من الهدوء قائلاً:

- أنسيت أن غداً أول أيام الامتياز؟

فقد جرت العادة أن يمضي الأطباء الجدد عاماً كاملاً يتمرنون خلاله في المستشفى ليضيفوا إلى معلوماتهم شيئاً جديداً ويشاركون أساتذتهم ومدرسيهم العمل في المستشفى، وودَّعتها وأنا حائر في أمر هذه الفتاة وقدرتها على الالتفاف حول ما تريد، وصبرها وعنادها لأن تصل إلى ما تريد، وإن كنت أعتقد بأنني لست بذلك الصيد السهل الذي يمكن اقتناصه. ومضيت إلى فراشي لتلتقط ذاكرتي جزءاً كبيراً من حياتنا في الزقاق في شبه رؤيا حمدت الله لأنني رأيت فيها ما رأيت.

ولملمت نفسي وأنا في طريقي إلى القصر العيني حيث أتدرب، وقد نسيت كل شيء ولم أعد أذكر إلا أنني طبيب ولأول مرة.

الفصل العاشر

يرتبط الماضي بالحاضر برباط وثيق أحسه يتأوَّه على شفتيّ المرهقتين. فنحن في حياتنا نعاصر الحاضر بأسلوب سريع الخطو والإيقاع يشد عزيمتنا في كثير من الأحيان ككائنٍ بعضنا يراه، وقد أدركته سرعة الإيقاع فلم يقدر على مواكبتها في مسيرته الطويلة، ربما لأن الناس ليس كلهم على شاكلة واحدة من القدرة على التكيف مع واقع الحياة واكتساب عناصر القوة فيها كما نرغب.

في القاهرة كنت أرمق الفجر الذي أطل بعد أن استطعت القفز على حواجز الحياة واخترت مهنتي بأصالة، لكن الشيء الذي أسعدني أنني وفي هذه السن الشابة استطعت تحليل نفسيتي وسبر أغوارها ومعرفة معاني الوعي الباطن الذي يمنحني صوراً جميلة أكاد أراها في يقظتي قبل المنام.

فالعالم على سعته أصبح شيئاً صغيراً نستطيع أن نصل إلى كل مكان فيه إذا رغبنا وبأسرع ما يمكن، ولقد منح صغر العالم على امتداد أرضه وبحاره وجباله الناسَ القدرة على فهم أنواع الحياة التي يعيشها الإنسان حتى في مجاهل سيبيريا، هذه المعرفة التي حققتها له وسائل الاتصالات السريعة الذي غدت سمة بارزة من سمات عصرنا الذي نعيش فيه.

قد يكون البون شاسعاً بين من نعرفهم ومن لا نعرفهم، ومن نلقاهم في الطريق أيضاً، لكن هذا البون الشاسع يبدو واضح المعالم في المدن الكبيرة التي أصبح الإنسان فيها مجرد رقم صغير يضاف إلى الأرقام الكبيرة.

القاهرة بمعالمها وناسها أشبه بكرنفال كبير تبدو من خلال صيحات الموضة وأقدم الملابس. فالجلباب الأسود الفضفاض يثير الحزن الذي يبدو على الوجوه السمراء الضاحكة التي جبلت على عجن الحزن بحياة السخرية، السخرية الهادئة واللاذعة والهادفة أيضاً.

وأنا في طريقي للقاء صديق جاء على غفلة ويود أن يتركنا على غفلة ولولا المصادفة والنيل؛ هذا الشريان الحيوي تكاد جوانبه تنبض، تتحدث لبعض هؤلاء الرائحين والغادين بجلابيبهم وبنطلوناتهم ووجوههم المغايرة لأولئك الناس الذين سكنوا الزقاق يوم كان الزقاق يعج بالناس، لدرجة كنا نعتبره أكبر الأزقة في العالم، نحن عشناه وعايشناه حتى إذا ما التقينا بكل هذه الملايين الزاحفة، تضاءل المنظر ولم تضِع آثاره من نفوسنا.

في فندق النيل هيلتون، التقيت بصديق من أيام الدراسة فرقت بيننا الأيام. جئت إلى القاهرة وسافر هو إلى الرياض حيث انتقلت أسرته إليها، ثم شاء حظه أن يغادر إلى أمريكا في رحلة علم طويلة.

نظرت إلى وجهه، فهالني أن كل شيء في ذلك الوجه الذي أعرف قد تغير.

لم يعد هشام ذلك الذي أعرفه، بصم الزمن على وجهه وجسده بصمات كثيرة غيرت معالمه، وإن لم تتغير ضحكته التي عرفت والتي واجهني بها وهو يلقي بنفسه على صدري، يضم أخاً قديماً حالت سنوات الحياة دون أن يلتقيا. مضيت أدردش معه كثيراً وإن كان حديثي قد انصبَّ على أمريكا التي بدأت أحلم كثيراً برؤيتها بعد أن أنهي تدريبي في الامتياز بالقصر العيني.

ولقد أمضيت مع هشام يوماً كاملاً التقيت في نهايته بزوجته الأمريكية التي جاءت من بوسطن بعد أن اعتنقت الإسلام عن رغبة. كان لاعتناقها هذا الدين قصة طويلة تحدث هشام لي عنها من الحب والإدراك لمشاعر أولئك الذين التقوا مع الإسلام وجهاً لوجه.

كريستين، هذا هو اسمها قبل أن تصبح هدى، من والد ينتمي إلى جدود ألمانية وأم ترجع جذورها إلى مدينة مام في القارة الهندية. يدينان بدين ظهرت آثاره في أمريكا، وأصبحت لهذه الفئة من الناس (المورمن) جامعة كبيرة من جامعاتها اسمها جامعة يوتا.

زارت مع أسرتها، في سن الخامسة عشرة المغرب والتقت بفتاة سمراء صادقتها وأحبتها وتعرفت إلى أشياء كثيرة عن حياتها وأسرتها، حتى إذا ما التقت بها مرة ثانية وهي تأتي إلى أمريكا للدراسة، أخذت تطلعها بشكل أفضل عما عرفته عن الإسلام يوم كانت صغيرة، وأصبحت، بعد هذه المعرفة، تحاول الاطّلاع على الكتب القليلة التي توفرت لها في أمريكا.

وعندما قدّر لها أن تطّلع على ترجمة معاني القرآن اطّلاعاً عميقاً، ذهبت مع صديقتها إلى واشنطن تعلن عن إسلامها في المركز الإسلامي هناك، وفي جامع بوسطن تعرفت على هشام وأحبّته ومن ثم تزوّجته.

قصة صغيرة تصلح لأن تكون فيلماً سينمائياً، هذا ما قاله هشام، لكني لم أُجِب بل مضيت أفكر وأفكر.

ترى لو عاد هشام بزوجته الأمريكية هذه يوم كان الزقاق وأهل الزقاق وناس الزقاق على سابق عهدهم فهل سيقبلونهما؟

لا أدري... ولكنني فضلت أن أتناسى الموضوع لفترة، وإن يشغلني في بعض الأوقات التفكير فيما أصبح عليه حال الشباب في بلادي بعد كل مظاهر التطور الملموس.

العمل في القصر العيني مليء بالأحداث المفاجئة، لكنني كنت أجد الكثير من الراحة عندما أمضي في عملي أؤديه في حب. وأرمق زملائي من أطباء الامتياز الذين كانوا يهربون إلى حياة الليل في القاهرة ويفضلونها على أي عمل يقومون به، ما عدا ازدهار؛ هذه الطبيبة التي تعرفت إليها وهي تواصل تخصصها في هذا المعهد الطبي الكبير.

كانت نموذجاً آخر من المرأة التي وهبت نفسها لأداء الواجب تفضله على أي شيء آخر، يوم سألتها عن الأسباب التي جعلت منها هذه الفتاة التي أراها من جد ومثابرة فابتسمت وقالت:

ـ لذلك قصة وودت أن أجد الوقت لأقولها لك عندما تحين الفرصة.

لكن فرصة لقائي بها لم تكن تسمح بأن تفضي لي بقصتها، حتى ذلك اليوم الذي عرفت منها أنها وُلِدت في اليوم ذاته الذي توفيت فيه أمها، لأن أباها لم يكن قادراً على حملها إلى المستشفى الذي يبعد عن القرية أكثر من أربع ساعات طوال خشي عليها من الموت فأدركها الموت فور ولادتها.

وعندما كبرت ازدهار رأت كيف يحصد الموت الأطفال فور ولادتهم، فكانت تعجب لكونها هي التي عاشت وماتت أمها. ولقد ظل أبوها على حبه لأمها، فلم يتزوج حتى أصبح مضرب الأمثال بين شباب القرية وفتياتها اللواتي تعر فت عليهن بعد ما كبرت، ويوم التحقت بكلية الطب ببغداد ترك أبوها القرية وجاء معها إلى المدينة يرقب نموها في حب. لكن فرحته بها لم تدم، فقد توفي هو الآخر بعد نيلها شهادة البكالوريوس بقليل.

ومضت رحلة عمرها في دأب أغناها أن تفكر أو تحلم بالزواج رغم كثرة عشاق هذا العمل الذين كانوا يلتفون حولها دون جدوى، واستقر بها المقام في رحلة علم للتخصص في القاهرة، كما كانت تقول.

سألتها وهي واقفة على مقربة من غرفة الأشعة العميقة ترمق وجه طفلة صغيرة جاءت أمها للعلاج من خلف زجاج الغرفة السميك المشبع بمواد عازلة كثيرة:

ـ أو لا تحنّين لأن يكون لك أسرة أنت التي فقدت الأسرة؟

قالت وهي تحملق في وجهي وكأنها تحاول أن تسبر غور سؤالي الذي وجهت:

ـ ومن قال لك إنني لا أحن؟ لكن حنيني، كما ترى، يضيع بين أقدام الحياة ويتوه في شوارعها وممراتها القديمة. نحن الحرائر قد يشغلنا عن فعل هذا الأمر حلم علمي نريد تحقيقه حتى إ ذا ما تاهت أقدامنا بعيداً عن إحساساتنا كفتيات، وجدنا أنفسنا وقد أضافت الأيام لوجوهنا بصمات حقيقية أفقدتها الرونق والبهاء وعندها لا يحفل بنا كل أولئك الذي رأوننا بالأمس القريب أو البعيد معاً.

ضريبة العلم يا صديقي تدفعها المرأة وهي راضية، لأن الحياة يجب أن تستمر ولأن ا لعلم يجب أن يغطي على ساحات الحياة ودروبها وشوارعها.

ـ لكنك لا تزالين قادرة على اجتذاب رفيق العمر لو أردت.

قلت لها، فكررت نظراتها لوجهي ثم قالت وكأنها وقد عرفت ما أعني:

ـ وهل ترضى أن تتزوج امرأة بلا أسرة؟

الفصل الحادي عشر

كثيراً ما تتجاذبني أحلام اليقظة هنا وهناك، فأحس بنفسي تتأرجح داخل هذه الشرايين الصغيرة التي تحيط بهذا الجسد الذي أصبحت أحس بكل صغيرة وكبيرة فيه. فالإنسان هذا الذي يجري على الأرض، يرهب الموت ويخاف المرض ويخشى الأحزان، لكنه مع هذا كله عرضة للمرض والخوف والحزن والموت.

ولقد عرفت أشياء كثيرة عن هذه القاهرة التي عشنا فيها ردحاً من السنين أخالها وقد منحتني الفرصة لأن أعرف الطيب فيها الرديء وأمنح نفسي بعضاً من الهدوء رغم الكثير من المنغصات التي أراها في كل مكان تدب فيها قدماي.

فلقد فرقت الأسباب بيني وبين الأصدقاء، وعاد أكثرهم إلى الديار محفوفاً بالأماني، حتى إذا ما حطت بهم الطائرة في جوف الماضي مرة ثانية نسوا أو تناسوا أيام الدراسة وزملاء الأمس فترة من الزمن ثم عادوا تذكرهم للحاضر الذي عاشوه بدقائقه وتفاصيله.

يقول أخي في رسائله بأننا أصبحنا في وضع مالي نحسد عليه، ولقد أحسست بالفعل بمعاني كل كلمة قالها في رسائله إليّ وبهذه المبالغ السخية التي يبعث بها إليَّ رغم أنني في غير حاجة لها.

فأخي، بعد كل هذا الخير، يرى أن أمضي في رحلة العلم حتى أصل إلى أكبر درجات العلم ثم أعود، وهي حقيقة صادفت هوى كبيراً في نفسي، فأنا أيضاً أرغب في هذا أو أكثر من هذا لكن ما يؤرقني أنه يرغب أن أتزوج بعد أن أعود إلى الديار وأن ترافقني زوجتي إلى أمريكا إذا كنت راغباً لأن أصل إلى ما أريد وما يريده هو

أيضاً أن أصل إليه.

أشياء كثيرة أفضى بها أخي إليَّ لكنها لم تكن جديدة عليَّ، فأنا أعرف من كل ما أقرأ وأشاهد مظاهر التطور التي تسود أرضنا وبلادنا لدرجة أصبح هذا ليس ملكاً لأحد بمفرده، وإنما هو لكل هؤلاء الذين يعيشون على أرض تلك الجزيرة الحرة. ولكم سعدت عندما رأيت تعداد البعثات في تناقص مستمر نتيجة تواجد فرص العمل في بلادنا بشكل جيد ومتميز، وسألت نفسي:

ـ ترى متى سيتسنى لي أن أمضي في جحافل الخير التي تبني بسواعدها أرضي وبلادي؟

في الربيع كانت صدمتي كبيرة؛ فأختي التي تزوجت صديق عمر أخي تركها بعد أن ارتبط بواحدة من بنات أمريكا! وحزنت أكثر لأن أختي رفضت أن تترك طفليها لوالديهما وأصرت على أن يبقيا معها رغم كل شيء، قلت لنفسي:

ـ لو كانت عاقلة لتركتهما واستطاعت أن ترتبط بآخر فهي صغيرة.

ولكنني بعد أن تسلمت رسالة أختي التي تفيض ألماً أيقنت أنها أعقل من عاقلة لأنها تريد أن تضحّي من أجل ولديها.

تناسيت الأمر أو حاولت وعاودت رحلة العمل وأنا قلق. جاء العيد ولأول مرة أحسست بالحزن يتسلل إلى أعماق نفسي في قسوة؛ فلقد أمضيت جل أيامه في قسم الحوادث في قصر العيني. شعرت بأن العالم كله مثلي حزين هو الآخر، فحوادث المرور وإصابات الأطفال وموت بعض العجائز في المستشفى كل هذه الأشياء جعلتني أفكر في أسر هؤلاء الذين مروا أمام عيني.

ولقد رأيت اللهفة في عين تلك المرأة وهي تحنو على طفلها الصغير وقد ارتدى ملابس العيد تحيطه بذراعيها البيضاوتين ووجها الناصع البياض امتدت لها يد الصغير، فأصبح مزيجاً غريباً أمام عيني.

أحسست بلهفتها على وليدها الذي صدمته السيارة أمام عينيها وهو يلهو أمام العمارة التي تقطنها.سألتها عن أبيه فقالت:

ـ على سفر.

ولم تكمل. ولكنني ساعتها أحسست بأن من واجبي أن أتقمص دور الأب والطبيب معاً حتى إذا ما اطمأنيت على جميع الإجراءات التي قمت بها شيعتها نظراتي وهي تسير برفق مع الممرضة ووليدها على الكرسي إلى داخل المستشفى.

أمضيت يوماً حافلاً في علاج الكثيرين والكثيرات، لكن مرأى الطفل وتلك المرأة يشغل جزءاً كبيراً من تفكيري حتى إذا ما جاء المساء التقيت بها في غرفة وليدها. أحسست بأنها تود أن تعبر عن مزيج من الشكر والحفاوة بمقدمي، لكنني لم ألتفت إلى كل ذلك، وإنما أخذت أداعب طفلها في حنان شعرت بعده بأنَّ عليَّ أن أتزوج وأنجب.

أمضيت أكثر من ساعة وأنا أتحدث إلى الطفل وأسأله وأداعبه وهو يفرح باهتمامي به. لكنني، في أعماق نفسي، أحسست بسؤال غريب يطل من أعماقي يسأل المرأة عن زوجها، حتى إذا ما قالت بأن زوجها هو الآخر ذهب ضحية سيارة في يوم عيد من العام الذي مضى، انحدرت دمعت من عيني وعرفت بأن لهفة المرأة على وليدها لها ما يبرره، فلقد خافت أن يمضي وليدها هو الآخر ويوم عيد كما ذهب زوجها الذي تحب.

وتداعت أمام عيني صور الحياة ومآسيها وأفراحها كشريط طويل يحكي قصة أمام العمر الذي أمضيته هناك في زقاق الطوال وفي القاهرة.

وأحسست بأن أم زياد جارتنا البعيدة كانت على حق عندما كانت تخاف على وليدها الذي مات أبوه.

بعض المصريين يقولون عن مستشفى القصر العيني بأن الخارج منه مولود. وهم، عندما يقولون ذلك، لا يبتعدون كثيراً عن الحقيقة، فالأعداد التي تدخل كل يوم المستشفى كبيرة جداً وبعض هؤلاء المرضى يأتون إليه بعد أن وصلوا إلى أخطر درجات المرض.

ربما كان السبب هذه الكثافة السكانية التي لا تدع الفرصة للتوعية الصحية كي تأخذ طريقها الذي يجب أن تصل إليه، ولقد شاركت عادات بعض الأسر من نحيب وعويل عند وفاة مريضهم على ترسيخ هذا المفهوم لدى العامة. أما أنا، فلقد تعلمت كثيراً في هذا المستشفى الكبير. لا أتحدث عما تلقيته من

علوم طبية على يد كبار الأساتذة فحسب؛ وإنما أردت أن أقول بأن هذا المستشفى صورة مصغرة لأجمل ما في هذه الحياة وأدقها وأصعبها وأقساها، ففي خباياه قصص وحكايا عرفتها وخفت من بعضها.

نعيش نحن الأطباء مع الأمل حتى عندما نجد أنفسنا غير قادرين على منح المريض ما يريده من علاج، هذا الأمل هو الذي دفعنا لأن نعمل في صمت، وأن نختزن في داخل أعماقنا كل ما يكتنف حياة مرضانا من ألم وأمل وحب وخوف ورهبة، سنوات العمر أراها تمضي، وهي بعد لم تتفتح أزهارها على ربيع الحياة ذلك الذي ننظر إليه دائماً نظرة مغايرة لكال ما نعايشه أو ندركه.

في الربيع تبدو أوراقنا وكأنها تتفتح لتستقبل مع زهوره ووروده ورياحينه ذلك الطعم الرائق الذي يظل مذاقه يطل بين الحين والحين، لكننا، مع كل هذا الربيع الذي نحب، لا ندري ماذا تخبئ لنا الأقدار نحن الذين نمضي في مسيرة الحياة، كأن قلوبنا قد أغلقت فلم تعد تتحمل أن تبدو في واقعية ما تريد.

في هذا الجو الذي أعيش، التقيت مع أمسي الذي مضى، ويومي الذي أرى، وغدي الذي لا أعرف إلا أنني سوف أكون فيه مع العمل الدائب المضني في طريق واحدة، وإني لعلى يقين أن ما سوف يشجعني على أن أمضي في إصرار عجيب هو حبي لهذه المهنة التي أفردت لها تلافيف قلبي وعقلي ومخي أيضاً.

في الغد سأودع القاهرة وأصدقاء القاهرة وكل من عرفت لأذهب بعيداً في رحلة العلم الطويلة التي أهيئ نفسي لها منذ مدة وفي قلبي إحساس النجاح الذي سأجد، أما أخي فقد زادت رسائله بكثرة، شعرت خلالها بأنه يستعجلني لأن أعود.

تذكرت الزقاق وأيام الزقاق وسنوات الحياة التي أمضيتها في الزقاق بين أصدقاء لا أزال أذكرهم وأذكر كل شيء عنهم.

أَوَ لَيسوا هم رفاق الأمس، وأصدقاء الماضي؟ فالحاضر في كثير من الأحيان لا يجود ببعض من عرفت، تذكرت وأنا أستعيد للسفر إلى بلدي حواراً دار بيني وبين ازدهار إحدى الزميلات عندما سألتني سهاد أمامها لم لا تفكر بالزواج والاستقرار في بلدنا؟عندها أجابت هذه الزميلة:

ـ ربما هو مثلي نذر نفسه للعمل فقط.

قلت بتعجب:

ـ ولكن المرأة هي أساس الأسرة تصنع من نفسها سياجاً يحمي صغارها وبيتها.

قالت:

ـ ولكن لست أنا هذه المرأة.

قلت:

ـ يعني أنك لن تفكري مثل بنات حواء بزوج وبيت وأولاد؟

قاطعتني وقالت:

ـ دعك مني فأنت لم تجب عن سؤال سهاد.

قلت في تلعثم:

ـ أتريدين الحقيقة؟

قالت بإيماء من رأسها:

ـ نعم.

قلت:

ـ وهل ترضين أن تأتي معي إلى أرضي وأهلي؟ فأنا لا يمكن أن أبقى طوال حياتي بعيداً عن موطني.

قالت:

ـ لا.. لسبب واحد ألا وهو أنني أرى أنَّ عليّ واجباً يجب أن أؤديه هناك في قريتي في الصعيد وإلا لما تغربت. نعم عليّ واجب يجب أن أمنحه لفتيات قريتي، أكون قدوة لهن في عمل دائب يرفع من شأن قريتنا.

قلت:

ـ وأنا كذلك. نحن يا سيدتي وجهان لعملة واحدة، أنت تريدين العودة إلى أرضك، وأنا كذلك دعيني أطلب منك شيئاً، هو أن نظل أصدقاء نحن لدينا الميول والاتجاهات ذاتها.

قالت:

ـ وهل يسمح مجتمعك أن تكون هناك صداقة بين المرأة والرجل؟

قلت:

ـ لا أدري.

وصدقوني بأنني ساعتها لم أكن أعرف ماذا أقول، إلا أنني، مع كل هذا، أخذت أفكر في أمر هذه الفتاة التي تصر على أن تبقى عانساً طوال الحياة. لكن الدكتور زهير الطبيب المصري المعروف وأستاذ ازدهار في مادة التخصص خيب ظني فيها لأنني علمت بعدها بأيام أنه في طريقه لأن يقترن بهذه المرأة التي قالت لي ما قالت.

يوم التقيتها مرة ثانية قلت لها:

ـ هكذا أنتن الحرائر تتمنعن وأنتن الرغبات.

ضحكت مني ازدهار وقالت لي:

ـ صد قني كنت أظن أنني سأرفض خطبته لولا تأثيره النفسي عَلَيَّ، أنسيت أنه أستاذي، ووجودي على مقربة منه يمنحني القوة لأن أمضي في أداء رسالتي؟

ـ والقرية يا ازدهار؟

ابتسمت استحياء وقالت:

ـ سأزورها بلا شك، وسأحاول أن أمنح أهلها بعض عملي.

قلت:

ـ مرة كل عامين؟

وانتفضت كمن لسعتها نحلة:

ـ لا بل في كل عام.

وصمتت، ولكنني أنا الذي لم أصمت. لقد أخذت أفكر في كل هذا الذي قالته ازدهار ثم قلت لنفسي:

ـ لا ، ستنسى ازدهار القرية وستكتفي بتواجدها في المدينة على مقربة من زوجها وأستاذها، فطالما أخذت المدينة العناصر الجيدة من القرية وصبغتها بصبغتها التي نعرف. تلك هي سُنة الحياة فالإنسان يبحث دائماً عن الأصلح في هذه الدنيا التي تموج بشتى ضروب المصلحة الذاتية الآنية منها والآجلة.

نظرت إلى عيني وقالت:

ـ أعرف ما تفكر فيه.

ثم ابتسمت ابتسامة صافية شعرت بعدها بأنها فعلاً قد اختارت الطريق الذي تريده الحياة لها رغم كل شيء، وإن كانت أرادت العكس في يوم من الأيام.

وشغلت عنها بعض الوقت بالتفكير في حياتي وظروفي واستعداداتي التي أراها تنطلق من مخيلتي على أشكال متباينة، لكنها، أي حقيقة الأمر، أوضح من أن لا أراها على ما هي عليه من تلون وكأنها هي الأخرى أشبه بهذا العالم الذي نعيش على أرضه، أشبه بموجات البحر الدافئة والباردة معاً، تتجاذبنا رياح الأمس واليوم والغد الذي نرمق. لكننا، قبل كل ذلك وبعد، لا نعدو أن نكون من طينة هؤلاء البشر الذين يعيشون على أرضه برغبة وبدون رغبة.

ومضيت ألملم نفسي بعيداً عن ظروف الحياة ورغباتها التي نعايش، وبدأت أنظر إلى الماضي والحاضر بعين نافذة ترى طريقها بالفعل من ظلال الخوف والأمل والحب، يدفعها إلى كل ذلك موروثات توارثناها عن الآباء والأجداد دون أن ندري أو نعرف أو حتى نحس، لكننا نواصل الطريق في دروب الأمس واليوم، تدفعنا إلى مواصلة الطريق رغبة جارفة بأن نصنع لأنفسنا تلك الهالة التي يرغب فيها الآباء والأمهات ونرغب في ظهورها نحن أيضاً لأنها مقومات هذه الحياة التي تمنحنا القوة لأن نصل إلى بر الأمان، رغم كل تلك الصخور التي تبدو في الأفق تطل بقسوتها على الطريق، تحفزنا بأن نقفز عليها بإيمان يجعلنا ندرك حقائق هذه الحياة التي نعايش، وحقائق هذا الإنسان الذي يعيش على ظهرها فرحاً حيناً وحزيناً في كثير من الأحيان.

وأطلت ابتسامة ازدهار وكأنها تكبر مع الشفق الذي يبدو ويطل على عالم اليوم من وراء السجف مستكملاً صور الإرادة التي منحها الله لهذا الإنسان الذي أورثه هذه الأرض وصنع منه خليفته عليها ليعيش فيها وعليها ويستمتع بخيراتها ويرمق تطورها وتقدمها أيضاً، ويساهم في رصف الجسور التي تدفع عجلتها إلى الدوران دون أية رتابة، وكأنها تبحث عن المجهول الذي نلهث جرياً وراءه، ونعاتب أنفسنا ونضحك عليها ونحن نؤكد بأننا سنلحق ذلك المجهول وندركه لكنه يكبر ويكبر، ثم يختفي قبل أن نختفي نحن عن الآخرين ليأتي غيرنا ويواصل المسيرة.

الفصل الثاني عشر

أشياء صغيرة يصبح لها مدلولها ومفهومها لدى الإنسان، لهذا لا زالت كلمات سهاد ترن في أذني وهي تقول وابتسامتها على شفتيها:

- بيت المرأة هو كتف الرجل الذي تسكن إليه وتضع رأسها عليه إذا كانت مطمئنة.

الطريق إلى لوس أنجلوس في كاليفورنيا طويل وطويل جداً وأنا في باطن الصندوق الذي يطير حول هذه الدنيا في أناة وصبر، والعديد من الأفكار تطفو على سطح أفكاري وأنا هنا في هذه المقصورة ومن حولي فتيات تبتسم الواحدة أكثر من ابتسامة الثانية الواحدة رغم ما يكابدن من مشقة وما يلاقين من متاعب.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسافر فيها من القاهرة إلى لندن، ومن لندن إلى لوس أنجلوس. فالطائرة التي اخترتها تعود لشركة أمريكية فاقت شهرتها الآفاق، ولكن، مع كل هذا، لم أكن مطمئناً كل الاطمئنان لهذه الرحلة. صحيح فأنا لم أفقد قلبي وعقلي في القاهرة ولم أتركه أمانة لدى أية أنثى، وإن عبرت في طريقي أكثر من أنثى ربما لأن مبادئي كانت ترفض مني أن أنصاع لما يجري من أحداث، وليقل كل من يقرأ كل هذا الكلام ما يقول، فأنا أعني كل حرف من الكلمة التي أقولها. قد تأسرني ابتسامة امرأة جميلة أو أنيقة، لكنني أستطيع الفكاك من أسر هذه الابتسامة بأسرع مما يتصور أي إنسان.

في الطائرة، التقيت بواحدة من هؤلاء اللواتي يعرفن كيف يأسرن الناس بابتساماتهن فأجبت على ابتسامتها بابتسامة قربت المسافات

بيني وبينها فمضت تحادثني حديثاً عابراً كلما مرت بمقعدي في هدوء حتى إذا ما نام أكثر ركاب الطائرة، إذ كانت الرحلة ليلاً، أخذت ألهو بكتاب أعددته لهذه الفرصة، جاءتني المضيفة سارة، هذا هو اسمها، بشيء من المرطبات لم أطلبه، قالت:

- لا بد أنك مثلي لا تستطيع النوم في الطائرة، ولهذا رأيت أن أتحفك بنوع من الشراب يعجبني بشكل خيالي فربما أعجبك مذاقه.

نظرت إلى وجهها، فرأيت ابتسامتها تطل على شفتيها بشكل أكبر، فقلت:

- شكراً.

لكنها لم تدع الفرصة تذهب من يدها وقالت:

- أنا من سكان لوس أنجلوس التي تقصدها.

عندها نظرت إلى وجهها وقلت:

- أنت تأتين إليَّ من السماء، فأنا لا أعرف من لوس أنجلوس إلا اسمها على الخريطة.

وضحكت.أحد الركاب استدعاها، فذهبت إليه مسرعة ثم عادت لي بعد أن لبت طلبه.

ولقد تحدثت إلى سارة كثيراً وعرفت بأنها لا تمانع أن تكون دليلي خلال الأيام الخمسة التي ستقضيها في لوس أنجلوس وشعرت بأنها ستكون بالنسبة لي شيئاً مفيداً أنا الذي لا أعرف تلك المدينة.

ولقد مرت ساعات السفر، رغم وجود سارة وحديثها، طويلة مملة لا أدري لماذا؟ ربما لأنها المرة التي أسافر فيها وأقضي كل هذه الساعات في الطائرة، حتى إذا ما وصلنا إلى مطار لوس أنجلوس، أخذت سارة بيدي وكأنها تحاول أن تحافظ على طفلها الغريب.

شعرت بهذا الإحساس الذي لا أدري كنهه، واستسلمت ليدها الحانية، وأصبحت أشعر بكثير من الشجاعة لأنها أصبحت بجانبي.

تلك الرحلة من رحلات العمر لا زلت أذكر تفاصيلها. ففي فندق حياة ريجنسي هناك على كرسي الغرفة الأنيقة، أمضت سارة معي بعض الوقت ثم

استأذنت لتزور أسرتها، بعد أن وعدتني بالعودة في الساعة التاسعة ليلاً لنمضي السهرة معاً، سألتها عن أسرتها، فقالت:

ـ أمي هي كل أسرتي.

ـ وأبوك؟

ضحكت وقالت دون خوف:

ـ لا أعرفه ولم أره.

ظننت أنه مات وهي صغيرة، فلمت نفسي على السؤال، لكن ضحكتها الصغيرة أعطتني مزيداً من الحرية لأن أسأل أكثر وأكثر، حتى إذا ما كثرت تساؤلاتي قالت لي في جدية:

ـ قد يصبح لدينا من الوقت الكثير الذي يسعدني فيه أن أشبع فضولك.

وابتسمت، فشعرت بأنها لم تنزعج من هذا الفضول الذي لم أعرفه عن شخص طوال سنوات حياتي الماضية.

مضت سارة لشأنها، وألقيت بجسدي المتعب على الفراش لأنخرط في نوم عميق تخللته أحلام كثيرة. لم أعِ عندما رن التليفون وأفقت من نومي على شيء، وتسلل إلى سمعي صوت سارة يسألني عما إذا كنت مستعدّاً للسهر، فأجبتها بالإيجاب وكأنني طفل صغير يسعد بلعبته الجديدة، ونزلت إلى ردهة الفندق بعد أن ارتديت ملابس الخروج لأراها في فستانها الرائع وتسريحتها الجديدة شيئاً مغايراً لأنثى الأمس التي رأيتها.

هتفت من أعماقي وقلت:

ـ أنت رائعة!

فشكرتني بابتسامتها ثم أمضينا بعضاً من الوقت في الردهة لتطلعني على برنامج السهرة الذي لم أعِ شيئاً منه.

قلت لها:

ـ أوَ لَيسَ من الأفضل أن نستأجر سيارة لتنقلنا إلى المطعم الصيني الذي فضلته؟

قالت:

ـ ولماذا؟ فسيارتي في مدخل الفندق تنتظرك في هدوء.

نظرت إلى عينيها نظرة حانية و كأنني قد وجدت المعين الذي سيساعدني هنا في البلد الذي لا أعرف، وأمضينا ليلة رائعة تناولنا فيها الطعام على أنغام لحن صيني خافت وعلى أضواء صغيرة أشعرتني بالسعادة، وانتهى العشاء لنعاود طريقنا إلى الفندق وهي تقول لي:

ـ لم أرد أن تكون سهرة طويلة فأنا وأنت متعبان، ولا بد أنك ستقدم أوراقك إلى الكلية غداً، وسأحضر صباحاً لآخذك إليها والاطمئنان عليك.

ثم ودعتني وهي تعدو مرة ثانية إلى سيارتها كمُهرة رشيقة عرفت طريق قدميها إلى الشارع الأنيق المتلألئ بالأضواء الكثيرة.

ترى ماذا يخبئ لي القدر في هذه المدينة الكبيرة التي يموت الهدوء في كل ركن من أركانها؟

في الغد، جاءت سارة لتصحبني إلى الكلية، في الطريق قالت بأن خالها أستاذ جراحة الأعصاب في الكلية التي سألتحق بها، وأنها تحدثت عني له حديثاً طويلاً، وأنه وعدها بأن يساعدني في تهيئة الظروف للحياة في الكلية بشكل يساهم في تخفيف ظروف الغربة عني.

استغربت تحمّسها لي، وشعرت بأنها فعلاً قد أسدت لي معروفاً، فعند مدخل الإدارة صافحني أحدهم بمحبة. قالت سارة:

ـ هوذا خالي إدوارد الذي حدثتك عنه.

ومضينا إلى مكتبه بعد أن استأذنت على أن تعود لإعادتي إلى الفندق بعد إنهاء ترتيبات تسجيل وصولي إلى الكلية.

أمضيت مع الدكتور إدوارد، أستاذ جراحة الأعصاب، يوماً حافلاً استطعت خلاله أن أصل إلى ما أرغب وأصبح بمقدوري أن أباشر مهام الدراسة من الغد، أنا الذي كنت أنظر إلى الموضوع بخوف شديد ربما لأنني لا أعرف أسلوب الحياة التي تمارس في جامعات أمريكا.

بدا الأمر في نظري أسهل مما أتصور، وعرفت بالفعل لماذا يتقدم الغرب على العالم العربي بأساليبه العلمية التي اخترعها من أجل تبسيط الأمور وعدم تعقيدها.

في المساء، جاءت سارة إلى الفندق. أمضينا أمسية رائعة شعرت خلالها بأنني أقابل واحدة من أفراد أسرتي.

تحدثت سارة عن كل شيء، عن أمها التي تزوجت والدها لفترة وجيزة ثم هرب إلى مدينة أخرى غير هذه المدينة مع زوجة جديدة، وهذا الوالد لا يرغب في رؤيتها وهي كذلك، وقالت لي أشياء أخرى فلسفت بها العلاقة التي كانت بين أمها وأبيها. لم أعد أفكر طويلاً في هذا حتى جاءت الصدمة الثانية.

فلأمها ولد وصبية لا يزالان صغيرين يعيشان مع أمها وأبيها الجديد الذي مات هو الآخر في سن مبكرة. مضى الوقت بنا، هي تتكلم وأنا أصغي، ثم نظرت إلى ساعتها وقالت لي إن عليها أن تذهب الآن وإنها ستعود إليَّ صباحاً لتريني أكثر من شقة بدل البقاء في الفندق الذي يكلف كثيراً. وأشارت بأنها لا تمانع بأن تستأجر معي الشقة مناصفة وبأن تساهم في تكاليف البيت، وقالت بأنها طلبت نقلها للعمل داخل المطار بدلاً من "الشحططة" على الطائرات هنا وهناك.

وأفرغت حقيبتها بما تحتوي من أحاديث وهي تضحك، حتى إذا ما كانت النهاية قالت لي وهي تبتسم:

ـ أوَ لا تقول شيئاً؟

قلت وأنا في شيء من الخجل:

ـ ماذا تريدينني أن أقول؟

قالت:

ـ حدثني عن حياتك، عن أسرتك، مجتمعك، بلدك، فأنا أكاد لا أعرف شيئاً عن بلادك سوى أنها أرض البترول.

صمتت هي، ومضيت أنا إلى حقيبتي لأعطيها كتاباً مصوراً عن الوطن والأرض التي أحب، قلت لها:

ـ نتحدث عن كل شيء وبالتفصيل بعد أن تقرئيه.

حملت الكتاب بين يديها وودعتني بعد أن قالت:

ـ لقد أخبرت أمي عنك وعن لقائي معك، واتفقت أنا وهي على دعوتك

لتناول طعام العشاء في بيتنا الصغير خارج هذه المدينة التي لا تهدأ.

في الصباح التقيت بسارة وهي جزلة مشرقة، ومضينا لنرى أكثر من شقة في تلك المدينة الكبيرة حتى إذا ما انتهينا من رؤية آخر شقة سألتها:

ـ وأنت أين تقطنين الآن؟ ألست مع أمك؟

قالت:

ـ لا ...أعيش في غرفة استأجرتها من خالتي، فأنا، كما تعرف، لا أستطيع استئجار شقة بمفردي، كما أنني أكبر من أطلب من أمي أن أعيش معها في بيتها الصغير.

ثم عاودتُ السؤال:

ـ وهل أجد غرفة ثانية لي عند خالتك؟

قالت:

ـ نعم.

ومضينا لنرى شقة خالتها التي لم تكن موجودة، وإنما كان زوجها في الشقة في تلك اللحظة.

قابلني الرجل باحترام شعرت بعده بأن كل ما عرفته عن زنوج أمريكا مبالغ فيه، فقد كان زوج خالتها من هؤلاء الذين جاءوا من أفريقيا يوم كان القراصنة يجلبون الرجال والنساء منها بقوة وقسوة.

واتفقت مع الرجل على استئجار الغرفة التي تواجه غرفة سارة بمبلغ شعرت بأنه غير مكلف، ثم أمضينا لجلب أمتعتي، حتى إذا ما استقرَّيت في غرفتي الجديدة، مضيت إلى الكلية بمفردي هذه المرة، على أمل اللقاء ليلاً لتناول طعام العشاء عند والدتها التي استقبلتنا بكثير من الحفاوة، وشعرت بأنني أكاد أعرف هذه المرأة لكثرة ما تحدثت سارة عنها.

وكان العشاء على أضواء الشموع التي اختارتها أمها لمناسبة لم تطلعاني عليها ولم أعرف ما هي حتى جاءت سارة بتورتة ميلادها بحيث إن أمها قد ضربت عصفورين بحجر، دعتني أنا الزائر الغريب، واحتفلت بيوم مولد ابنتها في هدوء، وتحدثت إليَّ الأم عن طفولة سارة وشقاوتها، وكيف استطاعت أن

تمنحها الفرصة لأن تدرس حتى تنتهي من الجامعة، وساعتها عرفت بأن سارة من خريجي كلية الحقوق التي تعتبر ذات شأن في الدراسة الجامعية الأمريكية، فقد كان طلابها وطالباتها من الذين أنهوا دراسة البكالوريوس أولاً.

وسألت سارة لماذا لم تعمل في حقل دراستها؟

فضحكت وقالت:

ـ أوَ تُريدُني أن أدافع عن السود أو عن الهنود الحمر؟ أم تريدني أن أدافع عن حق هؤلاء المجرمين المنتشرين في طول المدينة وعرضها؟ قد أكون غبية لكنني، بعد أن أمضيت سنوات التدريب لدى أشهر مكاتب المحاماة في لوس أنجلوس، شعرت بأن العدالة لا تأخذ مجراها في هذه المدينة، وأن المجرم الذي يملك من المال الذي يستطيع أن يدفعه لمحام شاطر قادر على الهرب من جريمته والنفاذ من سيف العدالة، ولهذا كرهت المحاماة، وبحثت عن مكان أرى من خلاله العالم حتى إذا ما كلت قدماي من البعد والسفر والترحال، فكرت في العودة إلى الحياة في مدينتي لأرمق الفجر الذي أريد أن أراه ولم أره منذ مدة طويلة.

الفصل الثالث عشر

لم تعد الحياة في أمريكا تبدو بالشكل الذي كنت أظنه عندما أتيت أول مرة. فالعالم لم يعد أرضاً وجبالاً وبحاراً، العالم الذي احتوى هذه الملايين من البشر أرحب من أن نقطع مدنه وشواطئه وموانيه بأنظارنا. أصبحت أرى العالم شيئاً جديداً؛ أراه لباً يخفق، أكاد أسمع نبضاته تتداخل في أعماق عروقي، أنا الذي جئت من زقاق الطوال في طيبة الطيبة كثيراً ما ناقشت نفسي في كل هذا؛ أراه لكنني لم أجد مثلاً لحياة أبناء زقاق الطوال وأسر الزقاق ومُثُلهم وقيمهم وعاداتهم.

لا تقولوا بأنني أحاول أن أبرز مظاهر الحياة في ذلك الزقاق المليء بالحب والتعاون والإخاء وأقارنها بما أراه وأجد أوراق المدن التي رأيتها والتقيتها تكاد تتساقط أمام ناظري، أنا الذي عشت تحت ظلال تلك الشجرة الأصيلة هناك على ضفاف العتيق وبين جداول المياه الرقيقة في قباء والعوالي وسيدي حمزة والعيون والقربان، أجتر معاني كل هذا الحب الوارف وأستظل سماء طيبة الصافية.

قد يكون الناس غير الناس والعالم غير العالم، لكننا عندما نتلاقى وتتلاقى أعيننا في ظل وهم البحث عن الحضارة، ندرك معاني كل هذه الفروق وتستولي على أنفسنا فرحة المنظر وكآبته أيضاً. ربما لأن العجينة التي صنعت إحساسنا وتقاليدنا تختلف كل الاختلاف عن كل هذا الذي أراه وأراقبه بالحب والإعجاب تارة والكره تارة أخرى.

سنوات العمر مضت، تناثرت خلالها نفسي بين الحب والكراهية مع كل هذا، أظل قوياً متماسكاً، أعرف من علوم الدنيا بمقدار ما

أرى أنها توافق نظرياتي ونظريات أهل الزقاق فطالما ساءلت نفسي:

ـ ترى لماذا يسير الناس بهذا الجزء من العالم بكل هذه السرعة وكأنهم في سباق مع الزمن؟

فأجد الإجابة تتلخص في جملة واحدة:

ـ عندما يفقد الإنسان الأمان على أرضه، تراه يلهث ويلهث بحثاً عن هذا الأمان المفقود الذي يتمثل عند أحدهم في توفر المسكن اللائق والمال الوفير والثقافة الواسعة والمركز المهيب، لكن النظرة تختلف بين إنسان وآخر فنجد البعض ويجري في هذه الأرض ليمنح نفسه وأهله الزاد الذي هو في حاجة إليه. قد تختلف النظرة بين هذا الإنسان وذاك، لكنها تجتمع كلها في الرغبة في الوصول إلى بر الأمان الذي نفقد، فالعالم المحتضر فقد أمنه وأمانه منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية.

سارة هذه الفتاة الطيبة التي أزرع في قرارة نفسها أشياء كثيرة عن تقاليد أرضي لم تكن تمانع كثيراً في التعرف على هوية أبناء الزقاق. ورغم أن هذه الفتاة العجيبة منحتني فرصة التعرف على المجتمع الجديد بصورة أكيدة، إلا أنها كانت متفقة معي في كثير من المناقشات التي دارت بيني وبينها عن أشياء كثيرة في هذا المجتمع الجديد، مجتمعها الذي تعيش.

قالت لي مرة وأسفت لأنها جاءت إلى الحياة على هذه الأرض:

ـ إن الإنسان، عندما يولد على أرض أية مدينة، لا يكون له أي دخل في تواجده عليها، وقد يحبها أو يكرهها، ولكنها يظل مشدوداً إليها حتى يجد من يشده إلى أرض أخرى.

سارة أصبحت واحدة من القارئات الملمَّات بكل ما يصلني من كتب عن عالمنا الشرقي بعاداته لدرجة قالت لي يوماً بأنها ستقوم بجولة سياحية ترى فيها كل هذه البلدان على طبيعتها. ضحكت وقلت:

ـ وربما يقدر لك ذلك ويتسنى لي عندما أعود إلى أرضي أن أستقبلك وتستقبلك زوجتي وأسرتي أيضاً.

وبدهشة قالت:

ـ أَوَ يُمكن أن يأتي هذا اليوم؟

قلت:

ـ نعم، فالعالم كما ترين صغير وصغير جداً، ولهذا نجد أنفسنا من خلال ظروفنا ومعايشتنا لأحوال الناس، نرى أشياء كثيرة قد نقبلها أو نرفضها، وفي كلتا الحالتين نحن نبحث عن أنفسنا فلا نجدها لأنها تسربت من خلال سرعة هذه الاتصالات وجري العالم ولهاثه وراء المجهول والمعلوم في آن واحد. وقد نجدها أيضاً في نفس الموقع والظروف.

الناس في هذا العالم يتغيرون، تتغير أحوالهم وظروفهم وحتى عاداتهم وتقاليدهم، ذلك شيء هام وضروري التقيت به وحاولت أن أستعيد حياة الزقاق وأهل الزقاق، لكني، عندما أمعنت النظر في أمر الزقاق، وجدته هو الآخر أصبح جزءاً من الماضي، يحبه البعض وينساه البعض ويكرهه البعض الآخر، لأن طبيعة العصر تحاول دائماً أن تقفز على حواجز الماضي وأن تهيل التراب على بعض ذكرياتها بحثاً عن الجديد الذي سيصبح قديماً بعد زمن. ولقد أغمضنا أعيننا عن الماضي وذكرياته حتى إذا تداعت أجزاء صغيرة من كل تلك الذكريات لملمتها في حب.

في المدينة العجيبة، لوس أنجلوس، نجد جميع أنواع الجنسيات من البشر في العالم؛ فهذه الوجوه التي تختلط دماؤها ونظراتها وظروفها وعاداتها استطاعت أن تنصهر في هذا المجتمع الأمريكي لدرجة تجعل الزائر لهذه المدينة يظن نفسه وكأنه في كرنفال بشري من جميع أنحاء العالم. ورغم هذا الانصهار، إلا أن تكاثر المطاعم وأنواع الأكل وتناثرها في المدينة يجعل الإنسان يحس وهو مكانه كأنه في أكثر من قارة من قارات هذه الدنيا.

الدكتور كميل لبناني لا يعرف العربية، جاء مع والدته ووالده إلى أمريكا وكبر فيها وتعلم في جامعاتها حتى أصبح من أشهر أطباء القلب. أحس به، وهو العالم، وكأنه يجهل كل الجهل أحوال موطنه الأصلي والتي تحاول الصحافة الأمريكية بتعليقاتها المطولة تحليل أسباب هذه الحرب الأهلية التي تدور رحاها هناك في لبنان التي لا يدري عنها شيئاً.

لم أكن أظن أنني سأصبح على صداقة عميقة بالدكتور كميل ربما لأنني

عندما التقيته ظننته، وهو العربي الأصيل، سيقابلني بما تعودنا نحن عليه في مجتمعاتنا، لكنه لم يكن كذلك. كان أشبه بأي أمريكي نلتقي به في أي مكان في هذه الدنيا، ولهذا لم آلفه. ولكن بطول المعاشرة أصبحت أميل إليه وأسأله عن أشياء كثيرة أراها ولا أفهمها فيجيبني في انفتاح كبير.

في احتفال صغير أقامه الدكتور بمناسبة مرور عشرين عاماً على زواجه دعيت إلى بيته بشارع "وود ستوك رود" التقيت بالعديد من الأمريكيين ذوي الأصول اللبنانية. شعرت تلك الليلة أن هناك جذوراً صغيرة تشد الناس بعضهم إلى بعض رغم انصهارهم في مجتمعهم الجديد، فتراهم يميلون إلى بعضهم عفويّاً ودون أي تخطيط.

عندما التقيت بشقيقة الدكتور كميل التي لم تتزوج بعد، شعرت بأن هذه الأنثى أقدر على معرفة لبنان أكثر من كل هؤلاء الموجودين لا لأنها قرأت الكثير عن الشرق الأوسط، وإنما لأنها تحاول دائماً أن تزور موطن أجدادها الأصلي. تحدثت إليها طويلاً وتحدثت هي أيضاً عن بيتهم الصغير الذي زارته مؤخراً للمرة الثانية في قريتها التي أحبَّتها ولهذا تذكر جيداً كيف أمضت شهراً كاملاً مع سيدة عجوز من أسرتها عن بُعد، تتحدث إليها بلغتها العربيةِ المكسرة للتعرف إلى الماضي والحاضر.

ولقد أعجبت رشا بنوع الحياة التي تمارسها الأسرة اللبنانية، وقالت بأنها التقت بأسرة سعودية أثناء تواجدها في بحمدون، ذكرت لي اسم العائلة، وشعرت بأن هناك نوعاً من الحياة تمارس في بلادي بأسلوب أفضل حيث تلتف الأسرة بعائلها وأهلها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأرضها وتقاليدها. ولكم سعدت برؤية هذه الإنسانة التي أحسست أنها تشاركني أفكاري رغم أنها تعيش في محيط مغاير لمحيطي، وعندما نمت روابط الصداقة بيني وبينها والتقيت بها أكثر من مرة سألت نفسي:

ـ ترى أوَ يمكن أن أقترنَ بهذه الفتاة؟

وجاءت الإجابة على ما أتوقع، فأنا، على الرغم من أنني أميل إليه، إلا أنني أرى أنها لا يمكن أن تصبح زوجتي في يوم من الأيام. فلقد عاودني الحنين إلى الزقاق وأهل الزقاق وتقاليد الزقاق الذي ذهب مع الريح بينما تموج

هذه المدينة الجميلة "لوس أنجلوس" بقذارات شتى صنعها إنسان هذه الأرض بحماقاته ومنحها رعايته لتبدو وكأنها جزء من تاريخه الشقي، في الوقت الذي تبدو في الأفق علامات صحو صغيرة لا يمكن لها أن تبدد كل هذه الغيوم السوداء التي يحلو لها أن تطل لتعكر وجه الصفو على أرضها بحرية.

لكنني، عندما أنتقل إلى معامل الكلية التي أدرس وأبحث مع كل هؤلاء الباحثين، أرى الوجه النقي الآخر لهذه المدينة الذي كان ينتشلني من زحمة أفكاري التي تراكمت وأنا أقرأ كل هذا السيل العارم من أخبار الجريمة. يبدو المكان أمام عيني صفحة بيضاء نقية نقاء كل هذه الثياب التي أراها تتمخطر هنا وهناك تخطو نحو العلم خطوات واثقة وكبيرة.

لقد تعلمت الخير وعشت فيه، لذلك يصدمني بعض هذه المظاهر التي أراها من حولي، ولكن يغسل قلبي وينقيه فترات تواجدي بين كل هؤلاء الطيبين الذين وهبوا حياتهم للعلم، ووضعوا للإنسانية أشياء كثيرة تتباهى بها أمريكا اليوم وبعد اليوم. ولكن شاب الثوب الأبيض بعض الشوائب، فهل يستطيع الناس إزالة كل هذه الشوائب كما كانت تفعل أمي في الزقاق وهي تغسل ملابسي التي اتسخت بعد يوم حافل ألعاب الصبية من أترابي هناك في الطريق الترابي المتعرج الذي ألمح صوره تبدو أمام عيني مرات ومرات وكأنها تحاول أن تزيل ما علق بنفسي من جراء ما أراه من سلبيات لأفكر فقط بما تتمتع به هذه البلاد من حضارة ومدنية وتقدم؟

ثم لماذا أنسى سارة ومجتمع سارة في غمرة انشغالي بهذا الذي أراه؟ أليست سارة وأمها والدكتور كميل وأخته وخالة سارة أليسوا جميعاً جزءاً من هذا المجتمع الذي قدر لي أن أجيء إليه عن رغبة طمعاً في الوصول إلى الذروة من العلم؟

ولقد أفرد الكتاب صفحات كثيرة كنت أقرأها في صمت عرفت من خلالها تاريخ هذه الحياة التي يعايشها الناس اليوم على هذا الجزء من العالم الذي ننظر إليه على أنه عالم متطور ومتقدم، فمع كل مظاهر هذا التقدم، نرى كيف استطاعت المدينة الجديدة أن تزيل آثار الأواصر الأسرية وأن تزرع هذا البون

الشاسع بين من يملك ومن لا يملك رغم الظروف المتاحة وغير المتاحة، كما ساهمت السينما الأمريكية في تفتيت عناصر الخير في نفوس بعض فئات الناس التي كانت تنظر إلى السينما على أنها مدرسة نتلقى من خلالها دروساً لا أدري كيف أسميها. ترى هل مع كل هذا الذي قلت أستطيع أن أعرف مواطئ قدمي على هذه الأرض؟

سيقول البعض إنني مجرد عابر سبيل أعايش الحياة هنا بحلوها ومرها ثم أمضي. وإن كان هذا القول حقيقياً في بعض الأحيان، إلا أنَّه ليس حقاً كله؛ فالشباب من أمثالي الذين قدر لهم أن يصلوا إلى هذا الطرف من العالم لا بد وأن يكون لهم رأي فيه بعد كل هذه الممارسة.

ولقد عرفت رأي أولئك الذين اختاروا البقاء هنا من بعضهم فرأيتهم، رغم كل مظاهر البذخ والحياة المريحة، يحنّون دائماً لبلادهم ومجتمعاتهم وينعون على هذا المجتمع بعضاً من عاداته وتقاليده لا سيما بالنسبة لحياة الأسرة والبيت.

رأيتهم يخافون على بناتهم وأولادهم من هذه الحرية التي يمارسونها في هذا المجتمع. رأيت بعضهم ينعي ذلك اليوم الذي قرر فيه البقاء، ومع هذا، أجدهم يستمرون في حياتهم رغم كل المآسي التي تحيط بهم وبأسرهم وأولادهم وبناتهم.

ترى هل يقدر لي أنا الآخر أن أظل هنا إلى الأبد؟ استعذت بالله من هذه الفكرة، وسرحت بأفكاري مع زقاق الطوال وأهل زقاق الطوال ورفاق ذلك الزقاق العريض الذي احتل مكانة في التاريخ، فخداع أبناء الزقاق ليس سهلاً رغم كل الطيبة التي تتمثل فيهم رغم خداع الأمريكيين أنفسهم بأنفسهم، فهذا الشعب الذي وصل إلى قمة العلم بقدراته غير قادر على فهم تاريخ الشعوب وآمالها واحتياجاتها لأسباب عدة يطول شرحها الآن على ما أظن، ولطالما تحدثت إلى نفسي وقلت لها:

ـ ليت أولئك الذين صنعوا التاريخ يستطيعون قراءته، لأن قراءة التاريخ

ملك لأولئك الذين يأتون بعدهم، أما الذين يكتبونه فلنا معهم حديث آخر.

حديث لا يزال يتردد في أعماق أعماقي يريد أن ينطلق وينطلق وينطلق... ومع هذا، يظل هادئاً ساكناً في أعماق أعماقي يبحث وينقّب في ظروف الأمس واليوم والغد الذي يجب أن تراه أعيننا نحن أبناء هذا الجزء من العالم، والشرق الذي يقولون عنه بأنه لا يمكن أن يلتقي مع الغرب وحياة الغرب وحضارة الغرب وظروفه أيضاً، بل وعاداته وحياته التي يمارسها أبناؤه على أرضه.

الفصل الرابع عشر

"وللناس فيما يعشقون مذاهب" هكذا يقول الشاعر العربي! وأنا أعشق الحرية وأحبها، ولكن ليست تلك الحرية التي أراها تمارس بين شباب كاليفورنيا. الحرية في نظري شيء يغاير كل معاني هذه الحرية التي يمارسها الشباب.

سارة، بعد طول العشرة، قبلت أن تقترن بي، وقبلت أن لا تنجب طوال وجودي في لوس أنجلوس، ولكن الأمر سيختلف عندما أعود إلى بلادي. ولأول مرة أجدتني أكذب بهدوء، وأحاول أن أغلف كذبي بشيء من الحب والحنان.

أكذب إذا قلت إنني أكرهها. قد أكون معجباً بصلابتها وقدرتها على اكتساب مواقع قدميها بين كل هذه الأشواك التي تدمي الأقدام.

ترى لماذا قبلت بي هذه الفتاة زوجاً بعد كل هذه الشهور التي أمضيناها سوياً لدى خالتها هي في غرفتها وأنا في غرفتي؟

لطالما قالت لي بأنها لم تعد قادرة على أن تفهمني بعد كل هذه الشهور التي أمضتها برفقتي. وكنت أضحك من كل هذا الذي تقوله حتى استقر أمري على أن أتزوجها. ويوم تزوجتها، عادت تذكرني بالأيام التي مضت. سألتها بعد الزواج:

ـ هل فهمتني الآن؟

وبابتسامة صغيرة أجابت:

ـ لا، وألف لا.

فضحكت وتناسيت الأمر. ومضت حياتي في الشقة التي اخترناها

سويًا، وازدادت حاجتي للمال وطلبي إياه من أخي عن ذي، فبعث لي برسالة مطولة يسأل عما إذا كنت قد تزوجت، لكنني لم أجب على هذا السؤال في هذه الرسالة وعزوت حاجتي للمال نتيجة وضعي الجديد بعد أن أصبحت مهيأً للنجاح في شهادة البورد الأمريكية وللمصاريف التي أحتاجها في حياتي الجديدة.

ولم يبخل أخي عليَّ بالمال، وإنما بعث لي بكل ما طلبت وبحب.

ولقد استمرأت وضعي الجديد، فإلى جانب ما أناله من نقود من أخي، أصبحت آخذ مرتباً لا بأس به من مستشفى الكلية. وفي الحقيقة، لقد خلت حياتي من المتاعب بعد أن تزوجت سارة التي أصبحت تحرص دائماً على توفير السعادة لي بمفهومها، ولم أكن أبخل عليها بهداياي التي كانت تلومني عليها وتطالبني أن أقتصد بدلاً من تبذير المال فيما لا طائل تحته.

ربما كانت سارة تعجبني بكل جوارحها ومشاعرها لدرجة أصبحت أخاف منها، أخاف من هذا الحب. لقد انسلخت هذه الفتاة عن مجتمعها لتصبح شيئاً مغايراً لما رأيتها عليه، فأضحت تدور في فلكي كالنحلة تستعذب كل التضحيات من أجل أن تقيم هذا البيت وأن تضع بداخله أسرة، تماماً كما كانت تصنع نساء الزقاق.

ولقد أحسست بحاجتها الكبيرة ولهفتها المتزايدة لأن تصبح أمًّاً، رأيت ذلك في عينيها وهي تلتقي بعيون الأطفال في كل مكان تراهم فيه. ومع هذا، ازداد إصراري على أن لا تنجب. كان تخطيطي أن أترك هذه الفتاة يوماً ما عندما أعود إلى بلدي، وكان هذا يؤرّقني كثيراً بعد أن كنت لا أهتم بكل هذا. لقد أصبحت أحس بأنني غشاش كبير، فقد كان من المفروض أن أقول لها كل شيء قبل أن أتزوج منها. ولقد حاولت أن أعرف رأيها فيما أفكر فيه فقلت لها ونحن نتناول طعام العشاء في الشرفة الكبيرة:

ـ سارة...

والتفتت بكل حواسها وقالت:

ـ نعم، ماذا تريد من سارة يا حبيبي؟

قلت لها وأنا أحاول أن أجعل صوتي رائقاً لا اضطراب فيه:

ـ لقد فكرت كثيراً بأن نقضي إجازة نهاية الأسبوع في سان فرانسيسكو فما رأيك؟

قالت، وأنا أدرك بأنها بدأت تعي شيئاً واحداً بأن هناك موضوع لا أستطيع أن أقوله لها، فصمتت ثم قالت:

ـ كما تريد. لكنني أشعر بأنك تريد أن تقول شيئاً لم تقله.

ـ لا.. لا.

قلتها في شيء من الكلفة، ومضيت إلى غرفة نومي حتى لا تلتقي عيني بعينيها تلك اللحظة، فتكتشف عيناها ما أنا مزمع عليه.

في سان فرانسيسكو، التقينا أنا وسارة وصديقة قديمة لها تزوجت أحد العراقيين الذين درسوا واستقروا في أمريكا، ولقد دعتنا تلك السيدة إلى عشاء عربي في بيتها بعد أن عرفتنا بزوجها عبر التليفون.

في ذلك البيت الصغير، استرددت وعيي وشعوري وأحسست بعروبتي في تلك الغربة رغم أنني بعيد آلاف الأميال. لقد منحني سعيد زوج لارا صديقة سارة هذا الإحساس، فطراز البيت من الداخل أشبه ببيوتنا في البساتين خارج المدينة، مع ظلال كبيرة من التذوق الفني. أما جدران البيت، فكانت تحمل صوراً لمواقع نقدسها جميعاً. فإلى جانب صورة مسجد الحرام والمسجد النبوي، كان هناك رسم كبير للمسجد الأقصى. شعرت به وهو يزرع في نفسي أصداء أليمة كثيرة لا أريد أن أطيل فيها. عندما سألته عن صاحب الرسم، أجابت لارا بهدوء:

ـ إنه رسمي، نقلته عن صورة قديمة أراني إياها سعيد.

أخذنا ندردش أنا وسعيد كثيراً عن الوطن العربي وآماله وآلامه حتى إذا ما بدر الانزعاج على وجه سارة ولارا، أدرنا دفة الحديث إلى أشياء صغيرة جدّاً لكنها هامة.

أمضيت وسارة أياماً ثلاثة كانت من أروع الأيام، فلقد شعرت بأنني استطعت أن أسعد هذه المخلوقة التي سأفترق عنها يوماً من الأيام رغماً عني.

وعدت إلى لوس أنجلوس أواصل حياتي في شيء من الهدوء يشوبه في بعض الأحيان شيء من المرارة، فالأيام تمضي وعودتي إلى بلدي أصبحت قريبة وسارة كما هي لا تدري من أمري شيئاً، حتى إذا ما تقدمت لنيل شهادة التخرج، أحسست بأن سارة دائماً ساهمة واهمة تتحدث معي في شيء من الحب محوط بحزن تحاول أن تخفيه حتى كانت تلك الأمسية من ليالي الربيع الجميلة، وقد التقت عيناي بعيني سارة في تساؤل أوشك أن يفضح أسراري التي حاولت أن أهرب بها بعيداً عنها.

قالت سارة وهي تحدثني في هدوء:

ـ قد أثق بك أكثر مما أثق بنفسي، إلا أنني اليوم أجد نفسي غير قادرة على المضي في هذه الثقة، وأشعر بأن من واجبي أن أتحدث إليك بكل صراحة. لماذا ترفض أن أنجب منك ما دمت زوجتك؟

ولم أَدَعِ الوقت يضيع طويلاً بل قلت لها:

ـ قد يكون السبب أنانيتي لأن نعيش سويّاً اكبر مدة ممكنة دون أن يكون لنا فيها شريك.

نظرت إلى وجهي وقالت:

ـ وإذا أصررت؟

قلت دون تردد:

ـ أرفض هذا الإصرار وأعتبره نوعاً من العصيان لإرادتي لا أقبله كرجل شرقي.

وصمتت لكن عيناها لم تصمتا. كان صمتها أقسى من كل كلمة تقولها، ولكني لم أضعف، واتفقنا على أن نترك الإنجاب حتى عودتي إلى بلدي وتهيئة الجو لقدومها، ومن ثم تصبح قادرة على استقبال المولود الذي نريد وعلى أرضي أنا كما ذكرت.

وتهيأتُ للسفر بعد أن رتبت جميع أموري مع الكلية وحان وقت سفري لأفاجأ بسارة قبل ليلة السفر وهي تقول:

ـ أخاف أن أفقدك يا وليد، فقلبي يحدثني بهذا.

ضحكت وقلت:

ـ تفاءلي. سأصل بسلامة الله إلى بلدي دون أن تسقط الطائرة.

قالت:

ـ ما هذا عنيت، وإنما أخاف أن تنسانا هناك وتنشغل بحياتك الجديدة!

لم أقل شيئاً بل قبلت رأسها ورجوتها أن تهدأ، حتى إذا حان وقت الوداع قالت لي:

ـ أو تأذن لي أن أعود إلى العمل؟ فقد أضيق بالوحدة في غيابك.

قلت:

ـ لا بأس... ولكن بشرط أن تعديني بأن تنتظري طلبي للتوجه إلى أرضي وبلادي.

وهكذا عدت إلى جدة لألتقي بأرضي وأسرتي وأصدقائي وأنشَغلُ فيما أُوكِلَ إليَّ من عمل، وإن كنت لا أنسى بأن أتصل بسارة بين الفينة والفينة، وأن أكتب إليها رسائل مطولة وأبعث إليها بما يتوفر لديَّ من نقود.

كانت كل مكالمة هاتفية اجريها معها تسألني متى يقدر لي أن أجيء لعندك؟ فأعتذر وأقول لها بأن ذلك سيكون قريباً، حتى مر على سفري من لوس أنجلوس ستة شهور أحسست بعدها بأن حياتي أصبحت خواءً أحاول أن أملأه بأي شيء. وتذكرت كيف كانت رحلتي إلى جدة عندما ركبت الطائرة من نيويورك إلى جدة لألتقي على ظهرها بأكثر من مضيفة.

كنت أرى في وجه كل واحدة منهن وجه سارة الذي لم يغب عن ناظري لحظة واحدة. وأخذت أفكر كثيراً في معنى هذا الإحساس الذي أراه يملأ كل جوانحي، فأدركت أنني، لطول العشرة، أصبحت أحب تلك الأنثى التي قدمت لي خدماتها دون أن تعرف من أنا.

ولكن، هل كنت أستحق منها كل هذا الحب؟ وهل كانت تستحق مني هذا التجني؟ لا أدري! ربما كنت مقصراً، بل غادراً لدرجة كبيرة بالنسبة لهذه المرأة التي منحتني أجمل الأوقات وأسعدها فأعطيتها الشقاء. ومع هذا، فكرت بأن أطلق سارة وأنسى كل تلك الليالي الرائعة، فربما وَجَدَت إنساناً آخر غيري

يمنحها ما لم أستطع أن أمنحها إياه.

وحاولت أن أنخرط في عملي لأشغل فكري وأنأى به عن أن يلين أو يلومني. ذهبت بعيداً بعد أن طلقتها بعد أن اخترت زوجتي من وسطي الذي أعيش فيه. ومضت أيامي هانئة لا ينقصها سوى الذكريات التي أحاول خنقها في أعماقي.

قد أحس كثيراً بأنني قد أجرمت في حق هذه المرأة التي أحبتني خصوصاً وأنني لم أتزوج عن حب، لكنني أصمد أمام كل هذه التساؤلات التي تطل دائماً من بين عيني. ومضت السنوات، ورزقت بطفل وطفلة ملآ عليَّ حياتي بعد أن كبرَا. أما سارة، فقد كانت لا تنسى بأن تبعث لي ببطاقات تهنئة بمناسبة ذكرى أيام ميلادي وغيرها، فكنت أجمعها في ظروف وأضعها في مكتبي لأطالعها بين الفينة والفينة.

الفصل الخامس عشر

كثيرة هي الأحلام والأماني التي تشغل أذهان الناس في فجر أعمارهم، حتى إذا غذّوا السير ولم يتحقق شيء منها أو بعضها نسوها مع الأيام. أما أنا، فلم أنسَ سارة، أغالب نفسي كثيراً وأحاول أن أبعدها عن محيط تفكيري خصوصاً عندما أواجه زوجتي سعاد التي لم تكن تعرف شيئاً عن ماضيَّ إلا الذي قلته لها.

وتمر الأيام بطيئة لولا نورا ابنتي ووسيم ابني اللذان شعرت بأنهما كبَرا أكثر من اللازم وأصبحا يناقشانني كثيراً عندما أسرح بتفكيري.

لقد أحب ولداي مهنتي، فالتحقا بكلية الطب، وأصبحا مكان اعتزاز وفخر لي فقد كانا من المبرزين في الدراسة.

ولقد مرت أمامي وأنا في مزيد من الشوق لذكريات الأمس التي افتقدتها بعد عودتي إلى بلدي وإلى كثير من تلك التقاليد التي عرفتها يوم كنا نعيش في زقاق الطوال أيام الطفولة وبداية الشباب. ترى أوَ يُمكن أن تمضي أكثر هذه التقاليد مع الزقاق الذي هدم أم أن عجلة الحياة تغير كثيراً من المفاهيم؟

عندما تحدثت مع نورا ابنتي عن الماضي ضحكت وقالت:

ـ تلك ضريبة العصر، فنحن نتقدم يا أبي، وأسلوب الحياة اليوم يختلف بلا شك عن أسلوب الحياة أيام طفولتك، ثم لا تنسَ أن التعليم الذي فتح آفاقاً جديدة للمرأة وأساليب الحياة العصرية قد يكون هو السبب في قفل نوافذ الأمس الذي عرفت.

أما ابني وسيم، فلم تكن له القدرة على المناقشة إلا فيما يختص

بعلومه التي يدرسها، فقد كان يشاركنا حديثنا وهو يستمع مثله مثل أمه سعاد التي أحسست كثيراً أنها كبرت كثيراً وأصبحت تحمل بصمات واضحة من أسلوب العصر الذي نعيشه.

وجاء مرض زوجتي مفاجئاً انشغلنا جميعاً فيه لكنها كانت أشبه بمن يقاوم المرض بلا جدوى. ولقد حط عليها ذاك الوافد القاتل دفعة واحدة، أما ولداها فقد كانا يعرفان نوع مرضها وما تعانيه. كنا نشفق عليها كثيراً، ونرى أنها كانت الأقدر على تحمل المرض الذي يشغل بال إنسان اليوم المعاصر.

لم اكن أغفر لنفسي لأنني كنت أقارن بينها وبين سارة، لكن إحساسي بالذنب تجاه سارة كان يعطيني الحق في عقد تلك المقارنة التي كنت أراها تطول وتطول دائماً، في البيت، وفي عيادتي، وفي كل مكان أذهب إليه حتى جاء ذلك اليوم الذي فقدت فيه زوجتي.

لا أكتمكم عندما أقول بأن شيئاً من الراحة قد انتاب نفسي الهلعة، ربما لأنني ظننت بأن المسكينة هي التي أخذتني من سارة وليس أنا الذي اخترت ذلك.

كنت أقسو على نفسي وأحاسبها حتى على الأحاسيس، وأشعر أنني ظلمت الأولى والثانية حتى ذلك اليوم الذي جاءتني فيه رسالة سارة المطولة. ولأول مرة زادت الرسالة من همومي بعد أن قرأت محتوياتها التي جاء فيها:

"عزيزي وليد: أستميحك العذر لأنني أكتب إليك بعد هروبك وتلقي ورقة طلاقي للمرة الأولى ولولا المناسبة لما جرؤت على أن أكتب إليك ما أكتب. أوَ تَدري كيف أمضينا أيامنا تلك قبل سفرك المفاجئ إلى وطنك في سان فرانسيسكو؟ لقد شعرت بتلك الأيام وعرفت بإحساس المرأة بأنني أفتقدك، ولذلك، ولأول مرة في تاريخ حياتي معك، امتنعت عن تنفيذ رغبتك وتناسيت تناول الحبة المشؤومة فقد كنت جاهلة عندما وافقتك أن لا أنجب.

وشاء الله أن يرزقني ما كنت آمل وأرغب فحملت ولم أقل شيئاً حتى إذا ما ولدت وجاء ابنك وائل، عزمت على ألا أذكر لك شيئاً عنه، واخترت أن يكون ابني أنا فقط. لكنني، مع هذا، حاولت تنشئته على كثير من المبادئ التي علمتني إياها، وانشغلت أيام وليالي بالوليد والعمل الذي أمارسه، واستطعت

أن أمضي سنوات حياتي حتى هذه اللحظة التي أكتب إليك فيها.

صدقني. لم أحاول أن أخفي عن وائل أي شيء عنك. قلت له كل شيء، وقلت له بأنك أنت الذي اخترت هذا الاسم، أم نسيت يوم سألتك ماذا ستسمي ابننا لو قدر الله وجاء؟ فقلت: وائل، ثم عدت لأساليب الغش والمخادعة وأن هذا ليس وقته.. إلخ..

ولقد قلت لوائل كثيراً عن محاسنك، وعمدت على أن يتصل بكل من يقدر لنا أن نجدهم في طريقنا من العرب، لا حبّاً فيك، وإنما تقديراً لك وحبّاً لوائل. فأنا واثقة بأنه يتحرق شوقاً للقائك، لكنني، وبعد مجادلة طويلة، وعدني بأن لا يتصل بك حتى تأتي اللحظة المناسبة، وها هي قد أتت، فوائل سيحتفل وبعد شهور ثلاثة مع زملائه بتخرجه من نفس الجامعة التي درست فيها أنت طبيباً متفوقاً ناجحاً مثلك على ما أظن. طبعاً في بعض الأشياء لا كلها لا تظنني ألومك على كل ما فعلت، لكن ثق بأنني أحببت في وائل ما كنت أحب فيك، فلم أفكر في الاقتران بأي رجل، وسارت حياتي على نفس الوتيرة التي أردت.

لا أكتمك بأنني قد قلت لوائل بأنه جاء اليوم الذي يستطيع فيه أن يتصل بك، فقد آن لك أن تعرف بأن لك ابناً من سارة، سارة التي أشعلت أصابعها شمعات مضيئة تنير درب وائل، ويوماً ما درب أبي وائل نفسه! ولك تقديري.

قرأت الرسالة مراراً، وازداد خفقان قلبي، وانحدرت الدموع من مآقيَّ، وأصبحت في حالة لا أدري ماذا أقول عنها؛ بين الحزن والفرح، والأمل والألم، حتى جاء وسيم ورأيت أن أ شركه في أمري فدفعت له بالرسالة ليقرأها حتى إذا انتهى منها أفضيت له بكل شيء عن حياتي وماضيّ.

كنت أتمعن في صفحات وجهه وعينيه فلم أر الدهشة، وعرفت بأنه نوع مغاير لمن كان في سنه حتى إذا ما التقت عيناي بعينيه، قال:

ـ أبي متى ترانا نستطيع أن نرى أخي ونشاركه وأمه فرحة تخرجه؟

ألقيت بنفسي على صدره، وأخذت أقبل وجهه قبلات حارة وصادقة، ومضيت أجهش بالبكاء لأول مرة في حياتي، حتى إذا ما هدأت نفسي قلت:

ـ وما رأي أختك يا وسيم؟

قال:

ـ دعها لي بضعة أيام، فأنا أعرف كيف أصل إلى أعماق نفسها بصدق.

وصمت. وفي اليوم التالي، تلقيت رسالة أخرى. كانت هذه المرة من ابني وائل وباللغة العربية. قرأت الرسالة وكانت:

"أبي الحبيب: لا تستغرب عندما أكتب لك هذه الرسالة بلغتنا المشتركة، فلقد فضلت أمي أن أتعلم العربية إلى جانب ما أتعلم، وثق أنها تركت لي الأمر يوم أعلمتني بحقيقة الأمر في أن أتصل بك أو لا أتصل، أدركت بفطنتي التي لا بد وأنني أخذتها عنك وعنها أنها لا تريدني أن أفعل إلا في وقت تقرره هي فرضيت نفسي أن لا أتصل بك، حتى جاء اليوم الذي سمحت لي فيه وأعطتني الحرية لأن أكتب إليك ما أكتب.

لا أدري يا أبي ما هي ظروفك ولكنني في الحقيقة مشوق لك؛ فصورك تملأ أرجاء البيت رغم هروبك، وتحتل جزءاً كبيراً من قلبي وقلب سارة أمي التي أحبَّتك.

لو لم تكن يا أبي تستحق الحب لما أحبَّتك أمي، فهي سيدة فاضلة وأنا أحبها كثيراً. لهذا فأنا أعرف الكثير عنك، وأقرأ صحف وطني وبعض الكتب التي تأتي في طريقي، وأسعد عندما أترجم شيئاً منها لأمي، أمي التي صنعت مني هذا الرجل الذي ستفخر به. لا أدري إن كنت قد أنجبت أم لا وإن كان قلبي يحد ثني بأنك فعلت ذلك فعلاً، ولهذا فأنا مشوق لدرجة كبيرة لأن أرى إخوتي الذين لا أدري عنهم شيئاً، ولا يدرون هم عني شيئاً.

أبي العزيز: قد تكون الفرصة مواتية إذا كانت ظروفك تسمح للقاء طبيب ثان في أسرتك يتخرج من الجامعة ذاتها التي تخرجت وبامتياز يعلو بعض درجاتك، فقد بحثت عنها وعرفت، وحاولت أن أصنع شيئاً يجعلني أتفوق عليك من أجلك وأجلها، هي التي أعطتني الحب وحرمتني أنت منه، ومنحتني العلم ولم تمنحه أنت لي.

لا تظنني قاسياً عندما أقول لك هذا الكلام، لكن الحقيقة يجب أن تقال حتى ولو كانت مؤلمة! لماذا يا والدي تركت سارة أمي هنا لوحدها، ولم تقل لها كل شيء قبل أن تسافر لأرضك ووطنك؟ لِمَ يا أبي؟

أتدري أنني لكثرة زيارتي مع أمي للأماكن التي كنتما ترتادانها أصبحت أحبها من كل قلبي وأطالب أمي أن تأخذني إليها؟ حتى أصدقائكما المشتركين أزورهم مع أمي لأتعرف إلى أحوالهم، وأشعر أنك أنت الذي تزورهم لا أنا.

تأكد يا أبي بأن سارة لا تحمل لك أي حقد أو ضغينة، أنستها الأيام كل شيء، وأصبحت تدور في فلك واحد، فلكي أنا ابنها الذي تركت.

إذا كان لي من أخ أو أخت، فأرجو أن تبلغهما تحياتي، ولا بأس إن قمت بإرسال بعض الصور لك و لإخوتي بأقرب فرصة، إذا لم تكن قادراً على المجيء لحضور الاحتفال بنجاحي وتخرجي"

ابنك المشتاق

وائل

دفعت بالرسالة إلى وسيم التي قرأها وهو يبتسم حتى إذا ما جاء إلى نهايتها قال لي وبحزم:

ـ سأرتب سفرنا إلى لوس أنجلوس يا أبي.

وتركني حائراً، ولم يترك رسالة أخيه معي وإنما أخذها معه، وكأنه يعتقد أنها تخصه وتخص أخته أكثر مما تخصني أنا، أَوَ ليسوا هم المستقبل وإن كنا نحن الماضي والحاضر أيضاً؟ ولقد أمضيت ليلة هادئة لم يؤرقها سوى خوفي من ابنتي التي أحب أن أعرف كيف ستتقبل الأمر، وماذا ستقول عن الرسالتين بعد أن تقرأهما؟ وفي الصباح واجهتني فوراً وهي تكشر عن أنيابها للحظة وقالت لي:

ـ لم أكن أظنك يا أبي مثلهم، فقد كنت أعتقد أن أمي هي أول امرأة في حياتك.

نظرتُ إلى وجهها وقلتُ:

ـ ولكني لم آتِ شرًّا، فقد كان من المفروض عليَّ أن أتزوج، وأن أنجب.

قلتها بصوت خافت، وتابعت قولي:

ـ ولكنني بعد أن عدت قطعت كل اتصال بيني وبينها بعد أن طلقتها وأخلصت لبيتي ولأمِّك.

ـ وأخي يا أبي؟

قالتها في حنان.

قلت:

ـ لا بد أنك قرأت الرسالة وعرفت بأنني لم أدر عنه شيئاً حتى وصول هذه الرسالة فما ذنبي؟

أجابت بتؤدة:

ـ ذنبك أن يعيش بعيداً عن حنانك طوال هذه السنوات. صدقني يا أبي سأكتب لأخي وسأبعث له بصورتي ورسالة، وسأقول له سنحضر جميعاً حفل تخرجك.

لم أشعر بدخول وسيم الغرفة ولم تشعر ابنتي هي الأخرى ولكنني سمعت صوته:

ـ وسارة يا نورا ما ذنبها؟ لقد طلقها أبي طلقة واحدة وبإمكانه اليوم أن يستعيدها لتصبح أماً لنا جميعاً.

لم تترك نورا أخاها يواصل كلمته بل قالت وفي عناد وإصرار:

ـ لا، إلا هذا فأنا أرفضه.

نظرت إلى ابني وطلبت منه بغمزة من عيني أن يدع الأمور تجري على أعنتها كما يقولون فربما استطاعت الأيام أن تكسر حدة رفض هذه الابنة أحب.

وخرجت نورا ووسيم وهي مصممة على أن تشارك أخاها فرحته في لوس أنجلوس في يوم تخرجه، وأحسست بكثير من الراحة، فلقد ظلمته وظلمت أمَّه، وحان الوقت الذي يجب فيه أن يستعيد حناني، هذا الذي عاش طوال سنواته التي مضت مع حنان أمه فقط.

الفصل السادس عشر

استقبلتنا سارة بحب في مطار لوس أنجلوس، ومدت يدها لتصافحني في هدوء بينما انخرط وسيم ونورا في الترحيب بأخيهم وائل بالكثير من الشوق والأمل.

أما أنا، فقد أخذت عيني تجوس وجه هذا الابن الذي أراه لأول مرة. شاقني أن أراه أكثر شبهاً بي، حتى من وسيم؛ فوجهه صورة ناطقة من وجهي عندما كنت يافعاً. ومضيت أقبله بعيني قبل أن تقبّله شفتاي حتى إذا ما التقت عيناه بعينيّ، رأيت دمعة صغيرة أشبه بلؤلؤة جميلة تنحدر على وجنته، وأخذ يقبل وجهي ورأسي ويدي. أما نورا، فقد واجهت تحية سارة بشيء من التحفظ لَحَظْتُهُ عليها، وهي تمد يدها لتلتقي بيد سارة في تباطؤ عجيب أدركت معناه منذ اللحظة الأولى.

وفي الفندق أصر وسيم على أن يمضي أخوه ليلة في غرفته فلم تمانع سارة، بل قالت في حب وهي تتحدث إلى ابنها:

- يا بني سأحضر إليك ما أنت بحاجة إليه من ملابس لتقضي وقتك مع أختك وأخيك.

ومضت إلى شأنها بعد أن استأذنت.

وانهمك الاثنان في حديث طويل شاركتهم إياه نورا التي شعرت بمدى حبها لأخيها هذا الذي تراه لأول مرة، ولأول مرة أحسست بفداحة ما صنعت تجاه سارة فلقد مرّت عليّ أيام ثلاثة حصرت اهتمامي فيها بولدي وائل، لكنني خلالها افتقدت وجه سارة التي أبت أن تطل علينا خلال تلك الأيام.

وبدأت أفكر كثيراً في كل هذا الذي صنعت، وازداد حبي لسارة وبدأ يغزو قلبي بدرجة كبيرة لم أشعر بها من ذي قبل.

فوجه سارة ونظراتها المتأملة وقوامها الرشيق وخطواتها الأنيقة لم تزل كسابق عهدي بها، لم تحد السنوات من جذوة نشاطها على قصر الوقت الذي التقيتها فيه، وبدأت أفكر بأن أعود هذه المرأة التي عذبتها وأشقيتها، وألقيت على كاهلها مسؤولية تربية ولدي هذا الذي كبر.

أمضى الأولاد أياماً جميلة، سعدوا خلالها برؤية سارة، والتحدث معها لأكثر من مرة لدرجة جعلتني أدهش عندما سمعت لكلمات نورا وهي تصفها بأنها امرأة رزينة وعاقلة ولا تستحق هذا الذي لقيته.

بلعت ريقي ولم أعقّب على ما قالته ابنتي وتركت الأمر لوسيم كما اتفقنا سويّاً، وضحكت من أعماقي عندما رأيته يغمز لي من طرف خفي، حتى إذا ما التقيته بمفردي قال لي:

ـ لقد أصبحت لسارة مكانة في قلب نورا وهو أمر يبشر بالخير.

ولم يزد على كلماته القليلة أية كلمات أخرى. قلت له:

ـ ولماذا لا تدعو سارة للعشاء معنا؟

قال وابتسامته تفضح على ما كان يخبئه لي:

ـ لا تقلق يا أبي، فلقد آن لهذه الأسرة أن تجتمع مرة ثانية.

وذهب عني بعد أن تركني أضرب أخماساً في أسداس، وحب سارة يملأ كياني وأعماقي، وأخذت أتذكر مراحل حياتي في هذه المدينة مع هذه الأنثى التي أحسست أنني أذنبت في حقها طويلاً.

وقلت لنفسي:

ـ ربما يكون التحول الجديد في حياتنا قد جعلني أكثر تأقلماً مع الحياة العصرية عن السابق، يوم جئت إلى هذه الديار كمبعوث خاص من زقاق الطوال الذي عايشني وعايشت أحداثه في طفولتي وحتى صباي أيضاً.

وأخذت أقلّب الطرف في أحداث الأمس القريب والبعيد معاً، وذكريات الزقاق وما بعد الزقاق، تواصل إلحاحها لتطل مرة ثانية من بين عيني معلنة عن أن شخصاً جديداً ربما ولد اليوم وليس قبل اليوم. وتذكرت ساعات الحرمان

التي عاشتها هذه المرأة، وقلت:

ـ لا بد أن أعوضها عنها إذا رضيت وقبلت العودة لي.

كنت خائفاً بلا شك أن ترفض هذه السيدة الحنون طلبي، وعندها ماذا سأفعل؟ هل أترك ابني يعيش معها؟ هل آخذه معي؟ لا أدري. وإن كنت أود أنه لو لم تطف مثل هذه الأفكار في ذاكرتي، وجاء ذلك اليوم الذي دعانا فيه ابني وائل على العشاء في بيته.

قبلت ابنتي الدعوة بحب وطالبتني بأن أقبل أنا الآخر، فأجبتها إلى رغبتها بعد قليل من المماطلة أو التسويف لأراها وهي تطالبني بالحضور بإصرار كبير، وهناك في دار وائل أو دار سارة لا فرق، التقيت بها مرة ثانية.

كانت تلبس فستاناً أسود جميلاً، وكأنها مدعوة إلى سهرة خارج البيت، أحسست بها وهي تغطي رأسها بمند يل واسع، وكأنها تريد أن تعرفني بأنها لم تعد سارة التي كانت. كل شيء في دارها يدل على الأناقة.

ومضينا نتفرج على الدار الأنيقة، حتى إذا ما جئت إلى غرفة وائل، هالني أن أرى صوري بمفردي معلقة على جدران الغرفة، أما صورنا معاً أنا وسارة فلم يكن لها أي أثر.

سألت سارة عن السبب فقالت:

ـ لم يعد من حقي أن أضعها في غرفتي، أو حتى في بيتي بعد طلاقي لولا وائل.

وأردفت:

ـ على أي حال، أنا أحتفظ بها في صندوق قديم قد أحتاجه يوماً عندما أصبح عجوزاً وفي حاجة للذكريات.

نظرت إلى وجهها وقلت دون أية مواربة:

ـ ولكنك، على الرغم من كل هذه السنوات، فأنت أنت لم تضع السنون أية بصمات عليك بينما ترين كم كبرت أنا.

ضحكت سارة وقالت:

ـ النساء هن اللواتي يكبرن أما أنت، فيمكن أن أقول عنك بأن أكثر نضجاً عن ذي قبل.

وتابعت حديثها قائلة:

ـ ترى كيف وجدت وائل؟ أليس هو صورة عنك في صباك؟

وتابعت قولها:

ـ ترى هل استطعت أن أربيه ليصل إلى ما وصل إليه أم أنني أخفقت؟ فأنا لا أنسى كلامك عن أن المرأة لا يمكن أن تربي رجلاً هكذا، كما تقولون في زقاق الطوال عن المرأة.

ضحكت، وذهبت ببصري إلى البعيد، إلى أم سعيد جارتنا التي توفي زوجها واستطاعت أن تصنع من أولادها نموذجاً يحتذي به الآخرون. حدثتها بالقصة فانفرجت أساريرها عن ابتسامة جذلى شعرت بها وكأنها تعيدني إلى أيام مضت.

أمضينا ليلة رائعة مع سارة وأولادي، استمعت خلالها لأنواع الموسيقى القديمة التي كنا نسمعها سوياً، وتناولت خلالها أنواعاً كثيرة من الأكل الذي أعرفه وتجيد سارة طبخه، وسرني أنني أحسست بأن ابنتي كانت مشدودة إلى سارة بخيوط كثيرة. اختفت من عينها تلك النظرة الخانقة، وحلت محلها نظرة حب حانية، ولم أعجب عندما قالت لي نورا:

ـ كم هي رائعة هذه السيدة.

ولم تصمت، بل واصلت كلامها لي وقالت:

ـ كيف فكرت أن تتركها بمفردها وتعود يا أبي؟

قلت لها وأنا أشبه بالمنوم:

ـ قد يكون السبب في ذلك تلك التقاليد التي رضعتها في الزقاق يوم كان من الصعب على الإنسان أن يتزوج من خارج بلده.

وضحكت وتابعت قولي:

ـ ولولا أنني صنعت ما صنعت لما التقيت بأمك ولما كنت أنت وأخوك معي كما هو الحال الآن.

صمتت نورا قليلاً وقالت بعد تفكير:

ـ ولكن هناك سؤال يلحّ عليَّ أن أسألك إيَّاه: ماذا ستصنع بالنسبة لأخي بعد حضورك حفل تخرجه؟

قلت:

ـ الأمر عائد لأخيك، فإذا رغب أن يأتي معنا فعلى الرحب والسعة، وإذا اختار البقاء مع أمه في أمريكا فلن أرفض.

قالت:

ـ لا.. الأَوْلى أن نأخذهما معنا.

قلت:

ـ كيف؟

قال وسيم:

ـ تقترن بسارة مرة ثانية ونعود جميعاً إلى جدة إذا شئت أو حتى إلى زقاق الطوال.

قلت:

ـ أهو رأيك أم رأيكما معاً؟ فأنت تعرف أن زقاق الطوال قد ذهب مع الريح واقتلعت آثاره من على هذه الأرض.

قال هو وأخته في نفس الوقت:

ـ تتزوجها يا أبي فتصبح أمّاً لنا جميعاً.

قلت:

ـ وإن رفضت؟

قالت نورا بحدة:

ـ هذه المرة لن ترفض، فأنا الذي سأتحدث إلى أخي في هذا الصدد، وأنا واثقة أن أخي سيقنعها بهذا الرأي. إننا يا أبي إخوة ونريد أن نعيش على مقربة من بعضنا.

قلت:

ـ لا بأس. قُوما بعمل ما تريانه مناسباً.

قلت ذلك وفي نفسي إحساس بالفرحة وكأنني طفل صغير.

وجاء الغد أسرع مما أتصور. جاء وهو يحمل بين طياته أفكاراً كثيرة أود أن أستعيدها. والتقت عيناي في الفندق بعيني نورا التي كانت تبتسم طوال الوقت، فإذا ما انتهينا من تناول طعام الإفطار، قالت لي:

ـ أود يا أبي أن تلبس أجمل بدلة لديك، فنحن في طريقنا لنزور أجمل أم بعد تلك التي مضت.

قبّلتها بين عينيها وطرت للغرفة حتى إذا ما عدت سمعت صفيراً يدل على الإعجاب بذوقي من ابنتي وولدي. وأمسكت نورا بيدي وقالت:

ـ من أين استطعت أن تأتي بهذه البدلة؟ لا بدَّ وأنك كنت مستعدّاً لهذه اللحظة.

تمتمت بكلام غير مفهوم ومضينا إلى السيارة لتنقلنا إلى بيت سارة، سارة التي أعرف كم أحببتها، أنا الذي عذبتها طوال كل هذه السنين، وكم أحبتني هي الأخرى.

استقبلتنا سارة بالفرحة وهي ترتدي أول فستان اشتريته لها بعد زواجي بها ، والتقت يدي بيدها وأحسست بشيء من الراحة وأنا ألتقط أنفاسي، كشاب يجيء لأول مرة لخطبة عروسه. والتقت عيناي بعينها فقالت:

ـ أوَ تَدري أنني أحب نورا كما أحب ولدي الذي ربيته؟

وتابعت قولها:

ـ لقد استطاعت هذه الصغيرة أن تعيدني إليك بعد أن قررت بأنني لن أفعل مهما صنعت.

نظرت إليها مرة أخرى، قلت:

ـ أهي نورا فقط أم أن هناك آخرين ساهموا في هذه الأمر؟

قالت:

ـ لا.

قالتها بحزم:

ـ لو لم تكن نورا هي التي طلبت لرفضت.

أخذتها من يديها وقبلتها كزوجة، ومضيت أتنقل معها في أرجاء البيت، حتى إذا ما وصلت إلى حديقة الدار، التفت إليها قائلاً:

ـ ما رأيك بأن نقضي شهر العسل في سان فرانسيسكو بعد أن نتزوج؟

قالت:

ـ لا.

قالتها بحب ثم عقبت بقولها:

ـ أَوَ نَسيتَ بأنني فقدتك بعد ذلك المشوار اللعين، ولهذا فأنا غير مستعدة لأن أفقدك وأفقد نورا وأولادي الآخرين هذه المرة.

ربت بيدي شعرها الذي أسدلته وراء ظهرها كما كانت تفعل، وقلت لها وأنا أتحاشى أن أنظر إلى عينيها هذه المرة:

ـ أَوَ تُسَامحينني على ما ارتكبتُ من أخطاء؟

نظرت إلى وجهي وقالت وهي تبتسم:

ـ لا.

قالتها بدلال، وكأنها تريد أن تقول العكس.

وألقت رأسها إلى الوراء، أشبه بكليوباترا متوجة جاءت لتوها من حفل عرس لا تزال زغاريده تطوف في أعماق نفسها. أمَّا أنا، فقد كان قلبي داخل صدري يدق بعنف كسمفونية أخذت موسيقاها ترتفع لتسمعها سارة بمفردها حتى إذا ما ضاعت أصوات الموسيقى داخل عروقي، نمت أوراق الورد من بين سبائك شعرها الذهبي، لتعزف هي الأخرى مقطوعة حب جديدة خلت وأنا أسمعها لأول مرة بأنها خالدة، خالدة فعلاً.

وقلت لنفسي:

ـ هكذا نحن في هذه الحياة نبحث عن الحب في ظلال الماضي والحاضر ونصنع من قلوبنا جدراناً نتأمل منها أشجار الحياة ونتطلع إليها برغبة وشوق وأمل ونحن نقول في أعماقنا:

"لنعش حياتنا كما أراد الله، ولنبحث عن الحب وننظر إليه".

ونقول:

"ذهب الزقاق زقاق الطوال وبقيت أوراقه ونحن نلملمها ونحن نخاف عليها حتى لا تتساقط الأوراق!".

حوش التاجوري

(روايــة)

ط ١ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م
ط ٢ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



الفصل الأول

عندما كان طفلاً كان كل شيء فيه يجعلني أظن أنه لي أنا الصغيرة التي لم تكن تريد أن تكبر.

حتى أحلامي كنت أهديها له، أنمقها في نومي لتكون جديرة به، وعندما أصحو أبحث في تلافيفها عن أشياء كثيرة مشتركة أراها بعيني وكأنها تدلني على شخصيته التي فقدتها ذات يوم.

سنوات عمري كانت مجرد ذكريات لماضٍ أكاد أحس به يتجمع من حولي ويلتقي بقلبي ليمنح دقاته مزيداً من القوة رغم وهنه، ففي حنايا القلب مسالك ودروب نلمس ظلها يطل من بين أعيننا دون أن ندري أو حتى نشعر، يتسلل من باطن أعماقنا شعاع أمل وكأنه يريد أن يختار طريقه على أرض هذا العالم في مسيرة طويلة نحس بلفح هجيرها على وجناتنا نحن الصبايا.

وأنا، أنا أدرك معنى العجز عند الإنسان عندما تضيق حلقات الأمر ويخبو شعاعه في النفس.

فعندما تضيع الابتسامة من خلال الهواجس التي تنتاب الواحد منا ونصبح وكأننا نعايش الهجر والفراق والنسيان.

لا نلمح في سماء حياتنا ظِلاً لأمل يمكن أن نحتمي وراءه أو لِلَحن يمكن أن يهدي أقدامنا التائهة في هذا العالم الذي حولنا.

العالم؟ العالم في رأيي لحن مميز يدق على أصابع الزمن على أكثر من وتيرة، تشجينا أفراحه، تشقينا أتراحه، ولكننا مع ذلك كله لا نتسربل بالشقاء أبداً، لا لأننا قادرون على اجتياز المجهول وإنما لأن ما يعيننا في هذا العالم هو اكتشاف هذا المجهول من خلال أمل

ينبض في داخلنا ويدفعنا إلى محاولة ذلك.

كم من فتاة عاشت حياتها وفق ما ترضى وتحب، وكم من فتاة نقشت على الماء أسطورة حب ضاعت بين الأمواج الهادرة حتى إذا ما تكسرت كل تلك الأمواج بدت حروف الكلمات وكأنها تغرز أظفارها على تراب الحياة في محاولة ركض جديدة في مساحات الزمن لإدراك السعادة في أعمق معانيها، وما أحلى السعادة عندما يتسربل الإنسان بعد عذاب وتعب بشذاها الطيب وهي تضمخ كل جزء من حياته وعمره.

أسطورة تتناقلها الجدات وتحكيها للحفيدات اللواتي يتطلعن إلى الحياة الطويلة التي أمامهن بعيون يملؤها الأمل والرغبة الملحّة في اكتشاف المجهول فيها.

كثيرة ومثيرة ورائعة وشقية هي تلك الذكريات يمتد إليها البصر ليرزع على أكتاف الصبايا عبر الماضي والحاضر أحلاماً جديدة، أحلاماً قد تتحقق وقد لا تتحقق، وقد يتحقق بعضها ولا يتحقق البعض الآخر وهذا هو الأرجح فيصبحن وكأنهن على موعد مع المفرح والمعكر صفو الحياة معاً، ولكن، من منكم يستطيع أن يقرأ التاريخ في دموع امرأة؟

من منكم التقى مع الماضي في ظل دمعة وابتسامة كما حدث لي أنا؟

إن هذا لهو أمر لا أدري كيف أعبر عنه. نعم لا أدري كيف أعبر عنه وأنا أعايش التاريخ، تاريخ حياتي أعايشه وهو يتجسد وأعايشه أحياناً ماضياً لا يريد أن يتجسد في محاولة لإرغام نفسي على النسيان، ولكن هيهات أن أنسى.

أفكارنا تعايشنا لحظات السعادة والشقاء معاً.

وحتى عندما نهيل عليها التراب نجدها تتجسد في أشياء صغيرة نسيناها في أكمام الورود والأزهار وعلى الجداول الصغيرة.

من منكم أرهف سمعه لصراخ الأقدام وعويلها وهي تمشي على هذه الأرض؟

ومن منكم التقى بالفرحة تتمايل على شفاه أوراق الشجر والدوالي؟

في الزمن القديم كانت الحياة وبدء الخليقة. عندما التقى آدم بحواء ملأ

بأشياء ومعاني كثيرة، ومنذ ذلك اليوم وحواء تبحث عن آدم بشغف، ترمق طفولته وتتطلع إلى حياته ورجولته لتضع رأسها على كتفيه وتلقي بكل أثقال الدنيا من كاهلها على كاهله إلا أنا ومثيلاتي على قلّتهن.

كثيرات أولئك اللواتي يعايشن الغربة ويحلمن بأوراق الورد وهي تتناثر تحت أقدامهن هدية يوم أذن فجره على الاستيقاظ.

آدم هذا الذي أبحث عنه، أخاله لا يدري ولا يعرف أن كل شيء يخصني سوف أضعف بين يديه، فهو في نظري من الطينة ذاتها، أما بالنسبة إليه فكل شيء يكاد أن يكون غير ما أريد. هذه هي أفكاري، وأنا بعد فتاة مراهقة لم تشب عن الطوق بعد، تلبس أحلامها أول من تراه أمامها.

ولكن في طريق الأحلام يسترد الإنسان عافيته فجأة، ويفتقدها فجأة وهو في كلتا الحالتين يعيش نبضات قلبه الواجف الراجف.. تلك هي مسيرة الحياة تغرس سكاكينها في قلوبنا ثم تستلّها فجأة وهي تحاول أن تضمد الجراح التي شاهت ألوان دمائها.

وفي الطريق تقسو الأقدام أحياناً على الزهور التي يفر بها الريح بعيداً عن جناحها، وتظل كالمرأة التي ترضى أن تعيش بعيداً عن أرضها والتي في كثير من الأحيان تكون حالتها أن تظهر ما لا تبطن، وفي الحقيقة أن في الغربة مرارة وقسوة على الرجال والنساء على السواء.

في الزمن الرديء تصاب القلوب بعسر فهم وتلبك لا تملك معه القدرة على أن ترى خيوط الفجر وهي تشرق من خلف سجاف الأمل.

لا لأننا عجزنا عن أن نعي الحقائق ونفهم الواقع، وإنما لأن الضباب الذي تعوّدت أعيننا أن تراه مجلّلاً بالرماد يظل دائماً يطل بصور وأشكال وكأنه يسيطر على سويداء القلوب الناعمة فيسحقها ويمحقها.

أكثر الصدمات إيلاماً للمرأة هي عندما تفقد حبها وتضيع قدميها في الطريق وهي تبحث عن حب قد ضاع.

وأنا، مَن أنا؟ طفلة كبرت وشاخت قبل أوانها، ذهبت بها رياح التماسيح فوق أشجار الشوك، ثم ألقت بقلبها في طريق الأوهام بضاعة واجفة لا تدري

من سيلتقط هذا القلب.

قد يرفض بعض النسوة المصير الذي يريده لها الآخرون، وقد ينصاع البعض منهن دون وعي، ففي مجتمعاتنا تظل الأنثى مكسورة الجناح تبحث عن الأمل وهي تلتقط فُتاته من على موائد الكبار أمثال أمها وأبيها أو خالها وعمها، ففي عيون الكبار تكمن حكايا الأمس واليوم، ومن بين شفاههم تخرج الحروف قاسية لا تقنع، لكننا وفي مثل هذا المجتمع الذي نعيش فيه نرضى بكل هذا الذي قسم، وتظل تطلعاتنا نحو الأفضل محوطة برغبات مكتومة قد لا تخفى عليهم وإن كان هؤلاء الكبار يضيقون بها، وينسون أنهم كانوا مثلنا في يوم من الأيام.

لعبة المرأة في عالمنا الحاضر أن تصبح ذكية وقادرة.

ذكية تعرف كيف تطوع الآخرين لأفكارها ومبادئها.

وقادرة على امتلاك نفسها وقلبها ولسانها أيضاً في كثير من الأحوال.

العالم يضيء ويشرق بكل أنواع النور الذي أصبح أكثر من فنار لأكبر السفن وهي تجوب أرجاء البحر وأمواجه، ومع هذا تتساقط القلوب عند أول داهمة تدهم الإنسان كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف.

والمرأة هي المرأة منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه أبواب التاريخ، أنوثة وعفوية وجمال ومكر وخداع وزينة وحسن وحب وكره أيضاً، إلا أن المرأة لا تلعب لعبتها مع الرجل بمقدار ما يلعب الرجل لعبته مع المرأة.

المرأة هذا الكائن البريء الجميل قد تصبح أكثر شراسة من اللبؤة عندما تستثار، وقلب المرأة بل ومعظم إحساسها ينصرف إلى أطفالها فهي أولاً وأخيراً ـ كما يقولون عنها ـ أم الرجال وصانعة الأجيال.

يتهمون المرأة بأنها صائدة رجال وينسون بأنها في كثير من الأحيان هي التي تسقط في الشِّباك.

وأنا، من أنا في ظل هذه الأنانية المفرطة التي تسود رؤوس بعض الناس وما أكثرهم فهي دنيا الناس؟

في طريق الأمس حفيت قدماي وأصابت قلبي رجفة ظلت تلازمني طيلة

السنوات الماضية وحتى اليوم.

وفي طريق اليوم لا أفتقد النضوج وإن كنت أفتقد ظلالاً كانت تدثرني وأنا طفلة، بين ظلال الأمس وقسوة الأيام تعربد موسيقى اليأس كما تعربد موسيقى الجاز في رأس زنجية جميلة طفقت ترقص في حلبات الأرض بحثاً عن معاني كلمات الأغنية التي تسمعها للناس.

أشياء صغيرة نهملها ونحن أطفال وحتى عندما نكبر، ثم تبدو مع الأيام شيئاً جاداً ومثيراً يتدخل في حياتنا ويلقي ببصماته على أجسادنا ووجوهنا وأنامل أيدينا وقلوبنا، نحس بتياره الحارق يسري في عروقنا يدفع بعضنا إلى مزيد من التذوق لأنواع الحياة التي يرفضها بعضنا، والحياة هي الحياة جميلة كما نراها وبغيضة ومحزنة كما نراها أيضاً في بعض الأحيان.

أحمل أسوار الحب تلك التي يستطيع أن يقف عندها الإنسان لا التي يقفز عليها، وأحلى أسرار الحب تلك التي نحتفظ بها في قلوبنا لا نشارك أحداً في فهم معانيها أو سبر أغوارها.

والإنسان هذا الكائن الذي يمتلىء جسده عروقاً وشرايين تتشابك وتتداخل. هو الأجمل دائماً عندما يعرف ما يريد وتعرف أقدامه طريقها بتؤدة وتفكير وإحساس بمعنى الجمال ومكامنه.

في فورة اليأس ننسى لحظات السعادة التي عشناها ولا نفتقدها لأننا كنا أشبه بذلك الأعمى الذي فقدت عيناه النور فضاع في زحام الطريق يتخبط بين الأجساد الفارهة حتى إذا ما امتدت إليه يد صغيرة أو كبيرة هدأ روعه وعرفت خطواته أناشيد الطريق التي شاخت قبل الأوان.

بعض الناس يحرص على ارتياد الصحارى والمناطق النائية بحثاً عن زهرة برية اندسّت بين صخور التلال الصغيرة والبعض الآخر لا يرى في الصحراء سوى أنها مجرد ساحات فضاء لا تنتهي.

في قيظ الصحراء نحلم بالأنهار وهي تمتلىء بالمياه الحلوة الصافية، لكننا نختلف في أحلامنا فهي عندما يأتي الخريف والشتاء وتبدو برودة الطقس أكثر مما نتحمل.

نعم عندما كان طفلاً صغيراً كان كل شيء فيه يجعلني أظن بأنني له أنا الصغيرة التي لم تكن تريد أن تكبر ولا تريد له أن يكبر هو أيضاً.

وتمضي الأيام وكل شيء في حياتنا يصبح شيئاً آخر قد تغير، غيرته الأيام وصنعت منه السنون جدراناً صمّاء لا نعرف ماذا تريد أن تقول.

ولقد قالت سنوات حياتنا الكثير الكثير، قالته ونحن بدورنا نرهف أسماعنا ونشد أبصارنا لنعرف ونتعرف، نفهم ونستوعب، حتى إذا ما غدت بنا الأيام شعرنا بالهوّة السحيقة التي تفصلنا عن شط الأمان.

فكم كانت جميلة ووارفة أحلامنا وهي تتهادى في حدائق الدهر بين أزهار الورد والياسمين والفاغية وعلى مقربة من أشجار الليمون الكبيرة.

اختفت الخضرة بين أعين البعض، وأصبحت أشجار الليمون أشجاراً يابسة لم تعد تحنو على أجساد بعضنا كما كانت تفعل، وبدأت رحلة الشوق ملأى بأشواك الشك التي أخذت تسد منافذ الحياة أمام أقدام أولئك الذين لا يقوون على المسير.

ولكن، تلك كلمة نقولها لكنها معي تكون أكثر من كلمة. إنها أشبه بجمل متراصة يأخذ بعضها برقاب بعض في تؤدة ويسر لتدلنا في النهاية على قدراتنا التي نضيق بها ساعة يأس.

ترى هل استطاع اليأس أن يدمر كل شيء من حول هذا القلب الصغير؟

ذاك ما أريد أن أحكيه ببساطة فلربما استطعت من خلال ما أقول أن أشد الأفكار للبحث عن الطريقة التي يمكن للأخريات أن يرينها قادرة على منحهن الحياة في ظل هذه الدنيا التي نظل نعيشها ونعشقها رغم كرهنا وبغضنا لها في كثير من الأحيان.

* * *

من بين مئات الأوراق المتراكمة على مكتبي الصغير تمتد يدي لتعبث بورقة صفراء صغيرة أضافت إليها سنوات العمر شيئاً من الشحوب خِلته وأنا أطالع مرآتي كأنه قد أصاب وجهي الطفولي أيضاً، فكما كنت أسمع الناس يقولون إنني امرأة لا يمكن للسنين والأيام أن تقهرها أو حتى تضيف إلى وجهها شيئاً

من تجاعيدها التي كنت أراها تعلو وجوه صديقاتي وغيرهن ممن حولي ممن أعرف أو لا أعرف.

لكنني مع كل هذا ألمح شبح ابتسامة صغيرة تبدو على وجهي وكأنها تداعب مخيلتي التي أخذت تتزاحم من خلفها ذكريات الأمس القريب والبعيد معاً.

ربما فاتني أن أعرّف نفسي إلى قارئي الذي سيطالع هذه السطور ولهذا فها أنذا أذكر من أنا وأتحدث عن حياتي الماضية والحاضرة وأنا راضية عن كل أحداثها، مقتنعة بكل تفاصيلها، راجية أن تكون شعاع ضوء ينير حياة كل أنثى تسعى وراء سعادة نفسها وسعادة من حولها.

تنتابني حيرة من أين أبدأ؟ وهاتف من أعماقي يعود بي إلى الوراء، إلى طفولتي، إلى بداية إحساسي بالحياة والناس وكل أولئك الآخرين الذين كانوا يعيشون من حولي وأولهم أمي الحبيبة.

عشت طفولة سعيدة. نعم فقد عشت طفولتي مع الحب والحنان سقتني كؤوسها أمي، تلك المرأة التي فقدتها قبل أن أكبر ولكنها علمتني أن الحياة حب وكفاح وركض في ساحات الزمن في محاولة لاقتناص السعادة الحقيقية.

أمي جاءت من الأناضول جاءت لأداء فريضة الحج ولزيارة المدينة المنورة برفقة أبيها الذي كان الحج حلمه الوردي وهاجسه الدائم. وقد تركها في عهدة أبي بعد أن زوجه لها.

لا تستغربوا كيف يمكن أن يتم زواج كهذا فأم أبي هي أيضاً من المنطقة ذاتها التي ولدت فيها أمي، بل وتمتُّ إلى أمّي بِصلةِ القرابة بمعنى أنها من العائلة نفسها، وإن كانت قد تغيرت ألقاب الأُسر في تركيا بعد أن استقام الأمر لأتاتورك وزملائه.

أمي شقراء الشعر ناصعة البياض، قوامها رشيق أكاد أراه يطل في عيون مرآتي وأنا أرمقها بعد أن كبرت، فأنا أشبهها رغم اختلاف لون بشرتي عن لون بشرة أمي وأبي.

أما أختي التي تكبرني بخمسة أعوام فقد كانت كما يقول أبي: صورة طبق

الأصل عن أمي التي أحب. وأمي توفيت، ذهبت إلى بارئها وهي في ريعان الصبا والشباب. مهلاً مهلاً! لا تظنوا بأبي الظنون فلقد أعرض أبي عن الزواج بعد وفاة أمي وكان عزاؤه الوحيد وسلواه أن يراني أنا وأختي نكبر أمام ناظريه.

في بيتنا في حوش التاجوري على مقربة من بستان الحجارية بالمدينة المنورة وِلِدتُ، وفي البيت نفسه كبرتُ، وعرفت طفولتي أسرار الحياة في تلك المدينة، فأنا وإن كنت قد غيرت حياتي بأفكاري التي لازمتني وأنا صغيرة، تلك الأفكار التي أخذت تمارس حقها في البقاء في أعماق أعماقي في رحلة الحياة الصغيرة، إلا أنني لا أزال مشدودة إلى ذلك الحوش.

كل شيء في حوش التاجوري يذكرني بمعان وأحداث ارتبطت بها نفسي: الجيران، الصديقات، الأهل، الإخوة، ألعاب الأطفال المختلفة، عربات الكارو التي انقرضت، حاجة فاطمة التكرونية التي كانت تجوب كل بيت من بيوت الحوش تساهم في غسيل ملابس المواليد الذين وفدوا.

كان الحوش أشبه بأسرة كبيرة متماسكة، يحزن الجميع لحزن أي بيت ويفرح كل واحد منا بفرح الآخر.

لطالما شعرت بالأسى لموت عجوز أو عجوزة من هنا وهناك، ولطالما سعدت أيضاً بزفاف هذه أو تلك من بنات الحوش الصغيرة.

بيتنا رغم وقوعه في حوش التاجوري إلا أنه يطل ببعض نوافذه على طريق سيل أبو جيده، وعلى مقربة من بيتنا كانت شجرة نبق كبيرة تمتد فروعها حتى تصل بين نوافذ بيتنا ونوافذ البيوت الأخرى في الجهة المقابلة.

عندما كبرت كتبت اسمي على هذه الشجرة، شجرة الوفاء، فلطالما استمعنا إلى زقزقة العصافير والنغاري وهي تجري حرة طليقة تحط على هذا الغصن أو ذاك، تردد أنشودة حب وقصة وفاء للمكان ومن بالمكان.

كنت أقارن بين وبين هذه الطيور فأجد أن الطيور أكثر حرية مني أنا الإنسانة التي أعيش في ظلال الحب الذي ألقاه.

ربما لأنني كنت أرى في تغريد هذه الطيور ما يسعدني ويجعلني أتمنى أن أكون مثلها ولكن هيهات.

بجوار بيتنا كان بيته. لم أكن أظن بأن الأيام سيشتد عودها فتنأى بنا عن ذلك الحي، لكني مع كل هذا كنت أحس بأن كل شيء يتغير.

ثريا أختي التي تكبرني والتي ذهبت لكتّاب البنات قبلي كانت تحدثني كثيراً. لم أكن أفهم من حديثها شيئاً لكني وبعد أن أخذت طريقي أنا الأخرى إلى الكتّاب بدأت أفهم.

سارة ابنة جارنا وأخت فريد والتي قضينا طفولتنا معاً هي الأخرى كانت تشاركنا مشوار الصباح من حوش التاجوري إلى الساحة، فقد كنا ندرس معاً في كتاب خوجه هانم. أما فريد فقد أخذ طريقه إلى المدرسة الناصرية. وبعد أن كبر فريد وسافر إلى مكة ليستكمل تعليمه شعرت بأن شيئاً قد فقد مني. لا أكذب إذا قلت بأنني لم أكن أحب فريداً منذ طفولتي، ولكني حتماً أكذب إذا قلت لكم بأنني قد عرفت بمعنى إحساسي بجمال رفقة فريد ورغبتي في اللعب معه ما يعني على أنني أحبه.

عندما غاب عن بيتنا بدأت أقلق، أحسست بأن من واجبي أن أصمت فقد كانت ثريا أختي هي الأخرى قلقة لغياب فريد.

وبدأت أكتب رسائلي إليه ثم أمزقها، حتى ذلك اليوم الذي التقيت به وقد عاد في إجازة قصيرة.

لم تكن الحواجز بعد قد تصدّت لي أو له، ولذلك لم تحرمني الأيام من لقائه والحديث معه في بيته أو في بيتنا، لكن تلك الفرحة التي غمرتني تماماً بدت لي كأنثى أهميتها لأول مرة عندما أراد أبي في أحد تلك الأيام أن يغادر المدينة إلى جدة.

ولقد خيّرني أبي في أن أبقى مع جدي وبعض أفراد العائلة في بيتنا الجديد عند باب الكومة أو الذهاب معه فاخترت الذهاب إلى جدة.

قلت له وأنا واقفة إلى جوار بركة المياه الكبيرة في بستان المصرع، ذلك الذي دعينا إليه نحن وأسرة فريد من قبل خاله:

ـ سنذهب إلى جدة وأتمنى أن ألقاك هناك.

وقبل أن يتفوه بكلمة أخبرته أيضاً عن عزمي على إتمام تعليمي.

كان التعليم في بداية عهدنا به فقد بدأت المدارس تكثر وتنتشر وأصبح متاحاً للفتاة أن تتعلم.

وسألني باستخفاف:

ـ وماذا تريدين أن تتعلمي؟

وقلت في استحياء متجاهلة تلك الابتسامة المستخفة بكلامي:

ـ سأصبح طبيبة، طبيبة تعالج بنات جنسها في المستقبل.

نظر إلى وجهي وقال بجدية بعد أن لمس العزم والإصرار في صوتي:

ـ ذاك أمر شائك ويستغرق وقتاً طويلاً فدراسة الطب تحتاج إلى سنوات وسنوات.

ـ وما المانع؟

تساءلت، أجاب:

ـ الفتاة في بلادنا تحب أن تتزوج والأهل يفضلون تزويجها في سن مبكرة.

سادت لحظات صمت بيننا قطعها بصوت لا أدري كيف أصفه:

ـ وأنت ألا تفضلين الزواج؟ أعني ألا تريدين أن تتزوجي؟

قلت:

ـ بلى ولكن زواجي لا يمنع من أن أكمل دراستي.

قال ضاحكاً وهو يحاول إنهاء الحديث وكأن الكلام في موضوع إتمام دراستي لأصبح طبيبة ضرب من الخيال وأحلام اليقظة:

ـ أحلامك كثيرة وآمل أن تتحقق.

نظرت إلى وجهه أنا هذه المرة وقلت لنفسي: لماذا لا أقول له بأنه هو أيضاً من جملة أحلامي التي أتمنى أن تتحقق ويومها عرفت بأنني أريد فريداً زوجاً وحبيباً، ولكن. . .

بدأت أتابع خطواته وهو يمضي لشأنه وقبعت أنا بجانب أختي التي رأيتها تحاول أن تعرف كل الذي دار بيني وبينه، لكنني لم أشف غليلها بل تركتها

حائرة لاعتقادي أن الأمر يهمني وحدي.

وعندما ألحّت علي ضحكت وقلت:

ـ لكن لماذا تسألين؟.

وجاء جواب أختي كالصاعقة فلقد قالت:

ـ ألا تعرفين بأنني سأتزوجه؟.

صمَتُّ لحظة أحاول فيها استيعاب ما تقول أختي ثم سألتها عندما وعيت تماماً معنى ما قالت:

ـ وكيف سيكون هذا الأمر؟.

كان السؤال بصوت خفيض حاولت معه ألا أظهر انفعالي ودهشتي وحيرتي مما أسمع، وحدثتني أختي بإسهاب عن حبها له الذي بدأ يوم علمت عن طريق الصدفة أن والدها ووالده قد اتفقا على تزوجيهما من بعض بعد أن يكبرا.

أحسست بالدوار يتتابني فهذا حلم من أحلامي ينهار قبل أن يتحقق، حلم جميل من أحلامي تلك التي وصفها فريد بأنها كثيرة وكبيرة.

وصممت أن أتماسك، وبدأت رؤيتي للحياة تأخذ مساراً آخر شعرت معه بأنني أكره هذه الأخت ومن كل قلبي.

أحياناً كان يذهب تفكيري إلى حد الظن بأنها ربما تكون كاذبة لكنني كنت ألوذ بالصمت الرهيب محاولة من خلاله أن ألف الحبال حول أوهامي على أمل أن أجد الطريقة التي أستطيع بها الوصول لمعرفة الحقيقة.

لم أعدم الوسيلة لأن أتعرف على جزء من الحقيقة التي ألف وأدور حولها وأنا أحادث أخته سارة التي فاجأتني هي الأخرى قائلة وهي تبتسم:

ـ ولماذا تسألين؟ حقاً ألا تدرين ما يجري وراء ظهرينا؟.

أجبتها بهدوء:

ـ لا.

ولم أكن كاذبة. وبدأت الحكاية تتكشف أمامي حقيقة واضحة، عرفت من أخته أن أباه وأبي قد اتفقا على أن يتزوج فريد بأختي وأن الأمور تسير في

طريقها المرسوم. إذن الكل يعرف ما عدا الصغيرة التي هي أنا، كنت أشبه بالتائهة عندما تناهى إلى سمعي صوت أخته سارة تكمل حديثها بهمس:

أما هو...

ثم انقطع ذلك الهمس ولم تشأ أن تكول حديثها بل لم تعد بحاجة لأن تكمل ذلك الحديث فقد فهمت ما تعني، فريد يريدني أنا، يحبني أنا، ولكنه لا يجرؤ على الكشف عما يجول بخاطره لأحد إلا لها، أعني إلا لأخته سارة.

ومن يومها اتخذت سارة صديقة أمضي الساعات تلو الساعات أردد على مسامعها ما أكتب من أشعار تحكي لوعة ما أعاني ثم بعد ذلك ألقي بكل ما كتبت طعماً للنيران وأنا واجفة.

قد كنت حريصة على ألا أظهر ما بي وخصوصاً لأختي.

* * *

الفصل الثاني

العالم يضيق بي على رحابته، وهموم الغربة تزيدني سَأماً وأرقاً وتألُّماً، وأنا في مخدعي في بيتنا الجديد في مدينة جدة على مقربة من البحر الأحمر فقد شاء والدي أن يكون بيتنا هناك.

عندما وصلت إلى مدينة جدة التي عشت فيها فيما بعد سنوات عمري اللاحقة أحسست بأنني قد وضعت سوراً بيني وبين مدينتي التي أحببت رغم أنها فقدت تباعاً كثيراً من الأماكن التي أحببتها نتيجة للتطور والتعمير الذي واكب أيام الازدهار التي بدأت تعيشها بلادنا الحبيبة.

سارة صديقتي أخت فريد لا تزال في طيبة الطيبة ووسائل الاتصالات الحديثة منحتني الفرصة لأن أتحدث إليها يومياً لدرجة ضاق بعدها أبي بفواتير التلفون، ولا عجب إذ إن فواتير التلفون أصبحت جزءاً ضرورياً في موازنة الأسرة السعودية.

أختي التي تعيش معي والتي أحبها من كل قلبي بل التي لم أستطع أن أكرهها كما اعتقدت في بداية معرفتي باتفاق الأهل على تزويجها من فريد لم تعد تتحرج في الحديث أمامي في كل شيء عنه، وأعني عن فريد، وهي في حديثها هذا عنه على حق؛ أليست ستصبح في القريب زوجة له؟

في الوقت الذي كنت أغذ السير في طريق الدراسة والتحصيل العلمي انقطعت أختي عن الدراسة، أحسست بأن قلبها وعقلها قد اكتفيا بما تلقت ورضيت بالبقاء في البيت انتظاراً ليوم يأتي فيه فريد ويحملها إلى عش الزوجية.

أما أنا فقد كنت أشبه بخلية النحل بعد أن كرست كل شيء في حياتي ووضعت كل همي في أن أصبح طبيبة، ولقد علمت فيما بعد أن فريداً أيضاً. وبوحي من كلامي معه في لقائنا الأخير لي ببستان المصرع، حاول أن يصبح طبيباً إلا أنه لم يوفق لأكثر من سبب يأتي في مقدمتها أنه لم يبذل الجهد الكافي لينال العلامات التي تؤهله لدخول كلية الطب فطبعاً ليست بالأماني وحدها تتحقق الأحلام.

في بيتنا كانت الحياة مملة ورتيبة لولا هذا الصامت الأسود الذي كان يشكل همزة الوصل مع عالمي الذي بدأ يكبر.

وَلَكم تحدثت إلى نفسي عن أختي وأحلامها وأمانيها وحاولت في كل مرة أن أعيد إلى ذهني صور الأمس يوم كنا صغاراً هناك في حوش التاجوري ثم بعدها هنا في جدة.

كان حديثي مع نفسي يملأني إحساساً جديداً بالحب لهذه الأخت رغم كل ذلك الذي حدث، ورغم كل ذلك الذي سوف يحدث.

ولكم حاولت أن أمنحها ثقتي وأبوح لها بِسِرِّي.. أن أقول لها كل شيء عن أحاسيسي باعتبارها الأخت الكبرى وأنها ملجئي وملاذي، بعد الله وبعد رحيل أمي عن حياتنا.

ولكني لم أفعل بل على العكس كنت أطوي صفحات الضعف هذه وأكتمها في نفسي وأشجع أختي على المضي في الحديث عن أمانيها وأحلامها والتي تتركز في مجملها على فريد وحولِ حياتها معه، في باطن أعماقي التي تنزف كان يكمن إحساس قوي بأنني أظلم نفسي في كل هذا الذي أفعله، فأنا عندما أفكر جدِّيّاً فيما سوف تقدم أختي عليه أجد قلبي وكأنه سينزف دماً وأحس باختناق، ومع ذلك فهناك دائماً شيء ما في أعماقي الحزينة يجعلني أضحي بكل شيء محاولة أن أنسى كلمات سارة ورغبة فريد.

أكذب عليكم إذا قلت بأنني لم أتحدث إلى فريد بعد أن وضح لي كل شيء وعرفت معنى أن يتزوج الإنسان مِن أخت مَن أحبَّها وأحبَّته لكن ظروف الحياة في مجتمعنا تجعله يقبل الأمر الواقع كما علل قبوله للزواج من أختي وتجعلني أنا لا أرفض أن أبارك ما سوف يحدث في المستقبل القريب.

خفت في البداية من أن يفتضح أمري عندما يحين موعد زفاف أختي، ورأيت بعد تفكير أن من واجبي أن أنهي الأمر تماماً بيني وبين نفسي وأن أتحدث إلى سارة صديقتي أخت فريد. تحدثت إليها طويلاً، وحاولت أن أقطع عليها عهداً بأن تنسى كل ما تحدثنا عنه بخصوص أخيها فريد.

قلت لها بأن حبي لأخيها ورغبتي في أن يكون زوجاً لي قد شاخت ولم يعد لها وجود في نفسي، وقلت لها أيضاً إن ظروف الحياة في مجتمعنا تدعونا لأن ننسى أحاسيسنا الساذجة الفجة.

أجابتني بعد حديثي الطويل معها قائلة:

ـ ربما أنت تستطيعين لأنك عنيدة وقادرة على المضي قدماً في تحقيق ما ترغبين ولكن هل في مقدور أخي أن يكون مثلك؟

قلت، وكان بودي أن أقول شيئاً آخر:

ـ لا بد وأنه هو الآخر مثلي طافت بذهنه ترهات يجب علينا أن نلفظها وأن ننساها.

ثم رددت بصوت منخفض وكأنني أحدث نفسي: ثم أَنَسيتِ أنه سوف يكون زوج أختي؟

كنت أقول هذا الكلام وأنا أحس شعوراً داخلياً يصرح بأنني أود لو أنه سوف يصبح زوجي أنا، وأحسست بمزيد من الألم يعتصر فؤادي لكن واجبي تجاه هذا الموقف وتجاه أختي أمدّني بقوة جعلتني أقاوم وأقاوم، وأنغمس في خياتي الدراسية لا أفكر إلا بها مما جعلني أمضي أيام الدراسة متفوقة على جميع أقراني.

سألني والدي في أحد الأيام:

ـ ماذا تريدين أن تدرسي بعد تخرجك من الثانوية؟

أجبت:

ـ أريد أن أصبح طبيبة.

ونظر أبي إليّ ضاحكاً وهو يقول:

ـ قولي غير هذا يا بنتي، ألا تعرفين بأنه لا يوجد في بلدنا كليات طب

حتى الآن؟

قلت بتصميم عجب منه أبي:

ـ أعرف لكني سأدرس الطب إذا ما وافقت يا والدي في الباكستان.

نظرت إليّ أختي التي كانت تستمع إلى حديثنا وقالت:

ـ أوَلا تريدين أن تتزوجي؟ فسنوات الطب طويلة طويلة وقد تحرمك من عريس قد يتقدم إليك لو أنك بقيت هنا في بلدك.

وبعصبية، حاسبت نفسي عليها فيما بعد، قلت:

ـ ألا يكفينا في هذا البيت أن تتزوج واحدة منا؟

وضحكت أختي وهي تخرج من الغرفة وتهز كتفيها وكأن الأمر لا يعنيها من قريب أو بعيد.

أما أنا فقد أمضيت ليلة ممطرة شاب أجواءها تلال من الخوف والحزن والألم والأمل والضباب.

ترى هل أستطيع أن أكون قوية كما تقول سارة فأمضي في حياتي دون أن أتحطم أو أنكسر من الداخل؟

ونمت وأنا أترك الأمر للزمن فهو الكفيل بأن ينسيني وأن يمدني بما يساعدني على تشكيل حياتي المقبلة وفق نمط يرضيني، إذ لربما يحقق طموحاتي في أن أصبح طبيبة ينشغل وقتها كله فلا يكون هناك وقت للتفكير في أمر قد أصبح ماضياً وماضياً بعيداً.

ومرت الأيام حتى جاء ذلك اليوم الذي أصبح فيه فريد في بيتنا فقد اقترنت أختي به وأصبح المجال أن أراه أمامي دائماً كبيراً جداً، إلا أنني كنت دائماً وأبداً أتهرب من رؤيته والاجتماع به حتى تلك الليلة التي لن أنساها ما حييت. دقت أختي باب غرفتي وعندما طلبت منها أن تدخل إذ كنت لا أزال في فراشي أقرأ في كتاب لأبعد الأفكار عني.

دخلت أختي ثريا الغرفة فإذا بي أصطدم بوجه مكفهر غاضب، لا بل وجه حزين عابس، لا أدري؛ المهم أن علامات الهم والحزن والغضب كانت بادية على وجهها وتختلط بشكل جعل قلبي يتوجس خيفة. سألتها ملهوفة عما بها

فإذا بها تحدثني عن ضياع أحلامها الحلوة التي كانت تظن أنها بدت على وشك أن تصبح حقيقة بعد اقترانها بفريد.

وعرفت من أختي أشياء كثيرة ساورني معها كثير من الشك في أن فريداً لا يبالي بأختي أو بمشاعرها.

ثارت ثائرتي على فريد فقد كان في خيالي دائماً ذلك الرجل الشهم الذي يحترق لإسعاد الآخرين.

ولقد دفعتني ثورتي تلك لأن أواجه فريداً وأتحدث إليه وأطلب منه أن يكون رجلاً بمعنى الكلمة فلا يحطم قلب أختي التي لا أقدر إلا أن أحبها وأضحي من أجلها بكل ما أستطيع. أوَلَيست هي الصورة طبق الأصل من والدتي رحمها الله؟ فهل أقدر إلا أن أسعى لإسعادها ومهما كان الثمن؟ ثم أليست هذه هي إحدى تلك المثل العليا التي نشأت عليها؟ أن أحب أفراد عائلتي وأبذل جهدي لإسعادهم وإدخال البهجة عليهم؟

جاءت كلماتي لفريد قوية واضحة ومحددة، حتى إذا ما انتهيت مما أريد قوله، سألني هو بصوت بارد هادىء وكأن الأمر لا يهمه كثيراً، قال:

ـ وأنت؟

قلت:

ـ ماذا تعني؟ أنا بخير.

وانسحبت دون أن أكمل كلامي. فكرت أن أذهب إلى جدتي، أن ألقي برأسي على صدرها الحنون وأن أحدثها بمتاعبي، أقول لها كل شيء، لكنني وبعد تفكير رأيت من الأفضل أن لا أفتح فمي بأي كلمة حول هذا الموضوع.

أختي في غرفتها تبكي وأنا بجانبها أحاول أن أمسح دموعها وأن أسري عنها. هي تحدثني عن شقائها وحيرتها، زوجها الذي يبدو بعيداً عنها بقلبه ومشاعره وأنا أطالبها بالصبر وأغالطها فيما تقول وأطلب منها أن تعطيه الفرصة فالأيام كفيلة بتقريبه منها والعشرة كفيلة بأن تجعله يحس بها.

هذا ما كنت أردده على مسامعها.

أختي ماضية في الحديث عنه وعن نفسها تحاول ألا تستمع لما أقول،

فهمت بعد حديث طويل ما جعلني أعرف سر اضطراب نفسها، فهمت أنها باتت تعتقد أن بُعد فريد عنها بمشاعره وإحساساته إنما نابع من أنه يحب أنثى غيرها.

وسألتها بعد أن أخذ جبيني يتصبب عرقاً:

ـ أتعنين أنه يخونك؟

وكأني بهذا السؤال أنفي تهمة عن نفسي وألصقها بأخرى قد يخونها معها إن كانت هناك خيانة ما.

قالت:

ـ لا، لسبب بسيط هو أن مَن يحبها لا يمكن أن يخونني معها.

أصابني وجوم حاولت معه أن أبدو طبيعية لذلك سألتها وأنا أصطنع اللامبالاة عن اسم تلك الحبيبة التي تبعده عن زوجته، عروسه التي لم يقترن بها إلا منذ مدة بسيطة.

ابتسمت أختي ابتسامة شاحبة وناولتني المرآة الصغيرة التي كانت بجانب سريرها الذي تجلس عليه فوجدتني أطالع بهلع شديد صورة وجهي أنا.

وقبل أن أنبس ببنت شفة عاودت حديثها معي قائلة ورنة حزن وأسى تغلف صوتها:

ـ تصوري أنه يحبك أنت.

ـ يحبني أنا؟ غير معقول.

أجبتها وأنا لا أعي ما أقول.

ومضت أختي تقول بهدوء:

ـ إنه دائماً يقارن بيني وبينك، بل ولا يتحرج من أن يقول إنه كان يتمنى لو كنت أنا وأنت وأنا أنت.

سادت لحظات صمت قاسية بيننا كنت أفكر خلالها بأن أقول شيئاً، أي شيء مهما كان حتى لا تفسر أختي سكوتي وصمتي على غير ما أشتهي، وعاودني الهدوء وأنا أسمع أختي تتابع حديثها قائلة:

ـ ربما أكون مخطئة لكني مع كل ذلك أجزم بأنه حب من طرف واحد.

ضحكت في هستيرية وكأني لا أصدق ما أسمع ووجدتني ومن واقع حبي لها أقول:

ـ إذا كان ذلك صحيحاً أو مجرد وهم في عقلك فإن عَليّ أن لا أحضر إلى بيتك وأن لا أرى فريداً أبداً.

قاطعتني أختي لتقول:

ـ لا. أنا واثقة من أختي ورجاحة عقلها كما أنني واثقة منه أيضاً. فقد كنتِ أمامه قبل أن يقترن بي، وكان يمكنه أن يقول كلمة في هذا الموضوع تصحح مجرى الأمور إذا كان يعتقد أن على الأمور أن تتغير.

ابتسمت وأنا أحاول أن أتفلسف معها وأثني على فكرتها هذه، ونسيت في غمرة كل هذه الفلسفة أن أخبرها أنني سأسافر قريباً، وسأبعد عن هذا البيت لأواصل تعليمي وهي فرصة بعثها الله سبحانه وتعالى لي لأحافظ أيضاً من خلال سفري على هدوء حياة أختي التي أحب، إذ ربما بُعدي عنه يجعله يكف عن ملاحقة أختي بعبارات المقارنة بيني وبينها والتي كانت دائماً تنتهي لصالحي، لأنني هادئة عاقلة رزينة وهي ثرثارة عالية الصوت تحاول دائماً أن تعكنن على عيشته كما كان يردد على مسامعها.

وأنا ماذا عني؟ ماذا عن مشاعري؟

نعم البُعد دواء، والمسافات الطويلة التي سوف تفصلني عن بلدي والظروف الجديدة التي سأعيش فيها سوف تساعدني بالتأكيد على نسيان وجه ذلك الطفل الذي عرفت، ومع ذلك فقد أصبحت حريصة أكثر بعد كلام أختي، أصبحت لا أزورها في بيتها إلا عندما تكون وحيدة، أما عندما تأتي لزيارتنا برفقته فقد كنت أنتحل الأعذار لأمضي أكثر وقتي في غرفتي مع كتبي وكراريسي وأحلامي التي باتت تتركز في أن أصبح طبيبة وطبيبة ماهرة تعالج الآخرين كما تعالج نفسها وروحها أيضاً.

ترى ماذا يخبىء القدر لهذه الصغيرة التي هي أنا؟

وإلى متى سوف أظل على هذه الحال؟ وأختي.. هل يمكن لأختي أن

تستعيد ثقتها بزوجها؟ هل يستطيع هو أن يزرع تلك الثقة في نفسها وهو الذي اختار أن يقترن بها عندما لم يحاول أن يقول: لا؟ لوالده، نعم. . أن يقول لا إنه يريد أن يقترن بغيرها؟ كان هذا كل ما يحتاجه الموقف وأنا متأكدة أن الأمور كانت ستتغير ولكن لماذا لم يفعل؟

هل كانت تنقصه الشجاعة ليقف أمام والده ويقول مثل هذا الكلام؟ أم لا . . لا أريد أن أفكر أنه ليس على تلك الصورة التي رسمتها له وأنه ليس ذلك الرجل الذي هو رجل بمعنى الكلمة كما كان يصوره خيالي لي.

وواصلت الأسئلة طنينها في أذني بلا رحمة ولا هوادة، هل، وهل، وهل يستطيع الزمن أن يجعلني سعيدة أنا التي أحس بشقاء العالم كله ينصب فوق رأسي؟

أسئلتي الكثيرة هذه تحتاج إجاباتها إلى صبر وإلى سنوات طويلة لا أظنني قادرة على اجتيازها بمفردي. هكذا وجدت نفسي أردد وأنا ساهمة شاردة أنظر إلى الأفق البعيد، إلى الشمس التي تغوص وراء البحر الأحمر الذي أراه هادئاً صافياً من نافذة غرفتي التي أقف أمامها بينما أعماقي وكأنها موج عاتٍ في يوم عاصف ماطر.

هدوء البحر وصفاؤه انعكس عَليّ وأعاد الهدوء إلى نفسي ووجدتني مع كل هذا الألم والحزن الذي يغلف قلبي أشعر بأنني سوف أستطيع أن أصل إلى المجهول الذي أبحث عنه.

والمجهول في نظري في تلك اللحظة كان هو العالم الجديد الذي سأنطلق إليه في رحلتي هذه المرة مع الأمل وليس الألم فأنا. . أنا قادرة على تحمل وامتصاص الكثير من الآلام. أَوَلَم تثبت ذلك الأحداث التي مرّت بي حتى هذه الوقفة عند نافذتي أرقب غروب الشمس واختفاءها وراء البحر الأحمر لتعود من مكان آخر في صبيحة اليوم التالي متلألئة مشرقة تبعث الدفء والأمل في نفوس أمثالي؟

* * *

تظل المرأة تعايش الأحلام طوال سنوات حياتها. ربما لأن طبيعة الحياة

التي تمارسها والظروف التي تعيش فيها هي السبب، وربما لأنها جبلت هكذا، فالعاطفة جزء هام في حياة المرأة، والأحلام وسيلة من وسائل التنفيس عن الضغوط النفسية التي تحيط بقلب هذه الأنثى وجسدها.

في إسلام آباد بالباكستان وفي كلية الطب لم أكن وحدي، كان معي أكثر من فتاة من بلادي، ولكم أحسست بالحب لهذه المهنة التي سأمارسها بعدما أعود إلى بلادي.

سهى واحدة من بنات بلدي ارتبطت معها بصداقة منذ أول يوم تعرفت فيه عليها.

قالت لي ونحن نأخذ طريقنا إلى غرفة النوم المشتركة:

ـ أتدرين يا رباب؟ أنت جميلة، ومع هذا تواصلين دراسة الطب، لماذا؟

التفت إليها بكل جوارحي وقلت مستغربة مستنكرة:

ـ وهل دراسة الطب وقف على غير الجميلات؟

وبهزة من رأسها قالت:

ـ نعم.

ثم استطردت قائلة:

ـ انظري إلى وجهي. لو كان وجهي جميلاً لتزوجت وقبعت في بيتي هناك في مكة، لكني لا أكتمك السر بأنني بعد أن عرفت أن العلم طريق أمثالي في الحياة اخترت أن أحضر إلى هنا لألتحق بكلية الطب هذه.

فكرت كثيراً فيما قالته سهى وأخذت أناقش نفسي بهدوء وأناقشها هي أيضاً، ولقد ناقشتها أكثر من مرة في هذا الموضوع، فأنا غير مقتنعة بفكرتها.

قلت لسهى في أحد الأيام:

ـ العلم نبع يمتلىء منه الإنسان إلى أن يرتوي. قد ترتوي إحداهن بالقليل وتفضل أن تقطع دراستها وتتزوج وقد لا تفعل أخرى ذلك وتبقى المسألة مسألة اقتناع بغض النظر عن جمال الوجه والقوام. ثم إن الجمال شيء نسبي فما قد يجده أحدهم جميلاً قد لا يجده الآخر كذلك، والعكس صحيح وهذا بحد ذاته ينفي أن يكون هناك إنسانة جميلة تماماً وأخرى غير جميلة على الإطلاق، إذ

تبقى المسألة مسألة اقتناع ليلعب بعدها القسمة والنصيب دورهما في ربط هذا بتلك التي تبدو في نظره جميلة والتي قد لا تبدو كذلك في عينيك أنت يا سهى أو في عيني سواك.

وأعتقد أنني بمناقشتي هذه أقنعت سهى فقد كفّت عن الخوض في هذا الموضوع تماماً بعدها.

نعم أقنعتها ولكني لم أقتنع أنا بما روته لي، فهي وإن لم تكن جميلة فهي مقبولة ولا بد أن تجد من يتقدم للزواج منها، لذلك سألتها مرة ونحن حول مائدة الطعام:

أوأحببت يا سهى؟

وصمتت سهى ولم تجب لكنني رأيت دمعتين تنحدران بهدوء على خديها فاحترمت حزنها ولم أكمل، إلا أنها وبعد أن استجمعت نفسها حدثتني بكل قصتها. قالت بأنها أحبت ابن الجيران وشعرت وهي صغيرة بأنه فارسها وأنه سوف يخطبها، ولكن بعد أن كبرا خطب صديقة لها وتركها تجتر أحزانها وتبكي حلماً لم يتحقق أبداً.

سألتها:

- هل قلت له شيئاً؟ هل عرف بإحساسك نحوه؟

أجابت بحزن:

- لا فأنت أعرف بطبيعة المجتمع الذي نعايش.

ثم صمتت. لم أتركها لصمتها هذه المرة بل واصلت حديثي معها قائلة:

- أوتحبينه حتى بعد أن تزوج؟

ابتسمت بهدوء ثم قالت:

- مشكلتنا نحن الحرائر هي أن أحلامنا تظل تواصل رحلتها معنا حتى عندما نفقدها.

اكتفيت بهذه الإجابة التي تؤكد إخلاص المرأة لحبها عندما تحب بصدق، وانخرطت في النوم لأجد نفسي مرة أخرى في حوش التاجوري الذي ضاع.

وصحوت من نومي لأتسلم رسالة من سارة صديقتي أخت فريد، وأخذت

أقرأ الرسالة. ستستغربون مثلي كل ما قرأت. حاولت أن أنسى كل ما جاء في تلك الرسالة ولكن بلا جدوى.

أتدرون ما قالته سارة صديقتي وأخت فريد في رسالتها؟ لقد قرر أبوها أن يزفها إلى أبي وهي راضية بهذا القرار.

أبي لم يكتب لي ولكني وجدت أن من المناسب وبعد أن زالت الدهشة والاستغراب من نفسي أن أبعث إليه برسالة أشعره فيها بحقه في الزواج بعد كل هذه السنوات التي انقضت على وفاة أمي. بالطبع لم أذكر في رسالتي تلك اسم من يمكن أن يختارها ليقترن بها، تركت ذلك له وكأني لا أعلم عن الأمر شيئاً، بل كل ما أعلمه هو أنني أريده أن يكون دائماً سعيداً وراضياً.

وعلمت من أختي بعد ذلك تفاصيل ما حدث، فأبي اليوم هو من كبار الملاك، جادت عليه الحياة بالمال الوفير من خلال أعماله التي باتت تكثر وتتشعب يوماً بعد يوم، وأصبح في مقدورنا أن نعايش الترف، حتى أنا أصبحت أعايش هذا الترف، فقد زاد أبي من كمية المال الذي يبعث به إلَيّ، ولكن هل عز عَليّ أن يتزوج أبي بعد كل هذه الأعوام ورغم تلك الرسالة التي كتبتها له؟

نعم مثل هذه الفكرة طرأت على بالي لكنني كنت أطرحها بعيداً عني بقوة وصلابة فأبي على حق في أن يتزوج، وحزني في أن يكون هناك أنثى أخرى تحتل مكان أمي في بيتنا وفي قلب أبي يجب أن يكون لا معنى له أبداً.

زواج المرأة والرجل سُنة وضرورة، وبهما تكتمل مسيرة الحياة، لكن أن يتزوج أبي ويأتي بأخرى تحل محل أمي، وأن يتزوج فتاة في عمر سارة فذلك شيء لم أستطع أن أستسيغه أبداً وإن كنت أبدو في الظاهر أنني راضية ومقتنعة بما حدث. هكذا شاء لي القدر دائماً أن أبدي اقتناعاً بوضع أشعر في قرارة نفسي بعكسه تماماً.

وتوالت رسائل أختي، وعرفت منها كم تغير أبي بعد زواجه من سارة. لقد استطاعت هذه الفتاة أن تصنع منه رجلاً آخر ولدرجة خفت معها على أبي، فتغيير الظروف الحياتية لأي إنسان في مثل عمر أبي وفجأة كما حدث مع أبي أمر لا يطمئن الإنسان إليه أبداً.

كتبت سارة اخيراً لي رسالة تقترح عليّ أن أعود إلى جدة بعد أن تهيأت الظروف لاستكمال دراستي في كلية الطب التي كان قد تم إنشاؤها في جدة منذ مدة وأنه بذلك لا معنى لاغترابي.

نعم لقد تغيرت أحوال الحياة في بلادنا، وساد التعليم كل ركن من قرانا ومدننا، وأصبح التعليم الجامعي بكل تخصصاته ميسر لكل من يريد، وسولت لي نفسي أن أرفض العودة لكن حبي لأرضي ومجتمعي وللحياة فيها، وإن بدت أنها أثقل على نفس أنثى مثلي ولها مثل ظروفي، إلا أنها بشكل عام أجمل وأحب وأحلى.

جمعت ملابسي واتخذت كافة السبل والترتيبات الخاصة للعودة إلى الوطن في بداية الإجازة السنوية.

أمضيت فترة من الزمن أشتري من أسواق مدينة إسلام آباد التي أعيش فيها بعض الهدايا. لكنني على كثرة ما رأيت لم أجد شيئاً يمكن أن أشتريه وأقدمه هدية لأبي. فكرت كثيراً ثم عزمت على أن أختار له بعض العطور، عطور الورد والعود التي يحبها. أوَلَيس أبي الآن عريس يقضي معظم وقته مع زوجته سارة في الأسواق ينتقي الثياب الجديدة لها وله ويشتري من العطور الشيء الكثير كما أخبرتني أختي في إحدى رسائلها؟

وجاء يوم السفر. حملت أغراضي مع شوقي وحنيني إلى الوطن وإلى بيتنا وغرفتي المطلة على البحر وركبت الطائرة وأفكاري تأخذني هنا وهناك. ترى ما شكل الحياة التي سوف أحياها مع أبي وزوجته سارة؟

لا . . إن سارة طيبة وهي صديقتي ولا بد أن الأمور سوف تسير على ما يرام بيننا. هكذا كنت أحدث نفسي لأجد بعض الطمأنينة في أن أبي لم يتغير وفي أن مشاعره لي ولأختي سوف تستمر قوية دافئة كعهدها دائماً.

في المطار الذي كدت لا أعرفه، كانت سارة وأبي في انتظاري، فلقد وجدت أشياء كثيرة إلى جانب المطار قد تغيرت في بلادنا بفعل التطور والازدهار الذي رافق الحياة في تلك الآونة.

حتى أبي تغير، فقد وجدته قد أصبح ناعم الملبس، ينتقي حديثه مع الجميع بعناية، وكأنه يفاخر بأنه يعرف كيف يعيش حياته بسعادة وهناء.

عندما قدمت لأبي وسارة الهدايا التي أحضرتها لهما، ضحكت سارة وقالت:

ـ لقد أصبح أبوك لا يستعمل مثل هذه العطور. إنه يفضل البروت والجفنشي والعطور الأخرى الباريسية.

نظرت إلى أبي فرأيته وكأنه يؤمّن على قولها فلم أمتعض.

ربما لأن عقلي الباطن كان يخمن أنه لا بد وأن يحدث تغيير جذري في حياة أبي يتزوج ويدخل امرأة أخرى إلى بيتنا.

ورحت أتحين الفرصة التي يمكن لي معها أن أتحدث إلى سارة على انفراد.

وبالفعل حانت تلك الفرصة بعد أيام من وصولي.

سألتها عن زواجها وحياتها مع أبي فلم تبخل عَليّ بأدق التفاصيل.

قالت لي: إنها قد رحبت بمثل هذا الزواج الذي يتيح لها حياة رغدة هانئة.

وقالت عن أبي إنه زوج رائع لكنه غيور وإنها حاولت ولا تزال تحاول تهذيب غيرته هذه.

نظرت إليها وكأني أسألها سؤالاً لم أجرؤ على أن أقوله بصوتي، فقالت مجيبة:

ـ صدقيني لم أقل له أي شيء مما أعرفه عن حبك لفريد أخي، ذلك الحب الذي أعتقد أنه ذوى ومات.

هززت رأسي مؤمّنة على كلامها وأخذت طريقي إلى غرفتي وأنا أفكر.

ترى أيمكن للمرأة أن تتغير هكذا فجأة؟

سارة لم تكن كذلك أبداً، لم تكن تجري وراء الزوج الغني، فهذه الصديقة كانت تحلم بشاب مفتول العضلات يأتي على حصان أبيض من الأفق البعيد حاملاً الحب والعاطفة المتأججة. ما بالها لم تعد تفكر بأحلامها تلك والتي كانت جزءاً من حياتها وهي طفلة وعلى أعتاب الصبا والشباب في حوش التاجوري حيث كنا نجتمع بالساعات تحكي كل منا عن أحلامها وآمالها

والحياة التي تتمناها في المستقبل ويوم تصبح امرأة ناضجة تكافح مع رجلها وتبني أسرتها السعيدة طوبة طوبة؟ ما بالها قد نسيت كل ذلك واختارت الحياة الهينة اللينة أسلوباً لها تعيشه في هذه الدنيا؟

شعرت بأنني أكاد لا أفهم هذه المرأة، أهي صادقة فيما تقول عن أبي؟ أهي ممثلة؟ ماذا تريد حقاً وإلى ماذا ترمي من هذا الزواج؟

أسئلة خفت أن أجيب عليها بكلمة واحدة كانت ترن في أذني: المال.. إنها تزوجت المال ولا يهم من يملك هذا المال، لا. لا أريد أن أصدق، لا يمكن أن يكون الوضع كذلك أبداً، سارة أحبت والدي، رأت فيه الحنان والحب والعطف ولذلك تزوجته، تزوجته كي تضع رأسلها على كتف رجل يستطيع أن يحميها.

أفكار أخذت تتضارب في عقلي ولم تترك لي فرصة لأرتاح وأستكين.

لقد قدر لي أن أكون دائماً هكذا مشتتة الذهن مشغولة الفكر بسعادة أولئك الذين حولي، الشيء الذي لم يترك مجالاً لي كي أفكر بنفسي. وتنهدت وأنا أغلق نافذة غرفتي فنحن في فصل الشتاء وأنا أشعر ببرودة غريبة تدب في كياني وعقلي وقلبي.

أما أبي فقد تغيرت نظرته للحياة. لقد أصبح أكثر تفاؤلاً خصوصاً بعد أن حملت سارة. لقد أحس برغبة شديدة في أن يصبح أباً لطفل جديد وأصبح يتحدث إلَيّ وإلى أختي ثريا أكثر من ذي قبل. كان يطلب منا ومن كل من يعرفه أن ندعو له الله كي ينجب ولداً.

كان أبي يتوق لهذا الولد منذ كنا صغاراً وحتى قبل وفاة أمي، لكنه نسي هذا الأمر مع الزمن وخصوصاً بعد وفاة أمي، وقال عني في أكثر من مناسبة بأنني أنا التي سوف تغنيه عن هذا الولد الذي لم يأت.

أما اليوم فأبي إنسان آخر، سارة تضحك من لهفة أبي على الطفل حتى إذا مرت الأيام وأنجبت أراد الله لها ولأبي حظاً كبيراً فقد أنجبت سارة توأماً (ولدين) معاً أضافا على البيت لمسة حب جديدة ولمسة انتعاش سرت وتغلغلت لا في نفس أبي وحده، بل وفي نفسي أنا أيضاً.

ترى لماذا يتلهف الآباء والأمهات على إنجاب الأولاد؟ وهل هذا يعني أن الولد في رأي كل هؤلاء أهمّ وأفضل من البنت؟

أفكار كثيرة من هذا القبيل أخذت تحاصر مخيلتي أنا التي بودها أن تعرف كل شيء وأن تصل إلى أعماق كل شيء.

أختي هي الأخرى أصبحت شيئاً مغايراً عما كانت عليه بالأمس.

لكنها وبعد عودتي أحسست بأنها تحمل بين جنبات قلبها همّاً ثقيلاً لا تريد أن تفضي به إلى أحد حتى أنا.

أما أنا فقد عقدت العزم على أن أنسى طفولتي وذكرياتها وكل شيء عنها، ولقد شغلتني دراستي عن كل هذه الأفكار والذكريات. نعم شغلتني دراستي التي أخذت تسد علَيّ جميع منافذ التفكير في الماضي أنا التي كانت أفكاري تشاغلني باستمرار. لقد انخرطت في دراستي وأنا مشوقة لأن أصل إلى الغاية التي أريد وَكُلّي أمل في أن أعاود التجوال في ظروف الحياة التي نمارسها على أرض هذا العالم بعد أن أصبح طبيبة، طبيبة يشار إليها بالبنان.

* * *

الفصل الثالث

أختي تعود إلى بيتنا هذه المرة لتستقر نهائياً فيه.

لقد قطعت شعرة معاوية مع زوجها الذي اختار أن يبقى نائياً عنها.

منذ وصول أختي إلى البيت وسارة تنظر إلَيّ نظرات جانبية وددت لو أؤدبها عليها. لكنها لم تعاود الكرة منذ أن رأت تلك النظرة في عيني والتي تنبىء عما أنا عازمة عليه.

ولقد أصبح شغلي الشاغل سهري وصبري على أختي التي أحست بحبي الكبير لها وإيثاري لها في كل شيء لدرجة جعلتها تتحدث إلَيّ طويلاً وتفضي إلَيّ بكل الذي كان بينها وبين زوجها.

حاولت أن أصرفها عن هذا الحديث ولكنها كانت تصر على أن أستمع إليها، ولقد هالني كل الذي قالته أختي عن زوجها وما كان يحاول أن يدخل به في روعها عن حبه لي وحبي له، وأنه إنما تزوج بها إنفاذاً لرغبة أبوين، أبوه وأبي.

كانت المسكينة أختي تستمع إلى كل ما يقوله زوجها ثم تنسى كل ما كان يقول.

كان يساعدها دائماً على النسيان معرفتها بي وبصدقي معها حتى إذا ما طفح الكيل طلبت منه أن يطلقها ويتزوجني وهي تعرف أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يتم.

ولا تدري متى ساءت أخلاقه أكثر وأكثر، أو ربما كانت أخلاقه سيئة أصلاً، وإنها بدأت تتكشف لها مع الأيام وبمرور الزمن. المهم

أنه كان يوجه لها ليلاً ونهاراً تلك العبارات التي تدل على عدم اقتناعه بها، وعلى حسرته على أيامه التي سوف يقضيها مرغماً معها إنفاذاً لرغبة والده.

وفجأة وبينما كانت تقص علَيّ أخبارها من زوجها التفت إلَيّ وسألتني بجدية:

ـ أوَتتزوجين هذا الغادر لو كان الأمر ممكناً؟

وبلا وعي أجبتها:

ـ لا وألف لا، ومن كل قلبي.

وأحسست بعدها بالراحة فجأة.

فعلاً أحسست أنني لا أعرف هذا الإنسان الأناني الذي يقضي وقته في اللهو بعيداً عن مسؤولية بيته وزوجته. لا أعرف هذا الإنسان الذي هو أبعد ما يكون عن ذلك الرجل الذي كنت أحلم به وأنا صغيرة وأصنع منه مثالاً لكل الرجال، وجاء دوري أسأل:

ـ أوَلا تزالين تحبينه؟

صمتت أختي بشكل يوحي أنها بالفعل ما زالت تحبه.

وعدت أسأل:

ـ رغم كل ما كان يقول وما كان يفعل؟

صمتت مرة أخرى بشكل جعلني أتبع ذلك السؤال بسؤال آخر، قلت:

ـ أوَتَوَدّين أن تعودي إليه؟

قالت:

ـ لا.

ـ لماذا؟

تساءلت وأنا متلهفة أن أسبر أغوار أفكار أختي التي فاجأتني وأدهشتني في نفس الوقت.

أجابت:

ـ لأنه لا يستحق أعود إليه برغم حبي له؛ حبي الصادق الذي بدأ يوم

عرفت أنه سوف يكون من قسمتي ونصيبي.

نظرت إلى وجه أختي وقلت:

ـ على أي حال أنت لا تزالين صغيرة والمستقبل أمامك فلماذا لا تصنعين كما أصنع؟

ضحكت أختي وقالت:

ـ تريدينني أن أعود للدراسة لأصبح مثلك؟

ـ وما المانع؟

قلت وأنا أعني كل كلمة أقولها.

عندها وجدت أختي أن لا مناص لها إلا أن تجيب بعبارة:

ـ دعيني أفكر.

قلت:

ـ فكري جيداً فربما بالتعليم تستطيعين الخروج من الحيرة التي تعيشين فيها فتعرفين تماماً ماذا تريدين وكيف تصلين إلى ما تريدين.

قالت: وهي تبدو شبه مقتنعة:

ـ لا بأس ولكن مشواري سوف يكون كما ترين طويلاً.

لم أعقب على كلامها وتركت ذلك لحديث آخر في مرة أخرى وانسحبت إلى غرفتي وأنا أفكر في كل ما سمعت.

ترى هل يمكن لأختي أن تنساه إذا ما عاودت رحلتها مع العلم؟ إذا ما انغمست بين الكتب والمراجع؟

وفي يوم تخرجي من كلية الطب فاجأتني أختي برغبتها وعزمها على العودة إلى مقاعد الدراسة. لم أصدّق في أول الأمر فالموضوع قد ناقشناه أكثر من مرّة وكانت في كل مرة تبدو شبه مقتنعة ولكن الأيام تمر بعدها فلا أراها تقدم خطوة واحدة في طريق تنفيذ هذا الأمر.

أعادت علَيّ أختي كلماتها متمهلة وكأنها كانت تظن أنني لم أسمعها وأنني مشغولة عنها بالفرحة الغامرة التي شاعت في أرجاء نفسي وفي أرجاء بيتنا

الكبير بمناسبة تخرجي وابتداء كوني بالفعل أصبحت طبيبة بعد أن كان الجميع يناودنني بلقب الدكتورة رباب باعتبار ما سيكون.

وسمعت أختي تقول:

ـ ألا تساعدينني؟ سوف أعود إلى مقاعد الدراسة.

أجبتها بفرحة غامرة تضاف إلى فرحتي بتخرجي:

ـ بالطبع سوف أساعدك وأقف إلى جانبك كما فعلت دائماً، غداً ومنذ الصباح الباكر سوف نزور صديقتي سوسن التي تعمل في مكتب الشؤون التعليمية لنقدم أوراقك ونرى من أين يمكن أن تبتدئي مرة أخرى.

أثبتت الأيام صدق أختي في رغبتها في المضي قُدُماً في رحلة العلم الطويلة. مضت جادة تختار طريقها بصلابة لا تقلّ عن صلابتي في اختيار طريق حياتي تاركة وراءها أياماً لا تريد أن تتذكرها، على حد تعبيرها.

ولقد كنت أرمقها وأنا في رضى تام عن نفسي، فلقد نفذت واجبي نحوها بدقة، وأخذت بيدها لكي تصل إلى شط الأمان، ولم أعد قلقة عليها البتة، ولا عجب فهذه هي أنا الإنسانة التي كان ولا يزال جُلّ همها أن تكون إنسانة تملك في يدها وعقلها وقلبها ما يساعدها على أن تمنح السعادة لمن حولها ولمن يطلبها منها.

وفي أعماقي كنت أشعر أن عملي كطبيبة سوف يمنحني قدرة أكبر على تنفيذ مثل هذا الأمر.

وانصرفت بادىء الأمر إلى تحقيق هذه الرغبة في إسعاد الآخرين وبأكبر شكل ممكن إلى أن أحسست في أحد الأيام وبعد حديث طويل مع أبي أن عَليّ أن أفكر في حياتي الخاصة، أفكر في نفسي فالأيام تجري وعلَيّ كما يقول أبي أن أقتنص سعادتي الشخصية قبل أن يفوت الأوان. نظرت يومها إلى وجهي في المرآة.

نظرت طويلاً فرأيته لا يزال ذلك الوجه الطفولي رغم سنوات عمري التي باتت تقترب من الحلقة الثالثة.

يقولون إن المرأة تشعر بالعنوسة عندما تتعدى سنوات عمرها الثلاثين فهل

كان أبي يخاف علّي من العنوسة عندما طلب مني الالتفات إلى حياتي الخاصة والاهتمام بها؟ وهل أنا شخصياً أخشى هذه العنوسة؟ لا وألف لا! أنا لا أفكر في شيء من هذا. عالمي اليوم هو بيتنا، أبي وزوجته وأخَوَيّ وأختي، وأنا سعيدة جداً بهذا العالم.

أبي أصبح أكثر حاجة لي كطبيبة منه لي كابنة، لقد أصيب قلبه الذي لا يعرف إلا الحب بشيء غير يسير من المرض.

لن أقول لكم ماذا أصاب قلب أبي فأنتم في غير حاجة لهذه التعبيرات الطبية التي نستعملها، يكفي أن أقول إن خلطاً شارك دقات قلبه فمزق ذلك الخلط قلبي أنا ابنته الطبيبة.

كنت أنظر إليه وأنظر إلى زوجته فأخاف عليه أكثر وأكثر عندما أراه يزداد كبراً وذبولاً، وتزداد هي إشراقة وفتنة، ولقد أحسست بانصرافها عنه وعن رعايته بعد أن ازداد المرض عليه رغم أنه هو شخصياً لم يكن يشكو أبداً، وربما لأنه أحس بالخطأ لزواجه بها، إلا أنه يظهر أن مثل هذه الفكرة كانت تختفي تماماً عندما تلتقي عيناه بعيني ولديه بدر وبندر، لأنني كنت أحس عندها وكأن سعادة العالم كله تبدو واضحة على وجهه المتغضن ذي الابتسامة التي تشع عطفاً وحناناً.

ترى أوَيُمكن أن يتمسك الإنسان بالحياة هكذا مثل والدي وعن طريق أن يخلف وراءه من يحمل اسمه من أولاده، ثم يتشبث بالحياة أكثر وأكثر ليرى من يحمل اسمه شاباً قوياً يستطيع تسيير حياته بنفسه؟

نعم. هكذا كان والدي.

ذات مرة قال لي والأسى يعلو وجهه:

ـ كنت أظن أنني سوف أعيش لأرى بدراً وبندراً رجلين يعتمد عليهما فأطلب منهما رعايتك أنت وأختك بعدما أموت، لكن المرض يشتد علَيّ ويظهر أنه لن يمهلني طويلاً حتى يتحقق لي مثل هذا الأمر. هل لي يا بنيتي أن أطلب منك أنت رعايتهما إذا ما أغمضت عيني في القريب العاجل؟

ابتسمت ابتسامة حزينة وأنا كطبيبة أعرف تماماً صدق ما يقول عند اشتداد

المرض عليه ولكن بصوت حاولت أن أبدو فيه مرحة متفائلة قلت:

ـ كما يقول الناس عادة في مثل هذه الأحوال: بعيد الشر عنك يا والدي.

وكنت أتمنى لو أنه بالفعل يحدث شيء ما يرد لأبي صحته ويجعله يعيش طويلاً، يعيش ليرى بدراً وبندراً رجلين كما يرغب ويتمنى.

تابع أبي كلامه قائلاً:

ـ لم أعد أخاف عليك أو على أختك ولكني أخاف على هذين الصغيرين من هذه المرأة التي لا تؤتمن عليهما.

وكان بالطبع يعني زوجته سارة.

قال ذلك أبي بحسرة، ورغم إيماني بما كان يقوله عن سارة التي غدت امرأة لعوباً لا تهتم إلا براحتها وسفرها وانبساطها، إلا أني حاولت أن أطيّب خاطره وأن أرجوه ألا ينفعل لأن الانفعال يزيد المرض ولا يساعد أبداً على الشفاء منه.

أبي صورة مشرقة للحياة الحلوة، فهو رغم مرضه إلا أن مرحه معي ومع أختي وولديه يكاد لا ينتهي. أما بالنسبة لسارة فقد تغيرت نظرته لها بعد أن رأى انشغالها الأكيد عنه.

قال لي مرة وأنا جالسة إلى جانبه على حافة سريره:

ـ ألم تعتقدي في يوم من الأيام أنني قد أخطأت بزواجي ثانية بعد أمك رحمها الله؟

نظرت إليه نظرة حانية وقلت لأول مرة معاتبة:

ـ ربما لو تزوجت بغيرها لما خطر على بالك أن تفكر في هذا الذي تقوله الآن.

عقب على كلامي قائلاً:

ـ لا أكتمك القول. لقد قلت هذا الكلام لنفسي مراراً وتكراراً بعدما أحسست أنني أخطأت بزواجي من سارة ولكن ما العمل؟ كنت في يوم من الأيام لا أفكر إلا بأن أرى لي ولداً على هذه الأرض وكانت أيامها سارة أمامي وأبوها صديقي فلم أر نفسي إلا وأنا أتزوجها.

قال ذلك وهو ينظر إليها وهي تدخل الغرفة.

حاولت سارة أن تعرف ماذا كان يقول أبي عنها حيث التقطت أذناها وهي تدخل الغرفة اسمها ينسل همساً من بين شفتي أبي، ولكن أبي لم يفصح لها عن أي شيء مما كان يقوله، عندها انفجرت غاضبة وراحت تقول بصوت عال بل زعيق يسمعه كل من في البيت:

ـ طبعاً يحق لك أن تخفي كل ما كنت تقوله عني، فأنا لست قريبة منك وإن كنت زوجتك.

لم يجب أبي على ذلك الصراخ، وأنا بدوري لم أقل شيئاً.

آثرنا الصمت حتى لا تغضب أكثر فينال أبي من سياط لسانها ما عودته عليه في الأيام الأخيرة وما كان يبرهن على أنها لم تعد سارة صديقتي القديمة التي كانت من العقل والرزانة بحيث إنني كنت أبوح لها بأدق أسراري.

خرجت سارة من غرفة أبي بعد سيل من اللوم والعتاب والكلام القاسي، ودخلت أختي بعدها لترى ماذا يحدث، وماذا يغضب تلك القطة المتوحشة التي باتت (تخربش) كل من يعترض طريقها. إلا أن أبي عاود حديثه معنا وكأن الأمر لا يعنيه من قريب أو بعيد، عاود حديثه بكل الحنان الذي تعرفه أختي عنه قبل أن أعرفه أنا، لم أقل لكم إنها أختي وتكبرني بأعوام خمسة وإنها الصورة طبق الأصل عن أمي الأناضولية التي مضت إلى بارئها تاركة إياها وإياي في عهدة هذا الوالد الطيب الذي لم يألُ جهداً أن يكون لنا أباً وأُماً في نفس الوقت نفسه.

نعم أصبحت سارة إنسانة غير تلك الصديقة التي عرفتها، وغير تلك الزوجة التي كانت عليها في أول عهدها بالزواج من والدي. كل شيء فيها تغير، أصبحت لا تكلم أحداً منا، تميل إلى الصمت دائماً، وإذا ما تكلمت فهي تتكلم بالتليفون مع صديقات جدد لها لا أعرفهن، وإذا ما خرجت فإنها تقضي الساعات خارج بيتها، ومع هؤلاء الصديقات اللواتي كما كنت ألاحظ لا هَمّ لهن إلا الأحاديث الفارغة والكلام المنسق عن الموضة وأحدث صيحات الأزياء في العالم.

وهي بذلك تزداد بُعداً عن أبي، وتزداد شططاً في طلباتها بعد أن دان لها

كل شيء كما كانت تعتقد بمنح والدي بدراً وبندراً اللذين لم تكن لتعرف عنهما أي شيء، فهما بالفعل في رعايتي أنا، وهي في المقابل بعيدة عن أية مسؤولية في البيت، وأبي في ذلك كله لم يعد قادراً على مجاراتها أو فرض إرادته عليها.

قالت لي يوماً:

ـ لقد زهقت من هذه الحياة التي أعيشها جاء الصيف وانقضى ولم نسافر إلى أي مكان يعيد البهجة إلى نفسي.

نظرت إليها نظرة عتب ولوم وقلت:

ـ وكيف تسافرين وزوجك على ما هو عليه؟

قالت بعناد وإصرار:

ـ ولكني لا أزال شابة في مقتبل العمر مثلك، ويجب أن أتمتع بشبابي قبل أن يتقدم بي العمر.

ـ مثلي أنا؟

تساءلت بسخرية.

أجابت بتحدٍّ:

ـ نعم مثلك، ولكن لماذا تسخرين مني ومن كلامي؟

قلت:

ـ لأنك اخترت أسهل طرق العيش وهذه هي النتيجة فتحمّليها.

بكت سارة ولكني لم أحفل بدموعها وتابعت كلامي قائلة:

ـ لو كانت لديك الشجاعة الأدبية الكافية لقلت لنا ماذا تريدين ووضعت حَدّاً لهذا الذي أنت فيه.

مسحت دموعها وقالت بحدة:

ـ وماذا تعرفين أنت عن الذي أريده والذي لا أريده؟

قلت بهدوء:

ـ بلى أعرف. بعد أن صنعت حياتك بالأسلوب الذي تريدين تجدين الآن

أنك كما تقولين في مقتبل العمر، وقد ارتبطت برجل في أواخر أيامه فلم يعد هذا يرضيك.

وتابعت كلامي قائلة وأنا أقصد إيلامها:

- ثم لماذا رضيت به من البداية أصلاً؟

نظرت إليّ نظرة غريبة لم أعرف كيف أفسرها ولكنها لم تجرؤ على الكلام بل تركتني وانسحبت تدخل غرفتها وتصفق الباب وراءها وكأنها تعلن احتجاجها على كلامي هذا.

مضيت إلى أبي لأرى إذا كان يريد شيئاً قبل أن أنام لكني عندما وصلت إلى سريره صعقت وأحسست كأن السماء قد انطبقت على الأرض.

يا إلهي لقد مات أبي، ودّع الدنيا منذ دقائق وأنا وأختي وولداه بعيدون عنه، وعلى دويّ صوتي وصراخي جاءت أختي لتشاركني البكاء المرير على أبٍ كان كل شيء في حياتي.

عندما دخل بدر وبندر الغرفة ثم سارة رجوتها أن تأخذهما بعيداً، لا خوفاً عليهما وإنما لأنني أحسست برغبة في أن أبقى لفترة مع أبي وأختي، أسرته الأولى قبل أن يمضي من الغرفة إلى مثواه البرزخي، ذهاب دون إياب ولا عودة إلى الدنيا.

امتلأ بيتنا بالأهل والأصدقاء، وجاء فريد لأول مرة منذ أن انقطعت أواصر الزواج بينه وبين أختي.

جاءنا معزياً فلم أستطع أن أقول له شيئاً، تقبلت منه العزاء وأنا ساهمة أفكر في هذا الذي جرى وأستعرض حياتي منذ كنت طفلة وكأنه شريط سينمائي يمر أمام ناظري.

أستعرضها منذ طفولتي وحتى هذا اليوم الذي نتقبل فيه العزاء بأبي الذي نحب وبعد أن ودعناه إلى قبره قبل أيام.

* * *

بمقدار ما تصبح الثروة نعمة بالنسبة للإنسان بمقدار ما تصبح في بعض الأحوال نقمة تزيد من هموم أصحابها ولا تمنحهم الراحة.

سارة زوجة أبي جعلت من ثروة أبي ما يشبه النقمة بالنسبة إليها، فهذه النهمة لا تريد أبداً أن تنال حقوقها بطريق ودّي. لقد زادت شراستها بعد موت أبي وأصبحت عبئاً ثقيلاً على أسرتنا. لقد وضح هدفها وانفضحت رغباتها، إنها تريد أن تمسك بميراث ولديها إلى جانب ميراثها لتصرفه حسبما تريد وتشتهي، لكني كنت لها بالمرصاد. نعم خفت على أخويّ من هذه المرأة التي هي أمّهما مما اضطرني أن أطلب من عمي ولأول مرة أن يتدخل بيننا وبينها بعد أن تركت ولديها والتحقت بأخيها غاضبة وعلى أمل أن نرضخ لطلبها.

ولكم أحسست بالأسى وأنا أستمع إلى الأخبار التي تصلني من هنا وهناك عنها وجُلّها تشير إلى ما تريده هذه المرأة.

إنها تريد الزواج، وبالفعل تمّت خطبة سارة إلى أحد أقاربها من الشبان والذي رأى في زواجه من أرملة ورثت كذا ألفاً هدفاً ليصل إلى حياة رغدة سهلة دون أن يتعب أو يكد في سبيل الوصول إلى مثل هذه الحياة، أي تماماً مثلما فعلت هي عندما تزوجت من أبي.

إن ما تأخذه المرأة من زوجها السابق تدفعه حتماً. وفي كثير من الأحيان لزوجها التالي، في محاولة لإرضائه خصوصاً إذا كان مثل سامر الذي «لاحَقَ سارة لا حُبّاً بها وإنما حُبّاً بالمال الذي ورثته من أبيك».

هكذا قالت جدتي عندما علمت بقرب زفاف سارة من سامر العاطل عن العمل والذي كان رأس ماله قوام رشيق وكلام أنيق منمق يرضي غرور أمثال سارة ويدفعها لأن تقول:

ـ وماذا يعني أنه لا يعمل؟ إن حظه سيء بحيث إنه كلما التحق بعمل وجد فيه ما ينغص عليه عيشته فيتركه غير آسف.

ثم إنه بالمال الذي معي أستطيع أن أعيش وإياه عيشة هانئة حتى من غير أن يعمل أو ربما قد أفتح له محلاً تجارياً ليصبح من رجال الأعمال فهو ذكي ولماح واجتماعي.

«ووصولي وانتهازي بمعنى الكلمة»

ـ هذا ما وددت أن أرسل من يقوله على لساني لسارة التي أصبحت تعيش

بعيداً عنا في بيت أخيها فريد. عندما وصلني رأيها في سامر وخططها المستقبلية معه، ولكني تمالكت أعصابي ولُذت بالصمت أفكر بسارة التي باتت تنزلق رويداً نحوه حفرة خطيرة رضيت أن تحفرها لنفسها بنفسها.

أما فريد فقد حاول أكثر من مرة أن يتقرب إليّ وبأكثر من واسطة، لكني كنت دائماً أصده وأقفل الأبواب والسبل التي كان يحاول عن طريقها أن يلج مرة ثانية إلى حياتنا.

أختي نالت شهادتها الجامعية، بكالوريوس أداب قسم علم اجتماع، ولقد سعدت كثيراً وأنا أراها سعيدة وكأنها نسيت آلامها وحياتها الماضية. ولكن ما أسعدني أكثر هو أن الدكتور خالد أحد الأطباء العاملين معي قد تقدم لطلب يدها حتى بعدما عرف ظروف حياتها الماضية، وللعلم فإن الدكتور خالد طبيب بارع مشهود له بالتفاني والإخلاص في عمله وبالأخلاق الحميدة أيضاً.

حاولت أن أعرف رأي أختي به وبخطبته لها إلا أنها كانت تتمنع وتأبى أن تجيبني حتى تلك الليلة التي استطعت فيها النفاذ لعقلها الباطن وإقناعها. لقد كانت تخشى الزواج مرة أخرى بعد تلك التجربة الفاشلة مع فريد.

قلت لها في تلك الليلة وأنا أكتشف مخاوفها:

ـ ثريا يا عزيزتي إنك لا زلت شابة وبمقدورك أن تنسي تلك التجربة القاسية التي مرت بك فالحياة لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة؛ فلا بد من صعود وهبوط فيها، ولا بد من أيام عصيبة مليئة بالمشكلات وأيام سعيدة هانئة نتطلع إليها حتى ولو كنا في خضم تلك الأيام العصيبة، فكما يقولون: لولا فسحة الأمل والإيمان بأن الله لا بد وأن يغير الحال بأحسن منها لما عاش الإنسان.

نظرت أختي إلى وجهي نظرة ملؤها أسى ولوعة وقالت:

ـ لقد جربت حظي يا رباب وأنت تعرفين ملابسات زواجي من فريد، فرض علينا ذلك الزواج بإرادة والدي ووالده، وعندما رضيت بقسمتي ونصيبي وضع فريد العراقيل أمامي، فأحياناً يتمنى لو تزوج منك، وأحياناً يتمنى لو لم يتزوج على الإطلاق حتى لا تتقيد حريته في معاشرة تلك الشبكة التي كان يقضي جل ليله ونهاره معها متسكعين في الطرقات تارة أو جالسين في مقهى على الطريق تارة أخرى.

قاطعتها لأقول:

ـ ماذا دهاك يا ثريا؟ ألم تنسَيْ ذلك الماضي؟ بل ألم نتعاهد على عدم الالتفات إلى الوراء مهما كانت الأسباب؟ كل ما عليك الآن أن تتذكري شيئاً واحداً فقط وهو أن من جاء يخطبك اليوم وهو راغب في الاقتران بك على مستوى رفيع من الخلق والتهذيب مما يكفل لك حياة سعيدة معه بإذن الله، من يدري ربما شاءت إرادة الله أن تَصلِي إلى غايتك وتعيشي حياة سعيدة هانئة بعد كل تلك الاضطرابات التي مرت بك.

قالت مترددة:

ـ ولكني لا أعرفه لدرجة أستطيع أن أقول معها إنني أحبه.

قلت بحزم:

ـ حسناً لقد جربت الزواج عن طريق شيء اعتقدت أنه الحب فماذا لقيت؟

وهم كبير وسراب، عايشته طويلاً وكان صعباً التخلص منه، فلا كان فريد هو الفارس الذي رسمته صورة في خيالك وأحببته من خلال تلك الصورة ومنذ ذلك العهد الذي عرفت أن أباك وأباه قد اتفقا على تزويجكما من بعض، ولا كانت أخلاقه أخلاق الرجال.

الآن كل ما عليك أن تحكّمي عقلك أولاً ثم قلبك وأنا واثقة من النتيجة لأنك أصبحت على درجة من الوعي والإدراك ما يكفل أن يجعلك تسيرين في الطريق الصحيح.

فكري بالأمر جيداً فالفرص الطيبة لا تمر كثيراً في حياة الإنسان.

وعدتني أختي أن تفكر في كل الذي قلته لها ولكنها فاجأتني ونحن نغادر غرفة الجلوس في طريقنا إلى غرفة الطعام لتناول وجبة العشاء قائلة:

ـ وأنت لماذا لا تتزوجين؟

شعرت وكأن سؤالها مطرقة تهوي فوق أُمّ رأسي. سرحت ورحت أفكر في أمري وأمرها، في حياتنا نحن الاثنتين. إنني أشجعها على الزواج من الدكتور خالد في الوقت الذي أتهرب فيه من أي إنسان يشير من قريب أو بعيد إلى موضوع ارتباطي بالزواج من أي إنسان كان.

ترى هل كتب علَيّ أن أعالج أختي من عقدتها من الزواج في الوقت الذي يبدو ومكأن عقدتي منه أكبر وأشد؟

أختي لم تترك لي مجالاً للاستمرار في الشرود والتفكير لأنني وجدتها تهزني وتقول:

ـ يا رباب، رباب لَمْ تجيبي على سؤالي.

تمالكت أعصابي واستعدت الابتسامة التي كانت مرسومة على شفتي، بل وقلبتها إلى ضحكة مجلجلة وأنا أقول بمرح مصطنع حتى لا تلاحظ أختي شرودي واضطرابي لمجرد التفكير في موضوع ارتباطي أنا بإنسان ما بالزواج:

ـ مهلاً عليّ يا أختي سوف أجيبك.

ووجدتني بعد أن استجمعت أفكاري أردد:

ـ من قال لك إنني لا أفكر بالزواج؟ ولكن فارسي لم يأت بعد، هل تريدنني أن أخطب لنفسي أحدهم وأطلبه عريساً لي؟ طبعاً مثل هذا الأمر لا يجوز على الأقل في مجتمعاتنا الشرقية أليس كذلك؟

ضحكنا سوياً هذه المرة ودلفنا إلى غرفة الطعام لنتناول عشاءنا وكل منا تفكر بطريقتها الخاصة. من ناحيتي كنت واثقة تماماً من أن موافقة أختي على زواجها من الدكتور خالد مضمونة تماماً.

وتزوجت أختي بالفعل من خالد بعد خطبة قصيرة وانتقلت لتعيش معه في البيت الملحق بالمستشفى الذي نعمل به، في السكن المخصص لأطباء المستشفى.

وقد كان يثلج صدري أنني كنت أراها سعيدة مشرقة تبدو وكأن الحظ أصبح يبتسم لها بلا حدود.

أما أنا فقد أصبحت أعيش وحدي في ذلك البيت الواسع، بيت أبي الكبير الذي لا يضم سوى بدر وبندر أخويّ وجدتي التي أصبحت مجرد هيكل بشري أشرف على خدمته ورعايته بكل الجهد الذي أستطيعه.

نظرت مرة إلى جسدها المسجى على السرير بأسى فلقد هالني ما يصل إليه الإنسان في أرذل العمر. أهذه جدتي التي كانت تملأ البيت حركة ونشاط وأنساً

وبهجة؟ أهذه جدتي التي كانت تنطق بالحكمة في كل أقوالها وتصرفاتها؟

إلا أن ما عزّاني هو أنها كانت لا تزال تتعرف إلى بعض من يزورها وبالأخص عليّ أنا، كنت أعرف ذلك من ابتسامتها التي كانت تكبر كلما رأتني والتي كانت أيضاً تحمل كل معاني العطف والحنان والحب، أمّا وقتها فقد كانت تمضي معظمه في قراءة سور من القرآن الكريم بأسلوبها ولهجتها المحببة إلى نفسي.

وقد تتساءلون وأنا؟ ماذا عني وعن حياتي وعواطفي؟

عن هذا السؤال أجيب:

أنا أصبحت أعيش لأخوي بدر وبندر وكأنني الأم التي اختارها الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهما بعد أن لفظتهما سارة أمهما التي ولدتهما واستتب لها الحال مع زوجها الجديد سامر.

مرت الأيام ورزقت أختي بطفل ثم طفلة أسمت الأول باسم أبي والثانية باسمي أنا. ومع أنها كانت مشغولة ترعى بيتها وأولادها وزوجها إلا أن ذلك لم يكن ليمنعها من أن تلتحق بإحدى الجمعيات الخيرية في محاولة منها للإسهام في خدمة مجتمعها وإسعاد بعض من تستطيع إسعاده، وكان بالطبع زوجها الدكتور خالد يشجعها على ذلك.

ألم أقل لكم إن معدنه أصيل وإنه كريم الأصل والمنبت، رائع الخلق والمعشر، وإن أفعاله الطيبة وأخلاقه الحسنة تشهد له بذلك؟

وفي إحدى تلك الليالي وبينما كنت الطبيبة المناوبة في المستشفى الذي أعمل به سمعت جلبة وضوضاء إثر دخول سيارة الإسعاف إلى قسم الطوارىء، وعرفت أن هناك أمراً. حملت سماعتي وقبل أن أغادر مكتبي إلى قسم الطوارىء رن الهاتف ليعلن لي المناوب الليلي في قسم الطوارىء ما توقعته، قال:

ـ هناك حادث. رجل مصاب، كان يسوق سيارته بنفسه عندما حصل الحادث، لا نعرف ملابسات ما حصل، أحضرته لنا دورية الشركة.

لقد جاء كلامه متقطعاً من هول ما يرى في ذلك المصاب، ولذلك أسرعت

أقفل السماعة وأذهب إلى قسم الطوارىء بعد أن قلت له:

ـ لا بأس لا بأس، أنا في طريقي إليك.

ووصلت إلى قسم الطوارىء واقتربت من ذلك الجسم المسجى أمامي وما إن طالعني وجهه حتى أصبت بشيء من الهلع، لقد كان فريداً، فريداً الذي كنت أتحاشى مقابلته أو مجرد الحديث عنه، ولكن في هذه المرة لم يكن هناك وقت للعواطف.

الأمر مختلف تماماً. إنه إنسان مصاب وأنا الطبيبة المعالجة، لا يمكن أن أتهرب منه كما كنت أفعل كلما حاول لقائي أو الكلام معي بعدما ترك أختي، وبعد ما تزوجت أختي حيث كثرت محاولاته لاعتقاده أن زواج أختي من الدكتور خالد قد يقرب بيننا، بيني وبينه.

أمضيت الليل كله ساهرة عليه بدافع واجبي الإنساني فقط لا غير.

أو هكذا خيّل إلَيّ فلأول مرة أواجهه وجهاً لوجه، ولأول مرة أشعر أنني لا أعرفه، وأنه ليس ذلك الشخص الذي عاش في خيالي وأنا على أعتاب الشباب.

يا إلهي أكان كل ذلك وهماً نسجته أنا لنفسي بنفسي؟

إنه أمامي ولكنه لا يحرك فيّ أي عاطفة كانت. في الصباح وعندما تحدثت أختي معي تلفونياً تذكرني بالندوة التي وعدت أن أشارك فيها في عصر ذلك اليوم في الجمعية التي تنتسب إليها أهملت ذكر فريد؛ إذ عندما سألتني:

ـ كيف كانت ليلة الأمس؟

أجبتها بعدم اكتراث:

ـ لا شيء يذكر.

قضيت الليل أقرأ وأشرف على بعض أولئك المرضى المتواجدين في المستشفى.

لقد كان جُلّ تفكري ينصبّ في أن أبعدها عن سماع أخبار ذلك الغادر الذي يرقد محطماً على أحد الأسرّة على بُعد قليل منها فسكن الأطباء الذي تسكن فيه كان خلف المستشفى تماماً.

مرت شهور وفريد راقد في المستشفى ومع ذلك فلم تدر أختي شيئاً عنه حتى الدكتور خالد أثنى على إخفائي الخبر عن أختي، وأكد أنه لا داعي لأن تعرف شيئاً فهو الآن ليس إلا أحد أولئك الذي يؤمّون المستشفى للعلاج، والذين نقوم نحن بواجبنا تجاههم بغض النظر عمن يكونون.

ألـم أقل لكـم إن كل الأحداث قاطبة تؤكد على معدنه الأصيل وخلقه الرفيع؟

أخذت حالة فريد تتحسن شيئاً فشيئاً، ولكنني أنا شخصياً كنت أنأى عن الحديث إليه إلا في أضيق نطاق ممكن، وفي تلك المرة التي وجدت أن من واجبي كوني الطبيبة المعالجة أن أقول له شيئاً، خصوصاً بعد أن عرفت أن سبب الحادثة كانت أنه كان يسوق بعد أن تعاطى بعض المخدرات، وعندما كنت أحاول إفهامه الهوة السحيقة التي كان ينحدر إليها بتعاطيه مثل هذه السموم إذا به يفاجئني قائلاً:

ـ أنت السبب.

تساءلت باستنكار:

ـ كيف؟

قال:

ـ رفضت أن تقترني بي بعد أن طلقت أختك رغم أنني تقدمت إليك بعد زواجها لعلمي أنه لم يعد هناك عقبة ما، أو أمر محرج غير مستساغ.

قلت له بغضب:

ـ ولكنك تعرف أن الأمر مستحيل فأنا أعرف أن أختي كانت يوماً ما تكن لك من الحب الشيء الكثير.

قال:

ـ ولكنها تركتني وتزوجت بغيري ونسينا الأمر تماماً. لماذا لم توافقي أن نبدأ من جديد رحلة حياتنا معاً خصوصاً وأن الدين يمنحنا مثل هذا الحق؟

ابتسمت ابتسامة حزينة وأنا أدرك أن مزيداً كان مجرداً حتى من العواطف الإنسانية. فكل ما فكر فيه هو العقبة التي أزيلت من دربه. أما علاقتي بأختي

شقيقتي وحبي الكبير لها وتضحيتي بنفسي في سبيل إسعادها فذلك أمر لم يكن ليخطر على باله أبداً.

لذلك كله حاولت أن أنهي الموضوع بصورة مختلفة فقلت له:

ـ صدقني يا فريد أنا لم أعد أصلح للزواج.

أجابني في ثقة وعناد:

ـ وأنا لا زلت أريدك، أريدك على ما أنت عليه الآن. ثم أنسيت حديث الطفولة وتعلقك بي؟ إن تكوني قد نسيت فهناك من لم ينس.

وكان يشير بذلك إلى أخته سارة.

سادت لحظات من الصمت بينما كنت أفكر خلالها بفريد الذي اعتقدت في يوم من الأيام أنني أحببته بالفعل ولا أدري كيف انطلقت من شفتي العبارة التالية:

ـ لماذا رضيت خطبة أختي إذا كنت لا تحبها هي بل تحبني أنا؟

لا أدري كيف انطلق ذلك السؤال الذي ظل حبيساً في نفسي سنوات وسنوات سؤال كان يلحّ عليّ. صدقوني ليس لأنني كنت ألومه على زواجه من أختي، بل كانت محاولة مني لإقناع نفسي أنه لم يكن رجلاً بمعنى الكلمة، أي لم يكن ذلك الرجل الذي كنت أحلم وأتمنى أن يكونه وأنه بذلك بالفعل لا يستحق أن أفكر به لحظة واحدة.

سمعت صدى صوته وأنا أسبح بأفكاري هذه يقول:

ـ خطبت أختك بضغط من والدي وأنت تعرفين أننا لا نستطيع شيئاً حيال ما يقرره الكبار. لقد نشأنا في حوش التاجوري، وأنت أدرى الناس بحوش التاجوري، والناس الذين كانوا يعيشون في حوش التاجوري.

أعادت إلَيّ عبارة حوش التاجوري والناس الذين يعيشون في حوش التاجوري ذكريات وذكريات.

ذكريات كنت أود نسيانها ولكن هيهات فبعض الذكريات تتغرس في باطن أعماقنا لا تريد فكاكاً.

ترى ما هو شعوري نحو الآن؟ سؤال بعد حديثي هذا مع فريد لم أعد

أعرف كيف أجاوب عنه. ولم ينقذني من أفكاري سوى دخول الدكتور سمير زميلي إلى الغرفة بعد أن عرف مكاني وكان يريد أن يستشيرني في إحدى الحالات.

نظر الدكتور سمير إلى فريد وقال لي بمرح:

ـ أنت مدهشة فمريضك ولله الحمد بتحسن دائم.

ثم خاطب فريداً قائلاً:

ـ افرح يا عم ستخرج بعد بضعة أيام وذلك بفضل هذه الطبيبة الماهرة.

ضحكنا أنا والدكتور سمير، أما فريد فقد قال بعصبية:

ـ ولكني لا أريد أن أخرج حتى أشفى كلياً.

ابتسم سمير في محاولة لتهدئته وقال:

ـ ومن قال لك إنك ستخرج قبل أن ينتهي علاجك تماماً؟

بالطبع كان فريد يقصد شيئاً آخر من بقائه في المستشفى، شيئاً مغايراً لما كان يقصده الدكتور سمير. كان يريد أن يوهمني أنه يريد البقاء في المستشفى حتى يراني أمامه باستمرار.

حاولت أنا أن أنهي المناقشة فتسللت خارجة من الغرفة وتبعني الدكتور سمير بعد أن طيب خاطر فريد.

سألني الدكتور سمير ونحن نسير في الممر الطويل باتجاه المصعد:

ـ أوتعرفين هذا المريض معرفة شخصية؟

أجبته بلا اكتراث أو هكذا حاولت أن يبدو صوتي:

ـ نعم، لقد كان في يوم من الأيام زوجاً لأختي.

قال الدكتور سمير:

ـ ولكنه يبدو.

قاطعته وأنا أتمتم:

ـ ولقد كان جارنا في المدينة، في حوش التاجوري.

خرجت كلمات حوش التاجوري مرتعشة من فمي بشكل كادت أن تفضحني فأردفت قائلة وأنا أضحك:

ـ لقد كنا صغاراً وكنا نلعب معاً في تلك الحقبة من الزمن.

وعلت وجهي حمرة خفيفة وأنا أنطق بهذه العبارة وكأني طفلة صغيرة خافت أن يكشف الآخرون سرها.

* * *

الفصل الرابع

أختي وزوجها وأطفالها فقد رزقها الله بطفل آخر بعد أحمد ورباب أسماه الدكتور خالد أسعد على اسم أبيه، في بيتنا في ضيافة طويلة.

فلقد رغبت في أن يقضوا معنا عطلة عيد الفطر المبارك الذي جاء والصيف على أشده، وصدقوني أنه مع الفرحة التي كانت تغمرنا والسعادة التي كنا نتمتع بها وقد تجمع شمل عائلتنا الصغيرة لم نشعر بقيظ الحر ولفحاته أبداً.

ربما كان أيضاً لوسائل الراحة التي امتلأت بها بيوت أهل جدة في هذه الآونة من الزمن دخل هي الأخرى في إشاعة المزيد من الراحة والسعادة على قلوبنا جميعاً.

وخلال تلك العطلة وبينما كنت في المطبخ مع أختي نعد معاً الطعام الذي اشتهرت به المدينة مسقط رأسينا ومرتع طفولتنا تطرق الحديث بيننا إلى أيام الطفولة ولعبنا ومرحنا في تلك الأيام ووجدتني أسألها فجأة ودون وعي مني عن فريد.

قلت:

ـ ترى هل لا زلت تذكرين فريداً؟

انتفضت أختي وكأن عقرباً لسعتها فأدركت أنني أخطأت بمجرد ذكر اسمه، ولكن إدراكي لهذا الخطأ كان بعد فوات الأوان، لُذتُ بالصمت وأنا أرى سحابة حزن تكسو مُحَيّا أختي التي قالت بعد لحظات مجيبة عن سؤالي:

ـ لقد خرجت من بيته بقلب حزين كسير ولكني لا أكتمك القول إنني عندما انغمست في طريق العلم بدأت أنساه رويداً رويداً، أما بعدما تزوجت وأنجبت فإنني لم أعد أرى له مكاناً في قلبي. أتصدقين. . . لقد نسيت حياتي القاسية معه. حقاً إن الزمن كفيل بمداواة الجروح.

تمتمت قائلة وكأني أحدث نفسي:

ـ ولكن هل يمكن للمرأة أن تنسى أول حب في حياتها؟

ووجدت أختي تقول بصوت هادىء رزين:

ـ الحياة يا أختاه تفرض على المرأة نسيان مثل هذا الحب خصوصاً إذا رافقته آلام وأحزان وكان الوهم فيه أكبر من الحقيقة. لو تدرين يا أختي، لقد دخلت بيت الزوجية مع فريد وأنا أظن أنني أحبه، ولكن عندما عاشرته تبخر ذلك الحب، بل ووجدت أن ذلك الحب لم يكن سوى وهماً من صنع خيالي. هل تتصورين أن فريداً إنسان أبعد ما يكون عن الشرف والإيمان؟ لقد كان يتعاطى المخدرات ويقضي معظم لياليه خارج البيت.

صدقيني لقد حاولت إصلاحه ولكنني أعترف أنني فشلت، والمصيبة هي أنه كان يعايرني بك ويؤكد لي أنه لو تزوجك أنت لتركته يفعل ما يحب ويشتهي دون أن تكدري عليه أيامه بالنقاش والمجادلة والتبرم والسخط ومحاولة إرغامه على التخلي عن شيء يحبه.

ضربت بيدي على صدري وقلت باستنكار:

ـ أهو كان يقول ذلك؟ إذن فهو لا يعرفني إطلاقاً، فلست أنا التي ترغب بأنصاف الرجال، أو ممن هم على هامش الرجال والرجولة. ولكن لماذا يا عزيزتي لم تخبريني بكل هذه الأمور في حينها؟

قالت:

ـ لا عليك. لننس الأمر كلياً فلو لم أتزوجه أنا وأقاسي منه الأمرين لكنت أنت التي سوف تقاسين، لأنه لم يكن ليتزوج بغيرك وهذا ما لا أرضاه لك أبداً.

عانقت أختي وأنا أجدها ترد لي حبي لها بحب أكبر.

فأنا أيضاً يوم من الأيام وعندما علمت بحبها لفريد طويت حبي له، أو ما كنت أظنه حُبّاً في قلبي، وداريته عنها بل سحقته سحقاً كي تنعم هي بحياة كنت أظنها سوف تكون سعيدة.

أما أختي فقد كانت تبتسم وهي تقول:

- أتدرين يا رباب.. أحياناً قد تفسد بعض التقاليد الاجتماعية أحياناً أشياء كثيرة في حياتنا. انظري ماذا فعلت بحياتي وأنا على أعتاب الصبا.

اتفاق أبي ووالد فريد على تزويجنا من بعض كان السبب في تعاستي في تلك الفترة، وأحمد الله أننا الآن بلغنا من العلم والوعي ما يجعل الكثيرات منا يقفن في وجه مثل تلك التقاليد.

ووجدتني أفكر في عالمنا الإسلامي ككل وكيف أن ما شرع للمرأة في الإسلام لهو قمة وهو يعطيها حقها كاملاً غير منقوص، ويصونها جوهرة مكنونة في أطوار حياتها بعيداً عن أي شيء قد يقهرها أو يسبب لها ظلماً مهماً كان ضئيلاً، بعكس المرأة هناك في الغرب فقد ظلمت في التاريخ القديم والتاريخ الحديث على السواء.

في التاريخ الماضي مثلاً ظلمت المرأة في أوروبا وامريكا واستراليا وغيرها، كما أنها ظلمت هناك أيضاً في التاريخ الحديث وإن كانت أنواع الظلم قد تغيرت أو تبدلت، والغريب أن العلم الذي فتح لنا نحن نافذة على الوعي والإدراك وجعلنا نعرف حقوقنا وواجباتنا بصورة أوضح لم يصل بالمرأة في العالم الذي يسمّي نفسه العالم المتقدم إلى مثل هذا الأمر؛ فالمرأة هناك كانت ولا تزال أسيرة رغبات الرجال الذين يستنفذون طاقتها وكأنهم يتآمرون عليها مع العمر والزمن، وحتى إذا ما غدت حطاماً أو تقدمت في السن لفظوها وتركوها دون هوادة ولا رحمة.

حمداً لله فقد رسم الإسلام للمرأة عندنا نحن المسلمين طريقاً يضمن لها حسن الخاتمة والحياة الكريمة إلى أواخر أيام حياتها، بحيث تكون تحت رعاية وكنف زوجها، أو ولدها، أو أقربائها، لا يتخلون عنها مهما كانت الظروف والأحوال، بل يحترمونها ويجعلونها تحتل الصدارة في بيوتهم معززة مكرمة.

أكثر من شهور ستة مضت وسارة لم تعد بعد من رحلتها مع زوجها سامر،

شهور عسل يمضيانها متسكعين في رحلة حول العالم، وطبعاً الفضل في ذلك يعود إلى المال الذي ورثته عن أبي فكلنا نعرف مدى إمكانات زوجها، وكيف أنه غير قادر على إعالتها أو تلبية أقل متطلباتها، وأنا لا يهمني بالطبع ماذا تفعل سارة أو كيف تبذر المال الذي ورثته، ولكن كل ما يهمني أنها لم تعد تسأل عن ولديها، وأنني أستطيع بذلك أن أقدم لهما الرعاية والعناية الشاملة حسب وصية أبي رحمه الله وطيب ثراه.

طبعاً هناك أوقات تأتي يسأل فيها أحدهما عن سارة، عن أمه، وحيث إنني كنت أرغب في إبعاد الصغيرين عن المشكلات والهموم والأحزان لذلك كنت دائماً أقول لهما مسافرة وإنها عندما تعود سوف تحمل لهما من الهدايا الشيء الكثير.

رأي أختي كان عكس رأيي. كانت تود لو نطلعهما على حقيقة ما حدث، ويظهر أن رأيها كان صائباً هذه المرة لأنني في إحدى المرات الكثيرة التي كانا يسألان فيها عن أمهما فوجئت بقول بندر:

ـ عمتي أليس هناك من وسيلة نتصل بها أو تتصل هي بنا أم أنها تحب زوجها الجديد أكثر منا؟

وعرفت أنهما يعرفان الحقيقة، فلقد تسربت إليهما بطريقة أو بأخرى، ولقد دفعني ذلك لأن أفكر في أن أقول لهما رأيي الحقيقي في سارة أمهما، وأن أنعتها بالاستهتار والخفة والطيش والنزق، ولكني عدت واستغفرت الله أن أفعل حتى لا تتحطم صورتها كأم في نفسيهما البريئتين، لملمت نفسي وأخذت أداعبهما قائلة:

ـ ألست أنا أمكما الآن؟

قالا وفي صوت واحد:

ـ بل أنت تفضيلنها يا عمتاه.

وابتسمت في سعادة فهذا وحده يجعلني في قمة السعادة أنا المرأة التي لم تتزوج ترى لها ولدين اثنين يكنّان لها كل هذا الحب، وأنا من جهتي رغم أنني لم أذق طعم الأمومة، إلا أنني كنت أمارسها في أفضل حالاتها مع أخويّ

العزيزين على قلبي بدر وبندر.

أيمكن للمرأة أن تنسى أمومتها وشوقها لهذه الأمومة؟

أليست المرأة هي الوعاء الكبير الذي يمنح الدنيا شرايين الحياة عن طريق الأطفال الذين تلدهم ليعمروا الأرض ويضيفوا إلى أمجادها أمجاداً جديدة؟

هذا ما كنت أفكر فيه دائماً، ومع ذلك فقد كنت أشعر أن وظيفتي في هذه الحياة قد كملت رغم أنني لم أتزوج بعد، وذلك عن طريق رعاية وتربية أخويّ بدر وبندر.

جدتي في فترة صحو من الفترات القليلة التي كنت أراها فيها صافية الذهن قادرة على التركيز قالت لي وهي تبتسم ابتسامة عذبة ملؤها الحب والحنان:

ـ أتدرين يا رباب لو أنك تزوجت وأنجبت يا بنيتي لما استطعت أن تمنحي أطفالك أكثر من هذا الحب الذي تمنحينه لأخويك. حقاً إن الله لطيف بالعباد، سخّرك لهما بعد مضي أبيهما إلى بارئه وهجر والدتهما لهما، هنيئاً لك بما تصنعين وجزاك الله عما تفعلين خيراً، بل خيراً كبيراً.

أما أختي ثريا فقد كان جُلّ همّها أن تراني عروساً وقد ارتديت الطرحة البيضاء أتمخطر بها في ليلة الزفاف وسط دقات الدفوف وزغاريد الزفافات، تلك الأمنية التي تنتظر تحقيقها كل فتاة على رأي أختي، وهي تهمس بكل هذا في أذني كلما سنحت لها الفرصة.

أما أنا فقد كنت أقابل ذلك بابتسامة فقط لا غير، الشيء الذي كان يثيرها ويجعلها تردد أنها لا تمزح وأنه آن الآوان كي أفكر بالزواج وإلا . . .

كانت تصل إلى هذا الحد من الكلام وتصمت. في إحدى المرات أردت مداعبتها فأكملت لها جملتها قائلة:

ـ وإلا فسوف يفوتني قطار الزواج وأبقى عانساً مدى الحياة أليس هذا الذي تودين أن تقوليه لي؟

انتفضت أختي وراحت تقول بعصبية:

ـ بعيد الشر عنك يا أختي، لماذا تصبحين عانساً وكل يوم يطرق بابك خطيب أو أكثر، كل ما عليك أن تشيري بإصبعك إلى أحدهم حتى يتقدم لك

فتجدي نفسك ما بين يوم وآخر في الكوشة ترتدين الثوب الأبيض والطرحة البيضاء؟

صَمَتُّ لحظة وأنا أقابل انفعالها بهدوء مما جعلها تهدأ وتعاود كلامها قائلة:

- رباب أريدك أن تفكري جدياً في وضع حد لحياتك بهذا الشكل. أريد أن أراك في كنف زوج يظلل عليك ويسعدك.

قلت لها عندئذ جادة:

- اسمعي يا ثريا، ألست معي وبعد تجربتك الفاشلة مع فريد أن بقاء الفتاة دون زواج أرحم من أن تتزوج إنساناً لا ترى سعادتها معه؟

قالت:

- معك حق ولكن ليس كل الرجال مثل فريد.

قلت لها بلطف:

- إذن فنحن متفقتان؛ فإما زواج من رجل شهم يعتمد عليه وذو أخلاق حميدة وإلا فلا.

واستطعت بذلك إقناعها وقفل باب المناقشة بخصوص موضوع زواجي. سرحت بعد ذلك أفكر في أولئك اللواتي يتزوجن من أول طارق على بابهن دون رؤية أو دون اقتناع وفقط لمجرد ألا يمضي بهن قطار العمر دون زواج ولعلهن لا يدركن خطأ ما يفعلن إلا بعد فوات الأوان. وعندما لا يجدي الندم شيئاً ولا يعيد لهن الحياة إلى الوراء. وصممت أن أظل عند رأيي.

لا يمكن أن أغيره مهما كانت الظروف والأحوال. نعم لن أتزوج إلا من الرجل المناسب، هذا إذا وضع الله في طريقي مثل هذا الرجل، وإلا فسوف أبقى هكذا بلا زواج دون ندم ولا أسف، وأعتقد أني برأيي هذا على صواب وأن على كل فتاة أن تحذو حذوي عندما يصبح الأمر متعلقاً بمستقبلها الشخصي. ألستم معي في رأيي هذا؟

* * *

الفصل الخامس

دعوني أبكي فجدتي تستحق أن أبكي عليها. هذه المرأة التي وصلت إلى هذه المرحلة المتقدمة من العمر كان لها فلسفة خاصة وكبيرة. منها تعلمت الصبر، ومع الصبر تعلمت أيضاً أن أُبقي الأمل شعلة نابضة في روحي وعقلي وقلبي.

بعد أن أغمضت عينيها كل ما أحس به الآن وبعد مضي مدة على وفاتها هو ذلك الحب العارم الذي كانت تكنّه لي في صمت. لم أكن أظنها وهي المرأة الفيلسوفة قادرة على أن تحب بعمق فقد قالوا لي إنها لم تذرف دمعة واحدة، توفيت أمي رغم أنها كانت تعتبرها ابنتها ومن رائحة البلد الذي هي منه. على حد تعبيرها، أليست أمي من الأناضول هي الأخرى كجدتي تماماً؟

لطالما تحدثت جدتي مع أمي باللغة التركية كما كان يحدثنا أبي، ولطالما كان أبي على حد قوله أيضاً يخشى من حديثهما بلغة بلدهما ربما لأنه لم يكن يجيد منها سوى كلمات أضافت إليهما أمي بعض التعابير والكلمات الأخرى التي كان يحلو لها أن ترددها على مسامعه من وقت لآخر.

وربما لأنه كان يخشى أن يتفقا عليه سوياً، أمي وجدتي، ويرغمانه على عمل قد لا يرغب هو في تنفيذه.

جدتي، كما كنت أحس، كانت تحبني كثيراً ولقد تركت لي رسالة عمرها أكثر من عشرين عاماً أرفقت بها سوارين وحَلَقاً من الماس كان جدي قد ابتاعها لها في ليلة عرسها

نظرت إلى هديتها بعد أن تسلمتها وقرأت كلماتها البسيطة

النابضة من القلب فشعرت أني أحبها أكثر من ذي قبل، لا لأنها خصّتني ببعض من مجوهراتها وإنما لأنها لمست شغاف قلبي بكلماتها التي أرفقت بها الهدية والتي دلت على أنها تذكرني منذ أن كنت صغيرة.

إنها تقول في رسالتها إنها تخصني بهذه الهدية لأنها ترى فِيّ إنسانة قوية يعتمد عليها، وإنها متأكدة من أنني التي بإذن الله، سوف ترعاها عندما تكبر، وتنهي رسالتها بقولها:

ـ «لا تسألي يا رباب كيف عرفت أنك التي سوف تقومين على رعايتي وخدمتي، فكما يقول المثل: المكتوب يُقرَأُ من عنوانه، وأنت يا رباب من يومك، أي منذ كنت صغيرة، عاقلة تميلين إلى الجدية والهدوء، وتتصرفين برزانة لا يستطيعها الكثير من الكبار».

نسيت أن أقول لكم إن جدتي الأناضولية تعلمت القراءة والكتابة هناك في بلدها، في الأستانة، موطن العلم والمتعلمين في ذلك الوقت.

رحمك الله يا جدتي، إنك بعملك هذا وبرسالتك تلك تدفعيني لأن أتفانى أكثر وأكثر في رعاية مَن حولي، في رعاية أخويّ بدر وبندر، وفي رعاية أختي وأولادها رغم أنها في كنف رجل ولا كل الرجال.

ثلاثة شهور مضت على وفاة جدتي، هالني خلالها أنني لم أكن أعرف جدتي على حقيقتها، نعم لم أكن أعرف جدتي صاحبة تلك الفلسفة الخاصة على حقيقتها حتى كانت تلك الرسالة وتلك الهدية، فإذا بي أكتشف أنني لم أكن أتعمق في حديثي معها حتى أعرفها. ليتني فعلت لكنت تعلمت حتماً أشياء كثيرة ومن يدري فلربما كنت وفرت على نفسي مأساة أن أعيش وهماً كبيراً يعشعش في قلبي وروحي ويجعلني أجبن من أن أخرج للحياة. أنطلق فيها وأفتح قلبي للربيع، للحب، لأشياء أخرى غير العمل الجاد، والعمل الجاد فقط لا غير.

أما الآن وبعد أن عرفت هذه الحقيقة هي تجدني أستطيع فكاكاً من حياتي التي أقضيها على هذه الوتيرة الجادة، هل أستطيع أن أفتح قلبي للحب والربيع ولرفيق درب أمضي الحياة برفقته أبادله الإخلاص والحب، أتفانى به ويتفانى بي؟

يكون عوناً لي وأكون عوناً له؟

نساعد بعضنا في جعل مسيرة حياتنا مسيرة خضراء وواحة عشق يحكي الأجيال قصتها؟ ثم إنه هل يوجد أصلاً مثل هذا الشخص الذي يحمل هذه الأوصاف التي أتحدث عنها؟ أفكار بدأت تدور بمخيلتي وتأخذ حيزاً من تفكيري بعد وفاة جدتي.

أما المفاجأة التي أذهلتني فعلاً والتي جاءت بعد وفاة جدتي بأكثر من ستة شهور، هي أنني بينما كنت أبحث في إحدى درفات خزانتها الكبيرة عن صورة قديمة لأبي كانت قد التقطت له في تركيا عندما كان برفقة جدتي في الزيارة اليتيمة التي ذهبت فيها إلى هناك لرؤية أهلها، وكانت تحرص على الاحتفاظ بها بين أشيائها الخاصة، عثرت على دفتر صغير أخضر الجلدة لم يكن أحد قد انتبه إليه من قبل ونحن نعيد ترتيب خزانة جدتي بعد وفاتها، حملت الدفتر وبدأت أقلب صفحاته فإذا به يحوي مذكرات جدتي، تلك المذكرات التي لم يكن أحد يعرف عنها شيئاً.

حملت المذكرات وكأني أحمل كنزاً ثميناً ومضيت إلى غرفتي، جلست على حافة السرير مأخوذة بما أقرأ. كانت المذكرات عبارة عن جداول وأنهار وتواريخ وكلمات رائعة سطرتها أنامل جدتي لتكون شاهداً على أيام مضت وأمانٍ تحققت.

لقد كتبت جدّتي في يوم مولدي بأنها كانت ترجو الله أن أكون ولداً لأنها خافت علَيّ كأنثى من صروف الحياة وظروفها وقسوتها.

وكتبت جدتي بعد شهر من مولدي بأنني سوف أكون فتاة طيبة تتحمل الكثير والكثير، ولكن لم تكتب كيف تسنى لها أن تكوّن مثل هذه الفكرة عني! لا أدري، حقاً لا أدري. ربما كان إلهاماً من الله، وربما كان استنتاجاً منها لحركاتي وسكناتي.

كما كتبت عن أبي بأنه وإن كان طفلها المدلل إلا أنها كانت تأمل بأن يصل إلى أرقى درجات العلم.

وقالت جدتي أشياء جميلة عن أمي، قالت إن أمي امرأة جادة وصابرة وعلى درجة كبيرة من الجمال وإنها إنسانة مؤمنة تحمل قلباً لا يعرف إلا الحب.

ويوم تغيرت أحوال أبي المعيشية وأصبح على ما أصبح عليه قبل أن يتوفى كتبت تقول:

- ليت (جلبهار) «وتعني أمي» كانت موجودة لتعيش الخير والعز بعد الضنك بعد وحياة العوز والفقر والحرمان التي عاشتها مع أبي.

ومن مذكرات جدتي عرفت أبي وأمي أكثر وأكثر.

عرفت أحوالنا كلها في حوش التاجوري، وعرفت أشياء أخرى لم يكن ليتسنى لي أن أعرفها لولا هذه المذكرات. لقد عرفت أن عمتي سعاد التي كانت تعيش في زقاق الزرندي بالمدينة ماتت بعد أن قتلها الحزن والأسى وأسلوب زوجها الصارم في معاملتها.

لقد قرأت الكثير عن ظلم بعض الرجال لنسائهن، ولكني وحتى بعد أن قرأت عن اضطهاد زوج عمتي سعاد لها وقسوته في معاملتها لَمْ أفهم لِمَ تكون بعض النساء ضعيفات بهذا الشكل بحيث يصبرن على مثل هذا الظلم.

ولا يزال هذا السؤال يجول بخاطري إلى يومنا هذا، وعرفت من مذكرات جدتي أيضاً أساليب العيش في الزمن الذي مضى، كيف كان الجميع يفرحون معاً، وكيف كانوا يحزنون معاً، وكيف كانت أفكارهم جميعاً تتجه نحو إسعاد بعضهم بعضاً ولا شيء غير هذا أبداً.

حتى الخزعبلات التي كانت تشيع في مجتمع المرأة آنذاك عرفت عنها الكثير من مذكرات جدتي. جدتي تشجب جميع مظاهر هذه الخزعبلات، (كالبدوي والزار) وغير ذلك مما كان الجهل يشيعه في نفوس النساء يوم كانت المرأة كَمّاً مُهملاً لا حول لها ولا طول في كثير من الأحيان.

وعرفت كيف كان الآباء يستقبلون مواليدهم، والأسلوب الذي يحتفون به عندما يختمون القرآن، وكذلك شرعة المرأة وزينتها عندما تتزوج، وضحكت عندما قرأت بأن العروس عندما تزف كان يجب أن تغمض عينيها حتى لا ترى أحداً، وأن العريس عندما يزف إلى عروسه تحاول الفتيات غرس مشابكهن في بدنه فإذا أظهر انزعاجاً فمعنى ذلك أن الزواج لا يبشر بخير، وبالطبع كان العريس لا يدري من أمر هذه الذي تجلس إلى جواره شيئاً البتة، ولا حتى صورة وجهها لأنه في العادة تكون أمه أو أخته أو عمته هي التي رأتها نيابة عنه وخطبتها له.

وعرفت من المذكرات أن أمي لم تكن الزوجة الأولى لأبي وأنه سبق وأن تزوج بأخرى قبلها عندما كان يطلب العلم في الهند، وأنه بذلك كان هو الآخر متعلماً في الوقت الذي كانت تتفشى الأمية في المدينة المنورة.

أما زوجة أبي الأولى فقد جاء في مذكرات جدتي أنها توفيت بالهند بحمى النفاس بعد أن وضعت مولودة ماتت بعد يومين من مولدها.

عالم آخر لا أعرفه اطّلعت عليه وقرأت عنه من خلال مذكرات جدتي التي على ما يبدو كانت تكتبها يومياً وأحياناً أسبوعياً، وكأن الموضوع أو الحدث الذي تريد أن تسطره هو الذي كان يملي عليها ما تكتب.

قارنت بين خطي وخط جدتي وحظي وحظها، فوجدت أن خطها وحظها أفضل من خطي وحظي، أوَلَم تتزوج جدتي وتنجب وتؤدي رسالتها كامرأة كاملة في حين أنني محرومة من الأمومة التي لا أستطيع أن أمارسها لأنني لا أجرؤ على الزواج؟ نعم لا أجرؤ على الزواج خوفاً من أن أقترن بإنسان لا يكون كما أريد فيفشل زواجي، وهذا ما أستطيع أن أتصوره.

ولكن هل يعني ذلك أن المرأة المتزوجة دائماً أوفر حظاً من غيرها؟ أبداً فهناك الكثير من الزيجات التي فشلت وانتهت بالطلاق تماماً، كما أن هناك الكثير من الزيجات التي تعتبر ناجحة، وذلك بغض النظر عن المكان والزمان فزواج جدتي ومثيلاتها في زمانها وزمان أمي قد نجح رغم أنه كان يجري بأسلوب لا ترى فيه المرأة زوجها ولا يراها هو أيضاً إلا ليلة الزفاف.

هل نسبة الزيجات الناجحة في زمان أمي وجدتي أكثر من تلك في زماني؟ ولماذا كنت أفكر بهذه الأمور وأنا أسمع عن نسبة الطلاق المتزايدة في زماننا الحاضر رغم ارتفاع درجة العلم والوعي عند المرأة والرجل على السواء؟ ترى ما هو السبب؟.

شغلت ذهني هذه الأفكار ولم أجد لها جواباً شافياً، وظللت أفكر وأفكر حتى إذا ما كَلَّ ذهني وتعب فكري وأنهيت تصارع هذه الأفكار في رأسي بأن هززت رأسي وقلت لنفسي:

مالي ومال هذا التفكير وأنا امرأة لم تتزوج بعد؟ ودعوني أعترف لكم، إنني كثيراً ما فكرت في هذه الآونة بالذات بضرورة الزواج، ولكن الشجاعة ـ

والحق يقال ـ لم تؤاتني رغم كثرة أولئك الذين تقدموا لخطبتي والذين كنت أرفضهم تباعاً، لا لقناعتي بأنني لا أصلح للزواج، بل لخوفي منه فقد كنت أشعر أن هناك شيئاً كبيراً من خلال الماضي لا يزال يغلف قلبي، وأنا رومانسية التفكير رغم خطواتي العلمية وأصول دراستي وحياتي التي أعيش.

في بعض الأحيان أجد نفسي أفكر في فريد وقصته معي إذ يظهر أن أول تجربة حب في حياة المرء تَحفُر ذكراها في أعماق أعماقه.

ولكنني أرفض الاستمرار في هذا التفكير بل وأرفض كل صلة بيننا وبين كل من يَمُتُّ إليه بِصِلة.

حتى سارة والدة أخويّ (بدر وبندر) بعد عودتها من الإجازة الطويلة، عفواً من شهور العسل مع زوجها سامر، أدركت حالة القرف التي وصلت إليها منها ومن أخيها من قبلها لدرجة أنها أصبحت تلج بيتنا لرؤية ولديها عندما أكون أنا خارج البيت وكأنها لا تريد أن تواجهني بعد سلسلة الأخطاء التي ارتكبتها.

ولكن هل زواج سارة خطأ بالفعل؟ في قرارة نفسي لا أصف زواج هذه المرأة بالخطأ، ولكن الخطأ كل الخطأ في رأيي أنها اختارت شخصاً غير مناسب لها، وكذلك الخطأ كل الخطأ في الأسلوب والطريقة التي سارت عليها بعد الزواج.

كنت أفكر بسارة وأقلّب أمرها بل وأحاول تبرير فعلتها مع نفسي في إحدى تلك الليالي وأنا جالسة أراقب البحر من نافذة غرفتي عندما أعلنت خادمتي عن مجيئها.

ثم التفت للخادمة وأنا أُجيب ببرود:

ـ أعلِمِي بدراً وبندراً بمجيئها.

فوجئت بقول الخادمة:

ـ ولكن في هذه المرة تصر على رؤيتك أنت يا سيدتي.

ووجدتني أهز رأسي وأقول:

ـ حَسَناً دعيها تنتظرني في الصالون الكبير.

عندما دخلت الصالون كانت سارة تتكوم على نفسها في إحدى زوايا

الصالون وكأنها غريبة عنه وهي التي كانت في يوم من الأيام سيدته.

قالت سارة وفي صوتها شيء من الخنوع:

ـ هل تسمحين لي بالعودة إلى هذا البيت والعيش معك ومع وَلَدَيّ؟

تساءلت وأنا أفتح عينَيّ على آخرهما:

ـ وزوجك؟

وأتبعت ذلك قائلة في سخرية:

ـ ربما تريدين مني أن أسمح له أيضاً بالمعيشة معنا.

قالت سارة في توسّل:

ـ أرجوك يا رباب كُفِّي عن سخريتك هذه، فلقد جئت بعد أن تطلقت من زوجي سامر.

تساءلت مستنكرة:

ـ تطلقت ولم يمض على رجوعك من شهور العسل الستة التي أمضيتها في الخارج سوى شهور مثلها؟

قالت:

ـ نعم، نعم ولكن اعفيني من ذكر الأسباب. يكفي أن أعترف لك أنني كنت مخطئة عندما تزوجته. كان الخطأ يلفني من شعر رأسي إلى أخمص قدمي.

وأردَفَت وقد أُغرقت عيناها بالدموع:

ـ ربما كان عذري الوحيد أنني بعد وفاة والدك لم أكن أعرف بالضبط ماذا أريد.

سادت لحظات صمت تذكّرت خلالها أن سارة كانت في يوم من الأيام صديقتي الوحيدة وأنها كانت بمثابة أختي؛ بل هي التي كنت أبوح لها بما في نفسي ولا أفعل مع أختي، ولم أعد إلى الواقع إلا على صوت سارة تقول:

ـ أرجوك يا رباب لا تحرميني نِعمة أن أكون قريبة من ولدَيّ بعد أن فقدت الزوج والمال، لقد أتى زوجي على كل المال الذي كان معي، أوهمني أنه

سوف يفتح مؤسسة تجارية باسمي فعملت له توكيلاً سحب على إثره كل ما أملك وهرب بعد أن ترك لي ورقة الطلاق.

وأردفت وقد أصبحت الدموع تنحدر على خديها مدراراً وهي تحاول حبسها بلا فائدة:

- لقد أخطأت، أخطأت بحق أبيك وأخطأت بحق ولدَيّ وأخطأت بحق نفسي.

وأكملَت وقد أصبحت تبكي بصوتٍ عالٍ:

- أنا أعرف أنني لا أستحق أن أعيش فحتى ولدَيّ عندما تكلمت معهما قبل أن أطلب مقابلتك لم يبديا أي اكتراث عندما قلت لهما إنني سأعود لأعيش معهما إلى الأبد.

قلت لها بقسوة:

- ذلك لأنك لم تكوني يوماً ما أمّاً لهما. لقد أهملت شؤونهما وتركتِهما على الخدم وعلَيّ في حياة والدي، وفعلت ما هو أدهى وأمر بعد ذلك، هجرتهما وركضت وراء ملذاتك الخاصة وكأن كلاً منهما ليس قطعة من فؤادك. والآن وبعدما فقدت الزوج والمال تأتين لتقولي لي ولدَيّ وأريد أن أعيش لهما ومن أجلهما؟

قاطعتني سائلة قائلة:

- بالله عليك يا رباب كُفّي عن لومي وتقريعي. أنا ألوم نفسي في اليوم أكثر من ألف مرة فلا تزيدي همومي وأحزاني، أعرفك عاقلة وصاحبة قلب كبير وإلا لما قصدتك.

لُذتُ بالصمت وراحت هي ترجو وترجو إلى أن تحرك قلبي شفقة عليها وربما شفع لها أنني كنت ذات يوم أحبها وأعتبرها أقرب الناس إليّ فقلت لها:

- حسناً سوف أتكلم مع بدر وبندر.

بعد حديث طويل مع بدر وبندر قالا لي:

- سامحيها يا عمتي أليست هي أُمُّنا وقد أمرنا الله أن نبرها ونحسن إليها، ثم ألم تعلمينا أنت مثل هذه المعاني؟

ضممت الصغيرين إلى صدري ورحت أقبلهما وأنا أرى تعليمي يثمر على أفضل ما يكون.

صدقوني يوم عادت سارة لتعيش بيننا لم تكن هي التي لا تسعها الفرحة، فقد كانت فرحتي أنا أيضاً كبيرة بعودتها، وذلك لأنني كنت متأكدة من أنها سوف تكون من الآن فصاعداً أُمّاً حقيقية لبدر وبندر اللذين أُكِنّ لهما من الحب الشيء الكثير.

* * *

أستطيع أن أؤكد بعد أن أمضت سارة معنا أكثر من أربعة شهور بأن هذه السيدة التي اتهمتها بالأنانية وحب الذات والرغبة في العيش الهانىء بعيداً عن مواطن الألم، هذه السيدة أثبتت فيما بعد أنها من أفضل الأمهات فقد استطاعت كسب ثقة ولديها وثقتي أنا وثقة كل المحيطين بها، وأصبحت في نظري تمثل الأمومة الصافية المنبع.

هذا الاكتشاف جعلني أتساءل بيني وبين نفسي: هل يمكن أن تعايش المرأة النقيضين؟ وهل يمكن أن تنقلب أوضاعها فجأة؟ ولم أخرج من تفكيري بشيء إلا أن أقول: سبحان الله، ما أعقد تركيب الإنسان جسدياً وعقلياً ونفسياً. وأن أقول أيضاً: حتماً إن الإنسان يعايش الأحداث ويسايرها ويصنع منها ما يساعده على اكتساب مواقع جديدة في هذه الحياة تناسب ما يريده أو يتطلع إليه، وفي الحقيقة يبدو أننا بالفعل نعايش الأحداث، ونسايرها ونصنع منها ما يساعدنا على اكتساب مواقعنا في هذه الحياة بهدوء.

افتقدت جدتي وأنا أناقش نفسي في هذا الأمر، إلا أن أختي قالت لي معقبة على الموضوع بأن أمومة المرأة تظل موجودة، وهي أشبه بالنار التي تختبىء تحت الرماد، حتى إذا ما هبت نسمة صغيرة أشعلت النار في قلب المرأة وهزت كيانها وأعادتها إلى حظيرة الأمومة حتى عندما تهرب منها لسبب من الأسباب، فهروب المرأة من أمومتها في نظر أختي هو ضد التيار، ولهذا تُصاب المرأة البعيدة عن أبنائها بالكآبة والأمراض النفسية مهما كانت الحياة التي تعيشها وتمارسها.

أخواي بدر وبندر أصبحا يمارسان لعبة (الاستغمّاية) مع أمهما عندما أراهما ولكن هذه اللعبة التي كنت أضحك منها كانت تعني خوفهما من أن أشعر بأن أمهما دخلت حياتهما وأخذت جزءاً منها مني أنا التي كنت من قبل كل شيء في حياتهما. لكنني أفهمتهما بأنني سعيدة جداً لهذا الحب والانسجام الذي أراه ينمو بينهما وبين أمهما بعد أن استقرت معنا وكنت أردد أمامهما دائماً أنه لا يمكن لأي إنسان مهما علا قدره وكان محل حب أن يحتل مكان الأم في نفوس أولادها.

كانا يعجبان بكل ما أقول ويشعرانني بأن حبهما لي لم يتغير وكنت أفرح من كل قلبي وأنا أراهما سعيدان هانئان.

سارة أمهما قالت لي ذات ليلة:

ـ هل تسمحين لأخي فريد بأن يزورنا؟.

في بادىء الأمر نظرت إليها بغضب وشراسة ولم أقل لها شيئاً، ولكن بعد إلحاحها وجدت نفسي أقول لها:

ـ لا مانع على أن يتم ذلك في فترة عملي بالمستشفى ومرة كل شهر على الأكثر.

قبلتني سارة في وجهي وقالت:

ـ كم أنت طيبة ورائعة يا رباب.

أما أنا فلم أر فيما قلت شيئاً يستحق هذا المديح.

أختي عندما علمت بالأمر أنبتني وقالت:

ـ كان علي ألا تقبلي دخوله إلى هذا البيت مرة أخرى.

قلت لأختي بهدوء وبصوت الواثق من نفسه:

ـ ولماذا لا يدخل؟ ثم إننا أخرجناه من دائرة الضوء في نفوسنا وقلوبنا وبذلك يكون وجوده حولنا أو قربنا أو عدمه سيان.

صمتت أختي ولكني شعرت بأنها لم تكن من رأيي أبداً.

في إحدى تلك المرات التي كان فيها فريد يزور أخته سارة وولديها التقيته أثناء عودتي من المستشفى خارجاً من بيتنا. لم أعرفه بادىء ذي بدء لكنني

عندما تمعنت في وجهه وأنا أترجل من السيارة خلت بأني أرى شبحاً رجل هزمته السنون وأضاعت من وجهه نضارة الحياة وبدا في نظري كإنسان نزلت بساحته النوائب.

ورغم التقاء عيني بعينيه إلا أنني وجدت أن من المناسب أن أتناسى رؤيته وهو على تلك الحال التي لا تسر العدو قبل الصديق. فريد أبى إلا أن يستوقفني وكأنه يود أن يعلمني بما آل إليه حاله من الناحية الصحية بعد خروجه من المستشفى، لم أمد له يدي للتحية؛ لا كبراً أو استهزاء، ولكن شعوراً مني بأنني مسلمة يجب أن لا أضع يدي في يد غريب.

سألني وفي عينيه ومضة حب:

ـ كيف حالك؟

أجبت:

ـ كما ترى على أحسن حال.

قال:

ـ وددت لو التقيت بك قبل اليوم لأشكرك على ما فعلت من أجلي، وعلى ما صنعت بعد ذلك مع أختي.

قلت:

ـ لا أعتقد بأنني صنعت شيئاً خاصاً. لقد صنعت ما يمليه الضمير على الإنسان.

قال بإعجاب:

ـ لقد كنت كريمة جداً معها، ومعي أيضاً.

لم أنطق ببنت شفة ومضيت إلى داخل البيت وكأنني أهرب من شيء يثقل صدري ويكاد يخنقني ولا يمنحني الشجاعة لأن أقول له ما بنفسي.

تذكرت وأنا أدلف إلى غرفتي فريد الأمس وفريد اليوم، وحاولت أن أقارن بين الاثنين فشعرت بالأسى والحزن.

تساءلت بيني وبين نفسي.

ترى لماذا حاول هذا الرجل أن يستوقفني وهو يعرف رأيي فيه؟.

لم أجد جواباً لتساؤلي فحاولت أن أتناسى الموضوع أو أن أهمله وفي داخلي إحساس بالألم، فنحن في هذه الحياة نختار ونظن أننا قادرون على حسن الاختيار، ولكن الأيام والسنين قد تفجعنا في اختيارنا وترينا كل شيء على حقيقته لنرى ما ظننا أنه حُسن اختيار يبدو لنا سيئاً سيئاً، الشيء الذي يعني تجربة تضاف إلى تجاربنا في هذه الدنيا لنمضي في الحياة بعدها محاولين نسيان تلك التجربة الفاجعة، ولكن ترى هل ننسى؟ أو بالأصح: ترى هل نسيت أنا الماضي؟

وهل يمكن للإنسان أن ينسى ذكرياته حتى ولو جارت الأيام على بعض الصور فشوّهتها كما هو الحال مع فريد الماضي البعيد غير فريد اليوم شكلاً وموضوعاً؟

عندما أصبحت داخل غرفتي جاءت سارة تستأذن في الدخول علَيّ وقالت بمرح:

ـ هناك مفاجأة تنتظرك.

نظرت إليها باستنكار واستغربت أن تعتقد أن لقائي بفريد أو شيئاً من هذا القبيل هو مفاجأة لي تستحق أن تقابلها هي بذلك المرح والفرح وأحسست بشيء من الغضب، لكنها كانت أقدر على الفهم وأسرع في إزالة سوء الفهم هذا عندما عندما رددت ضاحكة:

ـ ألا تسمعين؟ قلت لك هناك مفاجأة لك، خالك تحت جالس في الصالون الكبير.

ـ خالي..

تمتمت وأنا أهرول وأنزل إلى الدور الأول حيث الصالون الكبير وحيث يقبع إنسان بالتأكيد عزيز على نفسي لأنني سوف أرى فيه أمي وأشم من خلاله رائحتها.

عندما دخلت الصالون وجدت رجلاً يرتدي الملابس الافرنجية هذا رجل قريب الشبه بأمي التي أضع صورتها في إطار جميل في غرفتي سلّمت عليه

وألقيت بنفسي على صدره.

أحسست وأنا أراه لأول مرة أمامي شخصياً بعد أن كنت أراه في بعض صوره التي نحتفظ بها في البيت وكأني أرى إنساناً قد ضاع مني، أما عندما ألقيت برأسي على صدره فقد شعرت وكأني ألقيت بكل همومي وأحزاني على هذا الصدر الحنون، أليس في الأثر: «الخال والد»؟

كان خالي يجيد اللغة الانجليزية إلى جانب لغته، أي اللغة التركية، فحمدت الله كثيراً لأنني بذلك أستطيع التفاهم معه بسهولة وهو الذي لا يجيد العربية.

سألته معاتبة وأنا أحاول أن أتعرف على أحوال أسرته التي لا أعرف عنها شيئاً قلت:

ـ لماذا لا تكتب لنا؟ لماذا لم تزرنا قبل الآن، لماذا؟ لماذا؟

ضحك خالي الذي كان يصر علَيّ بأن اسمه حاجي مصطفى فهو قد جاء لأداء الفريضة وينتظر أن يدعى باسم حاجي كل من يعرفه عندما يعود إلى بلده، ثم قال:

ـ لك الحق في أن تنكري علَيّ صمتي طوال المدة الماضية، فأنا لم أكن في استنبول طيلة السنين المنصرمة بل كنت مع أسرتي وأولادي في أمريكا، مهاجرين نعيش في أمريكا، وإن كنت لا زلت أحتفظ ببيتي في تركيا والذي كنا نأتي إليه لتمضية إجازة الصيف من وقت لآخر، ولطالما شدني الحنين لأن أراك وأرى أختك إلا أن اعتقادي أن أباكم لا بد وأن يكون قد تزوج، وأنه بذلك قد لا يكون هناك مكان لي في بيتكم كان يمنعني من القدوم إليكم.

أما الآن وقد كتب الله لي أن أحضر إلى بلدكم حاجاً فإنه من غير الممكن أن لا أبحث عنكم وأراكم.

قال ذلك خالي بلكنة تركية ذكّرتني بأمي فدمعت عيناي وانتابني شعور بالتعاسة لفقدانها وكأني فقدتها بالأمس القريب فقط.

وتابع خالي كلامه بمرح قائلاً:

ـ لقد ذهبت إلى المدينة أبحث عنكم في حوش التاجوري إلا أن الناس

الطبيبن هناك أخبروني أنكم انتقلتم إلى جدة وأعطوني العنوان.

خلال إقامة خالي عندنا تحدثنا كثيراً.

وأطلعنا على صور أبنائه وبناته وزوجته. وعرفت أن له ابناً يدعى لطفي وهو ابنه الأصغر المدلل الذي لم يتزوج بعد، رغم أنه شارف على الأربعين. كما عرفت أنه طبيب مثلي درس الطب في جامعة في ألمانيا، عرفت أيضاً كل شيء عن أبنائه الآخرين وعن أولادهم وأزواجهم، بل وعن ظروف انتقالهم إلى أمريكا فهم جميعاً مهاجرون يعيشون في أمريكا في ولاية كولورادو، وهو، أي خالي، قد عاد هذه المرة إلى مسقط رأسه وفي نيته بعد أن حن لبلاده أن يقضي بقية حياته فيها.

طبعاً لطفي لا يزال في ألمانيا يعمل في إحدى المستشفيات، وسوف يحضر قريباً إلى تركيا لملاقاة والده الذي لم يره منذ عدة سنوات.

ما أحلى أن يلتئم الشمل ويجتمع الأهل. حقاً لقد أمضينا أوقاتاً سعيدة وأمسيات ممتعة برفقة خالي، كنا كل ليلة نجتمع معاً جميعاً أختي وزوجها أولادها وسارة وبدر وبندر وأنا إما في بيت أختي أو في بيتنا الكبير. لقد أحسست بخالي الذي لم أقابله سوى من مدة بسيطة يتسلل إلى قلبي في هدوء ويحتله تماماً.

وغادر خالي جدة إلى مكة لأداء فريضة الحج حين حل موعدها بعد أن ترك لنا صور أسرته وصورة لأمي وهي صغيرة حملتها بفرحة كبيرة وكأني أحمل كنوز العالم كلها.

أقول الحق: كانت هناك صورة أخرى تشدني من بين هذه الصور التي تركها خالي في بيتنا، تلك هي صورة ولده لطفي.

عاد إلينا خالي بعد أداء الفريضة ووجدتني أسأله عن لطفي وأحواله ولماذا لم يتزوج. حدثني طويلاً عنه وعن رجولته وإنسانيته وتفانيه في عمله كطبيب، وكيف أنه عازف عن الزواج ويقول إنه يكفيه أنه متزوج من مهنته.

وفجأة ودون سابق موعد وكأن فكرة ثمينة طرأت على باله قال لي بحماس:

ـ ليتك يا ابنة أختي تستطيعين إدخاله إلي قفص الزوجية.

ضحكنا معاً للفكرة وكأنها حديث عابر إلا أنني وجدت نفسي أفكر فيها كثيراً بعد أن رحل خالي عنا.

طبعاً لم ينس خالي أن يسألني لماذا لم أتزوج وأنا على أبواب الثلاثين، إن لم أكن قد تعديتها بقليل. قال ذلك في إحدى الليالي وهو يضحك ولكني أجبت حينها بلا مبالاة:

ـ لا أدري ربما لم يعجبني أحد من أولئك الذين تقدموا لطلب يدي.

تمتم عندئذ قائلاً:

ـ أنت كأمّك تماماً، رفضت الكثير من الشبان في بلدنا ثم جاءت لتتزوج بأبيك، إنها القسمة والنصيب، كل ما أستطيع أن أقوله: لم يأت نصيبك بعد.

ولم ينس أيضاً أن يدعو لي بأن يرزقني الله بابن الحلال الذي يسر خاطري وقلبي، دعوة جميلة أحببتها وهي تخرج من قلبه وبصدق تام.

صمت لحظة ثم أعاد الدعوة ذاتها ولكن لابنه لطفي هذه المرة.

* * *

الليل يكاد ينتهي وأنا في غرفتي أحاول أن أهدأ، أفكاري تطبق علَيّ، تخنقني لا تمنحني الراحة ولا تمنح عيني النوم.

رأسي يكاد ينفجر، لأول مرة في تاريخ حياتي أحس بهذا الصراع النفسي الرهيب الذي يكاد يفجر عروقي.

ترى لماذا؟ ولماذا هذا الشعور القاتل بالفراغ؟ شعور يصرع إحساسات السعادة التي كانت تلازمني أثناء وجود خالي بيننا. إنني أعرف أن خالي لم يأت ليبقى أو يعش معنا إلى الأبد، إذاً لماذا كل هذه الأحاسيس التعسة تنتابني؟ إنه جاء ليقضي فريضة الحج ثم يعود، هكذا كنت أقنع نفسي وحتى أستريح وأهدأ ولكن هيهات، يظهر أن بقاءه معنا فترة من الزمن جعلتني ألتصق به وأحس أنني بدونه وبدون وجوده بيننا كريشة في مهب الريح، ذكرياتي كلها تتجسد فيه وبدا وكأن الله قد أرسله إلينا ليحيل حياتي في وجوده إلى الأصفى والأحلى والأجمل.

أختي لم تفتقد خالي مثلي، هذا لا يعني أنها لم تحبه وتحب تواجده بيننا ولكنها أكثر مني منطقاً فهي تعرف أنه لن يبقى معنا إلا لفترة قصيرة من عمر الزمن. باختصار أنا غير قادرة على أن أستلّ هذا الفراغ المدمر الذي أحاط بي بعد غيابه.

أتصدقون عندما أقول لكم بأن وجود خالي بيننا قد دغدغ إحساساتي كامرأة وجعلني ألتفت وأحس بأنوثتي؟ كان يدق دائماً على الوتر الحساس في أعماق ذاتي ويطالبني بأن أبدو كأنثى، وأن أتصرف كأنثى، وأن أنظر إلى الحياة كأنثى، فأتطلع إلى الزواج من رجل أعيش برفقته وتحت كنفه، ثم إلى تكوين أسرة بنين وبنات أنجبهم وأملأ وقتي بهم ومن خلالهم.

كان يُطري جمالي دائماً ويشيد بشبابي لدرجة أفصح لأختي ذات مرة أنه يتمنى من قرارة نفسه لو أكون من نصيب لطفي ابنه.

لطفي الذي لا أعرف عنه شيئاً سوى هذه الرجولة التي تكاد تنطق بها صورته، وسوى تلك الكلمات القليلة التي تبادلتها معه عندما تحدث إليه والده عبر الهاتف من بيتنا، حيث أعطاني السماعة فجرى حديث عابر بيننا جعلني أفكر فيه وأتخيل شخصيته كمراهقة دق الحب باب قلبها فجأة ولأول مرة.

أَوَيُمكن أن أنسى كل ما مر في حياتي من أحداث لأعود مراهقة مرة أخرى أحب وأتطلع إلى رؤية الحبيب؟ وهل سيقدر لي أن أقترن بلطفي؟

تساؤلات حاولت أن أضحك وأنا أرددها، أو وهي تخطر في بالي، ثم حاولت أن أنساها فإذا بي أتناساها مؤقتاً لأنها ما فتئت تطل بين الحين والحين من بين ذاكرتي تطالبني بالجواب، وأنا لا أعرف الجواب.

ترى هل يكلم خالي لطفي عني؟ وهل يقدر لابن خالي لطفي أن ينشغل بي أو يفكر بي كما أفعل أنا؟

هل سيرضى بما يرغب فيه أبوه أم أنه سوف يهرب كما هرب فريد في مساحات الزمن الغابر؟ ثم وهذا هو الأهم، هل أستطيع تغيير حياتي الحالية التي درجت عليها وأنا التي تعدت سن الثلاثين؟

صحيح أن وجهي الطفولي لا يحمل بصمات الثلاثة والثلاثين سنة التي

أحملها من عمري، ولكن هل هذا يكفي لأعود صبية تحب وتحلم من جديد؟

لقد دعانا خالي لتمضية إجازة الصيف القادمة في تركيا بضيافته، وقال إنها فرصة نتعرف بها إلى الدكتور لطفي ابنه وبقية أفراد عائلته، فقد اتفق معهم على اللقاء هناك في جزيرة الأميرات مسقط رأسه ورأس أمي، والتي تبعد بضعة أميال عن استنبول، ولقد ظل يلحّ ويلحّ عليّ أنا بالذات حتى وعدته بأنني سوف أفعل، فهل سأفعل؟

بدأنا نتبادل الرسائل نحن وخالي بعد عودته إلى تركيا، وقد كانت رسائل حلوة يخبر فيها كل منا الآخر بما سوف يفعل، وفي إحدى رسائله إلينا والتي وصلت قبيل الصيف والتي أيضاً جاءت حلوة ممتعة كالعادة.

قرأت خبراً كان مثيراً وهاماً بالنسبة لي.

قال خالي في نهاية رسالته: «لقد حضر لطفي أخيراً من فرانكفورت في إجازة طويلة، إجازة مفتوحة فهو قد أنهى عمله في المستشفى التي كان يعمل بها هناك، ولقد تحدثت معه عنكم وعن مستوى الرقي والحضارة والثقافة التي وصلتم إليها عامة أنتم السعوديون، حتى أصبح مشوقاً لرؤيتكم ورؤية المملكة والأماكن المقدسة بشكل خاص. كذلك اقترحت عليه أن يعمل معكم في المملكة العربية السعودية بعد أن أنهى عمله في ألمانيا ولا أدري إذا كان من الممكن أن تتدبروا الأمر فيما إذا اختمرت لديه فكرة العمل عندكم وبجانبكم.

لا نزال بانتظار أن نراكم بيننا في تركيا. حاولي يا رباب الحضور إلينا ورؤية بلدنا، سترين بعينيك كيف يلتقي الشرق والغرب في مدينة استنبول، كما أنه حتماً سوف تشعرين كم نحب نحن الأتراك قِبلتنا أرضكم رغم كل ما مر بنا وعلى أرضنا من أحداث.

ستشاهدين إذا ما حضرت إلينا مساجدنا وقصورنا وفنادقنا؛ القديم يعانق الجديد، كما سوف تتحدثين إلى جيل الشباب والجيل القديم ليتأكد لك هذا الحب الذي نُكِنّه جميعاً لكم ولدياركم.

نعم احضري إلينا ولن تندمي، ستتمتعين بالحياة هنا في كل ما يحيط حولك من جمال الطبيعة الخلابة.

أرض خضراء ومياه بحر بزرقة السماء، تعالي لتشاهدي البحر الأسود وكيف تلتقي رماله بليونة المياه وصفائها وهي تطل على أشجار الجوز واللوز والتفاح والعنب، بينما تدق موسيقى الغسق ألحانها عندما يصبح القمر بدراً وكأن هذه المحاصيل تأبى أن تتم مراحلها وتنضج بدون أن تغتسل في مياه القمر الصافية.

احضري لتشاهدي أيضاً بنات القرى بوجوههن الصبوحة يرددن أغاني (يا لآلي أمان) بأصواتهن العذبة التي تنطق بالسعادة وهي يقطفن المحصول تمهيداً لإرساله إلى الأسواق القريبة والبعيدة.

صور أعرف أنك مشوقة لرؤيتها بمقدار ما أنا وأسرتي مشوقين لرؤيتكم بيننا يا ابنة أختي الغالية.

في استنبول يا عزيزتي يلتقي الفجر بأصداح زغاريد الطيور الملونة التي تركت أعشاشها مؤقتاً في رحلة البحث عن رزقها، لا فرق بينها وبين هذا الإنسان الذي اختاره الله خليفة له على أرضه.

وأخيراً لن أطيل عليك أكثر من هذا وسأترك لك الكثير والكثير لتكتشفيه بنفسك وبحسك المرهف، ثم تعيشينه بعد ذلك حقيقة واقعة بيننا نحن الذين يملؤنا الأمل الباسم بأن نراك قريباً وقريباً جداً».

قرأت كل هذا الذي كتبه خالي أكثر من مرة فكلمات الخطاب منتقاة الألفاظ وتعبر عن الشوق العارم الذي يملأ صدر خالي والحب الكبير الذي يكنه لنا جميعاً ولي بشكل خاص.

ليت أمي معنا فنذهب جميعاً لنرى موطن ولادتها ومسقط رأسها هي التي كانت لا تتحدث عن ذلك كثيراً، بل تركت الحديث لخالي أخيها كي نمتلىء عن طريق حديثه شوقاً وأحلاماً.

قالت لي أختي بعد أن قرأت رسالة خالي هذه:

ـ أتدرين يا رباب أن خالي لا بد وأن يكون شاعراً فلطالما سألت أمي عن مسقط رأسها وعن بلادها فكانت تقول يا بنيتي العالم كله يعيش في طيبة الطيبة فلا عليك.

لن تجدي أجمل من شروق فجرها ودفء شمسها ونضارة قمرها، فالعالم كله أشرق نوره من هذه الأرض وسيظل هذا النور فيها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

أصبحت رسائل خالي سلوتي، أقرؤها مرات ومرات، وكنت في كل مرة أكتشف أشياء جديدة وإحساسات منعشة. يكفي أن أكتشف أن هناك أناساً يحبونني ويهتمون لأمري كثيراً أنا الوحيدة في هذه الحياة. كانت هذه الأفكار تداعب خيالي وأنا أقف في شُرفة بيتنا المطلة على البحر أنظر حولي حيث الهدوء المسيطر فالدنيا ليل وأنا في هدأة الليل لا أهدأ عن التفكير أبداً، كان أكثر من يعكر هذا الهدوء مرور سيارة كل بضع دقائق لتكون بمثابة تذكير لي بأنني أعيش هنا في بيتنا في جدة وأطل من شرفة منزلنا لوحدي دون أنيس ولا رفيق، ومع ذلك فقد كان الأمل يداعب خيالي.

مضت الساعات تلو الساعات حتى بدأ الفجر ببزغ فعدت إلى غرفتي وقد ملأ قلبي إحساس بأنني والربيع على موعد وأن إحساسي بالخريف في حياتي بدأ يذوي ويندثر. لقد علت نبضات قلبي وضجيج دقاته وبدأت أغني أغنية فريد الأطرش المشهورة (الحياة حلوة).

ترى هل أسافر إلى خالي؟ قلبي يحدثني أن سفري سوف يغير أشياء كثيرة في حياتي فهل أفعل أم أظل هكذا؟

هل أكتفي هنا في غرفتي في الشرفة حيث أقضي بعض وقتي، وفي المستشفى الذي يأخذ النصيب الأوفر من وقتي، أم أسافر وأنا أحس أنني سوف أنطلق إلى الحياة التي أشعر أنها بدأت تفتح لي ذراعيها باسمة مقبلة؟

ومضت الأيام التالية حلوة باسمة فقد أصبح هناك أمر أنتظره.

هناك سفر إلى المجهول حيث سأتعرف إلى أناس جدد وأعيش آمالهم وأحلامهم ووسط ابتساماتهم التي تطل علَيّ من الآن في واقعي وفي خيالي.

في إحدى الليالي كنت أناوب في المستشفى وإذا بجلبة وضوضاء تحدث في قسم أمراض النساء والولادة. أسرعت إلى هناك لأجد امرأة شابة حضرت لتضع مولودها الأول. الولادة جاءت متعسرة والدكتور عادل بذل جهداً رهيباً لينقذ الأم والجنين، جاءت مولودة صغيرة لا يتعدى وزنها كيلوغرامين وربع،

طبعاً ظللت باقي الليل أتردد على الأم لكي أطمئن عنها وعلى حُسن إشراف ممرضات القسم عليها، وفي إحدى المرات التي دخلت عليها وجدتها تتحرك ثم تفتح عينيها وتسألني بلهفة:

ـ ماذا وضعت يا دكتورة؟

أجبتها باسمة:

ـ طفلة، طفلة جميلة جداً.

لم تقل الأم شيئاً وإنما أغمضت عينيها ثانية وقد ارتسمت على محياها كل معاني السعادة. تمتمت لنفسي وأنا أخرج من الغرفة: ما أعظم حكمة الله، تنسى الأم كل آلامها وكل متاعب حملها وولادتها مهما كانت قاسية وعنيفة بمجرد أن تهب الدنيا مولوداً، عندئذ تبدو في أجمل سويعاتها هانئة راضية وسعيدة بمولودها الذي يأخذ طريقه إلى الدنيا بأمل وحب. وعندما كنت خارجة في الصباح الباكر وبعد انتهاء عملي كطبيبة مناوبة في المستشفى وجدت نفسي أفكر بتلك الأم السعيدة. ولأول مرة تمنيت لو أكون مكانها. ركبت السيارة وأشرت للسائق بأن يسير بي إلى البيت وأنا أتمتم بيني وبين نفسي:

ترى أوَيُمكن أن أحقق مثل هذه السعادة التي ينطق بها وجه هذه الأم الشابة؟ هل يقدر لي الله أن أكون أُماً؟

أمنية باتت في هذه الأيام تجول بخاطري كثيراً وكثيراً جداً.

وفي اليوم التالي، وما إن وصلت إلى المستشفى حتى وجدت نفسي أعود تلك الأم دون أن يكون هناك سبب أو حاجة لزيارتي لها. قلت لها عندما رأيتها تجلس في السرير وقد اكتسى وجهها نضرة لم تكن به بالأمس بعد تلك العملية القيصرية التي أجريت لها:

ـ حمداً لله على السلامة ومبروك الطفلة الجميلة التي وضعتها أمس.

قالت الأم بفرح:

ـ أشكرك ولكن متى أستطيع مغادرة المستشفى؟

أجبتها بمرح:

ـ يظهر أنك تستعجلين مفارقتنا.

قالت في سعادة:

ـ لا ولكن زوجي، والد طفلتي هذه وأشارت إليها بحنان ظاهر مسافر في رحلة عمل وأحب أن أعود إلى بيتي لأكون في استقباله مع طفلتي.

صمتت لحظة ثم تابعت كلامها قائلة:

ـ أريد أن يشاركني الفرحة فهو أيضاً يتوق لأن يصبح أباً، ولقد قمنا باختيار غرفة نوم ضيفنا القادم وأعني طفلتنا هذه مع بعضنا وكان حريصاً أن يشتري الأجمل والأحلى.

ابتسمت لها أطمئنها من كل قلبي وقلت:

ـ لا تخافي بإذن الله سوف تخرجين من المستشفى وتستقبلين زوجك أنت وهذه الصغيرة الجميلة وتماماً كما ترغبين وتتمنين.

قالت بفرح وسعادة:

ـ أشكرك يا دكتورة رباب. إنك حقاً لطيفة ورائعة، لقد رأيتك أمس تدخلين غرفتي، لم أكن لأستطيع أن أكلمك، أما عندما استفقت تماماً سألت عنك فقيل لي إن عملك انتهى وإنك غادرت المستشفى.

سألت بدهشة:

ـ من أين عرفت اسمي وأنا لم أكن الطبيبة التي أشرفت على حملك وولادتك؟

أجابت وابتسامتها تسبقها:

ـ يكفي أن تكوني أول من فتحت عيني ورأيته بعد تلك العملية القيصرية التي كان لا بد منها لأضع مولودتي الحبيبة رباب.

اتسعت حدقتا عيني دهشة وقاطعتها قائلة:

ـ رباب.. أطلقت عليها اسم رباب؟

أجابت:

ـ نعم أسميتها رباب على اسمك يا دكتورة رباب، أولاً لأني استبشرت برؤيتك خيراً أنت التي كنت أول من رأيت بعد أن صحوت من تأثير البنج، وثانياً لأنني أتمنى لها أن تصبح طبيبة مثلك.

ضحكت ضحكة صافية ومن أعماقي وأنا أقول:

ـ أرجو الله أن يحقق لك أمنيتك هذه، أما أنا فأتمنى لها قبل كل شيء أن تصبح زوجة وأُمّاً.

وخرجت وأنا لا أدري كيف نطقت بهذه العبارة أو لماذا؟

الفصل السابع

أنسى في غمرة انشغالي بعملي كطبيبة كل شيء حتى مشكلاتي، أتفانى في عملي قدر ما أستطيع وطبعاً السبب في ذلك يكمن في أن الطب مهنة إنسانية تحتاج لكل كفاءة وقدرات وعقل من يمارسها.

في السنة الأولى من عملي في المستشفى كنت أحلم بمستشفى أملكه أنا وأديره ولا أدري لماذا ضاع مني هذا الحلم كغيره في خضم هذه الحياة.

ولقد وجدت فيما بعد أنني أميل إلى الابتعاد عن الادارة والملكية كي أتفرغ لممارسة العمل الذي أحببت منذ الصغر.

بالتأكيد هناك أشخاص التقيت بهم على سرير المرض حتى إذا ما تركوا المستشفى لم تنقطع صلتي بهم وخصوصاً بعض العائلات والسيدات اللواتي أصبحن صديقات عزيزات على قلبي يزرنني من آن لآخر في المستشفى ويلتقين بي، لكنه لم يقدر لي أن ألتقي بهن في بيتي أو بيوتهن ربما لأن عمل الطبيب ووقته لا يسمح بمثل هذه الزيارات.

لا أدري لماذا أتذكر جدتي وأنا أذكر الطب والأصدقاء والعمل الذي لا يسمح بعقد صداقات كثيرة، أذكر أنني في إحدى المرات التي كنت أعاين فيها جدتي، وقبل أن تلقى بارئها قالت لي بصوت حنون مشفق علَيّ من كثرة العمل وقلة وقت الفراغ:

ـ أنتم يا معشر الأطباء في انشغال دائم بمرضاكم وأمراضهم، تعالجون الأمراض التي تستطيعون علاجها وتقضون بقية وقتكم تنقبون وتبحثون عن علاج لتلك الأمراض التي لم تكتشفوا لها دواء بعد.

قلت يومها:

ـ معك حق يا جدتي خصوصاً إذا أضفت إلى ذلك أن علينا نحن الأطباء أن نقرأ باستمرار لنقف على أحدث ما توصل إليه الطب من أدوية وعلاجات واكتشافات، لأنه بالفعل هناك أمراض كثيرة لا يزال الطب يقف أمامها عاجزاً حتى اليوم وإن لم يفقد الأمل، وطبعاً كل ذلك مُجتمِعاً مسؤول تماماً عن كون وقت الطبيب ضيقاً وضيقاً لا يترك فراغاً لممارسة الحياة الاجتماعية التي يمارسها الآخرون.

سعيدة عاملة نظافة بالمستشفى هي الأخرى لا تملك من وقت فراغها الشيء الكثير، فذلك عمل مُضْنٍ أيضاً ويأخذ كل وقت صاحبه، ومع ذلك فهي لديها من الحيوية والطاقة ما يجعلها تمارس هذا العمل خلال ساعات عملها وخارج ساعات عملها، أي تعمل ساعات إضافية في المستشفى لتزيد من دخلها كي تعيل ابنتها الوحيدة حيث تركها لها زوجها ورحل عن هذه الدنيا والفتاة لم تبلغ الرابعة من العمر بعد.

شمّرت سعيدة عن ساعديها ورفضت أن تتزوج بل صممت أن تعيل ابنتها وتربّيها بنفسها، ونزلت إلى ميدان العمل وهي منذ ذلك الحين أي منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً تعمل في هذا المستشفى والكل يعرفها باسم العمة سعيدة، وأنا بشكل خاص أحب العمة سعيدة، وأركن إليها وكثيراً ما تحدثنا مع بعضنا خصوصاً عندما أكون الطبيبة المناوبة في الليل وتصادف وردية عملها مع وردية عملي.

ـ كانت تحدثني عن ابنتها المتفوقة في دراستها وعن حياتها التي هي وقف على هذه الابنة التي هي (عندها بالدنيا كلها) على حد تعبير سعيدة، ولقد كنت أجد نفسي تلقائياً منساقة للتحدث إليها عن مشكلاتي الخاصة، مشكلاتنا مع سارة عندما كانت زوجة لأبي، ومشكلاتنا معها بعد وفاة أبي وزواجها من سامر، وكذلك مشكلات أخوي الصغار وتربيتهم التي تحمّلتها لوحدي فترة من الزمن ثم عودة سارة، الخ.

وأشهد أنها كانت تمثل القلب الكبير الذي يلهمني الصبر والتحمل كلما ناء ظهري بالأعباء والمسؤوليات وثقل صدري بالهموم والأحزان.

في الأسبوع الماضي جاءتني سعيدة باكية تنتحب وهي تقول: ابنتي يا دكتورة رباب، ابنتي.

سألتها بلهفة وقد فجعت بمنظرها وانفطر قلبي له.

ـ خير، خير، ماذا حصل لها؟

قالت والدموع تملأ عينيها:

ـ لا تخافي، لا تخافي هي بخير ولكنها غاضبة علَيّ. لقد حدثت بيننا مشادة حامية، بل إننا أصبحنا نتجادل يومياً ونشد مع بعضنا منذ أن تخرجت من المدرسة الثانوية وقُبلت في كلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز.

قاطعتها لأقول وأنا أتعجل معرفة السبب:

ـ ماذا حدث؟ وما هذا الذي يجري بينكما، ولماذا؟

قالت:

ـ تريدني أن أقدم استقالتي يا دكتورة، ترفض أن أبقى في وظيفتي كعاملة نظافة بعد أن أصبحت هي على أبواب دخول كلية الطب.

طلبت منها أن تتناسى طلب ابنتها وأن تستمر في عملها الأمر الذي جعل ابنتها بهية تأتي لزيارتي وتناقشني.

قالت:

ـ إنني يا دكتورة رباب أطلب من أمي أن تجلس في البيت لا لكوني أخجل من عملها، معاذ الله، فأنا أقدر لها تضحيتها ووقف حياتها وشبابها علَيّ، وأقدر أيضاً كدّها وعملها المضني في سبيل تربيتي وتعليمي وهي التي كان بإمكانها أن تتزوج وتعيش في كنف رجل يحميها ويصرف عليها ويبعدها عن الشغل الشاق الذي تقوم به من أجلي. نعم أقدر لها أن ضحت بكل ذلك.

وصمتت لحظة بعد أن اندفعت تقول كل ما قالت بحماس منقطع النظير وبصوت ملؤه الامتنان والاعتراف بالجميل، ثم أكملت كلامها بهمس وكأنها تحدث نفسها فقالت:

ـ إنني أطلب منها اليوم أن تقدم استقالتها وتجلس في البيت لأنني أريدها أن تستريح من هذا العناء والتعب والشغل المضني. أريدها أن تخلد إلى الراحة

وتعتني بنفسها بعد أن أمضت كل حياتها لا هَمّ لها إلا أن تعتني بي وبمأكلي وملبسي ومشربي. إنني يا دكتورة رباب مستعدة لأن أعيش وإياها على مرتّب الدراسة.

ففي كلية الطب سوف يمنحونني معاشاً شهرياً سأعمل جهدي لأن يكون كافياً لكي يسد احتياجاتي واحتياجات بيتنا إلى أن أتخرج وأعمل فأرد لأمي بعض جميلها بأن أقدم لها كل مرتبي حينذاك كي تنعم في بحبوحة من العيش حاولت دائماً إيجادها لي ولو عن طريق العمل بوردية النهار والليل كما تعلمين. وعلى فكرة يا دكتورة فأنا أيضاً سوف أعمل مساءً لأزيد من دخلي، لقد سجلت نفسي مدرّسة في إحدى مدارس محو الأمية، فما رأيك؟

صمَتُّ فقد أسقط بيدي وها هي ابنة سعيد تحاورني بمنطق لا يستطيع أحد أن يهزمها فيه، وفي الحقيقة لم أعرف مدى التضحية التي قدمتها سعيدة حتى رأيت ابنتها، رأيتها فتاة باسمة متفائلة تعتز بنفسها وبأمها وحياتها، وكأنه لا ينقصها حنان الأبوة أبداً. لقد استطاعت سعيدة أن تكون أُمّاً وأباً لهذه الفتاة بعد أن توفي الأب والوالد المعيل، ونجحت بذلك إلى أبعد الحدود.

أعادتني ابنة سعيدة إلى الواقع بهزة من يدها وهي تقول:

ـ ها.. ما رأيك يا دكتورة، ألا تقولين شيئاً؟

أجبت عندئذ قائلة:

ـ لقد قلت أنت كل شيء يا بنيتي، ولم تُبقي لي إلا أن أقول إن مثل هذه الابنة وأعنيك أنت بالكلام طبعاً جديرة بمثل تلك الأم وأعني أمك يا عزيزتي بهية.

قالت بهية ابنة سعيدة وهي تشد على يدي:

ـ أشكرك.. أشكرك جزيل الشكر، فرأيك هذا بي وبأمّي سوف أعتز به مدى الحياة.

قلت بعدها مداعبة:

ـ بهية إذا جاء من يريد الزواج بأمك في الوقت الحاضر فهل ترضين لها أن تتزوج؟

أجابت وشبه ابتسامة ترتسم على وجهها إذ يبدو أنها فوجئت بالسؤال، قالت:

ـ لا أكتمك الأمر، لم أفكر في مثل هذا الموضوع مطلقاً، لكن المرأة التي لم تتزوج وهي صغيرة ونذرت نفسها لتربية ابنتها لا يمكن أن تتصرف إلا بعقل وهي تدخل عتبة الأربعين من عمرها.

ضحكت هذه الإجابة واعتبرتها رفضاً مقَنّعاً، ولكني أردت أن أمضي في مداعبتي لسعيدة وابنتها فوجهت الكلام هذه المرة لسعيدة وسألتها رأيها لو تقدم لها الآن (عريس لُقْطة) كما يقولون.

ضحكت سعيدة واحمرّ وجهها وهمست:

ـ إيه يا دكتورة رباب، بعد هذا العمر؟ والآن وبعد أن رفضتُ الكثيرين؟

قلت لها:

ـ كان هناك سبب لرفضك في الماضي، ولكن الآن بهية ابنتك قد كبرت. ما شاء الله وتستطيع أن تهتم بأمور نفسها، فما رأيك الآن حيث لا حجة لك للرفض؟

صمتت سعيدة ولكني لم أدعها تفكر بل تابعت كلامي قائلة:

ـ صحيح يا سعيدة ألم تفكري مطلقاً بالزواج ثانية بعد المرحوم؟.

أجابت سعيدة بهدوء:

ـ لا أكتمك بأنني عندما كانت ابنتي صغيرة لم أكن أفكر بل حتى كنت أرفض دون أن أفكر أما الآن فلا أدري.

وخرجت من غرفتي مسرعة لا تلوي على شيء.

وضح لي من خروجها السريع أن المرأة تظل هي المرأة تحلم وتفكر بالزواج حتى عندما تكبر ولا ترفضه إذا جاء بالشكل المناسب وفي الوقت المناسب.

أمضيت فترة من الوقت أناقش أمر سعيدة بيني وبين نفسي وكوني أصبحت في الرابعة والثلاثين منذ أربعة شهور الشيء الذي يعني أنني قريباً سأصبح في الخامسة والثلاثين، ثم في السادسة، ثم في الأربعين، ثم، ثم ماذا؟ رُحت أسائل نفسي، هل معنى ذلك أنني بدأت أخلاف العنوسة، أخلاف أن يجري قطار العمر دون أن أتزوج وأحقق أمنيتي بأن أكون أُمّاً؟

ووجدتني منساقة دون أن أدري لأن أخذ إجازة طويلة من عملي فقد كانت إجازاتي تتراكم لأني لم أكن أعرف كيف أستعملها أو لماذا أخذها.

أخذت الإجازة بعد أن قررت أن ألبي رغبة خالي وأذهب إلى تركيا في زيارة لهم ولا تسألوني لماذا.

لا تسألوني لأني أنا نفسي لا أعرف. كل ما أعرفه هو أنني أريد أن أعمل شيئاً، أن أتحرك، أن أغير حياتي قبل أن يهزمني الزمن ويمضي بي قطار العمر. كان عندي أمل في أن ذهابي إلى خالي سوف يضعني على الطريق الصحيح، فأحياناً الإنسان في غمرة أشغاله الروتينية غير قادر على التفكير في كيفية الخروج منها.

ترى هل يستطيع خالي مساعدتي؟ خالي أم ابن خالي، الدكتور لطفي الذي حدثته على التليفون ورأيت صورته ومن ثم لمح خالي لأختي أنه يتمنى لو يراني زوجة لابنه هذا؟ ولكن ماذا لو لم يكن كما هو في خيالي؟

ماذا لو لم أكن أنا تلك الفتاة التي رسمها في خياله زوجة لنفسه وهو الذي في الأربعين من عمره، رجل محنك عرك الحياة وسبر أغوارها كما يصفه خالي.

كتبت رسالة قصيرة لخالي أخبره بموافقتي على قضاء إجازتي معهم في تركيا، قلت ذلك وأنا أتعلل بإجابة واحدة أمام الجميع وربما كنت أرددها وأنا أحاول أن أقنع نفسي بها، كنت أقول لكل من يسألني:

ـ لماذا تسافرين؟

كنت أقول:

ـ تعبت من العمل وأريد أن أخلد إلى الراحة فترة من الزمن ألا يحق لي؟

وبينما كان الجميع يؤمن على كلامي ويستحسن الفكرة، كنت أنا ألتزم الصمت خوفاً من أن يفضحني صوتي، أو يخونني التعبير فيفهم من حولي أن هناك هدفاً آخر، هو أن أرى لطفي وأتحدث إليه شخصياً، وأن... لا.. لا لن أقول فربما تجري الرياح بغير ما أشتهي وأحب.

قالت أختي ليلة السفر:

ـ حسناً تفعلين يا رباب يجب أن تخرجي من محيط العمل إلى شيء من الترفيه وأنت التي لا أذكر أنها أخذت إجازة طويلة في يوم من الأيام.

التزمت الصمت، فتابعت أختي كلامها قائلة:

ـ أختي رباب اسمعيني جيداً، أنا أدرى الناس بالوحدة التي تعانين منها، والوحدة قاتلة يا أختاه. اسأليني أنا فقد عانيت منها بعد تجربة زواجي الأولى الفاشلة. حاولي قدر الإمكان أن تدرسي أخلاق لطفي فيما لو حصل ما فكرت فيه أنا وخالك، فأنا متأكدة أن خالك الآن قد تكلم مع ولده لطفي عنك، وربما أنه قد أراه صورتك أيضاً، ولم يبق إلا أن تليّني دماغك قليلاً فيما لو تقدم لطفي بالفعل للزواج منك.

ووجدتني أستسلم ولا أعنف أختي كما هي عادتي عندما تفتح لي سيرة الزواج، الشيء الذي جعل أختي تتجرأ أكثر وتقول:

ـ إنني بالفعل أحلم بفارس يأتي ويأخذك منّا وسأكون أو من يشد على يديه إعجاباً لأنه استطاع إقناعك بالزواج، استطاع أن يفك عقدتك كما كانت تقول جدتي، الله يرحمها.

كلام أختي وعقدتي من الزواج وتفكيري فيه الآن بجدية جعلني أؤمن بحقيقة واحدة وهي أن المرأة تظل امرأة تتطلع إلى الحب والزواج، وتنتظر فارسها الذي ترضى عنه، ولكنها بالطبع لا يمكن أن تمد يها مطلقاً لمن لا يد لها يده مهما كانت الظروف والأحوال، فكبرياء المرأة يجعلها لا تقدم على عمل كهذا.

فهي تريد أن تشعر بأنها مرغوبة وليست هي التي تجري وراء الرجل مهما كانت الظروف والأحوال.

هل أمهد لنفسي وأقنعها أنه فيما لو أعجبني لطفي فعلاً ولم أعجبه أو لم يتقدم لطلب يدي؟ خاطر كان يُلِحّ عليّ ولكني كنت أرفض الجواب عليه بعناد وإصرار.

انشغلت أياماً في ترتيب أمور السفر حتى إذا ما ركبت الطائرة ومعي أخواي بدر وبندر انفرجت أساريري، وأغمضت عيني وأنا أشعر براحة كبيرة.

لقد بدا الأمر لي وكأني أنجزت عملاً كبيراً من بداية تفكيري بأمر السفر إلى خالي وحتى لحظة ركوبي الطائرة.

طبعاً أختي لم تأتي معنا هي وأولادها وزوجها فقد اعتذرت بسبب انشغال زوجها، سارة كذلك رأت أن الزيارة لخالي وأسرته عائلية، وأنه لا مكان لها فاعتذرت عن السفر معي رغم إلحاحي، بدر وبندر هما الوحيدان اللذان كانا ينتظران موعد السفر بفارغ الصبر، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يسافران فيها إلى خارج البلاد ويركبان طائرة، كما أن حنان خالي وعطفه الدائم عليهما أثناء زيارته لنا جعلهما يتعلقان به وهما اللذان فقدا الأب وعطفه وحنانه منذ أمد بعيد.

أقول أغمضت عيني وأنا أشعر براحة كبيرة ولذة عجيبة.

أشعر برغبة في الانطلاق والحب، أشعر بإقبال الربيع على حياتي، وأنا التي عشت الحياة حتى الآن خريفاً دون ربيع، أشعر باختصار وكأني عدت طفلة في حوش التاجوري، فتاة على أعتاب المراهقة تفتح ذراعيها للحياة لِتَعُب منها سعادة، وكأن الحياة في نظرها ليست إلا موعداً مع السعادة، والسعادة فقط بلا شقاء ولا عذاب ولا كدر. الغريب أنني أشعر بهذه الأحاسيس ولا شيء غيرها، لقد خلّفت ورائي كل أيام الشقاء والوحدة ولا أكاد أذكرها أبداً. كل ما أذكر أنني مقبلة على الحياة، أنني أدخل حوش التاجوري بدخولي تركيا بلد أمي وخالي لأعيش حياتي من جديد، وكما أرغب وأشتهي.

في المطار استقبلني خالي، ضمني إلى صدره وكأنه يودع في هذه الضمة حبه وشوقه لأخته التي لم يرها منذ غادرت الأناضول إلى المدينة التي شاء الله أن تصبح موطنها الثاني وإلى آخر يوم في حياتها. بدأ بعد ذلك يعرّفني على من معه في المطار، فهذه جلفدار ابنته وهؤلاء أولادها، وهذه وهذا.

أقول لكم الحق، لم أكن أسمع ولا كلمة مما يقوله، كنت أنتظر أن يقول شيئاً آخر وأن أرى أمامي شخصاً آخر غير كل هؤلاء، ماذا؟ ألم يحضر لطفي؟ وقبل أن أفكر كثيراً رأيته أمامي رجلاً طويل القامة عريض المنكبين تبدو على محياه مسحة من الذكاء والمرح والاعتداد بالنفس. قال خالي، قبل أن يعرفني على القادم:

ـ لقد تأخرت.

تلعثم الشاب وأجاب:

ـ كنت أتكلم مع أحد أصدقائي العاملين هنا ليسهل أمر دخول ابنة عمتي مع حقائبها وإخوتها.

وعرفته، لطفي، لا يمكن أن يكون غير لطفي.

فهذا هو صورة طبق الأصل عما رسمته في خيالي، نبرات صوته، قوة شخصيته البادية في كلامه وعلى تعابير وجهه، طبعاً شكلاً رأيته بالصور التي كانت مع خالي يوم زارنا، أما موضوعاً فقد رسمته بخيالي وها أنا أراه أمامي حقيقة واقعة، خيال لم يبعد عن الواقع أبداً على ما يبدو.

هزني خالي وهو يقول:

ـ أين أنت يا رباب ألا تسلمين على لطفي ابن خالك؟

ابتسمت وأنا أعود إلى الواقع وأمد يدي لتلتقي بيد لطفي، أمدها لأصافح لطفي، لأصافح الحياة والحب والربيع، ما هذا ألا أخجل وأنا أنساق مع إحساساتي بهذا الشكل؟ تصنعت الجد وأنا أقول كلمة واحدة حتى لا يفضحني صوتي.

قلت:

ـ أهلاً.

عندما ركبنا السيارة أصر خالي على أن أجلس في المقعد الأمامي وجلس هو وأخواي اللذان كانا يعانقانه بين الحين والحين تعبيراً عن فرحتهما بلقائه، كما جلست معهم في المقعد الخلفي زوجة ابن خالي الكبير محمود، أما زوجة ولده الآخر والتي كانت قد حضرت مع أولادها أيضاً إلى تركيا لتمضية الصيف فقد ركبت السيارة الأخرى التي كان يقودها سائق وسبقتها لتعلن عن وصولي لباقي أقارب أمي الذين حضروا لملاقاتنا وملأوا البيت فكلهم يريدون أن يتعرفوا على ابنة جلبهار، طبعاً علَيّ أنا.

نسيت أن أقول إن الذي قاد السيارة التي ركبناها نحن كان لطفي، قادها بنفسه بينما تكومت أنا على المقعد بجواره دون أن أقوى على رفع عيني إليه.

ألم أقل لكم لقد عدت مراهقة من جديد؛ لا بل عدت امرأة من جديد؟

ثرثرة خالي أثناء الطريق كانت مطمئنة وإن لم أفهم منها شيئاً. لقد كان يتحدث بالتركية تمنيت عندها لو أنني تعلمت التركية من أمي، إنني لا أجيد سوى بضع كلمات، وأنا لا أرغب بتعلمها حتى لا تفوتني أي كلمة تقال أمامي. كان خالي يقول شيئاً يضحك أو يبتسم على أثره كل من لطفي وزوجة ولده التي ركبت معنا، كنت أسمع كلمة (جزال) تتردد كثيراً وهي إحدى الكلمات التي أعرف معناها، إنها تعني جميل، لطيف، حلو، شيء من هذا القبيل.

ترى أكان يصفني؟ ضحكت للفكرة ثم قلت لخالي بالانجليزية وبدلال ظاهر:

ـ خالي، تكلم بالانجليزية أرجوك، أريد أن أفهم ما تقول.

قال خالي بهدوء:

ـ سوف تفهمين، سوف تفهمين كل شيء، ولكن لا تتعجلي الأمور.

سادت لحظات صمت كنت ألملم خلالها عيني عندما تلتقي بعيني لطفي، أتدرون لقد أحسست وكأنني أعرف هذا الشاب.

أعرفه منذ أمد طويل، طويل جداً.

ترى هل هذا هو الحب من أول نظرة؟ ولكن ماذا عنه؟ كيف رآني؟ وبماذا يفكر؟ إنه صامت، لو يقول شيئاً، أي شيء يجعلني أستنتج أنه فرح بلقائي، أنه أعجب بي، أنه.. أنه يبادلني الحب من أول نظرة، ولكنه، صامت، صامت كأبي الهول.

أمضينا أمسية يوم وصولي مع جميع الأقارب وتحدثت مع الجميع، وأجبت عن الأسئلة الكثيرة التي وجهت إِلَيّ عن بلدي وعن عائلتي وعن الحياة في بلدي وعن.. وعن، نعم تحدثت مع الجميع، إلا معه هو.

نسيت في غمرة أفكاري أن أقول إننا نزلنا في شقة ابن خالي الكبير محمود في استنبول، تلك الشقة التي اشتراها ليمضي فيها إجازة الصيف هو وأولاده كلما جاء من أمريكا. بالطبع في هذا الصيف لم يحضر لانشغاله ولكن زوجته

وأولاده حضروا لوحدهم، ولقد اعتذرت لي زوجته نيابة عنه وأردفت قائلة:

ـ هو يبلغك تحياته ويعدك أن يرد لك الزيارة فيأتي في يوم من الأيام رأساً من أمريكا إلى السعودية فيراكم ويكحل عينيه برؤية الأماكن المقدسة في الوقت نفسه.

ابتسمت لها وأنا أقول:

ـ أرجو أن أراك أنت والأولاد معه.

أحاديث أخرى كثيرة جانبية ومن هذا النوع كانت تجري بيني وبين الجميع إلا هو. أين هو مني؟ ألا يقول شيئاً؟ ألا يسألني؟ ألا.. ألا، وبدأ صدري ينقبض.

بعد أن انفض القوم من حولي وغادر الأقارب المنزل ولم يبق إلا أنا وأخواي وعائلة ابن خالي محمود، و.. وهو، لطفي.

وقبل أن ألبي طلب زوجة محمود بالذهاب معها لتريني غرفة نومي أنا وأخويّ، سمعت صوته يرن بأذني وسط خيبة الأمل التي بدأت أشعر بها. كان يقول:

ـ هيا نامي جيداً لتستعدّي للغد، إننا سوف نأخذك في جولة طويلة تزورين خلالها قصر توب كابي حيث ترين الآثار الاسلامية، وحتى تلك التي جلبت من بلدك، وترين أيضاً مسجد السلطان أحمد (المسجد الأزرق)، وقصر السلطان عبد الحميد، وسيكون غداؤنا في طرابيا المطلة على خليج رائع وعشاؤنا على ضوء القمر في..

لم أسمع بقية كلامه، فلقد كانت أفكاري مشتتة وعقلي غير قادر على الفهم وحتى الإدراك لمعاني ما يقوله.

أمضيت ليلة ساهرة ولم أنم جيداً وعلى عكس ما طلب لطفي، لقد كنت أقلب الأمور من جميع الوجوه وأسأل نفسي:

ـ ترى ماذا يخبىء لي القدر؟ حتى إذا ما ضاع مني الجواب وضعت رأسي على مخدتي أحاول أن أنام وأن أترك كل شيء إلى الغد.. وإن غداً لناظره قريب.

* * *

الفصل الثامن

أشياء كثيرة نحس بها وبجمالها وروعتها بل وفتنتها عندما نكون في قمة السعادة، في بيت خالي في جزيرة الأميرات والذي انتقلنا إليه بعد قضاء بضعة أيام في استنبول في شقة ابن خالي محمود زرنا خلالها كل معالم استنبول واستمتعنا برؤية شمسها وروعة شواطئها وزرقة مياهها. زرنا الجزء القديم منها في آسيا حيث الدوائر الحكومية ومقر الشركات والأبنية القديمة التي تشهد على عظمتها وروعتها.

كما زرنا القسم الجديد، القسم الأوروبي، بأبنيته ذات الطراز الأوروبي، والتي تعتبر مقر سكن معظم أولئك الذين يعملون في القسم الشرقي. هذا ويتصل القسم الشرقي بجسر معلق يقال إنه أكبر جسر في أوروبا كلها أنجزته العقول والسواعد الألمانية واليابانية والتركية مجتمعة.

أما في جزيرة الأميرات حيث بيت خالي وحيث تحيط المياه بنا من كل جانب فقد استمتعت حقاً بالهدوء والسكينة، هناك لا تسير السيارات في أزقتها المرصوفة بل لا يزالون يستعملون العربات التي تجرها الجياد كوسيلة نقل.

وبين هذا وذاك وفي بيت خالي وبلده وبلد أمي التقيت بفجري العائد على أنغام يمنحني القوة والصلابة لأن أعاود رحلة الحياة بأسلوب جديد وجميل.

في السنوات الماضية كنت أبحث عن السعادة لأسرتي كلها فرداً فرداً، أصنع لهم منها عقوداً من الياسمين، أما أنا فلم يكن نصيبي من

عقود الياسمين هذه أو من السعادة التي أصنعها بنفسي إلا رؤيتي لهم جميعاً سعداء.

استيقظت على صوت عصافير الكناري وهي تغرد على الشجرة التي انحنت أغصانها حتى لامست شرفة لغرفة التي أنام فيها، بينما كان صوت خالي من الخارج يأتي مجلجلاً وهو يدق الباب ويقول:

- رباب هل استيقظت يا عزيزتي؟

أجبت وأنا أقوم مسرعة لألبس الروب دي شامبر فوق قميص النوم، ثم أفتح الباب مرحبة:

- نعم، نعم أنا مستيقظة من بدري، من الفجر، وهل يستطيع أحد أن يغمض عينيه وينام وهو يشعر بهذا الجمال وبهذه السعادة.

قال بمرح وهو يدخل:

- يسرني أن أسمع أنك تستمتعين بأيامك معنا، ولكن حضرت إليك لأتحدث معك على انفراد.

فهمت ما يعنيه خالي فالأيام السابقة كانت شاهدة على بدء الانسجام بيني وبين لطفي، شخصيته تعجبني، وكذلك أفكاره وآراؤه التي كثيراً ما كنت أراها مطابقة لأفكاري وآرائي عندما نتناقش بموضوع ما.

وبذلك أصبحت مستعدة نفسياً لكلام على انفراد من خالي يقول فيه: لطفي يريدك زوجة له. هكذا وجدت نفسي أستبق الأحداث رغم أن خالي لم يفتح فمه بكلمة بعد.

جلس خالي على الكرسي الهزاز الموضوع بالقرب من السرير بينما جلست أنا قبالته على السرير كتلميذة تنتظر نتيجة الامتحان.

بدأ خالي كلامه بعد أن تنحنح فقال:

- رباب ما رأيك بلطفي ابني؟

قلت أحاول أن أتصنع الثقل وأنا التي تنتظر بفارغ الصبر أن يكمل كلامه ويقول يريدك زوجة، يا خالي هيا انطقها ولا تدعني هكذا معلقة، ولكن مع ذلك بدأت أمارس دور حواء (يتمنعن وهن الراغبات). قلت ببطء وهدوء

عجيب لا أعرف من أين جاءني:

ـ ماذا تعني يا خالي؟

قال وهو يتجاهل غبائي أو محاولتي:

ـ لقد رأى صورتك معي قبل أن يراك شخصياً ولقد تحدثت إليه عنك كثيراً حتى إذا ما حضرت إلينا وأمضينا سوياً هذه الأيام الماضية وجد أن كلامي في محلّه بل وإنه أفصح لي، وهو المُضرِب عن الزواج بأنه أعجب بك من أول نظرة، وزاد إعجابه حين عرفك عن قرب وإنه يصر على سرعة الاقتران بك إذا ما وافقت. فما رأيك؟

وأخيراً نطقها. أخيراً سوف يتحقق حلمي، إن لطفي معجب بي كإعجابي به، ولكن لماذا لم يفصح لي عن ذلك بنفسه؟

لماذا تركني بين مد وجَزْر، أرفض أن أترك العنان لعواطفي خوفاً من أن أصدم كما صدمت أول مرة في حوش التاجوري، كنت أخاف أن أجد في تركيا أحداث حوش التاجوري مرة أخرى، فهل يقدر لي أن أكون هكذا؛ كلما اقتربت من السعادة فلتت خيوطها وهربت مني؟ أفكار كانت تعربد داخلي حتى نطق أبوه، أبو لطفي، خالي، بتلك الكلمات القليلة. كنت تائهة وسط كل تلك الأفكار حين أعاد خالي السؤال علَيّ قائلاً:

ـ ما رأيك؟ ما رأيك يا رباب؟

أجبته بعد تكراره لتلك الكلمات بجملة واحدة تجيدها المرأة عندما تكون راغبة قلت:

ـ الرأي لك يا خالي.

قال الجملة التي انتظرت سماعها بعدما نطقت بهذه العبارة:

ـ إذن على خيرة الله، دعيني أرتب الأمر بمعرفتي فأنا اليوم ولي أمرك.

قلت مستدركة:

ـ ولكن ألا تأخذ رأي أختي ثريا وزوجها ورأي أخوي كذلك.

قال ضحاكاً:

ـ وهل تعتقدين أنني لم أفعل بعد؟

قلت بسعادة:

ـ ماذا يا خالي إذن أنا آخر من يعلم؟

أجاب بجدية:

ـ في مثل هذه الأمور لا بأس بذلك.

ثم نظر إلى ساعته وخرج من غرفتي وهو يقول:

ـ هيا نحن بانتظارك لتتناول طعام الإفطار.

قمت إلى الدولاب أنتقي فستاناً ولا أدري لِمَ امتدت يدي إلى ذلك الفستان الوردي، يظهر أن تفاؤلي وحبي للحياة انعكس على ذوقي. إنني على أي حال منذ وصولي إلى تركيا لم ألبس الألوان الغامقة الأسود والبني والرمادي مطلقاً، تلك الألوان التي كان يعتقد الجميع أنني أحبها وأنا أرتديها هناك في جدة.

على مائدة الإفطار وجدت خالي ولطفي الذي سبقني أيضاً إليها والذي ما إن دخلت وقف مرحباً وأشار إليّ أن أجلس على الكرسي المجاور له، إلا أن ما غاظني أنه انخرط مع أبيه في حديث بالتركية الشيء الذي جعلني أقول:

ـ اسمع يا لطفي إن لي شرطاً واحداً للزواج بك.

انتفض لطفي وكأن أفعى لدغته، لا بد أنه أحس بطعنة توجه إليه، وممن؟ من تلك التي اختارها دون بنات الدنيا رفيقة لحياته.

أهو الذي يقال له عندي شرط للزواج بك؟ وقبل أن أدعه يسترسل فيما استنتجت أنه يفكر فيه قلت بمرح:

ـ شَرطي أن تعلمني التركية حتى أفهم كل كلمة تتفوه بها ولو مع أبيك.

انفرجت أساريره عندئذ وعادت إليه البسمة وأجابني بمرح:

ـ شرطك مقبول ولكن ما رأيك أن نتبادل مثل هذا الشرط، أنا أعلمك التركية وأنت تعلمينني العربية؟

أمسك دفة الحديث خالي هذه المرة وقال:

ـ إذن هيا لا تضيّعا الوقت. ما رأيكما أن نكمل إجراءات كتب الكتاب

يوم الخميس القادم وبعدها تبدأ الدروس المكثفة حتى إذا ما غادرت يا رباب تركيا تكونان قد قطعتما شوطاً كبيراً في هذا المجال؟

وأضاف بعد أن قام ليغادر الغرفة:

ـ أما أنا فسوف أقوم لكي أبدأ بعمل الإجراءات المطلوبة من أجل كتب الكتاب.

أحسست وأنا جالسة مواجهة لطفي بأنني أنثى، شابة.

بل شعرت بما تشعر به الأنثى وهي على أبواب عرسها، فرح مع شيء من الاضطراب والخوف والسعادة والأمل أيضاً.

أمضيت يوماً حافلاً مع لطفي فقد أصر أن ننزل إلى استنبول لننتقي (دبل الخطوبة) وشبكة لي.

في أسواق استنبول أعجبني كثيراً السوق المغلق الذي بدا لي أشبه بسوق (جوه المدينة) الذي هدم لتصبح أرضه ضمن أروقة المسجد النبوي.

كما تعلمت كلمتين مهمتين (كاشاي) ومعناها بكم هذا؟ ولقد ضحكنا طويلاً أنا ولطفي عندما كنت أحاول استعمالهما، لأني كنت أشير إلى البائع وأقول (كاشاي) فيرد عليّ ظناً منه بأنني أفهم التركية بجملة طويلة طويلة لا أفهم منها شيئاً ولا ينقذني من الموقف سوى تدخل لطفي ليكمل الحديث مع البائع عما نريد شراءه.

طبعاً وجدتها فرصة سانحة لكي أشتري بعض الهدايا لأختي وأولادها، ولقد أصر لطفي على دفع ثمنها، شكرته وأنا أعي ما يرمز إليه بمثل هذا العمل وأكبرته فيه. لقد أصبح رجلي ووليّ أمري والكتف الذي أستند عليه في رحلة الحياة القادمة (وإلى آخر العمر إن شاء الله) وجدتني أردد هذه العبارة بيني وبين نفسي، وأنا أشعر أن الدنيا بدأت تقبل عليّ وتبتسم لي، بل وتعطيني من السعادة أكثر مما كنت أتصور، أو مما كان يخطر على بالي.

ابتدأنا في اليوم التالي بتعلم اللغتين التركية والعربية، أنا أعطيه درساً بالعربية وهو يعطيني درساً بالتركية، أقول الحق لقد كانت أمتع دروس تلقيتها في حياتي.

وتم كتب الكتاب في موعده تماماً كما حدد خالي.

مفاجأة أخرى كانت تنتظرني فقد أصر لطفي أن نتزوج وأن نمضي أيام عسل في تركيا قبل أن أغادرها إلى جدة.

لا أدري.. الأيام تمضي مسرعة وإجازتي على وشك أن تنتهي، يا رب.. لماذا أيام السعادة هكذا تمر بسرعة، بسرعة عجيبة، تمر أسرع مما نتصور؟

أمام إصرار لطفي ومباركة خالي وأخويّ الصغيرين ثم أختي وزوجها اللذين تحدثنا معي بالتليفون، وافقت على إتمام الزواج قبل أن أعود إلى جدة، نزلت عند رغبة الجميع، وأنا في قرارة نفسي لا أرى مانعاً يجعلنا نؤخر مثل هذا الأمر، طبعاً لم أكن أقول رأيي هذا لأحد وإنما تركت نفسي تقول لنفسي.

على الشاطىء اللازوردي شمال استنبول في طرابيا أمضينا ثلاثة أيام عسل، طبعاً لا أدري كيف مرت. كان كل شيء على الشاطىء ولطفي يسبح كأمهر السباحين يذكّرني بأيام عمري القادمة، ولا يدع لي فرصة للتفكير في الماضي. لم يعد حوش التاجوري في خيالي ذكرى لصدمة أليمة، بل عاد فرحة تعربد في صدري وتعيدني إلى أيام كنت أمرح وألهو فيه بكل ما في الطفولة والشباب من مرح وتفاؤل، كانت رمال الشاطىء وقاع البحر وكل شيء حولي نقياً صافياً يجعلني أدعو الله أن يكون قلب زوجي لطفي هو أيضاً في مثل هذا الصفاء وتلك النقاوة.

وأصبحنا نتبادل الكلام تارة بالعربية التي بدأ يعرف بعض كلماتها وجملها، وتارة بالتركية التي بدأت أنا أيضاً أجيد بعض كلماتها وجُملها، طبعاً كنا نضحك كثيراً عندما يخطىء أحدنا، وكان الجميع من حولنا يشاركوننا الضحك.

بدر وبندر كانا في قمة السعادة إذ كان الجميع يتنافس على تلبية طلباتهما، وأخذهما إلى هنا وهناك، طبعاً ليتركوا لي المجال كي أقضي معظم الوقت مع زوجي لطفي.

في إحدى المرات كنت أتحدث ولطفي ونحن جالسان في حديقة بيت خالي في جزيرة الأميرات، طبعاً دار الحديث بالانجليزية فلم نكن نجرؤ بعد على الحديث بالعربية أو التركية قلت:

ـ أتدري يا لطفي أن الجو هنا لطيف والنسيم عليل ربما سوف تفتقد كل هذا عندما تحضر وتعيش في جدة، فالجو في جدة حار، وأحياناً يصاحب الحر رطوبة خانقة خصوصاً في أشهر الصيف.

قال ضاحكاً:

ـ ستلطّفين من حرارته بوجودك إلى جانبي وهذا يكفيني.

قلت هامسة وأنا في قمة السعادة:

ـ مجامل كبير.

قال:

ـ على العكس أنا إنسان لا يعرف المجاملة. إنني أقول ما أشعر به تماماً، عندما رأيتك شعرت أنك بالفعل الإنسانة التي أرغب في تمضية بقية حياتي معها فتقدمت إليك على الفور وتزوجتك.

وابتسم ابتسامة عذبة وهو يكمل كلامه قائلاً:

ـ هل أبوك لك بسر؟

فتحت عيني على الآخر وأسرعت أتمتم:

ـ هيا أسرع قل ولا تدعني أنتظر.

قال بجدية:

ـ لقد رأيت الكثيرات في لندن وألمانيا وأمريكا وتركيا بلدي فلم تستهوني أي منهن. لم أعرف أن قدري أن أنتظر اليوم الذي أتعرف فيه على ابنة عمتي، ولو كنت أدري أنك نصيبي لأتيت إليك ولو مشياً على الأقدام.

ابتسمت بدلال وقلت:

ـ ولكن هل من المعقول أنه لم تعجبك امرأة ما في كل تلك البلاد؟

كنت أقولها بدلال الأنثى والتي تنتظر مزيداً من الغزل والمديح إرضاء لكبريائها وأنوثتها.

مرت سحابة تفكير قطّب على أثرها جبهته ثم قال:

ـ في الواقع يا عزيزتي المرأة في أوروبا وأمريكا تناطح الرجل وتتسابق

معه على جميع الأعمال وفي جميع المجالات، ولقد نسيت أنوثتها في غمار كل ذلك؛ فلا أصبحت رجلاً ولا بقيت امرأة، بل كما كنت أصفها لأصدقائي بقولي، المرأة هناك شبه امرأة، وأنا عندما أتزوج أريد امرأة كاملة.

قلت، وأنا ممعنة في دلالي:

ـ وأنا تلك المرأة الكاملة، أليس كذلك يا عزيزي لطفي؟ .

وضح الأمر لزوجي لطفي وتبين له أنني (أسوق الدلال عليه) فقال مازحاً:

ـ ها.. ماذا هناك يا حواء؟ أتختبرين حبي لك؟ أتريدين أن أقول فيك شعراً أو أحارب من أجلك على طريقة عنترة بن شداد؟ ولا يهمك أنا مستعد، هيا قولي.. ماذا ترغبين يا حبي؟ ما عليك إلا أن تقولي حتى أقوم بتنفيذ كل طلباتك.

ضحكنا سوياً ونحن ندخل البيت فقد أصبح الليل على الأبواب والجلوس في الحديقة وبين الورود والياسمين وحديث لطفي العذب يجعلني دائماً أنسى نفسي وأنسى المكان والزمان.

فكرت في كل الذي قاله لي لطفي وأنا أستعد للنوم وشعرت بأن حياتي مع هذا الرجل ستكون رائعة، رائعة.

حقاً إن الحياة حلوة. ووجدتني أفكر بحوش التاجوري مرة أخرى. إنني الآن أشعر بأن الحياة حلوة تماماً كما أشعر وأنا طفلة أعيش في حوش التاجوري. قد تتلاقى القلوب وقد تفترق، لكنها عندما تلاقى تصفو الحياة ويحس الإنسان بالاطمئنان وهو يتسلل إلى أعماق نفسه بهدوء لذيذ، إنني الآخر أحس بهذا الاطمئنان.

أحس به إلى جانب لطفي الذي أكتشف فيه كل يوم شيئاً جديداً يضيف إلى حسناته حسنات جديدة.

وجاء موعد سفري إلى جدة، فجرت مراسم الوداع صامتة حزينة رغم أنني قد اتفقت مع زوجي لطفي أن يلحق بي إلى جدة بسرعة وبمجرد أن ينهي بعض الأمور الخاصة به.

أقول: جرت مراسم الوداع صامتة حزينة عبّر عنها لطفي بقلق لم يستطع إخفاءه، وعبرت أنا عنها بدموع مسحتها قبل أن يلحظها أحد.

مسحتها وأنا أتجه إلى الطائرة ولسان حالي يقول: ليتك يا لطفي معي حتى أتجنب هذا الحزن الذي أشعر به.

أريد أن أقول للحزن وداعاً إلى الأبد وأن أفتح ذراعي للسعادة والفرح والمرح، أريد أن أشعر وكأني أدخل حوش التاجوري مرة أخرى.

أدخل إليه سعيدة فرحة تماماً كيوم كنت أعيش فيه وأنا طفلة.

في الطائرة أسندت رأسي على جانب الطائرة أنظر من النافذة وأفكر بقلبي الذي تركته هناك في تركيا، مع إنسان انتظرته طويلاً حتى إذا ما ألقته المقادير في طريقي وجب عليّ أن أشكر الله جل وعلا، فهو مقلّب القلوب وهو وحده. عز وجل. القادر على منح السعادة للناس؛ كل الناس. أشكرك يا رب، وشعرت وكأن الله يكافئني على عمل طيب عملته في أيامي الماضية.

فالعمل الطيب لا بد وأن يثمر عملاً طيباً مثله إن لم يكن أحسن منه، وأنا على ما يظهر كوفئت على أعمالي بحب كبير.

حب ملأ علَيّ حياتي وسوف يبقى كذلك إلى آخر العمر، حب سيرافقه أسرة وبيت وأطفال يملؤونه حيوية وسعادة.

* * *

الفصل التاسع

كثيراً ما انتابتني الشكوك وهزت من قناعتي في قدرتي على الزواج والاستمرار فيه على اعتبار أن السنوات التي مرت بي وظروف حياتي ومشكلاتها وإشرافي الدائم على أُسرتي، قد يحد من هذه القدرة ولا يمنحها طريق الأمل الذي بدأ يداعب جفني طوال تلك الأيام والليالي التي عرفت فيها لطفي عن كثب.

فارق البيئة التي عاش لطفي فيها والبيئة التي عشت أنا فيها؛ حياته الماضية عندما كان يدرس في ألمانيا، ثم عندما التحق بعمل في إحدى مستشفيات فرانكفورت فيها، إضرابه عن الزواج حتى شارف على الأربعين من عمره، كل هذا أيضاً بعث في قلبي ونفسي الشك في يوم من الأيام.

الشك والخوف من أن لا ننسجم أو أن لا نستطيع أن نكمل رحلة الحياة معاً.

لطفي بطبيعة الحال حاول أن يحدثني عن أيامه في ألمانيا، وأن يعترف لي بكل ما مر به من أوضاع وظروف، لكنني كنت أطلب منه دوماً أن يصمت وأن يحتفظ بكل تفاصيلها لنفسه كنت أريده أن يبتعد عن الماضي، أن ينساه، لأنني أنا نفسي أريد أن أنسى بعض الماضي الذي عشته في حوش التاجوري.

لا أريد أن أتذكره ولا أريد أن أحدثه عنه، فقصة تعلقي بفريد لم يعد لها وجود، وبذلك فأنا لا أجد معنى لأن أحدثه عنها.

كذلك الحال معه فهو بمجرد أن قرر واختارني شريكة لحياته فإن معنى ذلك أنه وضع حداً لماضٍ لا يريد أن يعيش فيه، وتطلع إلى

حاضر ومستقبل أكون أنا عنوانه والجزء الهام فيه وهو إحساسي وشعوري وتفكيري.

كنت متحمسة جداً لمثل هذه الفكرة ولكنني في إحدى المرات وبعد أن أجهدت فكري وجدت أن من المناسب أن أخبر لطفي بقصتي مع فريد.

وهناك وعلى كرسي صغير تحت شجرة الليمون الكبيرة جلست وجلس لطفي في مواجهتي يوم وجدت في نفسي الشجاعة والميل لأن أحكي له، نعم أحكي له عن فريد، قلت بعد تردد:

ـ لطفي أريد أن أحدثك ببعض التفاصيل عن حياتي الماضية.

ضحك وقال مداعباً:

ـ ولكنني لا أرغب في سماعها.

سألت عندئذ بجدية:

ـ ولكن لماذا؟

أجاب بمرح وابتسامة تضيء وجهه:

ـ واحدة بواحدة. أنت ترفضين أن تستمعي إلى أي شيء عن ماضي حياتي وأنا كذلك.

قلت:

ـ ولكني امرأة وأنت الرجل، والمرأة عادة لا تطلب من الرجل سوى أن تكون محور اهتمامه وآخر من يعرف في حياته، وأنا حقاً يكفيني صدقك معي منذ الآن وإلى بقية أيام حياتنا معاً حتى تصبح حياتي سعادة في سعادة.

قال:

ـ ولكن ما الفرق بين المرأة والرجل؟ ثم إنني أريد أن أطمئنك فأنا لم يكن في حياتي امرأة قبلك، ولن يكون فيها امرأة بعدك، فأنا أحبك، أحبك و. . .

قاطعته لأقول:

ـ ولكني أصر على أن أحدثك عن طفولتي وحياتي الماضية.

قال:

ـ ما دمت مصرّة فلا بأس، هاتي ما عندك وها أنا كلي آذان صاغية.

وطفقت أتحدث إليه عن كل شيء أتذكره عن حياتي.

حدثته عن يوم مولدي في المدينة المنورة كما وصفه لي أبي.

وحدثته عن كل ما مر بي وحتى تلك اللحظة التي كنت أجلس فيها معه.

لم أُخْفِ عنه حبي وتعلقي بفريد في مطلع شبابي، ثم الملابسات التي مرت بهذا الحب.

وزواج أختي من فريد، ذلك الزواج الذي كان متفقاً عليه بين أبي وأبيه دون أن أعلم أنا الصغيرة في ذلك الوقت على مثل هذه المواضيع كما أجابت جدتي عندما سألتها: لماذا لم يخبرني أحد بذلك الاتفاق؟

ووضحت له أنني من يومها طويت حبي في صدري وأغلقت عليه قفلاً بحيث لا يدري به أحد ولا يسمع به أحد، بل ولا أتحدث به ولا حتى إلى نفسي، فقد عرفت أن علَيّ أن أضحّي من أجل أختي وسعادتها، وطبعاً بعد كل ذلك تبين لنا بل ولأختي بالذات أن فريداً لم يكن رجلاً بمعنى الكلمة، باختصار حصل بينهما طلاق كان لا بد منه.

لا أدري لم اندفعت أقول لحبي لطفي كل ذلك.

ربما لأنه ليس في حياتي ما يجعلني أخجل من أن أحدثه عنه، فحياتي واضحة وخط سيري فيها هو الآخر واضح وصريح، وتجربة الحب تلك كانت، والآن أقول وأنا مقتنعة تماماً، من نسج خيالي، فلم يكن فريد هو فريد الذي رسمت شخصيته في خيالي، ولم تكن تصرفاته غير المسؤولة، والتي لا تدل على الرجولة التي اعتقدتها فيه هي التصرفات التي يمكن أن أعجب بها بأي حال من الأحوال.

استمع لطفي إلى كل ما كنت أقوله بكل جوارحه ثم قال بصوت ملؤه العطف والحنان، ذلك العطف والحنان الذي كنت أمنحه لكل من حولي وأتوق إليه شخصياً، قال:

ـ يزيدني كل ما قلت تمسكاً بك وحباً لك، صدقك يجعلني أتأكد من أننا نبني حياتنا معاً على أساس متين.

ثم أردف قائلاً بمرحه المعهود:

ـ والآن جاء دوري، جاء دوري لأن أقول لك كل تفاصيل حياتي الماضية.

وضعت يدي على فمه في محاولة مني لكي أمنعه من الكلام وقلت مقاطعة إياه ومحتجة عليه:

ـ أفهمتك من البداية أنني لا أريد أن أسمع شيئاً عن حياتك الماضية، فالمرأة يا عزيزي تحب أن تكون دائماً الأخيرة في حياة زوجها، بغض النظر عن كل الظروف والأحوال، وعلى أي حال فإذا كان لا بد وأن نتكلم فليس الآن على الأقل.

قال:

ـ حسناً ولكن على شرط أن تستمعي إلَيّ في جلسة قادمة كهذه. فحياتنا القادمة وسعادتنا في رأيي تأبى إلا أن يتعرف كل منا إلى ماضي الآخر.

وأردف قائلاً:

ـ وعلى أي حال ليس في حياتي الماضية ما يشين فأنا مثلك لكن هناك أشياء صغيرة لا بد وأن تعرفيها.

قلت محاولة إنهاء الكلام في هذا الموضوع:

ـ لا بأس، لا بأس ولكن ليس الآن.

ودخلنا إلى المنزل فقد بدأ الليل يزحف ويرخي سدوله على الحديقة، وكانوا من الداخل يستعجلوننا لأن موعد العشاء قد أزف.

أمضيت بعد ذلك العشاء أمسية سعيدة وسعيدة جداً فقد كنت أشبه بطفلة صغيرة حكت لأمها عن أشياء يزعجها كتمانها، ربما لأنها كانت تخاف عقاباً من نوع ما على ما تخفيه، فابتسمت تلك الأم وهدهدتها وأفهمتها أن ما تكتمه لا يدعو أبداً إلى أن تنزعج منه كل ذلك الانزعاج، فهو لا يمثل في نظرها شيئاً مُهمّاً.

حتى خالي في تلك الليلة لاحظ الفرحة والبشر اللذين كانا يعلوان وجهي، لاحظ ذلك وسألني وهو يبتسم عما يفرحني إلى ذلك الحد الذي يجعلني أشرد بذهني بعيداً وأنا على مائدة العشاء.

حاولت أن أسرد عليه بعض ما قلته لخطيبي لطفي، وكنا آنذاك لم نتزوج بعد، إلا أن ابتسامته بدأت تكبر وتكبر وأنا أبدأ الحديث إلى أن أصبحت ضحكة عالية صافية مما جعلني أصمت قليلاً وأنا في حيرة مما يجعله يضحك، لم تطل حيرتي كثيراً لأنه أخبرني أنه يعرف تفاصيل حياتي كلها بل وحياة أسرتنا بحالها وحتى زواج سارة من أبي، ثم زواجها من سامر وطلاقها منه.. الخ.

دهشت وأنا أقول له:

ـ ولكن لم تقل لي إنك تعرف شيئاً من هذا القبيل عن حياتنا، ثم إنك لم تقل شيئاً حتى لولدك لطفي.

عادت الابتسامة تزين وجه خالي وهو يقول:

ـ رباب، يا ابنتي تأكدي أن الأمور تسير على ما يرام، ولن يكون هناك إن شاء الله ما ينغص عليك حياتك بعد اليوم وسوف تسعدين تماماً كما سعدت أمك يوم تزوجت من أبيك.

ابني لطفي يحبك كثيراً، بل أكثر مما تتصورين وإلا فلم يكن هناك ما يجبره على الاقتران بك. لقد رجوته مراراً وتكراراً أن ينهي حياة العزوبية ويتزوج ولكنه لم يأبه لكلامي، إلى أن ظهرتِ أنت في حياته، عندها لم يكن بي حاجة لأن أتكلم كثيراً وأعيد مواعظي السابقة من أنه يجب أن يتزوج وأن يكون له بيت وأسرة.

وصدقيني لو لم يقتنع بك لما أقدم على الزواج منك أبداً.

حمدت الله كثيراً يومها. الأيام التالية أثبتت صدق خالي وصدق إحساساتي وتوقعاتي، كان كل يوم ينقضي أزداد فيه اقتناعاً وإعجاباً بلطفي ويزداد هو حباً وتعلقاً بي.

حقاً إنني دخلت خانة المحظوظات من بنات حواء. ربما ساق القدر خالي ليأتي إلينا لتأدية فريضة الحج ثم ليرانا فيجلب لي معه السعادة التي كنت أفتقدها بل وأتطلع إليها بين الحين والحين وكأنها بعيدة المنال.

نعم تخيلتها في يوم من الأيام بعيدة بعد السماء عن الأرض، ولكن الله كريم غمرني بفضله. أشكرك يا إلهي، الحمد والشكر لك يا إلهي.

ينطلق بها لساني وقلبي وكل خلجة ونبض يسري في عروقي.

طبعاً لا توجد هناك حاجة لأن أقول إن خالي عرف كل شيء عن حياتي من أختي والتي أخبرته أيضاً بقصتها مع فريد وأنها تعزو عزوفي عن الزواج وانصرافي عنه إلى انهيار زواجها هي وصدمتها هي التي عاصرتها وأنا صغيرة. قالت ذلك له عندما سألها لماذا لا تتزوج رباب وهي جميلة ومثقفة ومن أسرة محترمة؟ طبعاً أختي لم تعرف أبداً أن عزوفي أنا عن الزواج كان سببه صدمتي أنا في فريد وليس صدمتها هي، ولقد حمدت الله كثيراً على فهم أختي الأمر على هذه الصورة.

صور كثيرة راودت ومخيلتي وأنا أعايش الفرحة في الطائرة وعندما نظرت من نافذة الطائرة وسمعت عجلاتها تضرب الأرض بنعومة تدل على مهارة كابتن الطائرة السعودي.

لا أدري لماذا تذكرت أمي وأنا أغادر الطائرة مع أخويّ بدر وبندر، ربما لأنها عاشت سنوات حياتها دون أن تسمح لها الفرصة للسفر وزيارة أهلها، حياتها في تلك الحقبة من الزمن وقبل التطور والحضارة التي وصلنا إليهما بفضل الله، والتي لم تكن في زمان أمّي على هذه الحال. كانت مسؤولة إلى حد بعيد عن عدم ذهابها مع والدي في زيارة إلى بلدها تركيا مسقط رأسها.

موظف الجوازات يرحب بي وأنا أقدم له جوازات السفر الخاصة بي وبأخويّ فقد كنت أتذكر تلك المناقشة التي جرت بين وبين لطفي قبل عدة أيام من زواجنا، أي في أيام خطبتنا القصيرة.

قال يومها:

ـ أستطيع أن أقرأ ما يدور بخلدك، إنك تتساءلين عما إذا كنت أرغب فعلاً في المجيء إلى جدة والاستقرار فيها، وعما إذا كان هذا الاستقرار مؤقتاً وأنني في يوم من الأيام سوف أطلب منك أن نعود لنعيش هنا في تركيا.

قلت بلهفة:

ـ نعم هذا ما يقض مضجعي قليلاً.

قاطعني وهو يقول:

ـ قليلاً أو كثيراً، لا داعي للقلق أبداً، أحب أن أطمئنك أنني قررت أن أمضي بقية حياتي على أرضك وهذا الأمر ليس نابعاً من حبي لك فقط، وإنما جاء بعد تفكير وتفكير، ففي بلدكم من الاستقرار والازدهار ما هو مطلوب ومرغوب من قبل أي إنسان كان. عندكم سوف أكون مطمئناً على حياة أبنائي وبناتي، فأنا أرغب في أن يشبوا في تلك البيئة المسلمة التي تحمل الخير لهم وتبعدهم عن شرور وآثام المجتمعات المفتوحة والتي عشت فيها في أمريكا وأوروبا. ثم من تسنح له الفرصة لكي يعيش بالقرب من الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة ويرفض؟

شكرته بعيني اللتين كانا يملؤهما الامتنان ودون أن أفتح فميّ بكلمة واحدة، وازداد حينها إحساسي بحبه، ولقد بارك خالي فكرة لطفي من حيث الاستقرار نهائياً في جدة وقال:

ـ نِعم الرأي يا ولدي فأنا محظوظ. كنت أتمنى أنا نفسي لو أستطيع أن أعيش هناك بقية عمري. على بركة الله، ولكن لا تنقطعا عنّا مثلما فعلت أمك يا رباب، اكتبا لنا باستمرار ثم دعونا نراكما بين الحين والحين في الإجازات وكلما سنحت لكما الفرصة.

ضحكنا لكلام خالي وشعرت بكثير من الاطمئنان ثم استلمت دفة الحديث لأقول:

ـ خالي تأكد أنه سوف يكون لك بيتان، بيت في تركيا أو في أمريكا إذا كنت لا تزال تريد أن تعيش مع أولادك هناك، وبيت في جدة تأتي إليه وقتما

تشاء وكلما اشتقت إلينا وإلى زيارة الأماكن المقدسة.

لقد أثلج صدري أن تأتي الرياح كما تشتهي السفن، لا كما يقول بيت الشعر المشهور.

وأنا اليوم أسعد مخلوقة على ظهر الأرض، أتدرون، وقدماي تطآن الأرض السعودية؛ أرض بلادي بدأت أحس بحبي وشوقي لزوجي لطفي، بدأت أفتقده، كيف لا أفتقده وقد أصبح حياتي وسعادتي وكل شيء بالنسبة لي؟

وتمنيت أن يلحق بي في أقرب فرصة ممكنة.

* * *

الفصل الأخير

عندما أنهيت معاملات جوازات السفر لي ولأخويّ بدر وبندر وإجراءات الجمارك وسط ابتسامات وترحيب موظفي مطار الملك عبد العزيز الدولي وقولهم: «أهلاً ومرحباً»، وخرجت من باب الخروج الخاص بقاعة الجمارك لأواجه بأختي وزوجها وأولادها الذين جاءوا ليكونوا في استقبالنا في المطار.

أقول الحق: لم أعرف مدى اشتياقي لأختي إلا حين وقعت عيني عليها، كذلك لم أعرف مدى حبي وحنيني إلى بلدي بشكل عام وإلى جدة بشكل خاص إلا وأنا أراها في الليل من الطائرة عندما كان يحدثنا المضيف بأننا نطير فوق مدينة جدة وأننا على وشك الهبوط في المطار.

جدة في الليل بأنوارها المتلألئة تبدو كثريات من النجوم تناثرت فوق أديم الأرض تمنح موج البحر ألواناً أشبه بلوحة سريالية. جدة؛ هذه المدينة أعشقها من كل قلبي بعد طيبة الطيبة، ربما لأنني أمضيت فيها معظم سنوات عمري، وربما لأنها المدينة التي تحنو على جميع سكانها فتمنحهم بحدائقها العامة وشواطىء بحرها الساحرة حياة حلوة سعيدة، ولقد التقيت بمنظرها الرائع في الليل وأنا على علو شاهق في تلك الطائرة التي أقلتني وأخويّ من استنبول إليها.

في جدة تتداخل أشعة القمر الحانية مع أردية النجوم التي انتثرت في كل مكان من سمائها الصافية الزرقة لتعطي لياليها تلك النكهة التي تميزت بها عروس البحر الأحمر وهي تنضو عن جسدها ثيابها الثقيلة لتختار ثياباً شفافة رقيقة تمنحها القدرة على العَدْو مع إشراقة الفجر

وكأنها تستقبل شلالات غدائر الشمس في حرية وحب وحنان.

لا تسألوني لِمَ أقول كل هذا عن جدة مدينتي الحبيبة، فلقد أصبحت رومانسية بعد حبي الذي قابلته في تركيا، رومانسية وعاطفية لدرجة جعلتني أحس بأن الحياة كلها نغم حلو وأنشودة حب تستحق أن يعيشها الإنسان وينعم في ظلالها.

استقبلت الأمسية الحائرة في ليل عروس البحر الأحمر في الطائرة ونزلت بعدها لأخرج من المطار وألتقي من بعيد بوجه أختي المتلهفة على ما يبدو للقائي وكان معها ـ كما قلت ـ زوجها وأولادها.

كان كل شيء في مطار الملك عبد العزيز الدولي يضج بالحركة حين أخذ ركاب الطائرة ينسلون إلى الأبواب الرئيسية وكلهم حيوية وعشق للمدينة التي سوف تحتضنهم وتحنو عليهم كالأم الرؤوم، وهذه حقيقة واقعة يشهد بها كل مواطن وكل مقيم فيها وحتى كل زائر.

بدأت أختي التي كانت تقف في ركن بعيد تهرول إلى لقائي، يتبعها زوجها ويسبقها أولادها الذين أخذوا يتراكضون ويتدافعون حولي وهم يقولون: خالة رباب، خالة رباب وصلت.

استقبلتني أختي بالأحضان، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة رضية شعرت خلالها وكأن أمي هي التي تستقبلني، أمسكت بيد أختي وكأني أطبق على الدنيا كلها، فأنا أحب أختي، أحبها جداً ولا أستطيع أن أنأى عنها كثيراً.

قالت في ود ونحن نغادر المطار بسيارة زوجها الدكتور خالد والذي استقبلني بابتسامة صافية وقال جملة واحدة:

ـ الحمد لله على السلام ومبروك.

وانسحب على أثرها وبعد أن شكرته ليأخذ الحقائب إلى السيارة وليتركني مع أختي فهو يعرف أن هناك أشياء كثيرة نود أن نقولها لبعضنا. المهم، قالت أختي:

ـ شغلتك عنا تركيا أو هل أقول أهل تركيا؟

ابتسمت وأنا أفهم ما ترمي إليه وأؤكده:

ـ بل شغلني إنسان واحد عن الدنيا كلها.

قلتها بفخر وكأني أزهو بهذا الذي شغلني، نظرت أختي إلَيّ نظرة حانية ثم قالت:

ـ هل وصلتك برقية التهنئة؟

قلت:

ـ نعم حملها خالي إلَيّ صبيحة يوم زفافنا، ولكن لماذا أرسلتم برقية مع أننا تكلمنا طويلاً على التلفون قبلها، وباركت لي أنت وزوجك في تلك المكالمة الطويلة؟

قالت:

ـ خالد أصر أن يرسل البرقية لتصبح التهنئة رسمية، ولكي تحتفظي بالبرقية كذكرى جميلة ليوم جميل سعيد.

أجبت وأنا أبتسم بمرح:

ـ نعم، نعم إنني أحتفظ بها، ولكن الآن دعينا من أخباري، فأنا أعتقد أنني قلت لك كل شيء بالتليفون، كيف تم لقائي مع لطفي ثم كيف كان اتفاقنا على الزواج، ثم مراسيم الخطبة وكتب الكتاب ورحلة شهر العسل التي لم تستغرق سوى أيام لضيق الوقت.. الخ.

قالت أختي تقاطعني:

ـ نعم، قلت لي كل شيء بالتلفون، ولكني الآن أريد أن أسمعه منك شخصياً.

قلت:

ـ إذن دعي الأمر للغد وسوف تكون لنا جلسة طويلة أحكي لك فيها أدق التفاصيل.

سادت لحظات صمت قطعتها أنا لأقول للدكتور خالد:

ـ ما أخبار المستشفى والعمل والزملاء والزميلات؟

أجاب:

ـ كلهم بخير ويرسلون تحياتهم وتهنئتهم لك، فلقد أخبرت الجميع

بزواجك، وفرقت الشربات عليهم، على حد تعبير إخواننا المصريين.

عندها قالت أختي:

ـ هل تعلمين أن فريداً يرقد في المستشفى في حالة خطيرة؟

انتفضت كعصفور بلّله المطر وقلت مذعورة:

ـ كيف؟ ولماذا؟

أمسك عندها الدكتور خالد دفة الحديث وقال:

ـ كالعادة لم يقلع عن تعاطي ذلك السم (الهيروويين) والذي نهيناه عنه يوم دخل المستشفى في المرة السابقة رغم أنه وعد بأن يقلع عن تعاطيه، وها هو الآن يرقد في المستشفى إنسان محطم لا حول ولا قوة له، بل كما قالت أختك، وفي الواقع إنه يحتضر.

سألت:

ـ من هو الطبيب الذي يشرف على علاجه؟

أجاب بهدوء:

ـ أنا.

قلت:

ـ رائع أنت يا دكتور خالد، فأنت تعرف أنه كان في يوم من الأيام.

قاطعني ليقول:

ـ أنا لا أتذكر شيئاً أمام الواجب الذي أجده ملقى على عاتقي.

قلت مرة أخرى:

ـ رائع، رائع أنت يا خالد.

قال:

ـ وستكونين أنت أكثر روعة لو أنك وافقت على طلبه.

قلت مستنكرة:

ـ وماذا يطلب مني هذا الإنسان النذل؟

قال:

ـ لا تنفعلي. ألم نَقُل إنك نسيت الماضي، وعلى أي حال هو لا يطلب شيئاً، إنه فقط يريد أن يراك.

ـ ولماذا؟

سألت بحدّة ولؤم.

قال زوج أختي:

ـ لا أدري.

وأضاف:

ـ لقد طلب مني أن أرجوك لكي تقومي بزيارته، وهو يقول إنه يريدك، إنه يريدك في أمر هام.

قلت بانفعال ظاهر:

ـ إذا كنت ترى أنه لا بد من هذه الزيارة، فغداً، إن شاء الله نذهب أنا وأنت وسارة أخته إليه.

قال خالد:

ـ ولكنه لا يريد أن يرى سارة. إنه يريد أن يراك أنت شخصياً هذه المرة.

صدقوني لقد خفت من هذا الطلب وأخذت أضرب أخماساً في أسداس، ولكن زوج أختي الذي لاحظ اضطرابي وخوفي وحيرتي قال:

ـ لا تخافي، لن تصابي بمكروه، فهو كما قلت لك يرقد في المستشفى لا حول له ولا قوة له.

نظرت إليه وإلى أختي فرأيتهما يتبادلان الابتسام، وكأنهما قد تعاونا علَيّ فاستسلمت عندئذ وقلت:

ـ لا بأس سأذهب لزيارته.

قلت ذلك وأنا أعود بذاكرتي إلى حوش التاجوري وإلى التمتمة بأغنية لا يزال صداها عالقاً في ذاكرتي من دنيا الطفولة، من حياتي في حوش التاجوري.

لو كان فريد رجلاً بمعنى الكلمة لوفّر علَيّ وعلى نفسه وعلى أختي عذاب

أن يخضع لرغبة أبيه دون مناقشة ولا محاولة لإقناعه أنه بالإقدام على مثل هذا العمل، أي على الزواج من أختي فإنه سوف يحطّم أكثر من شخص، الشيء الذي حصل.

خلافاته مع أختي بعد زواجها بالتأكيد لم تكن كلها لأنه أراد في يوم من الأيام أن يقترن بي أنا، فتلك أحلام قد ينساها الإنسان، والرجل بصفة خاصة في مراحل حياته التالية، وعندما تأخذه دوامة العمل.

ألم تثبت التجارب أن الرجل بالنسبة للمرأة التي تحبه يشكل كل شيء في حياتها في حين أنها تشكل جزءاً من حياته؟ المهم أنه المسؤول عما حدث بينه وبين أختي، هو بشخصيته المهزوزة الضعيفة والتي استمرت تطفو على السطح لتجعل منه إنساناً فاشلاً، وتجعل من حياة أختي معه جحيماً لا يطاق، وها هو الآن يجني ثمار شخصيته الضعيفة تلك واستهتاره فيما بعد ليرقد محطماً في المستشفى.

لم أهدأ طوال ليلة وصولي إلى جدة، فقد كان لطفي يحتل الحيز الأكبر من تفكيري، وإن كان فريد يطل بين الفينة والفينة للحظات هو الآخر، ولقد فكرت فيما يمكن أن يريده مني ولكني لم أفلح في معرفته فتركت الأمر إلى الصباح.

ذهبت في صباح اليوم التالي إلى المستشفى فاستقبلني الزملاء والزميلات وجميع العاملين هناك بالترحاب، وكل واحد منهم يهنئني بطريقته الخاصة. بعضهم ملأ مكتبي بباقات الورد الأبيض والزهري، وبعضهم شد على يدي مهنئاً، أما الزميلات فتلقيت منهن قبلات حارة، ذهبت أو مشيت في المستشفى أجد من يقول: مبروك يا دكتورة رباب بالرفاء والبنين.

شكرت الجميع على عواطفهم الجياشة تجاهي والتي تدل على مدى تعلقهم بي وتعلقي أنا بهم، ولا عجب في ذلك فهي عِشرة عُمر، كما يقولون، خصوصاً وأن عالمي كان منحصراً في عملي وزملاء وزميلات عملي.

لم تسنح لي الفرصة لأن أصبح على انفراد وأفكر بطلب فريد الذي وعدت زوج أختي بتلبيته إلا بعد ساعتين أو ثلاث من وصولي، لا أدري ربما كنت أن أؤجل تلبية ذلك الطلب لسبب أو لآخر.

المهم وفي الساعة والعاشرة والنصف توجهت إلى غرفته بعد أن اطّلعت على ملفه، ومن ملفّه عرفت أن حالته خطيرة بالفعل، وأنه يتأرجح بين الحياة والموت، بل هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، الأمر الذي جعلني أسرع إلى غرفته. لا أكتمكم أنني كنت أشعر وأنا متجهة إلى غرفته بالإشفاق عليه ولا شيء غير الإشفاق، نعم كنت مشفقة عليه وأتمنى على الله ومن كل قلبي أن يمن عليه بالشفاء، وهو القادر على كل شيء ﴿يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾.

وما إن فتحت باب الغرفة ورأيته ممدداً على السرير حتى تجسد الماضي كله أمام عيني، حياتنا في حوش التاجوري، بيت سارة وفريد الذي لم يكن يبعد عن بيتنا كثيراً.

أصدقاء الأمس وزملائي وأحبابي في الكُتّاب، كل مكان أعرفه في بلدي طيبة الطيبة بدأ يظهر أمام ناظري لثوان قصار تؤكد حقيقة وجوده في حياتي، إلا شيء واحد هو إعجابي وولهي بفريد في تلك الفترة، فترة آخر الطفولة وبداية مرحلة الشباب والمراهقة، ورحت أتمتم بيني وبين نفسي:

لكم يتغير الإنسان، لكم تغيره الأحداث ويعيد تشكيله الزمان على ضوء تجارب تمر به على مدى السنين والأيام التالية من حياته.

أحسست أيضاً بأن أيام العمر تمضي سراعاً، وأن الإنسان العاقل هو الذي يعرف كيف يتكيف وفق الظروف ليعيش حياة سعيدة بعيدة عن الشقاء والكدر. إن الحياة التي نحاول القفز عليها لا يمكن أن تمضي وتذهب هكذا دون أن نشعر أو نحس، وإلا نكون من الزمرة التي لا تعرف كيف تستمتع بحياتها أغلى ما وهبه الله لنا.

عندما دخلت غرفة فريد أحسست بإشراقة تظهر على وجهه الذي تعلوه صفرة واضحة. مد يده الكليلة وكأنه يريد أن يضع يده في يدي، لكنني تجاهلت يده الممدودة، وقلت وكأني لم أر حركة يده:

ـ ها... ما الأمر؟ يبدو أنك تسوق الدلال على أختك سارة ومن يعرفك.

أشرق وجهه لدعابتي هذه وقال:

ـ أبداً والله، إنني حقاً أشعر بوهن كبير في جسمي، وعلى كل حال اتركي

موضوع صحتي ودعينا نتكلم عنك.

ـ عني؟

تساءلت مذعورة.

ـ نعم عنك. أريد أن أهنئك على زواجك، لا بد أنه رجل رائع جذاب ذلك الذي استطاع أن يقنعك به وبشخصيته حتى قبلت به زوجاً لك.

أجاب بصوت يبدو عليه التحسر والمرارة.

قلت ونبرات الدهشة تعلو صوتي:

ـ أشكر لك تهنئتك هذه، لكن كيف عرفت؟

قال بهمس وكأنه يُفضي إلَيّ بسر كبير:

ـ لا أكتمك القول، إنني أتابع أخبارك.

قلت وأنا أحاول أن أبدو طبيعية:

ـ تعني أن أختك سارة أخبرتك بنبأ زواجي؟ قاطعني ليقول: وماذا في الأمر إذا هي فعلت؟ إنها تحبني وهي تحبك أيضاً.

صمت قليلاً ثم أكمل كلامه قائلاً:

ـ ولكنك أجدر مني بحبها، فلقد نغّصت أنا عليها حياتها. أتدرين؟ أنا الذي دفعتها لكي تتزوج من أبيك وأنا أعرف فارق السن بينهما. كان همّي في ذلك الوقت أن تفوز بنصيب كبير من مال أبيك.

وربما تقولين إننا فزنا بهذا المال والذي لم أستطع أن أفوز به عن طريق أختك، لأن كبرياءها كان يمنعها من أن تنفذ رغبتي وتطلب مالاً من أبيك، الشيء الذي عجّل بوضع حد لحياتي معها.

قلت والأسى يعلو وجهي:

ـ أشكرك على صراحتك هذه ولو أنها جاءت متأخرة.

كنت أنطق هذه الجملة وأنا أتمنى بيني وبين نفسي لو أني اكتشفت أنانيته وحبه لنفسه منذ الصغر لكنت حتماً هدمت تلك الشخصية التي رسمتها في خيالي له وأحببته من خلالها، ولربما أيضاً كنت أسعد حالاً بعد ذلك.

أسعد حالاً؟ لا أنا التي يجب أن أشكره لأن عقدتي التي حملتها بسببه من حوش التاجوري والتي تتلخص في عدم رغبتي في الارتباط بإنسان ما بالزواج كانت السبب ـ بمشيئة الله وقدرته ـ في أن ألتقي بزوجي وحبيبي لطفي، والذي أرى فيه رجلاً ولا كل الرجال، فهو حقاً رجل بمعنى الكلمة، مستقيم عطوف صريح وواضح.

هكذا وجدت نفسي أفكر وأنا أنظر إلى فريد بشرود ذهن لاحظه وقال على أثره يخرجني من دوامة أفكاري:

ـ رباب، أعني يا دكتورة رباب أين أنت؟ يبدو أنك شردت بعيداً عني، ولك الحق في ذلك، فأنا اليوم أظهر أمامك على حقيقتي التي لم أكن أود أن يكتشفها أحد، وصدقيني لقد حاولت أكثر من مرة أن أعترف لكم جميعاً بأخطائي التي ارتكبتها بحقكم، ولكن في كل مرة كنت أضعُف ولا أجرؤ على الإفصاح عنها خصوصاً وأنا أرى ولدي سارة يكبران يوماً بعد يوم ويصبحان على درجة من الوعي والإدراك، الأمر الذي يعني صدمة لهما وفي مَن؟ في خالهما الذي من المفروض أن يكون قدوة لهما.

قلت بمرارة وتهكم:

ـ وماذا في الأمر؟ صدمة لهما تضاف إلى الصدمات الأخرى التي سببتها لكثير من الناس.

ـ أرجوك يا رباب لا تجعلي من أيامي الأخيرة أيام بؤس وشقاء.

أثارت هذه الكلمات مشاعري، فلست أنا التي تشمت بالآخرين، أو تفرح لأحزانهم ومشكلاتهم، الشيء الذي جعلني أتوقف عن التهكم عليه بل وأبتسم ابتسامة مشجعة وأنا أقول:

ـ من قال إن هذه هي أيام الأخيرة يا فريد؟ عمر الشقي بقي، كما يقولون.

لم ينبس فريد ببنت شفة إنما يده تحت وسادته وأخرج مظروفاً سلمه إلَيّ وقال:

ـ ما في المظروف لك وليس من حقي أن أحتفظ به.

فتحت المظروف والدهشة ممزوجة مع حب الاستطلاع ترتسم على

وجهي، وإذا بي أجد صورة من صوري، صورة قديمة افتقدتها منذ أكثر من عشرين عاماً، وأذكر يومها أنني بحثت كثيراً عنها دون جدوى، مما جعلني أنسى أمرها تماماً، أعادت تلك الصورة ذاكرتي إلى الوراء، إلى أيام حوش التاجوري، إلى أيام المرح واللامسؤولية، فقد أخذت تلك الصورة لي هناك في حوش التاجوري، وطبعاً قبل أن أصدم بحبي لفريد.

حبي؟ من قال إنني أحببته يوماً ما في حياتي؟

إنني الآن أكتشف أنه لم يكن حُبّاً أبداً، كان وجهاً لشخصية ابتدعتُها في خيالي، شخصية رسمتها أنا بنفسي لفتى بحكم أننا جيران في حوش التاجوري وأننا كنا نلعب معاً ونحن صغار، وعندما كبرنا قليلاً وابتعدنا عن بعضنا بحكم العادات والتقاليد، جاءت صداقتي مع أخته لتنقل إلَيّ أخباره يوماً بيوم، وكأني لا زلت أقابله وألعب معه بالحارة.

باختصار حبي لفريد كان وهماً كبيراً سبّب لي كثيراً من الشقاء، فصدمتي فيه عندما قبل رغبة أبيه في أن يتزوج أختي دون أي معارضة ظلت عالقة بذهني وقلبي طوال السنين الماضية بحيث عزفت عن الزواج والحب، ربما لأنني كنت أخاف من صدمة أخرى، وربما لأنني كنت أظن أن ذلك الوهم، أي حبي لفريد، لا زال عالقاً في أعماقي.

طبعاً لم أعرف أن حبي لفريد أو حبي الأول كان وهماً كبيراً صنعته لنفسي بنفسي وعشت فيه سنين وسنين إلا عندما قابلت الحب الحقيقي. فعندما قابلت لطفي وتعلقت به عرفت الحقيقة التي أسوقها اليوم لكل فتاة يحدث لها ما حدث معي في حوش التاجوري، والحب الحقيقي لا يمكن أن يكون حب مراهقين يأتي عن طريق مزج الإعجاب بالصفات التي تتمناها الواحدة منا بفتى الأحلام.

صدقوني الحب يأتي من العِشرة وبعد الزواج، فحتّى لطفي مثلاً، لقد أعجبت بشخصيته وآرائه وأفكاره ولكني أحسست أن حبه تمكّن من قلبي، وتغلغل في روحي وعقلي في الفترة القصيرة التي قضيتها في تركيا زوجة له.

طال الصمت بيننا فأنا في دوامة التفكير، أفكر في الماضي والحاضر، وهو لا أدري بماذا كان يفكر، المهم قطع هو الصمت ليقول بصوت فيه توسل

واسترحام:

ـ رباب ألا تسامحينني.

ـ وعلام أسامحك؟

رددت بصوت ملؤه الشفقة، فقال:

ـ على كل ما فعلت بك، فقد خذلتك يوم كنت صغيرة وأمعنت في إيلامك عندما كبرت تارة عن طريق تعذيب أختك التي راحت ضحية عدم استطاعتي الوقوف في وجه أبي لأقول: لا ليست هذه التي أرغب بها زوجة لي، وتارة عن طريق سارة وأنت أدرى بما كانت سارة تفعله بكم عندما تزوجت والدك، وأخيراً أريدك أن تسامحيني على أخذي هذه الصورة من بين حاجات أختك ودون علمك أو علمها.

قلت:

ـ لقد سامحتك يا فريد.

صدقوني قلتها من كل قلبي؛ لسبب واحد وهو أن قلبي لم يعد فيه مكان للحقد أو الكره، كان يملؤه الحب ولا شيء غير الحب كان يملؤه حب لطفي، وحب الدنيا التي ابتسمت لي أخيراً، وحب الناس كل الناس.

وتركت الغرفة وخرجت وفي يدي صورة قديمة لي، صورة أخذها لي يوم كان فريد شيئاً هاماً في حياتي، وها هي اليوم تعود لي وفريد لا يمثل في نفسي سوى شخص عابر، شخص عبر حياتي من خلال تجربة جعلتني أصلب عوداً وأقوى شخصية، فكان أن استطعت أن أرعى حياة كل من حولي وأن أصنع لهم السعادة عقوداً من ياسمين أطوّق بها جِيدَ كل من أعرف ومن لا أعرف إذا قصدني في استشارة أو مساعدة أقدر عليها.

عندما وصلت البيت في مساء ذلك اليوم وبعد أن أنهيت وردية عملي في المستشفى كان التليفون يدق ليعلن المتكلم أن فريداً قد مات.

تسمّرت في مكاني وأنا أسمع الخبر، وتدحرجت دمعة كبيرة على صفحة خدي، أما سارة فقد أجهشت في البكاء فهو أولاً وأخيراً أخوها، (والدم لا يمكن أن يصبح ماء مهما حصل)، كما يقولون.

وعرفت أنه أيضاً اعتذر لسارة على تحطميه لحياتها وهي في أول عمرها

ودفعها للزواج بمن يكبرها بأربعين عاماً على الأقل لا لسبب إلا لكي يبتز منه ألوفاً وألوفاً من الريالات تأخذها سارة من أبي لتعطيها له كي يحيا تلك الحياة البوهيمية التي عاشها.

جاءت أختي تحاول أن تمنع سارة من البكاء على إنسان لا يعرف معنى الإنسانية. على حد قولها، ولكني أشرت إليها أن تصمت وأن تدع سارة تبكي وتنتحب، فالبكاء في كثير من الأحيان يغسل القلوب ويجليها ويدمل جروحها.

بعد ثلاثة أسابيع من وصولي جاءتنا برقية تعلن عن موعد وصول خالي وزوجي لطفي. انتظرت ذلك الموعد وكأني انتظرت دهراً لا يومين حتى إذا ما وصلا شعرت بالأمان والاطمئنان، كيف لا وقد جاء فارس أحلامي ليكون السند الذي أعتمد عليه في حياتي ليصبح رفيق دربي إلى آخر العمر؟

استقبل الجميع خالي وزوجي لطفي بكثير من الحفاوة، حتى سارة التي كانت حزينة لوفاة أخيها شاركت في ذلك الاستقبال الحار.

أراد لطفي أن ننتقل أنا وهو إلى أحد الفنادق لنعيش هناك إلى أن يتم له استئجار بيت ومن ثم تأثيثه، ولكني عارضت واستخدمت خالي كوسيلة ضغط عليه لنعيش في بيت أبي، ذلك البيت الكبير الذي لا يوجد فيه سوى سارة وولديها، ولقد اقتنع بعد جهد جهيد وخصوصاً عندما أفهمته أنه سوف يكون سيد البيت وراعيه وسيحمل على عاتقه تربية أخويّ بدر وبندر اللذين أخذا يكبران يوماً بعد يوم. عندها أذكر أنه قال بحماس شديد:

ـ سأكون لهما نعم الأب.

وقلت أنا بصوت ملؤه الثقة فيه وفي كلامه:

ـ إن شاء الله إن شاء الله.

وأرادت أختي أن تحتفل بزفافي من جديد وأن تقيم احتفالاً كبيراً يحضره كل معارفنا وأقربائنا وأصدقائنا، فنزلت على رغبتها خصوصاً وأن الجميع كان يؤيدها في رأيها هذا، زوجها وأولادها وأخواي وكل من حولي.

جاء الاحتفال رائعاً فلقد قام الجميع بتزيين البيت بالأنوار وأنواع الزينة حتى بدا هو الآخر كعروس تتلألأ على صفحة مياه البحر الذي يطل عليه ليعكس بهجة وفرحة لا حدود لها.

ووسط الزغاريد والغناء قطعنا أنا ولطفي كيكة كبيرة من عدة طبقات أوصى

عليها زوج أختي من أفخر مطعم في جدة، وجعلها مفاجأة لي، أنا التي كنت أرى أنه لا داعي لمثل هذا الحفل، وأنه يكفيني جلسة عائلية واحتفال بسيط.

عندما علمت أختي برغبتي هذه صرخت كما لو كانت أمي التي تريد أفضل شيء لي وقالت:

- إنها أختي الوحيدة وأريد أن أحتفل بها بحفل يذكره الجميع أطول مدة ممكنة.

وبينما أنا في الكوشة أنتظر لطفي أن ينضم إلَيّ كما هي العادة، كان فكري يسرح بعيداً بعيداً. لقد كنت أفكر بذلك المسكين الذي مات بلا أنيس ولا ونيس، مات لوحده ليس معه أحد سوى الوحدة والفراغ، وتمتمتُ:

- هو أراد لنفسه هذا المصير. رحمه الله وغفر له.

هكذا هي المرأة مجموعة من الأحاسيس المتضاربة المتباينة، وهي بعد كل ذلك وقبله من لحم ودم وأعصاب فهل يمكن أن تكون غير ذلك؟

ربما وفي كثير من الأحيان تختلط الأمور وتتضارب الآراء الرؤية لمسيرة الحياة التي يعيشها الإنسان، مسيرة الحياة تلك التي يحاول بعضنا العبور ويحاول بعضنا الآخر القفز فوقها، ومع هذا يتساقط بعضنا في أول الطريق أو منتصفة، وكأنهم على موعد مع الفشل بينما يمضي بعضنا إلى نهاية المطاف ونصب أعينهم الوصول إلى أهدافهم.

ترى من أي نوع أنا؟

أترك الحكم لكم بعد قراءة مسيرة حياتي هذه والتي كنت صادقة في كل حرف وكلمة أقولها. أترك الحكم وأنا واثقة بأن حكمكم سيكون لصالحي، على الأقل هذه المرة وإلى هذا الجزء من مسيرة حياتي، الجزء الذي أضع فيه يدي بيد زوجي لطفي لنكمل هذه المسيرة معاً في طريق يخلو من الأشواك تماماً كما كانت حياتي يومذاك في حوش التاجوري، بل وأشعر أنني قد نسيت كل ما مر بي وأنني أبدأ حياتي من جديد، من حوش التاجوري، طفلة صغيرة تتطلع إلى الحب والانطلاق والحياة السعيدة في ظل فارس أحلام يأتي من الواقع هذه المرة وليس من نسيج الخيال.

* * *

حتى لا نفقد الشمس

(مجموعة قصصية)

ط ١ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م



- ■ حتى لا نفقد الشمس
- ■ زوجة من اليابان
- ■ عندما يضيع الزمن
- ■ الكابوس
- ■ مفهوم غريب غريب جداً
- ■ عروس من البحر
- ■ أوهام امرأة
- ■ الاختيار
- ■ أجمل امرأة في الدنيا
- ■ غداً سنلتقي
- ■ عندما يأتي الغد
- ■ لم تعد من نصيبه
- ■ سهى فتاة لا تتكرر
- ■ بين مارجو ولينا
- ■ الورقة
- ■ فتاة الريكشا
- ■ وداعاً سهى
- ■ وتنزف الجراح
- ■ الجهاد المقدس
- ■ امرأة مهزومة
- ■ طفل كبير
- ■ غيبوبة صغيرة
- ■ إنه يعجبني يا أماه
- ■ أشياء صغيرة
- ■ كلهم سواء يا بني
- ■ الزوجة الصغيرة



حتى لا نفقد الشمس

ارتدت ألكسندرا فستانها الأنيق بعد أن تركت ملابس البحرية التي كانت ترتديها على المقعد الصغير في الغرفة الأنيقة من الشقة التي اختارتها في أحد شوارع ميامي المدينة الأمريكية على مقربة من الأكاديمية البحرية الأمريكية التي كانت تدرس فيها تاريخ البحرية الأمريكية العسكرية. . وامتطت سيارتها في طريقها إلى فندق الشيراتون «بل هايبر» حيث أوصلت صديقها ممدوح الطالب بجامعة بوسطن الأمريكية والذي يحضّر لدراسة الدكتوراة في هندسة البترول.

كان كل همها أن تلقاه وأن تتحدث إليه بعد أن شغفت به حباً بعد رحلتها القصيرة لأسرتها في بوسطن، إذ إن والدها كان أحد الأساتذة الذين يقومون على تدريس بعض مواد هذه الدراسة. وهي تذكر أول لقاء لها وهذا الطالب السعودي الذي جاء برفقة والدها لتناول طعام العشاء في بيتهم، الذي لم يسمح أبوها لأحد بزيارته إن لم يكن على مستوى كبير من الأخلاق والاجتهاد.

ففي المرة الأولى التي التقت بمثل هذا الطالب كانت أكثر من عشر سنوات مضت عندما أحبت أختها كريستين ذلك الطالب الآتي من الشرق والذي كان مثال الأخلاق العالية والقدرة العلمية. . وأحبها هو أيضاً، حتى إذا ما نال شهادته الكبيرة اقترن بها في حفل لا تزال تذكره وتذكر كم كانت أختها جميلة في ردائها الأبيض وهي تخطو خطواتها الأولى نحو بيت الزوجية. ولكم تحدثت إليها أختها في أكثر من زيارة كانت تقوم بها إلى بوسطن عن سعادتها بهذا الزواج ومدى النجاح الذي حققه زوجها في اليابان.

وهي تعتبر بأن التاريخ يعيد نفسه وكأنها على موعد مع هذا الغريب الذي حرك لواعج تطلعها إلى البيت والأسرة، هي التي أمضت أكثر من عشر سنوات في دراسة طويلة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه كمدرِّسة في الأكاديمية البحرية.

وهي عندما تقارن بين هذا الوافد الغريب الذي أحبته وبين زوج أختها تجد الفارق كبيراً وكبيراً جداً.. فوسامة ممدوح وثقافته وفهمه وإدراكه وطريقة معاملته للمرأة تختلف عن ذلك الياباني الذي خطب أختها وذهب.. كما أن أختها كانت من النوع الذي تشده حياة البيت والأسرة أكثر منها، ولهذا قبلت أن تظل مسؤولة عن البيت دون أن تعمل إنها لم حتى تفكر في الالتحاق بأي عمل أما هي، فقد كانت مغرمة بعملها تؤديه برحابة صدر وتقضي أكثر أوقاتها مع زملائها الذي هم مثلها يحبون هذه المهنة.

ترى هل يقدر لها أن تقترن هي بهذا الوافد الغريب؟ وإذا اقترنت به هل يمكن لها أن تضحي بعملها الذي تحب كما فعلت أختها.. ولقد تذكرت كيف كانت زيارتها لأختها في طوكيو قبل أكثر من أربع سنوات وشعرت بأن حياة المرأة في اليابان مغايرة لحياة المرأة في أمريكا فهناك الكثير من التقاليد الملقاة على عاتق المرأة مما يجعلها دائماً في مستوى يقل بكثير عن زوجها، لكن أختها لم تقاوم هذه التقاليد وإنما اندمجت معها وأصبحت جزءاً من حياتها وحياة ولديها وابنتها.

كم شعرت بالاستغراب لهذا الأمر ولكنها عزت موافقة أختها على ضياع الكثير من حقوقها لأنها أحبت زوجها وأصبحت ملتصقة به أكثر من التصاقها بأبيها وأختها..

ترى إلى أين ستوصلها صلتها بالوافد الغريب وهل من الممكن أن يتزوجها؟ وإذا قدر لها أن تقترن به، هل يمكنها أن تعيش في بلده وتضحي بوظيفتها التي أحبتها؟

لكم قابلت من أمثاله في رحلتها إلى السعودية أثناء حرب الخليج. ولكم أعجبت بدماثة أخلاق الضباط السعوديين الذين لقيتهم وقدرتهم على الانضباط وتحمل المسؤولية، كما أن بعضهم قد وصل إلى درجات علمية كبيرة خارج

نطاق عمله مما يعطي فكرة عن قدرات أبناء الصحراء على تلقي العلم وإدراك مراميه هي التي حاولت أن تلحق بكلية مدنية أثناء عملها فلم توفق.

وهي تذكر واحداً من أولئك الطيارين السعوديين الذين بهروها بثقافتهم وفهمهم للغات متعددة رغم صغر سنهم ولكون تدريباتهم تمت في أكثر من بلد.

كل هذه الأفكار راودتها وهي في الطريق إلى الفندق حتى إذا ما وصلت إليه أسلمت مفاتيح السيارة للحارس الذي تولى تفريجها وأخذت تنهب الدرج لتلتقي بالوافد الغريب الذي رأته من زجاج الباب يمشي في الصالة الكبيرة في هدوء عجيب.. وساعتها أحست بوجيف قلبها فهي تعشق هذا الوجه الأسمر النبيل والقامة الممشوقة وتتمنى أن تأتي الرياح بما تشتهيها هي لا كما تشتهيها السفن البحرية، فلقد آن لها أن تستريح وأن تصبح امرأة يكفل لها زوجها جميع احتياجاتها دونما حاجة إلى إرهاق العمل ومشاكله وتعقيداته. وشعرت بشيء من الرهبة وهي تمد يدها لتلتقي بيده التي أحست بنبضات قلبه هو الآخر تدق في معصمه.. لكنها عزت ذلك إلى إحساساتها هي فمن يدريها أنه هو الآخر يريد أن يقترن بها كما تفكر.

ومشت برفق إلى الكرسي الأنيق عند ركن الصالة والتقت عيناها بعينيه فرأت فيهما عمق البحار التي جابتها هي التي عرفت البحار وأعماقها وما تحتوي عليه.. وقالت لنفسها ربما كانت الشهور القليلة التي مضت على تعرفها بهذا الوافد الغريب هي التي جعلتها تحس بكل هذه الأحاسيس وتعود إلى جنسها كامرأة بعد أن اغتال أنوثتها عملها الذي تؤديه، وفي هذه الشهور التقت به أكثر من مرة لكنها في هذه المرة يختلف لقاؤها عن المرات السابقة لم تكن تظن أنه قادر على تلبية دعوتها لزيارة ميامي هي التي رغبت منه أن يجيء وتلتقي به وتتحدث معه، لتعرف إلى أين ستوصلها عاطفتها هذه التي تحس. ويوم استقبلته في المطار، وكانت أكثر إحساساً بالسعادة التي تتغلغل في شرايينها هي التي أحبت ذات مرة ودافعت عن حبها حتى إذا ما وجدت اختلافاً كبيراً بين تفكيرها وتفكير جورج صديقها السابق ضحت به وتركته بعد أن شعرت بأنها لن تستطيع أن تكمل معه مشوار الحياة.

أما هذا الجالس أمامها برفقة وجهها الأبيض الأنيق بعينيه الواسعتين ووجهه المشرق فالأمر مختلف لأنها تصبح أسيرة نظرات هذه الفتى وأحاديثه وكلماته الرزينة الوامضة.

ترى هل للصحراء دخل في رجولة شبابها وإشراقة أحاديثهم أم إن السنوات التي أمضاها في أمريكا للدراسة هي التي صنعت ما صنعت؟

لا تدري ولا تود أن تدري بل يكفيها أنه معها، تلتقي به وتتحدث إليه وتحس بما تحس من هدوء واستقرار نفسي كبير.

ممدوح في جلسته تلك أشبه بفارس عربي اختار ملابسه بعناية وبدا في قامته الطويلة ووجهه الأسمر الأنيق وكأنه واحد من ممثلي السينما العربية التي شاهدت بعض أفلامها عندما كانت في مصر يوم زارتها في إجازة قصيرة.

اشتمل الحديث بينها وبين الوافد الغريب أمور كثيرة حاولت خلالها أن تتعرف على ظروف الحياة وأسلوب المعيشة في عالمه الذي يعيش. هذا العالم الذي يختلف كل الاختلاف عن عالمها، فأمريكا صورة مغايرة للسعودية التي رغم أنها قضت فيها أكثر من ستة شهور إلا أنها لم تكن كافية لأن تعرف كل الذي عرفت خلال ساعات ست قضتها برفقته في صالة الفندق وعلى الشاطىء وتحت أشجار نخيل النارجيل وبين أوراق الورد وفي ظل شجرة السيسبان الكبيرة.

وهي تذكر كل كلماته تلك التي حاولت من خلالها استدراجه لتعرف ما يرمي إليه بعد مضي كل هذه الساعات التي قضتها معه، وهل يلهو الوافد الغريب وإذا كان يريد أن يلهو فلماذا اختار أن يلهو معها هي بالذات.

ساعات طويلة أمضتها برفقته دون أن تدري فلم يكن للزمن وقعه أوحتى تأثيره عليها وهي تنتقل برفق من مكان إلى مكان حتى إذا ما حان وقت العودة إلى شقتها تلقت يداها قطعة صغيرة من الورق حرصت على أن لا تقرأها لأول وهلة، لكنها وبعد أن ودعته واستقلت سيارتها نظرت إلى الورقة في فضول وهي تلمح فارسها في موقعه بقرب المدخل لم تعرف معناها أو مدلولها لا لأنها لم تكن بلا معنى أو مدلول وإنما لأن لها أكثر من معنى ومدلول وتحتاج إلى مزيد من التفكير.

جاءت الكلمة على الورقة: سأنتظرك!

وقالت لنفسها وهي تقرأ الرسالة للمرة العشرين: ترى من سينتظر الثاني أنت أم أنا؟ لكنه هو الذي يقولها ولهذا القول معانٍ كثيرة. لقد سبقها في التعبير عن نفسه وسبقته هي في التفكير فيه. وبين التفكير والتعبير خيوط كثيرة متشابكة يراها البعض ولا يراها البعض الآخر.

واستلقت على فراشها دون أن تخلع ملابسها، كانت تفكر أن تتصل به، لكن جرس التلفون يدق ويدق وتمتد يدها إليه لتحمله كطفل وتهدهده كرجل عندما جاء صوته إلى أذنيها قائلاً:

ـ لا أزال أنتظرك. قالت:

ـ وأنا الأخرى أنتظر.

ولم تكمل فقد فاجأها بأنه سيظل في ميامي لثلاث ليال أخرى بعد أن عرف بأن هناك إجازة خاصة في الكلية التي يدرس فيها وأضاف:

ـ أتدرين من سأكلم بعد حديثي معك.

قالت:

ـ لا.

قال:

ـ أباك.. أستاذي سأقول له بأنني رأيتك.. وأنك أروع مما كنت أظن.

قالها في عفوية وكأنه يتنصل عن تقاليده التي حدثها عنها ساعة كانت معه. ضحكت من كل قلبها ثم قالت:

ـ سأراك الليلة.

ـ الليلة!؟

قالها سائلاً.. أجابت هي:

ـ نعم تعال سأنتظرك.

وودّعها برقة ثم أقفل الخط فساد الصمت أجواء الغرفة وإن كان صخب الكلمات يدور في رأسها يستولي على مشاعرها كامرأة لا كمقاتلة.. أثار هذا الغريب الوافد أنوثتها فبدت أشبه بطفلة عرفت طعم الحب لأول وهلة فلم تعد

تعرف للحياة طعماً بدون هذا الحب الذي حط هكذا من عل..

وارتدت ثياب البحرية وأخذت تساير خطواتها العسكرية بشيء من المرح لكنها عندما نظرت إلى المرآة لم ترَ سوى وجهها هذا الذي أصبح يضج بالحيوية. أما جسدها فقد التف في فستان أنيق رأته قبل أيام في نافذة أحد المحلات الكبيرة.

استغربت أن يستغرقها الحب فينفذ إلى أعماقها فينسيها كُل شيء إلا أنها امرأة وليس ضابطاً في ملابس امرأة. عندها تذكرت حديث جانيت صديقتها في الرتبة والتي قالت لها يوم أحبت هي الأخرى بأنها كرهت نفسها لأنها حبست أنوثتها طوال كل تلك السنوات.

وها هي جانيت قد تزوجت وأنجبت بعد أن طلقت البحرية وأعمالها الشاقة التي أحبتها.

وهي تتذكر أحاديث جانيت بعد أن تزوجت فقد كانت صديقتها كثيرة الثرثرة فلم تبخل عليها بالحديث عن كل شيء لكنها نسيت كل هذه الأحاديث وتذكرت حديثاً واحداً أخذ يلح على ذاكرتها في نشوة وهي تقول لها:

ـ أوتدرين يا صديقتي أن سبب البطالة التي نراها تطبق بخناقها على أمريكا اليوم هو أنا وأنت، فلو تركت موقعك في البحرية مثلي لواحد من الرجال لأصبحت مساهمة في تخفيف آثار البطالة. لكنك لن تغيري موقعك بسهولة وإنما سيأتي اليوم الذي تحسين فيه بأن الوقت قد حان لأن تذهبي ولن تعودي، ويومها ستفعلين ما فعلت.

شيء غريب أن تتذكر كل هذا وهي في طريقها إلى سيارتها بعد أن أعادت ملابس البحرية إلى مكانها وارتدت فستاناً يكشف بعضاً من ملامح الجمال في وجهها ومعالم جسدها وذراعيها ومضت تحادث نفسها: ترى أو تكون جانيت على حق هي التي كانت تضحك من كل قلبها على كل الذي تقوله لها.

ربما فقد تغيرت نظرتها إلى الحياة وأصبحت شيئاً مغايراً لما كانت عليه. وأدارت مفتاح التلفزيون لتفاجأ بفيلم تبثه إحدى المحطات المتخصصة، وأخذت تطالع الصور المتحركة لفترة حتى أوشك الفيلم على النهاية وعندها عرفت اسم الفيلم الذي كانت تضيق برؤيته لكنها لم تكن كذلك هذه المرة، ربما لأنها خافت أن تكون نتيجة حبها كعنوان هذا الفيلم "ذهب مع الريح"

الذي أصرت أن تراه حتى النهاية ومع هذا أشاحت بوجهها عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير ونزعت من نفسها إحساسها ذلك الذي راودها للحظة وشعرت بشيء من الضيق والتعاسة.

التلفون يدق.. أمسكت بالسماعة في لهفة جاء صوت أمها يسأل عما إذا كانت قد التقت به وعن رأيها فيه ككل أم ترغب في أن تزف ابنتها بأسرع ما يمكن. طمأنتها وقالت لها بأن لديها معه موعداً آخر ثم أضافت:

ـ قال سينتظرني يا أماه وأنا سعيدة بهذا الانتظار.

أقفلت أمها التلفون ومضت ألكسندرا في رحلتها مع المجهول وكأنها تحاول أن تقرأ صفحات هذا المجهول الذي تحبه.

أدركت ألكسندرا وهي تمد يدها البضة لتلتقي بيد هذا الغريب الوافد أن نبضات قلبها قد توقفت وأن تياراً من الكهرباء قد سرى إلى كل جسدها وارتفعت عيناها لتلتقي بعينيه كان كل شيء أمامها يزغرد، قلبها، جسدها، كيانها، شرايينها.

لم يعد في عروقها مكان لمزيد من السعادة. شغل فؤادها، وتراءت لعينيها لمحة أمل.. هي التي طلقت الأماني منذ أن عرفت طريقها إلى الكلية البحرية.

ترى هل يحبها كما تحبه؟

وأطلت من عينيها نظرة ناعمة وأعتب لها عيونه فاستشفت من وراء تلك النظرة كلمات كثيرة حاولت أن ترددها في تلك اللحظة ولكنها لم تقدر وتتابعت الكلمات وهي وهو في المطعم الأنيق على مقربة من صخب الأمواج الهادئة فالعاصفة التي مرت على المدينة لا تزال تحمل آثارها.. وعلى مقربة منهما رجل وامرأة ازدان إصبعهما بخاتم الزواج، شغلهما الكلام فلم يتذوقا أي طعم لشيء سوى طعم كلامهما الشهي.

نظرت وابتسمت وقالت لنفسها ما يدريها أن تصبح هي وهو بعد أن يتزوجا مثل هذا الرجل وتلك المرأة؟ وعندما لم تصل إلى رأي أشاحت بوجهها عنهما ومضت تزدرد طعامها وهي تنصت إلى صوته يتحدث عن حياته وأرضه وبلده كطلبها. كان بعض ما يقوله تعرفه وأكثر ما يقوله لا تعرفه ولكن شيئاً واحداً

كان يهمها أن تعرفه: هل ستتزوج هذا الوافد الغريب الذي طلب حبها فلم تعد تدري كيف تمضي في عملها. وإذا تزوجها هل ستبقى على حبه إلى الأبد عندما تغادر بلدها إلى بلده؟ ومع هذا فهو صامت كالجبل يتحدث عن كل شيء إلا عن الحب الذي تتلمس آثاره على عينيه ووجنتيه وشفتيه أيضاً.

وفجأة قالت له دون تمهل:

ـ أتراك تحبني؟

وأجاب بهدوء:

ـ نعم..

وأضاف قائلاً:

ـ أحبك لدرجة تجعلني أشعر بفراغ رهيب عندما تذهبين من هنا إلى بيتك وعملك.

نظرت إلى وجهه وكأنها تستلهم من عينيه مزيداً من القوة.

الليل يوشك أن يرحل وطيور السنونو تمارس صحوها في طلاوة، وأصوات إطارات السيارات تمارس عدوها في الطريق بحرية، وهو في مقعده يرقب أمواج البحر من (بلكونة) الفندق في ميامي الذي يطل على أكبر مساحة من البحر الذي أخذت تتهادى في لطف وسخرية.

وأخذت صور الماضي القريب والبعيد معاً تتضح معالمها أمام عينيه هو الذي عرف العديد من بنات جامعة بوسطن المغرقة في التقاليد.. لكنه رغم كل ما عرف لا يدري لماذا مال قلبه إلى ألكسندرا منذ أول يوم وطأت فيه قدماه بيت أبيها هناك.

ولقد أحسّ بدفء الحياة في هذه الفيلا التي تنام بين أشجار السرو التي انتصبت على مقربة من البيت تحيط بكل جوانبه بينما كانت أشكال الورود والزهور ترسم صورها الرقيقة على أديم الأرض بكثير من الحرية. شاقه أن يلتقي بها مع أول إطلالة لوجه ألكسندرا التي استقبلته في عفوية. تلك ثاني مرة شاهدها فيها فأحس بوجيف قلبه وكان يعلن في همس موسيقي واضح صدى

ذلك اللقاء الذي لفه من رأسه حتى أخمص قدميه بشذى عطره الذي أحب، هو الذي لم يكن يهتم برائحة عطور الفتيات اللواتي يتملقن في كافتيريا الكلية أو في مكتبة الجامعة.

وفي ذروة إحساس بجذوة هذا الشعور الطاغي الذي أصبح يتنامى ليطل برأسه من وراء نقاط الضوء الصغيرة التي تسربلت بألوان الشفق المشرق وهي تتدفق نحو الأفق معلنة عن صبا مشرق جديد، رأى ظلال نوره تتسلل إلى غرفة من وراء الستائر الأنيقة التي بدت كنقطة ضوء أخذت تتسع وتكبر لتملأ أجواء الغرفة بصورة ألكسندرا وقامتها المشرقة ومشيتها الأنيقة وكأنها صدى لتمثال ينبض بالحيوية والدفء والاشتعال.

كانت ألكسندرا معه رغم أنها بعيدة عنه وقد استغرقت في سبات عميق بعد سهرة عارمة أحس بنشواها وهي تحيط بصورة وتمسك بتلابيبه لتقيده إلى واقع ما يعايشه هو الغريب الذي بعدت به الشقة عن الأهل والديار والأحبة والأصدقاء.

وهو إذ يتخيل كل هذه الصور في وجه هذه الأنثى الأنيقة التي بدت له في أكثر من جلسة معه صورة جديدة للمرأة الأمريكية التي كان يفزع عند رؤيتها أو الحديث معها، أما هذه فشيء آخر يغاير كل ما حمل من صور هو الذي عجز عن أن يدفع عن قلبه حبها رغم قصر المدة التي تعرف بها والزمن الذي التقى بها فيه.

وهو عندما يعود بذاكرته إلى أرضه ووطنه يتذكر أشياء كثيرة عن المرأة يراها هنا في أمريكا مغايرة لكل ما عرفه ويعرفه عنها في بلده ربما لأن ظروف الحياة وتقاليد كل أرض تختلف عن غيرها في كثير من الأحيان.. وهو يجهل كل شيء عن المرأة لأنها في وطنه شيء آخر ينظر إليها نظرة بعيدة كل البعد عما يلاحقها هنا من نظرات، ولكنه مع كل هذا يدرك المعاني الأصيلة التي تتربع بكيان المرأة في أي مجتمع إذا كانت قادرة على صيانة نفسها وروحها من أن تغرق في لجج المادية الصرفة وما يراد لها في مثل هذه المجتمعات التي تحاول اصطيادها كعنصر جميل ومشوق تستخدمه عبر أساليب الدعاية والإعلان.

لكن ألكسندرا شيء آخر، فيها صلابة المرأة التي تعرف كيف تدافع عن حياضها وجمال الأنثى التي تعرف طريقها في الحياة بانضباط. ربما كان السبب لتربيتها الأسرية أو العسكرية أو هما معاً.

ويعود بذاكرته إلى الوراء إلى ذلك اليوم الذي تسلم فيه شهادة البكالوريوس من جامعة الملك عبد العزيز وكيف عقد العزم على إكمال دراسته في جامعة بوسطن التي سبقه إلى التخرج منها ابن عمه الذي يحب.

أمه وأخته كانتا خائفتين عليه من أن يتزوج بامرأة من أمريكا كما فعل بعض من يعرفهم ولهذا عقدا العزم على اقترانه بواحدة من بنات الأسرة لكنه رفض. رفض بإباء وشمم بعد أن طمأنهما إلى أنه لن يفعل ولكنه اليوم وبعد أن تعرف إلى ألكسندرا يشعر بأنه سيخالفهما هذه المرة رغم حرصه على أن لا يفعل.

كثيرة هي الأفكار التي تراوده والحكايات التي عرفها والظروف التي عاشها، والناس الذين يعرفهم جيداً. التقى ببعضهم في الطريق وفي البيت والمدرسة والجامعة لكنه مع كل هذا الذي مارس يظل في أمس الحاجة لمزيد من المعرفة. يمارسها على البعد وفي القرب معاً. وهو يعرف أن حياة القرية غير حياة المدينة، وأن مدينة جدة ليست بوسطن أو أورلندو أو حتى ميامي. الناس هم الناس وإن اختلفت سحناتهم وتبدلت لغاتهم لكنهم في ظروف المعيشة تظهر علامات الخلاف تمثل علامة استفهام كبيرة.

أو صحيح أن الغرب غرب والشرق شرق وأنهما لا يلتقيان؟ وكيف لا يلتقيان وهو والكسندرا تجمعهما رابطة واحدة هي رابطة الحب، فلا قرى، ولا لغة ولا مجتمع ولا شيء آخر يمكن أن يربط بينهما سوى هذا الوجيب الذي تتسارع دقاته في الصدور عندما تتلاقى الأعين وتزداد دقات القلب قوة عندما تمتد اليد لتصافح اليد الأخرى. وهو على كرسيه في أمس الحاجة لأن يغفو ينام يحلم فلربما قربت الأحلام المسافة وأسعدت القلب الذي تحترق أعصابه في قلق وشرايينه تمتلىء بالدم الأحمر القاني الحار وعلى شفتيه ابتسامة لا يدري إن كانت ستظل أم سوف تختفي.

وتمتد أصابعه إلى قرص التلفون يحاول أن يستنجد به، لكنه يستنكف أن

يفعل خوفاً من أن يفزع الكسندرا بكلام طويل حاول أن يدخره في صدره فترة من الزمن لكنه أضاعه بعد أن عرف بأن الوقت لا يسمح له بأن يفعل خوفاً على الجفون التي أطبقت لتنام من الصحو المبكر على غير المألوف.

ألكسندرا في منامتها الحريرية ترقب هي الأخرى طلوع الفجر من وراء نافذتها الصغيرة التي انحسرت ستارتها هي الأخرى بشيء غير يسير من اللامبالاة التي لم تعهدها فالبحرية علمتها النظام والحرص والشدة أيضاً وهي الليلة التي تطلق كل هذه الكلمات ولكن إلى رجعة، فبعد ساعات يجب أن تزاول مهنتها في خضوع كما اعتادت دائماً.

لقد أمضت الليلة بطولها وهي ترقب النجوم تحادث أسطعها ضوءاً وكأنها تختزل المسافات لتصل إلى قلب المعمعة حيث اختارت هي التي لم تكن تظن أنها قادرة على الحب، أدركت بنظرتها أنها مقدمة على تنازلات شتى في مقدمتها إدراكها بتفوق الرجل على المرأة في المجتمع الجديد التي تحاول أن تصل إليه، وتقييد حركتها كأنثى داخل ذلك المجتمع وتضحيتها بمهنتها التي أحبت والتي درستها عن رغبه والبعد عن مجتمعها الذي عاشت وصديقاتها اللاتي عرفت ومعالم الحياة التي ارتاحت إليها هنا في ميامي أو بوسطن أو حتى على ظهر السفينة الحربية تجوب العالم في رحلة روتينية كما يجري حالياً أو حتى في حالة حرب كما جرى في حرب الخليج.

ولكنها تؤمن بأن العالم يضج بالمعرفة بدرجة كبيرة أدهشتها يوم كانت الحرب.

فهؤلاء العرب أقدر الناس على معرفة الشعوب، يدرسون تاريخ البلدان ويقرؤون كتب الاجتماع ويتطاولون بثقافاتها عبر التاريخ والمجتمع إلى أجواء الحياة والظروف التي تعيشها المجتمعات حالياً بينما هي ومثيلاتها من بنات وحتى أبناء أمريكا يجهلون الكثير والكثير.

وفي ضيافة الحب، يزداد الإنسان تمسكاً بالأصالة التي صنع والنموذج الذي عرف. تصطدم الأجواء وتنطلق الطيور وتشارك الزهور في خلق المناخ المناسب للقلب الصغير الذي طفق يلهج بالثناء والحب على من أحب وهي ليست من هذا النوع، علمتها الحياة مزيداً من القدرة على التأمل والتحرك ومع

هذا فقدماها مشدودتان إلى الأمل المشرق الذي هب يشمر عن ساعديه في سماء الواقع المعاش والظروف.

للحب صولجان يخترق عواصف الزمن لتتفتح الأبواب الموصدة والزهور في قيعان المحيط والأمل في ثنايا القلوب التي زغردت لأول لقاء.

في قلبها رجل سمرة وجهه تخالط أعصابها فتحيل نشوته إلى ترف وهي أحوج ما تكون إلى هذا الفارس الذي حط بدارها دون أن تتوقع، فلقد ملت الازدواجية التي تعيشها المرأة في المجتمع الأمريكي في حياتها الخاصة والعامة معاً، وتطلعت إلى المرأة في أرضه التي هي جزء من تاريخه فثقافتها وعلمها وفهمها وإدراكها بطبيعة المرأة هي العنصر الأوفر في بناء المجتمع هناك. وهي بلا شك تتطلع إلى مزيد من المعرفة فلا تكتفي بالقراءة والتأمل وإنما تحاول أن تصل إلى أعماق ذلك المجتمع الإنساني الجديد الذي قد ترتبط به كأنثى قبل أن تصبح أماً.

عندما يحب الإنسان ينسى كل شيء إلا من أحب، ولهذا تنطفىء جذوة الحب بعد أن تبرد وتضيع ظروف الحياة والمجتمع الذي لم تألفه الكثيرات ممن يتركن أوطانهن بهذا الدافع.

وهي ليست كذلك في الواقع لا لأنها آمنت بالمستحيل ولا لكونها قادرة على التخيل، ولكن لأشياء أخرى في مقدمتها إلى جانب إحساسها بتواجد الساعد القوي معرفتها وإدراكها لنواميس الحياة التي أخذت تهتز بالنسبة للمرأة الأمريكية في نفسها بعد أن عرفته.

وعند هذا الحد من التفكير أدارت هي الأخرى قرص التلفون على أمل أن يأتي صوته عبر الهاتف لكنها وقفت وكأن شيئاً قد شل حركتها خوفاً من أن توقظه في هذا الوقت المبكر من الصباح وخرجت من الشقة بعد أن ارتدت ملابس العمل في رحلة جديدة من رحلات الحياة في هذا المجتمع الكبير.

الناس في الطريق يملؤون الطرقات وأشجار نخيل جوز الهند يقف مكانه على الأرصفة بينما اهتزت إحدى الشجرات الكبيرات التي استندت على ذراعيها كبرج مائل صنعته أحداث العاصفة التي هبت على ميامي المدينة الأمريكية الجميلة وأصوات أبواب البواخر في غدوها ورواحها أمام الفندق في

حركة دائبة وكأنها تسير على بساط من الزرقة الداكنة التي سكنت فيها الأمواج، وهو في غرفته يمنح الطريق نظرات مختلفة وكأنه يعاود البحث بين وجوه أولئك اللواتي تلتقي عيناه بهن ليكتشف أن وجه ألكسندرا قد احتل وجه كل أنثى لا يعرفها.

يده تمتد إلى التلفون يدير قرصه في حرية، تمتلىء أذناه برنينه، ولا أحد يرد.

لا بد وأنها في القاعدة البحرية فهو يعرف أنها تواصل عملها بعد أن أخذت إجازة قصيرة ليومين فقط لكنه على موعد معها في عشاء الليلة في مطعم (ريد لوسبتر) الذي أعجب به بعد أن ذاق طعمه معها في ذلك الفندق الكبير الذي يعيش فيه الساعات طويلة.

أفكاره تبدو وكأنها تتدفق في مخيلته معلنة عن أشياء صغيرة وكبيرة معاً.

الحياة في جدة، الناس في المدينة، الرياض، مكة المكرمة، نيويورك، واشنطن، بوسطن، كلورادو، وأخيراً ميامي هذه التي يزورها لأول مرة.

في مواجهة فندق الشيراتون (بل هاربر) مركز تجاري كبير عرف بمستواه الراقي فقد كان أكثر زواره من أصحاب الملايين، وهو لم يصبح بعد من أصحاب الملايين لكنه رأى أن الفرصة سانحة ليرى بعينيه في واجهة النوافذ الكبيرة.

أشياء كثيرة مما تحتاجها المرأة، حتى إذا ما التقت عيناه بفستان أنيق قرّ عزمه على شرائه دخل المحل لتتحدث إليه امرأة عجوز.

هاله سعر الفستان فقد كان كبيراً على ميزانيته فهو بعد طالب ونصف موظف لكنه اشتراه رغم إحساسه بغرامة الثمن وكأنه يهيّىء نفسه لشراء أمثاله يوم يتزوج.

وضعت المرأة الفستان بعناية في كيس من البلاستيك يحمل اسم المحل بعد أن نزعت سعره بعد أن عرفت أنه هدية لصديقة حسب ما قال.. ومشى الهوينى يواصل تحركه هنا وهناك حتى إذا ما تعبت قدماه، ارتاح قليلاً في المقهى الأنيق يفكر كثيراً في هذه الأنثى التي أحب.

أكثر الوجوه التي التقاها في (المول) المركز التجاري بادية الشحوب، قوامهن فريد من نوعه، يستخدمن من وسائل التجميل ما يدخلهن جميعاً ضمن اللواتي اخترن الفن مهنة لهن. ملابسهن غالية الثمن مزركشة، وحليهن من النوع الغالي، وأحذيتهن من أفضل دور الأحذية ومصانعها، وتبدو آثار النعمة واضحة كما تبدو آثار السهر سهر الليالي هي الأخرى واضحة على وجوههن.

في مواجهته في المقهى جلست فتاتان ترشفان أكواب القهوة في تلذذ، وتنظران إلى تواجده بشيء من الفضول أحس به وإن لم يعرف أسبابه، لكنه عزا ذلك كله إلى اسمرار بشرته. ربما ظنوا أنه واحد من أغنياء الشرق جاء إلى المول! هكذا حدث نفسه، لكن حديثه انقطع عندما داهمه سؤال إحداهن عن بلاده التي جاء منها. ولم تكتف الشقراء بإجابته وإنما مضت تثرثر معه فترة من الوقت دعته بعدها الثانية لقضاء فترة من الوقت معهن. أذعن على مضض، ومضى الحديث معهن طويلاً ومملاً حتى سألته إحداهن عما يحمله فأجاب، لكنها استغربت أن يشتري إنسان فستاناً حتى وإن كان لصديقته.

قال لها بأنها أكثر من صديقة، وعندما طال الوقت استأذن منصرفاً إلى الفندق ليواجه برسالة ألكسندرا التي تركتها له بعد أن سألت عنه تلفونياً.

وما هي إلا لحظات حتى أصبح في غرفته يمسك بسماعة التلفون ليأتي صوتها مشرقاً كعادته.

قالت وفي شيء من الدلال:

ـ لم أكن أظنك ستكون بعيداً عندما طلبتك. أين كنت؟

قال:

ـ في «المول» أتصفح وجوه الفتيات لأراك في وجه كل واحدة منهن.

ضحكت وقالت:

ـ ومن قال لك بأنني لا أغار عليك وأنت تنظر إلى وجوه الفتيات، وما يدريني أن لا تزوغ عيناك عندما ترى من هي أجمل مني وجهاً وأبهى طلعة.

قال:

ـ وهل هناك من يفوقك يا ألكسندرا لا أظن!

واستدرك:

- على الأقل بالنسبة لي.

- ومن التقيت؟

قال:

- لا أحد.

وأحس بأنه لأول مرة في حياته يكذب ربما لأنه خاف أن يقول لها عمن التقى وإلى من تحدث. ومضيا يدردشان بعض الوقت عما صنعته في القاعدة، بمن التقت ولماذا كانت طوال النهار متحفزة قلقة تنتظر وقت الخروج والانطلاق إلى البيت بفارغ الصبر.

- واتفقا على اللقاء عصراً ليمضيا بقية النهار والليل في رحلة مع النجوم قرب الشاطىء الكبير وبين أصداف اللآلىء وعلى مقربة من الزهور البرية التي تتكسر غصونها تحت ضغط الأقدام الشابة التي يمتلىء بها الشاطىء كل يوم وبعضاً من الوقت ليلاً كالمعتاد.

الحديث يوشك أن ينضب، وأصبح من السهل عليها أن تعرف تاريخ حياته ومسيرته وأهله وجيرانه ومجتمعه وكل شيء في وطنه، وكأنه يريد أن يفضي بكل ما في نفسه، بينما كانت عيناه تجوسان في وجهها أثناء كل كلمة وكأنه يريد أن يسبر غورها ويرى أثر كل كلمة من كلماته على نفسها من خلال تعابير وجهها الذي عشق؛ فهذه الفتاة خليط عجيب من الأنوثة والمرح والقوة والنشوة في بعض الأحيان، وهي أكثر صلابة واعتداداً بالنفس عندما تتحدث عن حياتها وماهيتها وأسرتها وعملها وما تفكر فيه، كما أنها أقدر على اختزان المعلومات بشكل ليس له نظير.

رذاذ المطر يدق في موسيقى ناعمة على زجاج السيارة، وهي بجانبه وقد ارتدت الفستان الذي اشتراه لها فبدت فيه أشبه بملكة غير متوجة.

الأنوثة أبرزت مهارة الخياط الذي حاك خيوط الذهب بمداد من نور الأصيل الرائع وشعرها من خلفها يبدو في كستنائية أشبه بأمواج نهر زاد مياهه هطول الأمطار الكثيرة، وصوت فيروز يدق في إحساساته كلها بينما كانت هي

في نشوة للموسيقى والكلمات التي لم تفهمها.

كان الشريط الذي استخدمته ألكسندرا في رحلتها معه إلى المطار واحداً من الأشرطة التي اشترتها من البحرين يوم كانت مع رفاقها أثناء حرب الخليج، فرأت أن تسمعه إياه بعد أن أحست بمعاني الموسيقى الرائعة التي أبدعها الأخوان رحباني لتقارب أمزجة الغربيين والشرقيين في آن واحد.

حاول في جلسته تلك أن يترجم لها كلمات الأغنية لكنه وبعد أن بدأ طلبت منه أن يسكت خوفاً من أن تأتي ترجمة الكلمات على غير ما تحب وتهوى وقد كان المطر يواصل الهطول والصمت طال أكثر مما كانت تريد. أما هو، فقد كان بمقدوره أن يجوس بعينيه وجهها وشعرها واستدارة كتفيها والهمسة الصغيرة التي كانت تطل على شفتيها التي يسميها البعض (خال أو شامة صغيرة) كان لونها أقرب إلى لون العنبر أو العسل الصافي الذي يحب تناوله على الإفطار كل يوم.

نظر إلى عينيها بتمعن، فأغضت بطرفها فترة من الوقت ثم تساءلت في شيء من العفوية:

ـ ها، ماذا رأيت؟

وفوجيء بالسؤال، فلم يجب بسرعة فأعادت عليه سؤالها فقال:

ـ زهرة من زهور التوليب وإن كانت تمتاز عنها لأن لها عبق رائحة الورد البلدي الأصيل.

ضحكت وقالت:

ـ أو نسيت بأنك تغازل ضابطة ركن في بحرية الولايات المتحدة؟

قال:

ـ ليتني أنسى فأنا أخاف من هذه المهنة بجد.

قالت:

ـ ولم الخوف؟

قال وقد بان على وجهه بعض علامات الخوف:

ـ إنها مهنة شاقة على زهرة توليب فريدة مثلك.

قالت :

ـ لكنني أحبها كما أحبك أنت الآن.

قال :

ـ حبك لها يزيدني خوفاً لا سيما وأن البحرية السعودية لا يوجد مكان فيها لضابطة ركن، أما حبك لي فهذا أمر أنا في أمس الحاجة إليه.

قالت :

ـ وهل تريدني أن أترك مهنتي.

قال :

ـ نعم، إذا قدر لنا أن نتزوج وإلا كيف سيكون الحال أنت هنا في أمريكا وأنا هناك في جدة؟

ابتسمت من كل قلبها ونظرت إلى وجهه بولهٍ وقالت:

ـ لأول مرة تقول شيئاً عن زواجنا.

قال :

ـ ذاك ما أفكر فيه وأعنيه فأنا لا يكفيني أن نكون أصدقاء فقط وعندها يأتي من يأخذك مني فلا أجدك.

قالت وقد تحولت بكل جسدها إليه:

ـ لا ، لن يكون ذلك فأنا لك ولك وحدك.

نظر إليها بسعادة وكأنه يحاول أن يضمها بذراعيه لولا مقود السيارة الذي كانت تمسك به، أحست هي بذلك فابتسمت وقالت:

ـ أو تدري أن سعادتي بلقائك أكبر من سعادتي بشهادتي عندما تسلمتها كضابطة بحرية ركن؟

ثم أطلقت واحدة من يديها لتمسك بيده في حنان وحب وأمل، ومضت تضغط بأصابعها الشمعية البيضاء المشربة بالحمرة على أصابع يده السمراء التي أحس بها كورقة في مهب الريح، وأحس بالدماء الحارة تتسلل إلى جسده وبالنشوة وهي تجري في شرايين قلبه هو الذي لم تمسك بيده امرأة.

وعاود النظر إلى وجهها بولهٍ وقال:

ـ أستسمحك العذر في سؤال غريب ورد على خاطري التو.

قالت وهي تشجعه بعد أن رأت اضطرابه:

ـ قل بربك ولا تخف شيئاً.

قال:

ـ في حرب الخليج كم عدد القتلى الذين حصدتهم بارجتك؟

قالت:

ـ صدّقني ولا واحد، لأن بارجتي لم تشارك في القصف وإنما كانت مهيأة للحراسة. لكن لو صدرت الأوامر لي بالقتل لما تأخرت فنحن نحارب عدواً لا صديقاً.

قال:

ـ ولكنك قتلتني بلحاظك منذ أول نظرة رأيتك فيها فلم أقو على الفكاك.

ضحكت من كل قلبها:

ـ هذا ما يحببني فيكم أنتم العرب فأنتم تجيدون دغدغة إحساس المرأة بغزلكم الظريف.

واصل المطر انهماره، والسيارة تواصل طريقها إلى المطار الذي بدأت أنواره تظهر واضحة. أوقفت السيارة وقفزت من بابها كغزال شارد أمسك بها بعينيه ثم سارا إلى داخله في رحلته إلى بوسطن.

البرد على أشده في مدينة بوسطن، ونتف الثلج تغمر المدينة بدرجة كبيرة طغت على فروع الأشجار اليابسة التي أصبحت أشبه بزهور بيضاء تتمايل أغصانها من ثقل الثلوج التي تراكمت عليها، ونقط المياه تختار مكانها بسهولة وهو بمجرافه بعد أن ارتدى ملابسه الشتوية يحاول إزالة الثلوج التي غمرت سيارته في هدوء مشوب بالقلق فبعد ساعات قليلة يستقبل ألكسندرا في زيارة ثالثة من زياراتها التي أصبحت تأخذ شكلاً دورياً تتحدث عن أمها بإسهاب بينما كانت ألكسندرا تطرق بعينيها على الأرض عازفة عن الجواب.

كل شيء في الطريق إلى المطار غني بالمرح والتفاؤل فلقد أحب ألكسندرا

جداً رفعه لمزيد من النشاط في دراسته لدرجة جعلت أستاذه الذي هو أبوها يثني على جهوده ثناءً كبيراً ويعزو السبب لجذوة هذا الحب التي اشتعلت في قلبه ليكون جديراً بحب هذه التي أصبحت شغله الشاغل طوال الشهور التسعة التي أعقبت اللقاء الأول.

الناس في مطار بوسطن بين مودع ومستقبل، لكن كثرة تواجد الناس لم تحد من جذوة نشاطه بل أسرع يحاول الوقت عند مخرج المدخل (٢٠) في انتظارها وبين يديه باقة من الزهور اشتراها بالأمس ولفها بعناية ليقدمها لها مع أول ترحاب. خرجت ألكسندرا من الطائرة وقد تدثرت بمعطف أسود جميل بعد أن لفت شعرها الكستنائي بإيشارب حريري اشتراه هو لها في ثاني زيارة لها لبوسطن بعد اللقاء الأول.. لاحظ غمامة صغيرة تغلف وجهها الحبيب، فعزى ذلك إلى طول ساعات السفر لكن الأمر لم يكن كذلك.

قالت ألكسندرا بعد أن رحبت به ورحب بمقدمها:

ـ يشغلني أمر أختي فأنت لا بد تدري بأن علاقتها بزوجها قد انتهت وأنها ستصل في الغد مع طفليها بعد أن فشلت في أن تعيش في طوكيو رغم كل الذي قالته لي في سنواتها الأولى، وأنا كما ترى حزينة من أجلها هي التي اعتادت البقاء في البيت والأسرة، ولا أدري إن كانت ستوفق لاختيار عمل جديد بعد طول المدة التي قضتها هناك وغيابها عن بوسطن كما أنني لا أكتمك بأن أمي هي الأخرى حزينة. أما والدي، فلم يقل شيئاً عن هذا الأمر وإن كنت أحس في صوته وهو يحادثني شيئاً من الضيق والألم.

وصمتت، فاحترم صمتها ومضى إلى السيارة ليطلب منها أن تقودها بعد أن قال لها بأنه لا يدري عن هذا الموضوع شيئاً رغم زياراته المتكررة للأسرة.

وحاول أن يطيب خاطرها بدعوى أن كثيرات مثلها في العالم فشلن في زواجهن الأول وكسبن في الزواج الثاني خصوصاً وأن أختها لم تزل صبية وفي سن يؤهل الكثيرين لطلب يدها.

ومضيا ينهبان الطريق، هي تنظر إلى الطريق ساهمة على غير عادتها، وهو ينظر إلى وجهها كالمعتاد.

لم تكن ألكسندرا التي يعرفها فلقد هد النبأ كيانها وهدم جزءاً من حيويتها

ونشاطها وغرس في صدرها شيئاً غير يسير من الألم.. وفجأة التفتت إليه قائلة:

ـ أتدري أنهم يريدونني بأن أنتقل للعمل في إحدى الغواصات التي تجوب الخليج وأنهم يصرون على ذلك ويقولون بأنها فرصتي للترقية.

ـ وهل أنت في حاجة إلى الترقية؟

قالها بهلع وبكلمات متقطعة؛ لكنها تناست حركته تلك وقالت له:

ـ ومن منا لا يطمع في الترقية؟ فأنا كما تعرف في مقتبل عمري، وفي أمس الحاجة إلى مزيد من العمل والترقية.

ـ والزواج؟

سأل في حب.

ـ دعنا ننتظر مزيداً من الوقت فأنت في حاجة إلى أن تنهي رسالة الدكتوراه وتنال شهادتك وأنا في حاجة لعملي وترقيتي.

ولم تعقب، بل صمت هو الآخر حتى إذا ما وصل إلى الفيلا، اندفعت أمها تقبلها في حنان حتى إذا ما انتهت سلمت عليه وطلبت منهما أن يدخلا إلى الفيلا لكنه رفض بهدوء وكأنه يريد أن يختبر مشاعر هذه التي جاءت تجاهه فقالت ألكسندرا لأمها:

ـ دعيه يا أماه فقد يكون مشغولاً بدراسته.

ثم التفتت إليه وقالت:

ـ سنلتقي على العشاء في السادسة والنصف فلا تتأخر!

ودخلت الأم والكسندرا إلى البيت، ومضى هو يجرجر ذيول أفكاره في محاولة لمعرفة هذا الذي فوجىء به وهو يضرب أخماساً في أسداس دون أن يصل إلى ما يساعده على تفهم الأمر، فترك الموضوع للعشاء فلربما كانت هناك فسحة من الوقت يتعرف من خلالها إلى المزيد والمزيد عن هذه المشكلة وعملها الجديد الذي ستمارسه.

أمضى ممدوح ليلة قاسية لم يذق طعم النوم فيها.. خصوصاً بعد أن

اتصلت ألكسندرا وألغت موعد العشاء مشعرة إياه بأن الطائرة التي ستقل أختها وأولادها ستصل في حدود السابعة.

حاول أن يعزو الإلغاء لغير هذا السبب، وقد كان بإمكانه أن يرافقها إلى المطار لو أرادت هي ذلك لكنها لم ترغب لماذا؟ لا يدري!

وبدأت الوساوس تنهش قلبه لدرجة جعلته يفكر طويلاً في أمر هذه الأخت التي طلقت بعد سنوات من زواجها، وما هو هدف تفكيرها في الالتحاق بالغواصة الأمريكية التي رشحت للعمل فيها هكذا فجأة.

فبالرغم من أن كل ما قالته ألكسندرا يعتبر منطقياً في مفهوم الحياة الأمريكية، إلا أن شرقيته أبت إلا أن يحس ببوادر هبوب ريح على علاقتهما. هو الذي أحبها بعمق وعفوية.

ترى هل فقد ألكسندرا إلى الأبد؟ وهل لمشكلة أختها التي طلقت من زوجها الياباني دخل في هذا الموضوع؟ أم إن أمها هي التي طلبت منها أن تفعل ما تفعل خوفاً عليها هي الأخرى من أن تصل إلى الطلاق بعد زواج لسنوات قليلة؟

أفكار ووساوس تطغى على فكره وهو في غرفته يرمق الأفق ليرى فوق سمائه غيوماً كثيرة أشبه بالغيوم التي تتلبد الليل في سماء حياته.

ويدق جرس التلفون ليأتي صوتها في هذه المرة مكللاً بشيء من النصر أحسه في تموجات الصوت الذي عرف، وكانت دعوتها له للعشاء أكبر أثراً من اعتذار الأمس لأن صوتها جاء صافياً كما يعهد، هو الذي أصبح قادراً تحليل شخصيتها وصوتها وتعابير وجهها الأبيض الجميل.

لم تدم المكالمة سوى فترة صغيرة من الزمن ردت إليه جزءاً من اعتباره، هو الذي أحس بفقده منذ لحظات.

وتاهت نظراته بين مجموعة من الصور احتفظ بها للقاءات كثيرة كانت عونه على الانتظار حتى المساء، وفي المساء كما يقول بعضهم يحلو السمر. لكنه الليلة لن يظل كثيراً من الوقت ربما دفاعاً عن حبه الذي يريد له النمو، وربما لشيء آخر غير ذلك. لكنه نسي كل شيء عندما أصبح في مواجهتها وقد

اختارت فستاناً يكشف عن ملامح الفتنة في جسدها هي صاحبة القامة الممدودة والخصر النحيل.

مضى العشاء على خير ما يرجو، فلقد حاول أن يتجاهل مشكلة أختها طوال الوقت على أمل أن تتحدث عنها صاحبتها، لكنها لم تذكر شيئاً وكأنها وأمها وأباها اختاروا تجاهل الأمر لتبدو السهرة أجمل مما كان يتوقع.

حاول أن يختلي بالكسندرا ويتحدث إليها دون أن يوفق فمضى مودعاً وشاكراً على العشاء الذي استمتع به والوقت الذي أمضاه على أمل أن تتحدث إليه بعد أن يعود إلى غرفته. ولكنها لم تفعل، فآثر أن لا يحادثها هو الآخر.

لكنه وبعد أن طفح به الكيل، أدار قرص التلفون ليأتيه صوتها وهي شبه نائمة فآثر أن يكتفي بما سمع وأقفل سماعة التلفون بسرعة ومضى إلى فراشه يحاسب نفسه حساباً عسيراً على ما فعل.

وفي الصباح، جاءه صوتها ضاحكاً متفائلاً وهي تداعبه قائلة:

ـ لماذا أقفلت سماعة التلفون عندما أجبتك؟

قال:

ـ خفت أن أزعجك بعد أن استمعت إلى صوتك النائم كترحال قمر.

قالت:

ـ لا عليك فقد كنت في أمس الحاجة لأن أتحدث إليك بعد حديثي الطويل مع أختي التي قاست ما قاست مع زوجها في طوكيو، فلقد حاولت أن تحافظ على بيتها بجلدها وصبرها حتى إذا ما طفح الكيل لم تهرب بل واجهت العاصفة هذه المسكينة.

وصمتت، لكنه لم يقل شيئاً فاستطردت قائلة:

ـ سأقضي اليوم مع أختي وأطفالها فلقد وعدتها برحلة قصيرة خارج بوسطن.

ـ وأنا متى ألقاك؟

ـ بعد غد فأنا في أمس الحاجة لأن أقول لك كل شيء.

ـ عن ماذا؟

ـ لا عليك فلا داعي للعجلة. غداً بإذن الله سنلتقي ونتحدث.

قالتها وكأنها في عجلة من أمرها وأقفلت التلفون وعاد هو إلى كرسيه يفكر ويفكر دون أن يصل إلى نتيجة لتفكيره فآثر أن يقرأ شيئاً في كتبه لكنه لم يوفق وانطلق إلى الجامعة ليلتقي بأستاذه ـ والدها ـ علّه يتعرف على العاصفة قبل أن تبدأ.

لكن والدها لم يقل شيئاً. في بعض من أجزاء رسالته كعادته في طريقه إلى بيتها كان جل تفكيره في هذا الزمن الرديء الذي جلب التعاسة إلى قلبه بعد أن أوغل في قلب أختها وقلبها هي الأخرى، وإلا ما الذي يقوله عن انشغالها بأختها هي التي كانت تمضي أكثر وقت الإجازة بصحبته؟

الطريق ممل رغم قصره بين بيته وبيتها، والجو الرمادي يوحش قلب الإنسان، ونتف الثلج تتساقط في رتابة، وصور الماضي تبدو واضحة المعالم أمام عينيه. طفولة صباه، أمه، أبوه، هي، أمها، أبوها، أختها وأطفالها، جنسيتهم اليابانية.. يملؤون البيت بضجيجهم هذا البيت الذي تعود على الهدوء.

لقيها على باب الفيلا تتدثر بكنزتها الطويلة تسبقها ابتسامتها تنظر إلى الأفق وكأنها تنتظره على عجل. أمسكت بيده وأدخلته إلى الصالون الصغير بعد أن أعدت الشاي وسكبته له. نظر في عينيها، فأحس بالألم الذي تحسه. أمسك بيدها في حنان فتركتها له فترة من الوقت لم يكن طويلاً.

قالت:

ـ لا بد وأنك افتقدتني كما افتقدتك طوال هذه الإجازة فأنا منذ الغد سأعود إلى العمل وفي قلبي غصة.

عزا هذه الغصة إلى ما نال أختها من عذاب. أكملت كلامها:

ـ عندما أقول بأنني أحبك، أعني كل حرف مما أقول فأنا أحبك وبحواسي وقلبي أيضاً.

وصمتت. نظر إلى وجهها وكأنه يستحثها على الكلام فقالت:

ـ وأنا أريد أن أحتفظ بهذه العاطفة لتظل دائماً محور تركيزي وأنا في

الغربة فالحقيقة التي أخفيتها عنك أنني قبلت العمل في الغواصة لأنني لا أملك إلا تنفيذ الأمر وعملي يقضي بأن أبقى لمدة عام في لجج البحار الدافئة ولكم حزنت لهذا القرار. لكنني وبعد أن عرفت ما حصل لأختي مع زوجها شعرت بالواجب يحتم علي أن أدافع عن حبي لك فلا أدعه يضيع في متاهات الزمن والركض حول المجهول الذي أرفض وترفض أنت أيضاً، فلربما بعدي عنك يجعلك تحن للاقتران بواحدة من بنات جنسك، وربما شفيت أنا من هذه الرحلة من حب مقضي عليه بالعدم إذا واصل طريقه العادي والمألوف.

حاول أن يقول شيئاً فوضعت يدها على فمه وقالت:

ـ دعني أكمل. . أكذب عندما أقول إنني لا أحبك فأنا أحبك كما قلت ولكن لا أدري إلى أي مدى أستطيع أن أصبر على قراري. تلك فرصتي فدعني أمارسها دون تدخل منك أو ضغط فأنا أثق في رجولتك. . أولست أنت فارس أحلامي كما كنت أقول؟ وعندما أصل إلى قرار وتصل أنت أيضاً إلى قرار نهائي صدقني سأقوله لك دون خوف أو مواربة.

إن المجتمع الذي جئت منه يختلف كثيراً عن مجتمعي وعاداتي وفي هذا الاختلاف يكمن الشر الذي هدم حياة أختي؛ ولهذا تجدني أدافع عن حياتي وحياتك فلا أدعها تصبح كحياة أختي تلك المسكينة، وسأظل أسأل أبي عنك وعن دراستك وأرعى صورتك في صدري وأحافظ عليها لتظل كما عهدت وعرفت ولن أدع للأيام أن تأخذ مني ما لا أريد أن أعطيه.

سأذهب إلى الخليج وأمارس سلطاتي الجديدة ولن أبني لك أو لنفسي مكاناً بين النجوم كما يقول بعض المتحابين، فأنا وأنت من طبقة صنعتها التجربة ومنحها العلم ما يجعلها قادرة على الوصول إلى قرارها.

لا تقل عندما أذهب بأنني كنت قاسية عليك، فأنا في الحقيقة عندما أمضي أكون قاسية على نفسي أكثر من قسوتي عليك، لكنني أحب أن أراك في صورتك التي عرفت وأخاف أن تتغير الصورة عندما أذهب معك إلى جزيرتك لألتقي بأناس لا أعرفهم وعقليات قد تفضل عقلي لكنها ليست مثله لا في التقاليد ولا حتى في ظروف المجتمع. . سأكون لك ودائماً لكنني سأظل صديقتك التي ذاقت طعم الحب على يديك فانتشت به وسأبقى على الدوام

مدينة لك بأيام وليالٍ جميلة أخالها كذلك عندما أتذكرها.

سأغادر في الغد مطار بوسطن وستوصلني كعادتك إلى المطار فليس معنى أن أتحلل من اقتراني بك أن أتحلل من صداقتك.

ومضت إلى الغرفة الأخرى مسبقة خطواتها دموعها التي هطلت، أما هو فقد تحجر الدمع في مقلتيه والكلام على شفتيه فمضى إلى بيته لا يلوي على شيء وكأن هموم العالم كلها قد ألقيت على كتفيه هكذا فجأة ودون سابق إنذار.

لم تعد الحياة حلماً تحققه الأيام بالنسبة لا ألكسندرا التي أخذت تبحث عن أحلامها بين أمواج الخليج وحول هضاب بحاره التي مزقها الألم يوم كانت مكاناً لحرب لا هوادة فيها ولا رحمة تلتقط عيناها من ذاكرة الأيام.

صور تلك الليالي التي عاشتها تملأ قلبه خياشيم جمال الحياة ورائحتها الذكية فالحياة بالنسبة إليها أصبحت عسيرة المنال بعد أن ضرب المرض خاصرتها بكثير من الألم لم يكن لها عهد به.

لقد قال لها طبيبها وهي تودعه بأن أيامها باتت معدودة وأن عليها أن تستمتع بشيء من الراحة بعيدة عن مواطن التعب فترة من الوقت، فآثرت أن تستنزف ما بقي من عمرها في رحلة قصيرة في جوف الخليج تعود بعدها إلى مستشفى البحرية في ميامي فلربما منحها الله بسطة في العيش يمنحها الدواء الذي كانت جميع مراكز البحوث في أمريكا تبحث عنه. ولقد طمأنها أحدهم بعكس ما قاله الآخر بعد أن زودها بالدواء وصنع معها ما صنع في الأيام التي بقيت في المستشفى.

لكنها هي المرأة الثابتة، أدركت وهي في أوج سعادتها مع ممدوح أنها لن تصل إلى غايتها فاخترعت كل تلك القصص محاولة أن تبعده عن طريقها لئلا يتألم عندما تموت وكان هذا منها قمة التضحية.

ازداد مرضها فقام زملاؤها بنقلها في طائرة خاصة إلى المستشفى الذي أمضت فيه ثلاثة شهور، كان ممدوح خلالها يبحث عن ضالته في العالم بعد أن فقد الحب وأصبح في مقدوره أن ينال ما يرغب، وهي تتابع تحركاته من أبيها الذي ساهم في حجب الحقيقة عن نور عينيه هو الذي رضي أن تصبح ابنته

زوجة لتلميذ نجيب.

أيام المستشفى مليئة بالقلق، لكنها كانت تقضيها مع رسائلها إليه التي تكتبها بدموعها وتمنحها القدرة على الحركة لتصبح قادرة على معرفة طريقها إلى قلبه حتى لا تتبدل صورتها في عينيه وأصبح من حقها عليه أن لا ينساها بعد كل الذي صنعت.

كان جل همها أن ترى رسائلها على الفور يديه وأن يقرأها ويحتفظ بها فلقد كتبت كل كلمة حب فيها بدموعها ودمها وشبابها الذي ذبل كما تذبل أوراق شجرة السيسان القابعة على مقربة من غرفتها تلمح طيورها وهي تزهو بأغانيها الصغيرة ملحمة شعرية واثقة.. فالعالم يعد ضخماً كما كانت تظن وتلك هي سنة الحياة، فما يدريها أن تشفى في غمضة عين من سرطان الدم.

وتمر الأيام ويزداد المرض وطأة على جسدها النحيل بينما كانت أمها وأبوها يحاولان معها أن توافق على دعوة ممدوح لرؤيتها لكنها تمانع وتمانع حتى لا يعرف شيئاً عنها سوى أنها في غواصتها تعمل بالخليج؛ حتى داهمها الموت في ليلة من ليالي كانون الأول الذي ولدت فيه وكأنها على موعد مع الموت في يوم ميلادها. وبعدها عرف ممدوح بكل شيء عندما حملوها إلى بوسطن لتدفن في مقابر العائلة مع أجدادها وأبائها الذين سبقوها.. جاء الخبر كالصاعقة التي زعزعت كيانه وجعلته يبكي كطفل لكن بكائه ازداد بعد أن عاد الجميع من المقبرة ومضت أمها إليه لتعطيه ما تحمل من رسائل كثيرة معنونة باسمه وقد ربطت بإيشارب الحرير الذي اشتراه لها يوم كان في ميامي في ثاني رحلة من رحلات سفره إليها ومع ربطة الرسائل ربطة أخرى من إسطوانات عربية اشترتها في رحلتها الأخيرة إلى الخليج لتكون هدية وداعها له الوداع الأخير.

كان ساعتها كمن فقد نور الشمس وضياء القمر وأصبح كل ما في الكون بالنسبة إليه لا يمثل شيئاً وبيد مرتعشة، فتح الرسائل ليقرأ لأول مرة صدى حبه الكبير وقد سال أنهاراً من حبر خاله في تلك اللحظة نقطة ضوء جديدة يستطيع من خلالها أن يتسلل إلى الحياة حتى لا يفقد الشمس كما فقد مَنْ أحب، تلك التي ذهبت دون لحظة وداع.

زوجة من اليابان

عندما عدت من رحلتي إلى اليابان، ظننت أنني سأعاود مسيرة الحياة كما كنت. لكن ظروفاً كثيرة جعلتني أتغير وأصبح إنساناً آخر غير ذلك الذي عرفت.

ربما لأن رحلتي إلى ذلك البلد كانت طويلة، وربما لأنني اكتسبت في هذه الرحلة تقاليد جديدة لم أكن أعرفها. لكني بعد أن أمضيت أياماً أعايش نفسي وأتحدث إليها بصوت عال، عرفت بأن كل ما رأيته كان يمارسه أبي ويسعد به جيرانه على اعتبار أن التقاليد، وإن كانت متغايرة، لكنها قد تكون كبيرة الشبه كثيرة التأثير.

عندما سألتني أمي عن كل الذي شاهدته حكيت لها كل شيء.

ضحكت أمي من سذاجتي وقالت لي في كلمات صغيرة:

ـ وهكذا أنتم الشباب تنفرون من تقاليدكم وتبحثون عن تقاليد جديدة حتى وإن كانت صوره مشوهة من تقاليدكم.

لم أفهم بادئ ذي بدء ما تعنيه أمي لكني وبعد أن فكرت عرفت بأن حب العمل والدأب على الإنتاج ليست ميزة يابانية وإنما هو مطلب قومي يعشعش في خيال كل إنسان بقدر، وإن في تقاليدنا أشياء تفوق كل ما قلته عن الصبر والابتسام عند الشدة وما إلى ذلك من أمور عرفتها في رحلتي ولم أعرفها هنا في بلدي.

عندما سألت أمي عن السبب، عادت الابتسامة إلى وجهها وقالت:

ـ ربما أنتم السبب، خرجتم من الديار وجبتم العالم وجلبتم عند

عودتكم تقاليد جديدة لم نكن نعرفها حتى إذا ما انتشرت في مجتمعنا وطغى تأثيرها نفر بعضنا منها واستمرأ أكثرنا وجودها. صدقني يا ابني لقد عشت مع أبيك أكثر من خمسين عاماً لم أستطع أن أرفع عيني في عينه عندما يتكدر صفوه. ثم بعد ذلك تتحدث عن طبيعة المرأة اليابانية وطاعتها لزوجها وغير ذلك من أمور كانت موجودة في بيتنا وبيوت الآخرين.

لم أكن أجرؤ على أن أقول لأمي بأنني قد تزوجت يابانية. فأمي ترفض أن أتزوج من خارج بلدي، فرأيت أن أصمت وأن أدع الأمر حتى تصل زوجتي إلى جدة وعندها ستفاجأ أمي بما صنعت لكنها لن تستطيع أن تغير شيئاً.

عندما نمت تلك الليلة عقب عودتي، حلمت بأن أمي لم ترفض زوجتي بل استقبلتها بالعناق ورضيت أن تعيش معها فأنا بعد كبر أبي لا يمكن أن أفكر بأن تعيش أمي بعيدة عني لكنني بعد أن صحوت، ضحكت من كل ذلك الذي حلمت به وبدأت أفكر من جديد ليس في زوجتي هذه المرة وإنما في المشكلة مشكلة أن ترفض أمي العيش معي عندما آتي بزوجتي.

في رحلتي الأخيرة إلى اليابان، أمضيت أكثر من أربعة شهور في مدينة طوكيو كنت خلالها أستجمع ما درسته عن هذه المدينة فلقد أمضيت فيها مع أبي ست سنوات لكنني كنت صغيراً فأنا لم أتعد الثانية عندما جئتها، وعندما ترك عمله الدبلوماسي فيها كان عمري ثمانية أعوام.

قد أعي أشياء كثيرة عن طوكيو، لكن ما أعيه ضاع مع سنوات عمري. الشيء الوحيد الذي بقي معي هو إجادتي للغة اليابانية التي هي في نظر الناس من أصعب اللغات وهذا صحيح عندما نريد أن نكتبها، لكننا عندما نحاول أن نتعلم الكلام بها فهذا الكلام ليس بالصعوبة التي نراها.

في تلك السن كنت أقطن مع والدي بيتاً يعتبر في اليابان كبيراً جداً لكن هنا في جدة لا يمكن أن يقال عنه هذا، وكان بيتنا في حارات ملتوية قيل لي يومها إن هذا الحي هو حي الدبلوماسيين وإن أسعار الإيجارات للبيوت فوق ما تتخيل.

من الأشياء التي لا أزال أذكرها وأعتقد أن هناك شبهاً بينها وبين عمارتنا القديمة، خلع النعال عند مدخل البيت وارتداء أخرى في حجم قباقيب زمان

التي كانت تستعملها جدتي، هذه القباقيب لم نكن نستعملها في المدينة بل كنا نكتفي بالسير على أقدامنا إلى داخل البيوت وهذه العادة لا تزال موجودة حتى الآن في طوكيو وهي عادة جميلة تجعل البيت نظيفاً. أما في المدينة المنورة، فكانوا يرون أن يظل البيت نظيفاً وطاهراً حتى يستطيع الإنسان أن يصلي في أي مكان شاء.

أتعرفون لماذا ترفض أمي أن أتزوج من فتاة يابانية؟

لا تضحكوا مني عندما أقول لكم السبب، ليس فقط لأن أمي كانت تريد أن تزوجني ابنة أختها، بل لسبب آخر أظن أنها لا تزال تختزنه في أعماق أعماق ذاكرتها التي لا تشيخ.

في الفترة الأخيرة من سنوات أبي التي أمضاها في طوكيو هناك ستة شهور أمضتها أمي في المدينة لأن أمها مريضة، وأمضاها أبي وأنا وأختي معه، لأنني كنت في سن يجب أن أكون فيها في المدرسة. أمضيناها معاً في اليابان وفي الشهر الأخير عادت أمي بعد أن توفّيت أمها إلى طوكيو وبقيت معنا شهراً كاملاً.

أختي الصغيرة كانت معنا ومع الدادة التي اختارتها أمي لها.

في يوم من الأيام وعندما كانت جارتنا وما أكثر جارات أمي في زيارتنا دخلت أختي بهيجة ونظرت إلى المرأة ثم قالت لأمي هي هذه التي كان يقابلها أبي ونحن في طريقنا إلى النادي ويسلم عليها.

لم تسأل أمي أختي كيف كان أبي يسلم على الجارة بل أخذته أمراً مسلماً وظنت بأبي الظنون ثم أقامت البيت بعد ذلك ولم تقعده، ومضت أيامنا الباقية في كلام طويل بين أبي وأمي.

وعندما كبرت، عرفت معنى أن يسلم على تلك المرأة. لقد ظنت أمي أن أبي كان يقبلها فلم تسأل أختي عن أسلوب السلام واكتفت بما وضعته في عقلها. لكنني وبعد أن كبرت وكبرت أختي، رأيت أن أسأل أختي عن هذا السلام فقالت:

ـ كان أبي يمد يده مسلماً على تلك المرأة عندما يراها في طريقه.

فقد كانت تعمل في مصنع كبير يملكه أبوها وتعود إلى بيتها في نفس الوقت الذي يخرج أبي فيه إلى النادي. وهكذا وبعد سنوات طويلة، برأت أمي أبي مما لصق به.

وبدأت أسأل أمي:

ـ لماذا لم تسألي أختي حينذاك بدلاً من كل هذا الذي فعلتِه؟

أمي قالت كلاماً طويلاً لا أفهم معانيه رغم كل توضيحاتها لي. ومع هذا فقد كنت أحس بالظلم الذي وقع على أبي من أمي قلت لها ذلك وكررته وأنا أحاول أن أتطرق لموضوع زواجي دون جدوى، فقد كانت ترفض أن يرتبط ابنها بأية زوجة غير ابنة أختها التي عرفتها منذ أن كانت صغيرة.

الحق أنّ الفتاة جميلة ورائعة ومثقفة وكل شيء فيها منمنم للغاية وتصلح زوجة لأي إنسان، لكن بالنسبة لي فهذا هو الأمر الذي لا يمكن أن أقبله. ربما لأننا عشنا سوياً نتقابل ويرى الواحد منا الآخر فكثيراً ما كانت تقضي إجازاتها في بيتنا مع أختي التي كانت معجبة بشخصيتها.

أختي هي خزان أسراري، تعرف مشاريعي قبل أن أنفذها، ولهذا فهي تعرف بأنني قد تزوجت وأن من تزوجتها يابانية.

عندما فاتحتها بعزمي بادىء ذي بدء ضحكت وحاولت أن تثنيني عن هذا الزواج، حتى أنها قلدت بنات اليابان في طريقة حديثهن وتصرفاتهن وصنعت من نفسها دمية يابانية لفترة حتى إذا ما جاءت أمي إلى غرفتها هربت إلى الغرفة الأخرى لتزيل كل ما علق في وجهها من ماكياج.

بعد أن عدت إلى جدة، تحدثت لأختي عن سوزي، فهذا هو اسم زوجتي. أبوها وأمها أحبا أن يجيء اسمها مغايراً لأسماء الفتيات اليابانيات وهي على رقتها تجيد أكثر من لغة. لا أقول إنني أحببتها من أول نظرة لكنها أعجبتني عندما التقيت بها وهي تدرس في المعهد الإسلامي في طوكيو. وعرفت بعد أول اجتماع بأنها تميل إلى أن تعرف الكثير عن الإسلام والمسلمين لدرجة أنها أشهرت إسلامها قبل أن أتزوجها بليلتين كما أن عقد زواجنا تم في مسجد طوكيو على يد الإمام التركي الذي تحدث لي كثيراً عنها وعن ترددها على المسجد.

أبوها حاول أن يثنيها عن أن تشهر إسلامها لكن أمها لكثرة ما كانت تسمعه منها لم تمانع وعندما قالت لهما بأنها ستتزوجني وسنغادر طوكيو إلى جدة، انزعجت الأم وضاق الأب بهذه الرغبة. لكنها لم تسمع لأي نصيحة يقولها لها أبوها أو أمها. ولقد أمضيت ليالي عسل صغيرة لأن إمكاناتي المادية لم تكن كافية لأقوم بكل ما تطلبه الزوجة في شهر العسل. حاولت هي أن تساهم في نفقات تلك الليالي فرفضت ولذلك كانت ليالينا متقشفة لكنها جميلة.

لو كان أبي موجوداً لساعدني على هذه الأم لكنه كان مسافراً إلى أمريكا. فقد كانت تلك الفترة موعد زيارته لمستشفى مايو كلينيك ليقوم بالفحوص اللازمة التي كان يجريها كل ستة شهور. وأبي رغم سنوات عمره التي تعدت الستين يمتاز بقوام رائع ووجه جميل وحديثه رائع فأنتم تعرفون كم هي أحاديث الدبلوماسيين رائعة.

نسيت أن أقول بأنني أنا الآخر أعمل في السلك الدبلوماسي. لكني وقبل أن أتزوج هذه اليابانية تقدمت باستقالتي على اعتبار أن من يعمل في الخارجية يجب أن لا يكون متزوجاً بأنثى من غير وطنه.

أبي عندما سمع بعزمي على الاستقالة فرح كثيراً لأنه كان يريدني أن أساعده في عمله كرجل أعمال متميز.

فهو رغم أنه لم يمضِ في عمله التجاري أكثر من عشر سنوات، إلا أنه كان رجل أعمال ناجح يعي طريق قدميه في الحقل الاقتصادي وصاحب قدرة فائقة، حتى إنني كنت أعجب به وأقول لنفسي: لو تفرغ أبي منذ سنوات طويلة لأصبح حالنا أفضل مما نحن عليه. أبي لا يشاركني الرأي ويقول بأن سنوات الدبلوماسية منحته الفرصة لأن يلتقي بأناس كثيرين كانوا هم سنده في عمله الجديد الذي وفق فيه للغاية.

بمشاركتي أبي عمله عرفت أن عم زوجتي صاحب شركة إلكترونية كبيرة يمثلها أبي في جدة فرحت بهذا الاكتشاف وقلت: ربما ساعدني هذا مع أبي الذي كنت أعرف رأيه هو الآخر، فهو لكثرة سماعي لآرائه يرى أن أمر الزواج حق للذي يريد أن يتزوج سواء أكان هذا الإنسان رجلاً أم امرأة.

عندما فاتحت أبي برغبتي في الزواج من يابانية لم يمانع وإنما قال:

ـ أهي من أسرة طيبة؟

أجبته بهزة من رأسي.

وقد أضحكت حركة رأسي أبي الذي رأيته يمد يده ليداعب رأسي وهو يقول:

ـ لا، ليس ما قلته مجرد أخذ إذن وإنما وراء الأكمة ما وراءها، فهل تزوجت يا ولد دون أن أعرف؟

أجبته مرة أخرى بهزة ثانية من رأسي تختلف عن الأولى وقلت:

ـ نعم.

فلم يفاجأ وإنما قال لي:

ـ أو أعرفها؟

قلت:

ـ لا لكنك تعرف أمها فهي تلك التي كنت تلقي عليها بتحيتك عندما تذهب إلى النادي.

ضحك أبي ضحكة طويلة ثم قال:

ـ لا بد أنها جميلة.

قلت: بل أجمل من أمها.

وصمتّ، لكن أبي سرح بخياله بعيداً يتذكر الحادثة وعاد يضحك في هدوء. شعرت بأنه سيقول شيئاً وقد كان عندما سألني:

ـ أوقلت لأمك؟

قلت:

ـ لا.

قال:

ـ ذلك أفضل. لا تقل لها شيئاً، أنهِ ترتيباك وأْتِ بزوجتك إلى هنا فالأمر الواقع هي السياسة التي تصلح مع أمك.

استمعت إلى كلامه وهو يواصل بينما أخذت أقبل يديه في حب فهو وأختي إلى جانبي وهذا في رأيي يكفيني حتى هذه اللحظة على الأقل.

عاد أبي يتفرس في وجهي يريد أن يتأكد من عزمي وإصراري حتى إذا ما التقت عيوننا قال لي وفي هدوئه المعهود:

ـ تلك حياتك تصنعها كما تريد، فاصنعها يا ولدي.

في المساء كانت أمي معنا في غرفة الطعام. تحدثنا كثيراً عن الطعام الياباني وفضائله وميزاته وعما نحب ونكره فيه حديثاً طويلاً مع أختي. أما أمي، فلم تشارك في الحديث وإنما كانت ترمق وجوهنا عسى أن ترى فيها ما يساعدها على فهمنا حتى إذا ما انتهى العشاء انتقلنا إلى مائدة الشاي التي كانت هي الأخرى حديثنا عن أسلوب شرب الشاي في اليابان وما إلى ذلك من أحاديث ملتها أمي وسألت في نرفزة وعصبية:

ـ ترى ماذا وراء هذا الأمر؟

لم أقل شيئاً كما أن أختي هي الأخرى لم تقل شيئاً حتى إذا ما طال الصمت بيننا قلت في هدوء:

ـ أتدرين أنني مسافر غداً؟

قالت:

ـ إلى أين؟

قلت:

ـ إلى اليابان من أجل صفقة جديدة كلفني بها أبي.

دعت لي وقبلتني ومن ثم ودعتني على أمل أن تراني عند العودة.

سافرت واتصلت بزوجتي وأمضيت شهراً كاملاً كان بمثابة شهر عسل جديد فقد منحني أبي مرتب شهر مسبقاً عن عمل لم أمارسه بعد، حتى إذا ما انتهى الشهر عدت ومعي زوجتي. وجهها إشراقة حب وطلتها ابتسامة رضية. نظرت إلى وجهها وتذكرت أمي وقلت: ربما بهذه النظرة الرضية والابتسامة المشرقة تستطيع زوجتي أن تنهي المشكلة فترضى أمي عن زواجي وترضى على زوجتي اليابانية وعلى أمها وأبي أيضاً.

عندما يضيع الزمن

الزمن يضيع في ردهات العمر، والضوء يتوه بين أغصان الغروب، والرؤى الجميلة تتحرك في قيعان العيون، والبرد يهد أوصال الشتاء والقمر الناعس يتجلى فوق هامات الصخور وربوع الأودية، وشطحات الخيال والعمر لا يريد أن يتحرك رغم أن الثواني والدقائق والساعات جميعها تتحرك.

هي وحدها التي بقيت تتشبث بالبقاء فوق أغصان الزيزفون المتدلية على روابي القصر الذي انطلقت منها زغاريد النساء معلنة عن مولد طفل شاب مات أبوه قبل أن يأتي وانقضت سنوات من عمر أمه دون أن ترضى.

جاء مع انطلاقة ذلك النجم الذي لا زال يتغامز في عنان السماء رغم سطوع نور القمر.. لم تحد من جذوة نوره لا ضياء القمر، ولا برودة الشتاء، ولا المطر المنهمر يغزل في عيون الصبايا حكايا الأمس، وقصص اليوم تمنحه رهافة الحس وقدرة على الغناء وكأنه شلال فكر لعالم راهب أضاع سنوات حياته في بطون الكتب بحثاً عن الكلمة، والكلمة موقف، والمواقف قضية والقضية رأي والرأي حكمة. والعالم كله من وراء ذلك يجعل ليالي الشتاء القارس بمعزل شكلته أنامل حسناء رسمت لحياتها الطريق ثم ضاع من بين قدميها الطريق. هناك تحت قمة الجبل وفوق هضاب الأمس عادت لتعاود ذكرياتها بعد أن شحت الحياة وضاعت سبل الراحة وانكمشت دماء الشباب فلم تعد تمنحها القوة هي التي بذلت من صباها وشبابها الكثير لتقف على قدميها مع هذا السيل الجارف من المعرفة.

فعلى أديم الطائف ولدت وفوق هضاب الهدى عاشت فترة من الزمن وانطلقت بعدها نحو المجهول تدفعها الأيدي الكبيرة التي أخذت بخناق الحياة لتمنحها العيش في ظلال الضياء الوافد من هذه الثريات الكبيرة التي امتلأت بها عرصات البيت بعد أن اقترنت بزوجها وابن عمها الذي آثر أن يرتبط معها برباط الزواج المقدس تاركة للأيام تسطر حروفها وفق رغبتها، حتى إذا ما وجدت أن رغبات الأيام أقسى من أن تتحملها بمفردها، وبعد أن ضاقت بها السبل وفرقت بينها وبين ابن العم نوازع الشباب ذلك الذي أهداها التأقلم مع الحدث الذي لم تكن تتوقعه، فكان الطلاق.

وتتوالى ذكريات الأمس بشبابه ورعونته، وحياته وطفولته يوم أن كانت كذلك لكنها وبعد أن أضاعت ما أضاعت التقطت الفطنة والتفتت إلى نفسها فمضت تجد وتكدح لتصبح في خلال عشر سنوات طبيبة شابة لم تلغ السنوات رعونتها وإن قللت من تلك الرعونة.

ولقد عادت إلى بيئتها تحمل في يديها شهادة الخروج من مأزق الطلاق لتستمر الحياة جديدة نابضة بكبرياء المرأة وأنفتها وعزتها تلك التي جعلتها تركب الصعب لتصل إلى ما وصلت إليه.

لكنها خلال تلك السنوات فقدت الوالد والسند وأصبحت تعيش مع أمها التي دفعتها لركوب الصعاب هي الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب وكم من الأمهات كن أقدر على دفع عوامل الدهر عن صدور بناتهن اللواتي أحببن فيمضين يرفلن في ثياب العز من جديد.

وجاء زوجها يسترضيها من جديد علها تقبل عقد قران جديد لكنها كانت باردة الأعصاب، قادرة على انتزاع الأمل في نفس ذلك الحاقد الذي انتزع منها الأمل لفترة.

ثم عاد الأمل يدفع في شرايينها أبواب العلم لتصل إلى ما وصلت إليه. لكنها رغم هذا الجاه العلمي الذي تستحقه تجد نفسها في بعض الأحيان أسيرة الماضي عندما كانت طفلة صغيرة ترافق أسرتها إلى منابع الجمال فوق تلك الهضاب الرائعة التي امتلأت بالشيح والزعتر، ترمق الأفق، وقطعان الغنم، وصوت الحاوي يملأ جنبات الأرض بغنائه، وهمهمات الريح تصرخ في حنو،

وعم محمد جارهما في الكوخ الصغير الذي أقامه أبوها على أرضه الصغيرة في قرية الكامل بالهدى، والبستان الصغير الذي يقبع هناك بأشجار الفاكهة التي اشتهرت بها المنطقة، وصهيل الحصان الذي اشتراه أبوها لأخيها الذي سقط عن ظهره ثم مات، وأمها تلك البدوية الرائعة التي غيرت المدينة الكثير من ملابسها وما كانت ترتديه.

أمها هي الوليدة الوحيدة التي سايرت نشأتها وتطوير حياتها وقدرتها على الانعتاق من قيد القسوة التي تمثلت في ورقة الطلاق.

يرفع بها زوجها ساعة ليل ثم غادر بيته إلى الأبد. في باريس التقت مع الفجر المشرق لكنها لم تكن في موقع من يتسنى له أن يغشى الفجر أو حتى يتوق للالتقاء به. فقد أمضت سنوات تخصصها في الجامعة الفرنسية وهي تدرس وتتعلم لتعود لا لتبقى رغم كل ما سمعت من مغريات باريس صديقتها فرانسواز الشابة الجميلة والتي صنعت في بيتها غرفة صغيرة تمضي أمها فيها أيامها ولياليها لتكون بجانبها هذه الصديقة لم تكن صديقة بادىء ذي بدء.

كان الأمر مجرد تبادل للمنافع فالأخرى هي أيضاً من خارج باريس جاءت إليها لتلتحق معها في دراسة ذلك التخصص الذي تغوص فيه المرأة حتى أذنيها لتصل إلى معرفة الأشياء عن هذا الجسم الإنساني الذي خلقه الله.

في يوم تخرجها، صنعت فرانسواز لها حفلة صغيرة شارك فيها عدد من الفتيات الأجنبيات زميلتهن فرحتها بالنجاح الذي تحقق، أمها كانت في مقدمة الذين ساعدوا في إبراز الحفل بالشكل المناسب، صنعت بيديها أطباق كثيرة لا يعرفها القوم لقيت صداها في بطونهن وارتبطت ذكراها في عقولهن، حتى إن أكثر من واحدة، طلبت من تلك الأم طريقة صنع كل تلك الأطعمة.

في تلك الليلة عرفت فرانسواز بأن سميرة أو الدكتورة سميرة امرأة مطلقة حفرت بأظافرها في الصخر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، نظرت إليها وإلى جهدها وجهادها بكثير من الفخر والاعتزاز.

أمضت سميرة أول لياليها في باريس هادئة هانئة، لكن فرانسواز لم تتركها وشأنها بل قالت لها:

ـ ولماذا لا تبقين في باريس؟

نظرت إلى وجه فرانسواز بشيء من الشك وقالت:

ـ ولماذا أبقى هنا وأمي تريدني أن أعود؟

أجابتها فرانسوا:

ـ قد تكون أمك على حق في رغبتها لكن المهم أن تكون العودة هي رغبتك.

ـ وما أدراك أنها ليست رغبتي؟

قالت سميرة.

فأجابتها فرانسواز:

ـ لأنك قلت إن أمك هي التي تريدك أن تعودي لا أنت، أليس كذلك؟

ـ ربما أكون قد أخطأت التعبير فأنا وهي على وفاق في هذه الرغبة.

ـ لا بأس.

قالتها فرانسواز وكأنها تريد أن تنهي موضوعاً لم توفق في إنجازه. وصمتت ثم عاودت الحديث:

ـ ما رأيك هل تعدينني بأن تمضي معي أسبوعين على الأقل ترين فيهما أهلي وقريتي (مونت لاجولي) قبل أن تغادرينا؟

قالت سميرة:

ـ سأسألها فإن رضيت بقيت.

ـ تسألين من؟

ـ أمي.

ابتسمت فرانسواز وقالت:

ـ لا بأس وأرجو أن توافق.

أسبوعان أمضتهما سميرة وأمها برفقة فرانسواز رأتا فيهما باريس هذه المدينة الكبيرة بشوارعها الفسيحة ومتاحفها ومقاهيها ونواديها لدرجة كانت تظن فرانسواز بأن مثل هذه الزيارة قد تعيد هذه الأنثى إلى صوابها فتبقى في باريس لتعمل في إحدى مستشفياتها.

هي التي استطاعت أن تنال شهادة الدكتوراه في الطب بامتياز وتتفوق على الكثيرات. لكن سميرة لم تعجبها المدينة وإن كانت قد أعجبت أمها القرية (مونت لاجولي) فهناك عاشت الأم أجمل أيامها تنتظر غروب الشمس بفارغ الصبر لتمضي في طريقها إلى بيت الأسرة، أسرة فرانسواز أبوها وأمها وجدتها التي اختارت أن تفلح الأرض المحيطة بالدار بشيء من الحيوية. كانت تقارن بين هذه القرية وقريتها الهدى، فتتيه على فرانسواز بقريتها التي استطاعت أن تشرح جمالها بأسلوب عفوي بسيط وبلغة فرنسية معقولة لكنها على ضعف لغتها بدت صادرة من أعماق القلب.

كانت تفتقد النجوم في سماء لاجولي وإن كانت لم تفتقدها في سماء الهدى.

ربما من الصعب على الإنسان أي إنسان أن يغير جلده: ترى هل يمكن أن يضيع الزمان؟ لا تدري وإن كانت أمها هي التي تدري، هذه الأمية التي صنعت امرأة وأوصلتها إلى أرقى الشهادات.

لقد فقدت الأم الزمان، ونسيت أيام الشقاء ولم تعد تتذكر إلا أنها هي التي تعيش لابنتها، لكنها مع كل هذا تنتظر أن يأتي لابنتها الزوج الذي يسعدها ويوم يجيء تنتهي رحلتها كلها ويصبح من حقها أن تتيه وتعتز بكل هذا الذي صنعت، فالمرأة في نظرها بدون رجل كالرجل الذي يعيش لنفسه دون أن تشاركه امرأة حياته. فالحياة في نظرها رجل وامرأة وحفنة من الأطفال يجرون ويمرحون على هذه الأرض.

الكابوس

ارتعدت فرائص مديحة وهي تتذكر تفاصيل الكابوس الذي جثم على صدرها خلال الليالي الخمس التي مضت، وكان شيئاً مروعاً قد تلتقي به بعد ذلك الحلم البغيض الذي نغص عيشها وأطار النوم من مآقيها، هي التي كانت تضع رأسها على المخدة لتستغرق بعد دقائق قصيرة في نوم هادىء لا يعكر صفوه حلم من هذه الأحلام التي تراءت لها حتى أصبحت علامة فارقة يأخذ الواحد برقاب الآخر وإن اختلفت بعض التفاصيل.

لكن بداية الحلم ونهايته تكاد أن تكون شيئاً واحداً ولقد عزت ذلك كله إلى غياب زوجها في رحلة من رحلاته التي تعودت عليها منذ سنوات خمس هي كل عمر زواجها واقترانها به.

وهي تذكر كيف مرت تلك السنوات لا يعكر صفوها شيء، تأخذ من الحياة وجمالها ما تستطيع فلقد هيأ لها زوجها المال والجاه والسكن المريح والخدم والحشم، وأودع باسمها واسم ابنها مبالغ كبيرة في البنك الذي يتعامل معه وكأنه بعمله هذا يريد أن يُطمئنها لتستقر نفسها وتهدأ، فقد كان نعم الزوج المحب الغيور الذي يملأ البيت أنساً وسعادة وطرافة.

لم يدع في نفسها شيء من المجوهرات والملابس إلا وأتى بها لها، يتسابق في إرضائها. . فكانت أشبه بقطة وديعة تحتضن ذكريات حياتها معه، في حب مستمر وراحة فائقة، ولقد حاولت أن تثني بحزم زوجها لأن يؤجل رحلته بعضاً من الوقت لكنه لم يفعل نظراً لضرورة الرحلة ومقتضيات العمل.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تحاول فيها هذه المحاولة دون أن تعرف سبباً لها حتى إذا ما اصطدمت بصورة الكابوس الذي رزأت به، تذكرت بفطرتها أنها كانت ترغب في وجوده معها ليحل طلاسم هذا الحلم الغريب الذي تراه، ولهذا رغبت في بقائه.

ولقد أحست وهي في مجلسها المعتاد بجانب النافذة الكبيرة التي تطل على حمام السباحة بحركة دائبة، كانت قد نسيت أسبابها وعندما تذكرتها عرفت بأن الليلة هي ليلة موعد ابنها وهي كعادتها مع زوجها تدعو أطفال الأسرة لتناول طعام العشاء المبكر مع ابنها بعد ما يلهو الجميع بالأجهزة والأدوات التي هيأها زوجها لطفلها وأطفال الأسرة.

وتتواصل ذكريات الكابوس في مخيلتها بصوره وأشكاله المعقدة والمرعبة في وقت واحد؛ حتى إذا ما وضعت رأسها على وسادتها، تبادرت إلى ذهنها شتى الوساوس وقالت لنفسها: أولم يكن من الممكن أن كل ما رأته في هذا الكابوس هو الحقيقة؟

وبدأت تبكي بدموع غزيرة خوفاً من أن يصبح الحلم حقيقة وما أبشع الأحلام عندما تكون مجردة من صورها الخيرة.

وارتفع نحيبها وكأن كل ما رأته لا يعدو أن يكون واقعاً مراً وكدر عيشها وحرمها لذة النوم لمدة طويلة.. هذا الكابوس المخيف. ولم يمض وقت كبير حتى انتظمت دقات قلبها وتنفسها وراحت في غيبوبة من النوم كانت تظنها لن تأتي، وأحست بشيء من الراحة هي التي فقدت هذه الراحة.

وفي الصباح، عاودت التفكير في أمر هذا الحلم البغيض وقررت أن تعرف سببه.

ترى من هي هذه المرأة التي اختطفت زوجها من بين يديها؟ ولماذا كل هذه النظرة القاضبة التي ترمقها بها، والتي هي رغم مظاهر قسوتها لم تستطع أن تخفي جمالها وأنوثتها؟ ولماذا يمضي زوجها مع هذه المرأة وهو راضٍ غير آبه لنظراتها وتوسلاتها إليه بأن لا يذهب؟

أحجيات تود أن تعرف شيئاً عن معناها. لكنها لم تصل إلى بغيتها فآثرت التروي وركنت إلى الانتظار فلربما كشفت لها الأيام عن سر هذا الحلم

المروع. فهي تعرف مدى حب زوجها لها، هو الذي اختارها برغبته.

ومضت الأيام وحلمها يراوح بين الظهور والاختفاء، أحست خلالها بشيء من الحرد، ربما لأن هواجس الدنيا كلها انصبت على رأسها خصوصاً وأن رحلة زوجها قد طالت على عكس ما تتمنى.

واشتاقت نفسها للقائه لتقص عليه حكاية هذا الكابوس الذي أصبح هاجسها بعد أن زادت رؤيتها له عن المعقول وإلا ما الذي يمكن أن تقوله؟ وهل يعني هذا الحلم أن زوجها قد تزوج فعلاً عليها؟ وإذا كان قد تزوج فكيف تسنى له أن يفعل كل هذا دون أن تعرف؟

وعادت بذاكرتها لسنوات زواجها التي عاشتها دون أن يفارقها زوجها للحظة سوى تلك الساعات التي كان يقضيها في عمله تتخللها مكالمات تلفونية من جانبها وجانبه.

إذن كيف تسنى له أن يتزوج عليها ما دام زوجها لم يفارق بيته أو يغيب عنه سوى أثناء رحلاته. وهل يمكن أن يكون قد تزوج أثناء هذه الرحلات؟ ربما.. فليالي وأيام الرحلات لا تدري عنها شيئاً سوى ما يحكيه لها هو بنفسه. ومع هذا استغربت مديحة أن يخذلها زوجها فيصنع ما يصنع كما رأت في الكابوس الذي أذهلها لأكثر من مرة.

وتذكرت أنها مدعوة إلى حفل صديقتها رجاء بمناسبة مجيء مولودتها التي أسمتها باسمها، فقامت إلى دولاب ملابسها تحاول أن تنتقي ثوباً يمنحها الراحة، ويضفي على نفسها الهدوء، والتقطت بحب أول فستان ارتدته في أول زيارة لزوجها لبيتهم بعد الخطبة لكنها بعد أن ارتدته وجدته وقد أصبح ضيقاً بعض الشيء فألقت به وفكرت في أن وزنها قد زاد طوال ليالي الكابوس وأيامه فقد أصبحت تأكل كثيراً لدرجة أزعجتها، لكنها لم تتوقف، وكانت النتيجة ما كانت. ونظرت إلى وجهها في المرآة فلم تجد تغييراً كبيراً بينه وبين ما تراه على مقربة من المرآة إذ كانت صورتها تطل في ابتسامة محبة أسرت زوجها كما كان يقول أو يدعي.

وارتفعت يدها لتبعد خصلة من شعرها الكستنائي الذي تهدل على وجنتيها وكأنها بما تفعل تحاول أن تبعد شبح تلك المرأة التي رأتها أكثر من مرة.

كانت بالنسبة إليها أشبه بضيف ثقيل ودت أن يختفي، لكنه يتبعها حتى وهي بين هذا الجمع من الصديقات اللواتي استقبلنها بكثير من الود جعلها تستأنس قليلاً هي التي فقدت هذا الإيناس فترة من الزمن، واندفعت تتحدث إلى الجميع في حيوية حتى التقت بصديقتها رؤى التي أمسكت يدها وانتحت بها ركناً قصياً لتنقل إليها تفاصيل حلمها الغريب.

حاولت رجاء أن تصرف ذهن صديقتها عن التفكير في هذا الحلم الذي تراه وقالت لها في شيء من الهدوء:

ـ ربما عدت للتفكير في أمر الزوجة التي اقترن بها زوجك يوم كان طالباً في جامعة القاهرة، فخلط وعيك الباطن بين الماضي والحاضر.

ـ ولكنني لا أعرف بأن زوجي قد تزوج قبل زفافي به. قالت مديحة.

وأحست رجاء بالحرج فعلى الرغم من أنها قد أرادت أن تطرد عن أفكار صديقتها الهواجس السوداء إلا أنها وقعت في مطب لا تدري كيف تتخلص منه فقالت:

ـ ربما لم يشأ أحد أن يقول لك ذلك، أو ربما تكونين قد استمعت إليه ثم نسيت كل ذلك، ثم هذا الكابوس قد يكون سببه أنت لكثرة التفكير فيه.

ـ لا، وإن كنت أعتقد الآن أن للكابوس بلا شك جانباً من الحقيقة ما دامت أسرته وأسرتي قد أخفوا عني زواجه المبكر.

وتلعثمت رجاء ولم تستطع أن تقول شيئاً، فقد وقع المحظور، وازدادت هواجس صديقتها بهذه المعلومة التي قدمتها بحسن نية.

وهكذا أحست مديحة بدوار مخيف يلف رأسها حتى قدميها، وانخرطت دموعها تذرفها عيونها، وكأنها تريد أن تغسل قلبها من الألم الذي بدا وكأنه نصل خنجر قد سدد إليه في قسوة ما بعدها قسوة. واستأذنت بعد ثوان لتعود إلى بيتها ويعود معها إلى عقلها شيء من الصفاء حاولت من خلاله أن تدرس المشكلة بكثير من الهدوء.

وأمسكت بالتلفون تطلب أمها لتسألها عن الموضوع، موضوع هذه المرأة التي اقترن بها زوجها يوماً ما، وجاء جواب أمها لا ليضع حداً لآلامها

وأحزانها وإنما ليضع خطاً وراء الهدف من محاولة الجميع تناسي هذه المشكلة فلم يذكر لها أحد منهم عنها شيئاً. وحاولت أن تسائل نفسها عما إذا كانت قد عرفت بالموضوع فهل سترفض الاقتران به.

وجاءها الجواب ليزيد حيرتها فليس من السهل الإجابة على مثل هذا السؤال. واندفعت إلى سريرها تحاول النوم حتى إذا ما تسلل النوم إلى جفنيها عاود الكابوس زيارته لها في تسلل عجيب هذه المرة أظهر جمال تقاطيع وجه المرأة وجسدها ومظهرها الأنيق الفاتن وطولها الفارع وشعرها الكستنائي الطويل الذي غطى جزءاً من وجهها وظهرها في فوضى لطيفة.

وفي الصباح تلقت مكالمة سريعة من زوجها الذي يزور جنيف كما قال ولكم أحست بالخوف وهي تمسك بسماعة التلفون دون أن تدري السبب لكنها عزت كل هذا إلى تلك السيدة التي رأتها في منامها كثيراً.

وواصلت حديثها مع زوجها في أمور كثيرة واستمعت إلى صوته وهو يقول:

ـ سأعود غداً إلى جدة وسيكون برفقتي إنسان عزيز علي، وأظنه سيكون كذلك عليك أنت.

وصمت، لكنها أجابته:

ـ ومن هو هذا الإنسان يا عزيزي؟

فقال:

ـ سترينه وستحبينه كثيراً كما أحبه أنا وسأتحدث إليك عنه وعن كل شيء. فقد حان الوقت لتعرفي ما حاولت أن أخفيه حتى يأتي اليوم الذي يحق لي أن أتحدث فيه إليك وها هو قد حان فلا تنزعجي.

ـ ومن أيضاً معك في عودتك؟

ـ لا أحد سواي وسواه ألا يكفي هذا؟

وحاول أن يقفل سماعة التلفون بعد أن أودعها حبه لها ولابنه الذي يسعده أن يأتي له بأخ يشاركه حبك يا زوجتي العزيزة.. لكنها لم تدع له الفرصة فقد أحست بشيء من الامتعاض لأنها عرفت بأن ما قالته صديقتها كانت حقيقة لا

تقبل الشك وقالت له:

ـ لماذا لم تقل لي عن ذلك في شهور الخطبة؟

وأجابها:

ـ وددت أن أقول كل شيء لك لكن أمك هي التي طلبت مني أن لا أذكر شيئاً خصوصاً بعد أن تأكدت من أن زواجي في القاهرة كان مجرد نزوة انتهت منذ مدة، ولولا وجود تامر لماعرفت شيئاً.

ـ وتقولها؟

قالتها بعد أن أردفتها بضحكة أثلجت صدره فقد أحس بأنها قد غفرت له صمته وعدم البوح لها بسره. وإن كانت هي لم تغفر لأمها سكوتها على هذا الأمر وودت لو أن أمّها قالت لها كل شيء قبل أن تزف إليه فهي تحبه، تحبه كثيراً وبجنون هذه المرة حتى وإن كان قد تزوج امرأة قبلها.

مفهوم غريب غريب جداً

في فندق إنتركونتننتال في لندن جاء مقعدي قريباً من الباب الدوار الذي كان يدور في حركات متتالية جعلتني أنصرف عن مطالعة جريدتي إلى مراقبة أولئك الذين يدخلون إلى الفندق. .أشكالهم. . ألوانهم. . ملابسهم. . نساء هم أم رجالاً فتيات، في مقتبل العمر أم عجائز أمضوا سنوات عمرهم في جهاد وجد وعمل وضحت معالمها على وجوههم.

كل واحدة أو واحد يمر إلى جانبي يلقي نظرة على وجهي وكأنما يريد أن يخترق أعماق أعماقي ليتعرف إلى كل أفكاري وما أقرأ حتى إذا ما التقت عيني بعينه أو عينها أشاحوا جميعاً بنظراتهم عني.

ربما كانت تلك النظرات مجرد فضول من هؤلاء الوافدين على الفندق، وربما كانت عادة لأن ملابسي كانت آخر موضة. . وشعري الغزير قد امتلأ ببعض الشيب الذي بدا واضحاً أكثر من ذي قبل. . ووجهي كان يدل على أن سني أصغر مما يوحيه هذا الشيب.

تعبت عيناي من النظر ورأسي من الالتفاف وقررت أن لا أنظر لكن التفاتتي كانت هذه المرة أكبر من أن تضيع، أحسست بيد توضع على رأسي ويد أخرى تدير وجهي نحوه.

لم أنزعج قلت في نفسي ربما كان يظنني صديقه، لكن لهجته الصادقة ونطقه باسمي جعلني أنظر لوجهه كثيراً ـ قال وبلهجة الواثق:

ـ أنت هنا إذن وكنت أظن أنني لن ألقاك!

بدت معالم البلاهة على وجهي.

بعضهم يقول عنها سذاجة، لكنني من ذلك النوع الذي يحب أن يضع النقاط فوق الحروف.

التفت لي قال بلهجة من يعرفني جيداً:

ـ أريد أن أحدثك قليلاً.

أشرت إلى الكرسي، جلس انتظرت منه أن يتحدث، كان يمعن النظر في وجهي يدقق في تفاصيله وبعد لحظات قال:

ـ أراك قد كبرت أم إن زيادة وزنك هي التي أعطتك ملامح الكبر.

ضحكت، وشحذت فكري أحاول أن أعرف من هو لكنني لم أستطع.

قال:

ـ أظنك نسيتني.. فقد كنت أنا وزوجتي وصديقتها الإيرلندية التي أعجبت بك نأكل سوياً على مائدة واحدة في الباخرة التي حملتنا من ميامي إلى الكاريبي.

عندها كبرت ابتسامتي وتذكرت الرجل بعد أن طغت صورة زوجته وصديقتها على ذاكرتي.

قلت لنفسي هكذا نحن الرجال ننسى صور الرجال الذين نلقاهم ولا ننسى صور النساء.

ابتسامتي التي أظهرت أسناني أثلجت صدر الرجل الذي قال ولأول مرة:

ـ اطلب لي فنجاناً من القهوة.

دعوت الخادم، وسألته أن يلبي طلب الرجل، ثم نظرت إلى وجهه فشعرت من وراء وجهه بصورة زوجته التي قالت لي يومها إنها خياطة وإنها تخيط فستان العروس في أبردين بعشرة آلاف جنيه.

قلت له:

ـ وأين زوجتك؟

قال:

ـ تطلقنا بعد أن عرفت مدى حبي لصديقتها الذي كنت أنا وهي نخفيه عنها

أكثر من أربع سنوات مضت.

ـ وأين هي الصديقة؟

قال:

ـ تعيش مع زوجتي في بيت واحد بعد أن رفضت أن تتزوجني.

قلت:

ـ إكراماً لصديقتها زوجتك؟

قال:

ـ لا . . وإنما لأنها تكره أن تتزوج من رجل خان زوجته حتى وإن كان هذا الزواج من رجل تحبه.

قلت:

ـ ولماذا لم تبق على صداقتك معها ما دامت ترفض الزواج؟

قال:

ـ ومن قال لك غير ذلك فنحن أصدقاء؟

زادت ابتسامتي على شفتي وقلت عالم مجنون ولا شك.

وأخذت أستعيد رحلة الكاريبي والباخرة.

كان عدد المسافرين يربو على ثلاثة آلاف شخص يميل أكثرهم إلى اليسر لأن تكاليف الرحلة عالية ولا يمكن لإنسان عادي دفع مصاريفها.

وتذكرت زوجة الرجل وصديقتها، كانت امرأة قد تجاوزت الأربعين بقليل. في وجهها ظلال كبيرة من الجمال، تجيد لفت النظر بأناقتها وأرستقراطيتها حتى إنني فوجئت عندما عرفت أنها امرأة عاملة تصنع بيديها ثوبها وثياب الآخريات.

كنت أظنها امرأة مخملية تعيش في برجها العاجي وفي متناول يدها شتى أنواع بطاقات الائتمان ولديها في البنوك رصيد كبير وعدد من البيوت الضخمة على أرض جزر المتوسط وعلى الساحل اللازوردي في كان ونيس وكابري وإسكيا وغيرها من جزر الأحلام. أما صديقتها، فقد كانت تملك مطعماً يدر

عليها آلاف الجنيهات شهرياً. تعودتا أن تقضيا في كل عام أياماً من أغسطس على ظهر هذه الباخرة الضخمة. أما الزوج، فقد كان يعمل مهندساً في مصنع للدخان أحيل للتقاعد فشارك زوجته وصديقتها هذه الرحلة لأول مرة.

وتذكرت كم كانت تلك الصديقة رغم جمالها وطول قامتها نهمة تحب الأكل بشكل غير مألوف لدرجة أنها كانت تأكل نصيب صديقتها التي كانت تتأملها بحب وهي تزدرد الطعام بشهية تحسد عليها.

قلت لها ذات مرة:

ـ ألا تخافين من السمنة؟

قالت:

ـ لا، ولماذا أخاف وأنا أمارس أنواع كثيرة من الرياضة؟

قلت:

ـ ولماذا هذا الحب للأكل بهذه الصورة؟

ضحكت وأجابتني:

ـ أنسيت أني صاحبة مطعم أجد فيه جميع أنواع الطعام وبحكم عملي يجب علي أن أتذوقه؟

أثناء هذا التفكير نسيت الرجل الذي ذكرني بنفسه قائلاً:

ـ لقد وعدت بأن تزورنا يوماً ما في أبردين فلماذا لم تفعل؟

قلت:

ـ كنت فعلاً قد عزمت على ذلك لكن ما ذكرته لي جعلني أنسى هذا الأمر فلا عليك خصوصاً وأنني التقيتك.

قال:

ـ لم نفرط عقدنا فأنا وزوجتي وصديقتها لا نزال أصدقاء وهما معي في زيارة لندن ويعيشان في الفندق القريب وأنا معهما فلو رغبت بلقائهما خصوصاً وأن الأخرى لا تزال تحبك ومن كل قلبها وإن كان هذا الحب لم يتوج باللقاء بعد.

ضحكت ولم أعقب وإن كنت أخذت أفكر في كل هذا الذي قاله الرجل لأنه غريب غريب جداً على مفهومنا نحن الشرقيين عن الأسرة والزواج والصداقة.

لمّحت إلى الرجل بأنني أرغب في أن أرى الأخرى على حدة ربما كان دافعي في هذا الطلب الفضول أو حتى الإحساس بالرضى لأنني عرفت منه بأن هذه السيدة قد ترى فيّ ما لا تراه في الآخرين، وهكذا نحن الرجال نميل لمن يقول عنا كلمة حب.

لكن الرجل قال لي وعلى شفتيه ابتسامة فيها شيء من الاستخفاف لا أدري إن كان استخفافه هذا لي أم لرغبتي في لقاء الأخرى وقال:

ـ أنسيت أنني أنا الآخر أحبها.. وأنني قد طلقت زوجتي التي أصبحت بعد الطلاق منها مجرد صديقة لأنني أحببتها.. ثم بعد ذلك تطالبني بأن تراها بمفردك؟

قلت بعد أن تنمرت قليلاً:

ـ لا عليك ليس المفروض علي أن أعرف أنك تحبها، وإنما يجب علي أن أعرف هل هي الأخرى تحبك.. وإن كانت تحبك فكيف بها في نفس الوقت تحبني؟ ثم بعد ذلك كله أريد أن أعرف كيف استطاعت أن تبقى على صداقتها بزوجتك رغم كل ما فعلت؟

ضحك في وجهي وقال:

ـ لا بأس سأسألها حتى إذا ما وافقت سأزورك برفقتها.

ضحكت أنا الآخر وقلت:

ـ لا، لا تفعل! يكفيني أن أراها بمفردها لأعرف كل شيء.

نظر إلى وجهي نظرة شعرت بأنه قد أخذ على غرة مني لكنه لم يقل شيئاً وتركني وانصرف وها أنذا أنتظر تلك المرأة عسى أن تجيء لأعرف القصة.

لكنها لم تأت..

عروس من البحر

أضناني الجوى وجننت لرؤية مسقط رأسي وملاعب الطفولة يوم لم يكن للطفولة هذا الشأن الكبير والرعاية الحميمة.

خمس وثلاثون عاماً مضت وانقضت وأنا بعيد كل البعد عن مدينتي التي عرفت، أمضيتها أجوب الموانىء بحثاً عن مساقط الرزق بعد أن قدر لي أن أكفل رعاية أمي وأنا لم أشب عن الطوق في العاشرة والنصف من العمر، ألمح الحزن على وجهها الجميل والدمعة الحارة على خدها تتدحرج في هدوء.. أكفكف دمعها بيدي الصغيرتين وأهدهدها وأربت على كتفيها لتنسى.. ويوم نسيت كل شيء ذهبت دون عودة.

بعد عودتي إلى المدينة، هالني أن أجد بيتي في غير مكانه والزقاق الضيق الطويل الذي كنا نقطن فيه ذهب بدون رجعة.

تغير كل شيء وأصبح من الصعب على من كان مثلي أن يتعرف إلى الشوارع والبيوت الجديدة التي انتظمت خارج مدينتي باعتبار أن سوراً كبيراً كسياج يحميها ذهب هو الآخر.

أكثر من يمشي في الشوارع لم أعد أعرفه، حتى أولئك الرجال الذين كانوا يقتعدون دكاكينهم في جوه المدينة وباب المصري لم يعودوا موجودين. مات أكثرهم وتقاعد بعضهم بعد أن أعطى مكانه لابن أو حفيد.

لكن شيئاً واحداً لا أزال ألاحظه.. ذلك الهدوء الصامت الذي يشع على وجوه الناس ويبارك خطواتهم ويرعى تنقلاتهم وكأنهم وهم في ملابسهم البيضاء الأنيقة رسل سلام ومحبة..

ومع هذا، فالماضي يطل بصوره وشخصياته يبدو رغم كل تلك الأيام التي مضت وكأن الزمن قد توقف وعادت الأزقة والأحوشة والشوارع القديمة إلى سابق عهدها بشرفاتها الخشبية المزركشة وأبوابها الضخمة ودهاليزها الملتوية وحنياتها الممتلئة بأرزاق الناس وأطعمتهم ودواوينهم التي تمتد جدرانها مع قاعاتهم حتى سطح البيت لتحمل نسائم الهواء وتلطفه ليصبح مقبولاً في أيام الصيف ولياليه.

كل شيء يعود إلى الواجهة وكأني أرى ذلك كله ويدي تمتد إلى الرجل الأعمى الذي وقف إلى جانب الطريق أمسك بيده لأدله على الطريق وأنا معه تائه الفكر شارد النظرات لدرجة لم أسمع فيها حديث العجوز الذي قال لي في هدوء:

ـ تبحث عن بيتك يا ولدي؟

عندما كررها أجبت بهزة من رأسي، لا شك أن الأعمى لن يراها، لكنه وبعد أن أمسكت يده بكلتا يدي قال:

ـ أعرف من أبوك فقد كان صديقي. أو لا تذكرني يا سليمان بن عواد؟

أعدت النظر إلى وجه الشيخ وانتابني إحساس بالخوف فقول الشيخ الذي سمعته يعني أنه يرى، فقد كانت أمي تقول عني بأني صورة طبق الأصل من أبي.

ولكن الرجل الذي أمامي لا يرى، غاب الضوء من عينيه منذ سنوات طويلة فكيف له أن يعرفه؟

سألته في صوت مخنوق ملأت أوتاره شجون الأيام:

ـ كيف عرفتني يا سيدي؟

ابتسم الرجل وقال:

ـ من ضغطة يدك على يدي شعرت وكأن أبوك قد عاد لولا أنه مات، وأنا أعرف ذلك لقلت إنك هو.. ثم بدأت أبحث في تلافيف مخي فتذكرتك وعندها عرفت أنك سليمان ابن صديقي عواد الذي حزنت لموته وأنت صغير صغير جداً.

سكت قليلاً وقال:

ـ سنوات طويلة قضيتها في الغربة وها هي تعود مرة ثانية بعد أن تغيرت كل الشوارع والطرق والبيوت. . اختفى الماضي ليحل مكانه الحاضر برسومه الجديدة صورة أخرى مغايرة يحبها الكثيرون وأنا منهم رغم أنني أعشق القديم أيضاً مثلك. . هذا القديم الذي راح وبقي في ذاكرتي وفي ذاكرتك أقوى وأنضر، أليس هو كذلك؟

ومضى في الطريق يمسك بيدي يجرني إلى بيته في طريق سلطانه، يسحبني دون أن يقول شيئاً حتى إذا ما وصلنا إلى داره دق جرس الباب ليفتح وأدلف معه دون أن أدري لماذا يفعل. نظرت إلى داخل البيت لم أر ما كنت أراه في بيوت أهل المدينة. . تغير كل شيء ذهب الجديد بطلاوة القديم وتمسك الناس بالجديد في كل شيء.

الشيخ يطلب مني الجلوس قائلاً:

ـ أنت صغير يا سليمان وهذا بيتي وبيتك تزوج الأولاد والبنات وذهبت أم العيال ـ على فكرة ـ كيف حال أمك؟

أطرقت برأسي حزناً قليلاً ثم قلت:

ـ تعيش أنت، رحمها الله.

لم يكن في الدار مع الشيخ إلا امرأة سوداء أوغل الزمن في وجهها فلم يترك فيه مكاناً، جاءت بالشاي. . فقال لها الشيخ:

ـ هذا سليمان بن عواد يا أم السعد تعرفين أمه. . أم الفرج يقول إنها ماتت رحمها الله.

مدت يدها لتصافحني. أحسست بأن الماضي كله يتجسد في هذه اليد الممدودة أطبقت بفمي أقبلها كما كنت أفعل مع أمي شدت المرأة يدها وقالت:

ـ استغفر الله فقد كانت أمك سيدتي في يوم من الأيام. فلا تفعل.

وانكبت على يدي تقبلهما في حب ووداعة. ساعتها تذكرت أم السعد وتذكرت بعضاً من الماضي يوم أمي لم تستطع بعد وفاة أبي أن تنفق على أم

السعد فأعطتها إلى أختها التي بدورها منحتها للشيخ بعدما ماتت زوجته، تقوم على شؤونه وتصنع طعامه وتغسل ثيابه.. أمضيت الليل ساهراً مع الشيخ حتى أدّينا صلاة الصبح في المسجد ثم أغفينا قليلاً ليعاود الشيخ سؤالي:

ـ أو تزوجت يا سليمان؟

ـ لا..

قلتها في هدوء لكن الشيخ لم يمهلني بل قال:

ـ سأزوجك من المدينة.

قلت:

ـ ولكني لن أبقى.. سأعود إلى جدة.

قال:

ـ ستذهب معك إلى جدة فقد ذهب الوقت الذي لا ترضى المرأة فيه في المدينة أن تغادر بيتها إلى بيت آخر إن لم يكن في مدينتها هي، ألم أقل لك يا بني كل شيء تغير.. ولكن أين تسكن الآن؟

ـ في الفندق قريباً من هنا.

قال:

ـ لا، سأذهب معك لتأتي بمتاعك إلى بيتي لتبقى معي وفي ضيافتي طوال وجودك.. سأطعمك من الأكل ما تعرفه وما أنت مشوق إليه خصوصاً بعد أن توفيت أمك، وستقوم أم السعد على رعايتك فهي أجدر في ذلك من كل خدم الفندق.

وتم كل شيء وفق ما أراد الشيخ الذي استغرب رغبتي في استعادة ذكرياتي ويوم قلت له عما كنت أختزنه من ذكريات عنه قبل أن يفقد ضوء عينيه، ضحك كثيراً. طلب مني أن أعيد عليه ما قلت، فأجبته إلى ذلك فقد كان الشيخ حفياً بزوجته.. وكان أهل المدينة جميعهم ينامون في الأسطحة حتى إذا ما أصبح الصبح وانطلق الناس إلى أعمالهم كان الشيخ يحضر طعام الإفطار لزوجته التي كانت غارقة في النوم حتى إذا ما تعب من النداء غير من لهجته وطلب منها أن تنزل لتناول الفطور فتأتي.

وكنا نعجب كيف يقوم الرجال على خدمة زوجاتهنّ في ذلك العصر، حتى جاء عصرنا فلم نستغرب، ذلك لأن أكثرنا يصنع ذلك دون أن يجد ضيراً فيما يفعل. ولم أسافر من المدينة إلا وبرفقتي فتاة جميلة من بنات مسقط رأسي رضيت أن تتزوج بي مع فارق العمر بيننا.

كانت أشبه بعروس خرجت لتوها من البحر تستخدم أنوثتها وهي تنظر إلى وجهي بولهٍ شعرت بعده بأنني أسعد إنسان لاقتراني بها وللقائي بالشيخ وأم السعد وعودتي إلى مسقط رأسي بعد فراق طويل جداً.

أوهام امرأة

استعادت روان رباطة جأشها بعد تلقيها تلك المكالمة التلفونية، ومضت تنهب درج الفيلا في سرعة عجيبة إلى مخدع نومها لتلتقي بحقيبتها الصغيرة التي أودعت فيها رقم تلفون صديقتها ربى. حتى إذا ما لقيتها أدارت قرص التلفون في رعونة رشيقة بدا خلالها وجهها الأبيض الجميل وقد تورد من فرط أحاسيسها بالسعادة. فمحمود خطيب ربى الذي سافر منذ أكثر من ثلاثة أعوام لتلقي العلم في أمريكا عاد وبرفقته شقراء جميلة اختارها بعناية.

أمسكت بسماعة التلفون على أمل أن يتسلل إلى أذنيها صوت صديقتها ربى لتبدأ حديثها معها عن خطيبها وزوجته الأمريكية الشقراء لكن ظنها خاب لأن ربى لم تكن في بيتها فقد أفهمتها الخادمة بأن ربى مريضة وأنها تقضي فترة النقاهة في المستشفى الجديد الذي افتتح مؤخراً في مدينة جدة.

أقفلت روان التلفون وتمددت على سريرها ترمق الأفق بنظرة لم تعرف كيف تصفها لكن سعادتها لم تكتمل إذ جاءها صوت أمها يطالبها بأن تسرع قبل أن يفوتها الموعد، وهما في طريقهما إلى المطار لزيارة أقارب لهما في مدينة الرياض.

السيارة تنهب الطريق في إصرار عجيب، وهي في جلستها تلك كانت تأمل أن تلتقي بربى لتشاهد خيبة الأمل تبدو ناطقة على محياها هي التي سعدت كثيراً بفشل خطبتها لأخيها بسام.

وهي تذكر ذلك اليوم، وتذكر أيضاً كيف غلفت ربى ابتهاجها

وفرحها بهذا الفشل هي التي حاولت كثيراً أن تثني أمها وأخاها عن هذه الخطبة.

ومضت تصارع أقدارها بينما أخذت صور الماضي تبدو أكثر عمقاً في مخيلتها لتعيد إليها أيام الدراسة وكيف كانت مصحوبة دائماً بمشاركة ربى لها رغم تظاهرها بحبها وصداقتها لها.

كانت تدرك بأن طفولتها لم تكن في يوم من الأيام سعيدة بهذه الصديقة التي فرضت صداقتها عليها رغماً عنها، فربى فتاة شقية تختار عن عمد الإساءة إليها بتكسير لعبها من جهة وفرض صداقتها على من تحس بأن روان تميل إليه أو يميل إليها وهي تعرف مدى الخلاف الذي كان بينها وبين ربى على صداقة محمود ذلك الطفل الأسمر جارهما في الشارع والبيت وصديق عمرهما هما الاثنتان.

كانت ربى أقدر على جلب محمود إلى صفها وإن كانت تشعر بأن محمود هو الآخر يميل إليها بقلبه ويخاف أن يظهر هذا الميل لئلا تكشر ربى عن أنيابها وتصنع من القصة قصصاً كثيرة كانت تكره أن تنقل عنها.

وكانت سنوات الطفولة أشبه بكابوس جثمت ربى خلالها على صدرها.

لم تكن تظن أنها تحب محمود بهذه الصورة التي بدت تظهر مبكرة في سنواتها الأولى، لكن ربى كانت تدرك ذلك كله وتحاول أن تثني عزمها عن أن تكون قريبة لقلبه فهي تعتقد أنه يحبها هي وهي وحدها، حتى ذلك اليوم الذي تقابلت فيه بمفردها مع محمود الذي يتحدث كثيراً عن ربى ومحاولاتها لأن ينأى بصداقته عنها وحزنه الكبير من هذا الأسلوب الذي تمارسه معه ومع الأخريات. أحست ساعتها بأن باب الأمل مفتوح وأن السنوات القادمة كفيلة بإزالة كل تلك العوائق والوصول إلى هدفها، حتى ذلك اليوم وبعد أن نالت شهادتها الثانوية وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الجامعة، أعلن محمود عن عزمه على الدراسة في أمريكا، بينما اختارت هي طريقها إلى كلية الطب واختارت ربى دراسة الأدب.

يومها جاءت ربى إليها وقالت لها بأنها ومحمود مخطوبان وأنه قد وعدها بالزواج في أول فرصة يعود فيها من أمريكا إلى جدة، لكن محمود لم يأت..

أمضى أكثر من ست سنوات درس خلالها الهندسة ونال شهادة البكالوريوس والماجستير.

ست سنوات مضت وانقضت لعبت خلالها ربى لعبة القط والفأر معها دون خوف أو حياء متمادية في إغاظتها بالرسائل الملونة الطويلة التي كانت تكتبها لنفسها على أنها مرسلة من محمود.

لم تكن تدري روان أن ربى كاذبة بل كانت تأخذ حديثها على محمل الجد فتشعر بالتعاسة لا لأنها فقط تحب محمود وإنما لأنها كانت تدرك بأن ربى لن تكون تلك الزوجة الصالحة لمحمود، ومع هذا، فقد كان في غياب محمود عن العودة إلى جدة في الإجازات ما طمأنها على أن شيئاً ما قد حدث بينه وبين ربى وإلا لماذا لا يأتي لزيارة خطيبته.

واستعادت روان رباطة جأشها وأدركت أنها محظوظة فها هو محمود يعود ومعه زوجة أمريكية وهذا في حد ذاته يؤكد تخرصاتها التي كانت تراودها بين الفينة والفينة بأن ربى كاذبة وكاذبة أصيلة..

في المساء أبلغتها أمها دعوة السيدة فاطمة أم محمود للحفل الذي ستقيمه بمناسبة عودة ابنها من الخارج.

سألت روان أمها عما إذا كانت تريد أن تصحبها إلى هذا الحفل فقالت:

ـ نعم وبإصرار.

فالسيدة فاطمة تأمل أن تكون هي الأخرى مع أمها في هذا الحفل.

في الموعد المحدد، كانت هي وأمها في بيت محمود وقد انتظمت القاعة الكبرى العديد من النساء اللواتي عرفت بعضهن.

كانت عيناها منصبتين على الجموع الحاشدة باحثة منقبة عن ربى وأمها فلم تجد لهما أثراً بعد. عزت ذلك إلى تأخرهما في الحضور وانتظرت بعض الوقت حتى إذا ما دعي الجميع إلى البوفيه العامر بأطايب المأكولات، أدركت أن ثمة شيء جعل ربى ترفض الحضور وهذا الشيء هو وجود الزوجة الأمريكية التي لم ترها هي الأخرى في الحفل فاطمأنت بعض الشيء حتى إذا ما قاربتها سألت روان أم محمود عن ربى وأمها فقالت بأنها لم تدعوهما إلى الحفلة

لانقطاع أسباب المودة بينها وبينهما . .

مضت روان تزدرد الطعام بشهية لم تعهدها حتى إذا ما انتهت حاولت الكرة مرة ثانية للتحدث مع أم محمود التي انشغلت بعض الشيء بضيوفها فلم تتمكن من سؤالها عن الزوجة الأمريكية.

شعرت روان بأن أمها قد لاحظت حيرتها وانشغال فكرها فلم تسألها عن السبب فقد كانت مقتنعة بأن ابنتها لا بد وستقول لها عن كل شيء كعادتها معها.

في السيارة ألقت روان سؤالها لأمها عن الزوجة الأمريكية التي حضرت برفقة محمود. ضحكت الأم وقالت في شيء من الهدوء:

ـ من قال لك إنها زوجة محمود؟

أجابت روان بشيء من الحزن:

ـ بعض صديقاتي اللواتي رأينها وهي تصل رفق محمود. .

أعادت أمها الضحك وقالت:

ـ لقد أخطأن جميعاً فكلوديا ليست زوجة محمود وإنما هي زوجة صديقه عباس الذي رجاه بأن يساعدها وهي تجمع أثاث بيتها وما تحتاجه بعد عودة ذلك الصديق للعمل في المستشفى العسكري.

ارتاحت نفس روان وهدأت لحظات لكنها بعد أن أعملت فكرها عاودت سؤال أمها:

ـ إذن سيخطب محمود ربى كما اتفقا؟

نظرت أمها إليها بشيء من الدهشة وقالت لها:

ـ هل رأيت ربى في الحفل؟

قالت:

ـ لا.

قالت:

ـ إذن لمعلوماتك فالصلة بين الأسرتين مقطوعة منذ أكثر من ثلاث سنوات

بعد فصل بارد صنعته ربى مع أم محمود وإن كانت أم محمود لم تذكره لي بالتفصيل. .

في غرفة نومها في البيت أخذت تخلع ملابسها في فرحة غامرة بدت على وجهها معالمها حتى إذا ما استعادت ملابس النوم جلست إلى مرآتها تنظر إلى وجهها لتدرك أنها لا تزال فاتنة رغم أنها قد وصلت إلى الخامسة والعشرين من العمر بالإضافة إلى شهادتها كطبيبة والتي ستنالها بعد ستة شهور.

وفي الصباح، تناولت إفطارها بشهية جعلت أمها تبتسم وهي تدرك في أعماق نفسها سر هذه السعادة لكنها لم تكن تريد أن تتحدث إليها عن شيء جديد يضيف إلى سعادتها فرحة وسعادة أخرى. أدركت روان أن أمها تخبيء شيئاً في نفسها فراحت تسائلها في هدوء حتى إذا ما ألحت قالت وفي شيء من الدلال:

ـ لقد تحدثت لي أم محمود عن رغبة ابنها في خطبتك لكني لم أرد أن أقول شيئاً لك حتى تأتي بشكل رسمي.

ـ خطبتي أنا؟

سألت روان.

ـ نعم، فمحمود حسبما قالت أمه لا ينسى أيام الطفولة التي سعد بها وهو بجانبك رغم كل ما كانت تصنع ربى.

ـ وتعرفين ذلك يا أماه؟

ـ نعم.

قالتها أمها.

ـ بل وأكثر من ذلك.

ثم مضت بعد أن تركتها لأفكارها وأحاسيسها. ترى منذ متى فكر محمود في خطبتها؟ ولماذا أخفت أمها الخبر عنها هي التي تعرف حبها له؟ صور كثيرة راودت مخيلتها وهي في جلستها تلك وقد طغت سعادتها على تفكيرها وأحست بأنها أنثى وليست طبيبة.

فالأنثى تعيش بغرائزها بينما الأخرى تستمد مقومات حياتها من تلك

الخطوط التي يمنحها إياها تعليمها ودراستها وما تقرأه في كتب الطب وغيرها.

ولقد ساورها شيء من الخوف فهي لم تلتقِ محمود منذ سنوات عديدة كتمت خلالها حبها في قلبها فلم تدل بشيء حتى لأقرب الأصدقاء إلى قلبها خوفاً من أن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ولكن وحتى بعد أن عرفت ما عرفت فستطبق فمها حتى يصبح الأمر نافذاً وعندها سيكون لكل حادثة حديث.

في الصباح جاءها صوت ربى في التلفون مثلما جاءها فيه شيء من العدوان وهي تسائلها عن الحفلة التي أقامتها أم محمود، وكأنها تعتذر عن عدم وجودها في الحفل لمرضها رغم وصول الدعوة إليها.

لم تشأ روان أن تقول شيئاً مما تعرف بل حاولت أن تصف لها الحفل في عفوية ممزوجة بقليل من الحب شأنها عندما تتحدث مع أية صديقة..

لكن ربى أخذت تدور وتدور في حديثها حتى جاءت على ذكر الزوجة الأمريكية. أفهمتها روان الحكاية على حقيقتها وقالت لها بأن محمود لم يتزوج وإن كان يعتزم الاقتران بفتاة أخرى سألتها ربى عن الفتاة، فأجابتها بلؤم بأنها لا تدري، وقالت معقبة:

ـ ربما تكونين أنت يا ربى.

صمتت ربى بعض الوقت ثم قالت في تخاذل:

ـ لا أظن.

واكتفت ببضع كلمات أنهت بها حديثها. لكن روان أخذت تستعيد كل حرف من مكالمتها تلك التي أحست بعدها بأنها لا بد وقد علمت بما تفكر فيه أم محمود ومحمود بخطبتها ولهذا رأت أن تحاورها لتتعرف بأسلوبها على الحقيقة، لكنها لم ترد عليها وتركتها تضرب أخماساً في أسداس مع أنها قادرة على أن تقول لها الحقيقة.

تخرجت روان من كلية الطب بعد أن أمضت فترة خطبة جميلة، أحست خلالها بحب محمود وولهه بها لدرجة جعلتها تنسى ربى صديقة الأمس فلم تسأل عنها محمود مطلقاً، حتى إذا ما جاء يوم الزفاف لبست روان فستان الفرح وقلبها ينبض بالحب والأمل كانت تثق كل الثقة في زوج المستقبل وتشعر

بأنه رجلها الذي انتظرته.

في قاعة ليلتي بجدة زفت روان إلى زوجها في احتفال كبير ورائع لم يفسده عليها حتى وجود ربى التي حاولت تهنئتها ضمن أصدقائها وعلى وجهها مسحة من الألم والحزن أحست بهما روان وهي تبتسم، وإن كانت لم تقل شيئاً سوى أنها كانت تدعو في أعماقها لأن تجد ربى الزوج الذي يقضي على كل مشاكلها وما كانت تصنعه معها في الصغر والكبر معاً.

الاختيار

لم أكن أظن أنني قادر على أن أعيش كما عشت كل تلك الأيام في باريس. كانت ظروفي المالية صعبة بعض الشيء خصوصاً بعد أن تركت وظيفتي الكبيرة، وعمدت لفتح مكتب صغير أحاول من خلاله توظيف قدراتي للعمل الخاص الذي كنت أرهبه رغم أن أهلي جميعاً لم يكونوا موظفين. كنت أبحث عن شركة أجنبية أستطيع من خلالها أن أصل إلى أخذ مقاولة بناء قد لا تكون صغيرة لكنها أيضاً ليست كبيرة.

كان جل همي بعد أن أمضيت أكثر من عشرة أيام في لوكارنو المدينة السويسرية ذات السحنة الإيطالية والتي يتميز أكثر سكانها بأنهم إيطاليون بالدم سويسريون بالمولد.

كانت الشركة التي اتفقت معي على القيام بالعمل شركة سويسرية مديرها رجل تركي مسلم ولد في لوكاند المدينة وحمل جنسيتها السويسرية هو وأبوه، لكن صديقنا التركي لم يفلح رغم صداقته بأن يقدم ضمن عرضه الضمان البنكي المطلوب لدخول العملية.

تركت لوكارنو وسافرت إلى زيوريخ، في فندق شيراتون القريب من المطار أمضيت ليلتين متتاليتين كنت أفكر في أمر هذا الإخفاق الذي أصبت به من أول عملية أحاول أن أمارس فيها عملي الخاص.

لم أكن أظن أنني قادر على انتظار الطائرة طوال تلك الليلتين لولا أنني تلقيت مكالمة من صديق تونسي كنت قد عرفته في ميلانو قال لي بأنه بحث عني كثيراً في جدة وعندما لم يجدني أخذ من مدير المكتب عنواني وهكذا قدر له أن يتصل بي.

كنت أحادثه بصوت مخنوق، فسألني فيما إذا كان هناك مشروع ما يصلح لشركة بناء فرنسية، وعندما سمعت تساؤله هذا أحسست بأن أبواب الفرج قد فتحت لي لأن ما أضعته من مال ومن وقت مع الشركة السويسرية حطم آمالي وجعلني أفكر في إقفال المكتب والاكتفاء بأي عمل آخر.

تحدثنا طويلاً، لكن ما أسعدني حقاً أنه قال لي بأنه سيأتي لزيوريخ مع مدير عام الشركة الفرنسية الذي يقود طائرته بنفسه للتفاوض.

جاء الرجل وتناولنا طعام العشاء سوياً وبدأنا الحديث. وجدت تجاوباً منه واستعداداً كاملاً للعمل، حتى إذا ما انتهينا من العشاء عاد الرجل إلى المطار ليمتطي طائرته في رحلة صغيرة إلى فنزويلا.. تواعدنا على اللقاء في باريس بعد بضعة أيام. وهكذا سافرت أنا إليها وأنا آمل أن يكون الرجل صادقاً في كل ما قال.

في باريس التقيت الفتنة لكنني لم ألتفت إليها. كنت أسير في الشانزليزيه وكأنني أسير في شارع من شوارع قرية صغيرة لايهمني وجود الرجال ولا النساء.. جل تفكيري ينصرف إلى أمر اللقاء الذي سيقرر ماذا سأصنع هل أستمر في العمل الذي أختاره أم أقفل مكتبي بالضبة والمفتاح؟

خمسة أيام مضت لا أدري كيف مضت وأنا أنتظر عودة الرجل الفرنسي من رحلته.

في الأيام الخمسة اتصلت أكثر من مرة بصديقي التونسي لكن هذا الصديق هو الآخر سافر مع الرجل إلى فنزويلا.

في اليوم السادس قررت العودة إلى جدة، وجمعت ملابسي وبدأت أحاول أن أجد لي مكاناً على أول طائرة عندما وضعت يدي على التلفون. رن هذا الصامت لأستمع لصوت أشبه بشلال ماء ينحدر في استقامة نحو الأرض يملأ صوته الساحة.

قال الصوت:

ـ أنت مستر...

قلت:

- نعم.

قالت:

- لك رسالة من السيد جان سأحضرها بنفسي لأنها بالفرنسية وأنا أعرف أنك لا تجيدها.

قلت:

- وأنت كيف أجدت العربية؟

قالت الفتاة:

- لأني عربية

وأقفلت السماعة بعد أن اتفقنا على الموعد.

نظرت إلى الشنطة التي حاولت أن أجمع ما فيها من حاجياتي ولم أفعل شيئاً بل تركتها مفتوحة في انتظار الموعد. مضت ساعتان بعدها عرفت أن السيدة في الصالون أسفل الفندق، حاولت أن أخفي اضطرابي حتى لا تلحظ شيئاً منه هذه السكرتيرة كما أظن.

كانت صالة فندق جورج سانك ملأى بمجموعات من الرجال والنساء. نظرت حولي عسى أن أرى امرأة بمفردها فلم أجد. تحيرت وقلت ربما كانت تكلمني من تلفون السيارة. لم يطل وقوفي حتى رأيتها وهي تمد يدها في ترحاب وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد. أمسكت باليد البضة ونسيت كل شيء وأنا أنظر إلى وجه الفتاة التي أحست ثقل نظراتي لكنها لم تستغرب ربما لأنها تعودت على نظرات الإعجاب تجيئها من عيون الفضوليين أمثالي.. مضت وهي ممسكة بيدي إلى أقصى الصالون حيث وجدنا كرسيين خاليين جلست هي على أحدهما براحة وجلست أنا على الآخر بتحفز. عادت إلي هواجس وخفت أن يكون السيد جان قد غير رأيه، لكن الحقيقة لم تكن كذلك لأنني عرفتها من أجمل شفتين رأيتهما في حياتي. استبشرت خيراً ومضينا نتحدث عن الاتفاقية التي كتبها بوضوح إذ إن هذه السيدة الجزائرية المولد لم تكن سوى محامية للشركة الخاصة بالرجل الذي قالت بأنه كلفها الاهتمام بي، وعلى هذا فأنا مدعو مع زوجة الرجل وابنته لسهرة جميلة. وعدتني بها هذه الفتاة بعد أن

نتعشى في مطعم صغير عرف باسم صاحبته التي نسيتها فقد كانت صاحبته هي التي تطهو الطعام لزبائنها أمامهم مباشرة.

صدقوني لم أكن أظن أنني قادر على تحمل كل هذه الأنوثة الصارخة والفتنة الطاغية تحملها إلي وأنا في أتعس حالاتي لتضيء لي معالم الطريق. كنت أنظر إلى وجهها وملابسها لأرى كم هي رائعة هذه الفتاة.

استأذنت الفتاة في الخروج على موعد جعلني أنتظره بفارغ الصبر.. فهذه المرأة أحسست بها وهي تتسلل بجمالها وكمالها إلى أعماق نفسي التي أحست باليأس وأصابها القنوط حتى إذا ما وصلت إلى ما وصلت إليه أمسكتني يدها البضة الرقيقة من دوامة اليأس والقنوط التي أصابتني.

في جلستي تلك عرفت أنها ابنة مهاجر جزائري زف إلى أمها بعد حب عاصف التقت فيه الأم صاحبة الملايين مع ذلك الشاب المهاجر الذي كان يعمل في شركة أبيها، وعرفت بأن جان مدير عام الشركة هو زوج خالتها أما أبوها فقد ترك فرنسا كلها إلى مكان لا يدريه أحد وأخذت الأم تعيش على ذكراه حتى كبرت وأصبحت محامية الشركة وواحدة من أصحابها.

إذا قلت إنني لا أعرف باريس أكون كاذباً ولا أقول الحقيقة لكن وعدها لي بأن تريني باريس جعلني أستنفذ كل طاقتي لأبدو في الموعد على أحسن حالاتي، حتى إذا ما جاءت قابلتها بوجه مغاير لوجهي الذي رأته مما جعلها تسألني عن السبب.

ولما كنت صريحاً قلت لها بأنها هي السبب لكنها لم تعقب بل اخترقت صمتها وخرجت لأرى معالم باريس على أن تنضم لخالتها وابنتها في موعد العشاء والسهرة.

في الطريق لزيارة معالم باريس التقينا ببعض الرسامات والرسامين الذين يعيشون على ذلك المرتفع القريب من سان جرمين قلت لها:

ـ ما رأيك في أن ترسم لنا هذه المرأة تذكاراً يحميني من الخيبة؟

ضحكت، وضحكت أنا لكنها اعتذرت بلباقة. كانت لغتها العربية مضحكة أما لغتها الإنجليزية فقد كانت أكثر وضوحاً من كل الباريسيات لأنها جاءت

خلواً من اللكنة الفرنسية.

قلت لها ذلك فقالت:

ـ ربما لأن دمائي عربية أم إنك نسيت؟

وبدأت أحس بأنها أكثر قرباً مني فبدأت أروي لها حكايتي دون أن أخفي حيرتي كرجل أعمال يمارس نشاطه لأول مرة. استمعت لكل كلمة قلتها بصمت ثم انبرت لي وقالت:

ـ لا عليك لقد وافق جان على العمل معك وسأكون أنا محاميتك عند تحرير العقد.

نظرت إلى وجهها بولهٍ وشكرتها من كل قلبي، لكنها لم ترد وإنما واصلت السير إلى المطعم الأنيق الذي يبهرني أسلوبه في الاستقبال وهناك في المدخل التقيت بخالتها وابنتها.

كان الشبه بين الجميع واضحاً وكان من حظي أن الأخريات لا يفهمن الإنجليزية فقلت لها ما أحس بأنها الأحلى والأجمل والأخف دماً وجاذبية من هاتين الامرأتين.

في أعقاب العشاء الطيب شعرت بأنني في أمس الحاجة إلى السهرة التي وعدتني بها الفتاة.

كان كل شيء معداً بأسلوب يدل على الأناقة، فالملهى الذي دعيت له كان من أجمل ملاهي باريس وأغلاها، ففي المليارديز كان البرنامج قد بدأ لكنني لم أحمل هماً لهذا الأمر بل أخذت مكاني بين الفتاتين والأم، حتى إذا ما استقر بي الحال بدأت أطالع وجوه كل أولئك اللواتي يقدمن البرنامج.

عرفت ضمن ما عرفت بأن فتيات الفرقة أغلبهن من أوروبا الشرقية وأن الدماء التي تجري في عروقهن هي دماء غجرية بدت واضحة في طول القامة وتناسق الجسد وجمال الوجه لكني أدركت في جلستي تلك بأنني أجلس بين فتاتين الواحدة منهما تساوي وزنيها من كل هؤلاء الفتيات.

استمر البرنامج يؤدى بطريقة هادئة منحتنا فرصة الحديث حتى إذا ما انتهى البرنامج عادت الأم وابنتها إلى بيتهما في مدينة مونت لاجولي، وعدت أنا مع

صديقتي المحامية إلى الفندق حتى إذا ما ودعتها دفعت إلى يدي بأوراق قالت لي بأن عليّ أن أقرأها لأنها بنود الاتفاقية بيني وبين الشركة أعدتها لتكون لصالحي. هكذا قالت وابتسامة عريضة على وجهها تنبىء بصدمتها بالفعل.

يومان مضيا دون أن أرى المحامية وإن كنت أسمع صوتها عبر التلفون حتى إذا ما جاء اليوم الثالث اتصل بي المسيو جان.. واجتمعنا نحن الثلاثة بعد أن قرأت الاتفاقية التي وجدتها على ما قالت وأسلمتها لها بيد مرتجفة تحمل توقيعي ثم أسلمتني نسخة ثانية منها تحمل توقيع جان.

وهكذا بدأت أمضي في أعمالي التي ازدهرت وكأن السبب في كل ذلك رجل جزائري وامرأة جزائرية.

وهأنذا اليوم في طريقي إلى باريس أحمل هدية ثمينة لتلك التي لم تنس دماءها العربية فصنعت معي أكبر معروف لا أنساه لأنني مدعو لزفاف بثينة من شاب جزائري اختارته عن حب كما اختارت أمها أباها هي الأخرى عن حب.

أجمل امرأة في الدنيا

ما زلت أحاول أن تعاود الرؤيا التي التقيتها في المنام الظهور مرة ثانية لتعيد إلى ذاكرتي أحداثاً كثيرة أراها في منامي مرتبة بعد أن رأيتها حقيقة في كثير من الأوقات.

كانت رؤيا عجيبة، ولو حاولت أن أكتبها لما وجدت أفضل من هذا الذي رأيت لكني وبعد أن نسيت أكثر تفاصيلها أجدني أبحث عنها في تلافيف مخي دون أن أجد لتلك الصور شيئاً من الوجود، ربما لأنها كانت من أجمل الرؤى التي التقيتها، وربما لأنني كنت شغوفاً بأن ألقاها ففرت مني كامرأة جميلة تفر من أمام أولئك الذي يطرون جمالها لتبحث عن إنسان هي التي تطري أخلاقه، فالحياة على كبر حجمها ملأى بشتى الصور. حتى ذلك اليوم الذي التقيتها تتسربل في ملابسها الطويلة أشبه بغانية ضاقت بأحلام صاحبها فمضت تمشي على الطريق.

كثيراً ما نحاول أن نصطاد الصورة التي نحبها، وكثيراً ما ضاعت منا أكثر الصور جمالاً وإشراقاً فارتضينا بالأقل جاذبية وجمالاً، ومع هذا قد تضيع هذه الصور أيضاً وقد تفلت من أيدينا ونظل نبحث في وجوه الناس الذين نلتقيهم عنها حتى إذا ما وجدناها توقفنا قليلاً نبحث عن الطريقة التي يمكن لنا بها أن نشدها أو نلفت نظرها إلينا.

الحر على أشده في شهر أغسطس، (فيينا) المدينة بشوارعها تكتظ ببعض زوارها من العرب الذين يختارون فنادقهم ومقاعدهم في وسط المدينة حيث الشارع المغطى. وأسراب الرجال والنساء

يسيرون في الشارع ينظرون إلى فاترينات الدكاكين بشيء من الفضول فقد درج أصحاب هذه الحوانيت على جلب أنظار السياح بألوان ملابس النساء الجديدة التي يختارونها لتكون آخر ما وصلت إليه الموضة في أوروبا.

وأنا في الطريق، لا يشغلني الطريق عن النظر للوجوه لا الدكاكين المفرطة الأناقة ولا حتى أولئك الفتيات اللواتي وقفن وراء الفاترينات يعرضن جمالهن وملابسهن في أناقة. المرأة لا تنظر إلى المرأة وإنما إلى ملابسها التي ترتديها. ومع أن ملابس الفتيات كانت آخر صيحة في دنيا الموضة إلا أنهن فضلن متابعة الفاترينات بينما علقت أنظار الرجال بوجوه أولئك الفتيات النضرات الصغيرات السن وقد عقصن شعورهن بطريقة جديدة لم تكن سائدة قبل اليوم.

في شارع الفتنة، كما سماه صديقي فهد، كنت أمشي وحدي أتابع كل تلك الصور التي التقيتها وذهني خال منها. لا أحاول أن أتلصص على رؤية وجوه الفتيات ولا حتى على الفاترينات الأنيقة.. كان جل همي أن ألقاها تلك التي رأيتها في منامي والتي جعلتني أمضي نهاري مكدود الذهن أراجع تفاصيل الرؤيا دون جدوى، لكنها وأعني صورة تلك المرأة لا تزال عالقة بذاكرتي تحثني على البحث لدرجة جعلتني أشكك في قواي العقلية وأتهكم على نفسي بكلام طويل كنت أجالد به فكري في طرافة.

وفجأة كما قلت التقت عيناي بملابسها، فمضيت وراءها حتى وجدتها تستريح على إحدى كراسي المقهى الأنيق الذي زرته أكثر من مرة.

بلا وعي ولا تفكير اندفعت إلى المقهى لأجلس على المائدة الصغيرة التي بقربها أتطلع إلى وجهها بتلصص حتى إذا ما التقت عيناي بعينيها حاولت أن أخفي نظراتي النهمة لكنها اضطرتني أكثر من مرة. حتى إذا ما رأت إصراري على ملاحقتها بنظراتي ابتسمت ابتسامة شجعتني لأن أسألها:

ـ من أين أنت؟

وأجابتني بالإنجليزية:

ـ أنا من...

ولم تكمل . . فعرفت أنها من بلدي، فارتاحت نفسي وهدأت وقلت لنفسي: كم أنا سعيد الحظ إذ ألتقي بها هنا في فيينا وقد كبرت صورتها في مخيلتي بشكل ظاهر، وأعدت نظراتي إلى وجهها وإحساس السعادة يغلف قلبي حتى إذا ما أحسست بأنني قادر على أن أتحدث إليها قلت:

ـ هل تسمحين لي أن أشاركك الجلسة؟

قلتها باللغة الإنجليزية ولم أفاجأ عندما ردت علي وقالت وفي صوتها جرس جميل شعرت به يهز كياني ويداخل أعماقي:

ـ تستطيع ذلك.

قالتها بلغة بنات بلدي التي لا أجهلها حتى إذا ما تقدمت إلى أحد الكراسي لأجلس عليه قالت:

ـ ترى ما بالك تتابعني بخطواتك ونظراتك أيضاً، هل تعرفني من قبل؟

قالتها بلهجة لم أشعر خلالها بشيء من التأنيب فبدأت أسرد عليها حكاية رؤياي التي التقيت بها والتي حاولت أن أتذكر تفاصيلها التي غابت عني وشعرت وكأن الكلمات تخرج من شفتي وهي تصف كل أحداث القصة، فاتسعت ابتسامتها وقالت في مكر أطل من عينيها:

ـ ربما أردت بهذا الكلام أن تتعرف إلي فأنتم الشباب تحاولون دائماً أن تختلقوا القصص لتتعرفوا على الفتيات.

أعدت نظراتي إليها وقلت لها:

ـ لا.

وبدأت أكرر قصتي مع الرؤيا التي التقيت بها حتى إذا ما انتهيت من إعادتها على مسامعها شعرت بشيء من الراحة فلقد استعدت رؤياي واستعدت معها صاحبة الرؤيا التي أحببتها على البعد وصمت.

سألتني عن اسمي حتى إذا ما عرفته قالت في شيء من الهدوء:

ـ قد أكون سمعت باسمك أكثر من مرة من أبي وأخي فأنا ابنة فلان.

وصمتت.

قلت لها:

ـ قد تكون معرفتي بأبيك بسيطة جداً، أما محمود أخوك فهو صديقي الذي أمضيت معه سنوات الدراسة كلها.

وبدأنا نتبادل الحديث حتى جاءت سيدة قد تجاوزت سنوات الشباب تحمل أكثر من كيس معها إلى الطرابيزة لتلقي علي نظرة متشككة ثم تحول نظراتها عليها فقالت وفي شيء من الهدوء:

ـ هو فلان يا أمي صديق أخي محمود.

ومدت الأم يدها لتصافحني شعرت ساعتها وكأني أستعيد لحظات سعادتي مع أمي التي قضت نحبها، حتى إذا ما جلست بدأنا نتحدث في أمور عدة.

عرفت أنهما عائدتان من باريس بعد رحلة طويلة شاركت فيها سهام أمها في اختيار ملابس زفاف أختها ربى وعرفت أخيراً بأن أباها ينتظرهما في الفندق.

أمضيت معهما فترة من الوقت كانت سعادتي بوجودي معهما كبيرة حتى إذا ما افترقنا قلت للأم:

ـ هل تسمح سيدتي أن أزور العم خليل في الفندق؟

نظرت الأم إلي نظرة متسائلة وكأنها تريد أن تعرف السبب لكني لم أقله وقلبت نظري بينها وبين سهام التي أحسست بأنها تبتسم ابتسامة المشفقة فماذا علي أن أقول لأبيها عندما أراه؟ ولكنها كانت على ما يبدو لي أكثر اطمئناناً من الأم.

قلت للأم مرة ثانية:

ـ ربما كان لك الحق أن تستغربي رغبتي هذه لكنها وأنا هنا أقول الحق لن تكون مفاجأة لك كهذه المفاجأة بوجودي هنا مع ابنتك فأنا أعرفها منذ مدة طويلة.

وأكملت حتى لا تفكر الأم في أشياء أخرى لا أريدها أن تفكر فيها وإنما مضيت في حديثي:

ـ لقد رأيت سهام في منامي وكانت رؤياها حافزاً لأن أبحث عنها حتى رأيتها اليوم وبعد مضي أكثر من عام على رؤيتي لها في المنام.

ضحكت الأم وقالت وهي تنظر إلى وجه الابنة:

ـ وماذا يعني هذا الكلام؟

قلت:

ـ يعني أشياء كثيرة بالنسبة لي، أما بالنسبة لكما فلا أدري فلربما وبعد أن أرى عمي خليل قد يعني كلامي هذا شيئاً ما.

فغرت الأم فمها ونظرت إلي بعينيها وكأنها تراني لأول مرة، فقلت:

ـ لا تظنيني مجنوناً فكثيراً ما تصدق الأحلام.

ومضيت بعد أن عرفت كل شيء عن أبيها وعن ساعات تواجده في الفندق، فقد كان أبوها هو الآخر رجل أعمال كبير يمضي أوقات كثيرة في مقابلة شركائه الذين يعيشون هنا في فينا. وذهبت حتى إذا ما أمضيت الليل ساهراً، نمت قليلاً لأرى الرؤيا هذه المرة كاملة كما رأيتها أول مرة.. قمت من نومي سعيداً ومضيت ألملم ملابسي في سرعة عجيبة حتى إذا ما انتهيت استقليت التاكسي لأذهب إلى فندقهم.

في الفندق التقيت بالأب الذي كان يجلس إلى مائدة صغيرة بينما انشغلت الأم وابنتها بضيوف كانوا يزورونهما على مائدة أخرى.

وبعد السلام والكلام قلت للشيخ خليل في صوت مبحوح شعرت به وكأنه يخرج من أعماق الأرض:

ـ هل يتكرّم سيدي فيقبلني زوجاً للآنسة سهام؟

ضحك الأب قليلاً وقال:

ـ لا عليك انتظر حتى نعود إلى جدة وعندها سيكون لكل حادث حديث.

قلت:

ـ ولكني لا أستطيع أن أنتظر حتى العودة إلى أرضنا بل أريد أن أسمع منك ما يطمئن.

نظر إلى ابنته في مجلسها وطلب منها أن تأتي هي وأمها وبدأ معهما حديثاً خافتاً حاولت أن لا أسمعه، حتى إذا ما انتهى الحديث قال لي وفي كلمات صغيرة:

ـ على بركة الله!

ومنذ ذلك التاريخ وسهام زوجتي أعيش في كنفها بحب وأراها أجمل امرأة في الدنيا ولا شك.

غداً سنلتقي

أحلم كما تحلم كل فتاة ببيت وزوج وأطفال وأسرة صغيرة (على قدي) تعيش حياتها بحب وسعادة وتتطلع إلى المستقبل كمن تراه أمامها يبدو واضحاً وقد تجسدت ملامحه في ذاكرتها التي أصبحت تحاول دائماً أن تضيف شيئاً جديداً لكل هذه الأحلام التي تراودني.

ولدت في بيت فقير في مدينة صغيرة أصبحت اليوم أكبر مما أتصور. كنت وحيدة والدي، فأمي التي جاءت من ينبع النخل لتقترن بابن عمها العامل البسيط في الميناء لم تكن تدرك مدى شظف العيش الذي ستلاقيه حتى إذا ما جئت إلى الدنيا بدأت أحلامها تطفو وتكبر..

كان جل همها وأبي أن أتعلم، فلم يبخل أبي علي بشيء، منحني فرصة التعليم حتى إذا ما نلت الشهادة الثانوية بتفوق كبير قلت لأبي وأنا أبتسم:

ـ سألتحق بكلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز..

لم أدرك أنني بهذه الرغبة قد قلبت كل شيء في البيت الصغير. كان هم أبي أن يجد أي عمل في مدينة جدة ليكون هو وأمي معي أثناء الدراسة، وقد انتقل أبي إلى عمل آخر لدى واحد من أصحابه القدامى الذين أنعم الله عليهم بالنعمة.. حتى اذا ما استقرّ بنا الأمر قدمت أوراقي للكلية وقبلت فوراً لأن درجاتي تؤهلني لهذا النوع من الدراسة.

أبي أصبح مبهوراً بقبولي في الكلية، لا يرفض لي طلباً، أما أنا فقد كنت قليلة الكلام كثيرة الحركة قليلة الطلبات.

أثناء دراستي في كلية الطب تعرفت إلى كثير من الفتيات اللواتي يدرسن معي. بعضهن يعيش حياة باذخة لكنهن في الكلية بالنسبة لي مجرد زميلات. أخذت الكتاب والمحاضرة والمعمل وسيلتي في حياتي أثناء الدراسة.. لم أكن أختلط بأحد من زميلاتي اختلاطاً يجعلني أزورهن ويزرنني لم أكن أفكر عندما اخترت هذا الطريق خوفي من أن يقمن زيارتي في بيتنا.. كنت أفتخر وأعتز بأمي وأبي وأتحدث عنهما بحب إذا تهيأت لي الظروف.

في أحد الأيام قالت لي زميلتي دينا بأنها تود أن تجس نبضي فيما إذا كنت أرغب الاقتران بأخيها الذي أكمل شهادة الدكتوراه في أميركا. دينا من عائلة غنية وكبيرة ولكنها متواضعة.. قالت لي بكل صراحة بأنها لم تجد بين زميلاتي من ترتاح إليها لتكون زوجة لأخيها غيري.

لم أجب بلا أو نعم. تحدثنا كثيراً وقلت لها:

ـ قد يكون الحديث عن الزواج سابق لأوانه فنحن لا نزال طالبات، لكن في إمكاننا أن نتحدث عن هذا عندما نصل إلى السنة النهائية.

استغربت عندما وجدتها توافقني وتطلب مني أن يكون هذا وعداً مني فضحكت لكنها لم تضحك، كانت جادة، ومن ذلك اليوم أصبحت دينا صديقتي تأتي لبيتنا.. لكني أنا التي لا أذهب إليها في بيتها.. يوم طلبت مني ذلك قلت لها:

ـ وهل يمكن للخطيبة أن تزور بيت خطيبها إذا صح التعبير؟

لم تعلق على كلامي لكنني أرى صداقتها وحبها لي يزداد..

يوم كنا في السنة الأخيرة من الدراسة سألتني مرة ثانية عن الموضوع.. ابتسمت وقلت لها:

ـ سأستشير أبي وأمي..

فأمنت على كلامي لكنني سألتها:

ـ ولماذا لم يتزوج أخوك حتى الآن؟

ضحكت وقالت بشيء من الدلال:

ـ لأنه يحبك.

ـ يحبني أنا؟ وكيف وهو الذي لم يرني..

قالت:

ـ رآك بعيني وتحدث معي عنك وكأنه يتحدث معك، وزار والدك أكثر من مرة وتعرف إليه وعرض عليه عملاً في مكتب أبيه لكن والدك رفض هذا العرض.

عندما عدت سألت والدي عن كل هذه الأمور فأجابني بالإيجاب وأنه لم يكن يرغب أن يضيع وقتي في حديث زواج وأنا أدرس.. ولكن..

وصمت.. سألته:

ـ ولكن ماذا؟

قال:

ـ ما رأيك أنت؟

قلت لأبي ما قلته لدينا وضحك ولم يغضب لكني لم أجرؤ على استكمال الحديث بل مضيت إلى غرفتي وأنا خجلة أناقش أمر هذا الزواج الذي واكب مسيرتي الدراسية دون أن أدري.

ولكم كنت سعيدة لأنني حينذاك عندما كانت أخته تناقشني لم أكن أفكر في الأمر على هذه الحالة التي أفكر بها أبداً.. وجلست على سريري أتابع صور أحاديث صديقتي في صمت خلته لن يطول. لكنه كان أطول مما كنت أظن.. لقد بدأ الأمر يشغلني ويشاغل فكري وأنا الآن على أبواب نيل شهادتي ولن يكون لي عذر إذا ماسوفت أو رغبت في شيء من الانتظار.

وبدأت أحلم ككل فتاة ببيت وزوج وأطفال.. أسرة صغيرة على قدي. لكن الأمور كما أراها قد منحتني شيئاً أكبر مما كنت أحلم حتى إذا ما انتهيت من تأملاتي جاءني حديث صديقتي على التلفون.

قالت وفي صوتها شيء من الجد:

ـ سنأتي أنا وأمي وأخي لزيارتكم غداً فما رأيك؟

قلت:

ـ لا أدري لكن دعيني أسأل أبي أولاً ثم أجيبك.

وانتهت المكالمة على أمل معاودتها بعد ساعة.

أخذت أقدم رجلاً وأؤخر الثانية لكن أحلامي كلها تجسدت في شيء واحد ترى لماذا هذا الإصرار من الأخت وأخيها على هذا الموقف؟ لم أصل إلى الجواب ونسيت كل شيء إلا أن أسأل أبي وأمي.. لم أجد أبي في البيت، حدثت أمي بكل شيء فقالت لي ووجهها يمتلئ بالحب والفرحة طاغية بأحاسيسها على هذا الوجه الذي نالت منه السنوات بعض الشيء لكنها وأعني أمي لا تزال جميلة ربما كنت أراها أجمل وأكمل مني.

قالت أمي:

ـ رحبي بالزيارة، أما أبوك فدعيه لي..

قلت:

ـ كيف؟

قالت:

ـ لا أخفي عليك فهو راض عن هذا الزواج وقد منح سهيل موافقته على شرط أن توافقي أنت.

ولم تنتظر بل قالت لي:

ـ كم رقم دينا؟

أخبرتها برقم التلفون فأدارته وجاء صوتها يهلل وهي ترحب بكل الذين سيزوروننا في الغد.

أمضيت ليلة طويلة حلمت فيها بأشياء كثيرة، أحببت كأي أنثى أن أكون مرغوبة وأن هناك من يريد أن يتزوجني، وشعرت بأنني أحب سهيلاً كما أحب أخته رغم أنني لم أره.

في الغد وفي فناء الكلية تحدثت مع دينا طويلاً، قدمت لي صديقتي صورة صغيرة دفعتها إلى حافظتي الجلدية بشيء من الحب وقالت:

ـ هذا هو، انظري إلى وجهه ستجدينه أجمل مني وأعقل بكثير، وددت أن تريه قبل أن نأتي لأنه رآك، وأنا هنا أستسمحك المعذرة فلقد استطاع سهيل أن يرى صورنا مع بعض في غفلة مني حتى إذا ما عرفت بهذا الأمر عاتبته كثيراً

لكنه ضحك من كلامي وقال: ماذا تنتظرين من رجل يريد أن يتزوج؟ ألا يكفيك أنني قد وافقت على الاقتران بها بعد أن عرفت عنها ما عرفت منك أنت؟

أمسكت بالصورة بين أصابعي وضغطت عليها وتمنيت أن أراها إلا أنني خجلت، فهمت دينا الموقف وقالت:

ـ تعالي.

ومدت يدها لتأخذني إلى الكرسي الفارغ الذي انتصب في الساحة فجلسنا أنا وهي وامتدت يدها إلى الصورة وكأنها هي التي ستتزوج وليس أنا.

أقول لكم الصدق، ارتحت للصورة وأحسست بالنشوة فهذا الشاب الذي عايش الفتنة في أمريكا رفضها ليتزوج مني أنا الطيبة الفقيرة.

ومضيت أحلم لفترة من الوقت حاولت خلاله صديقتي أن تحترم صمتي حتى إذا ما عدت إلى طبيعتي ودعتني قائلة وهي تبتسم:

ـ غداً سنلتقي... غداً سنلتقي..

عندما يأتي الغد

ارتبطت ذكريات دلال بأحلام الغد فبدت في جلستها تلك على كرسيها المفضل بين أشجار الليمون وكروم العنب وأزهار الفل والياسمين، تنظر إلى المجهول بعين نافذة حملتها أشياء كثيرة كانت تختزنها في الذاكرة منذ ذلك اليوم التي شبت عن الطوق وعرفت قدماها طريق الحياة في ظل أنوثة طاغية ووجه خمري اللون، وعينين سودوان واسعتان، وشعر أسود حالك كظلمة الليل وأهداب طويلة يكاد الإنسان يحسها ويحس وقعها وهي تنظر إليه.

الحياة كما يقولون ملآى بالمصادفات وهي لكثرة ما سمعت عن تلك المصادفات في حياة زميلاتها أصبحت تشكك كل الشك في وجود المصادفة في حياة الإنسان، وتعتقد أن افتعال الحادثة وإظهارها بمظهر المصادفة هو بلا شك من صنع البشر الذين يهمهم دائماً أن يلقوا باللوم تارة وبالاستحسان تارة أخرى على هذه المصادفات.

وهي تعتقد أن العالم أصبح أكثر التصاقاً، بعضه ببعض، عن ذي قبل؛ فلطالما تحدثت إليها الجدة هداية عن الماضي وأحوال زمان وقصص النساء وحكايا الرجال في ذلك العالم الذي كان يعيش بعقله وعاطفته يوظفهما في كل أموره ويغلب عاطفته ليأتي عمله مضمخاً بعطر العود ونسيم الند، ورائحة الكاري.

وهي تختزن الكثير من الحكايا والقصص، بعضها رأته على الطبيعة وبعضها موغل في القدم لكنها تأخذه بصدق وتتعامل معه بصدق وعفوية.. عندما كانت صغيرة وكانت تعيش في بيت كبير في

منطقة تعج بالنخيل بالمدينة المنورة هذه المنطقة التي كان اسمها العوالي والتي لم تعد كما كانت انغرست على أرضها مئات العمارات وضاعت ألوف الأشجار من النخيل، هذه النخلة التي يعتبرها أبناء المدينة من أهم ما يزرعون وأفضل ما يأكلون. .

عاشت طفولتها في يسر حتى إذا ما تغيرت الحياة وانتقل بيتهم من بستان العوالي إلى طريق الهجرة في محاولة من أبيها لأن يعيد معالم ذلك البستان الذي إضطر لبيع أرضه بعد أن بلغت قيمته الملايين، لكن بيتهما الجديد لم يكن مريحاً بالنسبة إليها كالأول.

كانت تتحدث لنفسها بألم وتقول: لماذا يبيع الإنسان بيته مقابل حفنة من المال يستطيع أن يجمعها من هنا وهناك؟ يوم قالت لأبيها ما قالت، ضحك في وجهها وقال:

ـ الحياة يا بنتي غير ما تتصورين، فلقد ولدت في بيت كبير في الساحة ذهب كما ذهب بيتنا في العوالي لكن البيت الأول كان أفضل حالاً لأن أرضه أدخلت في المسجد.

العالم يكبر حيناً ويصغر في عينيها أحياناً أخرى. عندما سافرت مع أبيها والأسرة إلى كان على الريفيرا الفرنسية ذهلت لأول مرة لما رأت ثم تعودت مناظر النساء الكاسيات العاريات اللواتي يتبخترن في الطريق يتمنين أن يقوم مصور هاوٍ بتصويرهن، فهن يعتقدن أن المستقبل في العمل في السينما والسينما لا تأتي بدون أن يلتقط لإحداهن الصورة، والصورة كثيراً ما تغري لصور أخرى تسمح خلالها المرأة بأشياء كثيرة قد تراها متناقضة مع الحياة التي عاشت.

يوم التقت بفتاة مغربية تغطي رأسها على درجة كبيرة من الجمال أمسكت بيدها وطلبت منها أن تجلس معها قليلاً لتتحدث معها، فالجمال كما سمعتهم يقولون هو جواز المرأة لعالم الشهرة وهذه الفتاة من أجمل ما رأت عيناها.

عرفت منها أنها طالبة في السوربون تعمل في الربيع والصيف في فنادق كان كخادمة تتناول مرتبها لتعيش بنصفه وتخبّىء النصف الآخر ليقيم أودها عندما تعود إلى مقاعد الدراسة. سألتها:

ـ ولكنك جميلة وجمالك نادر لم أر مثله، وعن طريق هذا الجمال

ستجدين من الأعمال ما يغنيك عن هذا العمل. .

ضحكت الفتاة وقالت:

ـ لا عليك لو جربت نوع الحياة التي تمارس مع المرأة في هذه الديار المتحضرة لعرفت أنهم يريدونها لعبة يستطيعون أن يصنعوا منها ما يريدون وفي ظل أهوائهم ورغباتهم. ولقد جربت العمل في أماكن عدة خرجت بعدها من هذه التجربة بأن أفضل عمل يمنحني الراحة وبعضاً من المال ما أمارسه أخيراً، فأنا أنثى أريد أن أحافظ على فضيلتي، وفضيلة المرأة في عالم الرجال لا وجود لها إلا في أذهان أولئك اللواتي يظن بعضنا أنهن وصلن إلى ما يردن ولو عرفت المرأة حقيقة هذا الوصول لاشمأزت.

عالم الرجال غابة والمرأة هي الفريسة دائماً وأنا لا أرضى لنفسي أن أكون الفريسة. . ولا أكتمك فمعي في الدراسة العديدات ممن ضللن الطريق فأصبحن وقد أضعن حياتهن لأن الوصول إلى القمة له ثمن فادح.

دنيا الرجال في العالم المتقدم غابة مفروشة بالزهور تطبق على المرأة لتدخلها بقسوة قفصها الزمردي، حتى إذا ما أقفل عليها باب القفص أصبحت مجرد سلعة، يحاولون عن طريق هذه السلعة اكتناز المال كما يجري مع عارضات الأزياء وبطلات السينما والمسرح والرقص وغيره، ويوم تعود هذه المرأة إلى نفسها تجد أنها أضاعت أجمل سنوات عمرها في لهو صاخب لا يعود على حياتها الباقية بأي نفع.

أوروبا هذه القارة القديمة التي تفتح ذراعيها للجمال شاخت وكبرت، وبدت في نظرها كالمرأة القبيحة التي أضاعت كل شيء ولم تكسب شيئاً ربما لأنها من مجتمع يعرف كيف يصون المرأة، وربما لأنها إنسانة يعشعش في قلبها هذا الإيمان العارم الذي يجعلها تحب ما يحب وتكره ما يكره. .

وهي في مقعدها تتذكر كل هذا ففي الغد سيأتي وليد، هذا الذي اختارها عن عمد وسابق إصرار زوجة له تجوب معه آفاق هذه الدنيا التي تحس بأنها على الرغم من كل مباهجها غريبة عنها كل الغرابة.

ولكن ترى ماذا يخبىء القدر لها وله هي التي حاولت رغم حبها له أن تصرفه عن العمل خارج سربه (أرضه وبيته)؟

كان يضحك باستمرار ويذكرها بأن الفرصة مواتية له ولها لأن يكملا دراستهما وينالا شهادة الدكتوراه وهو يعمل وهو أمل لطالما داعب خياله ويسري في عروقه.

أمها تنظر إلى سفرها بكثير من الخوف فهذه هي المرة الأولى التي يغيب القمر عن بيته هكذا كانت تقول. وهي تضحك من كلام أمها وتذكرها بالمجد الذي ينتظرها وزوجها بعد سنوات قليلة عندما تنال شهادة الدكتوراه. . ستعود إلى البيت وإلى الأسرة إلى المدينة وإلى جدة التي تحبها من كل قلبها فهذا البحر الأزرق الغامق يعيش دائماً في قلبها. . هي التي شغفت حباً بلون الشاطئ اللازوردي عندما طالعها لأول مرة.

نيويورك عاصمة التجارة والمال، هذه المدينة التي تغشاها لأول مرة، كانت أشبه بالمشدوهة وهي تدخل إلى شقتها في ماتهاتن قريباً من حي السفارات التي تضج عادة بعوالم من الناس من كل لون وجنس وأرض.

لم تكن تظن أنها قادرة على معايشة الركض في هذا العالم الجديد لكن الأيام والشهور والسنوات التي قضتها هناك منحتها القدرة والقوة لأن تواصل مسيرتها في البيت بعد أن وافق زوجها على تأجيل الإنجاب وجامعتها التي التحقت بها هي وزوجها.

وتمضي في مسيرة العلم غير هيابة أو وجلة، فقد استطاعت أن تحقق أول نجاح بنيلها شهادة الماجستير تلك التي احتفلت فيها مع أصدقائها بهذا النجاح بعد شهور سبعة استطاع زوجها أن يجتاز امتحان هذه الشهادة وأن ينالها بعد تعب لكنه بعد ذلك اكتفى بما ستحققه زوجته من نصر.

في بادئ الأمر كان يحثها على الاجتهاد ويدفع بها لأن تواصل الدراسة كما كانت هي الأخرى تدعوه إلى مواصلة دراسته وكأنها تقول له يجب أن لا تتوقف وأنت الذكي القادر على اختيار ما تريد فأنت الذي اخترت هذا النوع من العمل على أمل أن نعود إلى الوطن وقد تكلل جبيننا بالغار.

وتواصل الدراسة، ويواصل هو العبوس والقنوط على الحياة التي يعيشها حتى جاء ذلك اليوم الذي طالبها فيه بأن تتوقف عن الاستمرار في هذه الدراسة لكنها لم تقتنع وناقشته بهدوء، لكن هدوءها أشعل مراجل الغضب في نفسه

وامتدت يده إلى فازة من البللور قذفها بها لكنها تفادتها بشيء من العصبية جعلها تدرك بأن الأمور أخذت تتأزم بينها وبين زوجها.

فكرت مراراً أن توقف دراستها بعض الوقت فلربما استطاع في هذه الفترة أن يستعيد توازنه، لكنها لم توفق وأصبح زوجها أسير عادات جديدة جعلتها تدرك بأنه بدأ يملها ويمل الحياة معها فقررت أن تعاود مسيرة الدراسة فلربما كانت شهادتها التي ستحصل عليها بعد أن كثرت خناقات زوجها وتغيبه عن البيت وسهره خارجه، فمضت وهي واثقة على أنها قادرة للفوز بهذه الشهادة.

قبل أسبوعين من تقديم رسالتها افتعل زوجها معها خناقة كبيرة دفع بها لأن تغادر البيت بعد أن أمرها بذلك وها هي تعيش مع صديقة لها من بلدها كانت هي الأخرى تدرس في نفس الكلية.

افترق عنها زوجها لأسباب لا تدري ما هي، فقررت هي الأخرى أن تمضي في مشوارها العلمي بلا خوف تبحث عن المعرفة بأظافرها.

العالم بالنسبة إليها أصبح ضيقاً جداً رغم رحابته، ولكم كان غريباً أن يتغير الرجل ولأسباب لا تدريها زوجة مثلها، ولقد حاول معها كثيراً أن يثنيها عن المضي في دراسة الدكتوراه حتى إذا لم يوفق اختار هذا الأسلوب الذي أصبح مؤلماً بالنسبة إليها.

ومضت تفكر كثيراً في هذا الذي جرى معها، ترى أيكون كل الرجال هكذا؟ والتفتت إلى صديقتها تسألها رأيها في هذا الذي حصل فقصت عليها باختصار قصة غريبة لم تكن تدري أن هذا الذي جرى مع صديقتها يمكن أن يجري مع إنسان من بلادها وأرضها فزوج صديقتها اختار البقاء في أمريكا بعد أن ارتبط بفتاة أمريكية لا مؤهلات لها سوى جنسيتها وعندما طفح الكيل بامرأته قالت له:

ـ ترى أتدري ماذا تقوله عني صديقاتي؟

قال:

ـ ماذا يَقُلْنَ؟

قالت:

ـ يَقُلن بأن الزوج ليس دائماً آخر من يعرف وإنما الزوجة، ولكن ثق بأنني أعرف كل ما فعلت مع هذه الفتاة، ولم أصمت بل تحدثت مع نفسي في هذا الأمر فأنت تعرف بأنني أنا وأنت هنا لشيء واحد هو أن نتعلم ونعود إلى مدينتنا لنقدم المعرفة لمواطنينا.. قد أكون أنا التي وفقت وقد تكون أنت الذي فشلت ولكن مع كل فشلك هذا فسأظل الوفية لك.. فلربما منحتك الأيام القادمة فرصة أخرى.

قال وهو يضحك:

ـ وهل هناك فرصة أكثر من أن أبقى هنا في مدينة الحرية.

ـ وأنا!! قالتها بلهفة.

قال:

ـ ستعودين حتماً إلى البلاد وستجدين طريقك بما حصلت من تعليم: وستتزوجين رجلاً آخر غيري بعد أن أطلقك.

ـ ولكني لا أريد أحداً غيرك.

قالتها بصدق.

ضحك مرة ثانية وقال:

ـ لا تظنيني أحمقاً مفتوناً بك؟ لقد أهدتني الظروف إلى المرأة التي أحبها ويكفيني هذا.

ـ ولكنك ستظل مغموراً في بلد غير بلدك ومع امرأة لاتعرف تقاليد بلادك وعاداتها.

ـ ومن قال لك بأنني أريد تقاليد بلادي وعاداتها؟ لقد طفح الكيل بالنسبة لي وأصبح من حقي أن أعيش كما أريد لا كما تريدين أنت؟

ومن الغد جاءتها ورقة الطلاق بعد أن أعدها زوجها بشهادة صديقين يعرف زوجتيهما.

بكت لفترة ثم عادت لرشدها وقررت أن تستكمل دراستها ثم تعود. تحدثت في ذلك لأبيها وأخيها وأسرتها التي وافقت على الفكرة وها هي تعيش اليوم ليس وحدها كما كانت وإنما مع صديقة لها ضاق بعلمها الزوج فرأى أن يخرجها من دائرته وما أظلم الزوج عندما يقسو على زوجته بلا سبب.

لم تعد من نصيبه

ويمل الحياة، يرفض أن يعيشها، كما هي.. بعد أن اختار لنفسه أسلوباً تميزت به خطواته. ويحس بأن العالم يأبى أن يستظل بنوره ضعيف أو حتى محزون، وتتشكل قناعاته بأسلوب آخر يغاير كل ما كان، فلا استسلام ولا خنوع ولا رضوخ لمغريات يمكن الحصول عليها.

وتمتلىء جوانح نفسه بأشياء كثيرة ارتبطت في ذاكرته وأطلت في لحظة أمل، جسدتها إرادة قوية وعزيمة رائدة صنعت في قلبه جسوراً وجسوراً ارتقت راياتها تستنفر عزائمه ليلقي بثقله في جوف هذا المارد الهائج يجدف بساعديه في قوة من يدرك بأن الحياة أية حياة لا ترضى لصاحبها أن يستسلم، فالاستسلام للهزيمة هو أكبر من كل معاني الهزيمة، والناس هم الناس.

وينظر إلى المرآة لتطالعه صورة وجهه الذي عرف وقد تلون بشتى أحاسيس الرغبة للهيمنة على الواقع المعاش دون أن يدرك أن الدنيا هي الدنيا، وأن كل هذا القلق المقنع يبدو وقد فقد وسائل إقناعه وانتهت كل روافده وأصبح شيئاً ممجوجاً يغمر قلبه الذي أخذ يخفق لتظهر دقاته في رتابة مملة هي الأخرى.

في دنيانا نعايش الفرحة ونقتسم الألم، أما الأمل فذاك أمر لا يمكن أن نفرط فيه إذا ما عرف طريقه إلى قلوبنا، ففي غمرة البحث عن الذات تطل ذكريات الأمس صغيرها وكبيرها وكأنها قد رسمت على شفتي فتاة لم تتعد العشرين من العمر، ويتذكر كم أحب وهو في تلك السن الغضة. لكنه وبعد أن كبر أصبح يحب نفسه، ومن طرف

واحد لا يشاركه في حبها حتى كل أولئك الذي أحبهم.

ويتذكر. . . ترى أين هي تلك التي شغلته حيناً من الدهر؟ لم يزل اسمها محفوراً في ذاكرته، فكل شيء في وجهها يثير التفاؤل فهي أكثر من جميلة وأكثر من أن تكون أنيقة، وأعظم من أن تكون فاتنة وهي جد متفائلة تمنح شعرها الأسود الداكن الحرية بأن يختار المكان الذي يستقر عليه. . يداعب أمواجه الهواء، يتنقل كغجرية عرفت كيف تعزف على أنغام قيثارتها القيمة أجمل البشارف وأنعم الطقاطيق.

وجهها الأبيض كلون الفجر وشفتاها كلون الكرز الناضج وعيناها بحيرتا سكون هادئة يتوه الملاح بين دروبها عندما يخطر بباله أن يرتادها، وهي فوق دلك كله امرأة مثقفة ملأ كلامها أنهار الصحف وفوق ذبذبات الأثير وسطورها تتداخل بين أسلاك التلفون وأمواج الفضاء.

يخال من يلقاها كأنما يلتقي بجوهرة صاغها فنان ملهم، تفرض عليك شخصيتها الاحترام والمهابة، ويقودك حديثها إلى بحور العلم والمعرفة. لها في كل مدينة زارتها حكاية ولها فيها رأي تجيد عرضه بابتسامتها المتألقة وطلتها الأنيقة. تختار ملابسها بعناية وتناسق وحشمة وهي من أقدر النساء على مزج الألوان والأشكال عندما تخط بريشتها على قطعة قماش.

لطالما عاش يرقب الفتنة وهي تسير على الأرض معلنة عن لقاء لم يتم لا لأنها أخلفت الموعد ولكن لأنه لم يكن قادراً على دعوتها لأي موعد رغم أنه كان يراها بحكم الصلة العائلية التي تربط بين أسرتها وأسرته.

تلك أيام مضت، ذهبت ولم يذهب رواؤها وبقيت في قلبه أشياء كثيرة يذكرها رغم أنه يود أن لو نسيها منذ زمن، فلقد غدت تلك الفاتنة جزءاً من التاريخ، ظن كذلك حتى إذا ما التقى بها هناك وهو في طريقه إلى المقهى الذي تعود على ارتياده عندما كان طالباً في سان جرمين في باريس هناك وجدها هكذا فجأة ودون سابق إنذار تتراءى بعينيه في لهفة من أحب أن يلقاها رغم سنوات الغربة التي عاشتها هي بعيدة عن وطنها تتلقى العلم في عاصمة الضباب لندن.

كان يعرف عنوانها ورقم تلفونها من أخته لكنه لم يكن قادراً على أن

يتحدث إليها فتقاليد الأسرة والمجتمع تمنعه أن يفعل.

عندما رآها تهلل وجهه وانبسطت أساريره ومد يده محيياً لكنها لم تكن هي، كانت أشبه بمن عرف غير أنها من بلد غير بلده وأرض غير أرضه، وآثر أن يقف مشدوهاً للشبه الواضح مما جعل الفتاة تدرك أنه لم يكن ينوي المعاكسة، اقتربت منه وقالت له في عربية لم تكن واضحة:

ـ إذن كنت تظنني هي.

لكنه لم يجب، آثر الصمت وإن كانت هي قد آثرت الثرثرة.

دعته لفنجان قهوة، فلم يمانع، ذهب معها وكأنه قد نوّم مغناطيسياً وألقى بجسده على الكرسي الصغير الذي أخذ يئن تحت ثقل جسده وبلل شفتيه بشيء من لعابه.

شعر بعدها بأنه قد استرد وعيه، فتأسف، لكنها لم تقبل عذره إلا بعد أن تسمع حكايته، وعندما تحدث إليها وكأنه يعرفها من عشرات السنين ضحكت تلك الجزائرية الحسناء وقالت:

ـ لا عليك ربما استطعت أن أحتل مكانها بعضاً من الوقت أستطيع خلاله أن أسري عنك.

أجابها وبمغمغة:

ـ ربما ربما.

وشاقه أن يستمر في الحديث إلى أنثى الطريق حديث الصديق للصديق وعندها أحس بشيء من الاطمئنان، استرد معه بعض عافيته.

سان جرمين تموج بزوارها من جميع الأجناس.

والطريق مبلل بمياه المطر الذي أخذ يتساقط في غزارة، والناس من حوله يعايشون حياتهم بأساليبهم، وهو إلى جانب هذه الغريبة في مكاشفة علنية حاول خلالها أن يزيح عن قلبه آثار الماضي، ولكن حتى هذه اللكن لم تعرف طريقها إلى عقله. فماذا يضيره إن عرفت أنثاه ما يفضي به إليها؟ وما يدريه أنها ستتركه بعد لحظات وأنه لن يراها بعد هذه الجلسة؟

طرد هذا الهاجس عن نفسه وأحس بثقل ظله وهو يفكر فيه وعاود النظر

إلى وجهها في عفوية حاولت هي من جانبها أن تمتصها بهدوء لكنه أطال النظر إلى عينيها مما جعلها تضحك وهي تسأله:

ـ ترى أهناك فارق كبير بين عيني وعينيها؟

ـ لا..

قالها بسرعة عجيبة وأدرك أنه استعجل الإفضاء بكل ما قال، لكنه لم يبال وتابع توجسه خوفاً من أن يفقدها كما فقد الأخرى.

قال بعجلة:

ـ هل يمكن أن نظل أصدقاء؟

قالت وفي شيء من الخجل:

ـ ولماذا تريدنا أن نكون أصدقاء؟

قال:

ـ لا أكتمك لقد أعجبني شيء فيك فهذه هي أول مرة أجد فتاة تتجاوب للحديث معي بهذه السرعة ولقد عزوت ذلك إلى الغربة فأنا وأنت غريبان عن هذه المدينة.

ابتسمت في سخرية وقالت:

ـ ومن قال لك بأنني غريبة.

ـ جنسيتك فأنت كما عرفت جزائرية وهذا يعني أنك غريبة عن هذه الديار.

ـ لا..

قالتها في تشفٍ، وتابعت:

ـ فأنا ابنة هذه الأرض رغم دمائي الجزائرية أحمل جنسيتها.

ـ ولكن اسمك مريم كما عرفت.

ـ نعم مريم بالنسبة لأبي وماري بالنسبة لأمي وأنا أميل للاسم الذي تحبه أمي فهي فرنسية مثلي.

قال وفي شيء من العبوس:

ـ أتتنصلين من جلدك؟

ـ لا . .

قالتها فجأة، ثم تابعت:

ـ لكنها الحقيقة فأنا لا أعرف الجزائر وأبي هو الآخر لا يعرفها لأنه ولد هنا، على مقربة من هذا المقهى في بيت صغير كان يملكه أبوه.

ـ وأين والدك الآن؟

ـ ذهب إلى أمريكا بعد أن تركني وأمي وأختي.

ـ ولماذا ذهب؟

ـ ربما كان يبحث عن الذهب مثله مثل غيره.

ـ ولكنه لم يعد.

ـ وكيف يعود من قضى نحبه في الغربة؟

ـ وتعرفين هذا؟

ـ نعم، عرفته أمي من زوجته الألمانية التي زارتها بعد خمسة عشر عاماً من غيبته، كان قد أعطاها اسمها وعنوانها وكنا نعيش في الشقة نفسها فلم تجد تلك الزوجة صعوبة بأن تتحدث.

ـ وتحدثت معها؟

ـ لا، لأنني لم أكن موجودة، كنت أعيش في القسم الداخلي في مدرسة من مدارس الضواحي.

أمي أرادت ذلك لي ولأختي لتستطيع أن تتدبر أمرها لأنها كانت جميلة وعارضة أزياء في آن واحد، وأنت تعرف ما يعني أن تكون المرأة جميلة وعارضة أزياء.

ـ وأختك ماذا تفعل؟

ـ تزوجت، أخذها زوجها إلى البرازيل.

ـ وأنت، لماذا لم تتزوجي؟

ـ لأن أحداً لم يخطبني بعد، ما رأيك لو خطبتني أنت؟

ـ وترضين؟

ـ لا . .

ـ ولم؟

ـ لأنك غريب وتريدني أن أعايش الغربة وأنا كما ترى أكره الغربة.

ـ وماذا تعملين هنا؟

ـ نفس مهنة أمي؟

ـ ولكنك جميلة جداً.

ـ وهل يقبلون في باريس أو غيرها عارضة أزياء غير جميلة؟

ـ ربما يكتفون بأن تكون العارضة صاحبة جسد رائع، ووجه جميل أيضاً.

قالتها بسرعة أكبر من تلك التي رفضت بها خطبته.

شرب القهوة مرات ومرات حتى إذا ما جاء موعد عملها استأذنت منه لكنه قال:

ـ أود أن أراك.

ـ لا بأس غداً في نفس المكان فأنا أحب هذه القهوة.

ـ ولكني أريد عنوانك وتلفونك.

ـ ولماذا تريدها؟

ـ لأنني أريد خطبة أمك ما دمت أنت ترفضين خطبتي.

قالها بمرح، لكنها لم تلتفت إلى مرحه وإنما أملته بسرعة عنوانها وتلفونها وقالت له:

ـ تعال قبل موعدنا بساعة لترى أمي فربما أعجبتك وكان حظك من السماء لو قبلت أن تتزوجك.

ومدت يدها لتودعه فنظر إلى وجهها المرة تلو الأخرى وشد على يدها وتركها تخرج وبقي هو واقفاً في مكانه ينتظر وهي تخطو في الشارع برشاقة، وعاد هو إلى فندقه في تاكسي تقوده امرأة إلى جانبها كلب ضخم، أحس بضيق وهو يشم رائحة الكلب وهي تختلط بعطر المرأة الرخيص.

في الفندق استعاد حديثه مع الفتاة وشعر براحة عجيبة وقام لأول مرة في

هدوء يحلم بالغد الذي سيأتي حتى إذا ما جاء. نثر الماء على جسده في الحمام الصغير وأمسك بسرعة التلفون يثرثر مع صديقه الحميم إبراهيم الذي تركه في جدة يرمق الفجر وهو يسطع نوره وهنا على مقربة من البحر الأحمر عشقه وحياته، فلكم حاول أن يزيل ملله بأن يشاركه هواية الغطس التي يجيدها، والذي كان يمضي ساعات في قاع البحر يحادث جنياته في شوق المحب الذي يلثم الأرض إرضاء لتلك التي أحبها.

جاءه صوت صديقه مستنكراً أنه يهاتفه في هذه الساعة المبكرة، وهو يقول:

ـ ترى ما الذي أصابك حتى تنهض من فراشك مبكراً على غير عادتك؟

وأجابه بهدوء:

ـ هي السبب.

ـ من.

ـ التي أحببت.

ـ ماذا تقول يا رجل؟!

ـ لا، لكنها مثلها، لقد التقيت بها بالأمس وتحدثت معها.

ولم يترك لصديقه مكاناً للدهشة بل قال:

ـ هي جزائرية، يوحي شكلها الأنيق بأنها صورة طبق الأصل ممن أحببت علاوة على أنها امرأة طيبة.

ـ ما دام الأمر كذلك فلماذا لا تتزوجها؟

قال:

ـ سأفعل لأنهي هذا الملل الذي أعايشه.

فقال صديقه:

ـ وتأتي بالقرف الذي يطرد الملل ليأتي من بعده الاكتئاب الذي تخافه وأخافه أنا.

ـ لا.

قالها وهو واثق.

ـ السعادة يا صديقي تمنح الإنسان جداراً واقياً من الأمراض يجعله لا يفكر في شيء في هذه الحياة إلا فيها وأنا سعيد، سعيد جداً يا صديقي.

وأقفل السماعة، ليعاود طريقه إلى الحمام مترنماً بكلمات أغنية أحبها عندما كان طالباً في جامعة القاهرة.

لكن شيئاً أوقف ترنمه بالأغنية، ربما ظن أنها لن تأتي لتلقاه رغم أنها قالت ستحضر، ولكن ما يدريه أنها صادقة؟ ربما أرادت بكلماتها تلك أن تنهي حديثها وتذهب.

عبس وجهه وتغيرت ملامحه، وبدأ الملل يتسرب إلى كل جسده بعد أن انفرجت أساريره فترة من الزمن خالها أنها ستظل كذلك ولكن ليدع كل هذه الأفكار جانباً ويعود إلى بشاشته فلماذا هو هكذا دائماً يستبق الأحداث؟ أحس بشيء من الراحة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير ومضى صامتاً ينتظر ساعة اللقاء ينظر إلى الساعة التي يراها لأول مرة تطل من جدار غرفته ليجد عقاربها لا تتحرك، ربما هي الأخرى تحاول أن تستهزىء منه ومن هذا الإحساس الذي يغمره.

فبمجرد أن يرى شبيهة تلك التي أحب يقع هكذا في غرامها، ولماذا...

باريس مدينة تعشق الحركة وتكره الرتابة.. كل شيء فيها مثير حتى أولئك المتسكعات في الطريق وهن يرمقن نوافذ الحوانيت بحب وبكره أيضاً، لكن الحب والكره عند المرأة الباريسية لا يصل مطلقاً إلى درجة الحقد. فالحقد بضاعة مردودة في عالم الإنسان في هذه المدينة التي لا تنام. التاكسيات صغيرة وضيقة لكنها جديدة بعض الشيء وهو في طريقه إلى مقهى سان جرمين تحدوه الرغبة بأن يلتقي بها ويعرض عليها قلبه وشبابه وعاطفته ويطلب منها أن تقبل أن تتزوجه فلقد استقر عزمه على أن يقترن بها حتى وإن لم ترض أن تذهب معه إلى بلاده سيبقيها هنا في باريس قريبة من أمها ومن قلبه.. ينتظر الفرصة التي لا بد وستأتي وعندها سيحملها إلى بيته في جدة ويطير.

في المقهى كانت هناك فتاتان في عمر الورد عبست إحداهما في وجهه وابتسمت الأخرى لكنه لم يكن يهمه لا تلك التي عبست ولا الأخرى التي

ابتسمت، حتى إذا ما طالت جلسته هلت عليه بقامتها تمسك في يدها امرأة أكبر قليلاً منها لكن الشبه بينهما واضح لدرجة كبيرة.

اتجهت هي بعينيها إليه واتجه هو إليها بقلبه، مد يده ليمسك بيدها في شوق حتى إذا ما طالت ملامسته ليدها استدارت إليه وقالت:

ـ أمي. ثم عاودت كلامها:

ـ نعم أمي.

حاول أن يتكلم لكنها لم تدعه يفعل بل قالت وهي تبتسم:

ـ كنت تظنها أختي أليس كذلك؟

وبهزة من رأسه أشار بالإيجاب، لكنها استكملت الحديث وقالت:

ـ قد أخبرتها بحكايتك فشاقها أن تراك.

قال وفي شيء من العصبية:

ـ لا بأس.

ورحب بالمرأة التي انفرجت شفتاها عن ابتسامة جعلته يقلب ناظريه بين الأم والابنة حتى إذا ما طالت نظرته ضحك في شيء من الهدوء وقال:

ـ لم أكن أظن أن أمك مثلك هكذا جميلة.

شكرته الأم واختارت كرسيها بجانبه بينما اختارت الابنة الجانب الآخر وكان مواجهاً للباب الذي أخذت ترقبه بحذر فسألها.

ـ أتنتظرين أحداً.

ـ نعم.

قال:

ـ من؟

قالت:

ـ خطيبي الذي عاد فجأة من الجزائر.

ـ ولماذا يعود اليوم؟

قالها في ابتسامة صفراء.

ـ ألم تقولي إن بإمكاني خطبتك؟

ضحكت الأم ولم يكمل هو الحديث بل مضى يفكر في كل ذلك الذي قاله لنفسه فلم يجد الجواب لكن الجواب جاءه فجأة على غير ما يتوقع فقد انتصب أحدهم أمام الطاولة وهو يبتسم فأشارت إليه الصغيرة وقالت:

ـ خطيبي كما ترى جزائري يعرف العربية ويجيدها أكثر منك.

مد يده بلا مبالاة للرجل الذي أمسك بها يهزها في قوة حتى إذا ما انتهى منها ألقى بنفسه على الكرسي، وأخذ يتحدث إليه حديثاً شك أنه فهم شيئاً منه فقد كان يفكر ويفكر واهتدى إلى حل واحد هو أن يهرب من هذا الواقع الذي اصطدم به لكنه لم يدر ما يفعل، أحست الفتاة بالحرج الذي أصابه وأدركت أنه قد أحبها فرأفت لحاله وقالت له:

ـ لو لم أكن مخطوبة لما تزوجت غيرك.

قالتها بإنكليزية تخللتها لكنة فرنسية.

نظر إلى الرجل فوجده يبتسم فسأله:

ـ أتعرف الإنجليزية؟

أجابه الرجل بالنفي فحمد الله.

ووجدها فرصة لأن يقول لها كلمات وكلمات قالها كشاعر واستمعت هي إلى كلماته كأنثى حتى إذا ما انتهت مد يده إليها مودعاً وأطبق بكلتيهما على يدها البضة الصغيرة بينهما أمسكت يده الأخرى بيد الأم وقال لها متضاحكاً هذه المرة:

ـ عندك عنواني، فلربما غيرت رأيك في هذا الخطيب.

وأشار إليه.

ـ وعندها ستجديني تحت أمرك.

قالها وهو لا يدري كيف قالها لكنها خرجت هكذا من بين أسنانه مما جعل الأم هذه المرة هي التي تضحك وتقول في شيء من العبث:

ـ ربما كانت هي أو كنت أنا من نصيبك.

قال للأم:

ـ ماذا تعنين؟

ضحكت وقالت:

ـ لا شيء.

لكن هذا اللاشيء أضاع من بين يديه فرصة العمر وأصبح مجرد ذكرى فلقد هربت منه الأولى وهربت منه الثانية، ولم تبق أمامه سوى الأم التي التفت إليها متسائلاً:

ـ وأنت ما هو رأيك؟

ـ في ماذا؟

قالتها الأم بريبة.

ـ في أن نتزوج أنا وأنت.

وضحك فلم تعقب المرأة وإنما نظرت إليه نظرة من لغة الغضب فلم يجد فرصة سوى أن يهرب إلى الطريق بعد أن لوح لهما بكلتا يديه حتى إذا ما هدأت حركته نادى بأعلى صوته:

ـ تاكسي.. تاكسي...

لكن سائقة التاكسي في هذه المرة لم تجبه هي الأخرى إلى طلبه ومضت بسيارتها تنهب الطريق إلى بيتها بعد أن أنهت ساعة عملها في هدوء.

سهى فتاة لا تتكرر

رحلت سهى عن مدينتنا فجأة. قالت إنها لن تعود إلينا إلا بعد أن يمنحها الله المال الذي تستطيع من خلاله أن تعيش كما يعيش بقية الناس، ولقد ذاقت مرارة الفقر فلم تستحملها وعانت أمها من تعب العمل ما جعلها تخاف عليها بعد أن وصلت إلى سنها الكبيرة.

الذين يعرفون سهى مثلي يدركون أن أباها عندما جاء مع أمها وهي صغيرة ولأداء فريضة الحج وزيارة مسجد الرسول عليه السلام لم يكن يدرك بأن الأسباب قد تقطعت بينه وبين أسرته فهو وإن كان إنساناً بسيطاً في كبره إلا أنه كان يملك من مقومات الحياة ما يكفيه شر العوز لقدرته الفائقة على صناعة الذهب ومشتقاته تلك التي تحبها النساء في كل مكان، لكن الموت كان أقرب إليه من العودة إلى بلاده تونس، فأبت أمها أن تعود وظلت تعيش في مدينتنا وهي تدرك مدى شظف العيش الذي سيلازمها هي المرأة الوحيدة التي لا قدرة لها ولا استطاعة على مواكبة الحياة بالأسلوب الذي كانت تواكبه وهي متزوجة.

أهلها وأهل زوجها في تونس سألوها العودة فلم ترض وبقيت ترمق الفجر يطل من عيني سهى وهي تكبر، وهي عنها غير لاهية تعمل بجد لتهيىء لها ما يتسنى لها أن تهيئه حتى كبرت تلك الصغيرة وتخرجت معنا من المدرسة الثانوية.

الذين عرفوا سهى يدركون جمال هذه الفتاة وكمالها وقدرتها على مساعدة الآخرين رغم مظاهر الفقر التي ارتبطت بها وأمها طوال مراحل حياتهما في المدينة. كانت أمها أشبه بمن يحفر بأظافره في

الحجارة لتصل ابنتها إلى ما وصلت إليه حتى إذا ما أصبحت على وشك الدخول إلى الجامعة تجمعت الأسباب لتحرمها من فرصة الدخول كما أن أمها ليس بمقدورها أن تبعث بها إلى جامعة قريبة في مدينة أخرى في هذه الظروف.

وصلت لسهى رسالة من إحدى صديقاتها تعرض عليها الموافقة على العمل في بيتها كمرافقة لجدتها العجوز بمرتب لا بأس به دفعها وأمها لأن تنتقل من مدينتنا إلى جدة، حتى إذا ما مضت أكثر من سنوات ست على غيابها وأمها، علمت بأن سهى قد تزوجت وأن زوجها قد سافر برفقتها إلى أمريكا لإكمال دراستها هناك.

سنوات مضت وانقضت على تلك الفتاة التي قاست كثيراً حتى إذا ما ابتسمت الحياة لها بعد سنوات خمس عايشت فيها العجوز حتى أصبحت بمثابة ابنة لها طلب يدها حفيدها فلم ترفض وإن كانت قد عانت من رفض والده الشيء الكثير. . . لكن إصرار سعيد كان أقوى من الرفض مما جعل الأب يرضخ أخيراً إلى رغبة ابنه الذي أحس بوجيف قلبه أمام طيبة تلك الفتاة وجمالها وأدبها.

أما الأم فقد عاشت في كنف ابنتها ترمق تطور أحوالها في حب حتى سفر ابنتها إلى أمريكا برفق زوجها وعندها عادت إلى المدينة لتقطن في أحد فلل والد زوجها المتناثرة، حتى ذلك اليوم الذي تلقيت هاتف صديقتي التي تحدثت معي طويلاً ورجتني أن أواصل زيارة أمها وأن أرعاها، فلم أبخل، لكنني بدأت أشك في قدرتي على القيام بكل ما طلبت، ربما لأنني أنا الأخرى زوجة وربة بيت.

في تلك الأيام كانت الحياة في المدينة هادئة أكثر من اللازم، وكان الناس أشبه بخلية واحدة يأخذ الواحد بيد الآخر في حب، لكنها الدنيا تتغير وبتغيرها يتغير الإنسان، هذا الإنسان الذي ملأت أسماعه ما يجري على الأرض لكنه مع هذا لم يكتف بالسماع بل عرف كل جديد بيديه. . .

أم سهى تملأ ساحات المدينة بالحب. أصبح بيتها محط أنظار مثيلاتها ممن تعرف وممن لا تعرف، ضحكت الحياة لها ولابنتها فمنحتها الكثير والكثير من الظل والنماء مما جعلها موضع ثقة الناس خصوصاً أولئك الذين يعبقون

المحن هكذا كانت تقول عنهم ولها من جلستها حيال هذا الموضوع ما يدعو للإعجاب والتبصر. . .

عندما قامت سهى بزيارة أمها في خليتها الأشبه بالمدينة كانت غير سهى التي تعرفها فلقد أفرطت النعمة بمنحها مزيداً من الجمال وأصبح في مقدورها أن تمارس حياتها الجديدة بأسلوب أولئك الأثرياء الذين يرافقهم الخدم والحشم ويواصلون زيارة بيوت الأزياء ودور الموضة ودنيا المساحيق والجمال.

لكنها كانت كما كانت في قرارة نفسها فتاة طيبة تكن الحب لكل من تعرف ومن لا تعرف. ولقد أمضت أسبوعاً كانت محط إعجاب كل صديقاتها اللواتي حاولن دعوتها إلى بيوتهن فلم تقبل أو ترفض وإنما طلبت منهن جميعاً أن تكون هي الداعية والمدعوة في آن واحد فأضفت على بيت أمها مزيداً من الحركة والتأنق، حتى أصبحت فيلتها محط أنظار أترابها من الفتيات أولئك اللواتي قدر لهن أن يتزوجن وينجبن في المدينة.

كانت أشبه بملكة متوجة تسبح في بحر من الجمال والخيال والأبهة في آن واحد، وقدمت لزميلاتها الكثير من الهدايا الأنيقة مما جعل الكثيرات يتحدثن عن فرط أناقتها وذوقها بإسهاب.

مع تكرر زيارة سهى للمدينة في أكثر من إجازة استطاعت أن تملأ قلوب صديقاتها حباً لها بما تقوم به تجاههن من أعمال رائعة. كانت أشبه بالأخت الكبرى للكثيرات منهن حتى ذلك اليوم الذي تخرجت فيه سهى كطبيبة وتخرج فيها زوجها كدكتور في الهندسة واستقر بهما المقام في مدينة جدة؛ مضت سهى بعدها تمارس عملها بشغف جعلها تدرك مدى المعاناة التي يلاقيها الفقراء عندما يحتاجون للعلاج. ولقد ساعدها زوجها بماله على أداء هذه المهمة بالنسبة لأولئك الذين في حاجة ملحة للعلاج ولا يملكون المال فقدم لها الكثير مما جعل الكثيرون يتجهون بالثناء والتقدير لهذه الفتاة التي عاشت الفاقة حتى إذا ما قفزت عليها لم تنس أولئك الذين عانوا مثلها يوم كانت في حاجة إلى المال. .

لكن الحياة دائماً لا تظل على ما يريدها الإنسان فقد شاءت الأقدار أن

يموت زوجها وتصاب سهى بإصابات كثيرة عندما انقلبت سيارتهما وهما في طريقهما للمدينة. وعادت سهى بجروحها إلى جدة حيث أمضت أكثر من شهرين عالجت خلالهما بعض جروح الجسد لكن الجرح الأكبر كان وفاة زوجها وفقدانها لأمومتها إذ كانت حاملاً في تلك الفترة ولقد ضاع طفلها وضاع معه كل أمل في أن تنجب، فنذرت نفسها لكل الأطفال الذين يفقدون آباءهم وأمهاتهم وصنعت من بيتها في المدينة مكاناً لكل هؤلاء واكتفت بأن تصبح هي الأم للأعداد التي تتكاثر كل يوم.

ولم تكتف بذلك بل عادت لممارسة مهنتها كطبيبة في خدمة هؤلاء الأطفال وامتلأ قلبها إيماناً بنبل المهمة فلقد عايشت هي في صغرها الفقر واليتم ولهذا تريد أن تدفع عن كل هؤلاء مصائب الفقر واليتم وأصبح بيتها معلماً من معالم المدينة يزوره الكثيرون والكثيرات ليروا المعجزة التي حققتها فتاة فقيرة اسمها سهى.

بين مارجو ولينا

بمقدار ما أحببت الكاتب الروائي الأمريكي أرنست همنجواي صاحب العجوز والبحر.. بمقدار ما كرهت النهاية التي اختارها لحياته بعد أن وضع فوهة بندقيته في فمه ليطلق الرصاصة التي أودت بحياته.

لقد استعدت كل هذه الذكريات بعد أن طالعت في بعض الصحف المصرية خبراً عن وصول حفيدة همنجواي والتي اختارت التمثيل كنهاية مطاف بعد أن طرقت أبواب عمل كثيرة فتحت لها لأنها حفيدة هذا الكاتب.

وبقراءتي لتاريخ حياة الصبية هالني أن أجدها صورة جديدة لجدها المسكين وإن تغيرت الأساليب.. فالصبية الصغيرة أدمنت المخدرات ولولا بقية من عزم لما استطاعت أن تتخلص من الإدمان.. مع هذا جاؤوا بها لتصبح واحدة من المحكمين في مهرجان السينما المصرية عام ١٩٩٢م رغم طلباتها الغريبة في إيجاد فساتين لها لاستعمالها في هذا المهرجان.

وعلى الرغم من أني كنت واحداً من الذين لم يتجاوبوا مع طلبات الصبية إلا أنني كنت أتابع أخبارها وصورها بشغف.. هذا الشغف هو الذي أسعدني بأنها قد نالت إعجابي رغم كل شيء وأصبحت أسير هذا الإعجاب لسنوات عدة حتى إنني عندما تحدثت أمي عن رغبتي في عروس المستقبل.. مددت يدي إلى أدراج مكتبي وأخرجت لها صورة السيدة (مارجو).

هكذا أحب اسمها لأن الأسماء هنا لم تعد مشكلتي حتى إذا

نسيتها يكفي أن صورتها في تلافيف عقلي تعايشني كل هذه الشهور حتى إذا ما سألتني أمي عن مواصفات المرأة التي أريدها كررت عليها الطلب بأنني أريدها مثل (مارجو) على الأقل.

عندما نظرت أمي إلى الصورة أشاحتها برقة ووضعتها على خشبة المكتب بعد أن قالت لي:

ـ لكن التي اخترتها تشبه هذه كثيراً.

وأشارت بيدها إلى الصورة جمالاً ودلالاً وخفة دم.. أشحت بوجهي قليلاً وقلت في تأكيد:

ـ لا يهمني يا أماه.. لأنني لن أسعد إلا مع واحدة تماثل هذه التي أريتك صورتها.

ضحكت أمي وقالت:

ـ ربما تظن أنك منحتني مزيداً من الشرف لإطلاعي على صورة هذه الخواجاية؟

قلت:

ـ لا.. لم أقل هذا ولا أعنيه لكنني أصر بأن تحمل مواصفات من سأتزوج مثلها.

أمسكت أمي بالصورة وقرأت ما كتب تحتها.. ثم قالت بشيء من السخرية:

ـ وتريدها أيضاً أن تكون قد أدمنت المخدرات ثم تابت؟

نظرت إليها بجد وقلت:

ـ لا يا أماه أنت تقسين علي بالكلام الذي تقولين.. فأنا أريد الشكل وليس شيئاً آخر غير الشكل.

طمأنت قلب أمي هذا الكلمة.

ترى ما الذي جعلني أقول كل هذا الكلام لأمي؟

ونظرت إلى الفضاء البعيد تتمثل أمام عيني أدوار حياتي التي أمضيتها..

فأنا من بلد عرف كيف يستقبل المجد ويصدره، مجد الهجرة وفتوحات الإسلام.

وتخيلت نفسي وأنا أطالع صور الماضي القريبة والبعيدة.. حقاً هالني أن أرى تلك الأمجاد وهي تتضاءل لدرجة استطاعت يد الغدر أن تقطف رؤوس المسلمين في البوسنة والهرسك.. ونظرت إلى البعيد لأقارن بين الفتوحات التي قام بها الأجداد وهذه الأعمال الإجرامية التي ترتكب.. فرأيت الفارق واضحاً لا يحتاج إلى تبيان ولا إلى تفسير..

فالأمجاد التي غرقت في أنهار الظلم كانت مدعاة للفخر والاعتزاز.. ثم عرجت بعد ذلك إلى صور حياتي فرأيتها رغم كل الوضوح باهتة بعض الشيء ربما لأنني لم أجد فيها ما يثير إحساساتي.. فهي بسيطة رغم تناقضها وساذجة لبساطتها.. وباهتة لأنها تفتقد الجذور.

فلقد ولدت في يوم غائم اشتدت فيه البرودة حتى أصبحت قارسة في بيت علم عدد من الرجال والنساء هن إخوة أبي الذي قدر له أن يكون الأكبر والمسؤول عن أسرة كبيرة يعمل كل واحد من إخوانه لنفسه إلا هو فقد كان يعمل للجميع..

ويوم مات كنت في السادسة وحيد أمي التي أخذت على عاتقها تربيتي فاختارت الخروج من البيت إلى بيت آخر حتى لا تكون عليّ وصاية الأخ الثاني وزوجته. ومن يومها بدأت مشاكلي مع الحياة وكفلتني أمي وجعلت مني هدفها في الحياة بعد موت أبي واستطاعت أن تصنع مني هذا الطبيب الذي هو على أهبة النجاح بعد سنوات من الجهد والعرق..

لم تتميز طفولتي عن غيري إلا بالحب والحنان الذي أغدقته أمي علي ويوم أصبت بالتيفوئيد بقيت بجانبي في المستشفى حتى شفيت وقد قالت بأنها لم تصب بالهلع طوال حياتها سوى مرتين.. المرة الأولى مرضي الذي ذكرت.. والثانية عندما رغبت الالتحاق بالكلية الحربية..

وأمي ليست ككل الأمهات فقد حاربت رغبتي هذه بمزيج من الحب والحنان حتى جعلت وجهتي كلية الطب التي رأت أنها أفضل كلية تصلح لي لأنها تعبت من علاجي من مرض التيفوئيد ولا تريد للأطفال أن يصابوا بهذا المرض اللعين.

أمي جادة في البحث عن عروس بمواصفات (مارجو) حتى إذا ما وجدت ضالتها جاءتني تزف إلي البشرى قائلة:

ـ وجدتها!

وكنت ساعتها خالي الذهن فلم أعرف ما الذي وجدته أمي حتى إذا ما قالت لي بأنها وجدت مواصفاتي في أنثى من بلدي.. تبلد إحساسي ولم أعد أدري ماذا أقول وربتت أمي بيدها كتفي وتخللت أصابعها شعري وهي تضج بالفرحة لأنها وجدت من أريدها وبالشكل والمواصفات ذاتها.

لم أعد أدري كيف أستطيع أن أخرج من هذا المطب فقد كنت أظهر أن الشرق شرق والغرب غرب وأن النساء لا يمكن أن يتشابهن إذا كانت الشبيهة من الغرب والعكس بالعكس.

وبدت أمي متضايقة عندما طلبت منها أن تبقي حديثها عن الخطبة إلى ما بعد عودتي من المستشفى.

أمضيت بعضاً من الوقت في العيادة أكثر من مريض.. ولم أحاول أن أتلمس طريقي لحل المشكلة التي ورطت نفسي فيها دون أن أصل إلى نتيجة واستقر رأيي أن أمضي حتى النهاية.

عندما عدت إلى البيت وجدت أمي متحفزة تنقل لي كل شيء عن الخطبة حتى إذا ما انتهى حديثها قدمت لي صورة طالعتها بهدوء ثم بعدها بشغف لأرى أن ما اختارته لي أجمل بكثير من (مارجو) حفيدة همنجواي.

عرفت كل شيء عن خطيبتي فهي تصغرني سناً ولا تزال على مقاعد الدرس كطالبة في قسم الاقتصاد المنزلي الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً حتى قالت لي أمي إنه عبارة عن مجموعة كبيرة من الفنون تدرسها الطالبة إلى جانب المواد العلمية الأخرى من إحصاء وكيمياء وفيزياء واقتصاد وغير ذلك.. وإن أباها الشيخ عبد الرحيم صديق والدي الحميم وأن اسمها «لينا».

سألت أمي عن معنى «لينا» وهل هو اسم أجنبي أم عربي ولكنها سبقت وقالت: إن الاسم عربي صميم «لينا» هي النخلة الصغيرة التي لم تشب عن الطوق.

خالي حامد كان يريد أن يزوجني ابنته «هدى» وأنا رافض لفكرة أن أتزوج أي فتاة من أقاربي . .

وكان يظن أن الوفت كفيل بإقناعي عندما عرف بأن أمي تبحث لي عن أخرى بمواصفات معينة . . وجدها فرصة لأن يسوق في زعله فينأى بنفسه عن زيارتنا فلا يدفع لأمي ما علق من دين قديم حاولت أن تسترده منه بعد أن كبرت . .

لا أكتمكم بأني أعجبت بصورة «لينا» وقد أحست أمي بهذا الإعجاب فطارت فرحاً وبدأت تخطط لرؤيتي للعروس ولما بعد الرؤيا . . فتقاليدنا تحتم كل هذا . .

ذهبت معها لرؤية العروس وقد حملتني سواراً من الذهب والماس وخاتماً ماسياً كبيراً أشبك به العروس إذا ما أعجبتني . .

بعد رؤيتي «للينا» أحسست أنها (مارجو) الأجمل التي أحببتها عن بعد وأمسكت بيدها لألبسها السوار بينما كانت أصابعي ترتعش من المفاجأة . . أحسست أنها لم تستغرب ارتعاش يدي بل ساعدتني على إنهاء المهمة بعد أن أطالت النظر في وجهي فشعرت بمدى الحب الذي يشع من عيني هذه الجميلة رغم أنها المرة الأولى التي تراني فيها .

وقرأنا الفاتحة وأمضيت أكثر من ساعة أتحدث إليها وإلى أمها التي شعرت بأنها تصغر أمي قليلاً وأنها بجمالها الهادىء تستطيع أن تتسلل إلى القلوب وعرفت ساعتها بأن حماتي تجيد الرسم وخاصة رسم الوجوه دون أن تتعلم هذا الفن في أية مدرسة وأنها سيدة مجتمع أصيلة تساهم في أعمال الخير في الجمعيات النسائية .

استأذنت حماتي منا جميعاً وخرجت ثم عادت لتدفع بصورتي وقد رسمتها أخيراً بعد أن أعطتها أمي صورة فوتوغرافية صغيرة لي . .

قدمت حماتي الصورة هدية منها لي فنظرت إليها بإعجاب فقد راقتني أنها استطاعت أن تضفي على ملامحي الكثير من الجد والوقار بالإضافة إلى صفات أخرى أحببتها وإن كانت لم تخطر لي ببال . .

أخذت الصورة الهدية بعد أن شكرتها وخرجت وأمي إلى بيتنا وإحساسي بالسعادة يرافق احترامي بل يسبقه وشعرت بأنني محظوظ جداً بهذه الأنثى الرائعة التي دخلت قلبي هكذا فجأة وبدون استئذان. .

وفي البيت أمسكت بيدي صورة (مارجو) التي ودعتها لآخر مرة وألقيت بها في سلة مكتبي في هدوء وأمي تضحك من كل قلبها. . وكأنها راضية عما أفعل وعندما قالت لي أمي:

ـ كذا كنت وهكذا اليوم أنت تودع الخيال لتزرع الحقيقة في أرجاء بيتنا الصغير. . أو تدري أنني كنت عليك خائفة باديء ذي بدء؟ أما اليوم فقد تاه خوفي كلياً. . وسطعت أضواء الحقيقة وبدت كل معالمها الواضحة. . فلم يعد للخوف مكان في عشنا بعد اليوم.

مضيت بعد أيام في إعداد حفل القران الذي جاء هو الآخر ليكمل الصورة الجميلة «للينا» عروسي التي أحببت.

في ليلة الزفاف سألتني «لينا» بعفوية:

ـ تراني أشبه من يازوجي العزيز؟

قلت:

ـ لا أدري. .

قالت:

ـ صديقاتي يقلن دائماً بفرح بأنني أشبه الممثلة والعارضة صغيرة همنجواي. .

نظرت إلى وجهها بوله وقلت:

ـ قد يكون هناك بعض الشبه لكنني أرى أنك أجمل منها وأكمل. .

لم أحاول أن أقول شيئاً آخر خوفاً من أن تكون قد عرفت قصتي مع صورة (مارجو) لكنني عندما سألت أمي ضحكت وقالت:

ـ تأكد أنها لا هي ولا أسرتها يعرفون شيئاً عن الموضوع. .

ارتاح بالي واستمرت حياتنا على أجمل ما تكون الحياة بين زوج وزوجته حتى ذلك اليوم المشؤوم الذي توجهنا فيه أنا وأمي ولينا من المدينة المنورة إلى

جدة على مقربة من رابغ وفي إثر أمطار غزيرة قابلتنا في الطريق تزحلقت سيارتي التي كنت أقودها وانقلبت لأكثر من مرة فكانت من نتيجة هذه الحادثة أنني فقدت أمي وأصيبت «لينا» ببعض الكسور التي التأمت بعد مدة.

أما أنا قد أصبت بعاهة جعلتني أفقد الحركة على كرسي.. ومع هذا لم أستسلم وإنما مضيت أؤدي عملي.. وزوجتي ترافقني إلى أي مكان أذهب إليه وهي أشبه بحمامة وديعة تخاف على طفلها من أن يبعد عن عينيها.

لقد شجعتني زوجتي على طلب العلاج في أكثر من مكان في هذا العالم دون جدوى لكنني بعد أن أرسلت جميع أوراقي إلى أحد كبار الأطباء المشهورين بعلاج العظام في فرنسا جاءت إجابته مطمئنة فلربما تم الشفاء بإذن الله تعالى على يديه.

وها أنذا في الغد سأسافر إلى باريس هذه المرة ليس بحثاً عن (مارجو) وأفلامها.. وإنما عن العلاج لأسعد زوجتي «لينا» التي تعبت معي كثيراً وكثيراً جداً.

الورقة

أرفض أن ألقاك فالغد أكاد ألمح إشراقة وجه تبدو من وراء كل هذا الضباب الذي ألمسه يتطلع إلى وجهي في إثارة عجيبة.. وكأنه يمد لسانه نحوي.. يمتلئ صدري بترانيم مسمومة عشتها فترة من الوقت عندما كنت أظن بأنني أعرفك لكنني بعد أن تجاهلت كل هذه المعرفة تفصد العرق من جبيني وبدا على وجهي شيء من الفتور سيظل شاغلي الوحيد لكنه انقشع فجأة ذهب كما تذهب الريح عندما تلاقي رذاذ المطر وهو يضخ شرايين الأرض بأصداء الحياة وتلمست في طريقي وأنا على الشاطىء أمسيات قضيتها وحدي أرقب النجوم التي هي فوق السحاب بينما كنت أنت في رحلتك تلك تداعب خصلات شعرها الأشقر في هدوء مشحون بالرغبة في إذلالي وطعني في كبريائي وإلا لماذا تفضلت فأهديتني صورتها وأنت تمزح؟

كنت تقول لي بأنها تحبك وأنا أعرف أنها تحب ما تمتلىء به جيوبك من ذهب وقلت لي إنها جادة في صداقتها معك، وأنا أقول بأنها جادة عندما تستغلك فأنتم الرجال تظننون أنكم قادرون على فهم المرأة في أي مجتمع.

وتقول بأنها امرأة من مجتمع خاص وأنا أقول بأنها امرأة رخيصة التقطتها من الطريق كما يلتقط بائع الورد أشواك وروده وهو يقدم لهم وروداً خالية من الشوك.

لم أقرر بعد حاجتي إليك بعد أن رفضت أنت أن تسمع لنصائحي سنوات عمري التي قضيتها معك. لا تغفر جهلي بك فأنا امرأة لا تعرف أن زوجها مغامر.. وأن في عروقه تجري دماء

مستهترة تبحث عن الأخرى في كل مكان حتى إذا ما التقيتها والتقتك تركتها أنت أو تركتك هي كلا الأمرين سيان عندك.

يوم عرفتك كنت صغيرة على هذا الألم الذي ينغرس في عظمي يكاد يحرق جلدي يقتضي بأنني لو لم أكن صغيرة لأوقفت غيك، وعرفت كيف أعيدك إلى جادة الصواب.

العالم كله كان ملك يدي، لم أفكر في امتلاكه تركته من أجلك وكنت أظن أنك قادر على فهم قضيتي فأبي كان يصر على أنك لست أهلاً لي وأمي كذلك ولكل واحد منهما رأيه وإن كان يغاير رأي الآخر لكنني تبعت قلبي فأضاعني.

عندما يضيع القلب إنساناً يشعر بالغيظ للعبط الذي لازم هذا الإنسان فلم يكتشف الحقيقة.. كنت بالنسبة لي إنساناً لم تكتشف.. أحببت أن أكتشفك بنفسي لكني لم أكتشف سوى الخيبة فأنت من معدن يصعب علي أن أصفه.

فيك من الطيبة بعضها ومن الخبث أكثره.

تحمل وجهاً طولياً تختفي وراءه عدوانية قاسية. نعم فلكم كنت قاسياً معي وكنت أقول عن هذه القسوة بأن فيها شيئاً من الحب لأنك كنت تغلفها بأوراق من الغيرة صنعتها بأصابعك التي أهديت من سحائب لفائف التبغ الذي لا يفارقك.

عيناك أشبه بعيني قط كبير فك من عقاله فجأة تخاف ولكن لا تخجل ربما لأن الخجل فضيلة عند بعض الناس يمتلىء فمك بعبارات الحب التي كنت تكيلها لي وفي جيب سترتك الأيسر صورة أخرى التقطتها لها خلسة.

ازدواج في الشخصية لا أود أن أقول عنه ما قاله الطبيب الذي استشرته في أمرك، فكلامه عن هذه الازدواجية لو قلته لك لصعقت وأنا إنسانة أكره أن أصيب أي إنسان في مقتل.

أتذكر أول رحلة لنا في شهر العسل؟ يومها عزوت ملاحقتك لفتيات الفندق على أنه طيش مقرون بالغباء. وعندما سألتك عن ملاحقتك تلك قلت لي وأنت تضحك:

ـ ربما كانت عادة اكتسبتها من أيام العزوبية وسأتخلص منها.

فضحكت لكن الكيل زاد عندما لقيتك تعامل بائعة الورد الفقيرة بأسلوب فيه الكثير من التعالي فأردت أن أفهمك بأنها أي الفتاة إنسانة، وعليك أن تعاملها بإنسانية فقلت لي: ولماذا أفعل ما دامت هي لاتعامل نفسها بهذه الإنسانية؟ هل نظرت إلى وجهها كم هي جميلة؟ لو كانت عاقلة لاستغلت هذا الجمال في أشياء كثيرة.

ساعتها وددت لو بصقت على وجهك، فهذا كلام لا يقوله إنسان عايش هذه الأرض التي ولدت عليها..

ترى من أية طينة أنت؟ وكيف كان بإمكانك أن تقول ما قلت؟ أو ظننت بأنني أرضى عن هذا الكلام؟

المرأة في الدنيا تكره أي إنسان يريد أن يحط من قدر أية امرأة أمامها حتى ولو كانت هذه المرأة عدوة لها، والرجل هو الرجل يتظاهر بما فيه وما ليس فيه لكنها وأعني المرأة تعرف جيداً كيف تكشف الطيب والرديء فيه ثم توازن بين هذا الطيب وذلك الرديء حتى إذا ما تبين لها بأن الرداءة فيه شيء لا يمكن لها أن تصلحه ألقت بكل إحساساتها تجاهه وفكرت في أن تهرب من أمامه مهما كانت صلتها به حتى وإن كانت زوجته.

وانتهت رحلتنا حتى إذا ما عدت معك إلى الديار ظننت أنني قادرة على أن أصلحك..

حاولت.. حاولت كثيراً وفي كل مرة أجد أنك إنسان لا يمكن له أن يصلح حاله، ولهذا رأيت أن أفقدك قبل أن أفقد نفسي وإنسانيتي بالعيش مع إنسان يعيش الوحش في أعماقه بشكل مقنّع ومكشوف أيضاً..

تلك هي الحقيقة عرفتها بعد وقت لكن هذه المعرفة هي التي جعلتني أؤجل أن أنجب منك.. خفت على ولدي أن يكبر فأراه صورة عن أبيه فالعرق دساس وأنا امرأة أكره الشر خصوصاً عندما يغلف بورق من السلوفان يقدم للآخرين بفهم ودون فهم حتى إذا ما وقعوا أو وقعن في الشقاق ارتفعت ضحكاتنا تعلن عن أننا قد حالفنا التوفيق وسددت خطانا التي خطوناها بذلك الذي أردناه.

أنت يا زوجي إذا كنت لا أزال زوجتك رجل كريه أحلم أن أتخلص من عقاله.. من هذا الرابط الإنساني الذي أوقعتني الظروف فيه فأبوك رجل طيب كان صديقاً لأبي فلم يرفض طلبه عندما طلبت أن تقترن بي.

المرأة عندما تتزوج تريد صدراً يحميها وكتفاً تستطيع أن تضع رأسها عليه في أمان واطمئنان. أما أنت فلم تكن كذلك بل كنت صورة بشعة لإنسان مريض عايش المرض فعشقه وأصبح لا يرضى له أن يفارق جسده..

نعم.. هكذا أنت.. فكل ما فيك لا يصلح أن يكون صدراً يحمي المرأة أو كتفاً تستطيع أن تسند رأسها عليه. أنت مريض يا زوجي ومرضك غير قابل للعلاج.

فالرجل الذي يجري وراء أية امرأة لمجرد أنها امرأة رغم وجود من هي أجمل منها إلى جواره يحتاج إلى طبيب نفساني يستطيع أن يتسلل إلى تداعيات أعماقه ليكشف بؤرة الفساد التي رسخت فيه.

أرفض أن ألقاك يا من لم تعد زوجي لأنني أطمع أن تطلقني حتى إذا رفضت عشت عمري كله أنتظر أن تبعث هذه الورقة التي أحلم بها لأنها تخلصني من إنسان مشبوه يمتلىء قلبه بكثير من العقد والازدواجية فقد يكون لديك من الشجاعة ما يجعلك تصنع شيئاً طيباً في حياتك..

أعرف وضاعتك وأعرف أنك ستساوم أبي على هذه الورقة، ورقة الطلاق، لكن صدقني فأنت لن تنال من أموالي أو أموال أبي أي شيء لأنني أقدر على الانتظار سنوات طويلة حتى تكل أنت أو تمل وعندها تبعث بالورقة الصغيرة إلي رغماً عنك لأسعد بها وأهنأ.

فتاة الريكشا

لم أكن أظن أنني سأجد كل هذه المفارقات يوم قدر لي أن أزور الهند وعاصمتها نيودلهي. فهذا العالم المليء بالمتناقضات جدير بأن يتعرف إليه الإنسان وبأية وسيلة كانت، فنيودلهي العاصمة الغارقة ليلاً في أسراب الأضواء المتلألئة مدينة عجيبة تظل دائماً هكذا كعموم مدن الهند وأهلها وناسها وسكانها. الطريق من الفندق تاج محل إلى داخل المدينة طويل ومكتظ والناس يجرون هنا وهناك كل واحد منهم لغاية لكن ترى هل يستطيع كل واحد منهم أن يدرك غايته؟

تلك هي ثالثة الأثافي في عالم يموج بشتى الاضطرابات. ممتلىء حتى حافته بالمعضلات والمرأة أضعف ما تكون في هذا المجتمع الذي تكالب فيه الأقوياء على السوق لكنها مع هذا تجد طريقها بين الجموع المحتشدة في أجواء المدينة بلا كلل ولا ملل.

لطالما تحدثت لي نفسي وأنا في الطريق إلى داخل المدينة «جوة المدينة» أو «داونتاون» كما ينطق بعض المتفرنجين الذين يرون في ليّ ألسنتهم وسيلة للكشف عن جهلهم. في هذا الطريق التقى بصري بالعديد من الناس فيهم الغني والفقير وصاحب الحاجة ومن هو أقل بقليل عن الحاجة.

ربما لأننا في عصر مليء بالقلق وربما لأن تعداد سكان الهند الذي يتكاثر كل وقت لا يعطي الفرصة لأن يصل هذا البلد ومواطنوه إلى أهدافهم.. ولكن أكثر ما كان يشغل بالي وأنا في زيارتي لعواصم الهند الكثيرة حيث في كل ولاية عاصمة وفي كل عاصمة مشاكل ومعضلات تكاد تراها تطفو على السطح ورغم ما يبذل من

أجلها ولأجلها من جهد.

الناس في هذه المدينة ليسوا مجرد أرقام صغيرة وإنما هم أيضاً أشباه لأرقام لا أدري كيف نعيدها لواردنا لأن الطريق طويل وطول الطريق يعني الكثير والكثير.

في نيودلهي العاصمة بعيداً عن المدينة الجديدة تجد الناس في الطريق يسيرون بلامبالاة ولا غاية ولا هدف يدفعهم إلى هذه المسيرة نوازع كثيرة ليس أولها الرغبة في الشبع أو حتى الامتلاء..

لكنهم يريدون بمسيرتهم تلك أن يحسوا ولو لمجرد الإحساس بتواجدهم على الطريق والطريق طويل والناس مجهدون خصوصاً أولئك الذين يقودون عربات الريكشا.. لقد مضى عهد الإنسان الذي يجر الريكشا وبدأ عهد الدراجة التي يدير حركتها إنسان كله أعصاب، ولولا هذه الأعصاب المتجسدة لانهار الرجل وانتهى الطريق.

قال لي أحدهم:

ـ أتعرف كيف يموت الرجل وهو واقف؟

إذا نظرت وأمعنت النظر في هذه الوجوه السمراء المتغضنة لحلت المشكلة ولعرفت بأن أكثر رجال الريكشا يموتون وهم يمتطون عرباتهم في طريقهم لإيصال الآخرين لكن هؤلاء الآخرين ينسون كيف يوصلونهم إلى نهاية المطاف.

لقد ظل أحدهم أكثر من خمس ساعات في انتظار من يحمله عندما مات حتى إذا جاءت عربة الإسعاف لتلقط الرجل ثم تلفظه على طاولة المشرحة، عجز الطبيب عن تشريح ساقه وقدميه اللتين تحجرتا من كثرة ما حملتا من ناس ولكثرة أولئك الغادين والرائحين إلى بيوتهم ودكاكينهم.

كثيرة هي الأفكار التي راودتني وأنا أطل على ميدان السوق لأمتطي إحدى عربات الريكشا برفقة صبية غمرتها أضواء الشمس فذاب جلدها في حمرة تلك الأضواء التي أحالت وجهها وبشرتها إلى سمرة قانية تشعر الإنسان أي إنسان بعظمة هذه الأرض وما احتوت عليه من أناس ومثل وقيم وتراث.

كدت أشعر بالخجل وهي ترفع أهدابها الطويلة لتواجهني بابتسامة مترفقة وكأنها تعرفني منذ أعوام كثيرة. ربما أتعرف إلى أمها عند زيارتي الهند أو ربما ألتقي بإحدى بنات جلدتها وأنا لا أدري لكننا على أي حال بشر والإنسان يميل إلى الإنسان الغريب.

قالت:

ـ من أين أنت؟

قلت:

ـ من أرض الله الواسعة حيث تلتصق قيم التاريخ بأرض الواقع لتعزف أكثر من ملحمة من ملاحم الحياة والتاريخ..

قالت:

ـ أنت إذن من مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام؟

قلت:

ـ كيف عرفت؟

قالت:

ـ من جوابك، عندما قلت عن أرضك وهل هناك عبق للتاريخ على أية أرض أكثر من عبق أرضك؟

ابتسمت وقلت للفتاة إنها شاعرة لكنها لم تكن كذلك وإنما هي واحدة من بنات الهند.. انحدرت من أرض الشجرة منذ أكثر من خمسمائة عام يوم جاء جدنا الأكبر يبشر بالدين ويضع جسر السلام في جنبات هذه الأرض الواسعة الأرجاء.

قلت وأنا أتهيأ لحديث طويل:

ـ إذن أنت وأنا توأمان.

قالت:

ـ ذلك لا شك فيه أولم يجمع بيننا الإسلام؟

قلت:

ـ من أي البلاد أنت في الهند؟

قالت:

ـ من أجمل زهرة على أرض الهند يسمونها «بنجلنور».

لم أكن أعرف المدينة لأنني لم أزرها لكن عندما زرتها عرفت معنى ما تقول.

«فبنجلنور» المدينة الرائعة التي تتكىء بمرفقيها على زهور العالم ورياحينه ترتفع على سطح البحر أكثر من ألفين وخمسمائة متر.

صمتت للحظة لكنها لم تصمت بل سألت:

ـ إلى أين ذاهب؟

قلت:

ـ كما تعرفين بلا هدف ولا غاية إلا التعرف إلى الناس وكنت أول من تعرفت إليه.

ضحكت بابتسامة صافية شعرت أنها تحاول بها أن ترفع الكلفة بيني وبينها لكنني لم أستطع..

فقالت:

ـ سأنزل هنا.

ويوم تأتي إلى «بنجلنور» اتصل بهذا التلفون وسيأتي أبي ليراك وسآتي معه فأبي..

وصمتت.. احترمت صمتها وهي تكاد تغيب بين الألوف المؤلفة من نساء الهند ورجالها الذين يسيرون في السوق، وعدت إلى مقعدي بمفردي لألتقي بأصدقائي الذين خافوا أن أضيع منهم في زحام المدينة.

عدت إلى موقعي معهم سالماً عدت وعلى شفتي حديث طويل أكاد أراه يفلت من بين شفتي لكن إيماني بضرورة السكوت جعلني أحجم عن الرد على أسئلة أصدقائي الذين قال أحدهم:

ـ ترى ماذا قالت فتاة الريكشا؟ قلت:

ـ أتقصد فتاة بنجلنور؟

قال:

ـ لا أدري من أين هي ولكنها في نظري واحدة.

ضحكت وانصرفت بكل مشاعري أرقب الطريق ونحن نسير إلى المسجد الكبير. كنت أتطلع إلى الوجوه حتى جاءت زيارتنا لمدينة «بنجلنور» التي رأيتها كما قالت مدينة تملأ ساحتها الزهور والعطور وإن لم أر فيها لأول مرة أي ريكشا أو فتاة تستعمل الريكشا حتى إذا ما استقام لي الأمر، أدرت قرص التلفون ليأتي صوتها قائلاً:

ـ من؟

قلت:

ـ صديق الريكشا.

قالت:

ـ أين أنت؟

قلت:

ـ في مدينتك حيث ينتظم كل ركن من أركانها شذى من عطر.

ضحكت، وقالت:

ـ لو لم أجبك على التلفون ستتعرف علي وأنت لاتعرف اسمي.

قلت:

ـ جمعت أرقام التلفون ثم خلطتها بحروف الهجاء فاتضح لي بعد أن قلت أن اسمك جنة.

ضحكت مرة ثانية وقالت:

ـ لا بل اسمي هو جنات.. ستأتي لفندقك في الغد وآتي لدعوتك لحفل زفاف..

قلت:

ـ زفاف من؟

قالت:

ـ زفافي.

قلت لها:

ـ لكنني لست وحدي فأنا وأصدقائي الثلاثة ننتظر بمزيد من الفرحة دعوتك..

ضحكت من كل قلبها وقالت:

ـ غداً الساعة السادسة وسأراك في فندقك ولن أكون لوحدي..

قلت:

ـ أعرف سيكون أبوك معك..

قالت:

ـ نعم وهناك أيضاً جنينات أخريات ستراهن معي.

قلت:

ـ لا بأس.

وودعتها على أمل..

لم أدرك ساعتها أن صديقي ناصر كان على مقربة مني سألني متلهفاً هو الآخر بعد أن سمع بعض فتات الحديث:

ـ أو نحن مدعوون لحفل زفاف؟

قلت:

ـ نعم، حفل زفاف أجمل فتيات الهند فتاة الريكشا..

قال:

ـ تلك التي التقيت بها؟

ضحك لكنني لم أضحك وانتظرت الغد حتى إذا ما جاء بدأت «نكرزة» الأصدقاء تحوطني من كل جانب. كنت أعرف كيف أرد الكيل لكل واحد منهم حتى إذا جاءت الساعة السادسة استأذنت منهم للذهاب إلى بهو الفندق..

وهناك التفت وأنا أمد يدي لأصافح جنات التي ابتسمت وهي تقدم لي

أختيها خيرات وحسنات.. واحدة تكبرها والثانية أصغر منها بقليل لكنني لا أداري الحقيقة عندما أقول كانت الأجمل ولم أكمل ترحيبي حتى ظهر إلى جانب الفتيات الثلاث رجل على وسامة ظاهرة وإن كان قد تجاوز سنوات الشباب إلا أن الشباب لا يزال يتمسك به.

قالت جنات:

ـ هذا أبي.

وقلت:

ـ أنا...

ولم أكمل فأكملت هي:

ـ صديق الريكشا.

وانتظرت قليلاً لأستمع إلى حديث أبيها ذلك الذي لم أكن أتصوره فقد عرفت بأنه يعيش في اليابان كتاجر كبير وأن له نشاطات كثيرة في حقول التعريف بالإسلام وأنه وأسرته يقضون أكثر شهور السنة فيها حتى إذا ما جاء شهر ديسمبر عادت الأسرة إلى الهند ليكتمل عقدها بباقي أفرادها وإن حفل زفاف جنات في «بنجلنور» هو الحفل الثاني لأن الأول إقامة في مدينة طوكيو مجرد حفل صغير يليه حفل كبير ينتظرني لأشارك فيه.

وابتسمت من قلبي وأنا أقبل الدعوة وأمضيت بضع دقائق برفق جنات وأبيها وأختيها أحسست خلالها بأنني أعيش رفق أسرتي التي افتقدتها.. في هذه اللحظة جاء رفاقي وقدمتهم للأب والابنة والأختين ونظرت إلى وجه كل واحد منهم فشعرت بمدى الإعجاب الذي يخالط شغاف قلب كل واحد منهم حتى إن أحدهم وهو شيخ جليل سألني عما إذا كانت إحدى أختي فتاة الريكشا لم تتزوج بعد.. طمأنته بأن واحدة منهما لم تتزوج بعد ولكني أردفت بخبث:

ـ لكنها لن تقبل بزواج رجل مثلك لا يعرف الهندية ولا الهند.

قال بإصرار إنه يعرف الهند فقد زارها منذ ثلاثة أعوام أما الهندية فبإمكانه أن يتعلمها إذا وافقت.

فسألته ببراءة:

ـ والتي في البيت هل سترضى؟

قال بسذاجة:

ـ لا . . لكنها لن تعرف لأنني سأبني بيتاً في جدة والآخر في مكة والطريق بين جدة ومكة سهل وسريع.

قلت لنفسي: هكذا الإنسان يظلم أخاه الإنسان وهو لا يعرف أو يدرك. ومضينا نتحدث نحن الأربعة بعد أن غادرتنا جنات وأبوها وأختاها واستعددنا لحضور الفرح الذي كان أول فرح نحضره في الهند. . وذهبت إلى ركن الزهور ليصنع لي باقة زهور على شكل ريكشا حقيقية فلم يفلح فاكتفيت بباقة كبيرة عليها بطاقة أنيقة كتبت عليها إلى فتاة الريكشا مع الدعاء وبالتوفيق.

وذهبنا إلى الفرح لنفاجأ بكمية من الزهور تلقى حول أعناقنا وكان أول عقد من هذه العقود هو عقدها الذي اختارته لي أبيض في نقاء اللؤلؤ الذي افتقدناه في دنيانا بعد أن انتهى زمن اللؤلؤ في الخليج سألتني وأنا في مواجهتها:

ـ ماذا تتمنى؟

قلت:

ـ أخاف أن أقول لك عما أرغبه وأتمناه. .

قالت:

ـ لا تخف فأنا لن أقول لهذا الجالس على يميني ما ستقوله.

وعرفت أنها فهمت أمنيتي فلم أجرؤ على تكرارها واكتفت بالصمت والنظرة السعيدة والابتسام أيضاً وخرجنا وفتاة الريكشا تودعنا وكأننا نودع كل دموعنا وأحزاننا ونبدأ عهداً جديداً من عهد الأمن والحب والسلام.

وداعاً سهى

بين الماضي والحاضر خيط رفيع يشد الإنسان، يملأ جوانحه مآسي كثيرة يراها أحياناً وينساها أحياناً وأنا من أنا؟ إنسان يعيش الحاضر ويتلهى بأسرار الماضي يتلمس دروب الحياة في صمت، وكأنه يريد أن يلغي من ذهنه ظروف الحياة الجديدة التي عايشها الناس كل الناس.

في الماضي كانت أسرتنا تعيش مجتمعة في دارنا الكبيرة يوم كنت طفلاً حتى إذا كبرت تفرق الجميع وعاش كل واحد من تلك الأسرة في بيته الذي يملكه.

تجتمع أيام الجمعة فقط كل أفراد العائلة عند أخي الكبير عبدالله الذي كان يرى في هذا الاجتماع فرصة للحديث عما يريد أن يصنعه من أجلنا جميعاً.

عبدالله لا ولد له ولا تلد، عاش حياته راضياً بما ينال جل همه سعادة زوجته التي أصرت على أمي بأن أعيش معها في دارهما وقد رفضت أمي في بادىء الأمر ثم رضيت بعد ذلك عندما رأت موافقة أبي وإصرار عمي على ذلك عشت حياتي أرقب الفجر من خلال غرفتي الواسعة.. كانت طلباتي أكثر من أمر يجب عمي أن يلبيها فكانت أمي الجديدة أجدر على الاقتراب مني من أمي الحقيقية.

في بيت عمي تفتحت عيناي على الحب أحسست وكأنني قد التصقت بهذين الزوجين الذين يحب بعضهما البعض وشعرت بأن دوري في الحياة بالنسبة لهما كان مكملاً لهذا الحب الذي عرف عنهما.

عمي يحب إخوانه محمود وسعيد وسالم، ويشعر بأن أولاد أخيه ألصق به من أي شيء آخر كان ينتهز المناسبات ليدعو الأطفال للاحتفال بنجاحي تارة وشفائي من ألم عارض تارة أخرى حتى كبرت وكبرت أحلامي.

لكل واحد من أعمامي طفل في مثل سني أو أكبر قليلاً إلا عمي سالم فقد كان له ابنة بالإضافة إلى ولده.

«سهى» كانت صديقة طفولتي شعرت بوجودها منذ أول يوم عرفت فيه معنى الفارق بين الولد والبنت.

كان عمي يحب «سهى» ويعطيها من ألعابي أشياء كثيرة وأنا راض في الوقت الذي كنت أبخل بألعابي على الآخرين.

كبرت وكبر حبي لسهى حتى أصبحت أعيش لذلك اليوم الذي أراها فيه تعيش معي بصورة دائمة.. لم أكن أفهم معنى الزواج بل كنت أطالب عمي بأن يرجو أباها لتظل دائماً على مقربة منا فكان يضحك. لم أكن أعرف معنى ضحكاته حتى استمعت له وهو يتحدث إلى زوجته حديثاً بلغ أسماعي بعضه دون أن أحاول الاستماع إليه.

قال عمي:

ـ أترين مدى الحب الذي يكنه مروان لسهى لدرجة تجعلني أؤكد بأن السنوات القادمة ستعلن عن زوجين يفوقاننا حباً لبعضهما.

ضحكت زوجة عمي وقالت:

ـ لا، لا أعتقد أن سهى تحب مروان مثلما يحبها ولهذا لن يصلا إلى درجة الإغراق في الحب مثلنا عندما يتزوجان.

وخرجت من مكاني وأنا لا ألوي على شيء، وأحسست بدمعة صغيرة تنحدر على وجنتي ولم أطق البقاء لسماع المزيد من تلك الكلمات.

لم أكن أعي معنى الحب كما أعي ذلك اليوم لكني أحسست بالظلم يقع على رأسي وأنا أستمع إلى زوجة عمي وهي تؤكد بأن سهى ليست على تلك الدرجة من الحب لي مثلما أحبها أنا.

وأخذت أفكر في الأمر فترة طويلة حتى إذا جاء الليل أخذ حديثهما معاً

يعشعش في ذاكرتي فأمضيت أكثر الليل دون نوم وأصبحت مريضاً في اليوم الثاني فلم أستطع الذهاب إلى المدرسة.

عندما عادت إلي صحتي بدأت أنظر إلى الحب المتأجج في نفسي لسهى نظرة جديدة وكأن عمي قد فتح عيني على شيء جديد لا أدري كنهه وأصبحت أميل إلى التحفظ بعض الشيء بالنسبة إليها عندما تأتي لزيارتنا أو نذهب نحن لزيارة أسرتها لكنني كنت في الوقت نفسه أغدق عليها الهدايا من مصروفي الخاص، وبشكل لا أدري كيف أسميه.

كنت أشعر عند زيارتي لأي مكان بأن ما أراه في حوانيت أصحابها من هدايا هي من حقها هي وحدها فقط كنت أبتسم بيني وبين نفسي عندما أحس بذلك أما أمها فقد كانت تداعبني كثيراً عندما أزورها وأنا محمل بكل هداياي.

وفي يوم من الأيام قالت أمها لي:

ـ أو تحب سهى يا مروان؟

لم أجب بكلمة لكنني هززت رأسي مؤكداً بأنني أحبها ومن كل قلبي، وعندما سألت خديجة أم سهى نفس السؤال قالت:

ـ نعم.. أوليس هو أخي؟

لم ألتفت لإجابتها في تلك اللحظة وأخذت الأمر على علاته ومضيت منشرح القلب وأنا أسمع منها بأنها تحبني.. كنت مخطئاً آنذاك لأنني لم أفكر في معاني الإجابة التي ذكرتها سهى لأنني يومها لم أكن قادراً على تفهم ما رمت إليه وإلا لكان لي معها شأن وأي شأن.

يوم وصلت إلى نهاية التوجيهي عرفت قدماي طريقها إلى بيت سهى أحمل بين يدي شهادة التخرج وكأنني أردت أن أطلعها عليها وأتلقى منها التهاني قبل أي إنسان لكنني لم أجدها فعدت إلى البيت ووجدت عمي وزوجته وإحساس بالألم لا يفارق قلبي حتى إن عمي شعر بما أحسه فسألني عن السبب لكنني لم أقل شيئاً وعزوت ذلك إلى أنني كنت أتمنى أن يكون تقديري أكبر من هذا الذي أخذته.

هذا ولم يمض وقت كبير حتى أخذت سهى تغيب عن بيتنا وعن زيارتنا

وأصبحت لا أراها إلا في بعض المناسبات حتى غداء الجمعة أصبحت متخلية عنه، كما أنها بدت لي وكأنها فتاة أخرى غير تلك التي أعهدها.

في يوم من الأيام جاءت سهى مع أمها إلى بيتنا لمحت تغيرات هذه الفتاة على وجهها وبدت انفعالات كثيرة لم أستطع فهمها حتى إنني عندما مددت يدي لمصافحتها أبت أن تصافحني وقالت لي في هدوء ممزوج بشيء من الحدة:

لم يعد من حقي أن أصافحك فأنت كما ترى رجل وأنا فتاة، لقد كبرنا يا ابن العم وأصبحنا نعي أموراً كثيرة قد تسدل على الماضي ستائر من فضة أو حتى من ذهب تحجب عن أعيننا أشياء كثيرة تعرفها أنت وأعرفها أنا.

وصمتت.

لكنني لم أصمت بل بدأت أتحدث إليها دون أن أنطق بكلمة. كانت تواكب حديثي الصامت بانفعالات كثيرة استطعت أن أرقبها وأراها وأفهمها أيضاً..

ونظرت إليها مرة أخرى لأرى خصلات شعرها وقد غطاها نقاب أسود لملم من تحته هالة من النور كنت أراها كذلك حتى إذا ما قلت لها بأنني أحبها دون أن أنطق.

طأطأت رأسها إلى الأرض خجلاً وأخذ الاستحياء يحيط بمعالم وجهها الأسمر الجميل.. وبقيت على هذا الوضع فترة من الزمن سمعت بعدها دقات قدميها على رخام أرض المدخل وهي تسير بعيداً عني وكأنها تركض تلاحقها نظراتي التي كنت أعي معناها وما ترمي إليه.

وظللت فترة من الوقت وكأني قد تحولت إلى شبح ضاعت منه أحلامه فجأة بعد أن كانت حوله ونظرت إلى البعيد أستعرض الماضي بكل جوارحي لكنني لم أفلح في أن أتمثل كل وقائعه في تلك اللحظة وضعفت قدرتي على السير فأمسكت بجدار المدخل وكأنني أستنجد به أن ينقذني من هذا الدوار الذي يحيط برأسي وقلبي حتى عيني.. واشتد وجيب قلبي لكنني لم أجرؤ على أن ألحق بها هكذا دون أن أواصل حديثي مع نفسي دون جدوى.

تلك أيام مضت وانقضت لكنني أتذكرها رغم محاولتي أن أهيل عليها

طبقات من النسيان لكنها تراود خيالي كلما التقت عيناي بسهى، سهى التي أحببتها ولم تحبني رغم أنها تؤكد غير ذلك ومن كل قلبها لكنه نوع آخر من الحب حرمني منها فلقد تزوجت سهى من أعز صديق لي لم أحدثكم عنه فمحمود ليس صديقي فحسب وإنما هو أقرب الناس إلى قلبي بعد سهى.

صدقوني عندما أقول بأنني في ليلة عقد القران لم أكن في وضع أستطيع أن أقول عنه إلا أنه انعدام في الوزن ظهرت آثاره بالنسبة لبعضهم ممن تساءل عن السبب، لكنني لم أجد جواباً وابتعدت بنفسي عن كل سؤال يوجه لي من بعض الأسرة، لأنني خفت أن تفضحني عيناي في هذه المناسبة وأخذت مكاني بعيداً على كرسي جانبي أرمق المأذون الذي سطر في كتابه وثيقة الزواج وأنا تائه عن الناس وعن نفسي وعن كل شيء.

وتنزف الجراح

لم يعد العالم مجرد قرية صغيرة يتصل بعضها لبعض في منظومة من الاتصالات التي أصبحت عصب هذه الحياة، وإن اختلفت كل قرية عن الأخرى في عاداتها وتقاليدها وغدت نموذجاً مغايراً للنموذج الآخر.

هكذا عرف الحياة وقرأ الدنيا وجاب مدنها وشواطئها والتحمت أفكاره بأفكار أبنائها أولئك الذين أحب بعضهم وكره بعضهم الآخر. فقد كان أقدر على فهم ما يجري على هذه الأرض بعد أن كبر وشب عن الطوق وخرج من شرنقة الواقع لهذا العالم الفسيح المليء بشتى أنواع الناس وصورهم ولغاتهم وملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم.. ولكن أحس بالكثير من الحب يداخل قلبه عند رؤية بعض الموانىء التي أحب حتى إذا ما زارها عرف حقائق وتفاصيل الحياة فيها أحبها أكثر وأكثر.

العالم شيء كبير وهو مجرد رقم صغير لا يمكن أن يرى عندما يضاف إلى الأرقام الكبيرة التي تجري على الأرض لكنه مع كل هذا رقم مؤثر هكذا كان يقول لأنه استطاع في رحلاته أن يحفر حضارة بلاده في عقول كل أولئك الذين قابلهم وقابلوه وتحدث معهم وتحدثوا إليه.. إلا هي فقد كانت نسيجاً مغايراً لكل الأنسجة رغم لغتها العربية ووجهها الأسمر.

وهو يذكر أول لقاء له بهذه المرأة.. يذكره لأنه جاء عفواً تدخلت الصدفة في حينه فلولا لغتها وهو يتحدث إلى صديقه بلغته لما

عرف أنها عربية ولما استطاع أن يلمح حيرة الغربة تبدو ظاهرة على عينيها.

كان الوقت صباحاً وطوابير الناس تتدفق على زيارة الأماكن الجميلة في هذه السفينة الكبيرة الراسية في ميناء المدنية الأمريكية والتي حملته قدماه إليها بعد طول عناء فلقد أمضى أكثر من ثلاثة أشهر يجوب أنحاء العالم مدنه وقراه من باريس إلى لندن ومن لندن إلى كوبنهاجن ومن كوبنهاجن إلى مدريد ومن مدريد إلى نيويورك وواشنطن ثم مدينة ميامي في النهاية وكان على موعد مع هذه المدينة التي أحبها من كل قلبه.

ربما كانت من أسباب حبه لها هذه الروح الطيبة التي رآها تطل من عيون الناس ترمق الغريب بحب دون أن ترى في تقاطيع وجهه شيئاً جديداً عليها.

سكان المدينة كلهم يبتسمون للناس يبادلونهم التحية ويتحدثون إليهم في شوق. كل شيء في السفينة ذات الأربعة عشر طابقاً يدل على ذوق صانعها الذي أدرك بفطرته حاجة الإنسان لهذا النوع من وسائل النقل ذات وسائل الراحة المتطورة ولقد أصبحت هذه السفينة نقطة جمال جديد تصنعه يد الإنسان لراحة أخيه الإنسان.

ولقد شدته لرحلة البحر الكاريبي رغبة عارمة في أن يعيش عيشة أصحاب الملايين ولو لمدة أسبوع واحد تجعله يتحدث عنها في شيء من الحب كما كانت أمنيته أن يتعرف ببعضهم ممن يثيرون صفحات الصحف بأخبارهم مصغياً إليهم.

كل هذه الأفكار راودت مخيلته وهو يطالع صفحة الوجه الأسمر الجميل الذي أخذ بمجامع قلبه فترة من الوقت حاول خلالها أن يلحق بالخطوات الواجفة التي بدأت تظهر قلقها عندما أحست بخطواته..

ومع هذا حاولت أن تتجاهله حتى إذا ما أصبح مجاوراً لها ألقى التحية لترد عليه الفتاة تحيته بصوت أحس بموسيقاه تلهب أذنه التي أصبحت متشوقة لكلمات جديدة لكن الفتاة ظلت على صمتها حتى إذا ما تجاوزت باب المصعد هو إلى غرفته وهي إلى غرفتها قال:

ـ أظن السيدة عربية.

ـ نعم . .

قالتها في شيء من الاضطراب لكنه لم يصمت بل عاود حديثه بقوله :

ـ نعمة من الله أن أجد فتاة من أرضي العربية على هذه الأرض العائمة .

قالت الفتاة :

ـ وما يدريك أن لا يكون ذلك غير ما أردت؟

نظر إلى وجهها مرة أخرى وإلى الحلية التي ترتديها وظهر اسمها واضحاً فقال :

ـ «نورا» على ما أظن . .

قالت :

ـ قد يكون اسمي وقد لا يكون ولكن ما اسمك؟

وألقى باسمه عليها دفعة واحدة «جمال» . . لكن المصعد كان قد أتى على الدور التي ستنزل فيه . . فلم يترك الفرصة وإنما تبعها بخطوات . . قالت له بعدها :

ـ ولكن غرفتك في الطابق العاشر على ما أظن . .

فقال :

ـ كيف عرفت؟

قالت :

ـ لأنني رأيتك وأنت تضغط على الرقم بهدوء . .

والتفتت إليه وهي تضحك :

ـ والآن ماذا تريد؟

ـ صحبتك . . فأنا غريب والغريب للغريب قريب . .

قالها بسرعة . . فقالت :

ـ لا بأس سنلتقي بلا شك بعد أن ترتاح وأرتاح أنا .

ـ ومن قال لك بأنني متعب؟ فلقد زال كل تعبي بعد أن التقيتك .

ـ أنت مجامل كبير . .

قالتها في دلال وانتظرت أن يعود المصعد.. ولما لم يعد قالت:

ـ هيا لا تضيع الفرصة فقد يذهب المصعد ولا يعود إلا بعد فترة.

قال:

ـ أنت على حق فأنا لا أريد إضاعة الفرصة.

وأعطاها رقم غرفته بعد أن تواعدا على اللقاء وبعد أن أشعرته بأنها في أمس الحاجة إلى الراحة وتركها ليعود إلى المصعد ومنها إلى غرفته ليفكر في أمر هذه الفتاة التي يحس وكأنه يعرفها منذ سنوات طويلة.

ترى هل هو الفضول الذي يدفعه لأن يعرف حكايتها.. أم إنه الحرص على أن يراها ويتحدث إليها؟ ولقد أمضى ليلته كلها يقلب الأمر بينه وبين نفسه حتى خالها قد شغفت به ولكن ربما كان هذا الأمر سابقاً لأوانه.. ومع هذا فهو لا يدري حقيقة كل هذه الأحاسيس التي تعتمل في أجواء نفسه وتتضارب حتى إذا ما بدأ نور الصباح يرتفع في أجواء غرفته وهو في طريقه ليغسل وجهه سمع صوت جرس التلفون وكأنه على موعد معه أو معها هذه المرة.. لكن سماعة التلفون لم تشف غليله، فقد بدت ساكنة صامتة وكأن من طلبه قد خاف أن يتحدث في هذا الوقت المبكر، لكنه لم ييأس بل واصل نداءه قائلاً:

ـ ألو.. ألو..

حتى جاءه صوتها يلامس شغاف أذنه وهي تقول:

ـ خفت أن أزعجك عندما استمعت إلى صوتك يخالطه شيء من النوم فأردت أن أصمت حتى تعود لحالتك لأقول لك كيف حالك اليوم.

قال:

ـ كما ترين انتظرت الصباح بفارغ الصبر.

وصمت.. لكنها آثرت أن تتجاهل ما يعني فقالت:

ـ أولست من هواة الغطس؟

قال:

ـ لا، بل أنا من هواة البحث عن أعماق النفس البشرية ولكنني مع هذا لم أكن أعرف عن هذه الرحلة ولهذا لم أشترك فيها.

ـ إذن سنتقابل عند الظهر عندما أعود من رحلتي.

ـ «عند الظهر»..

قالها مرتين وكأنه يستبطىء وقت هذا اللقاء طوال كل هذه الساعات..

ـ وهل ستذهبين إلى هذه الرحلة بمفردك؟

ـ لا..

قالتها باستغراب.

ـ بل سأكون في رفقة صديق من هولندا وآخر من أمريكا تعرفت إليهما بعد أن تركتك في غرفة الطعام إذ كانا يشاركانني مائدتي.. أما أنت فلم تأت لتناوله على ما يبدو أم أنك من رجال المطعم الآخر.

ـ لا هذا ولا ذاك وإنما وجدتها فرصة أستطيع بها أن أجنب نفسي شيئاً من زيادة الوزن من جهة ولأتعرف إلى نفسي بشكل أفضل فأنا وإن كانت هذه هي الرحلة الأولى لي في البحر إلا أنني أخشى دوار البحر.

ـ لا بأس.

قالتها بعد أن ودعته أما هو فقد مضى إلى غرفة الطعام في الدور الرابع من السفينة ليجد على يمينه على مائدة الطعام امرأة إيرلندية حسناء ألقى عليها التحية وفي مواجهته رجل وامرأة في منتصف العمر من بريطانيا وقد انغمسا في حديث هامس وكأنهما زوجين يقضيان شهر العسل لأول مرة.

أمضى الوقت في حديث مع جارته التي عرف أنها تقوم بالرحلة ذاتها للمرة الثانية بعد أن قامت بها في العام الماضي وتعرف إلى الكثير من التفاصيل عن الرحلة واتفق معها على أن يمضيا بعض الوقت على سطح السفينة بعد أن تقوم بإطلاعه على ما تحتويه السفينة على الطبيعة.

كانت اليزابيث من نوع فريد يقابله لأول مرة فقد تعرف إلى الكثيرات عندما كان يدرس في أمريكا وكندا.. إلا أنها نسيج يغاير كل تلك الأنسجة.. فهي على الرغم من أنها سيدة أعمال إلا أنها ذات ثقافة فنية وعملية أيضاً لدرجة مذهلة.. فإلى جانب اللغات الثلاثة التي تجيدها فهي محدثة لبقة جمعت بين ثقافة الغرب وقرأت الكثير من كتب الشرق وأعجبت كثيراً بقصص

ألف ليلة وليلة والتي تعتبرها قمة في الخيال والإعجاز معاً.

السفينة تمخر عباب البحر وبعض الطيور تحوم عن بعد كنقط بيضاء متحركة كان يظنها باديء ذي بدء مجرد نقط من غيوم متحركة لكن بعد مزيد من التأمل تأكد له بأنها طيور بيضاء يعرفها سكان الجزر في الكاريبي وينطقون أسماءها بشيء من الحرية.

طلبت اليزابيث منه في أدب أن يلتقط لها صورة وهي على سياج السفينة وعندما أنهى اللقطة التفت إلى الخلف ليراها ترتدي بنطالاً أحمر وقميصاً «تي شرت» أبيض قصير الأكمام. وجهها كوجه طفلة. حيته عن بعد، وجارها هو الآخر حتى إذا ما وصلت إلى حيث يقف ابتسمت وقالت:

ـ لم تضع وقتك بل عرفت طريقك إلى قلوب الآخرين..

ضحك هو الآخر وقدم زميلته في الطعام إليها.. فقالت اليزابيث:

ـ إذن أنت عربية.. ومن بلده؟

أجابت نورا:

ـ نعم ولكنني من لبنان.

ـ هل تبعد كثيراً عن السعودية؟

أجابت نورا:

ـ بعد بريطانيا عن ايرلندا يا عزيزتي.

ـ وهل قدر لك أن تذهبي إلى السعودية يا عزيزتي؟

ـ لا.. وإن كانت أمي قد ذهبت مع أبي إليها وأنا صغيرة بعد أن تركتني لدى خالتي.. فالسعودية بالنسبة للمسلمين القبلة والأهل والمصدر.

وتتابع الحديث طويلاً حتى أذنت شمس اليوم بالمغيب فاستأذنت اليزابيث في العودة إلى غرفتها على أن تتابع حديثها معها في أعقاب طعام العشاء الذي لم يبق على موعده أكثر من ساعة.

أما نورا فقد كانت مرحة جذلة وكأنها صبية صغيرة استطاعت أن تحصل على لعبتها المفضلة بسهولة وبساطة.

وجاء موعد العشاء لتأتي جموع المسافرين على متن السفينة بملابسهم الرسمية وكان النساء على كثرتهن أقدر على إبراز أناقتهن من الرجال الذين بدا المرح على وجوههم كدليل على تمضيتهم لنهار رائع رغم أن السفينة لم تحطّ، بعد على أرض أية جزيرة.

بعد ساعة من الزمن دلفت اليزابيث إلى غرفتها مستأذنة على أمل اللقاء مع الغد على أرض أول جزيرة تصل إليها السفينة، أما نورا فلم تكن في حاجة إلى الراحة فقد كانت ترى بأن أيام السفينة أقصر من أن تضيع ومضت تثرثر وهي في قمة السعادة.

الجهاد المقدس

اندفعت سعاد لأداء صلاة التهجد كعادتها في كل ليلة منذ أن عرفت زوجها الذي اقترن بها بعد الحرب العالمية الثانية. . فلقد أمضت سعاد طفولتها وشيئاً من شبابها في مدينة أزمير مع أسرتها التي هربت منذ الحرب العالمية الأولى من المدينة إلى تركيا.

كانت أصغر من أن تعي حقائق الحرب العالمية الأولى لأنها عندما سافرت في أعقاب الحرب من المدينة برفقة أبويها كان عمرها شهرين فقط، فلم تعرف معنى التشرد عن الوطن ولا البحث عن ملجأ.

لكنها تذكر فقط ما كانت تسمعه من أمها عن هذه الحرب وكيف استطاعت أن تقضي على أماني الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي الذين يتطلعون إلى الخلافة ومركزها في تركيا بكثير من الحب ويأملون بأن تستمر هذه الخلافة حريصة على شؤون المسلمين في جميع أنحاء العالم، قوية كما هي العادة دائماً، نقية في تعاملها مع الآخرين.

ولقد كانت أجمل أمانيها أن تعود إلى مدينتها بعد أن كبرت لكنها لم تستطع ذلك إلا بعد أن تزوجت بأحد أبناء عمومتها من أولئك الذين كانوا يزورون تركيا. ويومها أحست بكثير من السعادة لأنها استطاعت أن تعود إلى الأرض التي حدثتها أمها وجدتها عنها الكثير.

وفي المدينة المنورة طاب لها المقام وإن لم تكن قادرة على التحدث بلغتها بطلاقة نظراً لطول ما قضته في تركيا من سنوات

ولكون أن تعليمها هناك كان باللغة التركية. وهي تتذكر كيف كان أبوها يحاول تلقينها لغتها الأصلية في فراغه لتكون قادرة على التحدث بها يوم تعود، وقد أمكنها ذلك.

تلك أيام مضت وانقضت لكنها تظل عالقة بذكرياتها التي كانت تختزن الكثير من الذكريات.. فلقد حرمت العيش طوال الحرب العالمية الثانية في تركيا حتى إذا ما انقضت عبرت الطريق البري في رحلة طويلة إذ لم تكن الطرق في المملكة على ما هي عليه.. لكن استتباب الأمن في تلك الصحارى منحها القوة هي وزوجها على السير عبر الصحراء الطويلة مخترقة براري المملكة حتى إذا ما أصبحت على مشارف المدينة طفرت دمعة شجية من عينيها وهي ترمق أمها في صمت تلك التي أخذت تدعو بأدعية طويلة خافت أن تقطع خلوتها بأسئلة ساذجة.

هكذا كانت تسميتها أما اليوم فقد ازدادت حنكة وأصبحت تعرف كل شيء في مدينتها التي أحبتها.

ولقد أمضت حياتها في هذه المدينة كأجمل ما تكون الحياة، فقد رزقها الله سبعة أطفال ما لبثوا أن كبروا وشبوا عن الطوق. ولقد التحق أكبرهم وأوسطهم وأصغرهم بالكلية الحربية التي تخرجوا منها بتفوق.. أما الأربعة الباقون فقد التحقوا بكلية الطيران وأصبح في مقدور كل واحد منهم أن يعيش ويفتح بيتاً ويرزق بأبناء.

ولكم سعدت بأحفادها عندما يزورونها أو حتى عندما تزورهم هي الأخرى في بيوتهم في الرياض وخميس مشيط والشرقية.

لم تكن تربية الأولاد سهلة أو ميسورة، فظروف الحياة ومقتضياتها كانتا تفرضان عليها مزيداً من الحب المغلف بشيء من القسوة حيال أولادها بادىء ذي بدء في صغرهم حتى إذا ما كبروا وتسلموا مسؤولياتهم شعروا بقيمة هذه الأم خصوصاً وأن والدهم كان مشغولاً عنهم بالبحث عن لقمة العيش مع رفقائه حيث كان يمضي أكثر من خمس عشرة ساعة في متجر المجوهرات الذي يعود له..

ولقد أضفت تربيتها لأبنائها الكثير من الجدية على أسلوب حياتهم لدرجة

جعلتهم يدركون مسؤولياتهم لينالوا أرقى الدرجات في حياتهم العسكرية كما أضافت الجندية هي الأخرى الشيء الكثير من ظلها على نظام حياتهم.

وهي تذكر كيف زفت كل واحد من أبنائها بفتاة من فتيات طيبة الطيبة اللواتي أصبحن بمثابة بنات لها هي التي لم تنجب بنتاً.

وكانت ضعيفة بطبعها أمام فريد أصغر أبنائها لإصابته بحمى التيفوئيد عندما كان صغيراً.

يظل الصغير الذي كبر كما هو حاله بالنسبة إليها فقد كانت تعتقد أنه صورة طبق الأصل عن أبيه الذي فقدته يوم ولادته.

ولكم سعدت بعودة أبنائها إلى المدينة بعد أن انتهت خدمته للجندية التي يعشقها.. لكنها ظلت مع ذلك حزينة من أجله هو الذي أحب مهنته كثيراً وشعر بالاكتئاب لمجرد بعده عنها.. لكن ذلك كله لم يكن يؤثر في ظروف الحياة والمعيشة التي كان يمارسها الجميع بحب وصبر وأناة، فسنوات الصمت التي مضت منحتها الفرصة للحديث الطيب بهذا الكلام وما أجمل كلام الأم عندما يأتي عن الأبناء وهم على شريط الجبهة يقاتلون عدواً شرساً متربصاً بأمتهم وشعبهم.

تلك هي حقيقة الحياة في ذلك البيت الصغير الذي يظل على مجرى سيل أبو جيدة الذي تغيرت معالمه وأصبح شيئاً من الماضي ضاع واندثر لكنه يظل في مكانه أرحب شاهداً على قدرة الإنسان لمعالجة مشاكله وعهمومه..

وهي تتطلع إلى صور الأولاد وهكذا تقول عنهم رغم أنهم كبروا.. الأولاد ذهبوا. .سافروا.. عادوا في إجازة..

لا هم لها إلا هؤلاء الأولاد الذين أحبت.

وجاءت الحرية لتشعل جذوة الحب في قلب الأم الوادعة التي تنظر بقلق إلى صورهم وهم في بزاتهم العسكرية وقد ازدانت حجر نومها بالعديد منها.. فالأولاد يتبارون في إرسال صورهم لأمهم والأم تحتفي بهذه الصور حتى أصبح لا يوجد مكان على جدران الحجرة لصور جديدة.

قلقت لهذا الأمر فالحرب ستنتهي والأولاد سيعودون والصور ستصل إليها

وجدرانها ملأى بالكثير فماذا تفعل؟ وصديقتها وجارتها أم محمود مسافرة وقد طال غيابها.. ولكنها قد تعود في الغد وعندها ستقول لها كلاماً كثيراً خبأته في داخل أعماقها وتود اليوم أن يشاركها فيه أحد ممن تحبهم ويحبونها رغم أن الدار ملأى بأسر أبنائها وزوجاتهم اللواتي فضلن قضاء العطلة المدرسية معها وبجوارها فهي تحب أبناءها وتحب زوجات أبنائها وتسعد عندما تتحدث لهم عن الأصل في هذه الشجرة الوارفة، فزوجها الذي مضى وذهب وهي تعرف أنه لن يعود لكنه هو الآخر في مخيلتها تعيش ذكراه رغم كل سنوات الصمت التي ما وسعتها مع نفسها والآخرين.

وتمتد يدها إلى جهاز الراديو ليصلها صوته معلناً بدء تسلل عراقي إلى الخفجي حيث كان يعمل أحد أبنائها ضابطاً مسؤولاً عن أجهزة الدفاع في هذه المدينة.

تابعت الخبر بعناية وفهمت الهدف الذي يرمي إليه قائد العراق من هذه المعركة وضحكت من أعماقها فقد كانت توقن بأن الاندحار سيكون من نصيب المعتدي الآثم..

وقد صح حدسها وتصورها وانتهت المعركة لصالح قواتنا وأسر من أسر من القوات العراقية وأصبح همها أن تتلقى مكالمة من ابنها إبراهيم الذي يشارك في الحرب مع زملائه على الأرض كالمعتاد..

لكن لم يصلها صوته ليومين متتاليين فعرفت بأن انشغال ابنها مع زملائه في المعركة هو السبب حتى جاء اليوم الثالث وأطل صوت إبراهيم الجهوري على أذنها.. وهو يقول:

ـ أتدرين يا أمي كأنني نلت أول وسام من أوسمة شرف المعركة. لقد دخلت إحدى الشظايا في فخذ ابنك لكنه تحملها كعادته ومضى يحارب مع أصدقائه وزملائه حتى انتهت المعركة وعندما شعر بما أصابه حمله زملاؤه إلى المستشفى المتنقل الذي يتحدث إليها منه وهو يرفل بالصحة والعافية..

هكذا كان يقول لكنها تعرف من صوته مدى الألم الذي يعانيه.. ففي داخل أعماقها إحساس بأن إصابته وإن كانت صغيرة لكن جرحها مزعج.. ومع هذا ما الذي يحاول أن يخفيه عنها ابنها هنا دارت كل تلك الأفكار بذاكرتها

للحظة حتى إذا ما سألته وهي لا تزال تمسك بسماعة التلفون:

ـ أستقضي إجازة العلاج عندنا في المدينة؟

قال وهو يضحك:

ـ لا . . لأنه ليس لدي إجازة علاج. سأخرج من المستشفى لنلاقي أولئك الذي غرر بهم الجبان الأكبر. . وسألتقي بالعديد منهم وسنستأصل شأفهم من الكويت ونعيدها إلى أهلها ويومها ستكون لي إجازة طويلة أقضيها معك أنت لوحدنا بعيداً عن كل الناس يا أحلى الناس حول العالم لأني أريد أن أرى العالم جميلاً بعيداً عن شرور الحرب قانعاً بالأمن والأمان والسلام مثلك يا أماه. . وأقفل سماعة التلفون، وأخذت الأم تنخرط في بكاء وهي تتذكر كل حرف من كلماته وبعد أن انتهى الكلام بينها وبين ابنها ظل قائماً بينها وبين نفسها فالحرب هذا الدمار القاتل الذي يصيب الحرث والنسل لا بد أن يخوضها عن إيمان كل مؤمن للذود عن الأرض والعرض والمقدسات وتلك هي فريضة الجهاد المقدس التي يتطلع إليها الأولاد. . أولادها وأولاد الناس الآخرين هذه المرة.

امرأة مهزومة

عشرات الفساتين ملقاة على أرض الغرفة في فوضى لم تكن تريدها «سهى» التي اندفعت تبحث في رعونة عن فستان جديد لم تلبسه بعد لتستخدمه في حفلة الأسبوع التي تقيمها صديقتها «هدى».

كانت أشبه بامرأة مهزومة ضاقت في وجهها السبل، وعلا وجنتيها شحوب جميل لم تدرك معانيه عندما التقت عيناها بمرآتها.

هي التي لم تعرف الملل طوال سنواتها العشرين فلقد دأبت دائماً على اقتناص الفرص من أجل سعادتها كأنثى تعرف كيف تضع خطواتها على الطريق.

كانت في تلك اللحظة أشبه بأنثى فقدت فرصتها في السعادة فلم تعد تحس لها طعماً، لا شيء إلا لأنها كانت تظن نفسها قادرة على امتلاك ما تريد.. فلقد رفضت أكثر من عشرين خطيباً طرقوا بابها على استحياء وكانت تنتظر أن يدق بابها «فريد» ابن عمها الذي تعرفه لكنه لم يفعل وآثر السلامة على الاقتران منها.

فقد كان يعرف طيشها ونزقها أيضاً فرأى أن يتقدم إلى «خيرية» غريمتها على الدوام والتي كانت صورة مغايرة لصورتها هي برغم صداقتها لها ومعرفتها بها منذ أن كانتا في المدرسة تتلقيان العلم سوياً. ولقد استطاعت «خيرية» أن تجمع الصديقات من حولها بأسلوبها الهادىء البسيط الذي يميل دوماً إلى جذب الأنظار إلى المحاسن التي تتحلى بها أمام كل واحدة من صديقاتها.

بينما لم تتخل «سهى» عن عنجهيتها وتعاليها حتى أصبح كل من يصادفها من أولئك اللواتي يحتجن لها في حياتهن ويستطعن أن

يستمتعن بصحبتها في رحلاتها ما دامت قادرة على دفع تكاليف رحلاتهن.

وهي تعرف هذا، تعرفه جيداً وترى أن أسلوبها في التعامل يجب أن يظل على ما هو عليه ما دامت تملك كل هذه القدرة على إسعادهن بأسلوبها.

أمها في البيت الكبير تستحثها على الانتهاء من ارتداء ملابسها وهي جد حائرة لا تدري ما تفعل خصوصاً وأن «خيرية» ستكون هي الأخرى هناك في هذا الحفل الكبير الذي تقيمه أختها. . ولقد حاولت هي من جانبها أن تقنع أختها بعدم دعوة «خيرية» لكنها لم تفلح ولهذا تجد نفسها أكثر اضطراباً وهي تختار ملابسها لتأتي أناقتها أفضل كما ترغب، لكنها مع كل هذا تحس بالغيرة وهي تتسرب من خلال أظافرها لتلتحم بأوردتها وشرايينها لتلتف بعد ذلك كله حول قلبها وعقلها فلا تدري إلى أين تقودها هذه الغيرة.

وعلا وجهها بعض الشحوب الذي حاولت إزالته بلمسة من كفيها مستخدمة بعض وسائل التجميل دون أن تدري بأن اضطرابها وزيادة دقات قلبها وهي تواصل ارتداء ملابسها يمنحها بعض الجمال وكأن أكثر من عفريت أصاب جسدها فجأة.

الناس بين رائح وغادٍ في الحفل الكبير، وهي تختار طريقها أشبه بملكة متوجة.

كانت عيناها تجوسان في وجه الفتيات اللائي تحلقن حول «خيرية» التي هي بملابسها العادية أشبه بفتاة لم تترك مدرستها بعد.

كانت لحظة أشبه بوميض البرق. . قارنت خلالها «سهى» بينها وبين هذه الفتاة التي أخذت منها ابن عمها فرأت الفرق بينها وبين «خيرية» كبيراً يميل بالطبع إلى صفها لا لأنها الأجمل وإنما لعدة أسباب أخرى في مقدمتها قدرتها على انتقاء ملابسها بعناية.

لكن الأمور لا يمكن أن تسير كما تريد، ولهذا جاءت هذه الفتاة لتغتال فرحتها وتحيل سعادتها إلى قنوط وبأس.

أكثر من ثلاث ساعات قضتها «سهى» ترمق الفتيات اللواتي جئن بمرافقة أمهاتهن. . لكنها وحدها في هذه الحفلة فأمها رفضت أن تشارك بعد تأخر

«سهى» في ارتداء ملابسها وتعتقد أن أمثال هذه الحفلات هي عبارة عن مضيعة للوقت والمال معاً . . وهي على نقيض أمها تختار فساتينها بعناية في كل حفلة من هذه الحفلات محل الإطراء والثناء والإعجاب.

أشياء كثيرة طافت برأسها وهي تمد يدها لتسلم على «خيرية» التي استقبلتها في ود. . لكنها لم تكن كذلك رغم أنها حاولت أن تبدو كذلك.

ومضت بعد أن انتهت من هذا الواجب الثقيل لتحتل مكانها برفقة بعض صديقاتها اللواتي كن يرين فيها كنزهن الذي لا يردن أن يضيع.

ومضت ثرثرة البنات تأخذ أشكالاً كثيرة حاولن خلالها أن يلهبن خيال صديقتهن التي كن يرغبن أن يسرين عنها لمنحها الراحة والهدوء. لكنها ظلت على حالها تلك تنقل عينيها من وجه «خيرية» إلى وجهها الذي التقت معه عن بعد على المرآة الكبيرة التي وضعت على الجدار المقابل لمكان جلوسها، فلم تستطع أن تفهم السر في اختيار ابن عمها لهذه «الخيرية» التي لا تمتلك من مقومات الجمال شيئاً ما . . وأيقنت بأن هناك سبباً بلا شك يدعوه لأن يرتبط بهذه المسكينة التي ملأت قلبها خوفاً وجزعاً وجعلتها تعايش الألم هي التي لم تعرف الألم طوال حياتها.

وخرجت من الحفل إلى بيتها وهي حانقة لأنها لم تستطع أن تصل لهدفها بإغاظة «خيرية» التي بدت في الحفل وهي نشوى بصديقاتها اللواتي يحببنها، تريد أن تتلافح كما تتلافح الأفكار معلنة عن أن عنادها لم يعد يصلح لأن أمر زفاف ابن عمها لغيرها أصبح شيئاً لا يمكن أن يقاوم.

وخرجت من غرفتها لأول مرة بعد انقضاء ثلاثة أيام بلياليها . . لتجد أباها ينقل لها خطبة الدكتور خالد الذي رفضته في المرة الأولى فاستمعت لكلامه في هدوء ولم تدر رأسها إلى الجهة الأخرى، مما جعل أباها ينقل عينيه بينها وبين أمها . . كدليل على الاستغراب، وجاء صوتها هذه المرة قوياً بلا تثاؤب فهي ترضى بالزوج والزواج وتشترط على أبيها أن يتم دون أي تفكير.

وفي البيت اختارت الاعتكاف في غرفتها مدعية بأنها متوعكة مما جعل أمها وأبوها يزورانها في غرفتها أكثر من مرة وهي شبه راضية بما ترى من مظاهر الالتفاف حولها كطفلة تريد أن تفرض رأيها على الجميع.

واندست في فراشها تنظر إلى سقف الغرفة في بلاهة ولا مبالاة لكنها في أعماق أعماق نفسها تعرف بأنها هزمت وأن هزيمتها جاءت من فتاة بلا أسلحة. . وأسلحة المرأة إلى جانب الجمال المال والأناقة والمقدرة على التحرك والالتفاف ونصب الشراك وصيد العصافير وشوائها إن تسنى الأمر.

لكن الشواء أصاب أنفها بالزكام وهي رغم انسداد أنفها تحس برائحة شواء لحمها على نار هادئة وتنتظر الفرصة التي يمكنها أن تخرج فيها من هذا المأزق الذي وضعت فيه نفسها بنفسها، وعندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير أخذتها سنة من النوم بعد سهر طويل لتجد نفسها على حافة اقتناصها للفرصة. . لكنها فرصة لم تكسبها هي وإنما كسبتها أخرى. . فقد ترك ابن عمها خطيبته «فسخ الخطبة» وأراد أن يرتبط لكنها لم تكن هي. .

وصحت من النوم لترى كيف أن الأحلام هي الأخرى تعاكسها دون صمت بل تعلن عن نفسها بألوان زاهية رأتها بأسرع ما يمكن. . وقبل أن يتم زفاف «خيرية» إلى ابن عمها، ضحك أبوها لكن أمها لم تضحك ربما لأنها لم تعرف المقصود وربما لأنها عرفته ثم تجاهلته.

وجاء صوت والدها هذه المرة أجمل ألف مرة عن ذي قبل وهو يخترق أذنيها في هدوء ويقول:

ـ كل ذلك يا حبيبتي. . لك ذلك يا حبيبتي.

ومدت يدها لتحتضن أباها وهي تواصل حديثها:

ـ ولكني أريده أن يكون زواج العمر يتحدث عنه الناس كل الناس.

صمت أبوها فترة من الوقت خالتها زمناً طويلاً لكن كلماته جاءتها أخيراً مشرقة ومطمئنة وهو يقول:

ـ لك هذا أيضاً يا حبيبتي.

ونظرت إلى وجهه وكأنها تريد أن تعبر عن حبها لهذا الأب الذي شعرت بحبه يزداد ويزداد. . هي التي كانت تظن أنها لن تحب إلا نفسها ونفسها فقط.

طفل كبير

وتمد هديل يدها لتلتقط من على أرض الغرفة حبة لؤلؤ بيضاء ضلت طريقها بعد أن انفرطت حبات العقد الذي ارتدته مساء يوم أمس أثناء تلك الحفلة التي أرغمت على حضورها تلبية لرغبة صديقتها شذى التي تزوجت بعد فترة قلق طويلة. ساهمت فيها أكثر من صديقة خوفاً من المجهول الذي يأتي في أعقاب الرباط الزوجي والبعد عن البيت الأساسي لبيت آخر جديد.

وظهرت على وجهها تعابير كثيرة حاولت أن تخفيها عن مرآتها دون جدوى فقد بدا القلق على وجهها وشفتيها اللتين ارتجفتا للحظة، فهي تعرف معاني هذا القلق الذي يلازمها عندما لا تشعر بالأمان.

قد تكون شذى صديقتها هي التي عرفت سعاد بها وبأسرتها وسعاد هذه هي أخت طلال الذي تقدم إلى والدها يطلب يدها. لقد فكرت كثيراً في حفلة شذى. لماذا اختارتها هي بالذات وقد كان معها في تلك الليلة أكثر من واحدة يمكن أن تصلح زوجة لأخيها الذي تحبه كما تقول؟

ولقد تحدثت يومها إلى شذى حديثاً طويلاً أفضت خلاله بمخاوفها من هذه المرأة ومن الاقتران برجل لا تعرف عنه إلا ما يقوله الآخرون.. لكن شذى ضحكت من قلبها وحاولت أن تطمئنها على أن مخاوفها كلها ليست لها أساس، فالبنات يتزوجن ويعشن في بيوت غير البيوت التي ولدن فيها، فهذه هي سنة الحياة.. هكذا قالت لها وأردفت قائلة:

ـ أو تعنين أنك تفضلين الاقتران بواحد من أفراد الأسرة؟ ولكن

لماذا لم يتقدم إليك هذا الواحد الذي لا أشك بأنك كنت تنتظرين قدومه بفارغ الصبر؟

نظرت إليها ولم تبتسم وقالت وهي خائفة:

ـ وما يدريك أنه لو كان هنا لما تأخر؟

ـ أو تعنين أن هناك من تنتظرين عودته ليخطبك من عائلتك؟

ـ لا..

قالتها هديل بهدوء وكأنها تنفض عن نفسها كل هذا الألم الذي يعتصر قلبها في تلك اللحظة لأنها لا تريد أن يعرف سرها أحد.. فهي تعرف صلاح ابن خالها الذي قال لها يوم سافر إلى أمريكا إنه يريدها لنفسه..

قالها في هدوء وهو ينظر إلى عينيها اللتين أسبلتهما لتدرأ بإسبالهما عن نفسها مؤونة الإجابة.

ولكن أين صلاح اليوم؟ لا تدري ولا تدري حتى أسرته ما الذي حدا بهذا العاقل أن يهجر أرضه وأهله وينسى حبه إذا كان فعلاً راغباً في الزواج بها.

ولقد طلبت منها أمها وخالتها أيضاً أن تنسى صلاح وكل ما وعد به هذا الخائن الغادر.. وأصبح جل هم أمها أن تجد لها العريس الذي يناسبها دون جدوى، فقد آلت على نفسها أن ترفض كل من يتقدم لها على أمل، لكن أملها ظل مفقوداً حتى ما لا نهاية مما جعلها تدرك غلطتها من كل هذا الإصرار على الرفض والتشبث بالأوهام.. فالأوهام تأخذ شباب المرأة، وتقضي على فتنتها وتمضي بها في طريق طويل لا نهاية له هو الآخر.

لكن قلبها يقول شيئاً آخر، قلبها يقول بأن صلاح سيعود وسيقترن بها رغم طول الغيبة ولكن...

أخذت تفكر وتفكر حتى غلبها النوم وهي تظن بأنها ستجد بين آونة وأخرى بين ذراعيه الراحة.. لكن الراحة التي بحثت عنها كثيراً ضاعت.. وفقدتها من بين أصابعها وأصبحت رهن هذه الأفكار التي تجول بخاطرها.

وفي الصباح شعرت بأنها غير راضية عن هذه الخطبة التي جاءت بها شذى. أمسكت بزراير التلفون وأدارت أرقامه في هدوء لينسكب صوت شذى في أذنيها.

لم تكن في تلك اللحظة قد فكرت فيما ستقوله وتستمع إليه من هذه الصديقة التي قالت في هدوء:

ـ أو تدرين لقد تحدثت سعاد إلي وطلبت مني أنسى ما طلبته منك.

قال هديل:

ـ ماذا تعنين؟

قالت شذى:

ـ أعتقد أنهم قد صرفوا النظر عن خطبتك وهذا كما تعرفين قد سرني لأنني كصديقة لك أرفض أن تقترني بإنسان لا تريدين الاقتران به.

شكرت هديل شذى وقالت لها:

ـ وأنا كذلك.. فلقد فكرت كثيراً ولأن من واجبي أن أطلب منك نفس ما قلتِ فأنا الأخرى لا أريد أن أتزوج على الأقل هذا العام.

ضحكا سوياً بعد أن تواعدا على اللقاء، وعادت هديل إلى كرسيها تفكر في هذا الذي جرى.

ربما كان من الأجدر أن ترفضي هذه الخطبة قبل أن ترفضها سعاد ولكن هذه هي إرادة الله.

وعاودت التفكير في أمر صلاح الذي لم يعد يتصل بها ولا بأسرته.. أين هو الآن.. أترى قد اصطادته فتاة أمريكية أو أوروبية؟. وهل قرر البقاء في أمريكا إلى الأبد؟

لم يدم بقاؤها في غرفتها طويلاً حتى أطلت عليها شذى بقامتها المهيبة وجمالها الهادىء وهي تبتسم قائلة:

ـ لم أرد أن أقول لك في التلفون كل شيء ظننت أن من الأفضل أن أتركك تحاورين نفسك طوال هذه الفترة ولكن وددت أن أطيل غيابي لكنني خفت أن يكون ما قلته لك تسبب في إيلامك.. أو تدرين ما هو الموضوع؟

قالت بسذاجة:

ـ لا.. كل الذي أعرفه هذا الذي قلته.

قالت شذى:

ـ كل ما قلته ليس صحيحاً . . فأنا التي قلت لهم إنك ترفضين الزواج بعد أن التقيت بأخت صلاح التي قالت لي كل شيء عرفت منها أنك تنتظرين هذا الرجل الذي تعود على الغربة. . وقالت بأنهم فعلاً تضايقوا عندما لم يواصل صلاح مراسلته لهم. .

وقالت:

ـ وعرفت كل شيء ولهذا وبعد أن عرفت ما عرفت اعتذرت لسعاد وقلت لها إنك لا تريدين الزواج، لكن اعتذاري لم يأت من فراغ فالسبب أن صلاح سيعود إلى جدة وإلى أهله بعد يومين. .

أمسكت هديل بيد شذى وأخذت تنظر إلى عينيها وكأنها تريد أن تتأكد من صدق هذا الذي قالته حتى إذا ما تأكدت من صحة قولها أخذت تقبلها في شيء من الحب المقترن بالأمل في لقاء حبيب العمر الذي انتظرت عودته طوال كل هذه السنين.

ولقد أحست بحبها لهذه الصديقة التي عرفت كيف تنقل لسعاد رفضها لمشروع خطبة أخيها الذي ساءها أول مرة أن يأتي الرفض من سعاد كما قالت لها شذى.

ومضت الصديقتان في حديث هامس طويل قطعه حديث خاطف من نهى أخت صلاح وهي تتحدث إليها عن عودة صلاح المرتقبة.

ترى ما الذي سيقوله صلاح عندما تقابله وتراه وتحدق عيناها في عينيه؟ هل سيكذب أم سيقول الحقيقة أم سيلف ويدور محاولاً تبرير غلطته في كل هذا الغياب؟

لا بد أنه سيتحدث إليها طويلاً وسيقول الكثير وسيتحدث عن شوقه الذي ضاع وحبه الذي عاد بعد أن ضلت أقدامه الطريق.

هكذا تحدثت لنفسها. . حتى إذا ما طال صمتها عن الإجابة تذكرت. . بأن عليها أن تبحث عما ستجيب به على نفسها هذه المرة. سيقول إنه مشغول ببنية من بنات الغرب حاولت إغراءه فترة من الزمن لكنه عاد إلى صوابه فور

قرب موعد عودته.. فالرجال كما تسمع أمها عندما تقول عنهم ليسوا كلهم طيبين.. وإن بدا على وجوههم شيء من الطيبة.

أمها تعتقد أن الوفاء صفة من صفات المرأة وقد تضل طريقها إلى قلوب قلة من الرجال وأن على المرأة العاقلة أن تنسى نزوات زوجها إذا أرادت أن تعيش في راحة.

وهي تريد أن تعيش فقط مع صلاح الذي سيأتي مع الغد كفارس عاوده الحنين إلى غابات بلاده وهضابها وسفوح جبالها وروابيها.

ربما لأنها عاشت كل الأمل ترمقه بعينيها وشرايينها التي تعج بالدماء، وربما لأن هدفها الأول والأخير أن تفوز في رحلة العمر بهذا الفارس الذي همس في أذنيها ذات يوم بحبه لها، وربما لأنها قضت طفولتها معه ترمق الأفق بنظرات طفولية محبة.. وربما وربما..

لكن الغد الذي تنتظره سيحقق كل هذه الأماني والآمال.. سيمنح قلبها ويعطي نفسها الراحة. هذا الغد الذي انتظرته على أحر من الجمر، متى يأتي لا تدري وإن كانت قد أمضت ليلة طويلة صنعت خلالها عقوداً من الورود والياسمين ستطوق بها عنقه عندما تراه هذا الذي أحبته في صمت، لا يدري ما في قلبها سوى أخته تلك التي عرفت ما عرفت بحكم أنها ابنة خالها ورفيقة دربها الطويل..

لكن من يدريها أن صلاح هو الآخر لا يزال على حبه؟ ومن يدريها أن قلبه وعقله قد تفتح لأنثى غيرها؟

وجاء الغد يحمل بين طياته حقائق الحياة التي ينتظرها الإنسان بعد أن غلفها بأوراق من السيلوفان وأضاء إلى جانبها شمعة.

جاء الغد وجاء صلاح.. لكنه في هذه العودة لم يكن وحده. كانت ترافقه امرأة شقراء وطفلة تحمل صورة أمها وأبيها في آن واحد. جاء فارسها بعد أن كبا جواده وضاع في الطريق وأضاعها هي أيضاً.

ونظرت إلى المرأة لترى على وجهها مسحة من الحزن غلفها الغضب بأشكال قاسية لم ترها على وجهها من ذي قبل.

لقد أصابها صلاح في قلبها بسيف فلم يبق على هذا القلب منه شيء. أو ترى هكذا الرجال ينسون حبهم عند رؤية أول أنثى يجدونها في طريقهم؟

لا تدري ولا تريد أن تدري فقد كفاها صلاح هذه المرة مؤونة أن تعرف بعد أن فعل ما فعل ومضت تجوب أرجاء الغرفة بعد أن هدأ وجيف قلبها وعاد بريق عينيها إلى سابق عهده بعد أن أنحت على نفسها باللائمة لأنها كانت ساذجة فصدقت كلام طفل، طفل كبير.

غيبوبة صغيرة

أقتات الألم، ألوكه في فمي لأمر يخالط عظامي، نفسي تذبل ورأسي يكاد أن ينفجر ومرارتي ملأى بتشكيلة من الحجارة الملونة رأيتها في يد الجراح الماهر وهو يبتسم طلباً مني أن أحتفظ بها، أن أصنع منها عقداً تتيه به زوجتي بين جاراتها اللاتي أحبتهن واللاتي كرهتهن.

بنتي تضحك، وزوجتي تنظر إلى الطبيب بغيظ تكاد تفترسه بعينيها وهو يضحك.

حس بغلطته.. حاول أن يعالج ما قاله بكلمة زادت الطين بلة.. لم أسمع ما يقول لكني سمعت ضحكات ابنتي على كلمات الطبيب.

الرداء الأبيض الذي يلبسه الطبيب أصبح رمادياً في عيني وأحسست برجفة ورحت في غيبوبة رأيت خلالها وكأني أتلمس حكايات الأمس القريب والبعيد معاً.

كل شيء أصبح يخالط جسدي..

الأرض.. السماء.. الأشجار.. الأنهار.. الجبال.. غدت جزءاً من هذا الجسد المسجى على هذا السرير الأبيض.. وفي الطريق إلى الغيبوبة عالم أنيق تتراءى أمواجه عن بعد، شمسه تدغدغ إحساسي للحظة حتى إذا ما تخللت عروقي تاقت نفسي إلى رؤى صغيرة بدأت تطفو على السطح أشبه ببيت ثلج أبيض بلوري أحجار الياقوت الأحمر ترقد على جنبات الطريق بينما حبات الألماس الشفافة يخترق بريقها العيون في لمعان مذهل.. وهناك على الحارة لوحات صنعت كإشارة مرور خاصة تدعو الناس من أمثالي إلى العبور

في جوف الوادي الكبير الذي انتظم صدر ميدانه تمثالاً لامرأة مضيئة الوجه عسجدية الشعر ترتسم على شفتيها ابتسامة حب حانية.

عالم يموج بشتى أنواع البشر أشبه بكرنفال من الملابس الزاهية.. شعور النساء كظلال الأشجار الوارفة وعيونهن حبات لؤلؤ كبيرة تميزت بألوان مختلفة والأشجار تتلألأ عناقيدها بأنوار كهربائية أشبه بألوان الطيف الجميلة.. وأنا أتسلل بين كل هذه الزينة بألوانها الجميلة ترفرف بجناحيها على أكتاف القمم.. وهي تزغرد بلغة خلت أنني أفهم معانيها بلا جدوى.

هذه الطفلة بسنواتها العشر تطالع بعينيها الجميلتين وجهي.. وكأنها تريد أن تتحدث لي عن حيرتها من تواجدي في هذا الموقع بملابسي الرثة التي استحيت أن تراني بها رغم تنقل عينيها بين وجهي وملابسي.

يعتصرني العرق، يملأ وجهي بحباته وملابسي هي الأخرى أصبحت مبللة. يد الطفلة تنتشلني من حيرتي، تمسك بيدي، تسألني أين كنت يا أبي أنا.. أقولها بتجرد تنظر الطفلة مرة ثانية إلى وجهي وتقول نعم أنت أبي. تذكرت فجأة وجه هذه الطفلة إنها صورة طبق الأصل من ابنتي التي ماتت، ومضيت ويدي تمسك بيد الطفلة شعرت كأنها أمي، أدخلتني غرفة دار ملأى بأشجار الفاكهة، أدخلتني غرفة واسعة طلبت مني أن أختار من دولاب الملابس ما أجده ملائماً، عندما أحست بحيرتي اختارت هي بنفسها ملابسي.

ارتديت الملابس بسرعة، نظرت إلى المرآة الجانبية الكبيرة رأيت نفسي بملابس أنيقة زاهية تماثل ملابس أولئك الذين رأيتهم في الطريق.

ألقت الصغيرة بكومة الملابس التي تركتها في أتون التنور «النار» الذي كان على مقربة من ردهة الغرفة. أحسست بأن هذا الحيوان الحديدي الضخم قد التهم مع الملابس جثتي أيضاً، التي خلت وزنها يخف وحركة جسدي تتحرر وقدمي تسرعان الخطا في الطريق الطويل ويدي بيد الطفلة الصغيرة، حتى إذا ما مررنا بجموع الناس الذين التقيتهم أول مرة التفت لأصافح وجه الطفلة لكنها لم تكن هناك بل كانت أمامي تتحرك في حيوية إلى جانبي في صورة امرأة شابة في وجهها عذوبة ماء النهر وخلجات الأمواج وفي بريق عينيها طهارة الأنثى.

نظرت إلى يديها، كانتا مخضبتين برسوم دقيقة من ثمر الحناء مثلها مثل ما

كانت تستخدمه الحرائر يوم زفافهن.

سألتها:

ـ من أنت؟

فلم تجب وإنما غضت عينيها في حياء ظاهر، كررت السؤال وضعت يدها على فمي وكأنها تطالبني أن أسكت أصررت على أن أعرف من هي. فقالت:

ـ أنا عروسك.

قلت لها:

ـ ومن خطبك لي؟

قالت:

ـ أمك.

ونطقت باسم أمي «لطيفة» كما تنطلق به زوجتي التي أعرفها قارنت بين وجهها ووجه تلك التي تقبع بجانبي على كرسي فوجدت أن لاشبه بين الأولى وهذه.

ضحكت فسألتها:

ـ وما اسمك؟

قالت:

ـ عفراء.

استحييت أن أسأل أسئلة تكشف جهلي وعدم معرفتي بما يجري.

جلست أنا وهي في وسط الحديقة بجانب شلال للمياه أخذ ينساب بشكل أخاذ جعلني أتشاغل عنها فترة فقالت:

ـ أنتم أيها الرجال هكذا تنشغلون عن زوجاتكم حتى في ليلة الزفاف ويوم التصبيحة.

ثم أردفت:

ـ أنسيت أنك قد تركت زوجتك الأولى يوم التصبيحة لأن أصدقاء لك أرادوا الحضور لمشاركتك الفرحة ففاتتهم الطائرة وحرصت على أن تأتي بهم

بنفسك تكريماً لهم ونسيت أن تكرم زوجتك في أول أيام زفافها فلا تنشغل بغيرها.

ضحكت وسألت:

ـ إذن أنت لا تمانعين بأن تكوني الثانية ثم كيف تسنى لك أن تعرفي تفاصيل أيام زفافي وأنا أراك أصغر من أن تكوني قد شاركت فيه؟

ضحكت ثم سألتني قائلة:

ـ كم تعطيني من العمر؟

قلت وأنا أحاول أن أعطيها أصغر من عمرها سنوات: «بنت أربعة عشر».

قرصتني في خدي وقالت:

ـ يا لئيم، حتى هنا تحاول أن تكذب.

ونظرت إلى وجهي نظرة خلتها تتفرس في أعماق نفسي، تلعثمت واضطربت ولم أعد أعرف ما أقول لكنها بلكزة صغيرة من مرفقها أوقفت تساؤلي وكأنها تمازحني، ضاع مني الاضطراب وإن كنت لا أزال متلعثماً لا أعرف ما أجيبها به.

قالت:

ـ لا بأس، إنك تحتاج إلى فترة من الوقت لتتطهّر من رذائل الحياة، الكذب، النفاق، المجاملة.

غضبت قليلاً وقلت:

ـ ولكني لم أمارس كل هذا الذي ذكرت في حياتي.

ضحكت مرة أخرى وقالت:

ـ لا عليك قد يمارس بعض أهل الدنيا شيئاً من هذا دون أن يدروا وأنا منهم.

تساءلت، فقالت وبهزة من رأسها:

ـ نعم

وكبرت الابتسامة على شفتيها ونحن نسير صامتين.. حتى وقفنا على دكان لم أر أجمل من ديكوراته، عضني الجوع والعطش فسألتها:

ـ أوليس بإمكاننا أن نأكل ونشرب؟

قالت:

ـ أما الأكل فلا ضرورة له، لأن ماءنا هنا يغني عن هذا الأكل الذي تريد.

قلت:

ـ بالله عليك عليّ به.

وأمسكت بكوز ملأه لها البائع وأعطتني إياه فأخذت أتجرعه بسرعة. كان الماء حلو المذاق حلاوة لا أعرف كيف أصفها، لأنني لم أعرفها في حياتي شربت وامتلأت معدتي فابتسمت، وقلت:

ـ ألا تشربين؟

قالت:

ـ لا . . فقد شربت في أول يوم جئت إلى هذا المكان.

استغربت قولها، لكني لم أفكر بأن أمضي في سؤالها. قلت لنفسي: لا بد وأنني سأتعرف إلى كل شيء ما دامت هي بجانبي، وتركت الأمر للظروف، ومضيت أسير برفقتها وأتسربل بالصمت، وكل شيء من حولنا يمتلىء بالهدوء، الهدوء النفسي الذي امتلأت به نفسي وجوارحي.

أمضيت ساعات من العمر قضيتها في التقاط أنفاسي وأنا أشاهد نفائس هذا الكون الذي لم أعرفه وأرمق بعين الإعجاب جمال هذه الأنثى الرائعة التي أخذت بيدي وأنستني تلك الطفلة التي خلتها ابنتي حتى إذا ما سألتها عنها ضحكت وتابعت قولها لي بأنها والطفلة سواء بسواء.

قلت:

ـ أو تعنين أنك وأنها أنت؟

قالت:

ـ نعم وبكل تأكيد.

ـ ولكنها كانت كبيرة وأنت على ما أنت عليه من بهاء، تبدين أصغر منها بكثير.

قالت وبدلال وهذه المرة:

ـ ها . . ها نحن نعود للمجاملة . . للنفاق، ثم أليس من حق الصغيرة أن تكبر؟

قلت:

ـ نعم ولكن هكذا في طرفة عين؟

قالت:

ـ أنسيت أنك في مكان بعيد عن الدنيا تلك التي تعرفها، فنحن هنا من نسيج آخر.

ـ وأنا؟

قلتها وأنا أرتجف.

قالت:

ـ أنسيت بأنك قد تحللت من دنياك وتركتها، وتركت ماضيها وأصبحت واحداً منها؟

قلت:

ـ أخاف أن أكبر فجأة.

ضحكت بفرحة وقالت:

ـ لا . . لا تخف إن لم تكن ترغب في أن تكبر . . فكل شيء هنا يسير وفق الرغبة.

قلت وأنا أحاول أن أتخابث:

ـ أريد أن أسألك سؤالاً أخاف أن تنزعجي عندما أقوله لك؟

قالت:

ـ لا . . قل ما عندك.

قلت:

ـ لو أردت أن أتزوج من أنثى أحلى وأجمل منك فهل أجدها هنا؟

قالت وفي شيء من الجد لا يخلو من العصبية:

ـ نعم ستجدها، وسأجلبها لك، فأنتم من طينة لا يملأ عيونكم سوى التراب.

وانسلت من جانبي، وصوتها المملوء بالسخرية يرن في أذني، فقلت لنفسي: أولا يكفيني «قمر ١٤» هذه حتى أفقدها بسوء تصرفي وحديثي؟ وبحثت عنها فلم أجد أحداً، لم يكن حولي وأنا أفتح عيني من غيبوبتي سوى زوجتي وابنتي.

رأيت الدموع تملأ عيونهما فخجلت من كل الذي رأيت في غيبوبتي ولمت نفسي على طمعي وقلة حيلتي، وسوء تصرفي وأحسست بأن الألم الذي كنت أحسه يهد كياني قد ضاع ووجهي أصبح يطفح بالعافية، وحمدت زوجتي الله تعالى على عودتي، وكذلك ابنتي وجاء الطبيب وهو يضحك هو الآخر واستمعت إلى صوته وهو يقول:

ـ ألم أقل لكم إنها غيبوبة صغيرة يعود بعدها كما ترغبون؟

نظرت إلى وجهه وددت في تلك اللحظة أن تنتابني غيبوبة أخرى لأرى خلالها وجه زوجتي الأخرى «قمر ١٤» التي غضبت عندما سألتها عما إذا كانت تسمح لي بالزواج من أخرى كما تفعل زوجتي هذه التي أحبها، وابنتي أيضاً، وقلت لنفسي: ترى لماذا لا تصبح زوجتي هذه التي أراها على مثل جمال تلك التي أسعدتني في غيبوبتي وأنستني كل ما يجري في هذا العالم؟

وقلت لزوجتي وهي تحاول أن تمسح دمعه صغيرة تساقطت على خدها فرحاً هذه المرة:

ـ ولماذا البكاء يا عزيزتي؟

لم تقل زوجتي شيئاً وإنما ألقت بوجهها على صدري وهي تجهش ببكاء طويل، أحسست به كسياط تمزق نياط قلبي. وقلت لنفسي إنها تحبني وهي وفية كما أرى، أما أنا، فلا ولم أقل شيئاً وإنما امتسحت من كل قلبي عندما التقت عيناي بعيني زوجتي وكأنني تحللت من كل ذلك الذي رأيت في غيبوبتي الصغيرة وإن لم أنسه بعد.

إنه يعجبني يا أماه

تلك هي حقيقة مشاعري بعد تلك الصلة القصيرة لرحلتي الطويلة والتي استطاعت أن تعكس مدى القدرة على الانصياع لوجيب القلب وهو يعلو وتتسارع دقاته معلنة عن مسيرة جيدة في الحياة.

غداً سنلتقي بعد رحلة شاقة ومشوار طويل دام أكثر من ست سنوات حاولت خلالها أن أرى العالم من خلال عينك التي أحبها.. كنت أظن أننا لا يمكن أن نفترق في أي يوم من الأيام لكن ظروف الحياة ودواعي الأسرة صنعت بيني وبينك جسراً حاولت أنا وحاولت أنت دائماً وضعه من زهور الجبال وورود السماء ورياحين الصيف عناقيد خضراء تلونها الزهور وتشكلها في منظومة كنت أراها بعيني تطل عليّ من شرفة البيت ومن فرجة الباب ومن خلال قاعات المحاضرات ومن بين رفوف الكتب.

كنت صادقاً في حبك وكنت أنت أكثر مني صدقاً وأكبر إحساساً.. هكذا كنت أشعر وهكذا كنت تشعرين منذ أول يوم اقترن فيه عمري بعمرك وحياتي بحياتك.

لم يكن كل هذا الذي قلت سوى تفاسير صغيرة لخطوات كبيرة خطوناها معاً منذ أن شببنا عن الطوق وعرف كل واحد منا معنى أن تقترن سعادته بالآخر. وظلت الحياة من وراء عيوننا تعلن في صمت عن تباريح الشوق الذي يعتمل في نفوسنا حتى إذا ما تداعت كل السدود وانزاحت جميع القمم، قلت لي كلاماً خلته يومها أكثر من أنشودة حب يطلقها لسانك ولا تلوكها شفتيك وإنما نطقتها جميع جوارحك.

كنت أمينة صادقة مع عواطفك فاندسست بروحك في تلافيف مخي وعقلي وفي شرايين وجداني قصيدة شعر زاهية أتطلع إليها كأنشودة فؤاد غمرته السعادة فأنصاع وراء نداء القلب وأهتف من الأعماق.

تلك أيام عمري وسنوات حياتي قضيتها أتلمس الطريق في ديار الغربة وذكريات الأمس تداعب خيالي أشبه ما يكون بمجموعة من الصور جسدتها رؤاي التي كنت أعرف كيف أستغلها لتقول لي كل شيء.

تلك هي الحياة التي أمضيها في زوايا المدن وعلى شواطئها وبين موانئها صورة تتطلع إلى الأمس وهي تتحسس طريقها نحو النضوج.

كنت أنت وكانت رسائلك دليلي وأملي ومنتهاي، أعرف عن طريقها أشياء كثيرة عرفتها وأشياء كثيرة لم أعرفها بعد.. لكنني مع كل هذا لا ألوم نفسي لأنني ظللت طوال كل هذه السنوات أرمق طيفك وأنتظر عودتي ولقاءك حتى ذلك اليوم الذي ركبت فيه الطائرة من مطار لوس انجلوس في طريقي إليك وفجأة رأيت أن أقتطع جزءاً من وقتك أضيفه لوقتي فأقضي بضعة أيام في لشبونة مدينة الجمال في البرتغال.. تلك المدينة التي حلمت أن أراها يوم كنت برفقة أسرتي في بيروت وكنت أنت أيضاً مع الأسرة.

أتذكرين حديثنا الطويل ونحن نسير على جليد الأرض الأبيض الذي زخته السماء لتجلي كل شيء في قرية اللقلوق؟

قلت لي يومها إن قلبي أشد نقاء من هذا الثلج الذي يكسو رؤوس الجبال، وقلت لي بأنك تحلمين بجولة حول العالم في شهر العسل الذي يتبع اقتراننا ببعض وقلت لي.. وكنت ساعتها أستمع إلى كل كلمة تقولينها.

أتدرين ساعتها بأن كل أفكاري كانت تنصب على أن أراك في هذه المدينة التي أحببتها على السماع وأحببت أنواع الطعام في مطاعمها الكثيرة واحتفاء أهلها بضيوف الشرق وحبهم لهم، ولم أكن أظن أن المفاجأة التي سألقاها في هذه المدينة أكبر مما أظن وتظنين أنت.

ويوم وصلت إليها تحقق لي كل الذي سمعت، وأصبحت أحس بأن شيئاً ما سيحدث لي ولكنني لا أدري كنهه وبدأت أتحدث إلى نفسي أحاديث كثيرة لدرجة خلت أنني قد أصبحت إنساناً آخر غير ذلك الذي تعرفين.

التقيت بوجهك على صفحات الصحف وفوق شاشات التلفزيون وهي تبثّ أخبارها في هدوء خلت أن تلك المذيعة التي أطالع وجهها ليست هي وإنما أنت بكل ما فيه من جمال وضاء.

ومضيت مع أوهامي أجوب شوارع المدينة القديمة. كانت شيئاً جميلاً من تراث الماضي، أقرب ما تكون للإسكندرية وبيروت ونابولي وغيرها من المدن التي عرفتها قدماي وأخذت في المسير لألتقي بوجوه فتيات كثيرات لم أحس بوهج جمالهن رغم كل تلك الأناقة التي تميز مدنها وكنت أعرف السبب حتى وجدتها صورة طبق الأصل منك بملابسها المتواضعة وخطواتها الرشيقة وابتسامتها التي عرفتها.

ونظرت إليها ونظرت إلي فتسمرت عيناي على وجهها لألمح شامة صغيرة على وجنتها اليُسرى مثلك وشعرها المتهدل الفاحم السواد ملقى على كتفها كثروة كبيرة لا يعرف قيمتها إلا اللواتي افتقدنها وعندما رأيت عينيها تجوسان وجهي هتفت دون وعي فأجابت في صوت خافت:

ـ أو تعرفني؟

قلت وبجرأة منقطعة النظير:

ـ نعم أعرفك وأحلم بك منذ أمد بعيد.

فضحكت لكن ضحكتها لم تتجاوز الأدب.

وسألتني:

ـ من أين أنت؟

فقلت لها كل شيء عن أرضي وبلدي حتى إذا ما طال بي الوقوف معها على قارعة الطريق رجوتها أن تقبل دعوتي لشرب فنجان من الشاي في المقهى القريب من وقوفها فلم ترفض بل مضت معي إلى جانبي حمامة وديعة حتى وصلنا إلى المقهى واقتعدنا أول كرسي كان إلى مقربة الطريق.

وبدأنا الحديث فعرفت منها أنها تركية الأصل بلغارية الجنسية ولدت في برشلونة وعاشت فيها حتى ذهب الأب وأصبحت الأم المسؤولة عن البيت والأسرة..

وعرفت منها أن أمها تدعى صفية. . لكن كل واحد في البيت يسميها صافيناز جرياً على عادة الأتراك في تحديث الأسماء القديمة. . وإنها قد تخرجت كطبيبة من جامعة برشلونة هذا العام وإنها تنوي السفر إلى لندن لاستكمال تعليمها.

وقلت لها كل شيء عنك عن حبي لك وشوقي للقائك وعن حياتنا السابقة في جدة وعن بيتنا في الروضة وبستاننا القديم في المدينة.

وقلت لها وقالت لي حتى إذا ما فرغ الحديث اتفقنا على أن تزورني وأمها في فندق شيراتون الذي أنزل فيه.

أمضيت الليل أفكر في كل هذا الذي جرى لي. قد تكون الصدفة هي التي وضعت فاطمة البرتغالية في طريقي والتي أخذت تتفاعل أحداث رؤيتي لها في نفسي. وتراءت أمامي كافة الصور الماضية وأحسست وكأنني أحب الفاطميين حباً يتماثل في قوته وقدرته على السريان في أعماق عروقي. ولم أنم طوال تلك الليلة إلا قليلاً أغمضت عينيّ فيها لأرى فاطمة الأولى بوجهها الصبوح وقد بدت متجهمة. .

لكنني لم أكن كذلك بل صارحتها بعد حديث عاصف عن حبي الكبير الذي تسلل إلى قلبي بالنسبة لفاطمة الجديدة التي أخذت صورتها هي الأخرى تطل لدرجة عجزت فيها عن التفريق بين الصورتين وأخذت أبتسم وأنا أطالب الأولى بأن تصفح عني لأنني أحببتها وحبي لها هو الذي جعلني أحب الأخرى لكن فاطمة الأولى لم تصفح وتركتني وهي غاضبة لتربت الأخرى ظهري في حنان. .

فتحت عيني وأنا أبتسم ومن كل قلبي حتى إذا ما حان وقت وصول فاطمة وأمها إلى فندقي شعرت بشيء من الرهبة خالط نفسي وعروقي ومع هذا واصلت طريقي إلى الصالة الكبرى في الفندق لأجلس على أحد الكراسي المنتشرة هنا وهناك حتى التقت عيناي بعينيها وهي تسرع في خطواتها وإلى جانبها أمها التي شعرت ساعتها وكأنني أعرف هذه السيدة من مدة طويلة.

ومدت يدها لأمسكها بكلتا يدي فترة من الوقت خلتها طالت وأنا أنقل يدي لتسلم في هدوء على السيدة صفية التي بدت لي وكأنها أصغر بكثير من

سنها كأم لهذه الأنثى الفاتنة وامتدت جلستنا لأكثر من ساعتين تحدثت خلالهما بإسهاب إلى الأم التي أخذت تسيطر على عواطفها تجاه كل هذا الذي قلت حتى إذا ما انتهى حديثي أخذت تسألني عدة أسئلة شعرت بأني قد وفقت في الإجابة عليها، ثم جاء سؤالها الذي وجهته إلي وهي تنظر إلى عيني نظرة من يريد سبر أغوار نفسي.

قالت:

ـ وماذا تريد من ابنتي؟

قلت وفي شيء من الثقة:

ـ أريد أن أتزوج منها.

قالت:

ـ ولكنك تحب الثانية.

قلت:

ـ قد يكون ذلك صحيحاً أما اليوم فأنا أحب فاطمة هذه أكثر من الأولى.

وأشرت إليها وأنا أبتسم.

قالت:

ـ ولكنك لا تدري عن عواطف فاطمة هذه تجاهك بينما تعرف كل شيء عن الأولى.. وعن حبها لك.

قلت:

ـ لا بأس سأتعرف إلى كل ذلك من خلال بقائي هنا في برشلونة.

ولم أزد.. فلم تشأ صفية الأم أن تضيف إلى ما قالت شيئاً بل التفتت إلى ابنتها وقالت:

ـ وأنت ما رأيك؟

قالت فاطمة بعد فترة من الوقت وكأنها تحاول أن تستجمع كلماتها قبل أن تقولها، واستمعت إلى صوتها الهادىء وهي تقول:

ـ إنه يعجبني يا أماه.

وهكذا جاءت إجابتها واضحة جلية وكأنها تربط بين الحب والإعجاب بخيط رفيع قد لا يرى بالعين لأول وهلة وإنما تستمد قوته وتعلو قدرته يوماً بعد يوم. . وباعتبار أن الإعجاب درجة متقدمة من الاجتماع الذي يبدو ولأول وهلة وكأنه يساند الحب الذي سيكبر ويقوى ساعده.

تلك هي حقيقة مشاعري بعد تلك الصلة القصيرة التي جاءت امتداداً لرحلتي الطويلة والتي استطاعت أن تعكس مدى القدرة على الانصياع لوجيب القلب وهو يعلو وتتسارع دقاته معلنة عن مسيرة جديدة في عمر الحياة لا بد وأنها تطفو على السطح لتشكل في واقعها رموزاً جديدة لمسيرة الحياة على أرض الواقع. . فهل أخطأت؟

أشياء صغيرة

انقطع الاتصال بيني وبين صديقي عبد الرحمن طيلة سنوات خمس لا أدري ماذا حصل بها إذ كنت في ذلك الوقت أدرس في جامعة بوسطن بعيداً عن مدينتي التي أحبها آلاف الأميال.

لم تكن الاتصالات في مدينتي على هذا المستوى الذي نعيش فيه الآن، فلم أجرؤ أن أبحث عن هذا الصديق عبر جهاز التلفون لأنني كنت فعلاً مشغولاً بأعباء الدراسة، فلم أستطع أن أكتب شيئاً إليه، وإن كانت رسائل أسرتي تردني باستمرار وهم لا يتحدثون كثيراً عن أسرة عبد الرحمن مثلما كانوا يفعلون في العام الأول من رحلتي. كانت أختي الكبيرة قد زفت قبل أعوام إلى المهندس سعيد أخو صديقي عبد الرحمن، وأنجبت منه قبل سفري توأمين كنت أشاهدهما دائماً معاً عندما تأتي لزيارة بيتنا.

لا أدري عن سبب تجاهل الحديث عن أسرة عبد الرحمن إلا بعد أن وصلت إلى المدينة المنورة والتقيت بصديقي الذي وجدته أكثر أناقة عن ذي قبل رغم أنه لم يكن أنيقاً في السابق مثلي.. عرفت حقيقة ودافع مجريات الأمور وفهمت أن أختي قد طلقت من زوجها بعد أن أصبح عبد الرحمن من أكبر أغنياء المدينة ووجهائها.

لقد فعلت الأرض الكثير من أجل أولئك الباحثين عن الثروة حتى إذا ما وجدوها تغيرت حياتهم وأساليب معيشتهم وأصبحوا نوعاً آخر من الناس غير الذين كنا نعرفهم.

لم أفكر كثيراً في أمر طلاق أختي، بل عزوت الموضوع لاختلاف في وجهات النظر.. لكنني كلما دخلت بيتنا ورأيتها قابعة

فيه تصنع كل ما تقدر من أجل ولديها أحس بالجرح وأشعر بأن سعيد زوج أختي قد جنى فعلاً عليها وإن كنت لم أناقشها في الأمر بعد أن عرفت ما عرفت.

ومع هذا ظللت على اتصال بعبد الرحمن الذي أصبح يزور بيتنا بين الفينة والفينة سائلاً عني، لكن صداقتي له لم تعد تشدني لأن أبحث عنه كالسابق، إذ إنني أحسست شيئاً من روح التعالي قد رافقت نمو جسده وشاربه الذين بدا لي بشعاً عندما أنظر إليه.

كثيراً ما عدت بذاكرتي إلى الوراء يوم كنا أطفالاً نلعب سوياً أمام بيوتنا في الساحة حيث عشنا سنوات طويلة قبل أن يذهب الإعمار - إعمار المسجد - بكل تلك البيوت والشوارع.

ألعابنا مزيج من الألعاب الأهلية التي توارثناها، «كالكتب» والدحل والكبوش، ونطة الظهر، وكرة الشراب وما إلى ذلك من ألعاب نجيدها إجادة تامة ونرى صداها في الألعاب الأوروبية والأمريكية الجديدة.

في باطن بيتنا فناء كبير وديوان صغير وبركة ماء نستخرج ماءها من البئر المجاور بطريقة اليد بعد استخدام تلك الآلة التي نرفع طرفها ثم ننزله ليسيل الماء على الجدول الصغير المؤدي إلى البركة.

كان عبد الرحمن من أوائل الأصدقاء الذين شاركوني ضخ الماء من تلك الآلة، حتى إذا ما امتلأت البركة استمتعنا بالسباحة فيها بعضاً من الوقت.

أما صباحاً فقد كنا ننطلق إلى المدرسة الناصرية جماعات جماعات يحدونا التفكير في فسحة صلاة الظهر التي نستمتع بها بشراء الأطعمة والحلويات.

كنت يومها أقتسم ما يمنحني أبي من مال مع صديقي عبد الرحمن الذي لم يكن أبوه يملك ما يعطيه منه.. ولهذا التصق بي عبد الرحمن وأصبح يقضي أكثر أوقاته في بيتنا.

ويوم قدر لأختي أن تتزوج أخاه بعد أن عيّن كمهندس زراعي أصبح عبد الرحمن يعيش معي في غرفتي أكثر من ذي قبل.

لم نكن نفترق يوماً ما عن بعض إلا إذا مرض أحدنا فعاد أحدنا الآخر في بيته وأمضى أكثر الوقت في صحبته.

لكننا حلمنا معاً في حياة مستقبلية تمنح كل واحد منا ما يريده.. كنت أريد العلم وكان هو يريد المال.

وعندما أصبح الحلم حقيقة تداعب أفكاري باحثة منقبة عن الأصل والصورة والحلم والحقيقة فحقائق الحياة قد تكون في كثير من الأحيان أشبه بمسلسل روائي جيد صنع بأسلوب متقن وبرزت على السطح أدوار الإنسان المختلفة.

نعم عندما نصل إلى الحقيقة ويتبلور الحلم ويصبح جزءاً من هذه الحقيقة في هذه الحياة الجميلة السعيدة الحلوة الكريمة.. تذكرت بأن كلينا كنا محظوظين، فالحلم لم يعد حلماً بل أصبح حقيقة يمارسها كل واحد منا بأسلوبه.. فهكذا هي الأيام تهب وتأخذ وتعطي في كثير من الأحيان.

وعبد الرحمن استطاع أن يأخذ ويأخذ الكثير لدرجة جعلته يتبطر على النعمة وينظر إلى كل أولئك الأصدقاء القدامى نظرة فوقية مستبدة، إلا أنا فلم يكن قادراً على أن يمارس لعبته معي، فأنا أعرفه، أعرفه منذ كنا صغاراً.

يقولون إن النفوس الصغيرة تفقد توازنها عندما تحقق أحلامها وعبد الرحمن واحد من أولئك الذين فقدوا توازنهم بعد أن ملكوا من المال الكثير.

لقد منحته الطفرة التي شهدتها بلادنا الكثير والكثير من المال الذي جعله يمسك عن إنفاقه في دروب الخير، بينما لا يمنعه أن يمنح الكثير من أجل السيطرة على أصدقائه وغيرهم فكان دائب السفر، يختار من يرافقه بعناية ويعمد إلى إذلال كل أولئك الذين يصادقونه لرغبة آثمة في نفسه حتى جئت أنا إلى المدينة ورأيت ما رأيت فهالني كل هذا الذي رأيت وأصبحت أنفر من صحبته التي حاول أن يفرضها علي بادىء ذي بدء حتى إذا ما شعر باشمئزازي منه بدأ يلعب لعبته التي كشفتها وكشفتها أختي وأمي أيضاً.

فلقد جاء يخطب أختي التي طلقها أخوه حتى يتسنى له تربية أبناء أخيه تربية طيبة كما يقول.

لكنني وأختي كررنا الرفض، فعرض علي أن يزوجني بأخته التي عرفتها وأنا صغير. لكنني لم أرد عليه بل أخذت أقلب الأمور من جميع الجوانب وأعرف ما يرمي إليه هذا الصديق القديم.

قال لي يومها:

ـ لا تظن بي الظنون وإنما أردت بخطبتك لأختي أن أضمن لها حياة لم تستطع أنت أن تضمنها لأختك فأنت إنسان نادر الوجود على درجة كبيرة من العلم وهي كذلك. . أفلا يحق لي أن أطلب ذلك؟

قلت:

ـ ولكن أختك في سن يجعلها أقدر على معرفة صالحها أكثر منك. فهل سألتها رأيها؟ ثم لا تنسَ أنها تكبرني بعامين.

قال:

ـ أعرف ذلك. . لكنني لا أكتمك فأنا عندما فكرت في هذا الأمر أردت أن أستطلع رأيك حتى إذا ما وجدت بصيصاً من الأمل قلت لها كل شيء.

قلت:

ـ وإذا رفضت. . ماذا سيكون الرأي؟

قال:

ـ معك الحق سأسألها كما سألتك. . وأرجو أن لا تطالبني هي الأخرى بمعرفة رأيك.

وضحكت ولم أعقب وبدأت أفكر في الموضوع بجدية.

سألت أختي رأيها قبل أن أسأل أمي وأبي. . فقالت بعفوية:

ـ صدقني يا أخي إنها من نسيج يغاير هؤلاء الذين عرفت إنها ستكون أفضل زوجة إذا ما رغبت.

أبي وأمي رفضا الفكرة بعصبية لكن أختي بذكائها وحبها لي استطاعت أن تقنعهما بأن زواجي «بلطيفة» شيء آخر لأنها إنسانة طيبة ومهذبة.

حاول أبي وأمي أن يجعلا من فارق عمرينا ما يجعلها غير صالحة لي

لكنها هونت الأمر وقالت:

- هي بضعة سنوات قد تكون في صالح أخي وليست ضده.

وهكذا عاد لي عبد الرحمن بموافقة لطيفة التي دخلت بيتنا لتجعل كل من فيه يحبونها ويقدرونها وأولهم أختي التي أحبتها.

ولقد أحببت لطيفة من كل قلبي وشعرت بالكثير من الاحترام نحوها لرجاحة عقلها وقدرتها على اجتذاب الآخرين حولها.. كانت سيدة فاضلة يتمناها أي زوج.. حتى جاء ذلك اليوم الذي عرفت فيه السبب الذي جعل عبد الرحمن يزوجني أخته.

كان يطمع هو الآخر بالاقتران بأختي الصغيرة سميحة التي يكبرها بأكثر من خمس عشرة سنة. لم أعرف بماذا أجيب صديقي وصهري عبد الرحمن..

وحاولت أن أقول شيئاً لكنني لم أفلح، فقد ذهب غاضباً لا يلوي على شيء مهدداً بأن يقوض عش زوجيتي الذي حاول أن يبنيه هو.. وعدت إلى بيتي مهموماً لإهانتي فسألتني زوجتي عن السبب فقلت لها الحقيقة وأنا أرتجف.

خفت أن تقف زوجتي بجانب أخيها هذه المرة لكنها لم تفعل بل قالت لي وبحزم:

- ارفضه وقل له بأن سميحة هي التي ترفض.. فهذه الفتاة لا يصلح أخي لها زوجاً.

قالت لي ذلك وهي تؤكد بأن هذا أفضل حل لشقيقتي وشقيقها.

وجاء عبد الرحمن هذه المرة منتفخ الأوداج معدداً وبطريقة فجة ما سيوفره لأختي من أساليب للراحة في فيلتها الجديدة.. لم يكن يعتقد أنني سأرفض.. ولكنني هذه المرة قلت له وبكل صراحة:

- لا يا صديقي أنت لا تصلح أن تكون زوجاً لشقيقتي..

نظر إلي بطرف عينيه وقال:

- رغم كل ما قلت لك عما أنوي صنعه لأختك ورغم كل ما أملك من مال؟

قلت:

ـ نعم ومن كل قلبي.

وخرج عبد الرحمن من عندي وهو يرعد ويزبد ويحاول أن يشعرني بأنه قادر على هدم عش الزوجية الخاص بي فأنا في رأيه أستحق هذا وأكثر.. وعدت إلى بيتي والتقيت بزوجتي التي تحدثت طويلاً عن رغبة أخيها بأن تترك بيتها وتأخذ أولادها لتعيش معه في الفيلا الجديدة.

لكن زوجتي رفضت كل عروضه بشمم وكبرياء، فما كان منه إلا أن ضربها بيده ولأول مرة ضرباً مبرحاً شاهدت آثاره على وجهها دون أن تقول.. وعندما سألتها عما أصابها ابتسمت وقالت:

ـ أشياء صغيرة تصيبنا نحن العقلاء من صغار العقول فلا تحزن!

كلهم سواء يا بني

التفت الأسرة حول جهاز التلفزيون كما تفعل عادة كل يوم منذ بدء المشكلة الكويتية واحتلال العراق لهذه الأرض، وأصبحت هذه العادة أكثر من إدمان بعد أن بدأت الحرب بين القوات المشتركة وقوى الغدر العراقي الذي لا يزال يستمسك زعيمه بأخطائه وآرائه حتى يصل بالعراق إلى مرحلة الخطر الكامل بعد أن تهدمت مصانعه ومنشآته وأصبح كل فرد من أبناء العراق يعيش هلعاً أكبر من الهلع الذي أصابه يوم كانت الحرب بين إيران وبغداد في هذه الظروف التي أصبح من العسير على الإنسان التفريق فيها بين قوى الخير وقوى الشر تلك التي بدأت معزوفة إيقاف إطلاق النار دون أن تسأل زعيم العراق إذا كانوا يرغبون في إيقاف إطلاق النار.

لكن هذه الفئة التي اندفعت وراء مصالحها لم تعد تفكر لا في حياة أبناء الكويت ولا حرمتهم وإنما نظرتهم تلك تتجه إلى العراق وزعيمها الذي وعدهم بجزء كبير من الكعكة الكبيرة التي غص بها قبل أن يلتهم أي جزء منها.

جهاز الراديو يتحدث عن الحرب وآثارها وما ينجم عنها. وهنا وهناك بين الراديو والتلفزيون تتحلق الأسرة وعلى وجه كل واحد منهم انفعالات كثيرة ربما لم يكن في مقدور أحدهم السيطرة عليها. حينما ترتفع دعوات الأم في صلوات متواصلة أخذ عبد العزيز يحلل كل الآراء التي استمع إليها باللغة الإنجليزية ليسمعها والده الذي لا يجيدها والأب مفتوح الأذنين يستمع في هدوء وكأنه يريد أن يستوعب كل كلمة يقولها ابنه، فهو يعرف معنى الحرب وكيف أنها وفي كثير

من الأحيان تأكل الأخضر واليابس لكنه في هذه المرة لم يكن على تلك الدرجة من التفكير وإنما كان جل تفكيره منصباً على ابنه الذي يشترك مع زملائه عندما يقدمون أحدهم ليتحدث عن المعركة.

حتى إذا جاء دور ابنه في الحديث بكى وتحسر على أنه لم يكن في تلك السن التي يتسنى له فيها أن يحمل السلاح دفاعاً عن مقدساته، هو الجندي القديم الذي شارك في حمل السلاح أكثر من أربعين عاماً مضت دافع خلالها عن حرية أرضه واستقرارها وأمنها وسيادتها.

لكن حلمه لم يخب، فها هو ابنه بدلاً عنه يدافع عن أرضه وكل همه أن يصل إلى النصر إلى نهاية المطاف كل محارب يشترك في حرب التحرير وغيرها من حروب هذه الأمة التي بليت بوجود إسرائيل شوكة تقصم الظهور.

قال الأب فجأة وبدون سابق إنذار:

ـ أتدرون ماذا تعني هذه الحرب بالنسبة للعالم؟

لم تجب الأم ولا الابنة لكن عبد العزيز الابن الغالي قال في هدوء:

ـ قد تكون هذه الحرب بمثابة اختبارين، الأول فهو اختبار قدرة الشرعية الدولية على مناهضة كل احتلال، والاختبار الثاني لكل أجهزة الدمار التي أنتجت ولم تستخدم بعد، لكن يا أبي ليست المشكلة في الحرب ولا في المساندين للحرب وإنما في أولئك الذين يناوئونها أين هم عندما احتلت العراق الكويت ولماذا لا يتحدثون عن الدولة التي اغتيلت بليل ويخافون على العراق من أن تصاب بنيته الأساسية بالهدم والسبب في كل هذا يعود إلى زعيمه وقائده؟

قالت الابنة بعد أن تجرأت:

ـ ليست المشكلة كامنة في هؤلاء وإنما في المساكين الذين اصطادهم الإعلام العراقي وساهم في إفهامهم أشياء مغايرة لحقائق الأمور وما جرى ويجري في الكويت والعراق.

وتابعت قولها:

ـ لو كانت هناك حرية لدى المواطن العراقي لأطاح بصدام ولأنهى حكمه

إلى غير رجعة ولانتهت الحرب وخرج الجيش العراقي من الكويت.

لكن كل ما يصنعه قائد العراق هو خلق بلبلة كبيرة بين شعوب العالم بأكاذيبه من جهة ولرفضه الانصياع إلى صوت الحق بعودة الشرعية إلى الكويت. .

وفي تلك اللحظة أعلن مذيع التلفزيون عن نبأ هام عادت الأسرة للالتفاف حول الجهاز.

أخذ المذيع يقرأ بنبرة فرح نجاح هجمة جوية من هجمات طائرات القوات المشتركة على مراكز القوى في الأراضي العراقية وأشار بكلمة ضافية إلى ما صنعه أحد الطيارين السعوديين الذي أسقط طائرتين عراقيتين في آن واحد.

انشرح صدر الأب وتمنى لو يكون هذا الطيار ابنه لكن الأم سهلت عليه الأمر وقالت:

ـ كلهم سواء (يا أبا عبدالله)

فانفرجت أسارير الأب وقال مؤمناً:

ـ نعم يا أم عبدالله كلهم سواء. . كلهم أبناء لهذا الوطن الذي تتجه إليه العقول والقلوب المؤمنة.

أخذت أخبار التلفزيون تتوالى وهي تشير إلى انتصارات كثيرة كانت بالنسبة للأسرة وكل أسرة بمثابة البلسم الذي يداوي كل تلك الجروح التي أوجدها صدام على الجسم الإنساني.

لكن شيئاً من الامتعاض لا يزال يراود ذهن الأب الذي حاول أن ينضو عن نفسه وقلبه مظاهر هذا الامتعاض الذي أخذ يطفو على السطح في شكل تساؤلات حدث بها نفسه. فكيف يرضى الزعماء الفلسطينيون بكل هذا الذي فعله صدام بالكويت وهم يعلمون أن الاحتلال واحد في شكله وموضوعه؟ ولماذا يجري كل هؤلاء وراء هذا المجنون الذي لم يقدم لهم ولا في أية معركة جندياً واحد. ولماذا يتناسون كل هذه الأمور وينجرفون وراء الدمار الذي يصنعه هذا الطاغية؟ ثم كيف ينسون كل هذا الذي قدمته لهم هذه الأرض؟

تساؤلات كثيرة حاول أن يجيب عليها بوعي لكنه لم يصل إلى جواب

يمكن أن يثلج صدره فحاول أن ينساها هو الآخر دون جدوى.

أما عبد العزيز فقد كان هو الآخر يعيش مع هواجسه والألم يحز في نفسه لتلك الضربة الصاروخية التي حاول بها صدام أن يكسب شيئاً بضربه الرياض لكن القوات السعودية والقوات المساندة كانت لصواريخه بالمرصاد.

وقارن عبد العزيز بين ماتفعل قواتنا وما يفعل هذا الغادر ففي الوقت الذي تحترم هذه القوات قواعد الحرب الفظيعة فلا تلقي بأحمالها على المدنيين نجد هذا الطاغية يرسل صواريخه الهشة على الأرض الطيبة دون خجل أو استحياء.

أما أم عبدالله فقد كانت مشغولة بإعداد ما تحتاجه الأسرة في ذهابهم إلى مكة آخر الأسبوع كما تعودوا، لكن الأب هذه المرة رأى أن قضاء العطلة في بيتهم قد يكون الأنسب لأنهم قادرون خلاله على التحلق حول جهاز التلفزيون والاستماع لشرح عبد العزيز وهو يتابع المعلق الحربي الذي أخذ يفند ظروف طلعات القوات وكيف أنها استطاعت أن تصل إلى أهدافها في هدوء.

ويوم ظهر عبدالله على جهاز التلفزيون ضمن زملائه الطيارين العائدين بعد ضربة جوية كان بمثابة عيد كبير لكل الأسرة التي أخذت تصافح صورته بقلبها وعقلها أيضاً.

أما الأم فقد أخذت تبكي في فرح وسعادة، وكان الأب فخوراً بعودة ابنه التي طالما حلم بأن يكون هو في مكانه دون أن يصل إليه وها هو يستعيد حبه وفخره عندما يرى صورة ابنه تبثها أجهزة التلفزيون لدرجة جعلت الابنة تمسك بسماعة التلفون لتقول لكل من تعرفه ومن لا تعرفه:

ـ ها هو عبدالله في بزته الجميلة طيار من نسور الجو السعوديين يعود من رحلة من رحلات القوات وقلبه ممتلىء بحبه لأرضه وبإيمانه بعقيدته.

الزوجة الصغيرة

امتلأت أودية المدن وبطاحها بمياه الأمطار والتي انحدرت بسرعة عجيبة من الجبال القريبة والبعيدة، وبدأ العشب الأخضر يغزو كل ركن من أركان الأرض الطيبة، وبدأت قوافل الأسر تتسارع لتمضية عطلاتها هناك بالقرب من وادي العقيق الذي تميز بالنضارة والخضرة، ومضى الأطفال يتدافعون للعب بمياه البحيرات النقية، بينما انشغل الأهل بإعداد موائد الطعام على الأرض في شعبية تعيد للأذهان موائد أهل المدينة في القديم، يوم لم تكن كل هذه الأدوات الحضارية قد بدأت تغزو أسواق العالم.

وانتهزت أسرتي الفرصة لتطالب أبي بالخروج نحو تلك الأماكن التي كنا نرتادها والتي أصبحت محرمة علينا بعد أن قضى أخي الصغير نحبه وهو يلعب في إحدى البحيرات بعيداً عن أعين الأسرة التي انشغلت كالعادة بإعداد ما لذ وطاب.

أبي يذكر ذلك اليوم لا ينساه، ويذكر بأن أمي قد قضت نحبها هي الأخرى بعد عامين أو أكثر حزناً على وليدها الذي مات في يوم من أيام الربيع التي تحبه، من يومها كره أبي أن يخرج بنا إلى تلك الأماكن، وأصبح ضنيناً علينا جميعاً بهذه العطلة الأسبوعية التي تختارها كل أسرة من أسر المدينة المنورة.

جدتي تحاول أن تثني أبي عن إصراره فتذكر له كيف ماتت تلك السيدة وهي في عز شبابها بعد أن انحشر شعرها حول فتحة المياه في بركة المصرع وتقول له بأن كل شيء قضاء وقدر. أبي يعرف كل هذا ويؤمن به، لكن قلبه لا يطاوعه بأن يرى تلك الأماكن التي شهدت

مصرع أخي هاشم.

منذ ذلك اليوم الذي لقي أخي فيه مصرعه وماتت أمي أصبح أبي يخاف علي حتى من تسلل أشعة الشمس إلى غرفتي في بيتنا الذي نعيش فيه قريباً من سيدي حمزة. وكنت أتابع خوف أبي وأسائل نفسي: لماذا يا ترى كل هذا الخوف، سألت جدتي وأنا صغيرة لم أبلغ الحلم بعد فضحكت وقالت:

ـ الحب يا بنيتي هو الذي يجعل أباك يخاف عليك كل هذا الخوف.

منذ ذلك التاريخ وأنا لا أذهب إلى المدرسة أو أعود منها إلا برفقته، وهو في كل ما يصنع راض وقرير العين لا يخالجه أدنى تعب لكل ما يفعل.

لم يكن يسمح لي بزيارة صديقاتي بل كان يطالبني بأن أدعوهن جميعاً إلى بيتنا ليمضين أوقاتهن على الرحب والسعة تملأ الابتسامة وجهه وهو يراني بينهن ألعب في ساحة البيت الكبير قريباً من أشجار الليمون التي غرستها أمي، والتي أصبح أبي يسقيها بنفسه رغم وجود البستاني الذي يقوم بسقي بقية الأشجار.

يقول أبي عن هذه الأشجار بأنها هدية أمي له وهو يحب أن يحافظ على هدايا زوجته.

كبرت وكبرت ابتسامتي معي، وأصبحت شابة صغيرة تملأ صدرها أماني وأحلام لم يبخل والدي بتحقيقها، طلبت منه أن نسافر إلى خارج البلاد فذهب بي وبجدتي إلى أكثر مدن العالم الغربي.

التقيت هناك بصور عديدة لم تكن معروفة في مدينتي فاحتفظت بها بين رموش عيني الطويلتين أنفس عن نفسي باجترارها بين الفينة والفينة.

ويوم ذهب بنا أبي إلى لندن كان هدفه أن أمضي شهوراً ثلاثة أدرس في إحدى مدارسها اللغة الانجليزية لتساعدني في دراستي فأنا مقبلة على امتحان شهادة الثانوية ومن بعدها الجامعة.

ويوم نلت شهادتي كان عيداً، صنع أبي يومها كل ما من شأنه إدخال الفرح والسرور إلى نفسي.

وبعد أن أمضينا إجازة طويلة هذه المرة في مدينة أبها والباحة وجبال الجنوب عدت لأدخل كلية التربية التي أنشأتها جامعة الملك عبد العزيز في

المدينة.

كنت أرغب في دراسة الطب، ولكن وجودنا في المدينة حال بيني وبين أن يواصل أبي تنفيذ هذه الرغبة، فأنا أعرف بأن أبي يرفض أن يترك مدينته ويعيش في جدة رغم أننا في بحبوحة من العيش وفرتها له تجارة عريضة ما لبث أن كبرت يوماً بعد يوم.

في كلية التربية درست العلوم وتفوقت فيها وأصبح من حقي بعد أن أتخرج أن أصبح معيدة في هذه الكلية، لكن أبي رفض هذا الكلام، وبدأ يلمح لي بأن هشام ابن أخيه يريدني كزوجة.

هشام هذا عاش أكثر سنواته في جدة بعد أن ترك عمي المدينة وانتقل للعمل فيها، ولهذا لم أره إلا لفترات قصيرة، طلبت من أبي إيضاحاً أكثر لتلميحاته، فقال وهو يضحك:

ـ ألا تودين دراسة الطب؟

قلت:

ـ نعم ومن كل قلبي، لكن الفرصة قد فاتت.

قال:

ـ لا لم تفت بعد أن تزفي إلى هشام ستسافرين برفقته إلى أمريكا، فهو كما عرفت من عمك يود أن يكمل دراسة الدكتوراه فيها، ولهذا يصبح من حقك الالتحاق بإحدى كليات الطب الأمريكية التي من شروطها أن يتم الطالب أو الطالبة دراسة البكالوريوس في العلوم وما شابهها.

نظرت إلى أبي وأنا ضاحكة:

ـ إذن فأنت لم تنسَ رغبتي، وبدأت تحيك المؤامرات لتصل إلى غايتك.

قال:

ـ لا.. لو لم يطلبك هشام مني فأنا لم أفكر في هذا الأمر، ولكنني وبعد أن ألح أكثر من مرة، قلت له رأيي فوافق على شرطي بأن تدرسي الطب وأنت زوجة له.

نظرت إلى وجه أبي بحب، وقلت له:

ـ لو لم تكن أنت أبي لرغبت أن أكون ابنتك.

ضحك أبي وقال:

ـ أو تعرفين بأن عمك وهشاماً وأمه سيزوروننا غداً، وسيبقون معنا أياماً عشرة، أريدك بعدها أن تقولي رأيك في الاقتران به.

خالط لون وجهي شيء من الشحوب، وعزوته إلى الخجل وعزاه أبي وجدتي هي الأخرى إلى أن الفتاة أي فتاة مقدمة على الزواج تخجل بلا شك من ذكر زواجها.

ربما لأننا ربينا على الخجل، وربما لأنها المرة الأولى التي كان يتحدث بها أبي إلي. خرج أبي من الغرفة، ومضيت أنا إلى مخدعي لأنظر في دفتر مذكراتي الذي أحتفظ به منذ كنت صغيرة وأخذت أقرأ كل ما كتبت بشيء من الصبر والهدوء.

عندما جاء هشام لرؤيتي تسبقه خطوات أبي وعمي، لم أكن مهيأة لهذا اللقاء، ربما لأنني لم أسأل حتى تلك اللحظة رغم كل أحاديث النفس التي تدور بيننا عما يمكن أن أسأل عنه، جاء أقصر مما أتصور.

واستمعت لحديث أبي وهو يقول:

ـ سنتناول العشاء الليلة على مائدتك يا سهى فهيا شمري عن ساعد الجد وأرنا ماذا سنأكل هذه الليلة.

ابتسمت وأنا أخالس النظر إلى وجه هشام الذي كان هو الآخر يخالسني النظرة، حتى إذا ما التقت العينان ابتسمت وابتسم هو وانتهى اللقاء.

على المائدة تحدث أبي في شتى الموضوعات، وكذلك عمي، وتحدث هشام عن رحلته لأمريكا، وعن زفافنا الذي سيتم بأسرع ما يمكن، ثم أدار وجهه نحوي وقال:

ـ أريد أن تكون أوراقك جميعها جاهزة حتى تستطيعي الالتحاق بكلية الطب.

عرفت ساعتها أن الأمر تم بين أبي وأخيه لكنني لم أنزعج فقد أصبحت أميل إلى هشام ابن عمي الذي التقيت به بعد العشاء..

تحدث هشام في صالون البيت بعد أن انسحب أبي وعمي ليشربا القهوة في المكتب، وعرفت ما يقصده هذان العجوزان وبدأت أتحدث في هدوء إلى هشام، وأتعرف على شخصيته وأسامره وخرجت من هذا الحديث بأنه سيكون بالنسبة لي خير زوج.

تم الزفاف بأسرع مما كنت أتصور، وكانت ليلة جميلة أمضيناها في فندق الشيراتون، ثم سافرت إلى جدة بعد أن ودعت أبي وأوصيت جدتي بأن لا تترك له الفرصة، فلربما يعملها في غيابي ويتزوج..

ابتسم أبي، وابتسم كل من كان في الغرفة.. لكن هشاماً لم يبتسم بل قال:

ـ ولماذا لا يفعلها عمي ما دمت أنت قد تزوجت يا سهى؟

قلت بعصبية:

ـ لا.. يكفي أبي أن يعيش لنا.. وعندما يتزوج فستأتي من تحتل قلبه مكاني.

فأجاب هشام بتؤدة:

ـ لا.. يا سهى.. سيظل مكانك في قلب عمي في الصدارة فلا تخافي.

وتابع قوله:

ـ أو لا يكفيك اليوم قلبان يحبانك ويخافان عليك؟

ـ قلب من قلب الآخر؟

وأنا أعرف ماذا سيقول..

قال لي:

ـ قلبي أنا.. وضحك.

أذكر كل هذا الحديث بتفاصيله.. وأنا أعيش في جامعة ميتشجان التي أصبحت بالنسبة لي البيت الثالث.. فهذه القرية التي تضم الجامعة عزيزة علي عشت سنواتي الخمس فيها مع زوجي وولدي.

أبي زارنا أكثر من مرة. وفي كل مرة كان هناك حديث خافت بين هشام

وأبي لا أعرف كنهه، حتى ذلك اليوم الذي تسلمت فيه رسالة أبي.

كانت الرسالة أطول من المعتاد.. ولقد قرأت بين سطورها حديثاً يود أبي أن يقوله لكنه خائف..

خلف الرسالة كانت هناك فقرة تقول بأن مفاجأة لي سيجلبها معه أبي.

سألت هشاماً عنها فلم يقل شيئاً وأنا واثقة أنه يعرف المفاجأة وقلبي يخدثني بذلك. وجاء أبي وكانت المفاجأة في مطار ديترويت.. كانت برفقته سلوى الفتاة التي كان أبي يعطف عليها وعلى أمها بعد وفاة أبيها. لم أقل شيئاً وتركت عقلي يفكر كثيراً.. ونحن في طريقنا إلى البيت نظرت إلى يد سلوى فرأيت الدبلة الماسية تشير إلى أنها متزوجة.. أما يد أبي فلم تكن تحمل أي دبلة استطيع من خلالها أن أعرف الحقيقة وإن كان قلبي يؤكد أنها زوجته.

وتصارعت في نفسي شتى الأحاسيس بعضها يرفض أن يصدق وبعضها يقول بأن من حقه أن يتزوج، ولكن ليست هذه الفتاة الصغيرة التي تكبرني بسنوات.. ففي طريقنا إلى البيت صمت الجميع بينما تساءل أبي عن أسباب مشاغلي عن تحيته بالأسلوب الذي تعود فهمهمت وادعيت شيئاً من المرض.. فرأيت الانشغال في وجه أبي وهو يسأل منذ متى وعن السبب؟

قال هشام وهو يضحك:

ـ لا عليك يا عماه فهي كما تعرف حامل والحامل ينتابها شيء من الأحاسيس.

نظر أبي إلى وجهي وهو يحملق فأحسست بأن نظرات وجهه لي هي هي لم تتغير.

في البيت داعب أبي ولدي ثم أخذني إلى مكان آخر وقال لي كل شيء. قال بأنه تزوج منذ ثلاث سنوات، وأن زوجته قد منحته طفلاً رائعاً أسماه وليداً.. وأن وأن..

لم أقل شيئاً وإنما انتابتني غيبوبة صغيرة أحسست بعدها وأنا في سريري ومن حولي أبي وزوجي. وعندما أفقت تحدث أبي كثيراً عن الفراغ الذي أحسه بعد سفري وقال أيضاً بأنه لم يكن يفكر بأن يتزوج سلوى لو لم تمت أمها

وتتركها بلا عائل لدرجة جعلته أتى بها إلى بيته لتعيش مع جدتي فترة من الوقت طلبت خلاله جدتي أن يقترن بها.

لكنه لم يوافق إلا بعد أن قالت له جدتي بأن سلوى لا تمانع في إتمام الزواج.. وقال أيضاً بأنه طلب من الجميع إخفاء الأمر عني حتى أنتهي من دراستي، ويوم عرف قرب نيلي شهادة الطب تفاهم مع هشام على الطريقة التي يمكن بها أن يفهمني كل شيء ولهذا جاء وجاءت معه سلوى.

في تلك اللحظة دخلت سلوى الغرفة لتسأل عن صحتي فقلت لها وأنا أبتسم:

ـ سلوى تعالي لجانبي..

قبلت سلوى مهنئة.. وقلت لها وأبي يبتسم:

ـ ألا ترينني صورة أخي الذي جاء دون أن أدري؟

أرتني سلوى الصورة فرأيت وجهه يماثل وجه ابني لدرجة عجيبة.. سألتها:

ـ لماذا لم تأتي به معك؟

قالت وهي تخفي ابتسامتها:

ـ لست أنا السبب وإنما جدتك التي أصرت على أنني إذا رغبت في السفر مع أبيك لرؤيتك فسيبقى معها أخوك.

استجمعت قوتي وقمت من سريري وألقيت بذراعي حولها وأبي وزوجي بجانبي ينظران إلي بحب خلته لا ينتهي إلى الأبد.



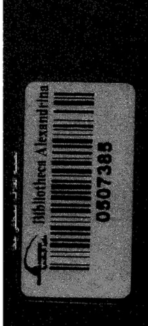
فهرس محتويات المجلد الأول

فهرس محتويات المجلد الثاني

فهرس محتويات المجلد الثالث






Bibliotheca Alexandrina
05073885

